

الكافي

الاصول والروضة

رسالة الاسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكميني

شرح جامع

للمولى محمد صالح المازندراني

المترقى ١٠٨١ هـ ١٠٨٢ هـ

مع تعالين علي، للعالم المستقر

الحاج الميرزا أبو الحسن الشيرازي دام ظلّه

من مشروبات

المكتب الإسلامي

طهران شارع بوذرجمهری

ملف ٥٢١٩٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك يا مروج عقول العادفين بمظاهر كمالك ليلاً و نهاراً ، و نشكر
يا مفرّج قلوب السالكين بظواهر جلالك سرّاً و جهاداً ، و نشهد أن لا إله إلا أنت
شهادة توجب لنا في مقام قربك مستقراً و قراراً . ونصلي على سيد أنبيائك وأشرف
أوليائك صلاة دائمة مادامت الأرض ساكنة والفلك دوّاراً (١).

و بعد فيقول المفتقر إلى رحمة ربه الغني حسام الدين محمد صالح بن أحمد
المازندراني : إنني قد رسمت على جميع أبواب الكافي تعليقات ، و رقمت على جميع
فنونه تحقيقات ، مع قلة البضاعة في هذه الصناعة و تشتت البال و تفرّق الحال
فلما أردت جمعها و تدوينها خطر ببالي أن أشرح جميع أحاديث هذا الكتاب شرحاً
متوسطاً بين الإيجاز والاطناب لأنّ الأحاديث و إن كان بعضها ظاهر الدلالة على
المعنى المراد واضح الإشارة على المفهوم المستفاد ، لكن قد يوجد فيه من الفرائد
النفسية والفوائد الشريفة ما لا يدركه بدء النظر ، ولا يبلغه أوّل الفكر ، كم من
لثالي فريدة تؤخذ في الساحل لغفلة الواردين عنها ، و عدم التفات الطالبين إليها ،
فها أنا أشرح في المقصود بعون الله الملك المعبود مبتدئاً بشرح الخطبة لعافيتها من
منافع الحكمة .

(١) هذا على اعتقاد أن الأرض ساكنة وعليه جل القدماء ، لكن في عصرنا هذا
لا نعرف من جزم بسكون الأرض بل أثبتوا لها حركة معنوية تدور حول نفسها ، تحدث
منها الليل والنهار تسمى بالحركة الوضعية ، و حركة انتقالية تدور حول مركز الشمس
تجمل منها الفصول الأربعة .

((الأصل)):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله المحمود ولنعمته ، المعبود لقدرته ، المطاع في سلطانه ، المرغوب ،
 « لجلاله ، المرغوب إليه فيما عنده ، النافذ أمره في جميع خلقه . علا فاستعلى ،
 « ودنا فتعالى ، وارتفع فوق كل منظر ، الذي لا بدء لأوليته ، ولا غاية لأزليته »
 « القائم قبل الأشياء ، والدائم الذي به قوامها ، والقاهر الذي لا يؤوده حفظها ،
 « والقادر الذي بعظمته تفرّد بالملكوت ، وبقدرته توحد بالجبروت ، وبحكمته ،
 « أظهر حججه على خلقه ، اخترع الأشياء إنشاء ، وابتدعها ابتداء (١) بقدرته ،
 « وحكمته لا من شيء فيبطل الاختراع ، ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداء ، خلق ما شاء ،
 « كيف شاء متوحداً بذلك لاظهار حكمته ، وحقيقة ربوبيته ، لا تضبطه العقول ،
 « ولا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأبصار ، ولا يحيط به مقدار ، عجزت دونه العبارة ،
 « وكلفت دونه الأبصار ، وضل فيه تصاريف الصفات احتجب بغير حجاب محجوب ،
 « واستتر بغير ستر مستور ، عرف بغير روية ، ووصف بغير صورة ، ونعت بغير ،
 « جسم ، لا إله إلا الله الكبير المتعال . »

((الشرح)):

إبتدأ باسمه الجميد مقتدياً بالسلف و بالقرآن المجيد و معتمداً بما قاله
 سيد البشر « كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر » و في ذكر الاسم إيماء
 إلى أن المراد بهذه الأسماء الشريعة المسميات و أن الاستعانة في الاستفاضة
 وقعت بأسمائها ، لأن لتلك الأسماء من الشرف والكمال ما لا يعرف قدره

(١) كنا في جميع النسخ و سيأتي في باب النهي عن الجسم و الصورة من كتاب
 التوحيد تحت رقم ٣ عن أبي الحسن الرضا «ع» هذه الجملة الى قوله « الكبير المتعال »
 و فيه هكذا « فاطر الاشياء انشاء و مبتدعها ابتداءً » بالعين المهملة .

الغواصون في بحار آثارها والوصافون بشرح منافعها وأسرارها، على أن الاستعانة بالاسم تدل على الاستعانة بالمسمى قطعاً دون العكس، وإنما خص هذه الأسماء بالذكر لأنها أصل لأصول الفيض عاجلاً وآجلاً. ومبدئاً بحصول الرجاء ظاهراً وباطناً.

(الحمد لله) اختلفوا في تحديد الحمد والأحسن ما ذهب إليه بعض المحققين من الصوفية وما ذهب إليه المحقق الشريف العلامة الدواني، وهو أن الحمد إظهار صفات الكمال بالقول أو بالفعل، والثاني أقوى من الأول لأن الأفعال التي هي آثار السخاوة مثلاً تدل عليها دلالة عقلية قطعية لا يتصور فيها التخلف بخلاف الأقوال فإن دلالتها عليها وضعية وقد يتخلف عنها مدلولها، وعلى هذا كان حمده تعالى على ذاته حمداً على سبيل الحقيقة، بل هو من أفضل أفراده لأنه تعالى كشف عن صفات كماله ببسط بساط الوجود على إمكانات لا تحصى، ووضع عليها موائد كرمه التي لا تنهاى، إذ كل ذرة من ذرات الوجود تدل عليها، ولا يتصور في العبارات مثل هذه الدلالات. وما اشتهر من أن الحمد في اللغة الثناء باللسان على الجميل، وفي العرف أعم منه ومن عقد الجنان وفعل الأركان، فهو باعتبار أن هذه الأمور من الأفراد الشائعة لذلك المفهوم لا أن الحمد مختص بها كما فهمه الأكثر وحكموا بأن حمده تعالى على ذاته مجاز. واللام في الحمد، للجنس أو الاستغراق وفي «الله» للاختصاص يعني أن جنس الحمد أو جميع أفراده مختص به سبحانه وبينهما تلازم، وصح ذلك لأنه تعالى مبدئ كل كمال ومرجع كل جلال.

(المحمود بنعمته) للحمد أركان أربعة: الحامد، والمحمود، والمحمود به والمحمود عليه. والأولان قد يتحدان بالذات كحمده تعالى على ذاته، وقد يتغايران كحمدنا له تعالى، وكذا الأخيران كحمده تعالى بالنعمة لأجلها. وحمده بالعلم لأجل إنعامه. إذا عرفت هذا فنقول: النعمة في قوله: «بنعمته»، إما محمود عليها إن كانت الباء سبباً للحمد، أو محمود بها إن كانت صلة له، ولا يلزم

من الحمد بها أن يكون الحمد لأجلها لجواز أن يكون لأجل غيرها ، كما إذا حمدت زيدا بالشجاعة لأجل سخاوته . و في بعض النسخ « لنعمته » باللام و هو يؤيد الأول كما يؤيده نظيره في القرينة الثالثة . لا يقال لا يصح جعل الحمد للمنعمة علّة للحمد على ما يقتضيه قاعده التعليق بالوصف لأنّه من باب تعليل الشيء بنفسه لأنّا نقول : على تقدير الطراد تلك القاعدة الحمد لأجل النعمة بمنزلة العلّة الغائية لجنس الحمد فيصح أن يجعل علّة له وإنّما ابتدأ بعد التسمية بالحمد لحفظ ما أدرك من آلائه ، و جلب ما ينرقب من نعمائه ، مع أنّه من أفضل الطاعات وأكمل العبادات إذا الحمد يلاحظ جماله وجلاله ويراعي إحسانه وإفضاله فيكون ذلك سبباً لمزيد امتنانه حالاً ورضوانه مآلاً .

(المعبود لقدرته) قدّم الحمد للمنعمة على الحمد للقدرّة مع أن القدرة من الصفات الذاتية التي هي أجدر بالثناء عليها لأن النعمة قد وصلت إلى الحامد بخلاف القدرة فإن الواصل إليه إنّما هو أثرها ، فالنعمة أولى بالحمد لها بهذا الاعتبار ولقد أحسن في جعل النعمة سبباً لمحموديته والقدرة سبباً لمعبوديته ، لأن نعمته الواصلة إلى الغير توجب الحمد من حيث هو وقدرته على جميع الممكنات توجب العبادة والتدليل لله تعالى .

(المطاع في سلطانه) السلطان النسلط والقهر أو الحجّة و البرهان و قد فسّر بهما قوله تعالى : « فقد جعلنا لوليّه سلطاناً » والله سبحانه مطاع بالمعنيين لكونه قاهراً على جميع الممكنات فيطيعه كل ما كان في عنقه ربة إلا مكان و ينقاد له كل من احتجب عن الحسن أو يشار إليه بالبنان ، لا يقدر شيء أن يتجاوز عن حدّه المقدّر و كماله المقرّ ريباً الأمر المبرم والقضاء المحكم ، و غالباً على جميع المخلوقات بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة فلا يمكن أحد أن يردّ حجّته و برهانه و يمنع دليله و فرقانه ، و لفظ « في » إمّا المظرفيّة أو المسببيّة والثاني أولى بالنظر إلى السابق واللاحق ، و استعمالها فيه شائع حتى قيل : إنّها حقيقة فيه .

(المرهوب لجلاله) قال في المغرب رهبة : خافه رهبة ، والله مرهوب ، ومنه

« لبيك مرهوب ومرغوب إليك » ويفهم منه أن مرهوباً متعدّ بنفسه ، والذي يفهم من كلام ابن الأثير في النهاية أنه متعدّ بمن ، وعلى هذا حذف «من» للاقتصار كما هو المتعارف ، واللام للتعليل لأن من عرف عظمته وجلاله ولاحظ غناه عن الخلق وكماله و علم أن كل موجود بأسره مقهور تحت حكمه وأمره ، وهو يتصرف فيه ما يشاء كيف يشاء ، ويحكم ما يريد كيف يريد ، ولا يسئل ، حصلت له بذلك رهبة و خوف يتحير فيه العقول حيث رأى نفسه عارضة عن الاختيار في الرد والقبول كما هو المعروف من أحوال الأنبياء والصلحاء و به يظهر سرّ قول تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

(المرغوب إليه فيما عنده) من النعم الدنيوية والأخروية جليتها وخفيّتها يقال : رغب فيه وإليه إذا أرادته وطمع فيه وحرص عليه . والرغبة السؤال والطلب ، وإنما عقب بالرهبة الرغبة للتنبيه على وجوب مقارنتهما في التحقيق ، إذ لا خير في رهبة بلا رغبة ، ولا في رغبة بالرهبة ، بل وجب تقارنهما وتساويهما كما دلّ عليه بعض الأخبار و يرشد إليه قوله تعالى في وصف الأنبياء والأولياء « إِنَّهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنا رَغْباً وَ رَهْباً وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » و قوله تعالى : « وَ أَدْعَوْهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » و إنما ترك سبب الرغبة للإشارة إلى أن ذاته بذاته هو الجواد المطلق ، فلا حاجة في بسط الرجاء إلى ملاحظة شيء آخر غير ذاته أولاً لندراج سببها تحت سبب الرهبة لأن جلالة المطلقة كما يكون بالقهر والغلبة على ما عدها ممتنع اتّصف بسمة الامكان كذلك يكون بالرحمة واللفظ والاحسان إذ لولا الثاني لكانت عظمتها وجلالته مقبضة بوجه من الوجوه فحيث تقول من ملاحظة الأول تحصل الرهبة و من ملاحظة الثاني تحصل الرغبة ، ولا يجوز ملاحظة أحدهما وحده ، لأنّه يستلزم القنوط أو الجرأة و كلاهما مذموم ، أو تقول في كل واحد من الأول والثاني تحصل الرهبة والرغبة جميعاً أمّا في الأول فلا لأن لطفه مستور في قهره فمن حيث القهر تحصل الرهبة و من حيث اللطف تحصل الرغبة ، و إليه يشير قوله تعالى : « وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُنا » و أمّا في الثاني

فلان قهره مستور في لطفه وإحسانه لاحتمال أن يكون ذلك على سبيل الاستدراج وإليه يشير قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: «ليبلوني، أشكر أم أكفر» وقوله تعالى: «ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» وبالجملة هو مرهوب ومرغوب إليه دائماً، والعبد راغب وراغب في جميع الأحوال وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام «هو المأمول مع النقم والمرهوب مع النعم» (١).
(النافذ أمره في جميع خلقه) أي أمر التكوين، أو أمر الإفناء والاعدام، أو حكم القضاء، أو أمر التشريع بإرادة لازمة من الثواب والعقاب دون ظاهره بأذنه متعلق بالثقلين منهم من أطاعه ومنهم من عصاه.

(علا فاستعلى) الاستعلاء هنا لزيادة المبالغة أي علا في رتبته عن رتبة المخلوقين، فاستعلى عن التشبيه بصفاتهم، والتفريع ظاهر لأن الأول مستلزم للثاني، وإن أردت زيادة توضيح فتقول: العلو يطلق بالاشتراك على معان ثلاثة: الأول الحسني كالعلو بحسب المكان. الثاني التخيلي كعلو الملك على رعيته. والثالث العقلي كعلو السبب على المسبب، والأول محال في حقه تعالى لاستحالة كونه في المكان، وكذا الثاني لنزاهه عن الكمالات الخيالية إذ هي إضافية تتغير وتندرك بحسب الأشخاص والأوقات، ولا شيء من كماله كذلك فبقي أن يكون عقلياً مطلقاً بمعنى أنه لارتبة تساوي رتبته، ببيان ذلك: أن أعلى مراتب الكمال العقلي هو مرتبة العلية ولما كان ذاته المقدمة هي مبدأ كل موجود حسني وعقلي وعلمته التي لا يتصور فيها التقصان بوجه من الوجوه لا جرم كانت مرتبته أعلى المراتب العقلية على الإطلاق وله العلو في الوجود العاري عن الإضافة إلى شيء، وعن إمكان أن يكون في مرتبته أو فوق مرتبته شيء ومن كان كذلك فهو منزّه عن التشبيه بصفات خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) هذا الكلام مروي عنه «ع» في كتاب نهج البلاغة في خطبة له «ع» نعمت

رقم ٦٢ أوله «الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالاً» وفيه هكذا «المأمول مع النقم والمرجو من النعم».

(دنا فتعالى) أي قرب من كل شيء من كل وجه بحيث لا يكون شيء أقرب منه فتعالى أن يكون في مكان أو زمان أو مدركاً بالبصر أو غيره من الحواس ، والتفريع أيضاً ظاهر لأن الزماني والمكاني والمدرك بالحواس يمنع أن يكون قريباً من كل شيء لظهور أن قربه من أحد مستلزم لبعده عن الآخر ، ثم الدنو يطلق على معان ثلاثة ومقابلة لمعاني العلو ولا يجوز أن يراد هنا شيء منها ، و يطلق على معنى رابع في مثل قولك فلان أدنى إلى فلان إذا كان مطلقاً على أحواله أكثر من غيره وهو المراد هنا ، فدنوّه في قربه إذن بحسب علمه الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو أدنى من كل دان ، و أقرب من كل قريب بهذا الاعتبار ، كما قال سبحانه : « و نحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

(و ارتفع فوق كل منظر) الطرف حال من فاعل « ارتفع » . و يجوز أن يراد بالمنظر العلة لأن نظر المعلول إليها يعني أنه فوق كل علة لأن إليه نظر جميع الكائنات وانتهاء سلسلة جميع الممكنات ، وأن يراد به المدرك بالعقل يعني أنه فوق كل ما أدرك العقل لأن كل ما أدركه العقل فهو صورة ومثال يمتنع أن يقال : إنه هو ، و يحتمل أن يكون هذا الكلام على سبيل التمثيل والله أعلم .

(لا بد ، لا وليته) لاستحالة الحدوث عليه . (ولا غاية لأزليته) لاستحالة العدم عليه . (القائم قبل الأشياء) أي قبل كل واحد منها لأنه كان وام يكن معه شيء ، ثم أحدثه بمجرد حكمته فهو متفرد بالقدم ، وفيه رد على بعض الفلاسفة ، وليس المراد بالقبليّة القبليّة الزمانيّة حتى يلزم أن يكون في زمان وأن لا يكون متقدماً عليه ، لأن القبليّة الزمانيّة إنهما يكون في الزمانيّات كما بين في موضعه والله سبحانه ليس بزمني .

(والدائم الذي به قوام الشيء - بالكسر - : نظامه ، وتقديم الطرف للمحصر ؛ وفيه رد على من أسند نظام هذا العالم إلى غيره كالدّهريّة والمبتدعة من

الفلاسفة وأضرابهم .

(والقاهر الذي لا يؤوده حفظها) آدني الحمل يؤودني أوداً ، أي أثقلني ، وأنا مؤود مثال مقول . يعني لا يثقله ولا يتعبه حفظه للأشياء مثل السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما لأن فعله سبحانه بمجرد الإرادة والمشئنة ولا يحتاج فيه إلى استعمال الآلات وتحريك الجوارح كما يحتاج إليهما أصحاب الصنایع فلا مدافع له في فعله أصلاً فلا يلحقه الانفعال ، ولا يعرض له النقل والتعب والكلال . تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(والقادر الذي بعظمته تفرّد بالملكوت ، وبقدرته توحد بالجبوت) القادر من أسمائه تعالى ومعناه المتمكن من جميع الأشياء بحيث لا تطيق شيء منها الامتناع عن مراده ولا يستطيع الإباء عن إصداره وإيراده وله في هذا النحو من التمكّن وصفان: الأول الكبرياء والعظمة ، والثاني القدرة التامة ، وه الملكوت فعلوت من الملك - بالكسر - وهو الموضع كالمملكة وخصّ بعد الزيادة بملك الله تعالى سواء كان من عالم المجردات والمفارقات أو من عالم الجسمانيات والمقارنات ، ولو اجتمع الملك والملكوت كما في قولهم « ياد الملك والملكوت » يراد بالملك الجسمانيات وبالملكوت المجردات . « والجبوت » من الجبر وهو إعناء رجل من فقر ونحوه أو إصلاح عظمه من كسر ونحوه ، ومنه الجبار من أسمائه تعالى لأنه يغني من يشاء متى يشاء ويجبر مفاقر الخلق ويكفيهم أسباب المعاش والرزق و يصلح نقائص حقائق الممكنات بإفاضة الوجود وما يتبعه من الخيرات والكمالات وهو أيضاً خصّ بعد الزيادة بالله سبحانه . والمقصود أنه تعالى شأنه بالوصف الأول تفرّد بما لكه جميع الأشياء من الممكنات المجردة والمادية لأن العظمة المطلقة مقتضية لعدم المشاركة ، وأما المالك غيره فأنما هو مالك بالإضافة وله عظمة بالإضافة ، وهي عند ذاتها بذاتها ليست عظمة بل هي عجز وقصور والوصف الثاني تفرّد بإيجاد الممكنات وإصلاحها وتكميلها بإفاضة ما يليق بها من الكمالات وإفنائها متى يشاء ، من غير معارض ولا مدافع لأن القدرة الكاملة الإلهية توجب

عدم مشاركة الغير معه في شيء من ذلك فكل شيء مملوك له متقاد لامره ، وكل كامل مستكمل به مفتقر إليه ، وهو الغني الحميد .

(و بحكمته أظهر حججه على خلقه) الحكمة العلم والاتقان ؛ والله سبحانه حكيم لأنه عالم بحقائق الأشياء متقن بخلقها بلطف التدبير وحسن التصوير والتقدير . و « الحجج » جمع الحجة والمراد بها هنا البرهان ، يعني أنه سبحانه بحكمته البالغة أظهر براهين وجوده و وحدته و قدرته وسائر كماله على خلقه بإيجاد الممكنات وتصوير المخلوقات على النظام المشاهد ، ويحتمل أن يراد بإظهار الحجج نصب الأنبياء والأوصياء إلا أنه يوجب التكرار فيما سيأتي .

(اخترع الأشياء إنشاءً وابتدعها ابتداءً بقدرته وحكمته) لأجدل أهل اللغة فرقاً بين الاختراع والابتداء . قال الجوهري : « ابتدعت الشيء اخترعته لا على مثال » ولا بين الإنشاء والابتداء قال : « أنشأ يفعل كذا ابتداءً » لكن الظاهر من كلام المصنف أن الاختراع هو الإيجاد لأمّن شيء والابتداء هو الإيجاد لا من علّة كما ستعرفه . وقيل : الإنشاء هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إلى إيجاد مثله ، والابتداء هو الإيجاد الذي لم يوجد الموجد قبله مثله . وقوله : « إنشاء » و « ابتداء » مفعول مطلق من باب جلست قعوداً لنا كيد الفعلين . أو تمييز لنسبتهما إليه ، وقوله : « بقدرته وحكمته » متعلق بالفعلين على الترتيب المذكور أو بكل واحد منهما .

(لأمّن شيء فيبطل الاختراع) يعني اخترع الأشياء بقدرته لاعن أصل ومثال ، إذ لو أوجدها عن مثال لبطل الاختراع لأنه في إيجاد ذلك المثال يحتاج إلى مثال آخر وهكذا ، وبطلان الاختراع يستلزم عدم القدرة على وجه الكمال كما يشاهد في الكاتب المحتاج في كتابته إلى أصل منتسخ فانه بدون ذلك الأصل عاجز عن الكتابة .

(ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداء) يعني ابتدع الأشياء لالعلّة ماديّة أولاً لعلّة فاعليّة متوسطة بينه وبينها وإلا لبطل معنى الابتداء ، لأننا نقل الكلام إليهما .

فينسلسل ، أولاً لعلّة غائية تعود إليه وإلّا لكان ناقصاً في ذاته وصفاته والناقص لا يبتدع شيئاً من غير حاجة إلى شيء أصلاً . وقيل : لالعلّة غائية (١) ، ويكون هذا إشارة إلى نفي الغرض والعلّة الغائية عن فعله تعالى بالكلية كما ذهب إليه طائفة وإلّا لكان ناقصاً في فاعليته مستكملاً فيها بذلك الغرض والناقص لا يصلح للاختراع ، أمّا الشرطيّة فلأنّ الغرض يجب أن يكون أصلح للفاعل من عدمه إذ ما استوى وجوده وعدمه بالنظر إليه أو كان عدمه راجحاً لا يكون باعثاً على الفعل بالضرورة ، فكلّ ما كان غرضاً وجب أن يكون وجوده أصلح للفاعل وأليق به وهو معنى الكمال ، فإذن يكون الفاعل مستكملاً به ناقصاً بدوره .

أقول : الغرض عائد إلى الغير ووجوده وعدمه سواء بالنظر إليه سبحانه لتنزّهه عن عود المنفعة أو المضرّة إليه ، وعدم كونه حيثّذاً باعثاً على الفعل ممنوع ، ودعوى الضرورة في محلّ النزاع لا يجدي نقماً ، والمسألة محلّها علم الكلام .
(خلق ما شاء كيف شاء) يعني أنّه خلق الأشياء على الوزن والتقدير والأحوال اللائقة بها لمشيئته وإرادته ، لا بالإيجاب ، ولا بتحصّرك الآلة والجوارح ، ولا بتوسط اللفظ والصوت لأنّ ذلك من خواصّ الجسم والجسمانيات .

(متوحّداً بذلك) بالنصب على أنّه حال من فاعل خلق ، يعني خلق ما شاء حال كونه متوحّداً بالذات والصفات بخلقه وإيجاده ، غير مستعين أصلاً لا بذات آخر ولا بصفات زائدة عليه وإلّا لكان ناقصاً لاحتياجه في الإيجاد إلى الغير .

(لإظهار حكمته وحقائقه ربوبيّته) يعني خلق ما شاء على النظام العجيب والصنع الغريب الذي يتجسّر فيه عقول العقلاء ، وفحول العلماء لإظهار علمه وحكمته وحقائقه ربوبيّته التي كانت في مكن الخفاء كما قال : « كنت كنزاً مخفياً »

(١) لا يعني أنّ الغرض في اصطلاح الحكماء شيء ، والعلّة الغائية شيء آخر وانهم نفوا الغرض في فعله تعالى ولم ينفوا العلّة الغائية والشارح رحمه الله خلط بينهما وزعم أنهما واحد وما يأتى من قوله « خلق ما شاء كيف شاء متوحّداً » بذلك لإظهار حكمته وحقائقه ربوبيّته يدل على أنّ غايته في فعله إظهار الحكمة فلا يناسبه نفي العلّة الغائية هنا مطلقاً ، فإنّ كمال ذاته غاية لأفعاله تعالى .

فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف (١).

(لا تضبطه العقول) أي لا تضبط شرح حقيقة ذاته ولأماله من كمال صفاته عقول العارفين ، لأنّه تعالى في علو الذات وارتفاع الصفات إلى حيث يقف دون بلوغه عقول أهل العرفان و أذهان أهل الايقان ؛ وإنما يعرفونه بنحو خاص من المعرفة اليقينية التي هي غاية الوسع للعقول البشرية ، ولأنّه لا أحد لحقيقته لأنّه بريء عن أنحاء التركيب الخارجية والعقلية فهي منزّهة (٢) عن اطلاع العقول عليها ، ولأنهاية لصفاته يقف عندها تقدّر بها ، فلا يكون العقول محيطة ضابطة إيّاها . (ولا تبلغه إلا وهام) لأنّه تعالى ليس بمحسوس والوهم لا ينال إلا المحسوسات . (ولا تدركه إلا بصار) لأن البصر إنّما يدرك اللون والضوء ، وما تتبعها من الجسمانيات والله سبحانه منزّه عن الجسميّة ولواحقها .

(ولا يحيط به مقدار) لأن المقدار من لواحق الجسميّة وأيضاً ما يقبله يقبل التحيز والقسمه والزّيادة والنقصان ولا يجري شيء من ذلك عليه سبحانه . (عجزت دونه العبادة ، وكذّت دونه الأبصار) « دون » ظرف تقيض « فوق » وهو يقصر عن الغاية ، والكلال الأعيا . يقال : كذّت العين إذا أعيت عن الإدراك و عجزت عنه ، و « الأبصار » بالفتح جمع البصر يعني عجزت قبل بلوغ صفاته عبارة الواصفين ، وأعيت قبل بلوغ ذاته أبصار الناظرين ، كما أشار إليهما في الصحيفة السجّادية على صاحبها أفضل الصلوات وأكمل التحيّات « الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين ، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين » .

(و ضلّ فيه تصاريف الصفات) ضلّ الشيء يضلّ : ضاع ، و الضلال ضدّ الرّشاد ، والمعنى ضلّ في طريق صفاته الحقّة تصاريف صفات الواصفين ، و أنحاء تعبيرات العارفين ، يعني أنّهم وإن بالغوا في التوصيف (٣) و انتقلوا من صفة إلى (١) هذا بناهني ماسبق من كون أفعاله تعالى غير معللة بالعلة النامية مطلقاً و كونها

معللة باغراض تعود إلى الغير كمالات ينفى .

(٢) الضمير راجع إلى « حقيقة » .

(٣) لم يجيء في اللغة وصفه من باب التفعيل . والظاهر أنه غلط مشهور .

ما هو أشرف وأعظم عندهم ، لم يصفوه بما هو وصفه ، ولم ينعته بما هو حقه ، ولم ينالوا حقيقة صفاته على وجه يليق بذاته. وذلك لأن تصارييف الصفات والنقل من بعضها إلى بعض إنما هو من خواص الممكنات التي يتصور فيها الزيادة والنقصان والله سبحانه منزّه عنها . وأيضاً لسان التعبير إنما يخبر عما في الضمير ، وكل ما هو في الضمير مخلوق مثله كما دل عليه قوله : « كلما ميّزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مصنوع مثلكم مردود إليكم » ، وقال بعض العارفين :

هر چه پیش تو پیش از آن ره نیست غایت و هم تو است الله نیست

لا يقال : إذا كان الأمر كذلك لم يكن ثناؤه مقدوراً لنا فكيف وقع التكليف به ؟ لأننا نقول : لم يقع التكليف بمعرفة كنه الصفات الكمالية والثناء بها لأن ذلك محال بل التكليف إنما وقع بالثناء عليها بمفهومات كلبية حاصلة في الذهن صادقة عليها ، فتلص الصفات الكمالية إنما هي معقولة بعنوانات هي مفهوماتها و معبر عنها بهذه المفهومات والعنوانات لا بالكنه ، وإدراكها بالكنه مختص به سبحانه . ولذلك قال عليه السلام : « لا أحصي ثناء عليك أذنت كما أثبتت على نفسك (١) » ، أو المعنى ضل في الوصول إلى منتهى بساط ثنائه وإحصائه أقدام تصارييف صفات الواصفين لأنها كلما بلغت مرتبة من مراتب المدح والتكريم كان وراءها أطوار من استحقاق الثناء والتعظيم . وانطباق الحديث المذكور عليه ظاهر .

(احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور) أي احتجب عن العقول واستتر عن الأبصار والاحتجب لغة : المنع ، ومنه حاجب العين لأنه يمنعها من الأذى ، وحاجب الملك لأنه يمنع من الناس والخلق ممنوعون من إدراك ذاته سبحانه عيناً وعقلاً ، ويسمى ذلك المنع حجاباً وسترأ ، ثم الحجاب والستر بهذا المعنى ليسا وصفين لأمر حائل بين العقول والأبصار وبين ذات الباري لأن ذلك الحائل إما حسّي كالأجسام الحائلة بين الرائي والمرئي أو عقلي كالعوائق الواسطة بين الصور العقلية والعقول ، والاحتجب الحسية إنما تحجب الجسم و

الجسمانيات المحدودة المستترة بها ، والحجب العقلية إنما تحجب الصور ؛ والله تعالى شأنه ليس بجسم ولا جسماني ولا صورة ، و إلى نفي هذين النوعين من الحجاب أشار بقوله « بغير حجاب محجوب » ، و « بغير ستر مستور » لدفع توهم أن الاحتجاب والاستتار هنا كما في أكثر الموجودات بالحجاب والساتر ، وهذا التركيب يحتمل وجهين : الأول أن يكون « محجوب » خبر مبتدأ محذوف والجار والمجرور متعلق به أي هو محجوب بغير حجاب بالمعنى المتعارف في أكثر الموجودات ، والجملة مستأنفة لدفع ذلك التوهم الناشئ من قوله : « احتجب » . الثاني أن يكون مضافاً إليه والاضافة بتقدير اللام والتقي راجع إلى الحجاب والمقصود أن حجابها ليس بالمعنى المتعارف بل لتعالیه عن إدراك القوة البشرية إيّاه وهذا الاحتمال بعيد جداً ، ويخطر بالبال أيضاً معنى آخر لهذا الكلام وظني أنه أولى بالارادة منه و هو أنه لما قال : « احتجب » توهم منه أن حجابها غليظ تخين كثيف مانع من إدراك وجوده وصفاته تعالى شأنه بالكلفة فدفع ذلك التوهم بقوله : « بغير حجاب محجوب » صفة للحجاب والمقصود أن احتجابها ليس بحجاب محجوب بحجاب آخر بأن يكون غليظاً أو يكون بعضه فوق بعض آخر مانعاً من مشاهدته نظير ذلك قوله تعالى : « حجاباً مستوراً » قال الجوهري في تفسيره أي حجاباً على حجاب ، والأول مستور بالثاني يراد بذلك كثافة الحجاب . وهذا المعنى رقمته في سالف الزمان و رأيت الآن حين التحرير أنه سبقتني إليه سيّد الحكماء الإلهيين (١) حيث قال : هذا من باب « حجاباً مستوراً » أي حجاباً على حجاب .

(عرف بغير رويّة) « عرف » مبني للمفعول ، الرّويّة - بفتح الراء و كسر الواو و شدّ الياء - التفكير والنظر يعني عرف وجوده من غير نظر و استدلال لأنّه بديهي كما صرح به بعض المحققين ، أو لأنّ الاستدلال لا يفيد معرفته بخصوصه لأنّ اللمسي غير ممكن ، أو ليس له علّة والإنتي لا يفيد لأنّه استدلال من الأثر و الأثر لا يفيد إلاّ مؤثراً ما على وجه كلي لا مؤثراً معيّناً ، فمعرفته بالحقيقة ليست إلاّ

بالمشاهدة الحضورية كما هي لبعض الكاملين . وفي بعض النسخ « رؤية » بضم
الراء والهمزة الساكنة يعني عرف بغير إبطار كما قال سبحانه : « لا تدركه الأبصار »
وهو تأكيد للسابق .

(ووصف بغير صورة) أي وصف بغير صفة فأنه وصف بأنه قادر بغير قدرة قائمة
بذاته و كذلك وصف بأنه سميع بصير عالم حكيم لطيف خبير إلى غير ذلك ، وليس
هناك صورة و صفات زائدة على الذات و إطلاق الصورة على الصفة شائع أو وصف
بغير حد ، إذ كل ما وصف بحد لا بد أن يكون له مهية كميّة مر كبة من جنس و
فصل و إذ ليس له تعالى شأنه شيء ، من أنحاء التركيب لا يجوز أن يوصف بالحد .
(و نعت بغير جسم) أي نعت بأنه مغاير بجسم و جسماني أي بأمر مغاير
لهما بحدوثهما و تحييزهما و هو منزّه عنهما ، ولمّا ذكر حمده تعالى على وجه
يشعر بالاختصاص و كان ذلك مفيداً لتفردّه بالالهيّة و ذكر أيضاً تفردّه بالملكوت
والجبروت و بخلق الأشياء إلى غير ذلك من صفات المدح و التكريم المفيدة
لتفردّه بالثناء ، والتعظيم أراد أن يوضح بالمقصود لآله كالتسبيح له ما مرّ فقال :

(لا إله إلا الله الكبير المتعال) أي العظيم لا بالكم و المقدار ، بل بالرتبة
والرفعة ، لأن ذاته المقدسة مبدء كل موجود ، و منتهى كل مقصود ، المتعال
عن التشابه بالخلق . هذه الكلمة الطيبة أشرف كلمة و حدّ بها الخالق عز اسمه
وهي منطبقة على جميع مراتب التوحيد ، و قد سميت فاتحة الاسلام . و نقل
عن بعض العلماء أن الله سبحانه جعل عذابه نوعين أحدهما السيف في يد المسلمين
والثاني عذاب الآخرة ، فالسيف في غلاف يرى والنار في غلاف لا يرى فقال تعالى
لرسوله ﷺ : « من أخرج لسانه من الغلاف المرئي و هو القم فقال « لا إله إلا الله »
أدخلنا السيف في الغمد المرئي ، و من أخرج لسان قلبه من الغلاف الذي لا يرى
وهو غلاف الشرك فقال : « لا إله إلا الله » أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة
واحدة بواحدة جزاء ، ولا ظلم اليوم .

((الاصل)):

« ضلّت الأوهام عن بلوغ كنهه ، و ذهلت العقول أن تبلغ غاية نهايته ،
 « فلا يبلغه حدّ وهم ، ولا يدركه نفاذ بصر ، وهو السميع العليم ، احتج على خلقه ،
 « برسله ، و أوضح الأمور بدلائله ، و ابعث الرسل مبشرين و منذرين ، ليهلك من ،
 « هلك عن بيّنة و يحيى من حي عن بيّنة ، و ليعقل العباد عن ربّهم ما جهلوه ،
 « فيعرفوه برؤس بيّنته بعدما أنكروه ، ويوحّدوه بالالهية بعد ما أضدّوه ، أحمدوه حمداً ،
 « يشفي النفوس ؛ و يبلغ رضاه ، و يؤدي شكر ما وصل إلينا من سوابغ النعماء ، و جزيل ،
 « الآلاء ، و جميل البلاء . »

((الشرح)):

(ضلّت الأوهام عن بلوغ كنهه) إشارة إلى نفي الحدّ عنه لا أنّه تعالى ليس
 بمر كّب و كلّ ما ليس بمر كّب لا يمكن إدراك كنه حقيقة بالحدّ أمّا الصغرى
 فلأنّ كلّ مر كّب محتاج إلى الجزء الذي هو غيره ، و كلّ محتاج إلى الغير
 ممكن لأنّ ذاته بذاته من دون ملاحظة الغير لا يكون كافياً في وجوده وإن لم يكن
 فاعلاله خارجاً عنه ، و أمّا الكبرى فلأنّ إدراك كنه الحقيقة إنّما يكون من
 الحدّ المؤلف من أجزائها كما بيّن في موضعه و الله سبحانه منزه عن أن يكون
 لكنّه أجزاء .

(و ذهلت العقول أن تبلغ غاية نهايته) يمكن أن يراد بالغاية المسافة ونهاية
 الشيء ، آخره ، فالإضافة لامية ويمكن أن يراد بها النهاية . قال الجوهرى : « النهاية :
 الغاية » فالإضافة بيانية . و إنّما لا تبلغ العقول غاية نهايته لأنّه لا نهاية له ،
 إذ ليس له طبيعة امتدادية تنتهى إلى حدّ و نهاية ، و أيضاً لا يطرأ عليه العدم ، فمفهوم
 الكلام مثل قول العرب « لا يرى بها ضبّ » ينجحر ، أي ليس بها ضبّ فضلاً عن أنّه
 ينجحر ، لا يقال : ذهول العقول عن البلوغ أي نسيانها عنه يشعر بإمكان البلوغ في
 نفسه لأنّا نقول : الذّهول عن الشيء ، يستلزم عدم حصول ذلك الشيء ، والمراد هنا

هذا اللازم على سبيل الكناية على أن ذلك الأشعار ممنوع ألا ترى أن غفلتنا عن وجود شريك الباري، لا يستلزم وجوده .

(ولا يبلغ حد وهم) أي منتهاه لأن كل ما بلغه الوهم فهو ممكن ولا سبيل للإمكان في ساحة جنابه ، وأيضاً الوهم إنما يلحق بالمادي ويتعلق بأشياء محسوسة ذات صور وأحيان حتى أنه لا يقدر نفسه ولا يدركها إلا ذات مقدار وجسم ، والله سبحانه منزّه عن المادة .

(ولا يدركه نفاذ بصر) قال الجوهرى : « نفذ السهم من الرمية (١) و نفذ الكتاب إلى فلان ، و رجل نافذ في أمره أي ماض ، و نفاذ البصر بكل واحد من هذه المعاني محال على الله سبحانه ، أمّا الأول فلأن شعاع البصر إنما ينفذ في جسم شفاف ، وهو سبحانه ليس بجسم ولا شفاف ، وأمّا الأخيران فلاستحالة أن يدرك سبحانه بحاسة البصر لأنه غير ذي وضع و كل غير ذي وضع يمتنع رؤيته ، والمقدمة الأولى استدلالية والثانية ضرورية ، وربما استدلل عليها والمسألة مستقصاة في علم الكلام ، ثم الظاهر من هذه المعاني هو الأول لأن الأخيرين قد ذكرهما سابقاً .

(وهو السميع العليم) يعني أنه السميع لا بآلة السمع ، والعليم لا بعلم زائد عليه ، لأنهما من صفات خلقه ، بل هما عبارتان عن عدم خفاء المسموعات والمعلومات وإن كانت خفية دقيقة عند ذاته بذاته حتى يعلم كفر من كفر وإيمان من آمن . (و هو عليم بذات الصدور) و الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد .

(احتج على خلقه برسله) ليهدهم إلى معرفة ذاته وصفاته ، و حشره و نشره و ثوابه و عقابه و ربوبيته ، و معرفة ما به يتم نظامهم في الدين و كمالهم في النشاطين ؛ ويجذبوهم عن مقتضيات نفوسهم من اتباع الشهوات الباطلة واقتفاء اللذات الزائلة بتذكيرهم لما في الدار الباقية و تنفيرهم عن خسائس هذه الدار

القانية لتلايكون لهم على الله حجة بعد الرسل .

(وأوضح الأمور بدلائله) أي أوضح أمور الرسل وحقيقة رسالتهم وشرائعهم بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة لتقريب الخلق إلى التصديق وتبعيدهم عن التكذيب أو أوضح الشرائع بالرسل وأوصيائهم عليهم السلام أو أوضح وجود ذاته وكمال صفاته مثل العلم والقدرة وغيرهما بنصب سماء ذات أبراج وأرض ذات مهاد إلى غير ذلك من الآثار الدالة على صدورهما من العزيز الجبار ، ولما كان الرسل علماء وحكماء يحملون الخلق على الطريقة الإلهية من معرفة أحوال المبدء أو المعاد وما يتبعهما من الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة على حسب ما يقتضيه الحكمة ، وذلك قديكون بالتذكير والتنبيه كما أشرنا إليه ، وقد يكون بالتبشير والتهديد وهذا مما يحتاج إليه أكثر الناس لأن طبائعهم مثل طبائع الأطفال في الميل إلى الظاهر من الحياة الدنيا وزهراتها فيحتاجون في الميل إلى الخيرات والنزجر عن المنهيات إلى الوعد والوعيد ، أشار إليهما بقوله :

(و ابتعث الرسل « بعثهم » و ابتعثهم بمعنى أرسلهم (مبشرين) للخلق بما أعد الله للمطيعين من الثواب العظيم (ومنذرين) لهم بما أعد الله للعاصي من العذاب الأليم و بذلك يجذبونهم عن طريق الغواية و يرشدونهم إلى سبيل الهداية ، و أمّا من أخذت يده العناية الأزليّة و تنوّرت قلبه من المشكاة النبويّة فأنّه يعلم أنّه لولا الثواب والعقاب لاستحقّ سبحانه التوصل إليه بذاته والتذلل له طلباً لمرضاة (ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حيّ عن بينة) تضمنين للآية الكريمة و إشارة إلى غاية الاحتجاج والابتعاث قال القاضي (١) : والمعنى ليموت من يموت عن بينة عاينها و يعيش من يعيش عن حجة شاهدعا لتلايكون له حجة ومعذرة . فان الاحتجاج بالرسل و ابتعاثهم و تصديقهم بالمعجزات من البينات الواضحة ، أو ليصدر كفر من كفر و إيمان من آمن عن وضوح بينة ، على استعارة الهلاك والحياة للكفر والاسلام ، والمراد بمن هلك و من حيّ المشارف للهلاك والحياة أو من هذا

حاله في علم الله وفضائه ، وقيل : يحتمل أن يكون هذا من باب المجاز المرسل لأن الكفر سبب للهلكة الحقيقة الأخرى ، والإيمان سبب للحياة الحقيقة الأبدية فأطلق المسبب على السبب مجازاً .

(و ليقل العباد عن ربهم) بتذكير الرسل و تعليمهم (ما جهلوه) من أحوال المبدء و المعاد (فيعرفوه برؤيته بعد ما أنكروه) لغفلتهم عن العهود الإلهية والمواثيق الربانية و نبذ طاعته و ترك عبادته كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

(ويوحده بالالهية بعد ما أضدوه) بالتشريك و عباده الأصنام . للوساوس الشيطانية و تخیلات الأوهام ، توضيح ذلك أن المعرفة هي إدراك الشيء ، ثانياً بعد توسط الجهل ، والعباد قد أقروا له بالربوبية وهم في صورة الذر حين قال : «أست بر ربكم قالوا بلى» لشهادة عقولهم الخالصة عليها ثم جهلوا ذلك و أنكروه لتعلقهم بالعلائق الجسمانية ، وتشبثهم بالتسويلات النفسانية ، وتمسكهم بالتخیلات الشيطانية ؛ فبعث الله تعالى رسلاً رحمة منه و تفضلاً لتعليمهم و تذكيرهم ، فمن ضل بعد ذلك فقد غوى ومن آمن فقد اهتدى ، ولما حمد سابقاً ذاته تعالى لأجل نعمته و قدرته و غيرهما من الصفات المذكورة أراد أن يحمده ثانياً على نعمائه المتجددة أنا فآناً على سبيل الاستمرار التجدي فأتى بالجملة الفعلية رعاية المناسب فقال : (أحمده) أي أحمده أنا فآناً وساعة فساعة ، ولما كان الحمد من أجل الطاعات وأكمل العبادات إذا الحماد يلاحظ جلالاً وجمالاً ومنعماً ، والطاعة دواء الأمراض النفسانية على حسب تفاوت مراتبها في الاخلاص كما قال سبحانه : «إن الحسنات يذهبن السيئات» والدافعة لجميع الأمراض هي المرتبة القصوى من مراتب الاخلاص فيده بقوله : (حمداً يشفى النفوس) طلباً لتلك المرتبة ورجاء لحصولها ، ثم لما كان شفاء النفس من جميع الأمراض سبباً لرضاه حالاً وما آلت عليه بقوله (وببلغ رضاه) الموجب لمزيد إمتنانه في الدنيا ورضوانه في الآخرة ، ثم مفهوم الحمد وإن كان مغايراً لمفهوم الشكر لكنهما قد يصدقان على فرد ما ، فوصف الحمد بقوله : (و يؤدى شكر ما وصل إلينا) حصراً للحمد هنا في ذلك الفرد لأنه أفضل أفراد و

أكملها ثم يبين الموصول بقوله : (من سوابغ النعماء ، وجزيل الآلاء وجميل البلاء) هذه التراكيب من باب جرد قطيفة ، و المراد بسوابغ النعماء : النعماء الكاملة الوافية الواسعة ؛ قال الجوهرى : « شيء سابع أي كامل واف و سبقت النعمة تسبغ بالضم سبوغاً اتسعت وأسبغ الله عليه النعمة أي أتمها » والجزيل : الكثير العظيم . والآلاء بالمد النعم واحداثها الآلاء بالفتح ويجوز القراءة هنا بالجمع والافراد والبلاء الاختبار بالخير والشر ، يقال : بلوته بلوأ جرته و اختبرته ، ولا يبعد أن يراد بالفقرة الاولى النعم الباطنة كالعقل والحواس المستورة و علائقها ، و بالثانية النعم الظاهرة ، و بالثالثة الاحتياج بالرسل و ابتعائهم لأن أعظم الاختبار هو الاختبار بما جاء به الرسل ﷺ و هذه و إن كانت من النعم الظاهرة المندرجة في الثانية لكن خصها بالذكر لشدة الاهتمام بها ؛ ثم لما كان أفضل افراد الحمد هو الشهادة بالتوحيد و برسالة رسولنا ﷺ إذ هي أصل للبواقي أشار إليهما بقوله :

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ووحده تأكيد للحصر وتقرير له و حال بتأويل منفرداً (إلهاً واحداً) دل الأول على جميع صفات الكمال والثاني على جميع صفات الجلال إذا الواحد الحقيقية منزّه عن أنحاء التركيب الخارجية والذاتية والتعدد وعمّا يستلزم أحدهما كالجسمية والتخيّر وأمثالهما (صمداً) الصمد السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج من صمد إذا قصّد ، والله سبحانه هو الموصوف به على الإطلاق لاستغنائه عن غيره مطلقاً و احتياج غيره إليه من جميع الجهات (لم يتخذ صاحبة الاستحالة الشهوة والحركة عنه تعالى ، ولأن اتّخاذها يقتضى المجانسة بينه وبينها ولا يجانسه أحد (ولاولداً) لأن الولد يجانس الوالد ولا يجانسه شيء ، و لأنه تعالى لا يلدّ بشيء ، لأن اللذة من لواحق الجسمية ولا يفتر إلى ما يعينه أو يخلّف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه . (وأشهد أن محمداً ﷺ عبداً أنجبته) أي اختاره واصطفاه و إنما قرنت هذه الكلمة بكلمة التوحيد لأن كلمة التوحيد يعتبر فيها الاخلاص ولا يحصل الا خلاص إلا بسلوك مراتبه و درجاته و لا يحصل ذلك إلا بمعرفة كيفية السلوك ولا تحصل تلك المعرفة إلا بالبيان النبوي

فكانت الشهادة بصدق النبيين أجل كلمة بعد كلمة الاخلاص وأنها بمنزلة الباب لها فلذلك قرنت بها و صار تاكلمتين مقارنتين لا يصح انفكاك إحداهما عن الأخرى (و رسول ابتعته) وارشاد العباد وهدايتهم ، و في تقديم العبودية على الرسالة إشارة إلى تقدمها في التحقيق (١) كما دل عليه بعض الاخبار (على حين فترة من الرسل) الفترة الضعف والانكسار و ما بين الرسولين من رسل الله تعالى ، يعني ابتعته على حين فتور من الارسل و انقطاع من الوحي . و ذلك الابتعاث نعمة عظيمة لا يدان بها شيء من النعماء لظهور أن خلوق الزمان عن رسول فيه يستلزم وجود الشرور بمقتضى النفوس البشرية و وقوع الهرج والمرج . و تلك أحوال مذمومة يلحق ذلك الزمان بها من الذم بمقدار ما يلحق زمان وجود الرسول من المدح ، و لذلك ذكر من خبث أحوال ذلك الزمان و ذم الخلائق فيه ما يدل على عظمة نعمة بعثته ﷺ و ما استلزمته من الخيرات ليعتبروا و يعرفوا قدر تلك النعمة ويحصل لهم التوجه إلى الله و يشكروا له .

(و طول هجعة من الأمم) الهجع والهجة والهجيع بالفتح في الجميع طائفة من الليل ، والهجوع النوم ليلاً كذا في النهاية . و قال الجوهري : « أتيبت بعد هجعة من الليل أي بعد نومة خفيفة » وهي ههنا كناية عن غفلة الأمم في ظلمات الجهالة عن أمر المبدء والمعاد و سائر المصالح التي ينبغي التوجه إليها (و انبساط من الجهل) أي انتشاره في الربع المسكون و إحاطته بالأمم أجمعين لفقدهم من يهديهم إلى المعارف الالهية والمصالح الدينية والدنيوية (و اعتراض من الفتنة) أي عروضها في الأقاليم و إحاطتها بأهلها طولاً وعرضاً ، أو وقوعها على غير قانون شرعي و مشيها في غير طريق عقلي و نقلي ، من اعتراض الشيء صاعداً كالأشجار المعترضة في عرض النهر ، والفرس الماشي في عرض الطريق من غير استقامة بتشبيهها بالفرس المتصّف بهذه الصفة و استعارة لفظ

١- قبل : ولها تقدم في الرتبة والشرف أيضاً اذ العبودية حقيقة التغات الى الحق و انتقال اليه والرسالة بالمعكس فانه انتقال الى عالم الخلق .

فكانت الشهادة بصدق النبيين أجل كلمة بعد كلمة الاخلاص وأنها بمنزلة الباب لها فلذلك قرنت بها و صار تاكلمتين مقارنتين لا يصح انفكاك إحداهما عن الأخرى (و رسول ابتعته) وارشاد العباد وهدايتهم ، و في تقديم العبودية على الرسالة إشارة إلى تقدمها في التحقيق (١) كما دل عليه بعض الاخبار (على حين فترة من الرسل) الفترة الضعف والانكسار و ما بين الرسولين من رسل الله تعالى ، يعني ابتعته على حين فتور من الارسل و انقطاع من الوحي . و ذلك الابتعاث نعمة عظيمة لا يدان بها شيء من النعماء لظهور أن خلوق الزمان عن رسول فيه يستلزم وجود الشرور بمقتضى النفوس البشرية و وقوع الهرج والمرج . و تلك أحوال مذمومة يلحق ذلك الزمان بها من الذم بمقدار ما يلحق زمان وجود الرسول من المدح ، و لذلك ذكر من خبث أحوال ذلك الزمان و ذم الخلائق فيه ما يدل على عظمة نعمة بعثته ﷺ و ما استلزمته من الخيرات ليعتبروا و يعرفوا قدر تلك النعمة ويحصل لهم التوجه إلى الله و يشكروا له .

(و طول هجعة من الأمم) الهجع والهجة والهجيع بالفتح في الجميع طائفة من الليل ، والهجوع النوم ليلاً كذا في النهاية . و قال الجوهري : « أتيبت بعد هجعة من الليل أي بعد نومة خفيفة » وهي ههنا كناية عن غفلة الأمم في ظلمات الجهالة عن أمر المبدء والمعاد و سائر المصالح التي ينبغي التوجه إليها (و انبساط من الجهل) أي انتشاره في الربع المسكون و إحاطته بالأمم أجمعين لفقدهم من يهديهم إلى المعارف الالهية والمصالح الدينية والدنيوية (و اعتراض من الفتنة) أي عروضها في الأقاليم و إحاطتها بأهلها طولاً وعرضاً ، أو وقوعها على غير قانون شرعي و مشيها في غير طريق عقلي و نقلي ، من اعتراض الشيء صاعداً كالأشجار المعترضة في عرض النهر ، والفرس الماشي في عرض الطريق من غير استقامة بتشبيهها بالفرس المتصّف بهذه الصفة و استعارة لفظ

١- قبل : ولها تقدم في الرتبة والشرف أيضاً اذ العبودية حقيقة التفات الى الحق و انتقال اليه والرسالة بالمعكس فانه انتقال الى عالم الخلق .

الاعتراض لها.

(وانتقاض من المبرم) المبرم المحكم من أبرمت الشيء، أحكمته والمراد به نظام أحوالهم وإبرام أمورهم أي استحكامها بالشرائع السالفة، والمراد بانتقاضه انقطاع ذلك النظام وانهدام بناء ذلك الاستحكام بتغيير تلك الشرائع وفسادها، فإن الخلائق كلهم في زمان الفترة خرجوا الطريقة الربانية، وخرجوا عن الشريعة الإلهية وأرقدتهم نعمات وساوس الشياطين في مهاد المرأقدا الطبيعية إلا من عصمه الله بلطفه الخفي وقليل ما هم.

(وعنى عن الحق) العمى يطلق على معنيين أحدهما عدم البصر وثانيها عدم البصيرة وهو المراد هنا والحق هو الأُمور الثابتة بالشرائع السابقة من التوحيد وصفات الكمال والجلال وغير ذلك من الأُمور المتعلقة بصالح الناشئين، والعمى عن الحق عبارة عن بطلان بصيرتهم القلبية باستيلاء الأمراض النفسانية عن إدراك هذه الأمور.

(واعتساف من الجور) العسف الأخذ على غير الطريق وكذلك التعسف والاعتساف، والجور الميل عن طريق الحق، والظلم؛ قال في المغرب: جاز عن طريق مال وجار ظلم، والمعنى الثاني أنسب يعني ابتعنه ^{عن} حين ما لواعن طريق الهداية وسلكوا طريق الغواية وظلموا بذلك أنفسهم، فبعضهم كانوا من عبدة الأوثان (١) وبعضهم كانوا من عبدة النيران، وبعضهم كانوا من عبدة الشمس والقمر، وبعضهم كانوا من عبدة الشجر والبقر، وبعضهم قالوا عزير ابن الله، وبعضهم قالوا: المسيح ابن الله، وبعضهم قالوا: الملائكة بنات الله، وبعضهم قالوا: الله جسم، وبعضهم قالوا: هو نور مثل سائر الأنوار، وبعضهم قالوا: يجوز رؤيته - إلى غير ذلك من الملل الفاسدة والمذاهب الباطلة.

(و امتحاق من الدين) محققه أبطله ومجاه وتمحق الشيء، و امتحق أي بطل. والدين في اللغة: الطاعة والجزاء. وفي العرف: الشرائع الصادرة بواسطة الرسل. وبطلانه كناية عن تركهم العمل بما فيه من صلاح معاشهم ومعادهم فإنهم غيروا وبدلوا وشرعوا لهم ما سوا ما لله، فحللوا حراماً وحرّموا حلالاً فبعثه الله الرّؤف الرّحيم ليهديهم إلى الصراط المستقيم.

((الاصل)):

« و أنزل إليه الكتاب فيه البيان والنبيان، قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلمهم »
 « يتقنون، قد بينه للناس ونهجه بعلم قد قصّله، ودين قد أوضحه، و فرائض »
 « قد أوجبها و أمور قد كشفها لخلقها وأعلنها، فيها دلالة إلى النجاة ومعالم »
 « تدعو إلى هداة، فبلغهم ما أرسل به، و صدع بما أمر، و أدّى ما حتمل من »
 « أثقال النبوة، و صبر لربّه، و جاهد في سبيله، و نصح لأمتّه. و دعاهم إلى »
 « النجاة، و حثهم على الذكر، و دلّهم على سبيل الهدى من بعده بمنهج و »
 « دواع، أسّس للعباد أساسها، و هنائر رفع لهم أعلامها، لكيلا يضلّوا من بعده و »
 « كان بهم رؤوفاً رحيماً » .

((الشرح)):

(وأنزل إليه الكتاب) الكتاب في الأصل الفرض والحكم والقدر كما يظهر من
 الصحاح والمغرب؛ ثمّ المتبادر منه عند الإطلاق هو القرآن العزيز لاشتماله على
 هذه الأمور على الوجه الأتمّ والأكمل (فيه البيان والنبيان) أي بيان كل شيء، وتبيانها
 وهو البيان مع البرهان، وقدّم الطرف للحصر أو لقرب المرجع أو الاهتمام لاشتماله
 على ضمير « الكتاب » أو لربط الحال على صاحبها ابتداءً .

(قرآناً) حال بعد حال عن « الكتاب » (عربياً) صفة للتخصيص أو
 للمدح و اشتماله على غير العربي نادرأ على تقدير ثبوته لا يقدح في عربيته (غير
 ذي عوج) لا اختلال ولا اختلاف ولا شك فيه أصلاً لامن جهة المباني ولامن جهة
 المعاني (لعلمهم يتقنون) من العقوبات الأخروية والمشتبهات الدنيوية، باتّباع
 أوامره و نصايحه و استماع زواجره و مواعظه .

(قد بينه للناس) ضمير المفعول للقرآن وضمير الفاعل لله تعالى أو المرسل
 عليه السلام، و كذا الفاعل في الأفعال الآتية والأول أولى و أرجح (ونهجه) بالتخفيف
 أي أوضحه و أبانه من نهجت الطريق إذا أبنته و أوضحته، أو سلّكه من نهجت

الطريق إذا سلكته (بعلم قد فصله ، و دين قد أوضحه ، و فرائض قد أوجبها و أمور قد كشفها لخلقها و أعلنها) الظاهر أن القرائن الأربعة أحوال متعاقبة للقرآن ، يعني أوضحه حال كونه متلبساً بعلم عظيم من التأويل والتفسير والمحكم والمتشابه والعام والخاص و غير ذلك قد فصله الله تعالى لرسوله ﷺ أو الرسول للناس ، و بدين يعني بشرايع نبوية و نواميس إلهية قد أوضحه لهم ، و بفرائض مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد و نحوها قد أوجبها عليهم ، و بأمور من أحوال الأمم الماضية والقرون السالفة قد كشفها وأعلنها لهم ، و بالجملة في القرآن علم ما كان وما يكون و ما هو كائن و ما يحتاج إليه الخلائق وقد بينه الله تعالى لرسوله و بينه الرسول لأمته و هو مخزون عند أهله.

(فيها دلالة إلى النجاة) أي في الأمور المذكورة دلالة إلى نجات الخلق من الخزي والنكال عاجلاً ، و من الحرمان عن الثواب والخذلان بالعقاب آجلاً . (و معالم تدعوا إلى هداة) معالم جمع معلم و هو ما جعل علامة للطرق والحدود ، والمراد بها هنا مواضع العلوم و مرابطها من الكلمات الرائقة و العبارات الراشقة والدلائل الواضحة ، وهي بالرفع عطف على « دلالة » ، و بالجر عطف على « النجاة » ، والجملة الفعلية صفة لها ، والضمير المجرور بالاضافة يعود إلى الله أو إلى الرسول أو إلى الكتاب ، والهدى ضد الضلالة و إضافته من باب إضافة المصدر إلى الفاعل و مفعول « تدعو » محذوف وهو الخلق و قيل : الهدى المهندي به و هو الدين والكتاب والرسول ، والاضافة على تقدير رجوع الضمير إلى الله لامية ، وعلى الاحتمالين الأخيرين بيانية . و قيل : الهاء في « هداة » ساكنة زائدة للموقف كما في كتابيه و ياربنا و يا سيّدا . وفيه نظر يعرف بالتأمل .

(فبلغ ﷺ ما أرسل به) من أحوال المبدء و المعاد و جميع ما يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة (و صدع بها أمر) أي أحجر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً أو أظهره من صدعه إذا أظهره و بينه أو فرق به بين الحق والباطل من صدعه إذا شقه على سبيل الاستعارة و تشبيه الفرق بينهما بصدع الزجاج و

نحوها في عدم الالتيام من باب تشبيه المعقول بالمحسوس لزيادة الإيضاح ، والبا.
على الأخيرين زائدة أو المتعدية بها على طريق التجوز ، وهما مصدرية أو موصولة
أو موصوفة ، والعائد محذوف أي بما أمر به (و أدى ما حمل من أثقال النبوة) ①
الأثقال إما جمع ثقل وهو ضد الخفة أو جمع ثقل بالتحريك وهو متاع البيت
والمسافر على سبيل الاستعارة ، وقد أدى كلها عند الإمامية إلى أمير المؤمنين عليه السلام
ولم يكن أحد غيره حاملا بجميعها باتفاق الأمة وقالت العامة لم يخص عليه السلام
أحدا من الأمة بجميعها وإنما أدى جميعها إلى جميع الأمة بأن أخذ كل
واحد منهم ما يليق بفهمه ، ثم أدوا إلى التابعين كذلك ، وهكذا إلى انقراض
العالم و أنت تعلم ما في هذا القول ولكن من أضله الله فلا هادي له .
(و صبر لربه) أي صبر لرضا ربه و طلب التقرب منه في تبليغ الرسالة
و أداء أثقال النبوة على تحمل المشاق و أذى المعاندين و طعن الطاعنين من كفره
قريش و فسقة العرب (و جاهد في سبيله) الذي هو التوحيد و دين الحق مع
قلة العدد وضعف العدد (١) (و نصح لأمته) النصح في اللغة الخلوص ، يقال :
نصحه و نصحه له ، فتعديته إلى المنصوح إما بنفسه أو بالأم ، والمراد بنصحه لهم إرشادهم
إلى مصالح دينهم و دنيائهم و تعليمهم إياها و عونهم عليها والذب عنهم وعن أعراضهم ،
و بالجملة جلب خير الدنيا والآخرة إليهم خالصا مخلصا لوجه الله ، و من ثم قيل :
النصيحة في وجازة لفظها و جمع معانيها كلفظ « الفلاح » الجامع لخير الدنيا
والآخرة (و دعاهم إلى النجاة) النجاة مصدر نجوت من كذا إذا تخلصت منه و
تنجيت عنه ، يعني دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى نجاتهم من العقوبات و
الشدايد أو إلى ما به نجاتهم من المصالح و خلوص العقائد (و حشهم على الذكركر)
حشّ يندى بعلی ، يقال : حشّه على كذا إذا حضّه عليه ، و تعديته هنا بالي إما
باعتبار أن حروف الجر قد يجيء بعضها في موضع بعض أو بتضمن معنى الدعاء
و نحوه ، والمراد بالذكر ذكر الله تعالى بالقلب واللسان في جميع الأحوال وله

شرف عظيم قال الله تعالى « و اذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة » وقال « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً » وقال « اذكروني اذكركم » وقال الصادق عليه السلام : « قال الله تعالى من ذكرني في ملاء من الناس ذكرته في ملاء من الملائكة » (١) المراد به ذكر آلاء الله ونعمائه أو الصلاة والدعاء لأنهما نوعان كاملان من الذكر والقرآن العزيز .

(و دلّهم على سبيل الهدى من بعده بمنهج و دواع أسس للعباد أساسها)
 المنهج جمع المنهج وهو الطريق الواضح الذي لا يضلّ سالكه . والدواعي جمع داعية التي تدعوهم إلى اتباع سبيل الهدى . والأساس جمع أس بالضم وهو أصل الحائط و ضمير التأنيث يعود إلى المنهج والدواعي ، والمراد بتأسيس الأساس : وضعها وإحكامها ، و بسبيل الهدى : الطريقة الشرعية ، و بالمنهج : الأوصياء الطاهرين . و يجوز أن يراد بالأول الأوصياء وبالأخير الأدلة الدالة على خلافتهم (و منائر رفع لهم أعلامها) عطف على « سبيل الهدى » والمنائر جمع المنارة على القياس لأنّ وزنها مفعلة إذ أصلها منورة موضع النور وهي ما يوضع فوقه السراج و قياسها في الجمع مفاعل كمنار و منائر بقلب الواو همزة تشبيهاً للأصليّ بالزائد كما قالوا مصائب في مصاب . و في بعض النسخ « منار » وهي جمع منارة أيضاً على غير القياس ، ثم استعير للأوصياء عليهم السلام لأنّهم محالّ للأنوار العقلية ، و بهم يستبين حقائق الدين و يستنير قلوب العارفين كما أن المشبه به للأنوار الحسّية ، و رفع الأعلام عبارة عن نصب الأدلة الدالة على خلافتهم و إمامتهم عليهم السلام (لكيلا يضلّوا من بعده) أي دلّهم على كذا وكذا لكيلا يضلّوا من بعده على طريق الحقّ بالاعتداء بآثارهم والاهتداء بأنوارهم (و كان بهم رؤفاً رحيماً) الرأفة أشدّ الرحمة والواو للمعطف على الأفعال المتقدمة ، أول الحال عن المستكن فيها أو عن البارز في « يضلّوا » .

(١) رواه الكليني في كتاب الدعاء من الكافي باب ما يجب من ذكر الله في كل مجلس .

((الأصل)):

« فلما انقضت مدته ، واستكملت أيامه ، توفاه الله و قبضه إليه ، وهو »
 « عند الله مرضي عمله ، و افر حظّه ، عظيم خطره ، فمضى عليه السلام وخلف في أمته »
 « كتاب الله و وصيته أمير المؤمنين و إمام المتقين صلوات الله عليه ، صاحبين »
 « مؤتلفين ، يشهد كل واحد منهما لصاحبه بالتصديق ، ينطق الامام عن الله في الكتاب »
 « بما أوجب الله فيه على العباد من طاعته ، و طاعة الامام و ولايته ، و واجب حقه »
 « الذي أراد من استكمال دينه ، و إظهار أمره ، والاحتجاج بحججه ، والاستضاءاة »
 « بنوره في معادن أهل صفوته ومصطفى أهل خيرته ، فأوضح الله بأئمة الهدى من »
 « أهل بيت نبينا عليه السلام عن دينه وأبلغ بهم عن سبيل مناهجه وفتح بهم عن باطن »
 « ينابيع علمه ، وجعلهم مسالك لمعرفة و معالم لدينه و حججاً بآيينه و بين خلقه »
 « والباب المؤدى إلى معرفة حقه ، و أطلعهم على الممكنون من غيب سره »

((الشرح)):

(فلما انقضت مدته واستكملت أيامه توفاه الله و قبضه إليه) تفصيل
 لقوله : « ودلهم - إلى آخره - » والعطف المنفسر ، قال الجوهرى : « توفاه الله أي
 قبض روحه ، والوفاة الموت » (وهو عند الله مرضي عمله و افر حظّه عظيم خطره)
 أي قدره و منزلته ، والواو للحال عن مفعول « توفاه » (فمضى عليه السلام و خلف في
 أمته كتاب الله و وصيته أمير المؤمنين و إمام المتقين صلوات الله عليه) تصريح
 لما علم سابقاً و لذلك صحّ التفريع ، قال الجوهرى : « خلف فلان فلاناً إذا كان
 خليفته في قومه و منه قوله تعالى : « هرون اخلفني في قومي » وقال المطرزي
 في المغرب : « خلفته خلافة كنت خليفته » وقال القاضى : الخليفة من يخلف غيره و
 ينوب منابه ، والهاء للمبالغة ، والأنسب بالنظر إلى هذه المعاني أن « فعمل خلف معنوف
 و هو الضمير العائد إليه عليه السلام والواو للحال بتقدير « قد » و « كتاب الله » و ما عطف
 عليه فاعله ، ويجوز أن يقرأ « خلف » بتشديد اللام و يجعل الواو المعطف أي وجعلهما
 خليفته في أمته ليقطع أعداءهم في ترك دين الحق ورفض العمل بما فيه يفقدهم من

يرجعون إليه من التوقيف على الأسرار الشرعية ، فإن المرجع إذا كان موجوداً بينهم بعده عليه السلام لم يبق لهم معذرة لاتّباع الأهواء الباطلة ، واقتفاء الأراء الفاسدة . (صاحبين مؤتلفين) حال عن الكتاب والوصي ، أي لا يفارق أحدهما الآخر أصلاً ، والائتلاف مطاوع التأليف : يقال : ألفت بين الشيئين تأليفاً فتألفا و ائتلفا ، وفيه إشارة إلى قوله عليه السلام : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي الحديث » (يشهد كل واحد لصاحبه بالتصديق) أي بسبب تصديق كل واحد ما يقول و ينطق ؛ فالقرآن يصدقه عليه السلام في كل ما يقول باعتبار اشتماله عليه ومن جملة ما يقوله عليه السلام : « تقدمه في خلافته ، و وجوب إطاعته ، والقرآن يشهد له بقوله : « إنما وليكم الله الآية » وبقوله : « أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم » إلى غير ذلك و هو عليه السلام يصدق القرآن فيما ينادي من اشتماله على كل ما كان و ما يكون و ما يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة لأنّه عالم بظاهره و باطنه و مفهومه و منطوقه و عامّه و خاصّه و ناسخه و منسوخه و أسرارّه كما يرشد إليه قوله تعالى « ومن عنده علم الكتاب » و قوله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . (ينطق الامام عن الله في كتاب الله بما أوجب الله فيه على العباد من طاعته) خلق الله تعالى عباده للطاعة والانقياد له في كل ما أمر به و نهى عنه في الكتاب ، و ظاهر أن كل أحد لا يقدر على استنباط المقصود منه لكونه ظاهراً و باطناً ، و رمزاً أو إشارة و مجعلاً و مفصلاً ، و محكماً و متشابهاً ، و عاماً و خاصاً ، و مطلقاً و مقيداً ، و مفهوماً و منطوقاً ، و ناسخاً و منسوخاً ؛ فلذلك وجب في الحكمة ثبوت إمام ينطق عن الله بما أوجب عليهم و ما يحتاجون إليه لتلايضلوا ، ولا يبقى لهم حجة ولا معذرة و هو لسان الحق والناطق عن كتابه والمبين لخطابه و وجب عليهم الانقياد له و اتباع آثاره ، و استماع أخباره ، واقتفاء أفعاله و أطواره (و طاعة الامام و ولايته) لدلالة الآيات القرآنية والبيّنات الربّانية على ثبوت الامامة والولاية لأمر المؤمنين عليهم السلام وبعدها ولادة الطاهرين . وبيّنوا الرسول وأهل الذكر عليهم السلام وعبّئوها و عبّئوا مواضعها و كنيّة دلالتها والمنكرون لفضل آل محمد صلوات الله

عليهم أجعين أو لوها بما سؤلت لهم أنفسهم فضّلوا وأضلّوا كثيراً وأوردوهم النار و بنّست مصيراً ، (و واجب حقّه) ليس عطفاً «على ولايته» والضمير للامام بل على الموصول أو على طاعته والضمير لله تعالى و إدراج الواجب على الأخير للمبالغة والاضافة على التقديرين من باب جرد قطيعة . (الذي أراد) أي أراد من الامام أو العباد والموصول مع صلته صفة لحقّه . (من استكمال دينه) بالعلم والعمل (و إظهار أمره) لحفظ الطريقة الالهية عن الانطمار والعلوم النبوية عن الانداس سيما عند ظهور البدعة وبروز الخدمة فانه يجب على العالم حينئذ إبطالها بإظهار الحق و من ثم وجب وجود معصوم في كل عصر ليكون مفرعاً في كل مصيبة وملجأ في كل بليّة .

(والاحتجاج بحججه) إذ لكل حق حقيقة ، ولكل حقيقة دليل و حجة من الله سبحانه فوجب على العاقل التمسك في إثباتها بتلك الحجّة لا بما سؤلت له نفسه فان إيصاله إلى المفسد أولى من إيصاله إلى المقاصد و يجوز أن يراد بالحجج الأئمة المعصومين إذ من حق الله تعالى على العباد أن يحتجوا في العلوم الدينية والمعارف البقيةمة بقولهم عليهم السلام لا أنهم حفظه لسره و خزنة علمه والاستضاء بنوره) الذي أودعه في معادن أهل صفوته المراد بالنور العلم على سبيل الاستعارة و تشبيه المعقول بالمحسوس لجامع عقلي و هو الايصال إلى المطلوب إذ بالعلم يدرك الحق و يفرق بينه و بين الباطل كما أن بالنور يدرك المحسوس و يفصل بين الأشياء المرئية ، والاستضاء ترشيح ، و صفوة الشيء خالصه ، و نبينا عليهم السلام و عترته الطاهرين عليهم السلام صفوة الله من خلقه ، والاضافة الاولى بيانية أولامية إن أريد بالمعادن القلوب والثانية بيانية والثالثة لامية ، و تتابع الاضافات لا يوجب تقللاً مخلاً بالفصاحة (ومصطفى أهل خيرته) عطف على المعادن ، والاصطفاء الاختيار يقال : اصطفيته أي اخترته ، والمصطفى بصيغة الافراد أو الجمع باسقاط النون للاضافة ، والاضافة إما بيانية أو بتقدير «من» والخيرة مثال العنة والسيرة إما بمعنى المختار أو بمعنى الاختيار وقد استعملت فيهما كما في قولهم عليهم السلام خيرة

الله وقوله تعالى : وما كان لهم الخيرة .

(فأوضح الله بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا) حال عن الأئمة أو بيان لها .
 (عن دينه) الذي هو عبارة عن مجموع ما جاء به نبينا من القوانين . والايضاح الاظهار
 والابانة . يقال : وضع الشيء ، أي ظهر وبان ؛ وأوضحته أي أظهرته و تعديته عن
 للمبالغة (وأبلغ بهم عن سبيل مناهجه) بلغ الصبح يبلغ بالضم بلوجاً إذا أشرق و
 أضاء و كذا الحق إذا اتضح ، وأبلغه إذا أظهره و أوضحه و «عن» زائدة للمبالغة
 في الربط والايصال و مناهجه كل ما يتقرب به إليه سبحانه من العلوم الكاملة و
 الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، و سبيلها دلائلها ، يعني أضاء بأنوار أئمة
 الهدى و إشرافاتهم بسبل هذه الأمور الموصلة إلى جناب الحق الموجبة للتقرب به ،
 وأوضح دلائلها (و فتح بهم عن باطن ينابيع علمه) الينابيع جمع ينبوع وهي عين
 الماء ، و هذا الكلام إما على سبيل الاستعارة المكنية والتخييلية . بتشبيه العلم
 بالماء ، و إثبات الينابيع له ، أو من قبيل اجتناء الماء ، و في لفظ الباطن إشارة إلى
 علمهم بالاسرار الالهية والعلوم الغيبية الدنيوية المشار إليها بقوله تعالى : و عالم
 الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . أو إلى علمهم بباطن
 القرآن ومتشابهاته على أن يكون المراد بالينابيع الآيات القرآنية .
 (وجعلهم مسالك لمعرفة) لكل مطلوب طريق ومسلك من سلكه وصل إليه
 وهم عليه السلام طرق معرفة الله بما يليق به و مسالكها بأمر الله عز شأنه و من رجع إليهم
 يتنور ذهنه بنور المعرفة وضوء الايمان ومن أعرض عنهم يتحير قلبه في تيه الجهالة
 وظلمة الكفران . (ومعالم لدينه) الناس بتعليمهم يعلمون أطوار الطريقة و بتفهمهم
 يفهمون أرار الشريعة (وحجائباً بينه وبين خاقه) الحجاب بالضم والتشديد جمع
 حاجب السلطان وهو الذي يمنع من شاء من الدخول عليه ويأذن من شاء ولا يمكن
 الوصول إلا بالرّجوع إليه والتمسك به وهم عليه السلام كذلك بالنسبة إلى السلطان
 الأعظم جل شأنه (والباب المؤدّي إلى معرفة حقه) الباب جنس يصدق على
 الكثير و بهذا الاعتبار صحّ حمله على الجمع ، و توضيح المرام في هذا المقام

أنَّ حقوق الله على عباده كثيرة وهي مدينة ليس فيها إلا الحق ولا يدخلها إلا أهل الحق ، و تلك الحقوق أشرف و أعظم من أن ينالها العقول البشرية بذاتها ويدركها باستقلالها لخفاء طرقها و دقة مسالكها فر بما يقع في الخيال مثلاً التماثل بينه تعالى و بين المخلوقات و يجري عليه أحكام الأجسام والجسمانيات كما ترى في كثير من المبتدعة و لذلك جعل الله تعالى نبيه ﷺ مدينة تلك الحقوق و علياً و أوصياه ﷺ بابها كما يدل عليه « أنا مدينة العلم و علي بابها » و هو في الحقيقة باب الجنة و باب الرحمة و باب السعادة ، فمن عكف على سدنته فقد رشد، ومن أعرض عنه فقد هلك وقد فسد.

(أطلعهم على المكنون من غيب سرّه ، أطلعهم إماماً بتخفيف الطاء من قولك أطلعته على سرّي إذا أظهرته له و وفقته عليه ، وإماماً بتشديد ما من قولك اطلعت على باطن أمره بمعنى أشرفت عليه ، فلا ينافي المقام لأنّه لازم والمقصود أنّهم ﷺ لم يكونوا مقصورين على العلم بظاهر الشريعة بل أطلعهم الله سبحانه على أسرار مكنونه في لوح التصوير مكتوبة بقلم التقدير ، غايبة عن طائر الخلاق ، مستورة عن ضمائر أرباب العلائق والعوائق وهم قد كانوا يظهرون بعضها لبعض إن وجدوه أهلاً ويخفونها عن غير أهله إذ كانوا أطباء النفوس يتكلمون الناس بقدر عقولهم و من ثم قال سيّد الوصيّين أمير المؤمنين ﷺ وقد أشار بيده إلى صدره « إن ههنا لعلوماً جمّة لو وجدت لها أهلاً ».

((الأصل)) :

« كل ما عصى منهم إمام نصب لخلق من عقبه إماماً بيتاً ، و هادياً نبياً ، و »
 « إماماً قيماً ، يهدين بالحقّ وبه يعدلون ، حجج الله و دعاته و رعاته على خلقه ، »
 « يدين بهديهم العباد ، ويستهلّ بنورهم البلاد ، و جعلهم الله حياة للإنام ومصابيح »
 « للظلام و مفاتيح للكلام و دعائم للإسلام و جعل نظام طاعته و تمام فرضه التسليم ، »
 « لهم فيما علم والرّد إليهم فيما جهل ، و حظّر على غيرهم النهج على القول بما »

« يجهلون و منهم جحد ما لا يعدون ، لما أراد تبارك و تعالى من استنقاذ من شاء ،
 « من خلقه ، من ملأ القلم و مغشيات البهم و صلى الله على محمد و أهل بيته الأخيار ،
 « الذين أذهب الله عنهم الرجس [أهل البيت] و طهرهم تطهيراً » .

((الشرح)):

(كلما مضى منهم إمام نصب) فاعله ضمير يعود إلى الله أو إلى الامام ولا تفاوت
 في المعنى لأن الإمامة عهد من الله و رسوله لرجل بعد رجل حتى ينتهي الأمر
 إلى صاحبه (لخلق من عقبه إماماً) « من » جارة أو موصولة « و إماماً » على
 الأول مفعول « نصب » وعلى الثاني حال عن الموصول وذلك لاستحالة خلوق الأرض
 من حجة وإلا لساخت بأهلها (بيتاً) في العلم و الحلم والامامة لظهور الآيات
 والكرامات منه مقروناً بدعوى الإمامة (و هادياً) للقرن الذي هو فيهم إلى الدين
 القويم والصراط المستقيم (نيراً) كالشمس الطالعة المجللة بنورها للعالم إذ بنوره
 يضيء قلوب المؤمنين و يرتفع عنها ظلمة الجهالة والغواية ، كما أن « بنور الشمس
 يضيء وجوه الأرضين و يرتفع عن الأبصار ظلمة الغطاء والغشاوة » (و إماماً فيماً)
 أي مستقيماً في أفعاله و أعماله وسائر الحالات الكاملة المطلوبة من الإنسان من
 قوّم الشيء فهو قويم أي مستقيم أوقيماً بأمر الإمامة من قام بأمر كذا (يهدون
 بالحق) « يهدون » حال عن الأئمة و « بالحق » ظرف مستقر حال عن ضمير الجمع أي
 يهدون الناس حال كونهم متلبسين بالحق ، أو ظرف لغو أي يهدونهم بكلمة الحق
 و يدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم إليها (و به يعدلون) بينهم في الأحكام .

(حجج الله) أي هم حجج الله على خلقه والجملة حال عن ضمير الجمع (و
 رعاته و رعاته) جمع الداعي والراعي وهو إمام من رعى الأمير رعيته رعاية إذا
 حفظهم عن المكارِه أو من رعى الأغنام أرعاها رعيّاً إذا أرسلتها إلى المرعى ، و
 كفلت مصالحها بتشبيه الخلق بالأغنام لأنهم قبل الاستكمال بالشرعة بمنزاتها
 في الحيرة و عدم علمهم بمصالحهم و مضارهم أحتاجهم إلى من يحبسهم على

مرعى الشريعة و يمنعهم عن الخروج عنها ، كما أن الأغنام تحتاج إلى من يجسبها على مرعائها و ما فيه مصالحها (على خلقه) متعلق بالثلاثة المذكورة على سبيل التنازع إذ بهم يحتج الله على خلقه في استكمال الدين فلا يكون لهم عليه حجة و هم دعائه على خلقه يدعوهم إلى معرفة ذاته و صفاته و شريعته و ورعته عليهم يحفظونهم عن المكروه و المقابح و يرشدونهم إلى المحاسن و المصالح (يدين بهديهم العباد) أي العباد يطيعون الله و رسوله في الأمر و النهي و غيرهما مما يجب التقرب و الرضوان بسبب هدايتهم و إرشادهم ولو لذلك لهلكوا جميعاً (و يستهل بنورهم البلاد) أي يستضيء بعلمهم البلاد أو أهلها على سبيل الاستعارة بتشبيه العلم بالنور في الهداية (جعلهم الله حيوة للانام) أي سبباً لحيوتهم و بقائهم في الدنيا إلى أجل معدود إذ لو لا وجودهم لمات الخليق دفعة واحدة. و يحتمل أن يراد بالحيوة الايمان بالله و باليوم الآخر و التصديق بما جاء به الشرع من باب تسمية السبب باسم المسبب لأن هذه الأمور سبب للحيوة الأبدية (و مصابيح للظلام) شبه البدعة و الجهالة بالظلمة في المنع من الاهتداء للطريق و استعمال في المشبه لفظ المشبه به و لزم من ذلك تشبيههم عليهم السلام بالمصابيح إذ بنورهم يرتفع غشاوة البدعة و الجهالة عن بصائر المؤمنين فيهندون إلى سبيل الحق و يجتنبون عن طريق المفساد كما أن بنور المصباح يرتفع غشاوة الظلمة عن أبصار الناظرين فيبصرون المطالب و يرشدون إلى المقاصد .

(و مفاتيح الكلام) تشبيه الكلام بالبيت المخزون فيها الجواهر استعارة مكنية و إثبات المفاتيح له تخيلية و المراد بالكلام الكلام الحق مطلقاً أو القرآن العزيز و لا يفتح باب حقايقه و أسرارہ على قلوب العارفين و لا يشاهدها بصائر الطالبين إلا بتفسيرهم و تعليمهم عليهم السلام (ودعائم الاسلام) تشبيه الاسلام بالبيت مكنية و إثبات الدعائم له تخيلية فكما أن بقاء البيت يحتاج إلى دعائم متناوبة يقوم الآخر مقام الاول عند زواله كذلك بقاء الاسلام و عدم اندراسه بتوارد صواعق المحن و تواتر سيول الفتن يحتاج إلى ناصر و معين يقوم واحد بعد واحد إلى قيام الساعة.

(وجعل نظام طاعته) أي ما ينتظم به طاعته . والنظام - بالكسر - الخيط الذي ينتظم به الأولو ففي الكلام استعارة مكنية و تخيلية (وتمايم فرضه) على العباد من غير أن يكون فيه نقص و عيب (التسليم لهم فيما علم) أي فيما علمه العبد أو فيما هو معلوم و معنى التسليم الاخبات والخضوع ، و تصديق قولهم فيما أسروا و ما أعلنوا سواء علمت المصلحة أولم تعلم . ومن التسليم نقل حديثهم كما سمعوه من غير زيادة و نقصان كما دل عليه رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام (١) (والرّد إليهم فيما جهل) أي فيما جهله العبد أو فيما هو مجهول يعنى الرجوع إليهم في استعلام المجهولات لا إلى غيرهم قال الله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وبالجملة أوجب الله تعالى علينا التسليم لهم في كل ما علمناه من تعليمهم والرجوع إليهم في كل ما جهلناه لأنهم أستاذنا و هادينا (٢) في ظلمات الطبايع البشرية .

(و حظر على غيرهم التهجم على القول بما يجهلون) الحظر المنع و منه قوله تعالى : « و ما كان عطاء ربك محظوراً » و كثيراً ما يرد في الحديث ذكر المحظور و يراد به الحرام ، و قد حظرت الشيء إذا حرمته و هو راجع إلى المنع ، والهجوم الاتيان بغتة والدخول من غير استئذان من باب طلب يعني حرم على غيرهم الدخول على القول بما يجهلون و منعهم عن الاقدام عليه بمجرّد الظن والرأي والقياس بقوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم » و قوله تعالى « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق » و مثله ما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون و يقفوا عند ما لا يعلمون » (٣) وما روي عنه عليه السلام أيضاً قال لسدير : « يا سدير أفأريكم الصادقين عن دين الله ثم

- (١) سيأتي في باب التسليم وفضل المسلمين تحت رقم ٨ حديث عن أحمد بن مهران عن عبد العظيم الحسني عن علي بن اسباط عن علي بن عقبة عن الحكم بن أيمن عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله « ع » عن قول الله عز وجل « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه إلى آخر الآية » قال : « هم المسلمون لآل محمد الذين إذا سمعوا الحديث لم يزيدوا فيه و لم ينقصوا منه جواباً كما سمعوه » . (٢) كذا في جميع النسخ التي كانت عندها . (٣) سيأتي في باب النهي عن القول بغير علم تحت رقم ٧ من كتاب فرض العلم .

نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري وهم حلق في المسجد يعني في مسجد الحرام فقال هؤلاء الصادقون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين ، إن هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله ﷺ (١).

(و منهم جحد ما لا يعلمون) لأن عدم العلم بالشيء ليس علماً بعدمه ولا مستلزماً له فانكاره لا يجوز عقلاً ولا نقلاً لقوله تعالى : « فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » وقوله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و لما يأتهم تأويله » (لما أراد تبارك وتعالى من استنقاذ من شاء من خلقه من ملومات الظلم ومغشيات البهم) (٢) اللآثم لتعليل ما تقدم في حقه من لطف الله تعالى بهم وإكرامه عليهم وما موصولة والعائد إليه محذوف والمملكات جمع الملمة وهي النازلة من نوازل الدنيا وحوادثها ، والظلم جمع الظلمة والمراد بها البدعة والفتنة على سبيل الاستعارة و ملومات الظلم من باب جرد قطيعة والغشاوة الغطاء والاعشاء التغطية منه قوله تعالى « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » والبهم جمع البهمة بالضم وهي ما يقع في الحيرة لعدم معرفة وجهه من قولهم كلام مبهم إذا لم يعرف له وجه والتركيب أيضاً من باب جرد قطيعة يعني فعل الله تعالى في شأن الأئمة ما فعل وأكرمهم بما ذكر وجعلهم هادي الأمة لما أراد الله تبارك وتعالى من استنقاذ من شاء من خلقه برحمته ورأفته و نجاتهم بسبب هداية الأئمة وإشراقات أنوارهم من ظلمات البدع والفتن إذا نزلت بهم ومن البهم الموجبة لحيرة عقولهم المغطية لبصائر قلوبهم إذا وردت عليهم ولما حمد الله تعالى على صفاته الذاتية والفعلية التي من جملتها بعث الرسل ونصب الخلفاء ، أراد أن يدعوهم استعانة بأرواحهم المقدسة المطهرة فيما هو بصدده و امتثالاً لقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ».

(١) رواه الكليني في كتاب الحجج باب أن الواجب على الناس بعد ما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام .

(٢) المراد بالمغشيات هنا الشبهات من باب الاستعارة كما أن التغطية والاعشاء مانع من رؤية ما وراء كذلك الشبهات حاجب عن رؤية الحق والطريق المعق من مرضات الله .

فقال (وصلى الله) عطف على قوله « الحمد لله » لأنه في قوة الجملة الفعلية
أوعلى قوله « أحمد » (على محمد وأهل بيته) الطاهرين المعصومين جميعاً وإن كان أهل
البيت يطلق تارة على علي و فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (الأخيار) جمع الخير
بالتشديد إذ الخير بالتخفيف اسم تفضيل لا يثنى ولا يجمع كما يثنى في موضعه (الذين
أذهب الله عنهم الرجس) اللام اما للجنس او للاستغراق (وطهرهم تطهيراً) اقتباس
لقوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ».

((الأصل)):

« أما بعد فقد فهمت يا أخي ما شكوت من اصطلاح أهل دهرنا على الجهالة »
« و توازرهم وسعهم في عمارة طرقها و مباينتهم العلم و أهله ، حتى كاد العلم »
« معهم أن يآرز كلاً ويتقطع موادّه ؛ لما قدرضوا أن يستندوا إلى الجهل ويضيعوا »
« العلم و أهله . و سألت : هل يسع الناس المقام على الجهالة والتدين بغير علم »
« إذ كانوا داخلين في الدين مقرّين بجميع أموره على جهة الاستحسان والنشوء »
« عليه والتقليد للآباء والأسلاف والكبراء والانتكال على عقولهم في دقيق الأشياء »
« وجليلها ؟ فاعلم يا أخي رحمك الله إن الله تبارك وتعالى خلق عباده خلقة متصلة من »
« البهائم في الفطن والعقول المر كبة فيهم ، محتملة للأمر والنهي وجعلهم جل »
« ذكره صتيقن : صنفاً منهم أهل الصحة والسلامة وصنفاً منهم أهل الضرر والزمانة ، »
« فخصّ أهل الصحة والسلامة بالأمر والنهي بعد ما أكمل لهم آلة التكليف و »
« وضع التكليف عن أهل الزمانة والضرر إذ قد خلقهم خلقة غير محتملة للأدب »
« والتعليم وجعل عزّ وجلّ سبب بقائهم أهل الصحة والسلامة وجعل بقاء أهل »
« الصحة والسلامة بالأدب والتعليم ، فلو كانت الجهالة جائزة لأهل الصحة و »
« السلامة لجاز وضع التكليف عنهم و في جواز ذلك بطلان الكتب والرسول والآداب »
« وفي رفع الكتب والرسول والآداب فساد التدبير والرجوع إلى قول أهل الدّهر »
« فوجب في عدل الله عزّ وجلّ وحكمته أن يحضّ من خلق من خلقه خلقة »

«محتملة للأمر والنهي لئلا يكونوا سدى مهملين ، وليعظموه ويوحّدوه ويقرّوا»
 «له بالربوبية و ليعلموا أنّه خالقهم ورازقهم ، إذ شواهد ربوبيته دالة ظاهرة و »
 «حججه نيّرة واضحة و أعلامه لائحة : تدعوهم إلى توحيد الله عزّ وجلّ وتشهد »
 «على أنفسهم لصانعها بالربوبية والالهيّة، لما فيها من آثار صنعه وعجائب تدبيره»
 «فندبهم إلى معرفته لئلاّ يبيع لهم أن يجهلوه ويجعلوا دينه و أحكامه لأنّ الحكيم»
 «لا يبيع الجهل به والانكار لدينه ، فقال جلّ ثناؤه : «ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب »
 « ألاّ يقولوا على الله إلّا الحقّ » وقال « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » فكانوا »
 «محصورين بالأمر والنهي ، مأمورين بقول الحقّ ، غير مرخص لهم في المقام »
 «على الجهل ، أمرهم بالسؤال والتفقّه في الدّين فقال «فلولا نشر من كلّ فرقة»
 «منهم طائفة ليتفقّوها في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم» وقال « فاسألوا »
 «أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » فلو كان يسع أهل الصّحّة والسّلامة المقام »
 «على الجهل ، لما أمرهم بالسؤال ولم يكن يحتاج إلى بعثة الرسل بالكتب والآداب»
 «و كادوا يكونون عند ذلك بمنزلة البهائم ومنزلة أهل الضرر والزمانة ولو كانوا »
 «كذلك لما بقوا طرفة عين ، فلمّا لم يجز بقاؤهم إلّا بالأدب والتعليم وجب »
 «أنّه لابدّ لكلّ صحيح الخلقة كامل الآلة ، من مؤدّب ودليل ومشير وأمر وناه»
 «و أدب و تعليم و سؤال و مسألة».

((الشرح)):

ولما فرغ عن التّحميد والصّلاة أراد أن يشير إلى سبب تأليف هذا الكتاب.
 وسببه بطريق الإجمال أن رجلاً من المؤمنين شكى إليه الخاليق بسوء عقائدهم و
 أفعالهم من اتّفاقهم على الجهل بأمر الدّين و تعظيمهم لأهلّه أعلاه ينزعه عن شكايته
 و يزيله عمّا يشكّوه و سأله هل يسعهم المقام على الجهل والتقليد بالآباء والأسلاف
 أم لا، فأجاب بأنّ الناس على صنفين صنف أهل الضرر والزمانة ، وصنف أهل الصّحّة
 والسّلامة و هذا الصنف لا يجوز لهم المقام على الجهل بل وجب عليهم التعلّم والتعليم

وبيّنه في كلام طويل ، ثمّ أمّا علم السائل وجوب النعم على هذا الصنف شكى إليه اختلاف الروايات وأنّه ليس بحضرة من يسأله ويعتمد بقوله ، و سأله أن يصنّف له كتاباً جامعاً للروايات الواردة في أصول الدّين وفروعه فأجاب سؤاله ، و صنّف هذا الكتاب ليكون مرجعاً له و لسائر المؤمنين إلى يوم الدّين فأشار إلى ما ذكرناه إجمالاً بقوله :

(أما بعد فقد فهمت يا أخى ما شكوت من اصطلاح أهل دهرنا على الجهالة أي من تراضيمهم و توافق آرائهم عليها و محبتهم لأهلها و اجتماع كلمتهم فيها و استحسانهم إيّاها لأنّ كلّ حزب بما لديهم فرحون والاصطلاح من الصّلاح وهو اسم بمعنى المصالحة والتّصالح خلاف المخاصمة والتّخاصم (وتوازرهم) أي تعاونهم من الأزر و هو القوّة يقال : آرزت فلاناً أي عاونته والعامة تقول وازرته (وسعيهم في عمارة طرقها) بنزيبها وتحسينها وترويج آثارها من اكتساب الخطيئات واقتراف السيئات و مودة الاندال و معاشرة الأردال لأنّ كلّ ذلك سبب لشهرتها واتّضاح أمرها و ميل أهل الطّبع إليها (و مباينتهم العلم و أهلها) في لفظ المباينة إشعار بأنّ الفعل من الطرفين و ذلك لأنّ العلم ضدّ الجهل فمن اتّصف بأحدهما وحسنه لنفسه يجتنب عن الآخر و أهلها ، فكما أنّ الجاهل يستنكف عن التحلّي بالعلم والاستكمال بصحبة العلماء و مجالستهم كذلك العالم يستنكف عن التدنّس بالجهل والاستردال بصحبة الجهّال و مجالستهم و ممّا ينبهك على ذلك و إن لم يكن من هذا الباب حكاية الخضر و موسى على نبيّنا وآله عليهما الصّلاة والسلام فاذا كان الحال بين النبيّين المقرّبين الكاملين في القوّة العلميّة والعملية ما قد تعلم فالحال بين غيرهما أظهر و لزوم الافتراق أبين و أجدر (حتّى كاد العلم معهم) أي مع سوء معاملتهم و قبح أفعالهم و شدة معاندتهم (أن يأرز كلّ) بتقديم الراء المهملة على المنقوطة أي يجتمع كلّ في زاوية النسيان من أرزت الحيّة إلى جحرها إذا انضمت إليها و اجتمع بعضها إلى بعض فيها ، أو ينقبض و يهزل من الهمّ و الغمّ من أرز فلان يأرز أرزاً فهو أررز إذا تقبّض من بخله ولم ينهبط للمعروف

و على التقديرين في الكلام استعارة تبعيَّة ، و يأزر بتقديم المنقوطة على المهملة بمعنى يضعف غير بعيد، والأزر مشترك بين الضَّدين أي القوة والضعف (و ينقطع مواده) بالكسبة وهي الأخبار والآثار المروية عن المعصوم عليه السلام (لما قدر ضوأن يستندوا) في أعمالهم وعقائدهم (إلى الجهل) و يعتمدوا عليه و يركنوا إليه وهو إشارة إلى الاصطلاح و التوازر المذكورين كما أن قوله (و يضيعوا العلم و أهله) إشارة إلى المباينة المذكورة لأنَّهم بسبب تلك المباينة يلبسون الحق بالباطل وهم عن الحق معرضون و يدرسون كتاب الجهل وهم به موقنون و يرون جون مسائله و هم بذلك مبتمجون ، ويتبعون آثاره من الخطيئات و هم على ذلك مفرطون ، و يمدحون الدنيا و أهلها و هم إليهم متقربون ، و يذمون العلم و أهله و هم عنهم يجهتبون ، و يوحون إلى أقرانهم زخرف القول في ذم العلماء ، و هم بذلك مستبشرون ، و يكرهون مجالسة الحكماء الذين هم ورثة الأنبياء ، و هم بهم مستهزؤون ، كذلك طبع الله على قلوبهم و هم عن إدراك الحق مبعدون ، فلذلك كاد العلم أن يارز و ينقطع مواده و ينهزم عن عساكر الجهل لفقده من ينصره إلا قليلاً من المؤمنين .

(و سألت هل يسع الناس المقام) بنصب الأول على المفعولية و رفع الثاني على الفاعلية (على الجهالة) في المعارف الحقيقية والأموال الشرعية . و يسع من وسعة المكان إذا لم يضيق عليه و يستعمل كثيراً في معنى الجواز يقال : يسعه أن يفعل كذا أي يجوز لأنَّ الجائز موسَّع غير مضيق والمقام بفتح الميم و ضمها لأنَّه إن كان من قام يقوم فمفتوح و إن كان من أقام يقيم فمضموم ، و هو على التقديرين قد يكون مصداً بمعنى القيام أو الإقامة ، وقد يكون إسماعاً لموضع القيام و يجوز حمله هنا على كلا المعنيين لأنَّ الأول يناسب الوسع بمعنى الجواز والثاني يناسبه بمعنى الضيق (والتدين بغير العلم) يستند إلى معصوم شفاهاً أو بواسطة رواة ثقات (إذ كانوا داخلين في الدين ، مقررَّين بجميع أموره على جهة الاستحسان) من غير حجة و برهان ، والظرف متعلق بالدخول والاقرار على سبيل التنازع .

(والنشوء عليه) نشأ الصبي " ينشأ نشأ على فعل بتسكين العين و نشوء على فعول بضمين و همز اللام : إذا كبر وشب " ولم يتكامل ، قيل : في بعض النسخ « والنشق » قال الجوهري : « يقال رجل نشق إذا كان يدخل في أمور لا يكاد يتخلص منها » (والتقليد) القلادة هي التي في العنق وقلدت المرأة فنقلدت هي ، ومنه التقليد في الدين و تقليد الولاية الأعمال و تقليد الهدى و هو أن يعلق في عنقه شيء ، ليعلم أنه هدى " (للآباء والأسلاف والكبراء) فقبلوا ما قبلوه ورد و اماردوه من غير أن يتمسكوا في ذلك بتمسك صحيح و مستند صريح كما هو المشاهد في أكثر هذه الأمة ولو سئلتهم عن وجه ذلك لسكتوا بل قالوا إننا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مهتدون (والاتكال على عقولهم في دقيق الأشياء و جليلها) يعني في أصول العقائد وفروعها كما هو شأن بعض الحكماء والمتكلمين و تابعيهما و بعض الفقهاء المتمسكين بالأدلة العقلية مثل الاستحسان والاستصحاب والمفهومات و غيرها .

(فاعلم يا أخي) شرع في الجواب عما سئله السائل بقوله : « هل يسع الناس » و ما أشكاه عن شكايته لم يأت بما يزيلها لأن تلك الخصال الذميمة قد صارت في أكثر الناس كالطبيعة الثانية فلا بد للمعاقل اللبيب من أن يتجرع كأس الفصص و يصبر صبراً جميلاً (إن الله تبارك و تعالى خلق عباده خلقة) بكسر الخاء للنوع والحالة (منفصلة) أي متميزة (عن البهائم في الفطن) جمع الفطنة وهي الفهم والذكاء رجل فطن و فطن ذكي فهم ، وفي بعض النسخ « في الفطر » بالراء جمع الفطرة وهي الخلقة من الفطر بمعنى الإيجاد كالخلقة من الخلق في أنها اسم للحالة ثم جعلت اسماً للخلقة القابلة لدين الحق على الخصوص ، وعليه الحديث المشهور « كل مولود يولد على الفطرة » اسماً لملة الإسلام نفسها لأنها حالة من أحوال صاحبها وعليه قوله ﷺ « قص الأظفار من الفطرة » كذا في المغرب ، وقد يرجح هذا على ما في الأصل بأن الكلام في أصل الخلقة والفطنة من الأمور العارضة (والعقول المركبة فيهم) بالجر عطف على الفطن ويحتمل الرفع بالابتداء .

قال الجوهري: "تقول في تركيب القص في الخاتم والنصل في السهم ركبته فتر كسب فهو مركب" (محتملة) بالنصب حال عن العقول على الأول وبالرفع خبر لها على الثاني (للأمر والنهي) بخلاف البهائم، إذ ليست لها فطانة وذكاء ولا عقول بل يتعلّق بها نفوس حيوانية لحفظ التركيب والاعتناء والنمو وتوليد المثل والاحساس والحركات الإرادية.

(وجعلهم) بعد اشتراكهم في الفطن والعقول (صنفين صنفاً منهم) بدل أو عطف بيان للمفعول الأول (أهل الصحة والسلامة) مفعول ثان، ومن قال: إن "صنفاً منهم" منصوب على أنه بدل عن مفعول ثان لجعل وأورد على قوله "أهل الصحة والسلامة" بأنه لا محل له من الأعراب فقد أخطأ (و صنفاً منهم أهل الضرر) الضرر خلاف البقع والاسم الضرر وهو المشقة والضرير ذاهب البصر (والزمانة) هي آفة في الحيوانات ورجل "ز" من أي مبتلى بين الزمانه قيل: المراد أنهم ضاربروز مناء في الجوهر الباطني والأول إشارة إلى قصور القوة النظرية التي يقال لها العقل النظري والثاني إلى اختلال القوة العملية التي يقال لها العقل العملي، أقول الأولى حملها على كل ما يمنع من توجه خطاب التكليف بالأدب والتعليم لأن المقصود بيان من يجوز له التقليد ومن لا يجوز. وأهل الضرر في العقل النظري وأهل الزمانه في العقل العملي قد لا يكونون من أهل التقليد أيضاً، ولا يشبه حالهم على أحد فلا يكون في التقسيم كثير فائدة. وهنا سؤال مشهور هو أنه لم يخلقهم سواء؟ وما الباعث على هذا التفاوت وما المصلحة فيه؟ فأجاب عنه الأشاعرة بأنه فاعل مختار يفعل في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وأجاب بعض الحكماء بأن هذا التفاوت للتفاوت في القابلية، والقابلية شرط في الإفاضة، وهذا إلى الإيجاب أقرب ومن ظاهر الشريعة أبعد. وأجاب بعض آخر منهم بأنه لمصلحة نظام الكل الذي لا نظام أكمل منه لأنه لو خلق كل فرد على الوجه الأكمل بالنسبة إليه وحده لغات نظام الكل من حيث هو كل بل فئات نظام كل فرد أيضاً، مثلاً لو جعل كل فرد فاضلاً عاملاً لما انتظم المصالح الجزئية التي

لا بد في مزاولتها خسة . والحق أن لهذا التفاوت بواعث ومصالح جمّة والعقول الناقصة قاصرة عن معرفة تفاصيلها .

وقد سأل المفضل بن عمر في توحيده عن الصادق عليه السلام حين ذكر عليه السلام منافع ما في الإنسان من العقل والقوى الظاهرة والباطنة وغير ذلك من الأعضاء وذكر مضارّ عدمها ، فقال المفضل : قلت فلم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح فينال في ذلك مثل ما وصفته يا مولاي؟ قال عليه السلام : ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه ، كما قد يؤدّب الملوك الناس للتشكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم بل يحمد من رأيهم ويصوب من تدبيرهم ، ثم إن الذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت أن شكروا وأتابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى أنهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب ، (فخص أهل الصّحة والسلامة) القابلة عقولهم للأدب والتعليم . وخصّ بالخصاء المعجزة والصادق المهملة (بالأمر والنهي) في المعارف الإلهية والفروع الشرعية وطلب منهم معرفة ذلك بالاستدلال على الوجه المعبر و تعليمهم لغيرهم كما يشعر به قوله تعالى « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (بعد ما أكمل لهم آلة التكليف) يعني القوى الباطنة والظاهرة مع صحّتها عن الآفات و خلوها عن الموانع (ووضع التكليف عن أهل الضرر والزمانة إذ خلقهم خلقة غير محتملة للأدب والتعليم) في المعارف اليقينية والقوانين الشرعية بالنظر والاستدلال . ولبعضهم هنا كلام لا يخلوا من مناقشة لأنّه فسّر آلة التكليف بالعقل الذي لم يعرضه الجنون والإغماء . و شبههما و فسّر الضرر والزمانة بالاختلال في العقل وهذا صريح بقريضة المقابلة في أن إوضع التكليف عن أهلها عنده لفقد العقل بالجنون ونحوه ، ثم خصّ الأدب والتعليم بالمعارف الإلهية حيث قال أي غير محتملة للتأديب والآداب العقلية والنسك الإلهية والتعلّم بالعلوم الحقيقية والمعارف اليقينية العلمية وإلا فالقسمان مكلفان بالأوامر والنواهي الشرعية والأعمال من الصلّاة والطواف والزكاة و

الصيام وغيرها من الأعمال البدنية هذه عبارته و فيه أن القسم الثاني إذا فقد العقل كيف يكون مكلفاً بهذه الأمور فتأمل.

(و جعل عز وجل سبب بقائهم) في الدنيا (أهل الصحة والسلامة وجعل بقاء أهل الصحة والسلامة بالآداب والتعليم) إذ لولا الآداب والتعليم لكانوا كلهم بمنزلة البهائم و لغات الغرض من الإيجاد ولو كانوا كذلك لما بقوا طرفة عين لأن الله تعالى لا يدع الأرض بغير عالم يعرف به الحق من الباطل (فلو كانت الجهالة حايضة) الظاهر أن الغاء للتعليل (لأهل الصحة والسلامة) ولم يجب عليهم الآداب والتعليم كما لم يجب على أهل الضرر والزمانة (لجواز وضع التكليف عليهم) كما جاز وضعه عن أهل الضرر والزمانة (و في جواز ذلك بطلان الكتب والرسائل و الآداب) لأن الغرض من إنزال الكتب وإرسال الرسائل و تقرير الآداب هو التلقّي بما تضمنته الأول والتصديق بما جاء به الثاني وتزيين النفس وتكميلها بالثالث ليحصل لهم بذلك نظام الدنيا و كمال الآخرة و إذا لم يجب عليهم ذلك بطل الغرض من هذه الأمور و إذا بطل الغرض بطل هذه الأمور و لزم العبث (و في رفع الكتب والرسائل والآداب) والقول ببطلانها و فسادها (فساد التدبير) أي القول بأن ليس لهذا العالم صانع عالم مدبّر يصنعه بتقدير و تدبير و علم بعواقب الأمور من تدبير الأمر إذا نظر في إداره أي في عواقبه (والرّجوع إلى قول أهل الدهر) المنكرين للحشر والنشر و بعث الأنبياء ، والقائلين بأن وجود هذا العالم وأجزائه من فعل الطبيعة باهمال لا بعلم ولا تدبير ، ولا صنعة فيه ولا تقدير بل الأشياء تتكون من ذاتها وكانت الدنيا لم تزل ولا تزال ويقولون « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا و ما يهلكنا إلا الدهر » وإن شئت أن تعرف جملة من تقديرات ربك و تدبيرات إلهك فعليك بمطالعة توحيد المفضل المنقول عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام وقد سمعت عمن أثق به أن السيد الجليل ابن طاووس رضي الله عنه أوصى إلى بعض أحبائه و أمره أن يطالعه و يمارسه (١) والحق أنه مع قلة

(١) قد أوصى السيد - رحمه الله - ولده وثيرة مهجته «محمد» بقراءة هذا الكتاب في

حججه كتاب يظهر لمن مارسه من العلم بالحكم الالهية والتدبيرات الربوبية ما يكمل اللسان عن وصفه و يعجز البيان عن شرحه .

(فوجب في عدل الله و حكمته أن يحض) بالحاء المهملة والصاد المعجمة أو بالحاء المعجمة والصاد المهملة و قيل : في بعض النسخ « أن يحصر » بالحاء والصاد المهملتين والراء أخيراً أى يضيق ويحبس ، ويؤيد الأخيرين قوله فيما بعد « فكانوا محصورين بالأمر والنهي » (من خلق من خلقه خلقة محتملة للأمر والنهي) وهو من كان من أهل الصحة والسلامة كاملاً فيه آلة التكليف (بالأمر والنهي) في الأحكام و المعارف و الظرف متعلق بـ « يحض » (لئلا يكونوا سدى) السدى بضم السين وقد يفتح و كلاهما للواحد و الجمع بمعنى المهمل يقال إبل سدى أى مهملة ، وأسديتها أى أهملتها و ذلك إذا أرسلتها ترعى ليلاً ونهاراً بلاراع ، فقوله (مهملين) بدل أو بيان أو صفة للتوضيح والتفسير وفي إهمالهم والتخليّة بينهم و بين نفوسهم غير ما ذكر من المفاسد ما لا يخفى (وليعظموه) بتحميد و تمجيد و توصيفه بما يليق به من صفات الكمال ونعوت الجلال (ويوحده) بنفي الشريك والتجزية ذهنياً و خارجاً (و يقرؤا له بالربوبية) أي بأنه رب كل شيء ، و مالكه و مدبره ولارب سواه والرب من أسمائه تعالى ولا يطلق على غيره إلا بالإضافة (و ليعلموا أنه خالقهم) منه بدء وجودهم و بقاؤهم (و رازقهم) في كل ما ينتفعون به و يحتاجون إليه في العيش و البقاء ، والرزق في اللغة ما ينتفع به و عند الأشاعرة كل ما ينتفع به خي ، غذاء كان أو غيره ، مباحاً كان أو حراماً ، و خصّه بعضهم بالأغذية والأشربة و عند المعتزلة هو كل ما صح انتفاع الحيوان به بالتغذي وغيره وليس لأحد المنع منه فليس الحرام رزقاً عندهم .

(إذ شواهد ربوبيته دالة ظاهرة و حججه نيّة واضحة و أعلامه لائحة) العطف فيهما للتفسير و يحتمل أن يراد بالشواهد طبائع الممكنات القابلة للتربية الموصلة لها إلى كمالاتها ، وبالحجج نفس تلك الكمالات ، وبالأعلام مجموع ذلك من حيث المجموع أو وضع كل ممكن في حدّه و مرتبته التي يليق به (تدفهوهم

إلى توحيد الله عز وجل) و علمه وقدرته وتدبيره و سائر صفاته و كمالاته و تبعثهم على التصديق بذلك ، والجملة في محل النصب على أنها حال من فاعل الأخبار المذكورة و إنما وضع الظاهر موضع الضمير للتبرك بذكر الله و الإشارة إجمالاً إلى دلالة الأمور المذكورة على جميع كمالاته أيضاً كما أشرنا إليه (وتشهد) أي تلك الشواهد والحجج والأعلام (على أنفسها لصانعها بالربوبية والالهية لما فيها من آثار صنعه وعجائب تدبيره) فإن من نظر بقلب سليم وعقل صحيح إلى أحوال هذا العالم و كيفية نضدها ومنافعها وأحوال الأفلاك و كيفية حر كنها حول الأرض من شرق إلى غرب و من غرب إلى شرق و أحوال الشمس في طلوعها و غروبها وانتقالها من برج إلى برج لإقامة دور السنة و الفصول ومنافعها التي من جملتها نشو النبات ونموها و إدراك الثمار والغلات و ضبط الاوقات للديون و المعاملات وأحوال القمر في إنارته ونقصانه وزيادته وحر كته في منازلها ومنافع هذه الأمور وأحوال المتحيرة في اختلاف حر كاتها كماً وكيفاً ووجهة وانتقالاتها واقتاراتها و استقامتها ووقوفها ، ورجوعها و ما يترتب على هذه الأمور من المنافع وأحوال السفليات مثل الأرض والماء والنار والهواء والسحاب المسخريين الأرض والسماء وانتقاله من موضع إلى موضع ، وإفاضة الماء في وقت و في محل دون وقت ومحل آخر وأحوال المعدنية مثل الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والزمرد الفيروزج والحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والكبريت والقار والموميا ، و غيرها مما يشتد حاجة الناس إليه وتكثر منفعه ، و أحوال الحيوانات ومنافعها وفوائدها وخواصها واهتدائها إلى مصالحها في معاشها وبقائها وفراها عما يضرها وميلها إلى ما ينفعها ، و من جملتها الذرة الحفيرة وهي مع حقارتها وصغرها يجتمعن في جمع القوت وإعداده بالمعاونة في نقله إلى بيوتهن ثم يعمدن ويقطعن الحب لكيلا ينبت ولا يفسد ، ومنها الزنبور فأنه يعمل بيوتات مسدسات ومخمسات متجاورات من غير فرجة وقد يعجز عن مثلها المهرة من أرباب الهندسة و أحوال الإنسان وما فيه من القوى والحواس والأعضاء والجوارح والعروق الساكنة والمتحركة

والنفوس القابلة للمعروج إلى أعلى علمين و النزول إلى أسفل السافلين و أحوال
الجنين واحتجابه في ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة حيث
لا حيلة له في طلب الغذاء ولا دفع الضرر ولا جلب النفع كيف يجري إليه في تلك
الأحوال جميع ما يحتاج إليه وكيف يجعل له ثدي الأم بمنزلة الأذنين وكيف يجعل
له الدم ليناً خالصاً وكيف يحرّك هو شفتيه طلباً لغذائه عرف أن كل هذه الأمور
و غير ها ممّا لا يعدّ ولا يحصى بأمر صانع عليم خبير قدير مدبّر أوّحد كلّ
ذرة من ذرات هذا العالم بعلم و قدرة و تدبير لا إله إلا هو تعالى الله عما يقوله
الظالمون علواً كبيراً .

(و ندبهم) أي دعاهم إلى معرفته أي معرفة ذاته وصفاته و شرايعه وأحكامه
كما يرشد إليه قوله (لئلا يبيح لهم أن يجهلوه و يجهلوا دينه) الذي شرعه لنظام
أحوالهم و انقيادهم بالعبودية (و أحكامه) الخمسة المعروفة (لأن الحكيم لا يبيح
الجهل به والانكار لدينه) لأرباب الاستعداد وأهل الصحة والسلامة و لعل المراد
بالانكار الجهل بناء على أن إنكار الشيء مستلزم للجهل به ، فيطبق الدليل على
المدعى (فقال جل ثناؤه) الفاء تفصيل لقوله « ندبهم » أو تعليل له ، أو لقوله
« الحكيم لا يبيح الجهل والانكار لدينه » (ألم يؤخذ عليهم) إنكار للنفي أي أخذ
على أهل الكتاب (ميثاق الكتاب) أي الميثاق المذكور في الكتاب وهو التوراة، والميثاق
العهد (أن لا يقولوا على الله إلا الحق) و هو القول باشتراط التوبة في غفران
الذنوب حتماً ، و فيه أن ما ذهب إليه اليهود من إثبات المغفرة بغير توبة والبت
عليها نقض لميثاق الكتاب و افتراء على الله و تقول عليه بما ليس بحق « و أن
لا يقولوا عطف بيان للميثاق أو متعلق به أي بأن لا يقولوا ، وقيل المراد بميثاق الكتاب
قوله تعالى في التوراة « من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر إلا بالتوبة » وحينئذ قوله
وأن لا يقولوا مفعول له ومعناه لئلا يقولوا ، ثم الآية و إن نزلت لسبب مخصوص
كما ذكره المفسرون إلا أننا قد بينا في الأصول أن خصوص السبب لا يخص عموم
الحكم و على هذا دللت الآية على أنه يجب على هذه الأمة أيضاً أن يقولوا الحق

و يحرم عليهم أن يقولوا في صفاته و أفعاله و أحكامه و شرائعه ما ليس بحق ، و أن يشبّوا له ما هو منزّه عنه من الولد و الصاحبة و التجسّم و التحديد و التشبيه و غير ذلك .

(وقال بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) قال القاضي ، و صاحب الكشف: بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن أوّل ما سمعوه و في بديهة السّماع قبل أن يفقهوا ويتدبّروا آياته و يعلموا كنه أمره و يفقهوا على تأويله و معانيه ، و ذلك لفرط نفورهم على مخالفة دينهم و مفارقة دين آبائهم كالنّاشي على التقليد إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه و ألفه و إن كانت أضواء من الشمس في ظهور الصحة و بيان الاستقامة أنكرها أوّل وهلة و اشمئزّ منها قبل أن يحسن إدراكها بحاسة سمعهم غير فكر في صحة أو فساد لأنّه لم يشعر قلبه إلاّ بصحة مذهبه و فساد ما عداه من المذاهب ، ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على النّصب إلى معرفة الحقّ و اتّقول به و ذمّ الجهل و المنكرين لدين الحقّ (فكانوا) أي أهل الصحة و السلامة (محصورين بالأمر و النهي) في المعارف و الأحكام أي محبوسين بهما لا يجوز لهم التفارق عنهما أو أنهما يتوجّهان إليهم لا إلى غيرهم من أهل الضرر و الزّمانة (مأمورين بقول الحقّ) فيهما ، و الإضافة بيان أنّ المصدر إضافة المصدر إلى المفعول (غير مخصّص لهم) بفتح الخاء و الظرف قائم مقام الفاعل أو بكسرها و الفاعل هو الله تعالى (في المقام بالفتح و الضمّ) مصدر (على الجهل) بدين الحقّ و أحكامه (أمرهم بالسؤال و التّفقّه في الدّين) بمنزلة التعليل لما مرّ فلذلك ترك العاطف (فقال فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدّين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) قال القاضي و صاحب الكشف : فهلاّ نفر من كلّ جماعة كثيرة كقبيلة و أهل بلدة جماعة قليلة ليتكلّفوا الفقه في الدّين ، و يتجسّموا المشاقّ في أخذها و تحصيلها ، و ليجعلوا غرضهم و مرمى همّهم في التّفقّه إرشاد القوم و إنذارهم و النصيحة لهم ؛ و تخصيصه بالذكر لأنّه أهمّ ، و فيه دليل على أنّه ينبغي أن يكون غرض المتعلّم فيه أن يستقيم في نفسه و يقيم غيره ، لا الترفّع على النّاس و التّبسّط في البلاد و

التشبه بالظلمة في ملاسهم و مراكبهم كما هو شأن بعض المتفقهين .
و أورد عليهما بعض الأفاضل و تبعه بعض آخر بأنهما جعللا الانذار والنصيحة
آخر القصد و مرعى الهمة في النفقة و لم ينظنا بأنهما ممتلايا ساعده اللفظ لوجود العاطف
في التعليل فيكون « لينذروا عطفاً على « ليتفقوا » باعادة لام العلة و لو لم يكن الواو
كان لما ذكره وجه .

أقول : نسبة عدم التفطن بالعاطف إلى مثلها سيما إلى صاحب الكشف
المبرز في علم العريضة و المقتن لقوانينها في غاية البعد و إنما نشأ ذلك من عدم
التفطن بمقصودهما لأن مقصودهما أن مجموع النفقة في الدين و تعلم الأحكام
و أصول القواعد على اليقين و إنذار القوم و إرشادهم إليهما و إن كان غاية السعي
و النقر لكن الظاهر أن الانذار غاية النقر بواسطة النفقة إذ لا يمكن حصوله بدونه
فهو بحسب الحقيقة والمعنى غاية النفقة و إن كان في العبارة بظاهر العطف غاية
النقر فهما جعللا الانذار غاية النفقة رعاية لجانب المعنى و تنبيهاً على ما ذكرنا .
(و قال فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) أمرهم بالسؤال على تقدير
عدم العلم و لم يجوز لهم البقاء على الجهالة و المقدم هنا جزاء للشرط عند من جوز
تقديمه عليه ، و دليل على جزاء محذوف بعده عند طائفة ، والشرط حال لا يحتاج
إلى جزاء عند آخرين (فلو كان يسع أهل الصحة والسلامة المقام على الجهل لما
أمرهم بالسؤال) فيه دلالة على أن الأمر للوجوب إذ استجاب السؤال لا ينافي جواز
المقام على الجهل (ولم يكن يحتاج إلى بعثة الرسل بالكتب والآداب) لأن البعثة
على هذا التقدير عبث إذا الغرض منها تكميل الخلاق و تهذيبهم فإذا لم يجب عليهم قبول
ذلك و جاز لهم المقام على الجهل بطل الغرض ، وإذا بطل الغرض لزم العبث وإذا لزم العبث
لزم عدم الاحتياج إلى ما ذكر ولكن عدم الاحتياج باطل إما لما مر من نفي التدبير
والرجوع إلى قول أهل الدهر ، و إما لما أشار إليه بقوله (فكانوا) أي أهل
السلامة (يكونون عند ذلك) أي عدم بعثة الرسل بالكتب والآداب (بمنزلة البهائم
و بمنزلة أهل الضرر و الزمانة) في عدم الفرق بين الحق و الباطل و عدم التمييز بين

المعارف وغيرها ، و قيل : إلا أن بين الفريقين فرقاً لأن أهل الصحة والسلامة لهم عذاب أليم في القيامة لأنهم أبطلوا استعدادهم و أفسدوا قوّة مرآة بصيرتهم -م دون الطائفة الأخيرة لأنهم مخنوم على قلوبهم في الأزل و فيه نظراً لأن المفروض عدم وقوع التكليف بشيء أصلاً فكيف يكونون معذبين في القيامة والعذاب إنما يكون بترك التكليف (ولو كانوا كذلك) أي بمنزلة البهائم و أهل الضرر والزمانة (لما بقوا طرفة عين) و هلكوا دفعة واحدة من غير مهلة لأن حكمة الله تعالى تقتضي عدم بقاء الأرض و من عليها بدون أهل شريعة و دين و أصحاب معرفة و يقين .

(فلمّا لم يجز بقاؤهم إلا بالآداب والتعليم وجب أن لا بدّ لكلّ صاحب الخلقة كامل الآلة من مؤدّب و دليل و مشير) ليحصل التأدّب بالآداب باعانة و إرفاده والاهتداء إلى الحقّ بدلالته و إرشاده (و أمر و ناه) ليسلك سبيل الخيرات بزواجر أمره و يسدّ سبيل المنهيات بزواجر نهيّه (و أدب و تعليم) ليكتسب الذّهن من نورهما جلاء و يقترب العقل من ضوئهما صفاء (و سؤال و مسألة) ليرفع عن وجه القلب نقاب الجهالة و يزيل عن ساحة العقل حجاب الضلالة ، لأنّ شفاء العي هو السؤال ، كلّ ذلك ليستكمل القوّة النظرية والعملية على مراتبهما وتتخلّى النفس عن الرذائل وتتخلّى بالقضائل ، وتخرج إلى حدّ الكمال من حدّ النقصان ؛ و تشاهد الصور الإدراكية مشاهدة العيان ، و تدرك جلال الحقّ في مرآة ذاته ، ولا تغفل طرفة عين عن أفعاله ، وصفاته ؛ ففي كلّ وقت يحصل لها الشوق والسرور ، والله وليّها يخرجها من الظلمات إلى النور .

((الأصل)) :

« فأحقّ ما اقتبسّه العاقل و التمسّه المتدبّر الفطن و سعى له الموفق »
 « المصيب العلم بالدين و معرفة ما استعبد الله به خلقه : من توحيدّه و شرايعه و »
 « أحكامه و أمره و نهيّه و زواجره و آدابه ، إذ كانت الحجّة ثابتة و التكليف »
 « لازماً و العمر يسيراً و التسويف غير مقبول و الشرط من الله جلّ ذكره فيما »
 شرح اصول الكافي - ٣ -

« استعبد به خلقه أن يؤدّوا جميع فرائضه بعلم و يقين و بصيرة ليكون المؤدّي ،
 « لها محموداً عند ربّه مستوجباً لثوابه و عظيم جزائه ، لأنّ الذي يؤدّي بغير ،
 « علم و بصيرة لا يدري ما يؤدّي ولا يدري إلى من يؤدّي . و إذا كان جاهلاً ،
 « لم يكن على ثقة مما أدّى ، ولا مصدّقاً . لأنّ المصدق لا يكون مصدّقاً حتّى ،
 « يكون عارفاً بما صدّق به من غير شكّ ولا شبهة ، لأنّ الشاك لا يكون له ،
 « من الرغبة و الرهبة والخضوع والتقرّب مثل ما يكون من العالم المستيقن ،
 « و قد قال الله عزّ و جلّ : « إلاّ من شهد بالحقّ وهم يعلمون ، فصارت الشهادة ،
 « مقبولة لعلّة العلم بالشهادة ، ولولا العلم بالشهادة لم تكن الشهادة مقبولة ، والأمر ،
 « في الشاك المؤدّي بغير علم و بصيرة إلى الله جلّ ذكره إن شاء تطوّل عليه ،
 « فقبل عمله وإن شاء ردّ عليه ، لأنّ الشرط عليه من الله أن يؤدّي المفروض بعلم و
 « بصيرة و يقين كيلا يكونوا ممّن وصفه الله فقال تبارك و تعالى : « ومن الناس ،
 « من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به وإن أصابته فتنة انقلب على
 « وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، لأنّه كان داخلاً ،
 « فيه بغير علم ولا يقين فلذلك صار خروجه بغير علم ولا يقين وقد قال العالم عليه السلام :
 « ومن دخل في الايمان بعلم ، ثبت فيه و نفعه إيمانه ، ومن دخل فيه بغير علم ،
 « خرج منه كما دخل فيه . و قال عليه السلام : « من أخذ دينه من كتاب الله و سنة ،
 « نبيّه عليه السلام زالت الجبال قبل أن يزول ، و من أخذ دينه من أفواه الرّجال ،
 « ردّته الرّجال ، وقال عليه السلام : « من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتكسّب الفتن . »

((الشرح)):

(فأحقّ ما اقتبس) العاقل من المؤدّب والدليل ، يقال : اقتبست منه علماً
 أى استفدته (والتمسه) أي طلبه بالمسئلة و السؤال (المتدبّر الفطن و سعى له
 الموفق المصيب العلم بالدين و معرفة ما استعبد الله به خلقه) إذ بهذين العلمين
 يخرج الخلق من ظلمات الجهالة و يعلمون كيفية الخروج عن غشاوة الغواية و

الضلالة ، و بذلك يحصل لهم إصابة قرب رب العالمين و رفاقة من أنعم الله عليهم من الأنبياء ، والملائكة المقرئين وحسن أولئك رفيقاً (من توحيده) بيان للدين أي العلم بالدين هو التصديق بوحدايته وصفاته الآيقة به و يندرج فيه التصديق بملائكته و كتبه و رسله و أوصياء رسله ، وبما أخبر به الرسل من أحوال الآخرة مثل الحشر والنشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار وغير ذلك من أحوال القيمة (و شرايعه و أحكامه و أمره و نهيه و زواجره و آدابه) بيان لما استعبد الله به خلقه (إذ كانت الحجّة ثابتة) على صحيح الخلقة كامل الآلة وهذا مع ما عطف عليه دليل على أن العلم بالدين ومعرفة ما استعبد الله به خلقه أحق بالافتباس و أولى بالالتماس (والتكليف لازماً) لما عرفت من الدلائل (والعمر يسيراً) مع ما فيه من الضروريات التي لا يمكن بقاء بدونه كالنوم وتحصيل الغذاء واللباس و نحوها فلا يسع العمر إلا للأهم والأحقّ و هو الأمور المذكورة (والتسوية غير مقبول) لأنّ العمر لا يفي بذلك ولأنّ التكليف ثابت في وقت التسوية أيضاً (والشرط من الله جلّ ذكره فيما استعبد به خلقه أن يؤدّ واجميع فرائضه بعلم و يقين و بصيرة) لقوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم » وقوله « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » وقوله « فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم » وقوله « فلو لا نفر الآية » إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اشتراط العلم والبصيرة في العمل . (ليكون المودّي لها محموداً عند ربه) من أطفاه الخفيّة و عناياته الجليلة أنّه تعالى مع كمال استغنائه عن الخلق يقابل حمدهم بالحمد و شكرهم بالشكر و ذكرهم بالذكر كما قال : « اذكروني أذكركم » و في الحديث « قال الله تعالى من ذكرني في ملاء من الناس ذكرته في ملاء خير من ملائه (١) » (مستوجباً لثوابه و عظيم جزائه) لأنّ الثواب والجزاء إنّما يترتب على فعل المأمور به و ترك المنهي عنه ولا يتصور ذلك إلا بالعلم والبصيرة بهما (لأنّ الذي يؤدّي بغير علم و بصيرة لا يدري ما يؤدّي ولا يدري إلى من يؤدّي) لظهور أنّ من لم يعرف

ربه ولم يعلم أو امره و نواهيه لا يدري ما يفعل ، ولا لمن يفعل ، ولا من يتقرب إليه فلو فعل شيئاً لم يكن ذلك عبادة لأن العلم أصل العبادة والتقرب روحه فإذا لم يتحققا لم يتحقق العبادة (و إذا كان جاهلاً لم يكن على ثقة مما أدى ولا مصداقاً) بأن ما أداه هو المطلوب منه و يترتب عليه الثواب و الجزاء (لأن المصدق لا يكون مصداقاً حتى يكون عارفاً بما صدق به من غير شك ولا شبهة) إن لم يكن للطالب بعد الشعور بالمطلوب رجحان بأحد طرفيه كان له شك فلا يكون عارفاً و مصداقاً به و إن كان له رجحان فإن لم يكن ذلك الرجحان مستنداً إلى دليل كان له تقليد و إن كان مستنداً إلى دليل فإن كان ذلك الدليل ظنياً كان له ظن و هذان قد اشتركا في أن تصديقهما قابل للشبهة فليس تصديقهما في الحقيقة تصديقاً لزواله بسهولة عند توارد الشبهات ، فلا يكون لهما معرفة و تصديق بحسب الحقيقة ، و إن كان ذلك الدليل برهاناً مفيداً لليقين كان له تصديق قطعي و علم يقيني غير قابل للشبهة و هو مصداق بحسب الحقيقة و عارف بما صدق به ، و هذا التصديق هو المطلوب في دين الحق و معارفه (لأن الشاك) بدين الحق الغير الثابت الذي يمكن زوال معرفته بتوارد الشبهات (لا يكون له من الرغبة والرغبة والخضوع والتقرب مثل ما يكون من العالم المستيقن) بالله و صفاته و بدينه الذي شرعه للتقرب إليه و لصالح الخلق عاجلاً و آجلاً كما قال عز شأنه « إنَّما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنَّما يذكر أو الألباب » . (وقد قال الله عز وجل « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ») فبإدراك الشهادة بالعلم وهو يفيد اشتراط قبولها (فصارت الشهادة مقبولة لعلمة العلم بالشهادة) أي بالأمر المشهود ولو لا العلم بالشهادة (لم يكن الشهادة مقبولة ضرورة انتفاء المشروط بانتفاء شرطه ولا شبهة في أن الشهادة بالأمر الدنيوية والمعارف اليقينية داخلية تحت هذا الحكم بل هي من أعظم الشهادات فهي مشروطة بالعلم قطعاً (والأمر في الشاك) الظاهر أن المراد بالشاك من ليس له رجحان وتصديق أصلاً ومن كان له رجحان مستند إلى تقليد أو إلى دليل ظني بقرينة تقييد العلم فيما سيأتي باليقين ، إذ يفهم

منذ أن الشاك يشمل الأخيرين لقبول دججانهما تشكيكاً وشبهة (المؤدّي) لفرائض الله تعالى (بغير علم وبصيرة) فلبية بتلك الفرائض (إلى الله جلّ ذكره) أي إلى مشيئته من غير أن يكون قبوله واجباً عليه كما هو الواجب في صورة العلم (إن شاء تطوّل عليه فقبل عمله و إن شاء ردّ عليه) هذا إن اتفق إصابته في العمل.

إن قلت : أصحاب التقليد مع تحقق الإصابة مؤمنون من أهل الجنة، غايته أن إيمانهم دون إيمان أصحاب اليقين من أرباب المكاشفة والبراهين و درجاتهم دون درجاتهم فكيف يصحّ الردّ عليهم ؟

قلت : أولاً كون اعتقادهم إيماناً يوجب ترتب القبول والثواب و الجزاء عليه غير معلوم ، وثانياً أن الإيمان التقليديّ قابل للزوال بطريقتين أدنى شبهة خصوصاً عند حضور الموت واضطراب النفس وإلقاء الشياطين شبهات متكاثرة فربّما ينهدم اعتقاده بتلك الشبهات لعدم ابتناؤه على أصل ثابت و أساس قائم ، ولقد سمعت من أثق به أنّه قال : كانت لعجوزة دعوي على أحد بمال جزيل فمرضت مريضاً شديداً و حضرتها في حال الإخصار و كررت الشهادتين عليها وهي لم تتكلّم بهما ، فلمّا بلغت في ذلك قالت : إن هذا الذي حاضر يقول لا تتكلّمي بهما فإنّهما تمنعاك من أخذ حقوقك من فلان فماتت ، و ربّما يظهر عنده خلاف بعض عقائده و بطلانه فيصير ذلك سبباً لعدم وثوقه بساير اعتقاداته فيتردّد ، و ربّما يميل قلبه إلى حبّ زهرات الدّنيا و شهواتها فيشتغل بها و يغفل عن أمور الآخر لعدم كونه واثقاً بهاتين بتأعليهما فيزهد في روحه و هو على تلك الحالة مسلوب الإيمان نعوذ بالله من هذه المفسد و هذا هو المراد بقوله « إن شاء تطوّل عليه فقبل عمله و إن شاء ردّ عليه » يعني أن مشيئة الله تعالى في شأنه لكونه متزائلاً غير ثابت غير معلومة لنا إن شاء أبقام على ما كان عليه بفضلّه و إن شاء و كاه إلى نفسه وهذا بخلاف العالم الثابت المنوّر قلبه بنور ربّه فإنّه لما كان مستيقناً مشاهداً لما في عالم الملك و الملوك بعين البصيرة عارفاً بالمطالب عالمياً بالمفاسد و بحقارة الدّنيا و زينتها كان له قدرة له تامّة على أن يدفع عن نفسه جميع هذه المفسد بعون الله تبارك و تعالى ، وقد نقل عن بعض المشايخ العارف

الكامل: أنه قال في حال الاحتضار حضرني ذلك اللعين وألقى علي شبهات كثيرة وأنا أجبت عن كل واحدة واحدة منها براهين قاطعة فأفهم فعلمت أن علمي نفعني في الدنيا والآخرة ، والله الموفق والمعين. وإلى ما ذكرناه أشار بقوله : (لأن الشرط عليه من الله أن يؤدي المقروض بعلم وبصيرة ويقين كيلا يكون ممن وصفه الله فقال تبارك و تعالی : د و من الناس من يعبد الله على حرف) قال القاضي أي على طرف من الدّين لا ثبات له فيه كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظفر قر أو الإفر (د فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) قال أيضاً ، روي أنها نزلت في أعراب قدموا إلى المدينة فكان أحدهم إذا صح بدنه و نتجت فرسه مهرأسياً وولدت امرأته غلاماً سوياً و كثر ماله و ماشيته قال ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن به وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً و انقلب ، وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصايب فتشأم بالإسلام فأتى النبي ﷺ فقال أقلني فقال: إن الإسلام لا يقال . فنزلت (خسر الدنيا و الآخرة) أمّا خسر ان الدّنيا فلا يتلاّه بالمصايب والفنن و ذهاب الأموال والأولاد و أمّا خسران الآخرة فلذهاب عصمته و حبوط عمله و فساد دينه بالارتداد (ذلك هو الخسران المبين) لغوات رأس ماله الذي هو حياته في الدنيا و حياته في الآخرة ولا خسران أظهر من ذلك و إنهما كان شأنه ذلك.

(لأنه كان داخلاً فيه) أي في الدّين (بغير علم ولا يقين فلذلك صار خروجه بغير علم ولا يقين) فخرج منه كما دخل فيه (وقد قال العالم ﷺ) المراد به هنا موسى بن جعفر ﷺ ، وقيل : هو المراد من العالم إذا أطلق ، ويقال له الكاظم وأبو الحسن على الإطلاق و أبو الحسن الأول والعبد الصالح و أبو إبراهيم ، ويقال أبو الحسن الثاني للرضا ﷺ . وأبو الحسن الثالث للهادي ﷺ . وأبو عبد الله المصدق ﷺ . وأبو جعفر على الإطلاق و أبو جعفر الأول للباقر ﷺ . وأبو جعفر الثاني للجواد ﷺ والماضي و أبو محمد للعسكري ﷺ (من دخل في الإيمان بعلم ثبت فيه و نفعه إيمانه ، ومن دخل فيه بغير علم خرج منه كما دخل فيه) أي خرج منه

بغير علم إما لشبهة أو لغرض من أغراض نفسانية وفيه إيمان و
عدمه عنده فليس استقراره فيه أولى من خروجه عنه.

(وقال عليه السلام من أخذ دينه) أي فرائضه أو طريقه و سبيله إلى الحق و ثوابه
(من كتاب الله و سنة نبيه ﷺ) بفهم و بصيرة (زالت الجبال قبل أن يزول)
الضمير المستكن راجع إلى «من» أو إلى «دينه» وفيه على التقديرين مبالغة في استقراره
على الدين و عدم اهتزازه بصرصر الشبهات و هبوب رياح الأغراض و البليات ،
لحصول اعتقاده بعلم و يقين و ابتناؤه على أصل متين (و من أخذ دينه من أفواه
الرجال) تقليد ألهم و اتباعاً لا ثارهم و اقتفاء لأفعالهم و أطوارهم (ردته الرجال)
عنه باللقاء أدنى الشبهات. وأضعف التدليسات لعدم تمسكه بمستند شديد و أصل سديد فهو
كنيات يابس تكسره حوادث الزمان و تقلبه رياح الفتن و فيه إيمان لطيف إلى أن
المقلد لا بد من أن ينقلب من حال إلى حال لأن متابعته للأول ليس بأولى من متابعته
لآخر ، فإذا اختلفا يبقى هو متردداً في قبول قول أحدهما دون صاحبه فيرجع من
الظن إلى الشك (وقال عليه السلام من لم يعرف أمرنا) أي شأننا في الإمامة و رتبنا في الخلافة
و الوراثة (من القرآن) بل أخذه بمجرد التقليد أو الاستحسان (لم يتكسب الفتن)
تنكسبها تجسبها و تباعد عنها ، يعني لا يقدر على العدول عنها ولا يأت من الوقوع فيها
لأن فتنة الشبهة والشكوك قد تزيله عن عقائده ، وفيه دلالة على وجوب الاستدلال
في الأصول .

((الأصل)) :

« ولهذه العلة انبثقت على أهل دهرنا بثوق هذه الأديان الفاسدة ، والمذاهب
« المستشعبة التي قد استوفت شرائط الكفر والشرك كعلمها ذلك بتوفيق الله تعالى و خذلانه ،
« فمن أراد الله توفيقه وأن يكون إيمانه ثابتاً مستقراً ، سبب له الأسباب التي تؤد به
« إلى أن يأخذ دينه من كتاب الله و سنة نبيه ﷺ صلوات الله عليه و آله بعلم و يقين و
« بصيرة ، فذاك أثبت في دينه من الجبال الرواسي ، و من أراد الله خذلانه و أن
« يكون دينه معاراً مسنوداً - نعوذ بالله منه - سبب له أسباب الاستحسان والتقليد ،

« والتأويل من غير علم و بصيرة . فذاك في المشيئة إن شاء الله تبارك و تعالى أتم »
 « إيمانه و إن شاء سلبه إيتاء و لا يؤمن عليه أن يصبح مؤمناً و يمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً و يصبح كافراً ، لأنه كلما رأى كبيراً من الكبراء مال معه و كلما رأى شيئاً استحسّن ظاهره قبله ، و قد قال العالم عليه السلام : إن الله عز وجل خلق النبيين على النبوة فلا يكونون إلا أنبياء ، و خلق الأوصياء على الوصية فلا يكونون إلا أوصياء ، و أعار قوماً إيماناً فان شاء تمّمه لهم و إن شاء سلبهم إيتاءه . قال : وفيهم جري قوله : « فمستقر و مستودع » .

« و ذكرت أن أموراً قد أشكلت عليك ، لا تعرف حقائقها لاختلاف الرواية »
 « فيها و أنك تعلم أن اختلاف الرواية فيها لاختلاف عللها وأسبابها و أنك لا تجد »
 « بحضرتك من تذاكره و تفاوضه ممّن تثق بعلمه فيها و قلت إنك تحب أن يكون »
 « عندك كتاب كاف يجمع [فيه] من جميع فنون علم الدين ما يكتفي به المتعلم »
 « و يرجع إليه المسترشد ، و يأخذ منه من يريد علم الدين والعمل به بالآثار »
 « الصحيحة عن الصادقين عليهم السلام والسنن القائمة التي عليها العمل ، و بها يؤدي فرض »
 « الله عز وجل و سنة نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و قلت : لو كان ذلك رجوت أن يكون ذلك »
 « سبباً يندارك الله تعالى - بمعونه و توفيقه - إخواننا و أهل ملتنا و يقبل بهم »
 « وإلى مرآشدهم » .

((الشرح)) :

(و لهذه العلة) بعينها وهي أن من أخذ دينه من أفواه الرجال ردت له الرجال و من لم يعرف أمرنا من القرآن يقع في الفتنة (انبثقت على أهل دهرنا) أي جرت عليهم . وفي النهاية انبثق الماء انفجر و جرى ، وفي المغرب بثق الماء بثقاً : فتحه بأن خرق الشط أو السكر و انبثق هو إذا جرى بنفسه من غير فجر . و انبثق بالفتح و الكسر الاسم . (بثوق هذه الأديان الفاسدة) فاعل انبثقت شبه الأديان الفاسدة بالسيول و أثبت لها البثوق أي الشقوق جمع البثق بمعنى الشق ففيه استعارة مكنية و تخيلية و أقحم البثوق وأسند الفعل إليها مع أن إسناده إلى هذه الأديان

الشبهة بالسيول أولى للتنبيه على أن هذه الأديان قد أحدثت في دين الحق ثلماً متكررة وخللاً متفاحشة متعددة لا يمكن تداركها وإصلاحها، وفي بعض النسخ «انبسق» بالسين المهملة ومعناه طالت عليهم فروع هذه الأديان وأغصانها من انبسق النخل إذا طالت باسقاتها وبواسقها وفيه أيضاً استعارة مكنية وتخيلية وما في الأصل أحسن وأتقن (والمذاهب المستشعبة) وهي اثنان وسبعون لقوله ﷺ «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة» (التي قد استوفت شرائط الكفر والشرك كلها) لأن أصحاب هذه المذاهب مخلصون في النار كما يقتضيه الحديث المذكور وغيره ولا معنى للكفر والشرك إلا ما يوجب الخلود فيها (وذلك) المذكور يعني أخذ الدين من كتاب الله تعالى وستة نبيته وأخذه من أفواه الرجال (بتوفيق الله عز وجل وخذلانه) التوفيق توجيه الأسباب نحو المطلوب الخير وهو يرجع إلى نصرة الطالب وإعانة على طلبته ولا بد من وقوع ذلك لكل من تمسك بذيل رحمته لقوله تعالى «والتدين جاهدوا فينا لنهدينهم سلبنا وإن الله لمع المحسنين» والخذلان عدم الإعانة لمن أعرض عنه والحاصل أنه تعالى هدى عباده أجمعين طريق الخير وطريق الشر فمن اختار طريق الخير أعانه عليه ومن اختار طريق الشر وكفه إلى نفسه فلا جبر ولا ظلم والله أوس بظلام للعبيد (فمن أراد الله توقيقه وأن يكون إيمانه ثابتاً مستقراً) في لفظ الاستقرار إيمان إلى أن أفعل العبد مدخلاً في ثبوت إيمانه (سبب له الأسباب التي تؤديه إلى أن يأخذ دينه من كتاب الله) وضع الظاهر موضع الضمير لزياده التعظيم والتكريم (وسنة نبيه ﷺ بعلم و يقين و بصيرة) قلبية بها يسلك سبيل المعارف ويشاهد كمال الله وجماله وجلاله (فذاك أثبت في دينه من الجبال الرواسي) أي الثوابت لأن زوال الاعتقادات إنما يكون بتطرق الشبهات وتصادم التدليسات ولا سبيل لها إليه .

(ومن أراد الله خذلانه وأن يكون دينه معاراً مستودعاً - نعوذ بالله منه - سبب له أسباب الاستحسان) أي خلا بينه وبينها ويعمل بعقله ما رآه حسناً مثل القياس و

أصالة البراعة و مفهوم الذقب و مفهوم الصفة (١) إلى غير ذلك من المحسنات العقلية في أصول العقائد و فروعها (والتقليد للآباء) و الكبراء (و التأويل) في المجمع و المتشابه و غيرهما بمجرد رأيه (من غير علم و بصيرة) ناشية عن الكتاب و السنة ، و قول أهل البيت عليهم السلام (فذاك في المشيئة إن شاء الله تبارك و تعالى أنتم إيمانكم) و وقته لسلوك سبيل النجاة (وإن شاء سلبه إيمان) و وكله إلى نفسه ، و النفس أمارة بالسوء فتورده موارد الهلكات (و لا يؤمن عليه أن يصبح مؤمناً و يمسي كافراً أو يمسي مؤمناً و يصبح كافراً) مثله كمثل المسافر لا بصيرة له و قد صادفه طريقان أحدهما يوصله إلى المطلوب و الآخر يبعده عنه فان سلك الأول فقد اهتدى و إن سلك الآخر فقد ضل ، أو كمثل مسافر سلك طريقاً مخوفاً قد كثر فيه السباع و قطاع الطريق فان سلم منهم فقد رشد و إلا فقد هلك (لأنه كلما رأى كبيراً من الكبراء مال معه) من غير علم بأن ذلك حق أو باطل و قد ذهبت سبحانه بقوله « و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » و حكى عنهم بقوله « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسول » و قالوا ربنا إننا أطعنا ساداتنا و كبراءنا فاضلونا السبيل » ربنا آتتهم ضعفين من العذاب و العنهم لعناً كبيراً » (و كلما رأى شيئاً استحسن ظاهره قبله) لاستيناس قلبه بظواهر المحسوسات و استيحاء عقله عن بواطن المعقولات إذا المعقولات إنما تدرك بعلوم برهانية و أنوار ربانية وهي مفقودة فيه « و من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » فلذلك أفلس قلبه عن معرفة الأشياء على ماهي عليه و عن معرفة الأحكام و أحوال الآخرة التي بها قوام الإيمان و ثباته (و قد قال العالم عليه السلام : إن الله عز وجل خلق النبيين على النبوة

(١) ليس هذه الامور مما يوجب الغدلان غير القياس و التفصيل في علم اصول الفقه ولكن الشارح جارى مع معاصريه من الاخباريين . و الظاهر من حاشيته على المعالم و شرحه الزبدة انه ناهج منهج اهل الاجتهاد و يتبع الدليل في الامول و المفاهيم و غيرها . (ش)

فلا يكونون إلا أنبياء) ولا ينزايلون عن وصف النبوة أصلاً (وخلق الأوصياء على الوصية فلا يكونون إلا أوصياء) ولا يتفارقون عن معنى الوصاية والخلافة أبداً (وأعار قوماً إيماناً فإن شاء تمّمه لهم وإن شاء سلبهم إيماناً، قال : وفيهم جرى قوله فمستقر ومستودع) مستقر بفتح القاف أو كسرهما على اختلاف القراءة جار في النبي والوصي فبالفتح اسم مفعول يعنى مثبت في الإيمان أو اسم مكان يعنى له موضع استقرار وثبات فيه وبالكسر اسم فاعل يعنى مستقر ثابت فيه. ومستودع بفتح الدال اسم مفعول أو اسم مكان جار في المعمار، واعلم أن الإيمان والكفر طريقان متقابلان ولكل منهما سالك والسالك على طبقات متفاوتة فالطبقة الأولى للإيمان من وضع القوانين الشرعية بأمر الله تعالى وهم الأنبياء الذين أيّدهم الله بروح النبوة وروح القدس والثانية أوصياؤهم الذين أيّدهم الله بروح الامامة وإذا قبض الأنبياء انتقل روح القدس إلى أوصيائهم وهو لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، و به يعرفون ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى، و يشاهدون ما كان وما هو كائن و ما يكون في الدنيا والآخرة والثالثة التابعون لهم في الأقوال والأعمال والعقائد والمسلمون لهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه. والرابعة أصحاب التقليد والاستحسان الذين ينظرون إلى ظواهر الأشياء ويأخذون مارأوه حسناً و يتركون ماعدّوه قبيحاً. والطبقة الأولى للكفر من وضع القوانين الفاسدة لشبهات شيطانية وتسويلات نفسانية كواضعي الدين من الملاحدة والمجسمة ونحوهما من الأديان الفاسدة، والثانية المتعلمون لتلك الشبهات بتعليمهم والمروّجون لتلك الأديان بأمرهم و تفهيمهم وهم بمنزلة أوصيائهم مقابل أوصياء الأنبياء عليهم السلام. والثالثة التابعون لهم وأهل التسليم لعقائدهم وأفعالهم وأعمالهم. والرابعة أصحاب التقليد والاستحسان وحال الكل في الهداية والضلالة والرشوخ وعدمه ظاهرة إلا أصحاب التقليد والاستحسان من الفريقين فإن الإيمان والكفر فيهما معاران مستودعان فإن شاء الله تمّمها لهم وإن شاء سلبهم إياهما ومن ههنا ترى المؤمن قد يرتد فيصير كافراً بعد ما كان مؤمناً أو الكافر يرجع و يصير مؤمناً بعد ما كان كافراً، نعوذ بالله من سوء العاقبة .

(و ذكرت أن أموراً قد أشكلت عليك لا تعرف حقايقها لاختلاف الرواية فيها)
 اختلافاً فإوجب الأخذ ببعضها طرح البواقي لعدم إمكان الجمع بينها بوجه (وإنك تعلم
 أن اختلاف الرواية فيها لاختلاف علمها وأسبابها) من جملتها أغراض نفسانية
 وتقرُّبات سلطانية وتخيُّلات شيطانية لقوم سوَّلت لهم أنفسهم فوضعوا الأحاديث
 لخبث عقائدهم على وفق مقاصدهم كما حكى أن غياث بن إبراهيم دخل على المهدي
 العباسي و كان المهدي يحبُّ المسابقة بالحمام فروى عن النبي ﷺ أنه قال
 لاسبق إلا في خوف أو حافر أو نصل أو جناح فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم فلمَّا
 خرج قال المهدي أشهد أن قفاه قفا كذاب على رسول الله ، ما قال رسول الله
 ﷺ أو جناح ولكن هذا أراد أن يتقرب إلينا وأمر بذبح الحمام وقال : أنا
 حملته على ذلك وقد وضع المنافقون والزنادقة والغلات والخوارج أحاديث كثيرة ،
 و حكى أن بعضهم كان يقول بعد ما رجع عن ضلالاته : انظروا إلى هذه الأحاديث
 عمَّن تأخذونها فاتَّنا كُتَّاً إذا رأينا رأياً وضعنا له حديثاً ، ومنها توهَّم الراوي
 فرَّبما سمع حديثاً ولم يحفظه على وجهه ووهم فيه فلم يتعمَّد كذباً وهو في يده
 يقول ويعمل به ولو علم أنه وهمه لرفضه ولو علم المسلمون أنه وهم لرفضوه .
 ومنها التقيَّة إذ كثيراً ما كانوا ﷺ يفتنون على سبيل النقيَّة والخوف من النهب و
 القتل ومنها عدم علم الراوي بالناسخ فربما سمع الأمر بالشئ ثم نهوا عنه و
 هو لا يعلم ، أو سمع النهي عن الشئ ثم أمروا به وهو لا يعلم فعلم المنسوخ
 ولم يعلم الناسخ فيروي المنسوخ ويعمل به ، ولو علم هو أو المسلمون أنه
 منسوخ لرفضوه .

(و ذكرت أنك لا تجد حضرتك) حضرة الرُّجل قربه وفناؤه (من تذاكره
 و تفاوضه) فإوضه في الأمر أي جاره و مفاوضة العلماء أن يعطي كل واحد منهم
 ما عنده من العلم صاحبه و يأخذ ما عند صاحبه وهي المساواة والمشاركة مفاعلة
 من التفويض وهو رد الأمور إلى الغير (ممَّن تنق بعلمه فيها) أي في الروايات
 حتَّى يكشف لك عن وجهها حجاب الاختلاف (و قلت : إنك تحبُّ أن يكون

عندك كتاب كاف يجمع [فيه] من جميع فنون علم الدين، الفنون الأنواع والأقاني
 الأساليب وهي أجناس الكلام وطرقه، المراد بها هنا أصول المعارف وفروعها
 على اختلاف أنواعها (ما يكتفى به المتعلم ويرجع إليه المسترشد و يأخذ منه من
 يريد علم الدين والعمل به) ليكون تبصرة للطالين و تذكرة للمعالين و تكملة
 للمعالين (بالآثار الصحيحة) متعلق بجمع أو بآخذ أو بعلم الدين أو ظرف مستقر
 حال عن كتاب (عن الصادق عليه السلام والسنن القائمة) المراد بالسنة هنا الطريقة
 النبوية الشاملة للمندوبات والمفروضات وغيرها، والمراد بقيامها دوامها واستمرارها
 و اتصال العمل بها إلى يوم القيمة (التي عليها العمل و بها يؤدي فرض الله
 وسنة نبيه صلى الله عليه وآله) تقديم الظرف في الموضعين للمحصر، والمراد بالسنة هنا خلاف
 الفرض بقرينة المقابلة أو الأعم من النذب والفرض بتخصيص الفرض المذكور
 بما ثبت بالقرآن فقد طلب منه كتاباً يكون العامل به مؤدياً لجميع ما عليه من
 معرفة أحوال المبدء والمعاد و معرفة الفروع كلها.

(و قلت لو كان ذلك) أي لو وجد الكتاب المذكور (رجوت أن يكون
 ذلك سبباً يتدارك الله) استدركت ما فات و تداركته بمعنى، وفيه إشارة إلى ما مر
 صريحاً من اضمحلال أهل الملة المستقيمة وتفرق نظامهم و تشتت أحوالهم (بمعونته
 و توفيقه) المعونة والاعانة بمعنى و في بعض النسخ « بمعرفته » والمصدران مضافان
 إلى الفاعل والضمير عايد إلى قوله وسبباً وإرجاعه إلى الله تعالى يوجب خلو الجملة
 الوصفية عن ضمير الموصوف (إخواننا و أهل ملتنا) من الفرقة الامامية فينظم
 به أحوالهم بعد تشتتها ويجمع كلمتهم بعد تفرقها (و يقبل بهم) أي يجعلهم مقبلين
 (إلى مرادهم) الرشد خلاف الغي والمراد بالطرق الموصلة إلى الحق لأنها
 محال الرشد والهداية .

((الأصل)):

« فاعلم يا أخي أرشدك الله أنه لا يسع أحداً تمييز شيء مما اختلف الرواية
 فيه عن العلماء عليه السلام برأيه إلا على ما أطلقه العالم بقوله عليه السلام : امرضوها علي »

« كتاب الله فما وافق كتاب الله عز وجل فخذوه ، و ما خالف كتاب الله فردوه ، »
 « وقوله ﷺ دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم . وقوله ﷺ خذوا بالمجمع ، »
 « عليه ، فإن المجمع عليه لا ريب فيه . و نحن لا نعرف من جميع ذلك إلا أقله ، »
 « ولا نجد شيئاً أحوط ولا أوسع من رد علم ذلك كله إلى العالم [ﷺ] وقبول ما وسع ، »
 « من الأمر فيه بقوله ﷺ بأيما أخذتم من الباب التسليم وسعكم وقد يستر الله وله ، »
 « الحمد تأليف ما سألت وأرجو أن يكون بحيث توخيت فمهما كان فيه من تقصير فلم ، »
 « تقصر نيئتنا في إهداء النصيحة إذ كانت واجبة لاخواننا وأهل المتسامع ما رجونا أن نكون ، »
 « مشاركين لكل من اقتبس منه و عمل بما فيه في دهرنا هذا وفي غابره إلى انقضاء ، »
 « الدنيا إذ الرب جل وعز واحد والرسول محمد خاتم النبيين - صلوات الله وسلامه ، »
 « عليه وآله - واحد والشرعية واحدة وحلال محمد حلال وحرامه حرام إلى يوم ، »
 « القيامة . ووسعنا قليلاً كتاب الحق وإن لم نكمل على استحقاقه لأننا كرهنا ، »
 « أن نبخس حظوظه كلها وأرجو أن يسهل الله جل وعز إمضاء ما قد منا من النية ، »
 « إن تأخر الأجل صنعنا كتاباً أوسع وأكمل منه نوفي به حقوقه كلها إن شاء ، »
 « الله تعالى وبه الحول والقوة وإليه الرغبة في الزيادة في المعونة والتوفيق . و ، »
 « الصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وآله الطاهرين الأخيار . وأول ما يبدأ به و ، »
 « أفتح به كتابي هذا كتاب العقل و فضائل العلم و ارتفاع درجة أهله و علو قدرهم ، »
 « و نقص الجاهل و خسارة أهله و سقوط منزلتهم ، إذ كان العقل هو القطب الذي ، »
 « عليه المدار ، وبه يحتج وله الثواب و عليه العقاب والله الموفق .

((الشرح)):

(فاعلم يا أخي أرشدك الله أنه لا يسع أحداً تمييز شيء) أي لا يجوز من وسعه الشيء إذا جاز له أن يفعله ولم يضق عنه (مما اختلفت الرواية فيه عن العلماء ، ﷺ) « فيه » متعلق بالاختلاف ، « و عن » بالرواية ، والمراد بالاختلاف ما ذكرنا من الاختلاف التام الذي يوجب عليه العمل ببعضها طرح البواقي و حمله على مطلق

الاختلاف بين الروايات التي يصلح أن يكون بعضها مفسراً لبعض بعيد جداً (برأيه) متعلق بالتمييز أي لا يجوز التمييز بما يقتضيه رأيه بنحو من أنحاء الاستحسان لأن دين الله لا يدرك بالرأي والقياس (إلا على ما أطلقه العالم) أي أحله وجوزهم من الطلق بالكسر وهو الحلال (بقوله ﷺ اعرضوها) أي الروايات المختلفة (على كتاب الله عز وجل) فما وافق كتاب الله جل وعز فخذوه وما خالف كتاب الله فردوه (لأن كل حكم من الأحكام وكل حق من الحقوق موجود في الكتاب كما قال سبحانه ولا حبة د ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (١) فما لم يوجد فيه ليس بحكم ولا حق و كل ما ليس بحكم ولا حق فهو مردود.

(و قوله ﷺ دعوا) من الروايات المختلفة بعد موافقة الجميع كتاب الله (ما وافق القوم) يعني العامة فإن الرشد أي الهداية إلى الحق (في خلافهم) لأنهم سالكون مسالك الطبايع راغبون عن مرشد الشرايع غالباً وهذه قرينة واضحة على أن الحق في خلافهم (و قوله ﷺ حذوا) من الروايات المختلفة (بالمجمع عليه) عند العصابة المحقة (فإن المجمع عليه) عندهم (لاريب فيه) وقد يستدل بهذا على حجية الإجماع و سنتكم عليه إن شاء الله تعالى (و نحن لانعرف من جميع ذلك إلا أقله) أي أقل ذلك الجميع يعني إننا لانعرف من أفراد التمييز الحاصل من جهة تلك القوانين المذكورة إلا الأقل أو إننا لانعرف من جميع ذلك المذكور من القوانين الثلاثة إلا الأقل فإن ذلك متوقف على معرفة الأحكام الجزئية واستنباطها من الكتاب ومعرفة مذاهب العامة فيها ومعرفة إجماع الفرق الناجية عليها، وتحصيل هذه المعارف متعسر جداً، وقيل: المقصود أننا لانعرف للاعتماد والتعويل لكل أحد من المتعلمين من جميع ما ذكرنا إلا ما هو أقله إتعاباً و

(١) قوله « في كتاب مبين » ليس المراد بكتاب مبين هنا القرآن لكن ورد هذا المضمون في آي كثيرة مثل « تبياننا لكل شيء » « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء » إلى غير ذلك. (ش)

أسهله عليهم مأخذاً ، وهو المفسر بقوله « ولا نجد » وهذا مستبعد جداً لعدم فهمه من العبارة (ولا نجد شيئاً أحوط ولا أوسع من ردّ علم ذلك كله إلى العالم) من أهل بيت نبينا ﷺ فإن فيه التحرز عن القول في الدين بغير علم و التخلص عن التعب والتجنب من عذاب الآخرة كما قال العالم عليه السلام « إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات » وقيل : يجوز أن يراد بالعالم العالم من علماء الإمامية الذي علم أصول المذهب وفروعه ببصيرة وبرهان ، وهذا بعيد أمّا أولاً فلا أن المعهود من كلام المصنف أنه كلما أطلق العالم أراد به المعصوم عليه السلام وأما ثانياً فلو جود « عليه السلام » بعد العالم في بعض النسخ ، وأما ثالثاً فلا أنه لا يناسب العبارات الآتية إلا بتكلف كما ستعرفه (و قبول ما وسّع من الأمر فيه) أي فيما اختلفت الرواية فيه عنهم عليه السلام و فاعل « وسّع » بالتشديد ضمير العالم (بقوله) متعلق بوسّع (بأيّما أخذتم من باب التسليم) للعالم والالتقياد له (وسعكم) أي جاز لكم وفيه دلالة على أن المكلف مخير في العمل بالروايات المختلفة في زمان الغيبة كما هو مذهب أرباب أصول الفقه و على ما جوزه ذلك القائل لا يرتبط هذا الكلام بما قبله إلا بتكلف و هو أن يجعل قوله : « بقوله » متعلقاً بالقبول ، و معناه قبول ما وسّع ذلك العالم من علماء الإمامية و صحّ له من التحقيق والتوفيق بين الروايات المختلفة بقوله أي بمجرد قوله و رأيه للاعتماد عليه فيما صحّحه أورده من الروايات والفناوي والأحكام ويجعل قوله « بأيّما أخذتم » إلى آخره مبتدأ وخبر أعلى سبيل الاستيناف لامقول القول ، يعني أيّما أخذتم به من أقوال ذلك العالم تسليماً له و قبولاً لقوله جاز لكم العمل به ، و هذا التكلف بعينه من غير تفاوت أشار إليه ذلك القائل و هو أعلم بما قال و بما حداه على ذلك .

(وقد يستر الله وله الحمد تأليف ما سألت) من الكتاب الكافي الشامل لجميع فنون الدين (و أرجو أن يكون بحيث توخيت) أي تحرييت و قصدت فهمها كان فيه من تقصير في الجمع والتأليف و ذكر ما يحتاج إليه (فلم تقصر نيّتنا

في إهداء النصيحة (التقصير في الأمر التواني فيه وعدم الاتيان به على وجه الكمال والاهداء الابلاغ والارسال . والنصيحة فعل شيء الذي به الصلاح كإرشاد الجاهل و تنبيه الغافل والأعانة على مصالح الدنيا والدين يعني لو كان فيه تقصير ما لم يكن ذلك لقصور في النية و توانيها بل بالغت في إبلاغ النصيحة بقدر الوسع والطاقة (إذ كانت) أي النصيحة (واجبة لآخواننا أهل ملتنا) لقول رسول الله ﷺ « لينصح الرجل أخاه كنصيحة لنفسه » (١) وقول الصادق عليه السلام : « يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة » (٢) (مع ما رجونا) ماء مصدرية والظرف حال عن فاعل أرجو يعني أن ذلك الرجاء مقرون مع رجاء (أن نكون مشاركين لكل من اقتبس منه) أي استفاد منه علماً و هداية (وعمل بما فيه) من الأحكام (في دهرنا) متعلق باقتبس وعمل أو حال عن فاعلها (وفي غايه) الغابر الماضي والمستقبل و هو من الأضداد والمراد هنا الثاني (إلى انقضاء الدنيا) متعلق بالغابر و غاية للاقتباس والعمل فلا ينافي رجاء مشاركة الثواب في الآخرة ولم يذكره لأنه تابع لذلك الرجاء ؛ ثم علل بقاء الاقتباس والعمل إلى انقضاء الدنيا بثلاثة أمور الأول ما أشار إليه بقوله (إذ الرب عز وجل واحد) لا شريك له فلا يتطرق التغير في تدبيره من جهة الشرية والتنازع ، والثاني ما أشار إليه بقوله (والرسول محمد خاتم النبيين ﷺ واحد) لا شريك له في تبليغ الرسالة فلا يتصور فساد الدين من جهة الشرية في الرسالة أيضاً والثالث ما أشار إليه بقوله (والشرية واحدة) إذ لا نبي بعده ولا شريعة بعد شريعته فلا يتصور زوال الدين من جهة النسخ أيضاً بالجملة زوال الدين إما من جهة التنازع التابع للشرية في الرب أو في الرسول أو من جهة النسخ وإذا انتفت هذه الأمور بقي الدين إلى قيام الساعة كما أشار بقوله (وحلال محمد حلال ، وجرامه حرام إلى يوم القيمة) فاذن كان

(١) ودواء الكليني - رحمه الله - في باب نصيحة المؤمن من كتاب الإيمان والكفر

من الكافي تحت رقم ٤ .

(٢) دواء الكليني - رحمه الله - أيضاً في الباب المذكور تحت رقم ٣ .

الاقتباس والعمل بما في هذا الكتاب المشتمل على حلاله و حرامه باقياً إلى يوم القيمة (ووسعنا قليلاً) التوسيع خلاف التضييق، تقول وسعت الشيء، فاتسع أي صار واسعاً وقليلاً، منصوب على المصدر أي توسيعاً قليلاً (كتاب الحجّة) وهو الكتاب الثالث (٣) من كتب الكافي سمّي به لاشتماله على بيان لزوم الحجّة وعدم خلوّ الارض منها مادامت السموات والأرض (وإن لم نكملها) أي كتاب الحجّة (على استحقاقه) لأننا لم نذكر جميع ما يتعلق به الأحاديث والأخبار (لأننا كرها) تعليل للتوسيع في الحجّة (أن نبخس) أي ننقص و نترك (حظوظه كلها) الحظوظ جمع كثرة للحظ وهو النصيب (وأرجو أن يسهّل الله جلّ وعزّ أمضاء ما قدّمنا من النية) أي القصد إلى تأليف كتاب الكافي أو إلى توسيع كتاب الحجّة قليلاً هذا إن كان وضع الخطبة قبل التأليف وإلا فالمراد بالنية القصد إلى توسيع كتاب الحجّة منفرداً على وجه الكمال و ذكر جميع ما يتعلق به من الأخبار كما أشار إليه بقوله (إن تأخّر الأجل) أي الوقت المضروب المحدود من العمر (صنعنا) من الصنع أو من التصنيف (كتاباً) في الحجّة (أوسع و أكمل منه) أي من كتاب الحجّة الذي ذكرناه في هذا الكتاب (نوفيه حقوقه كلها إن شاء الله تعالى) أوفاه حقّه و وفّاه بممنى أي أعطاه وافيّاً كاملاً غير ناقص، والجملة حال عن فاعل «صنعنا» (و به الحول والقوّة) الحول الحركة يقال: حال الشخص يحول إذا تحرك، والقوّة الطاقة، يقال: قوي على الأمر إذا طاقه، أي به الحركة إلى المقاصد و المطالب مطلقاً والقوّة على تحصيلها ولطاقة، على تحمّلها أو به الحركات الفكرية والأنظار العقلية مطلقاً أو في تأليف هذا الكتاب و القوّة عليها، و تقديم الجار للاختصاص مع الاهتمام و مراعات قرب المرجع (و إليه الرغبة في الزيادة في المعونة) أي في الإعانة على الخيرات مطلقاً أو على تأليف هذا الكتاب (والنوفيق) أي تكميل الأسباب لتحصيل المطالب (والصلاة) أي الرحمة النامية الربانية

(٣) هذا سهو من الشارح أو تصحيف من النساخ فإن كتاب الحجّة هو الكتاب

بمعنى إفاضة الإحسان دائماً (على سيدنا محمد النبي) أي المرتفع على جميع الخلائق من النبوة وهي الارتفاع أو المخبر عن الله من النبأ وهو الخبر (وآله الطيبين الأخيار).

(و أول ما أبدى به و أفتتح به كتابي هذا كتاب العقل والجهل و فضائل العلم و ارتفاع درجة أهله و علو قدرهم) في الدنيا الآخرة (و نقص الجهل و خساسة أهله و سقوط منزلتهم) عند رب العالمين والملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وعباد الله الصالحين ، ثم أشار إلى وجه تقديم كتاب العقل على سائر الكتب بقوله (إذا كان العقل هو القطب الذي عليه المدار) أي مدار التكليف والحكم بين الحق والباطل من الأفكار و بين الصحيح والسقيم من الأنظار و سائر القوى تابعة له منقادة لأمره و نهيه و هو الحاكم على جميعها ، و قطب الرحي بحر كات القاف والضم أشهر : الحديد المر كنية في وسط حجر الرحي السفلى التي تدور حولها العليا ، و قطب القوم سيدهم الذي يدور عليه أمرهم كصاحب الجيش و نحوه (و به يحتج) على العباد في تصويب أعمالهم و تخطئة أفعالهم (وله الثواب و عليه العقاب) اللام في «له» إمّا للمعليل أي لأجله أو للاختصاص و حصر الثواب والعقاب باعتبار أنه منشأ و أهل لهما سواء حصل له عند تجرّده عن البدن كما في البرزخ أو عند اقترانه به كما في الآخرة.

((الاصـل)):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب العقل والجهل

١- «أخبرنا أبو جعفر محمد بن يعقوب قال : حدثني عدة من أصحابنا منهم محمد بن يحيى العطار ، عن أحمد بن محمد ، عن الحسن بن محبوب ، عن العلاء بن رزين »
« عن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال »
« له : أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزني وجلالي ما خلقت خلقاً هو »
« أحب إلي منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب ، أما أنتي إياك أمر وإياك أنهي »
« وإياك أعاقب وإياك أثيب » .

((الشرح)):

الغرض من الفصل بين أنواع المسائل بالترجمة بالكتاب و بين مسائل النوع بالفصول والأبواب هو التسهيل على الناظر و تنشيط المتعلم فإن المتعلم إذا ختم كتاباً اعتقد أنه كاف في ذلك النوع فينشط إلى قراءة غيره بخلاف ما لو كان التصنيف كله جملة واحدة والأولى بالقاري أن يصرح بالترجمة ويقول مثلاً كتاب كذا لأنها جزء من التصنيف ، و كتاب العقل والجهل اسم لجملة من الأحاديث المتضمنة لأحكامها .

(أخبرنا أبو جعفر محمد بن يعقوب) كان هذا كلام الرواة عنه أو كلامه بلسانهم أو إخبار عن نفسه بطريق الغيبة (قال حدثني عدة من أصحابنا) قال المصنف رحمه الله في هذا الكتاب في كثير من الأخبار « عدة من أصحابنا » قال العلامة وغيره أنه رحمه الله قال : « كل ما قلت في هذا الكتاب عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى فهم محمد بن يحيى العطار ، و علي بن موسى الكميذاني

و داود بن كورة و أحمد بن إدريس و علي بن إبراهيم بن هاشم . وكل ما قلت فيه عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد فهم علي بن إبراهيم ، وعلي بن محمد بن عبد الله بن أذينة ، وأحمد بن عبد الله بن أذينة ، وعلي بن الحسن . وكل ما ذكرت فيه عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد فهم علي بن محمد بن علان ، ومحمد بن أبي عبد الله ، ومحمد بن الحسن ، ومحمد بن عقيل الكليني إنتهى ، والظاهر أن محمد بن أبي عبد الله هو محمد بن جعفر الأسدي الثقة ، والعدة على هذا في جميع الموارد مشتملة على العدول و الثقات فهذا الحديث صحيح لأن بواقي الرجال رجال ثقات و عدول.

(منهم محمد بن يحيى العطار عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن العلاء ابن زرير عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال لما خلق الله العقل (ش) أي النفس الناطقة وهي الجوهر المجرد عن المادة في ذاته دون فعله في الأبدان بالتصرف والندبر وهذا الجوهر يسمى نفساً باعتبار تعاقده بالبدن وعقلاً باعتبار تجرّده ونسبته إلى عالم القدس إذ هو بهذا الاعتبار يعقل نفسه أي يحبسها و يمنعها عما يقتضيه الاعتبار الأول من الشرور و المفسدات المانعة من الرجوع إلى هذا العالم و له مراتب متفاوتة و حالات مختلفة في القوة والضعف وهي ستة أوّلها حالة الاستعداد الصرف للمكالمات (١). و ثانيهما حالة بها يشاهد الأوليات (٢). وثالثها حالة بها يشاهد النظريات من مرآت الأوليات (٣). ورابعها حالة بها يشاهد تلك

(١) قوله « الاستعداد الصرف » وهذه الحالة تسمى عند الفلاسفة بالعقل الربواني (ش).

(٢) قوله : « الأوليات » أراد بذلك البديهيات لأنه جعلها مقابلة النظريات ، و البديهيات أعم من الأوليات والمشاهدات والمتواترات والحدسيات والتجربيات وقضاياها ما سأتبعها معها ، وهذه المرتبة تسمى عند الحكماء بالعقل بالملكة (ش).

(٣) قوله : « من مرآة الأوليات » القوة التي بها تدرك الأوليات مرآة لا تدرك النظريات أيضاً إذ ينتقل الذهن منها إليها و إدراك النظريات على وجهين : الأول مسا بدر كها بالبرهان والاستدلال لأول مرة وهي العقل بالفعل في اصطلاحهم ، والثاني أن يكون بحيث يراجعها بعد الغفلة عنها لكونها حاضرة في الحافظة فيرجع إليه مهما أراد وهذا هو العقل المستعد في اصطلاحهم وهي الحالة الرابعة (ش) .

النظريات بعزواها من هذه المرأة و اختزانها من غير كسب جديد وهذه الحالة حالة علم اليقين وهي حالة بها يشاهد الصور العلمية والمطالب اليقينية في ذاته، وخامسها حالة عين اليقين وهي حالة بها يشاهد تلك الصور والمطالب في ذات المفيض (١) وسادسها حالة حق اليقين وهي حالة بها يتصل بالمفيض اتصالاً معنوياً وتلاقي به تلاقياً روحانياً (٢) وهذه الحالة هي أعظم الحالات للقوة البشرية، وقد تسمى هذه الحالات التي للنفس فيها عقلاً أيضاً. ومن هنا ظهر وجه تفاوت العقول في البشر ووجه قبولها للكمال والنقصان وقد يطلق العقل على الجوهر المفارق عن المادة في ذاته وفعله (٣)

(١) قوله : « في ذات المفيض » وهذا المفيض هو العقل الفعال في اصطلاح الحكماء اذ لا بد لزيادة الصور في أذهان المتفكرين من علة فاعلة ولا بد أن تكون العلة الفاعلة للعقولات عاتلة تدرك الكليات اذ لا يكون الموجد للشيء، فاقداً له ولا بد أن يكون جوهرأ مجرداً، ثم ان ملاحظة الصور في العقل الفعال أعلى وأكمل من ملاحظتها في النفس فان ما في العقل الفعال برئية عن شوائب الوهم و محفوظة عن الخطأ، مصونة عن الغلط بخلاف ما يأخذه النفس عن العقل فيدركه في لوح نفسه فانه يحتمل الخلط به بدركات الوهم والحواس فيدخل فيه الخطأ، و اذا وصل النفس الى مقام يدرك عين الصور الحاصلة في العقل الفعال وتحقق لديه أنه ادركها فيه لافى نفسه، فهذه الحالة الخامسة التي تكون مدركات الانسان عين الحق ولا تحصل الا للكمال من الاولياء (ش).

(٢) قوله : « روحانياً » هذا نحو من الاتحاد حققه الحكماء الالهيون والعرفاء الشامخون وللتفصيل فيه محل آخر وهو آخر سير البشر في السلوك الى الله وعند بعض المرفاء اللطائف سبعة، « وللناس فيما يشقون مذاهب » (ش).

(٣) قوله : « في ذاته وفعله » هذا تعريف للعقل المجرد في اصطلاح الحكماء وقال المشاؤون: ان العقول عشرة أي نعلم هذا العدد ولا تنكر الزيادة، وقال الاشراقيون: ان عدتهم لا تنحصر كثرة ويقال ان العقل أول خلق من الروحانيين، وقد ورد في الحديث كما يأتي ان شالله وقال الحكماء: انه أول صادر عن المبدء كما ورد في الحديث وذلك لان الاشرف مقدم في الوجود ولا ريب أن الموجود العاقل بذاته اشرف من الجماد والحيوان الذي لا عقل له. واعلم ان المجلسي رحمه الله جعل في كتاب الاربعين وغيره من كتبه القول بوجود

و يقال إنه أول خلق من الروحانيين ، وإنه كثير العدد كثرة لامثل كثرة الأشخاص
 المندرجة تحت نوع واحد ، ولا مثل كثرة الأنواع المندرجة تحت جنس واحد
 لأن تلك الكثرة من نوابع المادة (١) والعالم القدسي منزّه عنها بل هي مراتب
 وجودية نورانية بسيطة مختلفة في الشدة والضعف في النورية متفاوتة في الكمال
 والقرب إلى نور الأنوار ، وأنه روح النفس الناطقة وحالة لها و متعلق بها كمتعلق
 النفس بالبدن و باضاءاته وإشراقاته تضيء النفس و تشرق و تبصر ما في عالم الملك
 والملكوت و تعرف منافعها و مضارها فتطلب الأول و تجتنب عن الثاني ، و أنه
 لا بعد في ذلك التعلق لأنه إذا جاز تعلق النفس بالبدن مع المباينة بينهما في
 التجرد والمادية جاز تعلق ذلك الجوهر بالنفس (٢) مع المناسبة بينهما في التجرد
 بالطريق الأولى . والحق أن وجود ذلك الجوهر أمر ممكن دل عليه ظاهراً
 كثير من الروايات لكن لأعلى الوجه الذي ذهب إليه طائفة من الفلاسفة من أنه

العقل المجرد مستلزماً لانكار كثير من ضروريات الدين و أنكر وجود مجرد سوى الله
 تعالى (ش) .

(١) قوله: « لان الكثرة من نوابع المادة » الكثرة للعدد و يتكرر الشيء إما
 بالماهية كالحديد فإنه غير الذهب ماهية ، و إما بالشخص مثل هذا الحديد في المسحاة و
 ذلك الحديد في القدوم و كلاهما حديد متحدان الماهية . وليس تكرر العقول مثل هذا ولا
 مثل ذاك بل جميعها متحدة الحقيقة كالنور و ذومراتب مثله ، والعقول في اعتقاد بعضهم مختلفة
 الماهية ولا يشترك نوعاً ولا جنساً . وللبحث في ذلك محل آخر (ش) .

(٢) قوله: « تعلق ذلك الجوهر بالنفس » تعلق العقل بالنفس المجردة الانسانية نظير
 تعلق النفس بالبدن و بالجملة العقل الفعال له اشراقات على النفوس و بتلك الاشراقات
 متحد بالنفس فمثل العقل الفعال والنفوس مثل الشمس واشعتها . والمجلى رحمه الله عد
 أكثر ما حققه الشارح هنا واعترف بإمكانه و صحته مخالفاً لضروريات الدين (ش) .

موجد للأفلاك (١) و ما فيها و ما تحتها من الأجسام و العناصر و غيرها فان وجوده على هذا الوجه غير ثابت لاعقلاً ولا نقلاً، بل باطل بالنظر إلى الآيات و الروايات الدالة على أن موجد ما ذكر ليس إلا الله جل شأنه وأن تكثره وتعلقه بالنفس على الوجه المذكور أيضاً أمر ممكن، وأن انتساب الحالات و المراتب المذكورة للنفس إليه باعتبار تفاوت إشراقاته عليها أيضاً جائز، و أن انتساب الثواب والعقاب إليه غير بعيد إذ كما أن ثواب البدن وعقابه باعتبار متعلقه و روحه الذي هو النفس كذلك يجوز أن يكون ثواب النفس و عقابها باعتبار متعلقها و روحها الذي هو ذلك الجوهر، إذ عرفت هذا فلا يبعد أن يراد بالعقل في الروايات الدالة على أنه أول خلق من الروحانيين و أنه حالة من أحوال النفس كما في حديث الجنود و غيره ذلك الجوهر (٢) ثم معاني العقل على تباينها يجمعها أمر واحد

(١) قوله: « موجد للأفلاك » و حاصل كلام الشارح اثبات وجود العقل المجرد الذي يقول به الحكماء و اختار في ذلك مذهب صدر المتألهين صاحب الاسفار الاربعية و اعترف بإمكان اتحاد العقول الجزئية بالعقل الفعال و بأن الوجود حقيقة واحدة ذات مراتب و غير ذلك من دقائق هذا العلم، و اما ما نسب إلى طائفة من الفلاسفة فكأنه اراد المتفلسفين الجاهلين الذين غاية همهم حفظ الاصطلاحات و ساهم الفارابي الفيلسوف البهرج والافان تأثير العقل نظير تأثير الدواء في دفع المرض و تأثير الرياح في إثارة السحاب في قوله تعالى « يرسل الرياح فتثير سحابا » فكأن الاعتقاد بتأثير هذا باذن الله ليس ككفر كذلك الاعتقاد بتأثير العقول باذن الله ليس ككفر و تأثيرهم نظير تأثير الملائكة الموكلين بل العقول هم الملائكة والفرق بالاصطلاح (ش).

(٢) قوله: « ذلك الجوهر » أي العقل المفارق هو الذي خلقه تعالى أولا و مع ذلك بعد حالة من حالات النفس باعتبار إشراقاته و أضائاته و جنوده التي في النفوس وهذا عين مذهب الفلاسفة الآن الشارح تبرأ من طائفة منهم حتى لا يوهم أنه يقلد الفلاسفة تقليداً أعمى فلو كان صرح بأن مذهب الفلاسفة هنا حق لذهب الاوهام إلى تجويز تقليد ملاحدتهم و صار سبباً للضلال جماعة عظيمة ولكن صرح بالمعنى و تبرأ من اللفظ، والحق أن أقرب الأقوال إلى قول الملاحدة الماديين قول الجسمانية فانهم لا يمترون بوجود شيء غير جسم ولا جسماني حتى أن الله تعالى عندهم جسم، و بعد ذلك قول من لا يعترف بوجوده

يشترك الكل فيه و هو أنه ليس بجسم ولا جسماني و لهذا صح أن يجعل موضوعاً
 لفن واحد كما في هذا الكتاب و يبحث عن العوارض الذاتية له ولاقسامه و
 للرأي المصائب أن يحمله في كل حديث على ما يناسبه من المعاني المذكورة.
 و إذا عرفت العقل فاعرف الجهل بالمقابلة فهو إما النفس باعتبار تعلّقها
 بالبدن والحالات المقابلة للحالات المذكورة لأن ذلك التعلّق و تلك الحالات
 منشأ لظلمة النفس و انكسافها و ميلها إلى الشرور، أو أمر مقابل لذلك الجوهر
 النوراني متعلّق بالنفس و روح خبيث لها يدعو إلى الشر والفساد، ولا يبعد أن
 يكون ما في بعض الروايات من أن المؤمن مؤيد بروح الإيمان (١) وأن لكل قلب
 أذن على أحدهما ملك يهديه وعلى الآخر شيطان بضله (٢) إشارة إلى العقل والجهل
 بهذا المعنى والله أعلم بحقائق الأمور (استنطقه) ناطقه واستنطقه أي كلمه وفي استنطقه
 إخراج له عن الوحشة و تأنيس له بالقرية و تكريم له بالعزة كما يقع مثل ذلك
 كثيراً ما بين المحب والمحبوب و من هذا القبيل قوله تعالى ، و ما تلك
 يمينك يا موسى ، مع علمه تعالى بخفيات الأمور (ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال
 له أدبر فأدبر) كأن المراد إقباله إلى ما يصلح أن يؤمر به من الطاعة وإدباره
 عما ينهى عنه من المعصية أو إقباله إلى المقامات العالية والدرجات الرفيعة التي
 يمكنه الوصول إليها ، و إدباره عن تلك المقامات ونزوله في منازل الطبيعة الجسمانية
 و هبوطه إلى مواطن الظلمة البشرية ، و لعل الغرض من الأمر بالإقبال إراءه
 مقاماته و إظهار درجاته ليستيقظ في العالم السفلي من نوم الجهالة وسنة البطالة و
 يتذكر بأن له سوى هذه النشأة الدنيّة نشأة أخرى أحسن و أفضل منها بل لا

ثم مجرد سوى الله تعالى وأبعد الأقوال عنهم قول من أنكر الوجود المستقل الممكن وجدل وجوده
 كالمعنى الحرفي، وبعد ذلك من أنكر وجود الجسم و جعله مركباً من قوى متحركة كما
 ذهب إليه أكثر أهل عصرنا و بعدهم من اعترف بوجود الجسم والموجودات المجردة
 معاً (ش) .

(١) و (٢) رواهما الكليني في كتاب الإيمان والكفر من الكافي ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٦ .

نسبة بينهما ، أو إقباله إلى الدنيا و إدباره عنها و عدم ركونه إليها ، و قيل :
المراد بالأمر بالإقبال والادبار هو الأمر التكويني الإيجادي لا التكليفي والإقبال
والادبار التزييد والنقص في كل مرتبة من مراتب القوة العاملة بالقياس إلى العلوم
و الأخلاق كمّا و كيفاً بحسب كل من الاستعداد الأولي الجبلي في الفطرة
الأولى والاستعداد الثاني المكتسب في الفطرة الثانية ، فإن بالإعمال و التعطيل
في الفطرة الثانية يربو و يطف ما في الفطرة الأولى والذي من لوازم الذات هو
القدر المشترك السيال بين حدّي الربو و الطفاة وهو متحفّظ غير متبدل مادامت
الذات في مراتب التزييد والنقص ، وفيه أن تكوينه على قبول الزيادة والنقصان
إنما هو في مرتبة تكوين ذاته لا بعده كما يشعر به لفظة «ثم» (ثم قال وعزّي)
أي و غلبتي على جميع الممكنات يقال : عزّه يعزّه بالفتح عزّاً إذا غلبه والاسم
العزّة و منه العزيز من أسمائه تعالى بمعنى القويّ الغالب الذي لا يغلب و بمعنى
الملك مثل قول إخوة يوسف « يا أيّها العزيز » (و جلا لي) أي و عظمة شأني و
ارتفاع قدري و مكاني ، و منه الجليل من أسمائه تعالى بمعنى العظيم المطلق ، و
الواو للقسم و ما بعدها مبتدأ و خبره محذوف و هو قسمي (ما خلقت خلقاً هو
أحبّ إليّ منك) دلّ على أن العقل ليس هو أوّل المجهولات (١) كما زعم ،
قيل : المحبّة ميل القلب إلى ما يوافقه وهي بين الطرفين لما روي عن الصادق عليه السلام
حين سأله رجل عن رجل يقول : أودّك فكيف أعلم أنّه يودّني فقال : امتحن قلبك فإن
كنت تودّه فاتّه يودّك (٢) سيّما إذا أخبر أحدهما الآخر بحبّه له فاتّه يوجب حبّ
الآخر للمخبر أيضاً كما ورد في بعض الأخبار ، و من ههنا يعلم أن العقل كما
كان أحبّ المخلوقات إلى الله سبحانه كذلك كان سبحانه أحبّ الموجودات إلى العقل
و سبب محبّة الشيء إمّا كونه حسناً في ذاته ، أو في الحسن كالصور الجميلة . أو في
العقل كمحبّة الصالحين ، أو كونه محسناً يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً ، و ثمرة

(١) قوله « ليس هو أول المجهولات » سيحىء تحقّقه عند قوله (ع) « هو أول خلق
من الروحانيين » ان شاء الله تعالى (ش). (٢) الكافي كتاب العشرة باب نادر ج ٢ .

محبة الله لخلقه إرادة الخير له وإفاضة رحمته عليه والاحسان إليه بكشف الحجاب عنه و تمكينه من أن يسطر قربه و ثمرة محبة الخلق له تعالى وقوفه عند حدوده و حبه لمن أحبه و بغضه لمن أبغضه و استيناسه و استيحاشه عما سواه ، و تجافيه عن دار الغرور و ترقّيه إلى عالم النور ، و كأن من أنكر المحبة بينه و بين خلقه و زعم أن ذلك يوجب نقصاً في ذاته تعالى أنكر المحبة بمعنى الميل لأن الله تعالى منزّه عن أن يميل أو يمال إليه وليس هذا المعنى مراداً هنا بل المراد هنا هي الغايات والثمرات المذكورة لأن ما نسب إليه تعالى مما يمتنع أخذه باعتبار المبادي والحقائق و جب أخذه باعتبار الغايات وقد شاع أمثال ذلك في القرآن العزيز على أنه قديقال محبة الخلق له بمعنى ميل العقل ليس بمتنع لأن الميل العقلي إدراك ولا يمتنع ذلك كما لا يمتنع العلم به ، وإنما الممتنع هو الميل الحسي لاستلزامه أن يكون في جهة والوجه العقلي في كونه أحب المخلوقات إليه أن الطاعة والانقياد مع القدرة على المخالفة أشد من الطاعة بدونها وأدخل في التقرب و استفاضة الرحمة والاحسان منه تعالى ، و قيل الوجه فيه أن المحبة تابعة لإدراك الوجود لأنه خير محض ، فكل ما كان وجوده أتم كانت خيريته أعظم والإدراك المتعلق به أقوى والابتهاج به أشد فأجل مبهج بذاته هو الحق الأول ، لأن إدراكه لذاته أشد إدراكاً لأعظم مدرك له الشرف الأكمل والنور الأنور والجلال الأرفع ، فذاته سبحانه أحب الأشياء إليه و هو أشد مبهج به . و محبته لعباده راجعة إلى محبته لذاته لأن كل من أحب شخصاً أحب جميع حركاته وأفعاله و آثاره لأجل ذلك المحبوب ؛ فكل ما هو أقرب إليه فهو أحب إليه و جميع الممكنات على مراتبها آثار الحق و أفعاله فالله يحبها لأجل ذاته و أقرب المفعولات إليه هو العقل ، ثبت أنه أحب المخلوقات إليه . ومن المتكلمين من أنكر محبة الله لعباده زعموا منهم أن ذلك يوجب نقصاً في ذاته ولم يعلموا أن محبة الله لخلقه راجعة إلى محبته لذاته إنتهى . وفيه نظر من وجوه أمّا أولاً فلا قوله « المحبة تابعة لإدراك الوجود » ممنوع و ما ذكره لإثباته من أن الوجود

خير محض مدخول (١) والبحث عنه مشهور مذكور في موضعه ، و أمّا ثانياً فلأنّ كون العقل المبحوث عنه أقرب المجعولات كلّها إليه سبحانه ممنوع (٢) و أمّا ثالثاً فلأنّ المحبّة والبغض متقابلان و قد نسب البغض لبعض المخلوقات إليه سبحانه ولا شكّ أنّ بغضه له ليس لأجل أنه من آثاره بل لأجل شيء آخر فلم لا يجوز أن لا يكون محبته لخلقه لا لأجل أنه من آثاره بل لأجل شيء آخر (٣) و أمّا رابعاً فلأنّ قوله تعالى «إن الله يحب المحسنين» «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» صريح في أنّ محبته لهم لأجل إحسانهم وتوبتهم و تطهارتهم لا لأجل أنهم من آثاره ، ولو أريد أنّ الاحسان والثوبة والطهارة من فعله وآثاره لرجع هذا إلى قول الأشاعرة و يتسع دائرة المناقشة فليتمل.

(ولا أكملتك إلا فيمن أحب) دلّ على أنّ كمال العقل كأصله حباء من الله جلّ شأنه و لكن لكسب العبد و عنايته مدخل فيه كما يدلّ عليه قول موسى بن جعفر عليه السلام: «من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين

(١) قوله: «خير محض مدخول» هذا شيء مبني على التسليم والاستقرار فانا لا نجد شيئاً يسمى شراً إلا لأن الدم دخل فيه بوجه وحق ذلك نصير الدين الطوسي في موضعه (ش).
(٢) قوله: «ممنوع» لا ريب أنّ الله تعالى عالم بكل شيء والعلم كمال لا كمال فوقه و كل موجود يكون علمه أكمل من غيره فهو أقرب إلى الله تعالى، ولا يتصور أن يعتقد أحد أن الجاهل أقرب إليه من عالم ومنه الشارح هنا في غير محله نعم جعل بعضهم رتبة الإنسان الكامل فوق العقل لأنه جامع بين كمال العقل وكمالات أخرى يختص به ولذلك قال العقل المبحوث عنه أي الذي هو بشرط لا عن كمال غيره (ش).

(٣) قوله: «لأجل شيء آخر» لا ينكر أحد محبة الله لأوليائه لأجل عبادتهم وتقربهم إليه و لكن له تعالى محبة عامة لجميع خلقه بالرحمة الرحمانية، و محبة خاصة لخصوص المؤمنين بالرحمة الرحيمية و انبات شيء لا ينفي غيره كما أنّ غضبه تعالى على الكفار لأجل كفرهم لا ينافي شمول الرحمة العامة لهم في الدنيا بسعة الرزق والدولة وسائر النعم وبهذا يدفع المناقشة المذكور بقوله رابعاً (ش).

فليتضرع إلى الله عز وجل في مسئلته بأن يكمل عقله (١) ، ويرشد إليه التجربة فإن من نشأ في التعلم و طهارة النفس و صرف القوة العلمية والعملية في تحصيل العلوم والأعمال والأخلاق المرضية ازداد عقله ضوءاً و نفسه نوراً يكاد يبصر ما تحت العرش وما تحت الثرى، و تلك العناية التي هي من التوفيقات الربانية إنما يتوقف على وجود أصل العقل لأعلى كماله فلا يلزم الدور.

(أما إنني إيتاك أمر و إيتاك أنهي و إيتاك أعاقب و إيتاك أئيب) « أما » حرف تنبيه يصدربها الكلام الذي لمضمونه خطر وعناية لتنبيه المخاطب وإيقاظه طلباً لأصغائه ، وتقديم المفعول للاختصاص فإن العقل و إن استشعر من الأمر بالاقبال والإدبار أنه مخلوق يتوجه إليه الأمر والنهي لكنه استشعر أيضاً بأنه مقارن مع مخلوق آخر فكأنه غفل عن ذلك لشدة شعفه بمخاطبة ربه جل ذكره و توهم أن الأمر والنهي والثواب والعقاب يتوجه إليه مع مشاركة الغير أو يتوجه إلى الغير وحده لا إليه ، فأتى الله سبحانه بحرف التنبيه إيقاظاً له عن تلك الغفلة و إظهاراً بأن الكامل لا بد من أن لا يصير مغروراً بكماله بل هو دائماً يحتاج إلى تنبيه وتذكير وبطريق الحصر دفعاً لما عرض له من التوهم و إشعاراً بأن القابل للخطاب هو دون غيره و حصر الثواب والعقاب فيه باعتبار أنه بذاته، أو بواسطة قوة و روية فيه منشأ للطاعة والعرفان و مبدء للمعصية والطغيان في مواد الإنسان و مستحق لهما في ضمن تلك المواد. فلا يدل الحديث على ثبوتها له مجرداً عنها أصلاً فضلاً عن أن يدل على نفي المعاد الجسماني و انطباق معنى الحديث على العقل بالمعنى الأول و هو النفس باعتبار التجرد ظاهر، وبالمعنى الثاني و هو حالة النفس و قوتها الداعية إلى الخبرات في المراتب المذكورة يحتاج في قوله « إيتاك أعاقب و إيتاك أئيب » إلى تكلف بأن يقال معناه بك أعاقب و بك أئيب على سبيل التوسّع ، لأن المعاقب والمثاب هو النفس ، أو يقال لمّا كانت تلك القوة منشأ تكليف النفس نسب الثواب والعقاب إليها على سبيل التجوّر

و بالمعنى الأخير و هو الجوهر النوراني المفارق عن المادة في ذاته وفعله يحتاج في هذا القول وفي قوله: «ولا أكملتك إلا فيمن أحب» إلى تكلف بأن يقال المراد بأكماله أكمال إشراقاته على النفس و بثوابه وعقابه ثواب النفس وعقابها باعتبار الاستضاءة من مشكوته و عدمها ، وقيل المراد بالعقل هنا العقل النبوي و الحقيقة المحمدية و هو الروح الأعظم المشار إليه بقوله تعالى «قل الروح من أمر ربي» و أحب الخلق إليه استنطقه الله تعالى بعد ما خلقه و جعله ذائق و كلام يليق بذلك المقام ثم قال له : أقبل إلى الدنيا و اهبط إلى الأرض رحمة للعالمين فأقبل فكان روحه مع كل نبي باطناً و مع شخصه المبعوث ظاهراً ، ثم قال له : أدبر يعني أدبر عن الدنيا و ارجع إلى ربك ، فأدبر عنها و رجع إليه ليلة المعراج وعند المفارقة عن دار الدنيا ثم أعلمه تشریفاً و تكريماً له بأنه أحب الخلق إليه و أكد ذلك بالقسم ، ثم قال : «إنيك أمر و إنيك أنهي وإنيك أعاقب وإنيك أثبت» والمراد بك أمر و بك أنهي و بك أعاقب من حجبني و حجبك من الأولين والآخرين و بك أثبت من عرفني و عرفك منهم كل ذلك لأنك سبب للايجاد ولولاك لما خلقت الأفلاك أو المراد إنيك أمر و إنيك أنهي لأنك ملاك التكليف و إنيك أعاقب بحبسك في الدنيا مدة و دخولك في المنزل الرفيع من الجنة و إنيك أثبت باعتبار غاية كمالك و كمال قربك و منزلتك لدينا ، ولدينا مزيد و الله أعلم بحقيقته كلامه .

((الأصل)) :

- ٢- «علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن عمرو بن عثمان ، عن مفضل بن صالح ، عن سعد بن طريف ، عن الأصمغيني ، عن علي بن أبي حمزة ، عن هبط ، عن جبرئيل عليه السلام ، قال : يا آدم إني أمرت أن أختيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين فقال له آدم : يا جبرئيل وما الثلاث ؟ فقال : العقل ، والحياة ، والدين ، فقال آدم عليه السلام : إني قد اخترت العقل فقال جبرئيل للحياة ، و

«الدين: انصرفا ودعاه فقالا: يا جبرئيل إننا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان قال: «فشأنكما وارجع».

((الشرح)):

(علي بن محمد) يروي المصنف في هذا الكتاب كثيراً عن علي بن محمد وهو علي بن محمد بن إبراهيم بن أبان الرازي الكليني المعروف بعلاء ثقة عين (عن سهل ابن زياد) ضعيف في الحديث (عن عمر بن عثمان) كوفي ثقة نقي الحديث (عن مفصل بن صالح) ضعيف كذاب (عن سعد بن طريف) قيل: هو صحيح الحديث ونقل العلامة عن النجاشي أنه يعرف وينكر، وعن ابن الغضائري أنه ضعيف وقال الكشي عن حمدويه أنه كان ناو وسيئاً وقف على أبي عبدالله عليه السلام (عن الأصمغيني) ابن نباتة) بضم النون قال العلامة والنجاشي والشيخ في فهرست: إنه كان من خاصة أمير المؤمنين عليه السلام وقال العلامة: إنه مشكور.

(عن علي بن محمد) قال هبط جبرئيل عليه السلام على آدم عليه السلام (الظاهر أن ذلك كان بعد هبوط آدم من الجنة وبعد قبول توبته) فقال يا آدم إنني أمرت أن أخيرك واحدة من ثلاث أي خصلة واحدة من ثلاث خصال (فاخترها ودع اثنين) فقال: آدم يا جبرئيل وما الثلاث (الظاهر أن الواو لمجرد حسن الاتباط وزيادة الاتصال لا للمعطف) فقال: العقل الحياء والدين (العقل هنا قوة نفسانية وحالة نورانية بها يدرك الإنسان حقائق الأشياء ويميز بين الخير والشر وبين الحق والباطل، ويعرف أحوال المبدء والمعاد وبالجملة هو نور إذا لمع في آفاق النفوس يكشف عنها غواشي الحجب فتتجلى فيها صور المعقولات كما يتجلى في العين صور المحسوسات والحياء خلق يمنع من ارتكاب القبيح وتقدير في الحقوق، وقال الزمخشري هو تعبير وانكسار يلحق من فعل ما يمدح به أو ترك ما يذم به وهو غريزة وقد يتخلق به من يجبل عليه فيلتزم منه ما يوافق الشرع وسيجيء تحقيقه وتحقيق أن ما في بعض الإنسان من الكيفية المانعة له عن القيام بحقوق الله تعالى من الحياء

إن شاء الله تعالى. والدين هو الصراط المستقيم الذي يكون سالكه قريباً من الخيرات بعيداً عن المنهيات (١) وهو عبارة عن معرفة مجموع ما يوجب القرب من الرب و العمل بما يتعلق به الأمر ومعرفة مجموع ما يوجب البعد عنه وترك العمل بما يتعلق به النهي (فقال آدم إنني اخترت العقل) لا يقال: اختياره للعقل لم يكن إلا لملاحظة أن حسن عواقب أموره في الدارين يتوقف عليه و إن نظام أحواله في النشأتين لا ينهم إلا به ولا يكون ذلك إلا لكونه عاقلاً متفكراً منامثلاً فيما ينفعه عاجلاً و آجلاً، لأننا نقول: المراد بهذا العقل العقل الكامل الذي يكون للأنبيا والأوصياء و اختياره يتوقف على عقل سابق يكون درجته دون هذا و للعقل درجات ومراتب وقد يقال هذه الأمور الثلاثة كانت حاصلة له عليه السلام على وجه الكمال والنخبة فيها لا ينافي حصولها والغرض منه إظهار قدر نعمة العقل والحث على الشكر عليها (فقال جبرئيل للحياء والدين انصرفا و دعاه) أي انصرفا عن آدم و دعاه مع العقل معه (فقال يا جبرئيل) الظاهر أن هذا القول حقيقة بلسان المقال بحياة خلقها الله تعالى فيهما ولا يبعد ذلك عن القدرة الكاملة وقد ثبت نطق البدن والروح على صاحبهما ونطق الكعبة والحجر وغيرهما. ويحتمل أن يكون ذلك مجازاً بلسان الحال أو يخلق الله سبحانه فيهما كلاماً أسمع جبرئيل و آدم عليهما السلام كما قد خلق ذلك في بعض الأجسام الجمادية وأسمعه من شاء من خلقه (إننا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان) أي حيث وجد أو حيث كان موجوداً، بفهم منه أن العقل مستلزم لهما وهما تابعان له، والأمر كذلك لأن العقل يعرف الله سبحانه وجلاله وجماله وكماله وتنزهه عن التقايس وإحسانه وإنعامه وقهره و غلبته بحيث يرى كل جلال و جمال و كمال وإحسان وإنعام وقهر و غلبة مقهوراً تحت قدرته مغلوباً تحت قهره و غلبته بل لا يرى في الوجود إلا هو فيحصل له بذلك خوف و خشية يرتعد به جوانحه كما قال سبحانه: « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ويحصل له بذلك قوة وملكة تمنعه عن مخالفته طرفة عين وهذه القوة هي المسماة

بالحياء ، ثم بتلك القوة يسلك الصراط المستقيم وهو الدين القويم ، ومن هنا ظهر أن الحياء مستلزم للدين والدين تابع له ، ثم جبرئيل عليه السلام إن كان عالماً بكونهما مأمورين بذلك كان قوله : « انصرفا ودعاهم محمولاً على نوع من الامتحان لاطهار شرف العقل و نباهة قدره و إن لم يكن عالماً كان ذلك القول محمولاً على الطلب (قال فشأنكما و عرج) الشأن بالهمزة الأمر والحال والقصد أي فشأنكما معكما أو ألزما شأنكما ، وهذا الحديث و إن كان ضعيفاً بحسب السند لكن صحيح المضمون ، وكذا الحديث الآتي مع ضعفه بالارسال أيضاً لاغتماده بالبرهان العقلي و كذلك كثير من الأحاديث الواردة في الأحكام العقلية من أصول المعارف ومسائل التوحيد.

((الاصل))

٣- « أحمد بن إدريس ، عن محمد بن عبد الجبار ، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال ، قلت له : ما العقل ؟ قال : « ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان ، قال : قلت : فالذي كان في معاوية ، فقال : تلك المنكرات تلك الشيطنة » وهي شبيهة بالعقل و ليست بالعقل »

((الشرح))

(أحمد بن إدريس ، عن محمد بن عبد الجبار ، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له : ما العقل قال ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان) . سأل سائل عن معرفة العقل مطلقاً سواء كان حقيقياً أو رسمياً أو لفظياً أو عن حقيقة وأجاب عليه السلام ببعض خواصه و أغراضه المقصودة منه للتبنيه على أن معرفة هذا هو الأهم والأسهل له دون معرفة حقيقته وإشعاراً بأن عرفان حقيقته يتعسر جداً فلا يحصل له بسهولة ، ولهذا اختلف العلماء فيها وتحيّرت عقول الحكماء في تحديدها وهذا التعريف إشارة إلى القوة النظرية المسمّاة بالعقل النظري شرح أصول الكافي - ٥ -

وإلى القوة العملية المسمّاة بالعقل العملي إذ بالأولى يعلم المعارف الإلهية والأحكام الشرعية والأخلاق الحسنة النفسانية، وبالثانية يعمل بها ويهذب الظاهر والباطن والعلم والعمل يتم نظام عبادة الرحمن واكتساب الجنان، ويمكن أن يكون إشارة إلى العقل بالمعنى الأول والأخير أيضاً لأن مقتضى النفس من حيث التجرد وعدم معارضة الأهام و سائر القوى البدنية ومقتضى الجوهر النوراني المجرد عن شوائب المادة من جهة إشرافاته على النفس عبادة الرحمن واكتساب الجنان كما يشهد به الفوق السليم؛ ولما كان هذا الجواب من الخواص الشاملة للعقل من شأنها عدم تخلفها عما هي خاصّة له وقد تخلفت ههنا عما في بعض الأشخاص مثل معوية من مناط التدبير والتصرف في الأمور الدنيوية الموجبة لبعده عن عبادة الرحمن واكتساب الجنان، والناس يسمّونه عقلاً وصاحبه عقلاً، سأل ثانياً حيث (قال: قلت: فالتدني كان في معوية) الموصول مبتدأ خبره محذوف وهو ما هو (فقال) كشفاً لغمّته وتوضيحاً لمسئلته (تلك النكراء) النكراء بالفتح والسكون والنكر بالضم و بضمين: المنكر والأمر الشديد وكل ما قبّحه وكرهه العقل أو الشرع فهو منكر أي تلك القوة التي كانت في معوية وكانت سبباً لتحصيله المصالح الدنيوية واكتساب الأمور الشرعية، وانجرف عنه الله وعن أمر الآخرة قوة منكورة شنيعة قبيحة (تلك الشيطنة) فيعلة من شطن عنه إذا بعد، ومنه الشيطان بعده عن رحمة الله سبحانه والمراد بهاروثة نفسانية تكتسب بها أعمال الجاهلين وملكة شيطانية يقترب بها أفعال الشياطين، وقوة داعية إلى الأغراض الفاسدة والشور و تحصيل المطالب بالحيل والمكر وقول الزور (وهي شبيهة بالعقل) في أنها حائلة للنفس وقوة محرّكة لها إلى منافعها كما أن العقل كذلك، توضيح ذلك أن العقل نورانية شريف الذات تقي الجوهر يدعو إلى ملازمة العلم والعمل واكتساب المنافع الآخروية الموجبة للسعادة الأبدية وكلمة زاد العلم والعمل زادت نورانيته وصفائه حتى يصير نوراً محضاً وضوءاً صرفاً يضيء به سماء القلوب وأرض النفوس، والشيطنة قوة ظلمانية خسيس الذات مكدر الجوهر تدعو إلى

ملازمة الشرور و اكتساب المنافع الدنيوية الموجبة للمشقاوة السرمديّة واقتراف
 زهراتها الزائلة الغانية بالمكر والحيل والوساوس الشيطانيّة و كلّما زادت تلك
 الشرور والمنافع زادت ظلمتها وكثرت كدورتها حتّى تصير ظلمة صرفة و شيطنة
 محضة ، ولكن لما كان التمايز بينهما و منافع العقل من الأمور المعنويّة و
 منافع الشيطنة و رويّتها من الأمور الحسيّة صارت الشيطنة شبيهة بالعقل بل عقلاً
 عند الجهّال (وليست بالعقل) و لا شبيهة به عند أهل الفضل والكمال ،
 فالجهّال لفقدان بصيرتهم عن تلك القوّة النورانيّة و عميان سريرتهم
 عن مشاهدة تلك الرّويّة الربّانيّة مع سماعهم بأنّ للإنسان عقلاً هو مبدئ الفطنة
 والرّويّة يغصّبون اسم العقل عن موضعه ويسمّون هذه الرّويّة النكراء وهذه الفطنة
 الغمياء عقلاً ويعدّون معوية من جملة العقلاء ، وأمّا أهل الفضل والكمال فانّهم يعرفون
 بنور البصيرة أنّ بين تينك القوتين تمايزاً بحسب الذات و الصفات لأنّ أحديهما
 نور والأخرى ظلمة ، وبين الحرّكتين تغايراً في الجهات لأنّ جهة إحداهما التقرب
 بالحقّ و التّعمّ وجهة الأخرى التقرب بالشيطان والدخول في الجحيم و بين المفرضين
 تمايزاً في الحالات لأنّ غرض إحداهما التلذّذ باللذّة الرّوحانيّة وغرض الأخرى
 التلذّذ باللذّة الجسمانيّة ، ويمكن أن يقال : العقل على أيّ معنى كان يقع الاشتباه بينه
 و بين الشيطنة عند الجهّلة لأنّ في كلّ واحد منهما جودة الرّوية وسرعة التّفطن
 بما ينفع و يضرّ و عزم الانتقال إلى النافع والاجتناب عن الضارّ سواء كان متعلّقاً
 بأمر الدّنيا أو بأمر الآخرة تحقيق ذلك أنّ للعقل على الإطلاق بداءة و نهاية و
 كليهما تسمّيان عقلاً أمّا الأولى فهي جوهر مبدئ للعلوم والأعمال والخيرات
 كلّها و منشأ للرّوية والتّفطن بها والتميز بينها و بين غيرها من أضدادها و أمّا
 الثانية فهي العلوم والمعارف التي بها يعبد الرحمن و يكتسب الجنان وهي ثمرة
 الأولى فإذا استعمل ذلك الجوهر مع ما فيه من الرّوية والتّفطن فيما خلق لأجله
 من اتّخاذ الزاد ليوم المعاد و اقتباس العلم والحكمة إلى غير ذلك ممّا هو نافع
 في الآخرة زادت رويّته و تفتّنه وعظمت قوّتهما ، وتسمّى تلك القوّة أيضاً عقلاً

إمّا حقيقة أومجازاً، و تنفاوت بحسب التفاوت في القوة والضعف و كثرة جنود العقل و قلتها و شدّة معارضة الأوهام والقوى و عديمها وإن ترك مهملاً ولم يستعمل فيما ذكر، بل استعمل في أضداده و صرف رويته و فطنته بجميع أنحاء الحيل و المكر إلى جمع متفرقات الدنيا وزهراتها و تحصيل جزئياتها وضبط مرخرفاتها حتّى يكون أبداً في الحزن والأسف على فوات ما فات وفي الخوف من زهاب ما حصل و في الحرص على جمع ما لم يحصل، وعاونته جنود الجهل صارت قوّة تلك الرّويّة والفطنة شيطنة ورويّة من الشيطان وهو عقل عند الجهل دون الكلمة كما عرفت.

((الأصل)) :

٤- «محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن الحسن بن »
«الجهم قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : صديق كل امرء عقله وعدوه جهله »



((الشرح)) :

(محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال) وهو الحسن بن علي ابن فضال من أصحاب الرضا عليه السلام وكان خصباً به ، وكان جليل القدر عظيم المنزلة ورعاً ثقة و كان فطحياً يقول بإمامة عبدالله بن جعفر في جميع عمره حتّى حضره الموت فرجع إلى الحقّ (جس) (عن الحسن بن الجهم قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : صديق كل امرء عقله وعدوه جهله) كما أنّ صديق كل رجل يجلب له الخير، و يدفع عنه الشرّ و عدوه بالعكس كذلك عقله يجلب له المنافع و يدفع عنه المضارّ، و جهله بالعكس إذ بالعقل يعرف الحلال والحرام و أحوال المبدء و المعاد ، ويسلك سبيل الهداية والرشاد ، ويميّز بين الحقّ والباطل ، ويعبد الرحمن و يكتسب الجنان فهو أجدر باطلاق الصديق عليه و أولى إذ كلّ صديق غيره لا ينفع بدونه و بالجهل يغفل عن جميع ذلك و يسلك سبيل الغي والجهالة و يسعى في طريق الشرّ والضلالة و يعبد الشيطان و يكتسب غضب الرحمن فهو أليق باطلاق

العدو عليه وأخرى إذ كل عدو غيره لا يضره بدونه، وفيه إيحاء إلى أنه ينبغي أن لا يتخذ الجاهل صديقاً والعاقل عدواً لأن الجاهل إذا كان عدواً لنفسه فكيف يكون صديقاً لغيره والعاقل كما يكون صديقاً لنفسه يكون صديقاً لأخيه ويعينه فيما يعنيه فمن اتخذ عدواً كان أثر عداوته خزيًا بين يديه ومانعاً من وصول الخير إليه و لذلك كثر الأمر في الأحاديث بملازمة العالم ومفارقة الجاهل وكما أن صداقة الأصدقاء و عداوة الأعداء متفاوتة في الناس كذلك صداقة العقل و عداوة الجاهل متفاوتة بحسب تفاوت مراتب العقل والجهل في الشدة والضعف لكثرة جنودهما و قلّتها على ما سيأتي تفصيل ذلك في الحديث المتضمن لذكر الجنود إن شاء الله تعالى .

((الاصول)):

٥- « وعنه ، عن أحمد بن محمد ، عن ابن فضال ، عن الحسن بن الجهم »
 « قال : قلت لأبي الحسن عليه السلام : إن عندنا قوماً لهم محبة و ليست لهم تلك »
 « العزيمة يقولون بهذا القول ؟ فقال : ليس أولئك ممن عاتب الله إنما قال الله :
 « فاعنبروا يا أولى الأبصار » .

((الشرح)):

(وعنه) أي. عن محمد بن يحيى (عن أحمد بن محمد) الظاهر أنه أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري ويحتمل أحمد بن محمد بن خالد البرقي لأن محمد بن يحيى يروي عنهما إلا أن روايته عن الأول أكثر ورواية الأول عن ابن فضال أشهر وكلاهما عدلان ثقتان (عن ابن فضال عن الحسن بن الجهم قال : قلت لأبي الحسن عليه السلام) الظاهر أنه أبو الحسن الرضا عليه السلام ويحتمل أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام لأن الحسن بن الجهم يروي عنهما (إن عندنا قوماً) من الشيعة و التنكير للتكثير (لهم محبة) اكرم أهل البيت و التنكير للمتقين (و ليست لهم تلك العزيمة) الواو للمعطف أو للحال والعزم إرادة

الفعل والقطع عليه والجدّ فيه يعني ليس لهم القطع واليقين بمحببتكم كما يكون لخلّص شعبكم و ذلك لعدم كمالهم في العقل والتمييز وعدم تمسّكهم في الدّين بالبرهان يقولون بهذا القول (بمجرّد التقليد والنشوء عليه لا بالبصيرة والبرهان و هو تأكيد للسابق و لذا ترك العاطف) فقال ليس أولئك ممّن عاتب الله (للتقليد وترك الاستدلال لأنّ الاستدلال متوقّف على إدراك مقدمات مناسبة للمطلوب و اعتبار الحدود فيها و ترتيبها على نهج الصواب واعتبار الشرايط المعيّنة في الانتاج و قوّة الانتقال منها ولا يتصور ذلك إلّا فيمن له قوّة استعداديّة و بصيرة عقليّة و مكنة ذهنيّة (١) وليس أولئك بهذه الصفة فلا يتعلّق بهم الخطاب بالاستدلال والعتاب بتركه (إنّما قال الله فاعتبروا يا أولى الأبصار) خص الأمر بالاعتبار بأولى الأبصار والحدّث على الاستدلال بذوي الأفكار إذ لهم أذهان ثاقبة و عقول كاملة و بصائر نافذة تمكّنوا بها من معرفة غوامض الأمور من مبادئها ، فأولئك مكلفون بمعرفتنا والتصديق بولايتنا والاقرار بامانتنا والبلوغ إلى أعلى مراتب محبّتنا بمناهج البرهان و معارج التبيان ، فان فعلوا اتّصفوا بحقايق الإيمان و صاروا رفقاءنا في الجنان وإن أهملوا تمسّكوا بعروة الكفران و استحقّقوا عذاب السيران و مذلة الخذلان و هذا الحديث كما ترى صريح في أنّ التكليف عاجلاً و تحصيل كمال الرّضا و القرب عاجلاً و آجلاً متوجّه إلى العاقل الكامل ، وأنّ الضعفاء من الشيعة غير مؤاخذين بالتقليد في أصول الدين ، وأنّ هذا الصنف دون الصنف الأوّل في الثواب والعقاب كما قال سبحانه «ورفع بعضهم فوق بعض درجات».

((الأصل))

٦- « أحمد بن إدريس ، عن محمد بن حسان ، عن أبي عبد الرّازي ، عن سيف ابن عميرة ، عن إسحاق بن عمّار قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : من كان عاقلاً كان له دين ، و من كان له دين دخل الجنة ».

(١) في بعض النسخ [سمة ذهنية].

((الشرح)):

(أحمد بن إدريس ، عن محمد بن حسان) ضعيف (عن أبي محمد الرازي) قبل
هو جعفر بن محمد بن يحيى القاضي بالري ويحمل أحمد بن إسحاق الرازي (عن سيف بن
عميرة) بفتح العين ثقة عند الأكثر ، وقال محمد بن شهر آشوب : هو واقفي ، وقال
الشهيد في شرح الإرشاد في نكاح الأمة باذن المولى :- وربما ضعف بعضهم سبباً
والصحيح أنه ثقة (عن إسحاق بن عمار) ثقة عند الكل شيخ من أصحابنا عند بعض
وفظحي عند بعض ، وقال العلامة : الأولى عندي التوقف فيما ينقربه .

(قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين
دخل الجنة) هذا ضرب أول من الشك في الأول (١) من كتب من متصليين والنتيجة
من كان عاقلاً دخل الجنة؛ أمّا بيان الصغرى فاما مرّ في حديث عقل آدم عليه السلام
من أن الدين لازم للعقل وذلك لأنّ العاقل يعرف أحوال المبدء والمعاد وما
هو خبره في الدنيا والآخرة فيحصل له بذلك قوة تمنعه من الخروج عن الصراط
المستقيم، والدين عبارة عنه، وعبارة أخرى العاقل من كان له علم بالمصالح و
عمل بها إذ لو لم يكن الأول كان جاهلاً ولو لم يكن الثاني كان سقيماً و هو
أيضاً جاهلاً ، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه عليه السلام في الحديث السابق من أن
العقل ما يعبد به الرحمن و يكتسب به الجنان فثبت أن من كان له عقل كان
له دين و أمّا الكبرى فلأنّ الدين كما عرفت عبارة عن الصراط المستقيم و هو
طريق الجنة ، فمن سلّكه كان لا محالة غاية دخول الجنة ولأنّ سالكه استحق
دخولها و محال على فضل الله و إحسانه أن يمنعه من دخولها مع الاستحقاق ، و
يلزم من مفهوم الشرط أن من كان جاهلاً لا دين له ولا يدخل الجنة ولكن لا بد من
القول بأنّ هذا المفهوم غير معتبر لأنّ الجاهل قد يكون له دين وإن كان ضعيفاً
و قد يدخل الجنة بالفضل ، أو القول بأنّ المراد بدخول العاقل الدخول بلا

(١) الضرب الاول ان يكون الصغرى والكبرى موجهتين كليتين (ش)•

تعذيب بعذاب يوم القيمة أو بلا حساب لأن العاقل يؤدي حسابه في دار الدنيا و
يلزم أيضاً من قاعدة انتفاء الملزوم عند انتفاء اللازم أن لا يكون أحد من فرق الكفار
والمخالفين عاقلاً ، و أن لا يكون ما فيهم من قوة التصرف و التفكير والتدبير
عقلاً وقد مر أنّها شيطنة ونكراء .

((الاصل))

٧ - « عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن الحسن بن
« علي بن يقطين ، عن محمد بن سنان ، عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام قال :
« إنّما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول
« في الدنيا » .



((الشرح))

(عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد) ثقة (عن الحسن بن علي بن
يقطين) ثقة فقيه متكلم (عن محمد بن سنان) ثقة عند المفيد ضعيف عند الشيخ الطوسي و
النجاشي وابن الغضائري : ممدوح بمدح عظيم عند الكشي ولاجل ذلك قال العلامة
والوجه عندي التوقف فيما يرويه (عن أبي الجارود) اسمه زياد بن المنذر زيدي
أعمى منعم بدم عظيم (عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّما يداق الله العباد في الحساب) المداقة
مفاعلة من الدقة يعني أن مناقشتهم في الحساب وأخذهم على جليله و دقيقه (يوم
القيمة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا) للعقل مراتب متفاوتة في القوة
والضعف والكمال والنقصان المرتبة العليا للأنبيا والأوصياء والمرتبة السفلى لمن
يتميز به عن سائر الحيوانات الخارجة عن رتبة التكليف و المتوسطات على
كثرتها متوسطات والمداقة في الحساب بحسب تلك المراتب فحساب من في
الدرجة الثانية أشق وأدق من حساب من في الدرجة الأولى و أخف من حساب
من في الدرجة الثالثة وهكذا وذلك لأن الحساب على حسب التكليف والتكاليف

متفاوتة على حسب تفاوت العقول إذا الأقوى عقلاً أشد تكليفاً من الأضعف هذا ، و قال سيد الحكماء الألبين (١) : « إنما يَدَافُ الله العباد » بالذال المهملة والفاء المشددة و يروى بالذال المعجمة . و في بعض النسخ « يدافي » بإبدال إحدى الفاتين ياء ، يقال : دَفَّ عليه دَفِيقاً أي وفد وقدم ، ورافقت الرجل مداقَّةً و دفاًفاً أجهزت عليه وفي النهاية الأثرية في حديث ابن مسعود أنه داف أباجهل يوم بدر أي أجهز عليه وجز رقبتة ، و يذاف بالذال المعجمة بمعنى يذاف ، وأما يداق بالالف فتصحيف تحريفي و تحريف تسقيمي هذا ملخص كلامه . و إنما كلامه مطوّل مبسوط ككلمة لبيان معنى هذا اللفظ بحسب اللغة كما هو دأبه في تصحيح اللغات و أسماء الرجال ولا أدري ما الباعث له على الحكم بتحريف « يداق » بالالف و تسقيمه و ترجيع يداق بالفاء عليه .

((الاصل))

٨- « علي بن محمد بن عبد الله ، عن إبراهيم بن إسحاق الأحمر ، عن محمد بن سليمان الديلمي ، عن أبيه قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : فلان من عبادته و دينه ، و فضله ؟ فقال : كيف عقله ؟ قلت : لأدري ، فقال : إن الثواب على قدر العقل ، « إن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة كثيرة » الشجر ظاهرة الماء و إن ملكاً من الملائكة مر به فقال : يا رب أرني ثواب عبدك هذا فأراه الله تعالى ذلك ، فاستقله الملك فأوحى الله تعالى إليه : أن اصحبه ، « فأتاه الملك في صورة إنسي فقال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل عابد بلغني » مكانك و عبادتك في هذا المكان فأتبئك لأعبد الله معك فكان معه يومه ذلك ، فلما أصبح » قال له الملك : إن مكانك لنزه وما يصلح إلا للعبادة فقال له العابد : إن لمكاننا » هذا عيباً فقال له : وما هو ؟ قال : ليس لربنا بهيمة فلو كان له حمار رعيناه » في هذا الموضع فإن هذا الحشيش يضيع ، فقال له [ذلك] الملك : وما لربك » حمار ، فقال : لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش فأوحى الله إلى الملك »

« إِنَّمَا أُثْبِتَ عَلَى قَدَرِ عَقْلِهِ »

((الشرح))

(عليّ بن محمد بن عبدالله) (١) أبو الحسن القزويني وجه من أصحابنا ثقة في الحديث (عن إبراهيم بن إسحاق الأحمر) النهاوندي ضعيف في حديثه مشتم في دينه، وفي مذهبه إرتفاع وأمره مختلط لأعتمد على شيء مما يرويه (صه) (٢) (عن محمد بن سليمان الديلمي، عن أبيه) سليمان بن زكريا الديلمي كذاب غال كذا نقل عن ابن الغضائري . و كذا ابنه ضعيف في حديثه مرتفع في مذهبه (صه) و الحديث معتبر لأن الكذب قد يصدق (قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام) بمكان رفيع (من عبادته ودينه وفضله ؟ فقال: كيف عقله) في القوة والضعف (قلت: لأدري) حال عقله فيهما (فقال: إن الثواب المترتب على العبادة والدّين والفضل (علي قدر العقل) فإن كان كاملاً كان الثواب كاملاً وإن كان ناقصاً كان الثواب ناقصاً لأن زيادة الثواب بكمال العبادة وكمال العبادة بمعرفة المعبود و صفاته واستحقاقه للمعبادة دون غيره، وبمعرفة حقيقة العبادة وأحكامها و شرايطها وكيفية فعلها، وبصدورها على الخوف والخشية ولا يحصل ذلك إلا بزيادة العقل و العلم فإن زيادة الثواب على قدر العقل كما أن زيادة العقاب على قدره لقول الصادق

(١) قال الفيض القاشاني - رحمه الله: كأنه ابن اذينة الذي هو من مشايخ الكليني

ويحتمل ابن عمران البرقي انتهى. أقول: كونه القاضي القزويني في غاية البعد لأنه كما نص عليه النجاشي قدم بغداد سنة ست وخمسين وثلاثمائة وتوفي الكليني ٣٢٨ والمشهور أنه رتب الكليني في عشرين سنة و لازم ذلك أن يكون علي بن محمد بن عبدالله أبو الحسن القزويني أجاز الكليني قبل خمسين عام وهذا بعيد جداً، والظاهر أنه ابن بندار أو علي بن محمد ابن عبدالله القمي كما أن الظاهر اتحاد الرجلين .

(٢) رمز لخلاصة الأقوال للعلامة الحلي قدس سره .

﴿١﴾ : « يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد (١) » ولا يقال :
مجاهدة قليل العقل مع نفسه و دفعه للمخاطر الشيطانية و اللذات التفسانية
أشقّ و أعظم لضعف الآلة من مجاهدة العاقل الكامل العالم الماهر فينبغي أن يكون
ثواب عبادته أكثر و أعظم كما ورد « أن الذي يعالج القرآن بمشقة و قلّة حفظه
له اجران (٢) » لأنّا نقول: ذلك ممنوع بل الظاهر الحقّ الذي لا ريب فيه أن
مجاهدة العاقل العالم أعظم لأنّ اللذات التفسانية مشتركة و المخاطر الشيطانية
فيه أكثر و أعظم ، و سيره في طرق تفاصيل المقامات العالية الدقيقة و تركه
لأضدادها مع كثرة قطاع الطريق و المختلس فيها أشدّ و أشقّ بخلاف قليل العقل
فأنّه إنّما يسمع أنّ هناك طرقاً و مقامات و هي معارك النفوس و لم يقع فيها و لم
يرمشقّتها و لا صولة الأعدى فيها ، و أمّا تضعيف أجر من له قلّة حفظ على أجر
من له قوّة حفظ فإنّما هو بعد تساويهما في العلم بالقراءة و أحكامها فليس هذا من
قبيل ما نحن فيه . (إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر
البحر) قال المطرزي في المغرب : الجزر انقطاع المدّ ، و يقال جزر الماء إذا
انفرج عن الأرض أي انكشف حين غار و نقص ، منه الجزيرة . و قال الجوهري :
الجزيرة واحدة جزائر البحر سميت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض (خضراء)
بفتح الخاء و سكون الصاد أي فيها الفواكه و التفاح و الكمثرى وغيرها أو البقول
كالكرات و الكرفس و السداب و نحوها أو النبات و الكلاء الأخضر أو جميع
ذلك (نضرة) صفة بعد صفة ، والنضرة الحسن و الرونق ، وقد نضر وجهه أي حسن
و نضره الله يتعدّى ولا يتعدّى (كثيرة الشجر، ظاهرة الماء) بالطاء المعجمة يعنى
أنّ ماءها كان جارياً على وجه الأرض وقد يقرأ بالطاء المهملة ، و كان طهارة
مائها كناية عن صفائه و لطافته و خلوه عمّا يغيّر لونه أو طعمه ، و الظاهر « ظاهراً

(١) سيأتي في كتاب فضل المعلم باب لزوم الحجّة على العالم تحت رقم ١ .

(٢) رواء الكليني في كتاب فضل القرآن باب من يتعلم القرآن بمشقة تحت

الماء بلا تاء ، لأن الوصف بحال المتعلق في التأنيث والتذكير تابع لفاعله دون الموصوف والفاعل هنا مذكّر (وإن ملكاً من الملائكة مرّ به فقال : يا رب أرني ثواب عبدك هذا) دلّ هذا وغيره من الأخبار على أن الملائكة لا يعلمون ثواب أعمال العباد كمّا وكيفاً بل لا يعلمون نفس الأعمال أيضاً إلا ما شاء الله (فأراد الله تعالى ذلك فاستقله الملك) أي عدّة قليلاً بالنظر إلى عبادته (فأوحى الله تعالى إليه أن اصحبه فاتاه الملك في صورة إنسي) تلبس الملائكة والشياطين والأجنّة الذين هم أجسام شفّافة بل الأعراض أيضاً كالأعمال والعقائد بالصور الجسمانية الكثيفة ممّا لا ينكره العقل وقد ثبت ذلك من طرق العامّة و الخاصة بأخبار معتبرة متكرّرة ، ولا يستلزم ذلك تبدل الحقائق ولا عبرة بانكار بعض أهل الظواهر (١) إذ الحقيقة الواحدة يختلف صورها باختلاف المواطن فيتحلّى في كلّ موطن بحلّة ويتزيّياً في كلّ نشأة بزيّ ، وهو مذهب الخواص من أهل التحقيق و توضيحه ما أشار إليه الشيخ في الأربعين من أن سنج الشيء و أصله أمر مغاير لصورته التي يتجلّى بها على المشاعر الظاهرة ويلبسها لدى المدارك الباطنة وأنّه يختلف في تلك الصور بحسب المواطن والنشآت فيلبس في كلّ موطن لباساً و يتجلّب في كلّ نشأة بجلباب كما قالوا : إن لون الماء لون إنائه وأمّا الأصل الذي يتوارد عليه هذه الصور و يعبرون عنه تارة بالسنخ و تارة بالوجه و مرّة بالروح فلا يعلمه إلا علام الغيوب ، فلا بعد في كونه متلبساً في موطن بالصورة الملكيّة أو العرضيّة و في آخر بالصورة الانسانية أو الجوهرية ، و أيّده بمؤيّدات

(١) « بانكار بعض أهل الظواهر » هذا الكلام من الشارح تصريح بعدم كون

ما يرى من الملائكة في الصورة الجسميّة عين صورتهم بل يتلبسون بها و كذلك تصريح بتجسم الاعمال ، وقال الفاضل العلامة المجلسي رحمه الله في حق اليقين ما معناه ان بعضهم قائلون بتجسم الاعمال و يقولون يجوز تبدل الصور باختلاف النشآت والموالم كما يتمثل العلم في الرّؤيا بالذّبن او الماء و هذا شيء بعيد في العقل ولا يوافق المعاد الذي يتقدمه المسلمون - الى آخر ما قال - والحق ما قاله الشارح ، انه ليس بعيداً في العقل (ش).

لا يليق المقام ذكرها وإنما أتاه بصورة إنسي لا بصورة ملكية ليعرف ذلك العابد أنه من جنسه ولا يعلم أنه ملك لأنه أدخل في الامتحان أو لعدم استعداد العابد لرؤية الملك بصورته الأصلية أو لعدم قدرته على تحمّل هيبة الصورة الملكية ، وفيه دلالة على تحقق المكاشفة وظهور الأشياء الملكوتية والآثار الربوبية التي حجبتها الشواغل الجسميّة والعوايق البدنيّة والعلائق البشريّة من مشاهدتها على بعض النفوس العارضة عن هذه الشواغل ، الخالية عن تلك المواضع ، المرتاضة بأنحاء الرياضة ، الممتازة بأنواع العبادة ، والشواهد عليها من القرآن والخبار كثيرة فلا عبرة بانكار المنكرين (فقال) أي العابد (له) أي للملك (من أنت؟ قال: أنا رجل عابد) لم يرد أنه رجل بحسب الحقيقة حتّى يلزم انقلاب المهبة بل أراد أنه رجل بحسب الصورة و يصدق عليه مفهومه بحسب الرؤية و فائدة الاخبار باعتبار الوصف (بلغنى مكانك) أي نزاهة مكانك أو منزلتك أو موضعك (و عبادتك في هذا المكان فأتينك لأعبد الله معك) فيه ترغيب في الميل إلى الصالحين والرفقة معهم في العبادة (فكان معه يومه ذلك فلما أصبح قال له الملك : إن مكانك لنزهة) بالغ في التأكيد (١) مع أن نزاهة المكان أمر محسوس غير قابل للإنكار لأنه رأى العابد مشغولاً بعبادة ربه معرضاً عما سواه بحيث لا يخطر بباله المكان والمكانيات أصلاً بل كأنه ينكر وجود غيره بالكليّة فهو بهذا الاعتبار صار منكراً مصراً فناسب الخطاب معه تأكيداً بليغاً (و ما يصلح إلا للعبادة) دل على أن مكان العبادة ينبغي أن يكون طاهر أنزهاً لأنه يوجب نشاط النفس وسرورها و يدفع عنها انقباضها وكل ذلك يعدّها للحركة إلى المقامات العالية الموجبة لتحمل مشاق العبادة ورياضاتها (فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيباً فقال له: وما هو؟ قال : ليس له ربة بهيمة) أي في الوجود أو في هذا الموضع والأول أولى وأنسب وإنما عدّ هذا عيباً للمكان باعتبار أنه سبب لعبه وهو ضياع حشيشه كما أشار إليه بقوله (فلو

(١) يعني «أن» و«اللام» في قوله «إن مكانك لنزهة» مشتمل على التأكيد وإنما يؤكد

الكلام إذا كان المغاطب منكراً مع كون النزاهة محسوسة لا قبل الإنكار فاجاب المشرح (ش)

كان له حمارٌ رعيناه في هذا الموضع ، فإن هذا الحشيش يضيع (بيان للملازمة
 (فقال لذلك الملك: وما لربك حمارٌ) «ما» للاستفهام ويحتمل أن يكون للتقي أيضاً
 أي ليس لربك حمارٌ لأنه أجلٌ و أرفع من أن يكون له حمارٌ وفيه أن النبي
 على تقدير صحته لا يناسب قوله (فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا
 الحشيش) هذا قياس استثنائي أنتج برفع التالي رفع المقدّم و الملازمة ممنوعة
 لأن خلق كل حشيش لا يجب أن يكون للحمار و نحوه إذ له منافع كثيرة و
 مصالح جمّة لا يعلمها إلا هو ، فهذا الكلام من جملة ما دلّ على قلة عقله (فأوحى
 الله إلى الملك إنّما أُنبيه على قدر عقله) فكما كان عقله قليلاً كان ثواب عمله
 أيضاً قليلاً ، و أمّا عقله فلم يعدم علمه بأنّه ما يفعل ربّه بالحمار و أي احتياجه
 إليه وأن العيب الذي نسبته إلى المكان راجع بزعمه إلى عيب ربّه واعتراض عليه
 بضعف تدبيره لخلق الحشيش عبثاً بلا منفعة ولا مصلحة ، و أن خلق كل حشيش
 لا يجب أن يكون لأجل حمار وأن لكل شيء منافع و أغراضاً لا يعلمها إلا هو
 أن ليس لأحد أن يقول لربّه : لم خلقت هذا ؛ ولم تخلق ذاك ، و أن المقامات
 العلية والدرجات الرفيعة إنّما هي للمعابددين المعرضين عمّا سواه حتّى علّق قلبه
 بأخس المخلوقات وصرف همهته إلى أن يكون راعياً لثلاث نباتات .

و فيه دلالة على أن أمثال هذه الاعتقادات الفاسدة والاعتراضات الباطلة و
 الاقتراحات الكاسدة لا يضرّ في أصل الإيمان ولا في الإثابة على الأعمال الصالحة
 إذا كانت مستندة إلى قلة العقل و ضعف البصيرة كيف وقد دلّ الأحاديث الكثيرة
 على أن أكثر أهل الجنة النساء و ضعفاء العقول ، لا يقال: ترتّب الثواب على العبادة
 مشروط بصحتها و صحّتها مشروطة ببنية التقرب إلى الله تعالى ونية التقرب إليه
 متوقّفة على معرفته و معرفته بهذا النحو و هو أنّه خالق الأشياء عبثاً بلا مصلحة
 ولا منفعة ليست بمعرفة حقيقة فكيف يترتب الثواب على عبادة هذا الرجل في
 الآخرة ؛ لأنه يقال : أدنى المعرفة مع نبي الشريك يكفي في ترتّب أدنى الثواب
 على العمل وذلك لأن العبد إذا عرف ربّه بقدر عقله و وسعه ولم يعتقد الشريك

له ولا مشابهيته لخلقه في الجسمية والمقدار وما يتبعهما كان قابلاً لرحمته الواسعة مع رجحان الرحمة فإذا ضم معها عبادة عارية من الكبر والعجب والرياء وغيرها من الآفات والمفسدات للعبادة صار جانب الرحمة أرجح واستحقاق الثواب أقوى فوجب تحقق الثواب ولو كان حصول أصل الثواب موقوفاً على كمال المعرفة فظاهر أن ذلك لا يتيسر إلا للمعافل الكامل الذي هو فريد في العقل والكمال لزم أن لا يكون من هو دونه من الضعفاء من أهل الرحمة . وهو خلاف ما نطقته الرّوايات ودلت عليه الآيات والظاهر أنه لم يذهب إليه أحد أيضاً .

((الاصل))

٩. «علي بن إبراهيم» عن أبيه ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن «أبي عبد الله عليه السلام» قال : «قال رسول الله ﷺ : إذا بلغكم عن رجل حسن حال ، فانظروا في حسن عقله ، فإنما يجازي بعقله» .

((الشرح))

(علي بن إبراهيم) ثقة معتمد صحيح المذهب له كتب (عن أبيه) إبراهيم ابن هاشم أبي إسحاق القمي ولم يصرّحوا بجرحه و تعديله والأرجح قبول قوله (صه) (عن النوفلي) الحسين بن يزيد بن محمد بن عبد الملك وكان شاعراً أديباً وقال قوم من الكوفيين إنه غلا في آخر عمره (عن السكوني) إسماعيل بن أبي زياد الشعيري له كتاب و كان عامياً (عن أبي عبد الله عليه السلام) قال : قال رسول الله ﷺ (صرح عليه السلام بهذه النسبة مع أن جميع ما روي عنه أخذه من مشكاة النبوة للتشريف بذكره عليه السلام) و للتأكيد والمبالغة في قبول مضمون الحديث ولاحتمال أن يكون السامع عامياً لا يقبل منه بدون ذلك (إذا بلغكم عن رجل حسن حال) من فعل الصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقات وغيرها من الأعمال الدينية والدنيوية (فانظروا في حسن عقله) فان وجدتم عقله على وجه الكمال فاعلموا أن أعماله أيضاً على

وجه الكمال وأن الثواب المترتب عليها على وجه الكمال . وإن وجدتم عقله ناقصاً فاعلموا أن جميع ذلك ناقص فلا تغترّوا بحسن أعماله وأفعاله واستقامة أحواله ظاهراً ولا تحكموا بمجرد ذلك على صحة عقيدته وسلامة قلبه وكمال عمله و ثوابه بل انظروا أولاً في حسن عقله و كمال جوهره (فانما يجازى بعقله) أي بقدر عقله و للعقل مراتب متفاوتة تفاوتاً فاحشاً وهو أصل العبادة و أساسها كما قال الصادق عليه السلام : « العبادة حسن النية من الوجوه التي يطاع الله منها » (١) و ظاهر أن ذلك لا يحصل بدون العقل ففضل العبادة و كمال ثوابها بقدر فضل العقل و كماله ، و فيه دلالة على أن ثواب العالم أفضل من ثواب الجاهل و إن كان الجاهل أعبد منه ، و على اختبار حال الشاهد والراوي و كل مخبر و إن كانت أحوالهم حسنة بحسب الظاهر .

((الاصل))

١٠- « محمد بن يحيى ، عن أحمد بن محمد ، عن ابن محبوب ، عن عبد الله بن سنان قال : ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة و قلت : هو » رجل عاقل ، فقال : أبو عبد الله عليه السلام : « وأي عقل له و هو يطيع الشيطان ؟ فقلت : له : و كيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله هذا الذي يأتيه من أي شيء . هو ، فإنه يقول : « لك : من عمل الشيطان » .

((الشرح))

(محمد بن يحيى ، عن أحمد بن محمد ، عن ابن محبوب ، عن عبد الله بن سنان قال : ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة) أي بالوسواس في نيتهما أو في فعلهما أو بالمخاطرات التي تشغل القلب عنها (و قلت : هو رجل عاقل) التذكير للتعظيم والتفخيم (فقال أبو عبد الله عليه السلام : وأي عقل له وهو يطيع الشيطان)

إنكار لذلك القول على سبيل المبالغة ، فإن من يطيع الشيطان كأنه لا عقل له فضلاً عن أن يكون عقله كاملاً و يحتمل أن يكون نفياً لعقله حين الطاعة فيكون رداً لذلك القول على أن يكون قضية دائمة ، و اعلم أن للشيطان تصرفاً عجيباً في الانسان و عملاً غريباً معه . فإنه إذا يئس من كفر من صح إيمانه قصده بالسوسة ليشتغل سره بحديث النفس يكرر عليه أفعاله و يؤذيه فربما يتصرف فيه بأمر النية وهي القصد إلى الفعل المأمور به تقرّباً إلى الله تعالى فيقول له : إنك لم تقصد قصداً معبراً و يقول الملك الموكل بقلبه لتسديده إنك قصدت و يقع بينهما تعارض يوجب تردده فعند ذلك يقول له الشيطان : كيف قصدت مع هذا التردد فيبطله ويستأنف ، و هكذا دائماً وقد يقول له : لا يكفيك هذا القصد الاجمالي بل يجب عليك القصد إلى ما ينحل به تفصيلاً ، فيشرع في تفصيل معنى القصد و الفعل والأمر والقربة وغير ذلك ، وكلما خطر معنى من هذه المعاني بالبال غفل عن الآخر لأن مشرب القلب ضيق فيقول له حينئذ لا بد لك من تدارك ذلك الآخر فيأمره بذلك دائماً فيبقى متردداً بحيث لا يدري ما يفعل فيصير ذلك سبباً لقلقه واضطرابه حتى كأنهم مجنون . وقد نقل عن ابن الباقلاني أنه قال يجب على المصلي في نية الصلاة أن يستحضر العلم بالصانع و ما يجب له و ما يستحيل عليه و ما يجوز له من بعثة الرسل و تأييدهم بالمعجزات و وجه دلالتها على صدقهم و يستحضر مع ذلك الطرق التي وصل بها التكليف ، و يستحضر حدوث العالم و ما يتوقف عليه العلم بحدوثه من إثبات الأعراض و استحالة خلوه الجوهر عنها و إبطال حوادث لا أول لها و يستحضر الصلاة بجميع أجزائها و أفعالها و شرائطها . و قال المازري : إنني أردت اتباع ابن الباقلاني في ذلك القول فرأيت في منامي كأنني أخوض بحراً من ظلام فقلت : هذه والله قول ابن الباقلاني . و ربما يتصرف في قلبه و يشغله عن ذكر ربه وعن أفعال العبادة وأجزائها ويقول له : اذكر كذا و كذا و افعل كذا و كذا إلى غير ذلك من المخاطر الرديئة ، فيصير بحيث لا يعلم ما فعل و كم صلى و قد قيل إن رجلاً شكاً إلى بعض أهل العلم أنه خبأ شيئاً

شرح اصول الكافي - ٦ -

فلم يدر أين هو فأمر أن يصلي ركعتين و يجتهد أن لا يحدث فيهما نفسه ففعل فجاءه الخبيث فدكره أين خبأه ، ولا يخفى أن سرعة قبول القلب لتلك المخاطرات و تأثره بتلك النصرات إنما هو لضعف العقل ، فإن العاقل اللبيب يعلم أن العبادة و مقدّماتها معراج العارفين و كلّما يمنعه و يشغله عن التذكر فهو من تدليسات ذلك اللعين فيسد طرق تصرّقاته بالبصيرة واليقين و أن النية إنما هي القصد بالشئ ، ولا معنى لإنكاره بعد حصوله و أن التردد إنما ينشأ من العدو المبين و أن ملاحظة تفاصيلها وتمييز بعضها عن بعض خارجة عن الدين و أن امثال أمر الله سبحانه كامثال العبد أمر سيّده و أن تعظيمه كتعظيمه فلو أمره سيّده بفعل معين في وقت معين فقام امثالاً لأمره و فعله في ذلك الوقت كان ممثلاً لأمره عرفاً و شرعاً ولو شرع في القيام وقال : أقوم امثالاً لأمر مولاي قياماً مقارناً لتعظيمه وأمشي إلى ذلك المكان مشياً مطلوباً له و أفعل فيه في وقت كذا الفعل الذي أجزأه كذا وكذا ، ويكرر ذلك ليمتقش في قلبه صور هذه المعاني لعدّ ضعيفاً في عقله وسخيفاً في رأيه لأن هذه الصور مخطوطة بالنال مندرجة تحت الامثال على سبيل الإجمال كاندراج أجزاء العالم وعلمة حدودها في قولك : « العالم حارث » فكما أن القصد إلى الأجزاء مثل الأرض والسماء إلى غير ذلك ممّا لا يحيطه العد والإحصاء خارج عن إفادة هذا القول بل زائد كذلك القصد إلى الصور المذكورة فيما نحن فيه (فقلت له وكيف يطيع الشيطان) مع اشتغاله بالعبادة واهتمامه بها و « كيف » للاستفهام عن وجه ذلك لا للإنكار (فقال سلمه هذا الذي يأتيه) من الوسواس في الوضوء والصلاة والابتلاء بهما (من أي شيء ، هو) إنما أحال البيان إليه للتنبيه على أن كون ذلك من الشيطان أمر بين يعرفه كل أحد حتى صاحبه و ذلك لأن كل أحد يعلم أن الزيادة في الدين إنما هو من عمل الشيطان اللعين (فأنه يقول لك من عمل الشيطان) لعلمه بأنّه الباعث لهذا العمل دون الشرع أو العقل وتصديقه بذلك لا يوجب كونه عاقلاً كاملاً كشارب الخمر والزاني والسارق وإنما العاقل من ترك عمل الشيطان ولم يعمل بقوله ، و قيل قوله « من عمل الشيطان »

قول بلسانه ولم يؤمن به قلبه إذ لو عرف أنه من عمل الشيطان لكان عاقلاً ولا موصوفاً
وإنما يقول ذلك تقليداً أو اضطراراً وذلك مثل ما حكى الله سبحانه عن الكفار بقوله
«وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» فإن هذا قولهم بأفواههم
ولم تؤمن به قلوبهم إذ لو علموا ذلك لم يكونوا كفاراً وإنما قالوا ذلك تقليداً أو
سماعاً من الناس على الرسم والعادة لا تحقيقاً و عرفنا فلذلك لا ينفعهم في الدنيا
والآخرة . وفيه نظراً لنا لأنسلم أن علمه بأن ذلك من عمل الشيطان يستلزم أن
يكون عاقلاً لما عرفت ، ولأنسلم به أن علم الكفار بأن الله تعالى خلق السموات
والأرض يستلزم عدم كفرهم لجواز أن يكون كفرهم مع علمهم بذلك لأجل أمر
آخر كاعتقادهم باستحقاق الأصنام للمعبادة ونحوه فليتماثل .

((الأصل)) :

١١ - «عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن بعض أصحابه »
«رفعه قال : قال رسول الله ﷺ : ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ، فنوم»
«العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ولا بعث»
«الله نبياً ولا رسولا حتى يستكمل العقل و يكون عقله أفضل من جميع عقول»
«أئمنه وما يضر النبي ﷺ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين ، وما أدى»
«العبد فرائض الله حتى عقل عنه ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم»
«ما بلغ العاقل ، والعقلاء هم أولو الأبواب ، الذين قال الله تعالى : «و ما يتذكر»
«إلا أولو الأبواب» .

((الشرح))

«عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن بعض أصحابه رفعه قال :
قال رسول الله ﷺ : ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل (كما قال بالفارسية الهي
آنا كه عقل دادي چه ندادي و آنا كه عقل ندادي چه دادي ؟ والمقصود أن

العقل أفضل من جميع ما قسمه الله تعالى للعباد وهذا المعنى يفهم من هذه العبارة بحسب العرف فإن المقصود من قولنا ليس في البلد أفضل من زيد هو أن زيدا أفضل من غيره وسر ذلك أن العقل مناط لجميع الفيوضات النبوية والأخروية وليس شئ من الأغيار بهذه المثابة، والجهل بحكم المقابلة أخس من جميع الأشياء فيظهر وجه التفریع في قوله (فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل) يعنى للعبادة وذلك لأن حقيقة السهر وإن كان أفضل من حقيقة النوم إلا أن النوم المقارن للعقل أفضل وأشرف من السهر المقارن للجهل بحكم المقابلة للملايسة والمجاورة ففيه زيادة مبالغة على شرافة العقل وخساسة الجهل أو لأن العاقل لا ينام إلا بطهارة ودعاء والملائكة يستغفرون له و يكتبون له الصلاة مادام نائماً ، كما نطقت به الأخبار و ظاهر أن استغفار الملائكة والصلاة المكتوبة له أفضل من عبادة الجاهل أو لأن نوم العاقل قلماً ينفع عن رؤيا صالحة وهي جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة كما دلت عليه الروايات، فنوم العاقل في الحقيقة معراج له بخلاف سهر الجاهل أولاً أن العاقل لا ينام إلا بقدر الضرورة ويجعل نومه وسيلة إلى عبادة أخرى ولا شك أن نومه على هذا الوجه عبادة مستندة إلى العقل وسهر الجاهل لأجل العبادة وعبادته غير مستندة إليه و ظاهر أن العبادة المستندة إلى العقل أفضل من العبادة الغير المستندة إليه ، وقد سمع أمير المؤمنين (عليه السلام) رجلاً من الحرورية أي الخوارج ينهجد و يقرأ فقال: «نوم على يقين خير من صلاة في شك» (١) والوجه فيه ظاهر لأن صلاة الشاك فيما يجب الاعتقاد فيه لا ينفعه ونوم المؤمن له فوائد كثيرة (وإقامة العاقل أفضل من شحوص الجاهل) أي انتقاله من بلد إلى بلد في طاعة الله تعالى كالحج والجهاد ونحوهما مع أن في الشحوص مشقة زائدة على الإقامة وذلك لأن عقل العاقل وإن كان جسمه مقيماً سائر في المقامات العالية التي لا تخطر ببال الجاهل أبداً وله في كل أن سفر روحاني وشهود رباني، ولا شبهة في أن سير الروح في معارج العرفان

(١) أورده الشريف الرضى - رحمه الله - في النهج باب المختار من حكم أمير

المؤمنين (ع) تحت رقم ٩٧.

مع سكون الجسم أفضل من سير الجسم في البلدان مع سكون الروح أو لأن إقامة العاقل و سكونه عبادة كشخص الجاهل ولا ريب في أن عبادة العاقل أشرف من عبادة الجاهل أو لأن روح الطاعة و اعتبارها هو النية و قصد القرينة ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة واليقين والجاهل بمعزل عنهما (ولا بعث الله نبياً ولا رسولا) من باب ذكر الخاص بعد العام لأن النبي أعم من الرسول كما سيجيء في الباب الثالث من كتاب الحجّة (حتّى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته) لأنه واسطة بينهم وبين الله تعالى فيستحيل أن يكون في أمته من هو أفضل منه عقلاً أو مساوياً له لا سحالة ترجميع المفضل على الأفضل وترجميع أحد المساويين على الآخر و فيه مدح عظيم للعقل والعقلاء حيث حكم بأن التفاضل في الدرجة والتشريف بشرف النبوة والرسالة إنّما حصل به و لذلك صار خاتم المرسلين أشرف المخلوقات أجمعين و لولاه لما خلق الله السموات والأرضين ولا الملائكة المقرّبين لأن عقله نور رب العالمين به أخذ النور كل نبي وكل رصي في ديجور الإمكان كما أن الكواكب تستضيء بنور الشمس في ظلمة الليالي وإن كانت غائبة في الحس ، فإذا طلعت قهر نورها على أنوار الكواكب و منه يظهر سر نسخ شريعته الغرابة لشرائع الأنبياء (وما يضمّر النبي ﷺ في نفسه أفضل من اجتihad المجتهدين) تكون عقله أفضل و أرفع من عقولهم لأن عقله لشدة اتّصاله بنور الحق جل شأنه كمال محض لا نقص فيه قطعاً و نور صرف لا يشوبه ظلمة أصلاً وذلك الاتّصال بمنزلة اتّصال الحديد بالنار وتأثيره منها بحيث يصير ناراً صرفاً يمتحو هو وبه حتّى يؤثر في غيره مثل تأثيرها ، و به يشعر قوله تعالى ليلة المعراج خطاباً له ﷺ و ما ينقرب عبدي إليّ بشي أحبّ ممّا افترضت عليه ، وإنّه ليتقرب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، و بصره الذي يبصر به ، و لسانه الذي ينطق به ، و يده التي يبطش بها إن دعاني أجبه ، وإن سألني أعطيته (١) ولاجل ذلك الاتّصال التام يظن من ليس له معرفة وتمييز

(٢) رواه الكليني في كتاب الإيمان والكفر باب من اذى المسلمين واحتقرهم

أُسْمُهُما مُتَّحِدَانِ وَأَمَّا أَرْبَابُ الْمَعْرِفَةِ فَيَعْرِفُونَ أَنَّ بَيْنَهُمَا مَعَايِرَةٌ وَأَنَّ هَذَا مَخْلُوقٌ
اتَّصَلَ بِكَمَالَاتِ الْخَالِقِ كَمَا أَنَّ ذَلِكَ حَدِيدٌ اتَّصَفَ بِصِفَاتِ النَّارِ ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ
هِيَ الْمَرْتَبَةُ الْعَظْمَى وَالدرْجَةُ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِبِ الْعَقْلِ وَدَرَجَاتِهِ وَهِيَ مَرْتَبَةُ حَقِّ
الْيَقِينِ ، وَهُوَ فِيمَا دُونَ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ أَعْنِي مَرْتَبَةَ عِلْمِ الْيَقِينِ ، وَفِي مَرْتَبَةِ عَيْنِ الْيَقِينِ يَشَاهِدُ
الْمَعْقُولَاتِ كُلَّهَا مَشَاهِدَةً عَيَانٍ بِحَيْثُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، هَذَا حَالُ عَقْلِهِ
ﷻ وَعَقْلُ أَوْصِيَائِهِ ﷺ إِلَّا أَنَّ بَيْنَ عَقْلِهِ وَعَقْلِهِمْ تَفَاوُتًا دَقِيقًا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا اللَّهُ
سُبْحَانَهُ ، وَأَمَّا عَقْلُ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِذَيْلِ عَصَمَتِهِمْ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ كَمَا لَا نُورًا
فِي حَدِّ ذَاتِهِ لَكِنَّهُ اسْتِعْدَادٌ مُحْضٌ ، وَظُلْمَةٌ صَرَفٌ بِالنَّظَرِ إِلَى عَقْلِهِمْ إِذْ غَايَةُ جَهْدِهِ
وَنَهَايَةُ سَعْيِهِ تَحْصِيلُ تِلْكَ الْمَعْقُولَاتِ عَلَى قَدْرِ الْوَسْعِ مِنْ مَبَادِيهَا بِالْاجْتِهَادِ وَهُوَ فِي
هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ اسْتَدَلَّ عَلَى وَجُودِ النَّارِ بِمَشَاهِدَةِ الدِّخَانِ ، وَبَيْنَ هَاتَيْنِ
الْمَرْتَبَتَيْنِ مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْعَارِفِينَ وَإِذَا كَانَ عَقْلُهُ ﷻ أَكْمَلَ وَ
أَفْضَلَ مِنْ عُقُولِ الْمُجْتَهِدِينَ كَانَ إِدْرَاكَاتِهِ وَتَعَقُّلاتِهِ أَفْضَلَ وَأَتَمَّ مِنْ اجْتِهَادَاتِ
الْمُجْتَهِدِينَ وَتَعَقُّلاتِهِمْ وَلِهَذَا يُحْكَمُ بِأَنَّ عَقْلَ الْأَعْلَمِ وَإِدْرَاكَاتِهِ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ مِنْ
عَقْلِ الْعَالِمِ وَإِدْرَاكَاتِهِ ، وَكَذَا عَقْلُ الْعَالِمِ وَإِدْرَاكَاتِهِ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ مِنْ عَقْلِ الْجَاهِلِ
وَإِدْرَاكَاتِهِ ، بَلْ لَانِسْبَةِ هُنَا ، وَيُرْشَدُ إِلَى التَّفَاوُتِ الْمَذْكُورِ قَوْلُ الصَّادِقِ ﷺ
« أَعْرِفُوا مَنَازِلَ النَّاسِ عَلَى قَدْرِ رَوَايَاتِهِمْ عَنَّا » (٣) ، (وَمَا أَدْنَى الْعَبْدِ فَرَائِضُ اللَّهِ
حَشِيَ عَقْلُ عَنْهُ) أَيَّ عَقْلٍ عَنْ اللَّهِ وَاعْرِفْهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَاعْلَمْ مَا يَصِحُّ عَنْهُ وَمَا يَمْتَنَعُ
عَلَيْهِ وَحَقَّ أَمْرُهُ فِيمَا أَرَادَهُ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْأَحْكَامِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ لِأَنَّ أَدَاءَ الْفَرَائِضِ
لَا يَتَصَوَّرُ بِدُونِ مَعْرِفَتِهَا الْمَتَوَقَّفَةِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى وَاعْرِفْتَهُ لَا يَتَصَوَّرُ بِدُونِ الْعَقْلِ
هُوَ الْأَصْلُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ (وَلَا يَبْلُغُ جَمِيعُ الْعَابِدِينَ) أَيَّ مَجْمُوعِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْمَجْمُوعُ
أَوْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ (فِي فَضْلِ عِبَادَتِهِمْ مَا بَلَغَ الْعَاقِلُ) أَيَّ فِي فَضْلِ عِبَادَتِهِ أَوْ فِي
عَقْلِهِ عَنْ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ وَعَلَيْهِ بِهِمَا لِأَنَّ الْعَقْلَ أَصْلَ لِلْعِبَادَةِ وَرُوحَ لَهَا إِذْ بِهِ يَحْصُلُ
الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ وَالْخَضُوعُ الْمَوْجِبَةُ لِعُصُودِهَا إِلَى مَحَلِّ الْقَبُولِ ، وَ

انحطاط الفرع عن الأصل وعدم صعود العبادة الفاقدة لروحها بين لاسترة فيه (و
 العتلاء هم أولو الأبواب) في تعريف الخبر باللام وتوسيطه بضمير الفصل تنبيه على
 التخصيص والتأكيد أي على قصر المسند على المسند إليه كما هو الشائع في مثل
 زيد هو الأمير، أو على قصر المسند إليه على المسند، فإنه قديجي، لهذا المعنى
 أيضاً كما في قولهم: الكرم هو التقوى أي لا كرم إلا التقوى، وهذا أنسب
 بالمقام لأن الظاهر أن المقصود حصر العقلاء بأنهم ليسوا إلا أولو الأبواب الذين
 مدحهم الله تعالى في الكتاب، و يحتمل أن يكون المراد بيان اتحاد المفهومين
 يعني إذا حصلت مفهوم أولو الأبواب وتقرر ذلك في ذهنك وتصورته حق تصوره فقد
 عرفت مفهوم العقلاء و حقيقتهم، فإنه لا مفهوم لهم وراء ذلك فليس هناك حمل
 بحسب المعنى ولا قصر، وقد صرح أئمة العربية بجواز إرادة هذا المعنى في مثل
 هذا التركيب منهم الشيخ في دلائل الإعجاز. (الذين قال الله تعالى) في مدحهم
 والجملة صفة لأولي الأبواب أو للعقلاء (وما يذكر إلا أولو الأبواب) وهم
 الذين اتصفوا بنور البصائر وجودة الأذهان وشاهدوا المعارف مشاهدة العيان و
 اهتدوا إليها لتجرّد عقولهم عن غواشي الحواس و علق الأبدان وصعدوا السلامة
 عقولهم معارج اليقين فصاروا أهل الذكر ومنبع العرفان الذين فرض الله سبحانه
 رجوع العباد إليهم بقوله: « فاسئلو أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » فالمتمسكون
 بهم متمسكون بحبل الله وهم مهتدون.

((الأصل))

١٢- « أبو عبد الله الأشعري » عن بعض أصحابنا، رفعه عن هشام بن الحكم
 « قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله تبارك وتعالى
 « بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: « فبشر عباد » الذين يستمعون القول
 « فيتنبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الأبواب » .
 « يا هشام: إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالقول، ونصر النبيين »

« بالبيان و دلّهم على ربوبيته بالأدلة فقال : « وإلّهم إله واحد لا إله إلا هو »
 « الرحمن الرحيم » إن في خلق السموات والأرض و اختلاف الليل و النهار و
 « الغلّك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، و ما أنزل الله من السماء من ماء ،
 « فأحيى به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كلّ دابة و تصريف الرّيح و السحاب ،
 « المسخّر بين السماء و الأرض ، آيات لقوم يعقلون ».

« يا هشام قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأنّ لهم مديراً ، فقال : « و »
 « سخر لكم الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم مسخّرات بأمره إن في ذلك »
 « آيات لقوم يعقلون » و قال : « هو الذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من »
 « علقة ثمّ يخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم ثمّ لتكونوا شيوخاً و منكم من »
 « يتوفّى من قبل و لتبلغوا أجلاً مسمّى و لعلكم تعقلون » و قال : « إن في-ي »
 « اختلاف الليل و النهار و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيى به الأرض بعد »
 « موتها و تصريف الرّيح [و السحاب المسخّر بين السماء و الأرض] آيات لقوم »
 « يعقلون » و قال : « يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون »
 « و قال : « و جنّات من أعناب و زرع و نخيل ، صنوان و غير صنوان يسقى بماء »
 « واحد و نفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك آيات لقوم يعقلون »
 « و قال : « و من آياته يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينزل من السماء ماءً فيحيى به »
 « الأرض بعد موتها إن في ذلك آيات لقوم يعقلون » و قال : « قل تعالوا أتّلهما »
 « حرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً و بالوالدين إحساناً و لا تقتلوا أولادكم »
 « من إملاق ، نحن نرزقكم و إيّاهم و لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و لا »
 « تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ ، ذلكم وصيّكم به لعلكم تعقلون . و »
 « قال : « هل لكم من ما ملكت أيّمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، »
 « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ».

« يا هشام : ثمّ وعظ أهل العقل و رغّبهم في الآخرة فقال : « و ما الحياة الدنيا »
 « إلاّ لعب و لهو و للدار الآخرة للّذين يتّقون أفلا تعقلون ».

« يا هشام : ثم خوف الذين لا يعقلون عقابه فقال تعالى : « ثم دمّرنا »
 « الآخرين و إنكم لنمرون عليهم مصحين وبالدليل أفلا تعقلون » . وقال : « إننا »
 « منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تر كنا »
 « منها آية بيّنة لقوم يعقلون » .

« يا هشام : إن العقل مع العلم فقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما »
 « يعقلها إلا العالمون » .

« يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله »
 « قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو آباؤنا كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وقال : «
 « مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صمّ بكم عمي فهم »
 « لا يعقلون » . وقال : « ومنهم من يستمع إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا »
 « لا يعقلون » . وقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا »
 « كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » . وقال : « لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى »
 « محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك »
 « بأنهم قوم لا يعقلون » . وقال : « وتنسئون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب »
 « أفلا تعقلون » .

« يا هشام : ثم ذم الله الكثرة فقال : « وإن تطع أكثر من في الأرض »
 « يضلّوك عن سبيل الله » وقال : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن »
 « الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . وقال : « ولئن سألتهم من نزل »
 « من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل »
 « أكثرهم لا يعقلون » .

« يا هشام ثم مدح القلة فقال : « وقليل من عبادي الشكور » وقال : « و »
 « قليل ما هم » . وقال : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون »
 « رجلاً أن يقول ربي الله » . وقال : « ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » . و »
 « قال : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » . وقال : « وأكثرهم لا يعقلون » . وقال : «

« و أكثرهم لا يشعرون » .

« يا هشام ثم ذكر أولي الأبواب بأحسن الذكر و حلالهم بأحسن الحلية »
 « فقال : « يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً و ما »
 « يتذكر إلا أولوا الأبواب » . و قال : « الراسخون في العلم يقولون آمنا به »
 « كل من عند ربنا و ما يتذكر إلا أولوا الأبواب » . و قال : « إن في خلق السموات »
 « و الأرض و اختلاف الليل و النهار آيات لأولي الأبواب » . و قال : « أفمن يعلم »
 « أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الأبواب » .
 « و قال : « أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً و قائماً يحذر الآخرة و يرجو رحمة »
 « ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الأبواب » .
 « و قال ، « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته و ليتذكر أولوا الأبواب » .
 « و قال : « لقد آتينا موسى الهدى ، و أورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى و ذكرى »
 « لأولي الأبواب » . و قال : « و ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .
 « يا هشام إن الله تعالى يقول في كتابه : « إن في ذلك لذكرى لمن »
 « كان له قلب » يعنى : عقل : و قال : « و لقد آتينا لقمان الحكمة » . قال :
 « التفهم و العقل » .

((الشرح))

(بعض أصحابنا رفعه) النسخ هنا مختلفة ففي بعضها هذا و في بعضها « أبو
 عبد الله الأشعري ، عن بعض أصحابنا رفعه » و اسمه الحسين بن محمد و في بعضها
 « أبو عبد الله الأشعري » رفعه ، و في بعضها « أبو علي الأشعري » رفعه (١) وضعف الخبر

(١) و في بعضها « أبو علي الأشعري » عن بعض أصحابنا رفعه ، و الأصح « أبو عبد الله
 الأشعري » عن بعض أصحابنا رفعه ، و هو الحسين بن محمد بن عمران بن أبي بكر الأشعري
 القمي المعروف بابن عامر و هو ثقة له كتاب يروى عنه الكليني بالأواسطة كما نص عليه
 النجاشي و غيره .

بحسب الاسناد لا يضرُ بصحة مضمونه لاشتماله على علوم عقلية ، و حكم برهانية
و آثار إلهية : ودلائل وحدانية و شواهد ربوبية ، و مواعظ لقمانية ، هي مناهج
الايمان ، و معارج العرفان ؛ كما سيظهر ذلك من مطالع البيان و مشارق التبيين
(عن هشام بن الحكم) يروي عن أبي عبدالله و أبي الحسن موسى عليهما السلام و كان
ثقة محققاً متكلماً حاضر الجواب وله مدائح كثيرة جليلة عنهما عليهما السلام و سيجي
في كتاب الحجّة بعض مدايحه و مهارته في صناعة الكلام و ماروي في ذمّه أجابوا
عنه في موضعه ، و قال العلامة هو عندي عظيم الشأن رفيع المنزلة (قال قال لي
أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام : يا هشام إن الله تعالى بشر أهل العقل والفهم في
كتابه) لما كان الغرض من خلق الانسان معرفته تعالى و العبادة كما قال « كنت
كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف » وقال : « ما خلقت الجن
والانس إلا ليعبدون » و ذلك الغرض لا يتصور حصوله إلا باستعمال العقل والفهم
خص الله سبحانه أهلها بالبشارة تعظيماً و تكريماً لهم و أمّا غيرهم فلكونهم بمنزلة
همج رعاع غير قابلين للبشارة و الخطاب لأنهم من أهل الضرر و الزمانة كما مر
في صدر الكتاب (فقال في بشر عبادته الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) في
إضافة العباد إليه سبحانه تشريف لهم بشرف الاختصاص و التكريم ، وفي عدم ذكر
المبشر به دلالة على التفضيم و التعظيم ، و فيه مدح المسالكين في منهج الصواب
التابعين للحق في كل باب و قد سأل أبو بصير أبا عبدالله عليه السلام عن هذه الآية فقال
عليه السلام : « هم المسلمون لآل محمد الذين إذا سمعوا الحديث لم يزدوا فيه و لم ينقصوا منه
جاءوا به كما سمعوه (١) » و يمكن التعميم بحيث يندرج فيه المترددون بين الفريقين
و الناصحون بين المتخاصمين يسمعون من أحد الطرفين أقوالاً ينقلون إلى الآخر
أحسنها يرفع الخلاف عنهم و يوقع التوافق بينهم ؛ و يندرج فيه الناظرون إلى جمال
الحقايق بنور البصر و الطامحون إلى قعر المعارف بغوص الفكر و المجتهدون في سبيل
الحق بالاستدلال و النظر فإن كل قول صدق و عقد حق له ضد و معاند ، فإن

القول بأن الله تعالى موجود ، عالم قادر حكيم مثلاً ضد أنه ليس بموجود كما يقول الملاحدة ، وأنه ليس بعالم على الإطلاق كما يقوله من نفى عنه العلم بالجزئيات وأنه ليس بقادر على إعادة الأجسام كما يقوله من نفى المعاد الجسماني وأنه ليس بحكيم كما يقوله من نفى التدبير عنه ، و قدس عليه غير ذلك مما يتعلق بالأصول والفروع ، ومن البين أن التمييز بين الصحيح والسقيم من هذه الأمور غيرها لا يمكن بمجرد الاستماع وإلا لما وقع الخلاف فيها وإنما يمكن بما هو حجة الله تعالى على عباده وهو العقل الصحيح السليم عن غواشي الأجسام ولوايس الأوهام وذلك التمييز ينصّر بوجهين أحدهما أن العقل الصحيح إذا لاحظ الضدين يجد منهما ما هو أحسن كما هو شأن المجردين من لواحق الأبدان مثل الأنبياء والأولياء ، وثانيهما أن يدرك الأحسن من المبادي المتعلقة به كما هو شأن المجتهدين والبشارة تشمل الجميع (أولئك الذين هداهم الله) يعني أولئك الموصوفون بالصفة المذكورة هداهم الله إلى خير الدنيا والآخرة من أجل تلك الصفة، ويحتمل أن يكون جواب سؤال عن سبب تبشيرهم دون غيرهم كأنه قيل: ما لهؤلاء العباد الموصوفين بالصفة المذكورة اتصفوا بالتبشير لهم دون غيرهم؟ فأجيب بأن السبب هو اختصاصهم بالهداية واللفظ والتوفيق لسلوك سبيل الخيرات من الله سبحانه، وعلى التقديرين لا محل لهذه الجملة من الأعراب. وفيه دلالة على أن الهداية أمر حادث من الله تعالى للعقول القابلة المستعدة لها (وأولئك هم أولوالالباب) أي ذوو العقول السليمة عن التأثير بخباياث العلائق ومفاسد العادات ، و أمّا غيرهم ممن لم يفرّق بين الأقوال والعقائد الحسنة والقبیحة أفرّق واتّبع القبیحة بحكم النفس الأمّارة فهو من أهل الضلالة والجهالة بحكم المقابلة وإن كان له ما يحيل به في اقتناص الدنيا وزهراتها فإن ذلك عقل عند الجهلاء، وشيطنة عند العقلاء (يا هشام إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول) الحجج القصدومنه الحجة أي البرهان وولاية أمر الله سبحانه لانهما يقصدان ويعتمدان بهما يقصد الحق المطلوب . وقد تطلق على العقل أيضاً كما في بعض الروايات : الله على

الناس حجتان إحداهما العقل وأخرهما الرسول (١) . ولا يجوز إرادته هنا بخلاف الأولين ، فإنه يجوز إرادة الأول على أن يكون الباء المسببية بمعنى أكمل للناس براهين وجوده ووجوبه وقدرته إلى غير ذلك من الصفات بسبب العقول وخلقها وتركيبها فيهم و يجوز إرادة الثاني على أن يكون الباء للمتعدية أو المسببية أيضاً بمعنى أكمل للناس حججه من الأنبياء والأوصياء المرضيين بعقولهم الصافية وأذهانهم الناقية أو بسبب أن منحهم عقولاً زكية عارية عن شوائب النقصان مدركة لشواهد الربوبية بحقائق الإيمان (ونصر النبيين بالبيان) البيان الفصاحة لأن نبي كل قوم أفصح منهم لساناً و يجوز أن يراد به ما يميز به الشيء عن الكلام والآيات وغيرهما يعني نصرهم بالكلمات الفائقة والمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة الدالة على ثبوت نبوتهم ليكمل بهم أحوال عباده وينور بهدايتهم أطراف بلاده و يخرج الناس من ظلمة الجهالة والغواية و ينجيهم من حيرة الندامة والضلالة (و دلّهم على) طريق (ربوبيته) عود ضمير الجمع إلى النبيين وقريب وإلى الناس بعيد (بالادلة) الدالة على وجود ذاته ، والآيات الكاشفة عن جمال صفاته و تلك الأدلة من آثاره العجيبة وأفعاله الغريبة لأن معرفة الشيء إما بمشاهدته و حضوره عند العارف كمعرفة هذا الرجل وهذا الجبل وإما بمعرفة علته و هذا الطريق يقال له برهان لمّي وإما بمعرفة معلوله ويقال له: برهان إنسي. ولا طريق للمعرفة غير هذه الثلاثة لأن ما لا يكون نفس الشيء ولا علته ولا معلوله لا تعلق له بذلك الشيء فلا دخل له في معرفته، ثم الطريق الأول لا يتيسر الوصول إليه إلا للمقرّبين المخصوصين بزيادة اللطف والتوفيق وهم الذين أخذت أيديهم العناية الأزليّة و أرالت عنهم الهويّات البشريّة و قطعت عنهم العوائق البدنيّة و أنزلتهم في أعلى منازل القدس وأرفع مقامات الأنس، فصاروا بحيث يشاهدونه بالاحجاب ويكالمونه بالأسوال والاجواب ، كما هو وصف نبينا وأوصيائنا عليهم السلام . والطريق الثاني لا أثر له في ساحة قدسه جل شأنه لأنّه بسيط صرف لا تر كيب فيه أصلاً لأذهناً ولا خارجاً، واجب

لذاته مبدء لجميع ماسواه و إليه ينتهي الآثار كلها فلا فاعل له خارجاً عن ذاته ولا سبب له داخلاً في ذاته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والطريق الثالث يشترك فيه الكل فلذا خصّه بالذكر و هو طريق يسلكه كل من له عقل سليم وطبع مستقيم ولكن سلوكهم و وصولهم و إيمانهم و إيقانهم على حسب تفاوت مراتب عقولهم أما ترى أنك تستدل بملكوت السماوات و حركات الكواكب و بزوعها و أفولها على وجود صانعها و مدبرها كما استدلت بها خليل الرحمن و إن كان استدلاله بها للتعليم وقد حصل لك علم ضعيف شبيه بالجهل حتى لو وقعت في أدنى هليئة تلوذ بكل من زعمت أنه يتجيبك منها ، و حصل له علم ثابت و يقين جازم حتى قال له الروح الأمين حين رمي بالمنجنيق وكان في الهواء مايلاً إلى النار: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. فاعراضه عنه في تلك الحالة والتجأؤه إلى ربه ليس إلا لأنه رأى أن كل ماسواه محتاج إليه خاشع لديه خاضع بين يديه مقهور لعزته مغلوب لقدرته بل لم يرموجوداً سواه وملجأً إلا آياه ، ولو عاد ضمير الجمع في «دلائلهم» إلى الناس أمكن أن يراد بالأدلة معصومون المطهرون ^{عليهم السلام}

(فقال وإلهكم إله واحد) أي مستحق العبادة منكم واحد لا شريك له يصلح أن يعبد و يسمى إلهاً. قيل: وحدة الشيء ما يوجب عدم انقسامه من جهة اتصافه بها، فكل موجود متصف بها فإن الرّجل الواحد مثلاً يستحيل أن ينقسم إلى رجلين وإن أمكن أن ينقسم من وجوه آخر وقيل: هي وجوده الخاص الذي به يوجد ، و وحدته تعالى أمّا لم تكن مقيدة بجهة دون أخرى بل هو متصف بها من جميع الجهات كانت وحدته راجعة إلى أنه بسيط في الذات يعني أن ذاته غير مؤلفة من الأجزاء أصلاً ؛ وإلى أنه فرد لا شريك له في الوجوب الذاتي و الالهية ، و إلى أنه واحد في أفعاله لا شريك له في المبدئية و في انتساب جميع الكائنات إليه إمّا بلا واسطة أو بواسطة ، وإلى أنه واحد في صفاته لأن صفاته عين ذاته ، وبالجملة عالم الالهية والوجوب الذاتي يتأبى عن تحقق الكثرة فيه ذاتاً وصفة والشركة والكثرة إنما يتحقق في عالم الامكان فمن قال بوقوع الكثرة في ذلك العالم كان ذلك

لتصور بصيرته وعدم تمييزه بين عالم الامكان و عالم الوجوب (لا إله إلا هو) قال القاضي وغيره: هذا تقرير للوحدانية وإن أحداً لا يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة ، وتوضيحه أنه لما قال : وإلهكم إله واحد ومعناه أن مستحق العبادة منكم واحد أمكن أن يتوهم أحد ويقول : إلهنا إله واحد يستحق العبادة منّا فلعل في الوجود إلهاً غير إلهنا لا يستحق العبادة منّا ، فأزال هذا الوهم ببيان التوحيد المطلق حيث نفى مهية الاله و أثبت فرداً منها فعلم أنه لا وجود لها إلا في هذا الفرد وهو التوحيد التام (الرحمن الرحيم) أي المعطي لجميع النعم الدينية والأخروية ، فهذا كالبرهان لما مر من أنه يستحق العبادة دون غيره لأنه لما كان هو المعطي للنعم كلها أصولها وفروعها في الدنيا والآخرة وما سواه إما نعمة أو منعم كانت الالهية و استحقاق العبادة منحصرة فيه لا توجد في غيره أصلاً. قيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فلمّا سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت (إن في خلق السموات) على مقادير متفاوتة و أبعاد مشاهدة في البعد البعيد لما في قربها من تحيّر الأبصار بمشاهدة شعاع الكواكب و سرعة دورانها كما يشاهد ذلك من البروق المتوالية المضطربة في الجوّ ومن المصابيح المتكثّرة التي تدور حول أحد دوراناً حثيثاً فأنها تحيّر بصره حتّى يتخيّر لوجهه ، و على إدارتها مثل الدوّلاب مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم الثوابت والسيارات على بسيط الأرض دائماً بهذا التقدير المشهود والتأثير المعلوم لصالح الأرض ومن عليها، من غير انثلام ولا انكسار مع كمال لطافتها و انشفافها وعلى حركات مختلفة في الكم والكيف والجهة فبعضها سريع و بعضها بطيء و بعضها شرقي و بعضها غربي وبعضها ذاتي و بعضها عرضي وعلى تجزئتها بممثلات و مسمّيات وحوامل، وخوارج المراكز والتداوير كلّ ذلك على أنحاء مخصوصة و أوضاع معلومة لأغراض مقصودة بعضها جلّي و بعضها خفي (والأرض) على حجمها و ثقلها و رسوبها في الماء و انكشاف بعضها ليكون مسكناً للحيوانات البرية و على سعتها و سكونها و توسطها بين

الصلابة والرّخاوة لتكون مأوى أنواع الوحوش و مسكن أصناف الناس وهزارعهم
و منابت أخشابهم و أحطابهم ولا يكونوا بمنزلة المتحصّنين في حصار ضيق . و
ليتمكنوا من السعي فيها في مأربهم والجلوس فيها والنوم عليها والاعتقان لأعمالهم
فإنّها لو كانت متحرّكة رجرجة (١) لم يتمكنوا من التعيش فيها. كما يشاهد ذلك
فيما يصيبهم حين الزلّزل على قلّة مكثها ، و ليتمكنوا من الزرع فيها و البناء
عليها والمشي فيها و سهل خروج النبات والأشجار . فإنّها لو كانت شديدة الصلابة
مثل الحجر أو شديدة الرّخاوة مثل الماء لما أمكن شيء من ذلك ، و على ما فيها
و ما عليها من المياه والجبال والمعادن مثل الياقوت والزبرجد والفيروزج والذهب
والنحاس والحديد و غيرها كل ذلك لمنافع الخلق التي يعجز الوصّافون عن
توصيفها و تحديدها و على كبريائها الموجبة لاختلاف الآفاق والطوالع والمطالع
والتعديلات والطلوع والغروب مستوياً ومعكوساً واختلاف أهوية الأقاليم الموجبة
لاختلاف أمزجة سكّانها واختلاف أحوالهم وأخلاقهم وألوانهم ، وقيل : إنّما جمع السماء
و أفرد الأرض لأنّ كل سماء جنس آخر بخلاف الأرض فإنّها جنس واحد .
(واختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما على هذا النظام المشاهد من الخلقة
بالكسر وهي أن يذهب أحدهما و يبقى الآخر خلفه و به فسّر قوله تعالى وهو
الذي جعل الليل والنهار خلفاً ، و منه قولهم : و اختلفا ضربة أي ضرب كل
واحد منهما صاحبه على التعاقب ، أو اختلفا في النور والظلمة ، أو في الزيادة
والنقصان و دخول أحدهما في الآخر على سبيل التدريج حتّى يبلغ كلّ واحد
منهما منتهاه في الزيادة والنقصان وهي خمس عشر ساعة تقريباً أو في الطول والقصر
والحرّ والبرد باعتبار العروض وأهويتها فإن العروض الشماليّة كلّما كانت أكثر
كان قوس النهار أطول و قوس الليل أقصر فيكون النهار أطول من الليل بقدر ضعف
تمديد النهار ، والعروض الجنوبيّة بعكس ذلك و اختلاف كلّ واحد منهما بحسب
الأمكنة فإنّ الأرض لما كانت كروية فأيّة ساعة فرضت من النهار فهي صبيح

لموضع وظهر لآخر و عصر لثالث و مغرب لرابع ، وقس على هذا ولاختلافهما فوائده و منافع للخلق فإنه لو كان الليل أو النهار سرمداً إلى يوم القيمة أو كان مقدار النهار مائة ساعة أو مائتي ساعة أو أكثر كما في عرض تسعين - فإن هناك مدة كل منهما ستة أشهر - كان في ذلك بوار كل ما في الأرض من حيوان ونبات ولو كان دخول أحدهما في الآخر دفعياً لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها كما يضر الخروج من الحمام إلى موضع بارد دفعة ولو كانت العروض متساوية في الحر والبر والاهوية لضاق الأمر على العباد بخلاف ما إذا كانت متفاوتة فإنه يستقل منهم من أراد من موضع إلى موضع وجده موافقاً لمزاجه فهي كالخوان الموضوع بين يدي جماعة فيه ألوان مختلفة من الأطعمة والأشربة في الكمية والكيفية يأكل منها كل واحد منهم ما أراد ووافق مزاجه ، وبالجمله آثار صنع الله تعالى وحسن تدبيره في اختلافهما و مصالحه و منافعه أعظم من أن يحيط بها علم الانسان أو يكتب في الدفاتر و يذكر باللسان و لذلك ذكره الله تعالى في القرآن المجيد في مواضع عديدة و موارد كثيرة تنبيهاً لهم عن الغفلة و تذكيراً لهم بالحكمة.

(والفلك التي تجري في البحر) الفلك بضم الفاء و سكون اللام واحد و جمع فإذا كان واحداً فالضمة بمنزلة ضمة قفل ، و إذا كان جمعاً فالضمة بمنزلة أسد ، فالضمتان متفقتان لفظاً و مختلفتان معنى أما الجمع فكما في قوله تعالى « حتى إذا كنتم في الفلك و جرين بهم » و أما الواحد فقد يأتي للمذكّر بمعنى المركب كما في قوله تعالى « في الفلك المشحون » وقد يأتي للمؤنث بمعنى السفينة كما في قوله تعالى « والفلك التي تجري في البحر » ويحتمل أن يكون فيه جمعاً (بما ينفع الناس) « ما » إما مصدرية أي ينفعهم ، أو موصولة أي بالذي ينفعهم من المحمولات والمجلوبات و غوص الآلى ، و ضمير « ينفع » على الأول يعود إلى « الفلك » بمعنى المركب ففيه استخدام أو إلى الجرى أو البحر ، وعلى الثاني إلى الموصول و في موضع هذا المركوب المشكّل بالشكل المخصوص الدّاخِل فيه الهواء و حملة للأمتعة الكثيرة و أصناف من الحيوان و جريه في الماء بسياق شرح اصول الكافي - ٧ -

الرياح ، و عدم رسوبه فيه و تقوية القلوب على ركوبه ، وجعل البحر متوسطاً بين الكثيف و اللطيف القابل لجريانه من لطايف الصنع و حسن التدبير في مصالح الناس و معاشهم مالا يخفى على ذوي البصائر الثاقبة ، ومن حملتها أنه لولا هذا المر كوب اعطملت النجارات التي تجلب من البلاد البعيدة مثل ما يجلب من الصين إلى العراق و من العراق إلى الصين و بقيت الأمتعة في بلدانها في أيدي صاحبها لأن أجبر حملها على ظهور الدواب كان يجاوز أثمانها فلا يتعرض أحد لحملها على أن بعض المسافات كالبحر مما لا يمكن قطعه بالدواب ، فتفقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها فينقطع المعاش ويتضيّق طرقه على الناس ، فلأجل هذه الحكمة جعل الفلك بحيث يحمل مالا يحصى من الحمولة و الأفراس و الأفيال و هي تجري بعنايته في موج كالجبال و جعل الرّيح سائقها و محرّكها و لولا الرّيح لركدت كما قال سبحانه « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرّيح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » و من حملتها أنه لو جعل البحر لطيفاً محضاً مثل الهواء لما استقر الفلك على ظهره بل غاص فيه ، ولو جعله كثيفاً محضاً مثل الأرض لما أمكن من قطعه وشقه فجعل متوسطاً بينهم لتكميل مصالحهم ، قال القاضي : القصد من هذه الآية إلى الاستدلال بالبحر و أحواله و تخصيص الفلك لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه و لذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر في غالب الأمر ، و قيل : الحكمة في عدم رسوب السفينة إلى الماء و إن كان بعض أجزائه أو كلها أثقل منه كالحديد هي أن الأجسام الممدخلة بعضها في بعض بمنزلة جسم واحد والمعتبر في الرسوب في الماء و عدمه ثقل المجموع بالقياس إليه و عدمه و لذلك لو كثرت الحمولة و قل الهواء الداخل بحيث يكون المجموع أثقل من الماء لرسب فيه وغرق أهلها ، والضابطة فيه أنه إذا فرض مع الماء جسم آخر فإن كان نسبة حجمه إلى حجم الماء كنسبة ثقله إلى ثقل الماء فلا يرسب فيه أصلاً بل يكون سطحه العالي مساوياً لسطح الماء في العلو والسفل و إن كانت نسبة حجمه إلى حجم الماء أقل

منها فيرسب فيه البتة و بقدر تفاوت ثقله يكون سرعة حركته و بطؤها في النزول إلى القعر، وإن كانت أكثر فلا يرسب على الطريق الأولى لكن يخرج منه شي، من الماء ثم بقدر كثرة هذه النسبة يكون خروج أبعاضه حتى يستوفي جميع النسبة التي تنصو بينهما وإن لم يبق بينهما نسبة أصلاً وذلك بأن لا يكون لذلك الشي ثقل و ميل إلى المركز أصلاً و عند ذلك يكون مماساً له بنقطة إن كان كرة أو بخط أو سطح إن كان غيرهما من الاشكال كل ذلك إذا كان غير طالب للمعلو ولا فيرفع منفصلاً على الماء ذلك تقدير العزيز العليم.

(و ما أنزل الله من السماء من ماء) فمن الأولى للابتداء والثانية للبيان و السماء يحتمل القلك والسحاب المعلق وهذه من آيات وجوده سبحانه و قدرته و حكمته و حسن تدبيره من جهة كيفية نزول المطر و مبدئ نزوله و فوائده . أمّا الأول فإنه ينزل متقاطراً متعاقباً ولو نزل متصلاً دفعة واحدة مثل البحر لأضر كل ما تصيبه وينزل في وقت دون وقت آخر على التعاقب بينه و بين الصحو لما في دوام أحدهما من فساد العالم و بطلان نظامه ، إذ لو دام المطر غفنت البقول و النباتات و استرخت أبدان الانسان وسائر الحيوانات و حصر الهواء فأحدث ضرراً من الأمراض والوباء و أفسد الطرق والمسالك والبلاد و أخرج البناء إلى غير ذلك من المفاسد التي لا يحيط بها العد والاحصاء ، و لو دام الصحو جفّت الأرض و احترق النبات و غيض ماء العيون والأودية و غلب اليبس و حدث القحط والجذب و ضروب من الأمراض ، و فيه هلاك الأرض و من عليها و ما فيها جميعاً ، ففي هذا التعاقب على النحو المشاهد الذي يوجب اعتدال الهواء ونظام الأشياء و صلاحها و استقامتها و دفع كل منهما عادية الآخر دلالة على اللطيف الخبير ، و أمّا الثاني فقال بعض الطبيعيين أن الشمس وغيرهما إذا أثرت في الأرض يخرج منها أبخرة متصاعدة إلى الطبقة الزهريرية التي لا يصل إليها أشعاع الشمس المنعكس من وجه الأرض وهي منشأ السحب والصواعق والرعد والبرق، فإذا وصلت تلك الأبخرة إلى هذه الطبقة تتكاثف بالبرد و تعبر سحاباً ، فإما أن لا يكون البرد قوياً فيمتاطر وهو

المطر أو يكون قوياً بأن أنثر في الأجزاء المائية قبل اجتماعها يحصل الثلج وإن أنثر بعده يحصل البرد ، و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام « أن تحت العرش بحر فإذا أراد الله أن ينبت به ما يشاء أوحى إليه فمطر ما شاء من سماء إلى سماء حتى يصير إلى السماء الدنيا فيلقيه إلى السحاب والسحاب بمنزلة الغربال فيمطر على النحو الذي أمر به ، وليس من قطرة تقطر إلاّ و معها ملك حتى يضعها موضعها » (١) والحديث طويل نقلنا بعض مضمونه و يؤيده ما روي عنه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل جعل السحاب غرابيل للمطر حتى يذيب البرد حتى يصير ماء كيلا يضر شيئاً يصيبه » (٢) وهذا وإن كان مما يستبعد الغافلون لكن وجب قبوله و إزعاجه إذا أخبر به المخبر الصادق كما في سائر الأسرار الإلهية (٣) و روي عنه عليه السلام أيضاً أنه سئل عن السحاب أين يكون قال : « يكون على شجر على كثيب (٤) على شاطئ البحر يأوي إليه فإذا أراد الله عز وجل أن يرسله أرسل ريحاً و أنارته و و كئل به ملائكة يضربونه بالمخاريق و هو البرق ويرتفع ثم قرأ هذه الآية « هو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقاه إلى بلد محدد » والملك اسمه رعد (٥) »

(١) كلاهما في حديث واحد رواه الكليني في كتاب الروضة تحت رقم ٣٢٦ .

(٢) بمعنى يجب التصديق بظاهره و تفويض معناه إلى الله تعالى ، لأن ظاهر الآية الكريمة

أن المطر يخرج من خلال السحاب كما نقله الشارح عن بعض الطيبيين ففي سورة النور « ألم تر أن الله يرزق سحاباً - إلى أن قال - فتري الودق يخرج من خلاله » فالمراد بالسماء في الآية الآخر أيضاً السحاب ، نعم ورد في القرآن أن كل شيء نزل من السماء أي العالم الروحاني إلى هذا العالم كما قال « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » وقال : « أنزلناكم من الأنعام ثمانية أزواج » (ش) .

(٤) الكثيب الرمل المستطيل ، الثل .

(٥) رواه الكليني في كتاب الروضة تحت رقم ٢٦٨ - والمخاريق كما في النهاية الإنبرية

جميع مخراق وهو في الأصل ثوب يلف به الصبيان بعضهم بعضاً و في حديث علي « ع »

البرق مخاريق الملائكة أراد أنها آلة ترجع بها الملائكة السحاب وتسوقه .

و فيه دلالة على أن السحاب تحمل الماء من بحار الأرض و يتصاعد بأمر الله تعالى و يمطر في كل مكان تعلق به إرادته و مشيئته و يدل عليه أيضاً ظاهر ما نقله العامة والخاصة كما صرح به الشيخ في منافع الفلاح من أن المأمون خرج يوماً من بغداد فأرسل صقره فارتفع في الهواء ولم يسقط على الأرض حتى رجع وفي منقاره سمكة فتعجب المأمون من ذلك فلما رجع إلى بغداد رأى في بعض طريقة محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام و له في ذلك الوقت إحدى عشرة سنة و قبل عشرة فتقدم إليه المأمون و هو ضام كفته على السمكة و قال له قل أي شيء في يدي فقال عليه السلام : إن الغيم حين يأخذ من ماء البحر يداخله سمك صغار فتسقط منه فيصيدها صقور الملك فيمتحنون بها سلامة النبوة ، فأدهش ذلك المأمون فنزل عن فرسه وقبل رأسه و تذلل له ثم زوجه ابنته (١) و الظاهر أن جميع ذلك حق لأن الشيء الواحد قد يكون له أسباب متعددة و في جميع ذلك دلالة على الحكيم القدير المدبر للأشياء على أحسن ما ينبغي .

فإن قال قائل : إنما ينزل المطر من السحاب بطبعه لأنه تقبل لأي دلالة فيه على ما ذكرتم ؟ قلنا : أو لا هذا الطبع له ليس من قبل نفسه بالضرورة فمن أعطاه إتياء دون غيره من الأجسام الخفيفة مع اشتراكهما في الجسمية ؟ و من أسكنه في جو السماء و كبدا السحاب بحيث ينزل تارة دون أخرى مع اقتضاء طبعه نزوله و عدم استقراره ؟ و من ساقه من جو إلى جو مع اقتضاء طبعه الحركة إلى المركز ؟ و ثانياً أنه إذا نزل بطبعه لثقله فلم يتصاعد إلى أعالي الشجر والأوراق والنباتات من المسامات الضيقة والعروق الدقيقة ليصل منافعه إلى كل جزء من أجزائها ؟ ولو قال : صعوده لجذب قواها الجاذبة إتياء ، قلنا له : من أعطاه تلك القوى التي تقسره إلى الصعود المخالف لمقتضى طبعه فيرجع الكلام بالآخرة إلى وجود واجب الوجود الذي بأمره و تدبيره يتحرك الماء فيما بين الأرض و السماء ، من شرق إلى غرب و من غرب إلى شرق ، و من شمال إلى جنوب و من

جنوب إلى شمال ، ومن علو* إلى سفلى ، ومن سفلى إلى علو* ، ذلك تقدير العزيز العليم ، و أمّا الثالث فهو أشار إليه سبحانه بقوله (فأحيا به الأرض بعد موتها) أى بسبب ما يتبعه من النباتات والحيوانات والكلام هنا في ثلاثة أمور الأول في كون النبات والحيوان حيوة الأرض ، و مجمل القول فيه أن نسبة النبات و الحيوان إلى الأرض كنسبة النفس إلى الحيوان فكما أن الحيوان بالانفس ميّت عديم المنفعة ، كذلك الأرض بالنبات والحيوان : و من ثم قيل : الأرض بما فيها من النبات والحيوان بمنزلة حيوان واحد تموت عند الجذب والشناء و يحيى عند الخصب والرّبيع ، والثاني في أن الماء سبب حيوة النبات والحيوان وهما يحتاجان إليه احتياجاً شديداً ، ووجهه ظاهر لأن القوى النباتية والحيوانية في جذب الغذاء والالصاق والتنمية تحتاج إلى ماء . يرطب ذلك الغذاء و يعدّه المنقوذ في المنافذ الضيقة و يعين تلك القوى في أعمالها ، وإذا فقد الماء بطلت أعمالها و إذا بطلت أعمالها عدم الحيوان والنبات و بالجملة الانسان و سائر الحيوانات و الزروع و سائر النبات يحتاجون إليه في الوجود والنمو والبقاء احتياجاً شديداً ، و قال صاحب العدة روي أن بعض الوعاظ دخل على هارون الرشيد فقال له هارون عظمي، فقال: أراك لومتعت شربة ماء عند عطشك بم كنت تشربها؟ قال: بنصف ملكي، قال: أتراها لو حبست عنك عند خروجها بم كنت تشربها؟ قال: بالنصف الباقي ، قال: لا يغرك ملك قيمته شربة ماء ، و الثالث في دلالة إحياء الأرض بالمطر على وجود الصانع المدبّر للعالم و ذلك أن البرد في الشتاء يوجب كثافة الهواء و الأرض و الشجر و يمس ظاهرها فتعود القوى النباتية و الحرارة الغريزية في الشجر و النبات ، و تستقر في بطونها و أصولها و تهبط فيهما مواد الثمار و تولد الأمثال فإذا نزل الماء وقت الربيع الذي هو وقت بروز ما في البطون و ظهور ما في الكمون انتفخت الأرض و اهتزت و تحرّكت القوى والحرارة وتتولد المواد الكامنة في الشتاء فيطلع النبات و يتنوّر الأشجار والأزهار ويخرج أصناف مختلفة مونة رايقة من الثمار التي يتمتع بها الانسان وغيره من أنواع الحيوان

كما قال سبحانه : «و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت و أنبت من كل زوج بهيج» وقال : «وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حياءً ونباتاً وحباً» فالعقل اللبيب إذا نظر في هذه الحركات والانتقالات و في صنوف مختلفة من النباتات والأشجار والأزهار والثمار من حب و عنب وقضب وزيتون و نخل ورمثان و فواكه كثيرة على اختلاف أنواعها وأصنافها المختلفة الاشكال والألوان والطعوم والروائح و أيج يفضل بعضها على بعض في الأكل والمنافع مع أن جميعها يخرج من أرض واحدة و يسقى من ماء واحد ، و تفكر ما في النباتات من ضروب المنافع وصنوف المآرب فالثمار للغذاء والنبات للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من أنواع التجارة وغيرها واللحاء والورق والأصول والعروق والصموغ وغيرها لضروب من المنافع فبعضها يقوى و بعضها يغذى ، و بعضها يقتل و بعضها يحمي ، و بعضها يسخن و بعضها يبرد ، و بعضها يدفع السوداء و بعضها يسهل للصفر ، و بعضها يقمع البلغم إلى غير ذلك من الفوائد الغير المحصورة ، و رأى ما في الأوراق من شبه العروق المشوثة في جرمها أجمع فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها لئلا يسهل عليها التلف و حفظها عن التمزق والاضطراب ولا يصل الماء إلى أطرافها بمنزلة الجداول و منها دقاق تتخلل تلك الغلاظ لايصال الماء والغذاء إلى كل جزء من أجزائها بمنزلة العروق المشوثة في البدن . علم أن جميع ذلك من فاعل قادر مختار عليم حكيم بوجود الأشياء بمجرد إرادته لمصالح أو منافع غير محصورة (و بث) عطف على أنزل فهو صلة عليحدة لموصول مقدرة بحكم العطف ويجوز عطفه على «أحياء» لأن الحيوان أيضاً ينمو بالماء و يعيش بالخصب والحب (فيهما من كل دابة) مختلفة في الطباع والأخلاق والأشكال والإدراك والحواس والحركات و المنافع والاهتداء إلى طرق المعاش فمنها ما يمشي على بطنه كالحيات و منها ما يمشي على رجلين كالإنسان و منها ما يمشي على أربع كالفرس و منها ما يمشي على أكثر كـ بعض الحشرات و منها ما يمشي تارة و يطير أخرى كالطيور و منها ما يدخر قوته بحيلة و تدبير كالذرة و العنكبوت ، و منها ما يطلب قوته عند الحاجة كالطير

فإنه يروح جايحاً ويرجع شبعاناً ، ومنها ما في خلقه صنعة عجيبة كالبعوضة فإنها مع صغرها على هيئة القمل مع زيادة الجناحين تطير بهما . ومنها ما لا يحتاج إلى بيت بل يبيت حيث كان من الأرض ، ومنها ما يحتاج إليه و يبنيه على شكل عجيب غريب لا يهندي إليه المهرة من المهندسين كالنحل : و كل ذلك وغيره مما يتعذر عدّه و إحصاؤه دلّ على أن في الوجود موجوداً عالمياً حكيماً يفعل ما يشاء كيف يشاء ، و إليه ينتهي الموجودات على تفاوت طبائعهم و مراتبهم التي أرفعها و أعلاها و أشرفها و أسناها المرتبة الانسانية لأنّ الإنسان على تفاوت الطبقات في العقل والإدراك خلّق له أكثر هذه الموجودات فبعضها لمأكله و مشربه و سائر منافع و بعضها يستدلّ به على وجود صانعه و قدرته و علمه و حكمته بل لولم يكن في هذا العالم موجود سواه و تأمّل في مبدئه نشؤه و صورته و أعضائه و منافع قواه الظاهرة و الباطنة و في أحوال نفسه و عقله و علمه بالمعلومات الكلية والجزئية و إحاطته بالمدرجات العقلية و الحسية علم أنّه مخلوق مغلوب مقهور له خالق غالب قاهر مصوّر عليهم حكيم ، فإنّه إذا اعتبر مثلاً حاله حين كونه نقطة في الرّحم و صيرورته جنيناً حيث لا تراها عين ولا تناوله يد مع اشتماله على جميع ما فيه قوامه و صلاحه من الأحشاء والجوارح و سائر الأعضاء من العظام و اللحم و الشحم و المخ و العصب والعروق والغضروف و هو محجوب في ظلمات ثلاث ظلمة البطن و ظلمة الرّحم و ظلمة المشيمة ولا حيلة له في طلب غذائه ، ولا دفع أذاه ، ولا استجلاب منفعته ، ولا دفع مضرّته ، وقد جرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا يزال ذلك غذاه حتّى إذا كمل خلقته واستحكم بدنه و قوي أديمه على مباشرة الهواء و بصره على ملاقات الضياء حاج الطلق (١) بأُمّه فأزعجه أشدّ إزعاج و اعنفه حتّى يولد ، وإذا ولد صرف ذلك الدّم الذي كان يغذوه في الرّحم إلى ثديي أُمّه و انقلب الطعم واللّون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشدّ موافقة له من الدّم فيوافيه في وقت حاجة إليه و حين تولد قد تلمظ و حرّك شفّتيه طلباً للغذاء.

فلا يزال يغتذي باللبن مادام رطب البدن دقيق الامعاء لين الاعضاء حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة يشتد ويقوى بدنه طلعت له الطواحين من الأسنان والأضراس ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل له إيساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه فكان ذلك علامة الذكر وعزه الذي يخرج به من حدث الصبي وشبه النساء ، وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقياً من الشعر ليبقى لها البهجة والنضارة التي تحرّك الرّجال لما فيه دوام النسل وبقاؤه ، واعتبر أنه لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم لزوى وجفّ كما يجفّ النبات إذا فقد الماء ولو لم يزعه المخاض عند استحكامه لبقى في الرحم كالموؤد في الأرض ؛ وفي ذلك هلاكه وهلاك أمّه ، ولو لم يوافق اللبن بعد الولادة لمات جوعاً ، ولو لم يطلع عليه الأسنان في وقتها لامتنع عليه مضغ الطعام وإيساغته أو يقيم على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح للعمل مع أن ذلك يمنع أمّه عن تربية غيره من الأولاد بل عن أمورها مطلقاً ، ولو لم يخرج الشعر من وجهه في وقته لبقى شبيهاً بالصبيان والنساء فلم يكن له جلالة ولا وقار ، وكذا إذا اعتبر في وصول الغذاء إلى البدن وما فيه من التدبير ، وفكّر في أن الطعام يصير إلى المعدة فتطحنه وتبعث بصفوه إلى الكبد منه في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء لكيلا يصل إلى الكبد منه شيء فيسكنها (١) وذلك أن الكبد رقيقة لا يحتمل العنف ثم إن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً وينفذ إلى البدن كله في مجاري مهياة لذلك بمنزلة المجاري التي للماء حتى يطرد في الأرض كلها ، وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مفايض قد أعدت لذلك ، فما كان منه من جنس المرة الصفراء جرى إلى المرارة ، وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال ، وما كان من البلة والرطوبة جرى إلى المثانة ، وتأمّل في حكمة التدبير في تركيب البدن ، ووضع هذه الأعضاء منه في مواضعها ، وإعداد هذه الأوعية فيه لتحمل الفضول إلاًّا تنتشر في البدن فتسقمه وتمهكه ، وفكّر في

أعضاء البدن أجمع و تدبير كل منها للارب والحاجة ، فاليدان للعلاج ، والرجلان للسعي ، والعينان للاهتداء ، والفم للاغتذاء ، واللسان للتكلم . والحنجرة لتقطيع الصوت و تحصيل الحروف ، والمعدة للمضم ، والكبد للتخليص و المنفذ لتنفيذ الفضول ، والأوعية لحملها ، والفرج لإقامة النسل ، وفكر في سائر الأعضاء والقوى و منافعها و أعمال فكره فيها ووجد كل شيء قد قدر لشيء على صواب و حكمة و تقدير و تدبير يعجز العقل عن معرفة تفاصيلها علم أن له خالقاً عالماً قديراً عليمًا حكيمًا يوجد الأشياء بمجرد إرادته بلا كلام ولا حركة ولا آلة لأغراض و مصالح لا يعرف تفاصيلها إلا هو و هو اللطيف الخبير .

(وتصرف الرياح) الرّيح جمع كثرة للرّيح وهي الهواء المتموج المتحرك بسبب مقدّر من الله العزيز العليم . والعين فيهما واو قلبت ياء لكسرة ما قبلها و جمع القلّة أرواح بالواو إذ لم يوجد فيه ما يوجب الإعلال ، والمراد بتصرفها في مهابتها صباء و دبوراً وشمالاً وجنوباً ، أو في أحوالها حارّة وباردة وعاصفة ولينة و عمقاً ولواقع ، أو جعلها تارة للرّحمة يرحم بها من أطاعه و تارة للعذاب يعذب بها من عصاه و لكل واحدة من الرياح الأربع المذكورة ملك يهب بها ويحرّكها بأمر الله سبحانه كما ورد في الرّواية الصحيحة عن أبي جعفر عليه السلام (١) فإن الرّيح الأربع الشمال والجنوب والصبا والدبور إنما هي أسماء الملائكة الموكّلين بها فإذا أراد الله أن يهب شمالاً أمر الملك الذي اسمه الشمال فهبط على البيت الحرام فقام على الرّكن الشامي ف ضرب بجناحه فتفرقت ريح الشمال حيث يريد الله من البرّ والبحر ، وإذا أراد الله أن يبعث جنوباً أمر الملك الذي اسمه الجنوب فهبط على البيت الحرام فقام على الرّكن الشامي ف ضرب بجناحه فتفرقت ريح الجنوب في البرّ والبحر حيث يريد الله ، فإذا أراد الله أن يبعث ريح الصبا أمر الملك الذي اسمه

(١) رواء الكليني في الكافي ج ٨ (كتاب الروضة) رقم ٦٣ في حديث بهذا الاسناد

محمد بن يحيى ، عن أحمد بن محمد ، عن محمد بن عيسى ، عن الحسن بن محبوب ، عن علي بن رمّان ، عن أبي بصير عن أبي جعفر (ع) .

الصبا فهبط على البيت الحرام فقام على الرُّكن الشامي ف ضرب بجناحه فتفرقت ريح الصبا حيث يريد الله في البر والبحر، وإذا أراد الله أن يبعث دبوراً أمر الملك الذي اسمه دبور فهبط على البيت الحرام فقام على الرُّكن الشامي ف ضرب بجناحه فتفرقت ريح الدُّبور حيث يريد الله من البر والبحر، ثم قال **﴿يَتَّبِعُ﴾** : أما تسمع لقوله (١) ريح الشمال . و ريح الجنوب ؛ و ريح الدُّبور ، و ريح الصبا . إنما تضاف إلى الملائكة : الموكلين بها .

إذا عرفت هذا فنقول: في تصرف الرِّياح و منافعها دلالة واضحة على أن مُبدعها حكيم قادرٌ عليمٌ بمصالح العباد أمّا الأولُ فلأنَّ حركة الهواء إلى الجوانب المختلفة إرادية بالضرورة ولا طبيعية لأنَّ الحركة الطبيعية إلى جهة واحدة هي العلو والسفل. و حركة الهواء إلى جهات متعددة فينبغي أن يكون لأمر خارج فان كان ذلك الخارج إرادة الواجب بالذات ثبت المطلوب و إن كان غيرها فنقل الكلام إلى ذلك الغير فيرجع بالآخرة إلى المطلوب ، و أمّا الثاني فلأنَّ الرِّيح تحيي الأبدان و تمسكها من داخل بما تستشق منها و من خارج بما تباشر بها من روحها و تبلغ الأصوات و تؤدِّيها إلى المسامع من البعد البعيد ولولا ذلك لبطل نظام العالم وتحمل الأرياح التي تقوِّي القلب والدماغ من موضع إلى موضع ، ألا ترى كيف تأتيك الرِّائحة من حيث تهبَّ الرِّيح وتروح عن الأجسام وتدخل في فرجها و تصير مادة لنشوء النباتات التي يحتاج إليها جميع الحيوانات في الاعتذاء والدواء و غيرها فلولوا الرِّيح لتعفّنت و فسدت و تعفّنتها و فسادها يؤدِّي إلى فساد الحيوان و الإنسان جميعاً ، و تزجي السحاب من موضع إلى من موضع ليعمَّ نفعه ثم تعصره حتّى يستكثف فيمطر ثم تنفضه حتّى يتخلخل و يستخف فيتشّش و ينشر ، و تلقح الشجر، و تسيّر السفن، و ترخي الأطعمة، و تبرد الماء و تشب النار ، و تجفّف الأشياء النديّة ، و تعين في تصفية الغلات ولور كدت دائماً لفانت هذه المصالح الجليلة والمنافع العظيمة ، و حدث الكرب في النفوس ، و مرض الأصحاء و

نهلك المرضى (١) وفسد الثمار ، و عفت البقول ، وحدث الوباء في الأبدان ، و الآفة في الغلات ، و ركبت السفن ، و تحيّر التجار ، و بالجملة بطل نظام العالم بالكلفة ، ففيها من تدبير الحكيم و مصالح الخلق ما لا يحصىه اللسان ولا يحيط به العبارة والبيان ، و كلُّ هذا شواهد صادقة و آيات ناطقة بلسان حالها ، منفصلة عن جلاله باريها و قدرته ، و معربة عن كمال صانعها و حكمته.

(و السحاب المستخر بين السماء و الأرض) و هو يحمل مع ما فيه من الصواعق الصاعدة والبروق اللامعة والرعود القارعة ثقل الماء و كثره مستقلاً في الهواء و يجمع بعد تفرقه و ينفجر بعد تمسكه ويرفع مرّة و يدنو أخرى فتصفقه الرياح و تسوقه و تفرقه بأمر مدبره و خالقه فيما بين الأرض و السماء ، إلى البلدان النائية فيخرج الودق من خلاله بقدر معلوم لمعاش و رزق مقسوم ، ويرسل قطرة بعد قطرة و شيئاً بعد شيء على رسله حتى يعمر البرك و يملاء الفجاج ، و يعتلي الأودية و تحيي به الأرض الميتة فنصبح مخضرة بعد أن كانت مغبرة : و تعود معشبة بعد أن كانت مجدبة و تنكس ألواناً من نبات ناضرة زاهرة مزينة معاشاً للناس والأعنام ولو احتبس عن أزمنته و تخلف عن وقته هلكت الخليقة و يبست الحديقة ، ثم إذا صب ما فيه أقلع و تفرق و ذهب حتى لا يعاين ولا يتدري أين يتواري ، فعرف العاقل حين تفكر في ذلك أن له مدبراً حكيماً عالماً حياً قيّوماً و أن السحاب لو تحرك بنفسه و صب ما فيه بمقتضى طبعه لما مضى به ألف فرسخ و أكثر و أقرب من ذلك و أبعد ليرسل قطرة بعد قطرة بالهدم و لافساد و لا سارية إلى بلدة متجاوزاً عن الأخرى (لآيات لقوم يعقلون) أي في كل واحد من الأمور الثمانية آية ظاهرة و دلالة واضحة على وجود الصانع و قدرته و حكمته و وحدته و استحقاقه للعبادة لقوم ينظرون إليه بعبون عقولهم الصحيحة و يعتبرونه ببصائر أذهانهم السليمة . أو في كل واحد منها آيات كثيرة كما يظهر لمن تأمل فيها تأملاً عارياً عن الأوهام الفاسدة وقد يوجه بأن كل واحد منها يدل

(١) نهلك الحمى فلاناً : أضنته و هزلته وجهده .

من حيث وجوده على وجود الصانع ، ومن حيث حدوثه في وقت معين على إرادته وعلمه بالجزئيات ، و من حيث منافعه على حكمته و اتقان صنعه و حسن تدبيره ، و من حيث ارتباط بعضه ببعض على وجه الانتظام والتعاون على وحدانيته.

و قال القاضي دلالة هذه الآيات على وجود الاله و وحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً ، والكلام المجمل أنها أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة مثلاً إذا كان من الجائز أن لا تنحرك السموات أو بعضها كالأرض و أن تنحرك بعكس حركاتها و بحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين ، و أن لا يكون لها أوج و حضيض أصلاً و على هذا الوجه لبساطتها و تساوي أجزائها فلا بد لها من موجد قادر حكيم يوجدها على ما يستدعيه حكمته و تفنضيه مشيئته متعالياً عن معارضة غيره ، إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه فإن توافقت إرادتهما فالفعل إن كان لهما لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد و إن كان لأحدهما لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح و عجز الآخر المنافي لآلهيته و إن اختلفت لزم التمانع و التصادم كما أشار إليه بقوله تعالى «قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» و في الآية تنبيه على شرف علم الكلام و أهله و حث على البحث والنظر فيه . اهـ . وقيل : الحق بذلك هو العلم الذي فوق الطبيعة وهو الحكمة الالهية الحقّة .

(يا هشام قد جعل الله ذلك) أي المذكور من الآيات و مثلها أو مضمونها فإن مضمونها المذكور تفصيلاً في الآيات الآتية (دليلاً على معرفته بأن لهم مدبراً) لأنهم إذا تأملوا فيها و نظروا إليها بعين البصائر و اعتبار الضمائر علموا أن لهم خالقاً خبيراً و صانعاً بصيراً خلقهم بعمد و تقدير ، وصنعهم بقصد و تدبير ، و خلق لهم جميع ما يصلح لانتفاعهم و ينفعهم في وجودهم و بقائهم كما يظهر بعض ذلك مما ذكرناه آنفاً (فقال : و سخر لكم الليل والنهار) بأن قد رهما لمنافعكم وهبأهما مخصوصاً لمصالحكم ، و جزأ الزمان بهما لصالح بالكم و نظام حالكم فصارا يتعاقبان تعاقباً مخصوصاً و يتبادلان تبادلًا معلوماً ، لتسكنوا فيه و لتبتغوا

من فضله ، و متى نظر فيه اللبيب البصير دلّه إلى وجود الصانع العليم الخبير .
و قيل : وجه دلالتهما عليه أنّهما أجزاء الزمان الواحد المتصل والزمان مقدار
حركة دورية غير مستقيمة ، فالحافظ لها لابد أن يكون جسماً كروياً إبداعياً و
هو السماء فدلّ وجودهما على وجود السماء والسماء دلّ على وجود خالق الأشياء
لأنّ السماء ممكنة منفردة إلى العلة وعلتها ليست مادتها ولا صورتها ولا نفسها ولا
جسم آخر حاوياً أو محبوساً فتتعيّن أن يكون خارجاً عن الكون والمكان و هو
المطلوب ، و فيه أن هذا على تقدير تمامه مبني على مقدّمات كثيرة كلامية و
ليس هذا المقام موضع ذكر أمثال هذا الكلام (والشمس والقمر) سخّر الشمس بأن
جعلها ضياءً و أمرها بالارتفاع والانحطاط والسير في البروج لأقامة الفصول وتربية
البقول و تنمية الحيوان والأشجار و تقوية الفواكه والأثمار إلى غير ذلك من
المنافع التي يعجز عن ذكرها القلم واللسان ولا يحيط بها الوصف والبيان ولوسارت
دائماً على مدار واحد لا حرقّت ما تحته وما يليه وفات أثرها فيما لا يدانيه ، و لم
يتحقّق الفصول الأربعة ، و منافعها المذكورة في الكتب مع أن المذكور منها
ليس إلّا قليل من كثير ، و سخّر القمر بأن جعله نوراً يستضيء به المسافرون في
قطع المفاز ، و يستعين به العاملون في حرث الزرع و ضرب اللبن وقطع الخشب
و نحو ذلك . و سائر أفي منازل المعروفة ليكون أثره في أقطار الأرض و فيضه
على أهاليها على السواء و لغير ذلك من المنافع الغير المحصورة و مختلفاً في
أحواله من الزيادة والنقصان والمحق والخسوف والوجود غالباً في بعض الليل دون
بعض ليعلموا به عدد الشهور والسنين والحساب و لئلا ينسبطوا في العمل والسير
لشدّة الشره والحرص مثل انبساطهم بالنهار و يمتنعوا من الهدء والقرار فيهلكهم
ذلك ، و لغير ذلك من المنافع التي يعلمها أرباب البصائر الثاقبة و أصحاب الضمائر
النافذة ، و يحكمون بأنّها من لدن حكيم خبير فسبحان من نورّ بهما الظلم ، و
أوضح بهما البهم ، و جعلهما آيتين من آيات ملكه ، و علامتين من علامات سلطانه
(والنجوم مسخّرات بأمره) قرأهما حفص بالرّفع على الابتداء والخبر فيكون

تعميماً للحكم بعد تخصيصه، و نصب ما قبلهما على المفعوليّة . و قرئ ، « الشمس والقمر » بالرفع أيضاً و نصب الليل والنهار وحدهما ، و القراءة المشهورة عند الأكثر : نصب جميع الأسماء الستة ، و أورد على هذه القراءة بأنه ما الحاجة إلى مسخّرات بعد قوله « وسخّر لكم » وأجيب عنه بأنّ نصب الأخيرين بفعل مقدّر يعني و جعل النجوم مسخّرات بأمره خلقها و دبّرّها كيف شاء ، أو نصب « مسخّرات » على الحالبة للمفاعيل الخمسة على أنّ سخر بمعنى صيّر يعني صيّر هذه الأشياء الخمسة نافعة لكم ، و نفعكم بها حال كونها مسخّرات بأمره لما خلقن له أو على المصدريّة يعني سخرها لكم أنواعاً من التسخير على أن يكون مسخر بمعنى تسخير ، كما في قولك سخره مسخر أمثل سرّحه مسرّحاً فجمع لاختلاف الأنواع و تلك التسخيرات في النجوم اختلاف أشكالها و صورها و نورها و مقاديرها و مواقعها و حركتها كمأ و كيفاً و جهة و تقارنّها و تغارّقها و تثلّثها و تربيعها و تسديسها و استقامتها و رجعتها و وقوفها و ظهور بعضها دائماً و خفاء بعضها كذلك و ظهور بعضها في بعض السنة و احتجابها في بعضها (١) كلّ ذلك لمصالح كثيرة بعضها معلوم بالضرورة و بعضها بالنظر الصادق ، و بعضها لا يعلمه إلا هو . أما ترى أنّ الثريّا و الجوزا ، والشعريين والسهيل كلّ ذلك يطلع حيناً و يغيب حيناً لمصالح معروفة و منافع مشهورة و فوائد مذكورة ولو كانت بأسرها تظهر في وقت لم يكن لواحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس و يهتمون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم بما يكون من طلوع الثريّا والجوزا إذا طلعتا ومن احتجابها إذا احتجبتا فصار ظهور

(١) التسديس هو أن يكون بين الكوكبين سدس الدور برجان ، والتربيع أن يكون بينهما ربع الدور ثلاثة بروج ، والتثلث ثلث الدور أربعة بروج ، و الاستقامة أن يسير الكوكب من المغرب إلى المشرق أي على التوالي ، والرجعة أن يسير من المشرق إلى المغرب على خلاف التوالي وهي خاصة للخمس المتغيرة ، والوقوف أن يتوقف في موضع لا يتحرك منه أياماً ، وخفاؤها لكونها قريبة من الشمس مخفية بضوئها وظهورها لبعدها عن الشمس فيظهر ليلاً . (ش)

كل واحد منهما في وقت واحتجابه في وقت آخر لينفع الناس بما يدل كل واحد منهما عليه و كما جعلت الثرى وأشباهها تظهر حيناً وتجب حيناً لضرب من المصلحة ، كذلك جعلت نبات النعش ظاهرة لا يغيب لضرب آخر من المصلحة فإنها بمنزلة الأعلام التي يهندي بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة و ذلك أنبأ لا تغيب أبداً فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهندوا بها إلى حيث توجهوا و صار الأمران جميعاً على اختلافهما موجبهين نحو الأرب والمصلحة و فيهما آرب أخرى مع ما في تردددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة و مشرقة و مغربة من العبرة لأولى الأبواب ، وبالأجملة خلق الله جل شأنه الإنسان لمعرفته و عبادته وخلق لهم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم كلها بل هذا العالم كله ، وقد قال إمامنا و مولانا الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في كتاب التوحيد للمفضل : أول العبر والأدلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم و تأليف أجزائها و نظمها على ما هي عليه ، فانك إذا تأملت بفكرك و ميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده ، فالسماء من فوعة كالسقف والأرض ممدودة كالسطح والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالدخائر و كل شيء فيها لشأنه معد والإنسان كالمملك ذلك البيت ، والمحوّل فيه وضروب النبات مهياة لماربه و صنوف الحيوان مصروفة في مصالحه و منافعه ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير و حكمة و نظام و ملائمة ، وأن الخالق له واحد وهو الذي ألقه و نظمه بعضاً إلى بعض جل قدسه و تعالى جدّه و كرم وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون و جلّ وعظم عما ينتحلّه الملحدون لقصور أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة فيما ذراه الباري فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود و بضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود حتى أنكروا خلق الأشياء و ادّعوا أن كونها بالاهمال لاصنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر ولا صانع تعالى الله عما يصفون و قاتلهم الله أنى يؤفكون (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) تأمل أيها اللبيب كيف جعل الله سبحانه هذه الأمور أدلة على معرفته و دلّ العقلاء الراسخين في

علم على ربوبيته و مدحهم بذلك الفضل والروية ، ومنعهم بذلك النعمة والعطية فأولئك هم المقرَّبون يوم التناد . وأولئك هم المقصودون من الغرض في اليجاد (و قال : هو الذي خلقكم من تراب) نسب خلق هذا النوع إلى التراب لأن خلق أول أفرادهم منه ، ويحتمل أن يراد بالتراب الغذاء الذي يتكوَّن منه المني (ثم من نطفة) النطفة الماء القليل ومنه سمِّي نطفة لقلته وجمعها نطف (ثم من علقه) هي قطعة جامدة منعقدة من الدَّم يتغير بالتدريج إلى أن تصير مضغطة هي قطعة من اللحم قدر ما يمضغ وهي تنتهي بالتدريج إلى العظام المكسوة باللحم المنتهية بالتدريج إلى خلق آخر و هو صورة البدن المشتملة على القوى والروح الإنساني و لم يذكر بعض هذه المراتب هنا لذكره قبل ذلك في مواضع أخرى ، و للإنسان في انتقالاته و استحالاته إلى أوان خروجه من بطن الأم الذي هو العالم الأول و العالم الأصغر منازل غير محصورة والمعروف منها هذه السنته التي أولها التراب يعني الغذاء ، وثانيها العلقه ، و رابعها المضغ ، وخامسها العظام الكاسية باللحم (١) و سادسها الصورة الانسانية التي فيها الروح والقوى ، ثم له بعد خروجه منه و دخوله في بطن الأم الكبرى الذي هو العالم الأوسط إلى دخوله في العالم الأكبر و هو عالم الآخرة و عالم لقاء الله تعالى أيضاً مراحل غير معدودة إلا أن المعروف منها أولها منزل الصبا والطفولية ، و ثانيها منزل تمام النمو و كمال القوة و هو

(١) جعل العظم واللحم في منزل واحد لا يتقدم العظم على اللحم زماناً بان يكون الجنين في وقت عظاماً غير مكسوة باللحم ثم يكسى به كما يتوهم من ظاهر قوله تعالى : «ثم كسونا العظام لحماً» بل تقدم العظام تقدم طبعي اذ يحتاج اللحم في قوامه إلى العظم واللحم موخر عن العظم بهذا الاعتبار كما تأخر الكل عن الجزء والشروط عن الشرط وان اتحدنا زماناً، فإن قبل ظاهر التقدم والتأخر هو الزمانان قلنا: نعم ولكن الظاهر معتبر حيث لا يكون قرينة على خلافه وهنا نعلم يقيناً بالقرينة العقلية ان الجنين لا يكون في زمان عظاماً مجرداً ثم يكسى لاحقاً في زمان آخر بعده و مثاله في العرف تحرك المفتاح بعد تحرك اليد. (ش)

منزل الشباب ، وثالثها منزل الشيخوخة ، فأشار جلّ شأنه إلى الأول من هذه الثلاثة بقوله (ثم يخرجكم طفلاً) أي أطفالاً وإنما أفرد لإرادة الجنس والجنس يصدق على الكثير ؛ أو على تأويل ويخرج كل واحد منكم ، أو لأنه في الأصل مصدر وهو في هذا المنزل في التزايد والنمو قوة وكماً ، فيكمل قواه ويزيد مقداره شيئاً فشيئاً بحسبما يقتضيه الطبيعة فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً و شيئاً بعد شيء ، حتى يألف الأشياء و يتمرن عليها و يصل إلى غايته و يخرج من حدّ الحيرة فيها إلى التصرف في المعاش بعقله و إلى الاعتبار والطاعة والسّهو والمعصية و ذلك من تدبير الحكيم العليم ، إذ لو كان النمو دائماً لعظمت الأبدان واشتهت المقادير حتى لا يكون شيء منها حدّ يعرف ، ولو ولد فهماً عاقلاً كاملاً لأنكر العالم عند ولادته ولبقي حيران تائه العقل إذ رأى ما لم يعرف و ورد عليه ما لم ير مثله ولم يأنس به من اختلاف صور العالم والطيور والبهائم إلى غير ذلك مما يشاهد ساعة بعد ساعة يوماً بعد يوم ولوجد في نفسه غضاظة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصباً بالخرق مسجّى في المهد ، لأنه لا يستغني عن هذا كله لرقّة بدنه ورطوبته حين يولد ولذهبت حلاوة تربية الأ ولاد للأب والأم وما يوجبها التربية من البر والعطف ولفاتت الألفة بين الأبوين والأولاد لأنهم يستغنون عن تربيتهم فيتفرقون عنهم قريباً من الولادة ، فلا يعرف الرّجل أباه وأُمّه ، ولا يمنع من نكاح أُمّه وأخته و ذوات المحارم إذ كان لا يعرفهن ولأنّه يرى و يعقل حين الولادة من أُمّه ما لا يحلّ له أن يراه ، فمن تفكّر في هذه الأمور و غيرها علم أن ذلك من تدبير اللطيف الخبير الذي أقام كل شيء من الخلقة على غاية الصواب وأشار إلى الثاني بقوله (ثم لتبلغوا) قيل : متعلق بمحذوف أي ثم يبعثكم لتبلغوا (أشدكم) أي كمالكم في القوة و العقل ، جمع الشدة كالأنعم جمع النعمة وهو حدّ التكليف ووقت الشباب و كمال النشوء الذي يكون القوى فيه أقوى من سائر أوقات العمر و يستمر إلى أن شروع تلك القوى في الانحطاط وأشار إلى الثالث بقوله (ثم لتكونوا شيوخاً)

و هو حد ينتهي إليه الشباب ويتوجه الباطن بسبب حدوث قوة أخرى من نوع آخر فيه إلى عالم الآخرة فيظهر أثر من آثار الضعف فيه و يتزايد على التدريج إلى أوان الفراغ من هذه الدار الغائية (ومنكم من يتوقى من قبل) أي من قبل الشيخوخة أو الأشد . و منشأ الموت عند الأطباء والطبيعيين أن الحرارة الغريزية التي هي آلة للطبيعة في أفعالها كالجذب والدفع والهضم وغير ذلك ، و لذلك قيل : إنها كدخلاء البدن تفنى الرطوبة الغريزية شيئاً فشيئاً ثم تفنى هي بفناء الرطوبة كما أن النار تفنى الدهن ، ثم تنطفئ بانتفائه . و قيل : منشأ أن النطفة التي هي مادة البدن جسم مر كئيب ذو نضج تام إذ وقع هضمه في خمس مراتب : أربعة منها لأن يصير الغذاء جزء من بدن المغذي (١) والخامسة لأن يصير مادة لتكون الممثل فإن المادة المنويّة فضلة الهضم الرابع ، وإذا وقعت في أوعية التوليد كالخصية



(١) للهضم عند الأطباء مراتب أربع : الأول الهضم في المعدة فيصير الاغذية به كيلوساً أي مادة شبيهة بماء الكشك التخين . والهضم الثاني في الكبد وبه ينتقل الكيلوس من طريق وريد الباب والمروق الماسار بقاوية الى الكبد فينطبخ فيه ويصير كيلوساً . والهضم الثالث في الاوردة لان الدم الحامل للغذاء اذا خرج من الكبد الى الوريد المسمى بالاجوف و انشعب الى العروق الصناد والرواضع والعروق الشعرية ينطبخ فيها و يتبدل ماهيته بخروج مالا يناسب التغذية منه . والهضم الرابع في نفس الاعضاء لان الدم له طبيعة واحدة يجرى الى كل عضو من لحم وعظم وشحم وعصب ويعدل اليها غذائها فيصرف كل عضو في هذا الدم و يغيره الى صورته وطبيعته فيصير الدم في العظم عظماً وفي اللحم لحماً الى غير ذلك واكل هضم من هذه الهضوم الاربعة فضلات يضر وجوده في بدن الانسان فوكل الله تعالى معظم حكمته قوة دافعة تخرجها عنفا فتخرج فضلة الهضم الاول من طريق الامعاء و فضلة الهضم الثاني من طريق الكلى والمثانة بالبول والمرارة والطحال و فضلة الهضمين الثالث والرابع من طريق مسام البدن بالعرق والالوساخ و بالتنفس و مثل ذلك والنطفة من فضلات الهضم الرابع الا انها ليست مما يضر اجتماعه في البدن بل يمكن ان تحبس في وعائه وتنجذب في البدن ولا يضر البدن بها بخلاف البول مثلاً . (ش)

احتجالت نطفة بوضم خامس، ثم يزيد مقدارها بوزود الغذاء عليها بدلاً مما يتحلل منها، وليس حكم هذا الوارد في الاعتدال والنضج حكم ما يتقص منها بالتحليل، فمادام شيء منها باقياً في البدن كانت الحيوة باقية و نسبة القوة والضعف على نسبة ما بقي منها زيادة و نقصاناً و إذا تحللت بالكليّة تحقق الموت، وهذا قريب مما قيل من أن الموت طبيعي ومعناه أن الانسان عند نشأة منه تعالى يتوجه بحسب الغريزة الفطريّة والأشواق الالهية نحو النشأة الآخرة و يسلك سبيله تعالى ليرجع إليه كما نزل منه فهو متحرك دائماً على منازل و مراحل من طور إلى طور في دار البلية ودار انقراق إلى أن يبلغ تلك النشأة التي هي منتهى حركته في هذه الدار، فإذا بلغها انتقل إليها وأوائلها القبر والبرزخ والحشر والنشر والعرض والحساب إلى غير ذلك، ثم بعد ذلك يرجع إلى النعيم مقيم أو إلى عذاب اليم بفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد (و لتبلغوا) متعلق بمحذوف أي يفعل ذلك لتبلغوا (أجلاً مسمى) قيل : هو وقت الموت أو يوم القيمة، و قيل : يحتمل أن يراد به وقت لقاء الله تعالى في الجنة الذي هو الغاية الأخيرة لخلق الانسان (ولعلكم تعقلون) ما في هذه الأحوال العجيبة والأطوار الغريبة من المعبر والحجج الدالة على أنه سبحانه هو الذي خلقكم على أطوار مختلفة و خلق مادّكم و أصولكم من الأشياء المذكورة و أودع الحيوة فيها وأبدعها ، ثم أبتاكم إلى أجل مقدّر و إن من كان قادراً على ذلك فهو قادرٌ على جميع تلك المواد و إحيائها ثانياً فالآية الكريمة دليل على التوحيد و البعث جميعاً . و قيل : معناه لعلكم تصيرون بعد هذه الأحوال عاقلاً كاملاً بالفعل فيكون إشارة إلى أن غاية الخلقة و آخر النشأة والأطوار هي صيرورة الانسان جوهرأ عقلياً (١) والحاصل أنه إشارة إلى أن غاية هذه الأكوان وجود العقل و ذات العاقل مع قطع النظر عن تعقله (و قال إن في اختلاف الليل

(١) قوله «جوهراً عقلياً» هذا تصديق منه بوجود العقل الجوهري كما سبق منه

أيضاً و أنه غاية الانسان ولا ينافيه ما مر منه آنفاً بأن غايته أن يرجع إلى نعيم مقيم أو عذاب اليم. (ش)

والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق (أي من ماء و إطلاق الرزق على الماء من باب الحقيقة بالنظر إلى تفسيره لغة وعرفاً قال الجوهري : الرزق ما ينتفع به وقالت الأشاعرة : هو كل ما ينتفع به حي غذاء كان أو غيره حالاً كان أو حراماً ومنهم من خصه بالأغذية والأشربة فيخرج نحو الملباس والهواء الذي ينتفع به المتنفس . وقالت المعتزلة : هو كل ما صح أن ينتفع به حي بالتغذي وغيره وليس لأحد منعه منه فيخرج الحرام فالماء رزق على هذه التفاسير لأنه مما ينتفع به ويحتمل أن يكون من باب المجاز تسمية السبب باسم المسبب ، ويؤيده قول الجوهري وقد يسمى المطر رزقاً ، وذلك قوله عز وجل : « وما أنزل لكم من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » وفي السماء رزقكم ، وهو اتساع في اللغة كما يقال : النمر في قعر القلب يعني به سقى النخل (فأحيا به الأرض بعد موتها) الظاهر أن المراد بالأرض والرزق معناهما الحقيقي ويحتمل أن يراد بالأرض القلب لأشترأتهما في قبول الحيوة وبالرزق العلم لأشترأتهما في السببية للحيوة . قال ابن الأثير في النهاية : الرزاق نوعان ظاهرة للأبدان كالأقوات وباطنة للنفوس والقلوب كالمعارف والعلوم وقد شاع في القرآن العزيز و كلام الحكماء نسبة الحيوة بالعلم والموت بالجهل إلى القلب (وتصريف الرياح [والسحاب المستخربين السما، والأرض] (١) آيات لقوم يعقلون) أي يفهمون تلك الآيات بعقولهم الصافية ويستدلون بها علمي وجوده جل شأنه ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته ، وقد ذكرنا سابقاً ما يناسب هذا المقام وقال : « يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » (وقال و جنات) جمع جنة وهي البستان سمّي بها لاجتنانها و استتارها بالأشجار والأغصان والأوراق وهذا التركيب دل على الاستتار ومنه الجن لاستتاره من الانس والجنون لأنه يستر العقل والجنين لأنه مستور في الرحم والمجنة والجنة بمعنى الترس لأنه يستر صاحبه وهي بالرفع عطف على « قطع » في

قوله تعالى « و في الأرض قطع متجاورات » أي بعضها طيبة و بعضها سيئة و بعضها رخوة و بعضها صلبة و بعضها حجر و بعضها رمل و بعضها أبيض و بعضها أسود و بعضها أحمر و بعضها أصفر و بعضها معدن للجواهر المختلفة مثل الياقوت والعقيق والزبرجد والفيروزج والزمررد والذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد و غيرها مما يستعمله الناس في مآربهم و في هذا أيضاً دلالة على المطلوب لأن انقسام الأرض إلى هذه الأقسام و انتصافها بهذه الأوصاف مع اتحاد الطبيعة الأرضية في تلك الأقسام وتساوي الأجرام العلوية وأوضاعها بالنسبة إليهم يدل على وجود قادر مختار يوجد الأشياء الممكنة على وجه دون وجه (١) بلا ضد ولا ند له وحده لا شريك له (من أعناب وزرع و تخيل) أفرد الزرع لأنه في الأصل مصدر و

(١) قوله «على وجه دون وجه» من تدبر في خلق العالم والحكم والمصالح فيه و اتقان الصنع في كل شيء يراه من هذه المواليد ، علم أن الأمر ليس على ما يظنه الممثلة والملاحدة و أصحاب الطبائع و ليس هذا الأحكام والاتقان في الصنع حاصل بالبحث والاتفاق كما كان عليه ذيمقراطيس من القدماء و كثير من الافرنج والمنفرجة في عصرنا فان هذه المواد والعناصر التي يتركب منها الانسان والحيوان والنبات وسائر الاجسام ذوات الخواص يمكن أن تتركب على أنواع كثيرة يلحق بغير المتناهي لكثرتها والمفيد الموجود منها واحد من آلاف الملايين ، مثلاً كل واحد من اللحم والعظم في كل عضو من بدن الانسان والحيوان متركب من عناصر خاصة على نسبة خاصة لا يحصل لهم أقل منها ولا من أكثر وليس اختيار واحد من انحاء التراكيب الغير المتناهية الا من فاعل حكيم عالم بكل شيء لو ادعى صاحب مطبعة أراد طبع كتاب من الحروف المصنوعة أنه ملأ بيتاً معيناً من ألف ألف حرف من الهزرة الى الياء غير مرتبة بل مزوجة مختلفة و أمر عاملاً أعمى و دخل البيت و جمع من الحروف ورتبها كما يريد صاحب المطبعة و طبع كتاباً خاصاً فقبول دعواه مع كونه معالاً أسهل من قبول دعوى الفيلسوف الطبيعي الذي يرى تتركب أعضاء حيوان من الطبقة السفلى كالغراطين و البراغيث من عناصر كيف اتفق بيد طبيعة عمياء فكيف بسائر المواليد والانسان خاصة ولا يلزم من ذلك القول بالارادة الجزئية الحادثة في ذات المبدء بتأثير العمال الممكنة كما يدعيه قدماء المتكلمين و للبحث في ذلك محل آخر (ش).

التخيل اسم جمع وهما إما مرفوعان معطوفان « على جنات » أي في الأرض قطع متجاورات و جنات من أنواع الاعناب و فيها زروع ونخيل. أو مجروران معطوفان على « أعناب » أي في الأرض بساتين مشتملة على أنواع الاعناب والزروع و التخيل و (صنوان) أي نخلات أصلها واحد ، جمع صنو و هو أن تطلع نخلتان من عرق واحد و منه الصنو بمعنى المثل كما في قولهم عم الرجل صنو أبيه أي مثله لأنهما خرجا من أصل واحد (و غير صنوان) أي نخلات متفرقات مختلفة أصولها وعروقها، وقرأ حفص بضم الصاد فيهما وهي لغة تنميم (يسقى بماء واحد) في الطبيعة و الصورة والغرض من ذلك دفع توهم اسناد هذا الأمور و الاختلاف إلى الماء و يسقى بالتذكير في قراءة عاصم و يعقوب وابن عامر على تأويل ما ذكر (ونفضل) بالزون في القراءة المشهورة و بالياء في قراءة حمزة و الكسائي (بعضها على بعض في الأكل) أي في الثمر شكلاً و قدراً و رايحة و طعماً كما هو المشاهد (إن في ذلك) المذكور (لآيات لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم السليمة عن شوائب النقص بالتفكر فيها و يستدلون بها على وجود الصانع الحكيم القادر المختار ، فإن من تفكر في تلك الأشجار المختلفة في الهيئة والمقدار و خروجها من الأرض و اغذائها من أجزاء أرضية و نموها و في أوراقها المشتملة على العروق الصغار والكبار لاستقامة الحجم و وصول الغذاء إلى جميع الأجزاء و في أثمارها حين كونها بمنزلة الجنة في بطونها ثم خروجها بعد استكمال المواد واستقرارها على رؤس الأنصاف و انضفاف ما ينميها آناً فآناً إليها من المنافع الضيقة إلى وقت بلوغها حد الكمال لمنافع الناس و غيرهم و في اختلاف أنواعها و أصنافها و أشكالها و أقدارها و رايحها و طعومها و في أن الطبيعة الأرضية مع اتحادها و عدم شعورها لا يمكن اسناد هذه الأمور إليها و كذا الطبيعة المائية ، و في الأوضاع الفلكية والاتصالات الكوكبية و تأثيرات الأجرام السماوية نسبتها إليها متساوية متشابهة سيما القطعات المتجاورات علم أن ذلك من تدبير عليم بصير و قدير حكيم خبير يتعلق قدرته بجميع الممكنات و يحيط علمه بكيفية

نظام جميع الكائنات فيوجب كلاً منها على أحسن وجه و أكمله على حسب
الارادة والاختيار (وقال ومن آياته يريكم البرق) الفعل مصدر بتقديره أنه أوصفة
لمحذوف أي آية يريكم بها البرق (خوفاً) من الصاعقة أو تخريب المنازل و
الزروع أو من المسافرة ونحوها (وطمئناً) في الغيث والنبات وسقي الزروع وغير ذلك
و نصبهما على العلة لفعل لازم للمفعول المذكور فإن ادانتهم يستلزم رؤيتهم أو لفعل
مذكور بتقدير مضاف أي إرادة خوف و طمع أو بتأويل الخوف والطمع بالآخافه و
الاطماع ، و على التقدير يتحد فاعلهما و فاعل عاملهما أو على الحال مثل كلمته
شفاهاً . وأما البرق آية من آياته فإمّا لأنّ البخار الممتزج مع الدخان إذا
وصل إلى الكرة الزمهريرية يحتبس فيما بين السحاب فيميل إلى السفلى للثقل
و غلبة البرد أو إلى العلوّ لبقاء سخونته و زيادة لطافته فيمزق السحاب تمزيقاً
عنيفاً فيحصل الرعدو يشتعل الدخان بالنسخين الحاصل من المصاكة العنيفة فإن
كان لطيفاً ينطفي سريعاً و هو البرق و إن كان كثيفاً لا ينطفي حتى يصل إلى
الأرض و هو الصاعقة . أو لأنّ السحاب فيه كثافة و لطافة بالنسبة إلى الهواء و
الماء و إذا هبت ريح قوية تخرقه بعنف فيحدث صوت الرعد و يخرج منه النار
للمصادمة بينهما كما تخرج من ضرب الحديد على الحجر والاختفاء في أن خروج
البرق الذي هو نار محترقة من السحاب الرطب المشتمل على الماء لأيّ سبب
كان دلّ على وجود الصانع الذي رتب المسببات على أسبابها و آية من آياته و
نقل عن العترة الطاهرة « أن الرعد صوت ملك يزجر السحاب ويسوقه والبرق
نار تحدث من حركة سوطه (١) » وقال بعض العارفين : من سمع هذا الصوت و
رأى هذه النار و كان له رؤية قلبية و بصيرة ذهنية علم أن ما نقل عنهم عليه السلام حق
و صدق (٢) (و ينزل) قرى ، بالتشديد (من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد

(١) راجع بحار الانوار ج ١٤ ص ٢٧٥ إلى ٢٨٠ .

(٢) « قوله حق و صدق » ويقول أهل عصرنا ان الرعد والبرق من القوة الكهربائية
في طبقات السحاب والشارح جمع بين السبب المادى والعلة الفاعلية الروحانية إذ

موتها) بأنواع النباتات والحيوانات (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أي يفهمونها
و يتدبرون بها في استنباط أسبابها و تكوينها ، و كيفية ربطها بتلك الأسباب
ليظهر لهم كمال قدرة الصانع و حكمته و علمه بحقائق الأمور خفيها وجليها .
و قال (قل تعالوا) أمر من تعالون قال القاضي و صاحب الكشف : هو من الخاص
الذي صار عاماً فإن أصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم
اتسع فيه بالتعميم (أتلى) مجزوم بشرط مقدر بعد الأمر (ما حرّم ربكم) منصوب
بأتل «و ما» إما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية ويحتمل أن يكون استفهامية
منصوبة بحرّم بمعنى أتلى أي شيء حرّم (عليكم) متعلق بأتل أو حرّم على سبيل
التنازع (أن لا تشرّكوا به شيئاً) «أن» ناصبة «ولا» للنفي والجملة خبرية لفظاً و
إنشائية معنى بدلاً من «ما حرّم» أو من العائد المحذوف ، و يحتمل أن يكون مفسرة
لما حرّم ولا المني (و بالوالدين إحساناً) أي و أن تحسنوا بمعنى أحسنوا أو
أحسنوا بالوالدين إحساناً ، فالجملتان المتعاطفتان إنشائيتان معنى فقط ، أو لفظاً
و معنى جميعاً ، أو الأولى معنى فقط والثانية لفظاً و معنى ، أو بالعكس ويكونان
في بعض الوجوه مثل قوله تعالى « و إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا
الله و بالوالدين إحساناً و ذي القربى واليتامى والمساكين و قولوا للناس حسناً »
فإن لا تعبدون بمعنى لا تعبدوا و بالوالدين بتقدير و تحسنون بهما بمعنى أحسنوا
أو بتقدير و أحسنوا بهما . وفي جعلهما خبريتين لفظاً و إنشائيتين معنى فائدة
لطيفة وهي المبالغة باعتبار أن المخاطب كأنه شرع في الامتثال وهو يخبر عنه ورد صاحب
الكشاف أن يكون «أن» ناصبة «ولا» للنفي بأنه و جب أن يكون « لا تشرّكوا »
نهيًا لعطف الأمر عليه و هو قوله تعالى « و بالوالدين إحساناً » لأن التقدير و

ولا يخالف أحدهما الآخر والسبب المادي مع نظير تأثير الحرارة في ذوب الحديد والعملة
الفاعلية هو الله تعالى والملائكة المقربون مأمورون بنظير الصانع الماهر الذي يصنع من الحديد
المذاب بالحرارة آلات الصنعة والمكانن وغيرها والحرارة علة معدة والفاعل الآلات
هو الصانع (ش)

أحسنوا بالوالدين إحساناً. والجواب عنه يظهر بالتأمل فيما ذكرناه ، بقي ههنا شيء وهو «أن لا تشركوا» وما عطف عليه لا يصح أن يجعل تفسيراً لما حرم لأن كلاً من ترك الشرك والاحسان بالوالدين واجب لا محرم ، والجواب أن إيجاب ترك الشرك مستلزم لتحريم الشرك وإيجاب الاحسان بالوالدين مستلزم لتحريم الإساءة إليهما مع ما فيه الإشارة إلى أن ترك إساءتهما غير كاف بل لابد من الاحسان بهما والتفسير باعتبار اللازم . وفي ذكر الاحسان بهما عقيب النهي عن الشرك بالله دلالة واضحة على جلالة حق الوالدين على الولد لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الإيجاد ونعمة التربية و للوالدين مدخل في كل واحد منهما كما يقتضيان عدم الشرك بالله كذلك يقتضيان عدم إساءتهما والاحسان بهما و لذلك قال الله سبحانه و قضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً. الآية ، (ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق) أي من أجل فقر (نحن نرزقكم وإياهم) فوجب على الوالدين تربية الأولاد و تربيتهم والاتكال في رزقهم على الله ، لا يقال : يلزم جواز قتلهم عند عدم خوف الفقر لما تقرّر من أن النفي والاثبات في الكلام راجعان إلى القيد لأننا نقول إذا لم يجز مع الفقر فعدم جوازه بدونه أولى فهذا من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى على أن للتقييد فائدة أخرى هي زجرهم عما كانوا عليه من الخصلة الذميمة (ولا تقربوا الفواحش) في النهي عن قربها مبالغة في المنع منها (ما ظهر منها وما بطن) بدل من الفواحش ، قيل : المراد بها الزنى سرّاً وعلانية : وقيل الكبائر مطلقاً (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) لما نهى أولاً عن قتل الأولاد لعلّة مذكورة نهى ههنا عن القتل مطلقاً دفعاً لتوهم الاختصاص إن قلت : قتل النفس المحرّمة داخل تحت الفواحش على تقدير عمومها فما الفائدة في ذكره عليه حدة ؟ قلت : الفائدة هي الإشارة إلى تعظيمه وزيادة فظاعة عقوبته كما قال سبحانه و من قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها (إلا بالحق) كالقود و قتل المرتد و رجم المحسن و غيرها مما ثبت جوازه بدليل منفصل ، والاستثناء متصل إن كان عن القتل المطلق و منقطع إن كان عن القتل المقيد بالتحريم ، هذا وقال سيد الحكماء

لعلّ معناه : ولا تميّنوا النفس المجردة التي حرّم الله موت ذاتها بالجهل .
وهو أعظم داهية من موت بدنّها بهلاك الرّوح الحيواني إماتة الجهالة والغواية
والاضلال و الابتعاد عن سمت الرّشد و سبيل القدس ، ولا تخرجوها عن حياة
جوهرها الحقيقية بالعام والمعرفة إلّا بحقّ سوء استعدادها الفطري ونقص جبلتها
الغريزي (ذلكم) إشارة إلى ما مرّ ذكره مفصلاً (وصيّكم به) أي بحفظه و رعايته
ولا يخفى ما في التعبير عن التكليف بالنوصية من اللّطف المقرب إلى القبول
(لعلكم تعقلون) فوايد هذه الشكايف و تبصرون بعيون البصائر منافعها المترتبة
عليها في الدّنيا والآخرة ، فانظر أيّها اللبيب كيف مدح الله سبحانه العقل والعقلاء
الذين هم الغايات الذاتية للايجاد بما لهم من الحكمة النظرية (١) التي هي إدراك
السموات والأرض و ما بينهما من الأمور المذكورة والتّصديق بأحوالها والانتقال
منها إلى مبدعها ، وفي هذه الآية بما لهم من الحكمة العملية التي هي العلم
بأصول الشرايع وقوانينها والعمل بها للإشارة إلى أن كمال الانسان إنّما يحصل
بتكميل القوّة النظرية بصور الحقائق وتخلّيها بنور العرفان وتكميل القوّة
العملية بمعرفة الشرايع وتخلّيها عن الرّذائل والنقصان ليحصل له بذلك البيّجة
والسرور الدّنيويّة والفوز بالسعادات الأبدية الأخرويّة (وقال: هل لكم) هذا

(١) الحكمة هي العلم بأحوال الوجود بقدر الطّاقة البشرية وقسموها إلى ما يبحث
عن الموجودات التي ليست بقدرتنا واختيارنا، وإلى ما يبحث عن الموجودات التي هي
بقدرتنا وهي أعمالنا والأولى هي الحكمة النظرية والثانية الحكمة العملية . والحكمة
النظرية تنقسم إلى الرياضيّ والطبيعي والالهي ، والرياضيّ آلة أو مقدّمة لسائر العلوم
والعملية تنقسم إلى الاخلاق و تدبير المنزل و سياسة المدن ، والوجه الذي يرغب به في
تعلم العلوم الطبيعيّة التوسّل بها إلى معرفة الله تعالى فالطبيعي أيضاً مقدّمة للعلم الإلهي و
بالجملة فالطبيعي ينقسم إلى سبع الكبان و علم العناصر والمواليد الثلاثة و كائنات الجوّ
وعلم الافلاك و علم النفس وأشاد إلى جميعها فيما مر من الآيات الكريمة وإن الحكمة علم
مرغوب فيه ونبه عليه الشارح - رحمه الله - «ش»

بعض آية صدرها «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم» أي «متزاعاً ذلك المثل من أحوال أنفسكم التي هي أقرب الأمور إليكم فالاعتبار بحالها أولى وأقرب من الاعتبار بحال غيرها وإنما لم يذكره ^{في الآية} لأن ما ذكره لكونه مثلاً لا يحتاج إليه ويتم المقصود بدونه وفيه دلالة على جواز الاستشهاد ببعض آية أو بعض حديث إذا كان تام الفائدة والمطلوب نفى شريك الباري، وهو كما يثبت بدلائل عقلية ونقلية توجب انتقال النفس من معقول صرف إلى معقول وإذ عانها بها كما مر من الآيات والبيانات الظاهرة، كذلك يثبت بالأمثال الجزئية المحسوسة لأنها تكشف الممثل له وترفع الحجاب عنه وتبرزه في صورة المشاهد المحسوس ليساعد فيه الوهم والعقل ويتفقا عليه فإن المعنى الصرف إنما يذكره العقل مع منازعة الوهم لأن الوهم من طبعه الميل إلى المحسوس وحكاية المعقول به، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات المبلغاء وإشارات الحكماء وكتب المصنفين مشحونة بذكر الأمثلة الجزئية لأن أكثر الأفهام قاصرة عن إدراك حقيقة الشيء، إلا في مادة مخصوصة محسوسة (مما ملكت إيمانكم) يعني عبیدکم وإيمانكم (من شركاء) «من» زائدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي (فيما رزقناكم) من الأموال (فأنتم فيه سواء) متفرع على الشركة وحمله على الاستفهام الإنكاري محتمل أيضاً (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) حال عن «أنتم» أو عن ضمير المخاطبين في «رزقناكم» أي والرجال أنكم تخافون من شركة مما لي بكم في أهوالكم واستبدادهم بالتصرف فيها كما يخاف الأحرار بعضها من بعض في ذلك، والاستفهام ليس محمولاً على الحقيقة لأنه على الله سبحانه محال فوجب صرفه إلى المجاز وهو إما إنكار أن يكون مما لي بكم شر كأوهم في ملكهم لينتقلوا من ذلك إلى أنه لا ينبغي أن يكون مملوكه سبحانه شريكاً له بالطريق الأولى أو تقريرهم وحملهم على الإقرار بما يعرفونه من عدم شركة الممالك لأن الاستفهام عن أمر معلوم للمخاطب يستلزم حمله على الإقرار بما هو معلوم له أو استبعاد أن يكون مما لي بكم شر كأوهم لأن الاستفهام عن الشيء يستلزم به وهو يناسب استبعاد وقوعه لأن ما هو قريب الوقوع شأنه أن

يكون معلوماً و المقصود على التقادير كلها هو أنه إذا لم يكن مماليتكم مع نقصانكم و شدة حاجتكم شركاءكم فيما لكم من أموالكم مع أنهم مثلكم في الصورة والسيرة و قابلية التصرف لا يكون مماليتكم الحقّ جلّ شأنه مع شدة ضعفهم و كمال نقصهم شركاءهم في الالهية واستحقاق العبادة مع كمال قدرته و نهاية عظمتهم و عدم المشابهة بينه و بينهم بالطريق الأولى (كذلك) أي مثل ذلك التفصيل التمثيل الذي يرفع الحجاب و يكشف المعاني و يوضحها (تفصل الآيات) الدالة على وحدانية الصانع و استحقاقه للعبادة دون غيره (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم الصحيحة في تدبر الأمثال ومعرفة حسن موقعها و مضربها والانتقال منها إلى المقصود ، و فيه دلالة واضحة على شرف العقل وتعظيم العقلاء حيث جعل العقل باعثاً لتفصيل الآيات في الكتاب والعقل مقصوداً من التكلم والخطاب لأنّه يستفيع به دون غيره فلو لم يكن عقل ولا عقل لم يكن تفصيل ولا خطاب بل لم يكن كون و لا مكان ولا إيجاد ولا زمان .

(يا هشام ثمّ وعظ أهل العقل) و زهدهم عن الدنيا (ورغبهم في الآخرة) بعد دلالتهم على توحيد الذات والصفات بالآيات والبيّنات (فقال : وما الحياة الدنيا إلاّ لعبٌ ولهو) شبه القلب في الدنيا والأعمال المختصة بها باللعب والله وساعة قليلة لا شترأ كهما في الإبتاع بالامتنعة و في المنع عما يورث منفعة أبدية ولذة حقيقية من الأعمال للآخرة (وللدنار الآخرة) خير من الدار الدنيا لعدم زوالها ودوام منافعها ولذاتها بخلاف الدنيا وذلك لأنّ الحقيق الدائم خير من العظيم المنقطع فكيف إذا كان الأمر بالعكس (للذين يتّقون) من الشرك والمعاصي ، أو من الدنيا وزهرتها و أعمالها الشبيهة بالله واللعب (أفلا تعقلون) التفاوت بين الدنيا والآخرة ولا تعلمون أنّ الآخرة خير من الأولى أو التفاوت بين أعمالها ولا تعلمون أنّ أعمال الأولى بمنزلة اللهو تعب بالامتنعة ، و أعمال الثانية تورث منفعة دائمة غير منقطعة ، و الهمة للابتكار وإنكار النقي إثبات والمعنى أنتم تعقلون هذا التفاوت فوجب عليكم أن لا تستبدوا بالذي هو أدنى بالذي هو خير والغرض من الآية ذكر فضيلة

العقل ، ونحن نقدم قبل بيانها الكلام في شيئين.

الأول : في الزهد في الدنيا وهو ضد الرغبة فيها وقد فسّر الزهد في بعض الأحاديث بأنه الحب في الله والبغض في الله وترك طول الأمل وترك حطام الدنيا وزينتها وعدم الالتفات إلى حرامها وهو يوجب معرفة القلب بحلاوة الإيمان وتفرغه للآخرة كما قال الصادق عليه السلام : « حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا » (١) وقال : « ألا إنّه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا » (٢) وقال : « كل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط وإنّما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة » (٣) ومن ادّعى رغبته في ثواب الآخرة وهو حريص على الدنيا فهو كاذب لأن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « علامة الراغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الدنيا أما إن زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقص ممّا قسم الله عز وجل فيها وإن زهد ، وإن حرص الحريص على عاجل زهرة الدنيا لا يزيد فيها وإن حرص ، فالمغبون من حرم حظّه من الآخرة » (٤) ، إن الزهد بالمعنى المذكور عمل يتوقّف على العلم بأحوال الدنيا وانتقالاتها وعدم ثباتها ودوامها والعلم بأحوال الآخرة ودوام سعادتها وشقاوتها فإذا حصل هذا العلم وصار له ملكة أمكن الوصول إلى مقام الزهد بتوفيق الله تعالى.

الثاني في التقوى وقد فسّره الصادق عليه السلام : « بأن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك » (٥) ، وبعبارة أخرى ذكر الله عند ما أحلّ و حرّم فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها فهو عبارة عن فعل الطاعات وترك المنهيات والثاني أهم من الأول لأن الثاني يفيد في نفسه وينمو معه الأول وإن قلّ ، والأول بدون الثاني لا ينفع كما صرّح به صاحب العدة (٦) ، وفي خبر معاذ دلالة

(١ و ٢ و ٣ و ٤) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب ذم الدنيا والحرص فيها تحت رقم

١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ على الترتيب .

(٥) المجند الخامس عشر من بحار الأنوار ج ١٥ ص ٩٥ من القسم الثاني .

(٦) أي عدة الداعي لابن فهد الحلي - رحمه الله - .

عليه و دلّ عليه أيضاً روايات أخر، ثم التقوى خصلة عظيمة أوصى الله سبحانه بها الأولين والآخرين كما قال «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا الله» و أثني عليها كما قال : «وإن تصبروا و تتّقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور» وهي توجب حفظ النفس والمال من الأعداء كما قال : «وإن تصبروا و تتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً» و توجب النصر من الله تعالى كما قال : «إن الله مع المتّقين» و توجب محبته كما قال : «إن الله يحب المتّقين» و توجب إكرامه كما قال : «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» و توجب إصلاح العمل كما قال : «يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله و قولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم» و توجب قبول العبادة كما قال : «إنّما يتقبل الله من المتّقين» و توجب البشارة عند الموت كما قال «الذين آمنوا و كانوا يتّقون لهم البشري في الحيوة الدّنيا و في الآخرة» و توجب النجاة من شدايد الدّنيا و الرزق الحلال كما قال : «ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب» و توجب تيسير الحساب كما قال : «و ما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء» و توجب النجاة من النار كما قال : «ثمّ ننجيّ الذين اتّقوا» و توجب الخلود في الجنة كما قال : «أعدت للمتّقين» و بالجملة هي حكمة عمليّة مركبة من العلم والعمل توجب محبة صاحب الله تعالى و محبة الله تعالى لصاحبها و لا تحصل إلّا بمعرفة مصالح الجوارح و الأعضاء و مفاسدها و اكتساب الأوّل و ترك الثاني و ذلك بأن يعرف مثلاً مصالح القلب و مفاسدها و يكتسب العقائد الصحيحة و يجتنب عن العقائد الذميمة و يعرف مصالح اللسان و مفاسده و يكتسب الأقوال الصحيحة و يجتنب عن الأقوال الباطلة و على هذا القياس في سائر الأعضاء و لا يكفي العمل بدون العلم لأنّه يوجب الخطأ و البعد عن الحق كثيراً مثلاً : و لا العلم بدون عمل فإنّ من به داء و علم أنّ هذا الدّواء ينفعه و ذلك يضرّه و استعمل الثاني و ترك الأوّل لا يتنفع علمه بل يصير سبباً لدمّه و لو لم عرفاً و شرعاً بل اللوم عليه أشدّ و أعظم من لوم الجاهل بمنافع الدّواء و مضاره ، كما يرشد إليه قول مولانا الصادق عليه السلام : يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم

ذنب واحد (٢).

إذا عرفت هذا فانظر إلى العقل كيف فضله الله تعالى وشرّفه حيث جعله حاكماً على أفعال جميع الجوارح والأعضاء يميز بين صحيحها و سقيمها و حسنها و قبيحها ، يقبل الصحيح والحسن ويردّ السقيم والقبيح حتى يحصل له بذلك السلطنة العظمى والفضيلة الكبرى وهي الوصول إلى غاية مدارج الزهد و نهاية مناهج التقوى ، فيمشي على بساط الحق في الآخرة والأولى . وإلى العاقل كيف عظّمه و كرّمه حيث جعله مخاطباً بهذا الوعظ الشريف والخطاب المنيف تنبيهاً على تمامه و كماله و إنافه رتبته وحاله و على أنه يمتنع به دون غيره ممن صاد لقوة جهله و ضعف عقله ذليلاً و في عدم صلاحية الخطاب كالأنعام بل هو أضل سبيلاً .

(يا هشام ثم خوف الذين لا يعقلون) أى خوف الذين لا يستعملون عقولهم في الاعتناء بأحوال الماضين والاعتبار من استيصالهم للشرك وارتكاب المعاصي والقبائح ولا يتبعون الرسول فيما جاء به من التوحيد والصفات وغيرهما من المعارف و الشرايع (عقابه) بتدمير أمثالهم و إنزال الرجز عليهم من السماء ليمنعوا عن الأعمال الشنيعة والأفعال القبيحة (فقال عز وجل ثم دمرنا الآخرين) بعد تنجية لوط وأهله إلا أمرأته فإنها كانت من الغافرين ، وكيفية تدميرهم أنه اقتلع جبرئيل عليه السلام قريتهم لاسوء صنيعتهم بجناحه من سبع أرضين ومعه من الملائكة ديكائيل وإسرافيل وكروبيل ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب و صياح الديكة . ثم قلبها و أمطر عليها وعلى من حولها حجارة من سجيل (وإنكم) يا أهل مكة أو أهل الضلالة (لنمرّون) في مناجرتكم و مسافرتكم إلى الشام (عليهم) أى على منازلهم فإن قريتهم وهي سدوم بفتح السين في طريقه بين القدس والكرك (مصبحين) أي داخلين في الصباح (وبالليل) أي بالمساء . يعنى داخلين في هذا الوقت أو نهاراً وليلاً . قال القاضي وغيره : لعلها وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحاً والمقاصد لها مساء (أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقل تعتبرون

به و تعلمون أن تدميرهم و إهلاكهم لمعصية ربهم و مخالفة رسولهم لكي تطيعوا ربكم و تتبعوا رسولكم فيما جاء به من التوحيد والشرائع و تتركوا الشرك و المعصية و تنجوا من وبال الدنيا و نكال الآخرة، والآنكار المنويخ على عدم استعمالهم العقول في الاعتبار والاستبصار يمثل هذه الآية الجليلة الدالة على وخامة حال أهل المعصية (وقال إنا منزلون) من الانزال على القراءة المشهورة وقرأ ابن عامر بالتشديد (على أهل هذه القرية) هي سدوم قرية قوم لوط عليه السلام وهذا خطاب الملائكة معه بدليل قوله تعالى قبله وولمّا أن جاءت رسالتنا لوطاسي، بهم وضاق بهم ذرعاً و قالوا لانخف ولا تحزن إنا منجّوك و أهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين و إنّما قدم التنجية على التعذيب لوجوه سنحت لي: الأول أن التنجية من آثار الرحمة والتعذيب من آثار الغضب وقد سبقت رحمته غضبه. الثاني أن إشارة أحد النقع العايد إليه أدخل في السرور من بشارته بالضرر العايد إلى عدوه. الثالث أن في التنجية إشارة إجمالية إلى العذاب فإذا وقع العذاب بعده وقع بعد الطلب والواقع بعد الطلب أهم وأوقع في النفس وأدخل في التعظيم. الرابع أن لا يتطرق الحزن إلى خاطره عليه السلام إذ لو قدم تعذيب أهل القرية على تنجية المؤمنين كان ذلك موهماً ابتدأ لتعميم العذاب و شموله كل من فيها (رجزاً من السماء) أي عذاباً و اختلفوا فيه فقل: هو حجارة من سجيل، وقل: هونار، وقل: هو قلب الأرض وجعل عاليها سافلها والمراد بانزاله إنزال مبدئه والقضاء به من السماء لأعينه (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم و فيه دلالة على استمرارهم فيه و عدم انزجارهم عنه أصلاً، و إنّما على التعذيب بالفسق دون التنجية بالإيمان و نحوه لأن الرحمة بالذات فلا يحتاج إلى التعليل بخلاف الغضب فإنه أمر عرضي نشأ لعلة (ولقد تركنا منها) أي من القرية (آية بيّنة) دالة على سوء عاقبة الفاسقين، وقل: هي حكايتها الشائعة، وقل: هي آثار الديار الخربة، وقل: هي الحجارة الممطورة بعد قلب الأرض فأنها كانت باقية بعده، وقل: هي الماء الأسود فأن أنهارها

صارت ممدودة (لقوم يعقلون) أي لقوم لهم عقل و بصيرة فيستبصرون و يعتبرون أن الفسق يوجب خراب الدنيا و عقوبة الدنيا والآخرة .

(يا هشام إنَّ العقل مع العلم) المراد بالعقل هنا نور يعرف بمحقق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر وهو العقل بالفعل أو العقل المستفاد ، والعلم هو هذه المعرفة والاختفاء في التلازم بينهما و عدم انفكاك أحدهما عن الآخر و إنما أكدته مع ظهوره دفعاً لتوهم ما هو المتعارف عند الجمهور حيث يقولون لمن له رؤية و كياسة في أمور الدنيا أنه عاقل فإنَّ تلك الرؤية ليست بعقل بل هي شيطنة و نكراء وما هو المتعارف عندهم أيضاً حيث يطلقون العقل على الغريزة التي يتميز بها الإنسان به عن البهائم فإنَّ ذلك يتحقق في الصبيان والجهال مع أنهم معزولون عن المدح والكمال بل المراد به ذلك النور الذي لا يفارق العلم والعرفان والعقلاء هم العلماء الربانيون والحكماء الإلهيون (١) الذين قال الله تعالى في شأنهم ويؤتيهم الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً (فقال و تلك الأمثال) أما مثل سبحانه حال الذين اتخذوا من دون الله أولياء و اتكلموا عليهم و اعتمدوا بهم بحال العنكبوت اتخذت بيتاً في الزهر والضعف فكما أن الثاني لا يقي الحر و البرد وينهدم بورود أدنى شيء عليه كذلك الأول لا يدفع حرَّ العذاب عنهم يوم القيمة ولا يقيم شرَّ ذلك اليوم ولا ينهدم أساسه بالكلمة بورود صرصر غضب الله عليهم عقبه بقوله وتلك الأمثال إشارة إلى المثل المذكور ونظائره من الأمثال المذكورة في القرآن المجيد (نضربها للناس) تقريباً لما بعد من أفهامهم و تفهيماً لما شرد

(١) قوله : « والحكماء الألبون » مدح الحكماء تعظيم الحكمة لا ينافي ما تقدم منه و ما يأتي في بعض عباراته من نخطئة الفلاسفة لأن الغرض من ذم الفلاسفة العقلة منهم كما ذكرنا لا الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه . و الحكماء أنفسهم يتبرمون ممن يتناول الحكمة و ليس له باعل و ليس له هم الاحتفاظ الاصطلاح و سبهم الفارابي الفيلسوف البهرج - (ش)

عن أذهانهم إذا المثل يبرز المعقول بصورة المحسوس و ذلك أسهل في التفهيم وأجدر في التعليم لمن ألفت طبعه بالمحسوسات و اشتمأز عقله عن المعقولات و لذلك قال سيد المرسلين نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم (١) (وما يفتلها إلا العالمون) لأنهم يعرفون بنور بصيرتهم و ضياء سريرتهم حسن مبانيها و لطف معانيها و كيفية ارتباطها بالمقصود و طريق دلالتها على المطلوب و ينتقلون من ظاهرها إلى باطنها و من محسوسها إلى معقولها بل يجدون عالم المحسوس كله مثلاً لعالم المعقول و يعلمون أن كل صورة محسوسة في هذا العالم لها صورة حقيقية و حقيقة عقلية في العالم المعقول يرشد إلى ذلك ما نقل عن أبي جعفر (عليه السلام) حين سأله النضراني فقال له : أخبرني عن أهل الجنة كيف صاروا يأكلون ولا يتغوطون أعطني مثلهم في الدنيا فقال (عليه السلام) : « هذا الجنين في بطن أمه يأكل مما تأكل أمه ولا يتغوط » (٢) وما نقل عن بعض أئمتنا (عليهم السلام) حين سئل عن الأجساد المعادة يوم القيمة هل هي عين الأولى أو غيره قال : لأعينه ولا غيره ، فقبل : أخبرني عن مثله في الدنيا فقال مثل اللبنة المضروبة بقالب مخصوصة فإنها إذا كسرت و ضربت تارة أخرى بذلك القالب ليست عين الأولى ولا غيرها (٣) وبالجملة ما من صورة في الدنيا إلا وله حقيقة في عالم العقول والآخرة (٤) و ما من معنى حقيقي فيهما

(١) الكافي كتاب العقل والجهل - ح ١٥ .

(٢) رواه الرازي في الخرائج والجرائح ص ١٩٧ في حديث طويل .

(٣) راجع بحار الأنوار المجلد الثالث باب اثبات الحشر و كيفية ص ١٩٠ إلى ٢٠٠ .

(٤) قوله « في عالم العقول والآخرة » ما في عالم العقول وهما الآخرة حقيقة وما في الدنيا صورة لها وتلك الحكم والمصالح والجمال التي نراها في الموجودات الدنيوية ليست الا ظلال لوجود حقايقها في ذلك العالم الا ترى أن الخاتم اذا كانت كتابته حقة جيدة كان النقش الذي يرسم به على القرطاس خطأ حسناً وظل الجسم مثله في الشكل كذلك كل وجود في الدنيا كالنقش في القرطاس من خاتم روحاني ولا يعرف ذلك الا الراسخون في

إلا وله مثال وصورة في الدنيا ولا يعلم ذلك إلا العلماء الراسخون في العلم الناظرون إليها بنور العقل، وأما الجهال فهم الغافلون عن ذلك ولا يعلمون إلا ما هو ظاهر محسوس بل لا يدركون من الظواهر إلا ما يدركه سائر البهائم فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

(يا هشام ثم الذين لا يعقلون) مدارك أصول العقائد ولا يفهمون ما نطقت به الشريعة من فروع القواعد (فقال: إذا قيل لهم) الضمير للناس في قوله تعالى: «يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان» على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة للتنبيه على بعدهم عن رتبة الخطاب بسبب ملوكهم

في العلم وسائر الناس يملكون ظاهراً من الحقيقة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون و أين الطبيعة من نقش ألوان ريش الطاووس لولا أن ذلك عكس اما كس جميل روحاني بدا صورته فيه كشف الغاتم و لذلك نقول لا يبيح ولا يحر في الوجود كما امر، ويتبادر الى الذهن من هذه العبارة ان عالم المقول وعالم الآخرة واحد في مقابل الدنيا و أن حقيقة واحدة تكون في الدنيا مثلاً وصورة ، و في الآخرة او عالم المقول معنى حقيقياً و ربما يتوهم الجاهل من انمال هذه العبارات أن فأنها معتقد للمعاد الروحاني فقط دون الجسماني اذ جعل عالم الآخرة عالمه عقلياً وأن عالم الاجسام عنه هو الدنيا دون الآخرة و ليس مرادهم نفى المعاد الجسماني قطعاً بل الشارح و انراة فأنهم يتجسم الاعمال و المعاني الجردة والاعتقادات في الآخرة كما امر النصريح به منه و سيصرح به أيضاً و تعبيراتهم هنا مبنية على ذلك فأجسام عالم الآخرة باعتبار ان منشأ وجودها هو الاعمال الصالحة و الملكات الحسنة أمر حقيقي معنوي و باعتبار أنفسها أجسام اخروية أيضاً و الاجسام المنيوية تحفظ حقيقتها و ماهيتها في الآخرة و تبطل عنها صورتها و مثالها المنيوي كما مثل بالمينة المضروبة فأنها اذا كسرت بطلت عنها صورتها الأولى و يبقى حقيقتها و هي الطين فيضرب بصورة اخرى غير الصورة المنيوية (ش) .

طريق التقليد الذي هو خارج عن منهج الصواب وإنما عقَّب الآية المذكورة بهذا الدَّم
 للتحذير على التقليد من جملة خطوات الشيطان (اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) قيل المأمورون
 بالاتباع هم المشركون فالوصول حينئذ عبارة عن القرآن وما اشتمل عليه من
 أصول الشرايع و فروعها ومواعظها و نصائحها مما ينظم به نظام الدنيا والآخرة
 وقيل : هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فالوصول على هذا
 يشمل التوراة أيضاً لأن التوراة أيضاً تدعو إلى الإسلام والإقرار بنبيتنا ﷺ و
 بما أنزل الله سبحانه إليه (قالوا : هل نتبع ما ألفينا) أي ما وجدنا (عليه آباؤنا)
 قدم الظرف على المفعول به لقرب المرجع أو لقصد الحصر أو للاهتمام لاشتماله
 على ضمير دينهم الذي هو مستحسن عندهم (أولو كان آباؤهم) الهمة لانكار فعل
 مقدّر والتعجب منه والواو للمحال و معناه أتتبعون آباءهم والحال أن آباءهم
 (لا يعقلون شيئاً) من الحق مثل صفات الواجب و أفعاله و كتبه و رسله و ما جاء
 به رسله مما يكمل به نظام الخلق عاجلاً و آجلاً (ولا يهتدون) إليه لعميان
 بصيرتهم و فقدان ضياء سريتهم ويجوز أن يكون الواو للمعطى على ذلك المقدّر
 و جزاء الشرط محذوف و معناه لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون لاتبعواهم
 والآية تدل على وجوب النظر والمنع من التقليد أعني الرجوع إلى الغير والاخذ
 منه بغير بصيرة مطلقاً خرجت الفروع بالإجماع كما قيل فبقيت الأصول مندرجة
 تحت المنع هذا إذالم يعلم ذلك الغير صادقاً محققاً وإما إذا علم كالأَنْبياء و
 الأوصياء فاتتباعه واجب ولا يسمى ذلك تقليداً في العرف بل هو اتباع لما أنزل
 الله ، قيل : وجوب النظر شرعاً محال لأنه لو وجب النظر فأما على العارف وهو
 تحصيل الحاصل أو على غيره و هو دور لتوقف وجوب النظر على معرفة إيجاب الله
 إياه وهي متوقفة على معرفة ذاته وهي متوقفة على معرفة وجوب النظر واجب
 بأن معرفة إيجابه متوقفة على معرفة ذاته باعتبار ما وبوجه من الوجوه والمتوقف
 على وجوب النظر هو معرفة ذاته بوجه أتم أقول : هذا لو تمّ فإنما يتم في وجوب
 النظر على صفاته و أفعاله وآثاره وأما على أصل وجوده فلا ، لأن معرفة إيجابه

متوقفة على معرفة ذاته والتصديق بوجوده كما لا يخفى والأحسن أن يقال معرفة ذاته لا يتوقف على وجوب النظر لجواز حصولها بالنظر وإن لم يجب ومنهم من أوجب التقليد في الأصول و حرم النظر لأن الشبهات في الأنظار كثيرة والنظر مظنة الوقوع (١) في الضلالة وهي في الأصول كفر بخلاف التقليد فإنه أسلم لعدم مشاهدة المقلد تلك الشبهات فوجب لوجوب الاحتراز عن مظنة الضلالة إتقافاً والجواب أنه إن أريد بالتقليد تقليد أهل العصمة عليهم السلام فلا ينبغي النزاع فيه إلا أن ذلك لا يسمى تقليداً ولكن لامشاحة في الاصطلاح وإن أريد به مطلقاً ففيه أن المظنة

(١) قوله: «مظنة الوقوع في الضلالة» قال العلامة المجلسي في كتاب حق اليقين ما مما «اختلفوا في أنه يشترط في الإيمان اليقين أو يكفي الظن القوي وأيضاً في أنه يجب أن يكون بالدليل أو يجوز فيه التقليد وهذان الخلافان متقاربان و ظاهر كلام العلامة و أكثر العلماء أنه يجب تحصيل اليقين بالبرهان وبعضهم ادعى الإجماع عليه إلى أن قال في صدر الإسلام كانوا يكلفون الناس بإظهار العقائد و بأمرهم بالطاعات و العبادات ولا يرضون عليهم دليل الدور والنسب لانه مادة التشكيك ولذلك ترى بعض العباد والزهاد الذين لم يمارسوا تلك المعلوم يقينهم أكمل من أكثر المدققين من العلماء الذين صرفوا أكثر عمرهم في الشكوك والشبهات» إلى آخر ما قال. أقول: ولا ريب أن الصحيح ما ذكره الشارح مع أننا لم نر أحداً نقل في كتاب حديث أو تاريخ أو سيرة أن رجلاً من المسلمين في صدر الإسلام اكتفى في إيمان الكافر بالظن على ما ادعاه المجلسي رحمه الله و شعار المسلمين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله و لفظ أشهد يدل على اليقين ولو قال الكافر اظن ظناً قوياً أن الله واحد و اظن أن محمداً (ص) نبي لم يعد مسلماً في عهد و وقت، فالإجماع على وجوب تحصيل اليقين حق والناس مفعولون على بطلان الدور و التسلسل وإن لم يعرفوا اسمهما ولم يقدروا على تقرير دليل بطلانهما لفظاً وإن قال رجل ولدني أبني ضحك منه الناس لأنهم يظنون الدور ولو قال أنا أملك الأطعمة كلا من الآخر من غير أن يكون لي مملوك ضحكوا منه أيضاً والدالم الذي إيمانه أضعف من العوام ليس عالماً البتة بل هو حافظ للاصطلاحات من غير أن يفهم معناها وقد بين الشارح ذلك في شرح المقدمة أتم بيان (فليراجع صفحة ٥٢ وما بعدها) (ش).

أي مظنة الضلالة تجري في التقليد أيضاً لأن المقلد إما يقلد ناظراً أو مقلداً آخر فعلى الأول يلزم المحذور المذكور وهو الوقوع في الضلالة مع زيادة وهي احتمال كذب الناظر في صدور النظر منه ، وعلى الثاني فامتنان لا ينهي سلسلة التقليد إلى ناظر فيلزم التسلسل وهو باطل أو ينتهي فيلزم ذلك المحذور مع احتمال كذب ذلك الناظر بخلاف ما إذا كان هو ناظراً بنفسه فإنه لا يجري فيه هذا الاحتمال لأن الإنسان عالم بما أدى إليه نظره فالتقليد أولى وأجدر بأن يكون حراماً (وقال مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) هذه الآية في القرآن متصلة بالآية السابقة ولما ذم الكفرة في الآية السابقة بسبب التقليد لأبائهم وعدم متابعتهم أما أنزل الله وعدم التدبر والنظر فيه ضرب لهم مثلاً متضمناً لتشبيههم بالبهايم في عدم فهم المقصود من الخطاب توضيحاً لسوء حالهم ، فإن قلت : الذين كفروا هم المدعوون إلى دين الحق والذي ينعق هو الداعي للبهايم فلا مطابقة بين المشبه والمشبّه به؟ قلت : للناظرين في هذه الآية اختلاف في تفسيرها وحملها ، فمنهم من قد رضافاً ومنهم من حملها على ظاهرها ، فأما الذين قد رضافاً فمنهم من قدره في جانب المشبه وقال تقديره و مثل داعي الذين كفروا وهو الرسول و من يحدوحدوه في إلقاء الخطاب إليهم وعدم فهمهم لما هو المقصود منه وعدم استبصارهم به لأنهم ما كرم في التقليد واستحسانهم دين آبائهم كمثل داعي البهايم الذي ينعق بها وهي لا تسمع إلا دعاءه و نداءه الذي هو تصويت بها ولا تنقف على شيء آخر فقد شبه الكفرة المقلدين في عدم فهمهم لما يسمعون من الرسول بالبهايم التي تسمع الصوت من الراعي ولا تفهم معناه ، و منهم من قدره في جانب المشبه به وقال : تقديره كمثل بهائم الذي ينعق ، و معناه مثل الذين كفروا في عدم فهم ما ألقى إليهم من الخطاب كمثل بهائم الراعي الذي يتصوت بها فنسمع الصوت ولا نعرف مغزاه ، و تحس النداء ولا تفهم معناه والمعنيان متقاربان أو معناه ومثلهم في اتباعهم آبائهم والتقليد لهم على ظاهر حالهم وعدم فهمهم أهم على حق أم على باطل كمثل بهائم الراعي التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته .

و أمّا الذين حملوها على ظاهرها ففيل : معناها مثل الذين كفروا في دعائهم أصنامهم التي لا شعور لها بدعائهم وخطابهم كمثل الراعي الذي ينصوت بالبهائم التي لا تسمع إلاّ دعاءً ونداءً : فقد شبه الأصنام بالبهائم في عدم الفهم المتحقق في الطرفين ؛ وتحققه فيهما و إن لم يكن متوقفاً على قوله إلاّ دعاءً ونداءً ، لكن الغرض من ذكره زيادة المبالغة في التوبيخ والذم إذ لا شبهة في أن من دعى بهيمة لا تسمع إلاّ دعاءً ونداءً عن جاهلاً ضعيف العقل سخييف الرأي ، فمن دعا صنماً لا يسمع شيئاً كان أولى بالذم والسخافة و بما قرّرنا ظهر اندفاع ما أورده القاضي وصاحب الكشاف من أن هذا التفسير لا يساعده قوله إلاّ دعاءً ونداءً لأنّ الأصنام لا تسمع شيئاً و أجاب عنه القاضي بأنّ التشبيه من باب التمثيل المركّب و التشبيه غير معتبر في مفرداته و هذا مدفوع بأنّ التشبيه و إن كان مركّباً لكن المذكور في الجانبين لا بدّ أن يكون له مدخل في التشبيه و إن يكون ما اعتبر في أحد الجانبين ممّا له مناسبة في الجانب الآخر ، وقيل : معناها مثل الذين كفروا في قلّة عقلمهم و ضعف حالهم في عبادة الأصنام كمثل الراعي الذي ينطق بالبهائم فكما أنّ هذا يقضى على الراعي بقلّة العقل فكذا ذاك ، فوجه التشبيه قلّة العقل و قيل : معناها مثلهم في اتّباعهم آباءهم والرّسوخ في دينهم بالتقليد لهم كمثل الراعي الذي ينطق بالبهائم فكما أنّ الكلام مع البهائم عديم الفائدة كذلك التقليد ثمّ بالغ في ذمّهم على التقليد و عدم النظر فيما أنزل الله إليهم .

بقوله (صمّ بكم عمي) رفع على الذمّ من باب التشبيه البليغ أي هم بمنزلة الصمّ حيث تركوا العمل بما سمعوه فكأنّهم لم يسمعوه لفوات الغرض الأصلي منه و هذا كما يقال لعالم لم يعمل بعلمه : إنّه ليس بعالم ، و بمنزلة البكم حيث لم ينكلموا بالحقّ ولم يستجيبوا لما دعوا إليه و قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، و بمنزلة العمى حيث أعرضوا عن الدلائل الساطعة و البراهين القاطعة فكأنّهم لم يشاهدوها وبالجملة لما فات منهم الغرض من السماع والنكلم والإبصار

فكأنه فقد عنهم تلك الآلات، و يمكن حمل الكلام على الحقيقة و ذلك لأنه كما يكون للإنسان مؤمناً كان أو كافراً سمعٌ ظاهريٌّ به يدرك المسموعات و نطقٌ ظاهريٌّ به يتكلم بالكلمات و بصراً ظاهريٌّ به يدرك المبصرات كذلك يكون للمؤمن قوة باطنية بها يفرق بين الحق والباطل وهي من حيث أنها الحاكمة في المسموعات فارقة بين صحيحها و سقيمها تسمى سمعاً عقلياً ومن حيث أنها فارقة بين الأقوال الصادقة والكاذبة تسمى نطقاً عقلياً، و من حيث أنها فارقة بين المبصرات تسمى بصراً عقلياً، وقد يطلق البصيرة على قوة بها تدرك النفس صور الحقائق الكلية بلا آلة و أمّا الذين كفروا، و اتبعوا أقوال آبائهم، و تركوا ما سمعوه من كلام داعي الحق و لم ينظروا فيما شاهدوه من الدلائل فهم فاقدون لتلك القوة العقلية فهم صمٌ بكمٌ عميٌ حقيقة حيث لم يكن لهم سمع و نطق و بصيرة عقلية أصلاً، و نسبة العمى إلى القلب أولى من نسبته إلى العين كما يشعر به قوله تعالى « لا تعمدى الأبصار ولكن تعمدى القلوب التي في الصدور » (فهم لا يعقلون) أي لا يعقلون فرقاً بين الحق والباطل ولا يتفكرون فيما أنزل الله ولا ينظرون إليه بعيون عقولهم ليعلموا أنه الحق من ربهم.

(و قال : و منهم) أي ومن المكذبين الذين سارعوا إلى تكذيب القرآن و ما اشتمل عليه من الحشر والنشر والنواب والعقاب، و سائر ما يخالف دينهم و دين آبائهم قبل أن يقفوا على معانيه وينظروا إلى مبانيه حتى يتبين لهم أنه صدق (من يستمع إليك) إذا قرأت القرآن و علمت الشرايع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً لغلبة الشقاوة عليهم وإحاطة الغواية بهم بسبب التقليد والالاف بالباطل و معارضة الوهم (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) أي أفأنت تقدر على إسماعهم ولو انضم إلى صممهم عدم تفكيرهم شيئاً من الحق لتساو قلوبهم و جمود طبائعهم و خمود أذهانهم حتى صاروا بمنزلة البهائم، فيه تنبيه على أن الإعراض عن نصيح أمثالهم أولى لأن من شرائط النصيحة أن يكون للمنصوح قوة سامعة و بصيرة قلبية فاذا انتفت إحداهما أو كلاهما فالاعراض عنها حريٌ ولذلك

تري الطبيب الحاذق إذا علم استيلاء المرض و عدم قبوله للعلاج يعرض عنه، قيل: هذه الآية تدل على أن السمع أفضل من البصر لأنه قرن ذهبا العقل بذهاب السمع لا بذهاب البصر فالسمع أفضل و يرشد إليه تقديمه فيما قبل أيضاً و يدل عليه أيضاً قوله تعالى: « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع » فجعل السمع قريناً للقلب، والمراد به العقل دل على أنه أفضل، وقوله تعالى: « لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » فأنهم جعلوا السمع مثل العقل سبباً للمخلاص عن السعير، و قيل: البصر أفضل من السمع لأن آلة القوة الباصرة هي النور وآلة القوة السامعة هي الهواء، والنور أشرف من الهواء فالبصر أفضل من السمع، و لأن البصر يرى ما فوق سبع سماوات والسمع لا يدرك ما بعد عنه على فرسخ فكان البصر أقوى، ولأن محلّه الوجه وهو أشرف الأعضاء و للطرفين مؤيدات و تزييفات لا يناسب المقام ذكرها.

(و قال أم تحسب) « أم » حرف عطف في الاستفهام و لها موضعان أحدهما أن يكون متصلة بما قبلها وهي تقع دائماً معادلة لألف الاستفهام ولا تستعمل بدونها نقول: أزيد في الدار أم عمرو و تعلم أن الكائن فيها أحدهما و تطلب التعمين والمعنى أيهما فيها، و شرطها أن يكون أحد المستويين يليها والآخر يلي الهمزة بلا فصل والثاني أن يكون منقطعة عما قبلها خبراً كان أو استفهاماً تقول في الخبر أنها لابل أم شاة يافتي، و ذلك إذا نظرت إلى شخص فتوهمته إبلاً فقلت ما سبق إلى وهبك، ثم أدركك الظن أنه شاة فانصرفت عن الأول و قلت أم شاة بمعنى بل أشاة إلا أن ما يقع بعد « بل » يقين، و ما بعد « أم » مظنون، و تقول في الاستفهام: هل زيد منطلق أم عمرو يافتي، إنما أضربت عن سؤالك عن انطلاق زيد وجعلته عن عمرو والمعنى بل عمرو منطلق، إذا عرفت هذا فنقول: « أم تحسب » عطف على قوله تعالى « أفأنت » في الآية المتصلة به في القرآن العزيز و هي قوله تعالى: « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً » والاستفهام الأول المتقرير والتعجيب، والثاني لانكار الفاعل، والثالث لانكار الفعل و « أم » ههنا

ليست متصلة بانتفاء الشرط المذكور ، بل هي منفصلة إضراب عن الأول إلى ما هو أشدّ مذمّة منه حتّى ، حقّ بالأضراب عنه إليه ، والمعنى بل أتجسّب (أن أكثرهم يسمعون) آيات القرآن و الحجج المنزلة المنحدّي بها (أو يعقلون) معانيها الدّقيقة و لطائفها الخفيّة و حقايقها الجليّة و فيه قطع لاهتمامه بشأنهم و طمعه بإيمانهم و خصّ الأكثر بالذكّر لأنّ منهم من عرف الحقّ و آمن به ، و منهم من عرفه و أنكره عناداً أو استكباراً أو خوفاً على قوّة الرّياسة (إن هم إلّا كالأنعام) و في عدم انتفاعهم بما يقرع آذانهم من الآيات و عدم تدبّرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات وفيه تنبيه على أنّ تميّز الإنسان في الحقيقة عن غيره من الحيوانات ليس بحسب الصورة المحسوسة بل بحسب الحقيقة الإنسانية التي بها يدرك المعقولات المفصّلة و يميّز بين الحقّ والباطل فإذا فسدت تلك الحقيقة و بطل فعلها ارتفع التميّز و حصل التشابه (بل أضلّ سبيلاً) من الأنعام لأنّها تنقاد لأصحابها و تميّز المحسن إليها من المسيء ، و تطلب ما ينفعها و تجتنب عما يضرّها و هؤلاء لا يتقادون لربّهم ، ولا يميّزون إحسانه من إساءة الشيطان ولا يطلبون ثوابه الذي هو أعظم المصافع ، ولا يجنبون عن عذابه الذي هو أشدّ المضارّ و لأنّها لم تعتقد حقّاً ولم تكتسب خيراً ولم تعتقد باطلاً و لم تكتسب شرّاً بخلاف هؤلاء ، فإنّهم اعتقدوا باطلاً و اكتسبوا شرّاً ، و لأنّ جهالها لا تضرب باحد و جهالة هؤلاء ، تهيج الفتن و تصدّ الناس عن الحقّ ، و لأنّها تتخلّص بالموت و نفوسهم الشريرة باقية أبداً منالمة محزونة منكوسة إلى أسفل السافلين ، و لأنّها غير متمكّنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذمّ و هؤلاء مقصّرون مستحقّون للبعد عن حضرة القدس .

و توضّح ذلك أنّ للأنعام صورة ظاهريّة محسوسة و حقيقة باطنيّة معدّة لأفعال مخصوصة و آثار معلومة و تلك الصورة دائماً مطابقة لهذه الحقيقة لا تتعدّها إلى غيرها ، مثلاً الأسد أسدّ بحسب الصورة و بحسب الحقيقة الباطنيّة السبعيّة ، والدّئب دئبّ بحسب الصورة و بحسب الحقيقة الباطنيّة الضاريّة ، والحمار حمار

بحسب الصورة و بحسب الحقيقة الباطنية الناهقية ، وتلك الحقيقة لا تقدر أن تبطل آثارها و خواصها بخلاف الإنسان فإنه إنسان بحسب الصورة والحقيقة الروحانية والقلبية وهي مستعدة لاكتساب الصديقين اكتساب الخير والشر وقابلة للتجلى بالفضائل والتدنس بالرذائل ، فإذا اعتقد شيئاً أو فعل فعلاً واستمر فيه صار ذلك ملكة يصدر منها الأفعال بسهولة وتلك الملكة صورة باطنية فإن كانت ملكة الفضائل طابقت الصورة الظاهرة تلك الصورة الباطنة ويتبرق في ذلك الإنسان إلى أن يتصل بملاء الروحانية ويصير من أصحاب اليمين ويعد من السابقين ، وإن كانت ملكة الرذائل والكفر والزندقة خالفت الصورة الظاهرة تلك الصورة الباطنة ويتنزل الإنسان بذلك إلى أسفل السافلين ويصير من أصحاب الشمال ويعد من الخاسرين ، فصورته الظاهرة صورة إنسان و صورته الباطنة صورة كلب أو خنزير أو سبع أو شيطان أو أخس منها ولكن لا ترى هذه الصورة في الدار الدنيا لكونها دار النباس و دار تدليس و دار تكليف إلا من منحه الله سبحانه و تعالى بزيادة بصيرة قلبية بمجاهدات نفسانية و رياضات جسمانية و مكاشفات روحانية ، فإنه قد يظهر له هذه الصورة على ما هي عليه في نفس الأمر لكن لا من حيث أنه في هذا العالم بل كأنه في عالم آخر بين العالمين (١) ولقد رأى بعض الصالحين - ممن أصدقهم في عقائدهم و أعمالهم - جماعة من الناس في جنب كل واحد منهم كلبٌ بحقيقة الكلبية و صورته ، له ذنب و أذن و عينان و رأس و فم و شعر مثل الكلب المشاهد . وأما دار الآخرة فلمّا كان موطن بروز الحقائق بصورها الذاتية بالانبياس يحشر بعض الناس على صورة القرود والخنزير أو الكلاب أو الذرّ ، فأولئك لعدم المطابقة بين ظاهرهم و باطنهم و إبطالهم الحقيقة الإنسانية وإفسادهم قوة الاستعداد للسعادة الأخروية أضلّ من الأنعام بالمطابقة بين ظاهرها و باطنها و عدم إبطالها الحقيقة الحيوانية و

(١) وهو عالم البرزخ المتوسط بين العالم المادي المحسوس وعالم الآخرة وصور عالم البرزخ ذات مقدار مجرد عن المادة بخلاف صور هذا العالم فإنها مادية وبخلاف صور العالم الروحاني المجرد عن كل شيء (ش).

و القوّة الاستعداديّة.

(و قال لا يقاتلونكم) ضمير الخطاب للرّسول و من معه من المؤمنين و ضمير الغائب لليهود والمنافقين إذ وعد المنافقون اليهود بالنصرة على قتال المؤمنين (جميعاً) أي مجتمعين في محاربكم (إلا في قرى محصنة) بالحصون والقلاع و الدّروب والخنادق (أو من وراء جدر) لشدة رهبتهم منكم، وأما توهمّ منه أن يكون ذلك لضعف حالهم و قلة عدّتهم و عدّتهم دفعه على سبيل التكميل بقوله (بأسمهم بينهم شديد) يعني ليس ذلك لضعف حالهم و قلة شوكتهم إذ يشدّ بأسمهم إذا حارب بعضهم بعضاً بل لأنّ الله تعالى قذف الرّعب في قلوبهم و الرّعبة في صدورهم (تحسبهم جميعاً) أي مجتمعين في المحاربة متفقين على الألفة والمحبة (وقلوبهم شتى) أي متفرقة غير متفقة في الأمر لاختلاف عقائدهم و افتراق مقاصدهم ، و ذلك يوجب اختلافهم في الأمور و فيه تقوية للمؤمنين وتحريضهم على القتال (ذلك) أي تشتّت قلوبهم و هذا و إن كان معنى غير محسوس لكن لظهور آثاره أعني تباين كلماتهم و افتراق شملهم صاد بمنزلة المحسوس فاستحقّ الإشارة إليه (بأنّهم) أي بسبب أنّهم (قوم لا يعقلون) إذاً العقلاء، متوافقون في أمر ظاهر و باطناً و قلوبهم غير متفرقة فيه لأنّ دينهم واحد بخلاف الجبلاء ، لأنّ طرق الجبل متعددة فلا جرم قلوبهم متفرقة متفاوتة بحسب تفاوت أغراضهم ، و لذلك قيل : العقل فنّ واحد والجنون فنون ، ويحتمل أن يكون المراد أنّهم قوم لا يفقهون ما فيه صلاحهم وبقاء شملهم وإنّ تشتّت قلوبهم يوجب وهنهم و افتراقهم ، ففي الأوّل إشارة إلى علّة التشتّت و في الثاني إلى عدم علمهم بغايته ، و لك أن تجعل ذلك إشارة إلى شدة بأسهم بينهم واختيارهم قرى محصنة خوفاً من المؤمنين يعني أنّ كلّ ذلك لعدم عقلهم إذاً العقلاء لا بأس بينهم بل هم كنفس واحدة ولا يخافون إلا الله ولا يهربون إلاّ منه ، وهؤلاء أشدّ رهبة في صدور المؤمنين من الله عزّ شأنه.

(و قال وتنسّون أنفسكم) الواو للمعطف على تأمرون في قوله تعالى وتأمرون الناس بالبرّ أو للمحال عن ضمير الجمع والهمزة للتنبيه على الضلال أو للانكار و

والتوبيخ بمعنى لا ينبغي أن يكون ذلك أول للتعجب أو للنقير والتنبيت، والبرّ الصّلاح. وقيل النّخير، وقيل التوسع في الخير من البرّ وهو الفضاء الواسع، وبالجملة هو يتناول كلّ خير والآية نزلت في جماعة كانوا يأمرّون الناس بطاعة الله تعالى وهم كانوا يتركونها ويقدمون على المعاصي، وقيل: كانوا يأمرّونهم بالصّلاة والزّكاة وهم كانوا يتركونها، وقيل: نزلت في أحبار اليهود كانوا يأمرّون من نصّحوه في السرّ من الأقارب وغيرهم بالتّباع عند التّابعين وهم لا يتّبعونه، وقيل: كانوا يأمرّون الناس قبل بعثة الرّسول بالتّباعه فلمّا بعث أنكروه، وعلى التقادير لا يختصّ الذّم بمن نزلت الآية فيهم بل يجري فيمن يقتفى أثرهم إلى يوم القيمة لأنّنا قد بيّنا في أصول الفقه أنّ خصوص السبب لا يختصّ بالحكم، والمعنى أمّرون الناس بما فيه صلاحهم في الدّنيا والآخرة وتتركون أنفسكم منه كالمنسيات وتفعلون ما فيه فسادها فيهما (وأنتم تتلون الكتاب) أي القرآن على أن يكون الخطاب لطائفة من المسلمين فإنّ فيه وعيداً على ترك البرّ والصّلاح ومخالفة القول للمعلّم مثل قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» أو النورية على تقدير أن يكون الخطاب لأحبار اليهود فإنّ الوعيد المذكور موجود في النورية أيضاً إذ الكتب الإلهيّة كلّها مازلة لتكميل الخلق ومشمّلة على ما فيه صلاحهم في الدارين وأمّا تعميم الكتاب بحيث يشمل الكتب المدوّنة في الأحكام كما زعم فغير مناسب إذ لم يعمد في القرآن إطلاق الكتاب عليها (أفلا تعقلون) أي أتصنعون ذلك فلا تعقلون قبحه وشناعته حتى يمنعكم عنه فكأنّه لا عقل لكم إذا عقل يمنع عن الإقدام به ولقبح ذلك وجوه الأوّل أنّ من ارتكب ذلك كان قوله مناقضاً لفعله وهو مستقبح من العاقل الثاني أنّ الغرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير والاحسان إليه والاحسان إلى نفسه أولى من الاحسان إلى الغير فمن أمر ولم يأمر ونهى ولم ينه فقد ترك ما هو الأحسن بالنسبة إليه ولا يليق ذلك بالعاقل، الثالث الغرض من الأمر والنهي ترويض الدّين وهو بفعله يريد عدم ترويجه فقد جمع بين المتناقضين

وهو غير واقع من العاقل ، الرابع الأمر لأمحالة يريد نفاذ أمره في القلوب و فعله يوجب عدم نفاذه لأنه ينقر القلوب عن القبول فقد نقض مراده بفعله والعاقل لا يفعل ذلك و لذلك ورد «أنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زالت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفا (١)» . الخامس أنّه إذا أمر بشيء أظهر للناس علمه بذلك الشيء فإذا تركه كان لومهم به أشدّ و ذمهم به أبلغ من لوم من تركه تجاهلاً أو بالعلم ، و لذلك ورد أنّ عقوبة العالم إذا لم يعمل أعظم من عقوبة الجاهل (٢) .

السادس أنّه بقوله يقول لهم افعلوا و بفعله يقول لهم لا تفعلوا فقد أتى بالمتناقضين والعقل يأباه . ثم المراد بالآية حث الواعظ على تركية نفسه و تهذيبها والإقبال عليها بتقديسها و تكميلها ليقومها أولاً ثم يقيم غيره و لذلك كان بعث الأنبياء بعد تكميل نفوسهم الفدائية ، لامنع الفاسق عن الوعظ كما زعم لأنّه مأمور بشيءين أحدهما ترك المعصية و الثاني منع الغير منها و الإخلال بأحد التكليفين لا يوجب الإخلال بالآخر ، دلالة الآية على النهي عن الجمع بينهما و تحريمه غير مسلمة لجواز أن يكون النهي راجعاً إلى نسيان النفس مطلقاً لا إلى نسيانها منضمّاً إلى الأمر بالمعروف ويشعر بذلك قوله **فليحذر** و قال : «و تنسون أنفسكم» حيث رتب الذم عليه ولم يذكر صدر الآية ، وفيه دلالة أيضاً على جواز الاستشهاد ببعض الآية إذا كان تامّ الفائدة فيقيم جواز ذلك في الحديث بالطريق الأولى .

ربما هشام ثم ذم الله الكثرة فقال : وإن طمع أكثر من في الأرض في عقايدهم و أقوالهم و أعمالهم (يضلوك عن سبيل الله) إذ الحق له سبيل واحد لا يسلكه إلاّ العارف العالم الراسخ في علمه و ورعه وهو قليل جداً و أمّا الباطل فله طرق متكثرة يسلكها أكثر من في الأرض على مطايا الغواية والجهالة ومراكب الغباوة والضلالة و يدعون إليها من اقتفى آثارهم و تتبع أطوارهم ولا يأمرونه إلاّ بما

(١) - يأتي في كتاب العلم باب استعمال العلم تحت رقم ٣ .

(٢) راجع باب « لزوم الحجة على العالم و تشديد الأمر عليه » فيما يأتي من كتاب العلم .

فيه هواهم ولا يرشدونه إلا إلى مقاصدهم ومناهم، كما دل عليه قوله تعالى: "كل حزب بما لديهم فرحون" والآية كما دلت على أن إطاعة الأَكْثَرِ سبب للضلالة كذلك دلت على أن مخالفتهم سبب للمهداية وعلى هذا لا يجوز متابعة الأَكْثَرِ إلا إذا كان هناك دليل على حقيقتهم فالمتبع حينئذ هو الدليل دون الكثرة من حيث هي ولا يجوز التمسك في الأحكام بمجرّد الشهرة وكثرة القائلين بها ولا تأييدها به والله أعلم.

(وقال ولئن سألتهم أي الذين يعبدون غير الله سبحانه (من خلق السموات والأرض ليقولن الله أي ليقولن خلقهن الله فحذف المسند بقريضة سؤال محقق و الدليل على أن المرفوع فاعل والمحذوف فعله أنه جاء عند عدم الحذف فسي مثل هذا الكلام كذا كقوله تعالى: "و لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم" وقوله تعالى "قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة" ويحتمل أن يكون المرفوع مبتدأ والمحذوف خبر أي الله خلقهن ليطابق السؤال في الإسمية ولأن السؤال عن الفاعل لا عن الفعل وتقديم المسؤول عنه أولى وأعم، وإقرارهم بذلك على سبيل الإلجاء والاضطرار لوضوح الدليل المانع من اسناد خلقهن إلى غير الله تعالى (قل الحمد لله على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان عقائدهم وأعمالهم في باب الشريك أو على حفظك وعصمتك من مثل هذه الضلالة (بل أكثرهم لا يعلمون) أي لا يعلمون أن ذلك يلزمهم، أولا يعلمون ما اعترفوا به ببرهان عقلي و دليل قطعي لأن كونه تعالى خالق السموات والأرض نظري لا يعلم إلا بالبرهان وهم معزولون عن العلم به و إنما اعترفوا به اضطراراً و كل من ادعى علماً نظرياً بلا نظر استحق أن يلام بالسفاهة ويدّم بالجهالة، أولا يعلمون ما تريد بنحميدك عند مقالته، أولا يعلمون أنهم يتناقضون حيث يقرّون بأنه خالق السموات والأرض ثم يشركون به غيره، أولا علم لهم أصلاً حتى يقرّوا بالتوحيد بعد ما أقرّوا بما يوجب، وفيه ذمٌ عظيم للمجهلة الذين انصرفوا عن طريق الحق و سلكوا طريق الضلالة، و مدح بليغ للعلماء الذين يميّزون بين الحق و الباطل و يسلكون

سبيل الهداية وإرشاد إلى كيفية الاستدلال على التوحيد.

(و قال : ولئن سئلهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) هذا مثل السابق فيما ذكرناه وفيه دلالة على شرف العقل و عظم قدر الإيمان و وجوب معرفة المنعم و أداء حقوقه و أن أكثر الناس معزولون عن هذه الأمور لا يعقلون أن المنعم الحقيقي هو الله تعالى شأنه ولا يعرفون أن الحمد على النعمة لا يستحقه إلا هو.

(يا هشام ثم مدح القلة) يعني أن الممدوح من الناس وهو المؤمن الحقيقي العالم العامل المهدب للظاهر والباطن قليل نادر جداً وقد دللت على قلته الآيات المتكثرة والآيات المعتبرة المتواترة كما يظهر ذلك لمن تأمل في أحاديث الكفر والإيمان و دللت عليه التجربة أيضاً (فقال و قليل من عبادي الشكور) قيل: الشكر في اللغة فعل ينمي عن تعظيم المنعم بسبب إنعامه ، و في العرف صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه فيما أنعمه لأجله . أقول : الظاهر أن النسبة بينهما عموم من وجه لتحقيق الأول في صرف اللسان وحده مثلاً في مقابلة النعماء دون الثاني إذ قد اعتبر فيه صرف جميع الجوارح ، و تحقق الثاني في صرف الجميع لا في مقابلة النعمة بل لأجل كمالاته الذاتية وتحقيقهما جميعاً في صرف الجميع بازاء النعمة ولكن القوم صرحوا بأن الأول أعم مطلقاً من الثاني لأنه كلما يتحقق صرف الجميع بازاء النعمة يتحقق صرف واحد بازاؤها أيضاً من غير عكس ، وأورد عليه بأن هذه النسبة إنما يتم لو اعتبر في الثاني كونه في مقابل النعمة ولا إشعار به في التعريف : و أحجب عنه تارة بأن هذا التقيد يستنبط من تعليق الحكم بوصف الانعام الصالح للعلية ، ورد ذلك بأنه يلزم منه أن لا يكون الخالص شاكرين ولا واسطة بين الشكر والكفران ، وتارة بأن المراد بكونه في مقابل النعمة أن يكون بازاؤها وإن لم تكن ملحوظة للمشاكرك ومحصلة أن إنعامه هنا عرقية لاحقيقية ، ويمكن دفعه أيضاً بأن مفهوم التعريف مطلق والإيراد المذكور وارد بالنظر إلى ظاهره ، إذا عرفت هذا فنقول : الشكر بكلا المعنيين منزلة عظيمة ومرتبة جليلة

والمانع فيه قليلٌ جداً ، و بالمعنى الثاني أعظم لأن حصوله يتوقف على العلم بالله و صفاته و أفعاله والتصديق بالرّسول و خواصّه و كماله و بجميع ما جاء به من الشرايع والآداب مع العمل بها وتهذيب الظاهر والباطن عن الأخلاق الرذيلة ورداها ، و مجاهدة النفس الأمّارة بدفع متمنّياتها و هواها ، وقال الشريف في حاشية المطالع قبل : وبهذا المعنى يعنى بالمعنى الثاني ورد قوله تعالى هو قابل من عبادي الشكور » وقال بعض المحققين : بل الظاهر أنّه بالمعنى الأوّل و تكون القلّة ناشئة عن المبالغة المستفادة من الشكور كما هو المعروف من أنّ النقي والاثبات في الكلام راجعان إلى القيد ، وأمّا المعنى الثاني فلا يتصور فيه المبالغة ، لأن المراد به صرف الجميع في الجميع فيكون الشكور بهذا المعنى ممتنع الوجود لقليلاً ، واو سلم استقامة حملة على هذا المعنى فلا يتعيّن لجواز حملة على المعنى الأوّل أيضاً ، وأجاب عند المحقق الدّواني بأن صرف الجميع في الجميع ينفاتون بحسب استغراق الأوقات و عدمه و تحقق المبالغة في استغراق الأوقات بأن ينحقيق صرف الجميع في الجميع في أكثر الأوقات أو في جميعها ، ثمّ أورد على نفسه بأن صرف الجميع في الجميع في أكثر الأوقات أو في جميعها ممّا لا يتصبر ضرورة أنّه لا يمكن صرف جارحة اللسان مثلاً في وقت من الأوقات في جميع ما خلق لأجله كالذّكر والنصيحة و إنذار الأعمى من البئر إلى غيرها ، وأجاب بأن جميع ما خلق لأجله هو جميع ما كلف به و في ذلك الوقت فهم شاكرٌ بالمعنى الثاني وإذا استمرّ على ذلك الوصف في جميع الأوقات أو في أكثرها فهو شكور ، وأجاب عن المنع المذكور بأن المعنى اللّغوي غير محتمل لأن المبالغة فيه ليس قليلاً لصدور البسمة و الشهادتين وغيرها من الأفعال والأقوال المنبئة عن تعظيمه سبحانه عن كثير من العباد. أقول: كما أنّ صرف الجميع في الجميع ينفاتون بحسب استغراق الأوقات و عدمه كذلك صرف البعض فيتحقق المبالغة فيه أيضاً بأن يصرف البعض في أكثر الأوقات أو في جميعها ولا شبهة في أنّ الصّارف بهذا الوصف قليلٌ بالنسبة

إلى المصارف في وقتها ؛ نعم هو كثير في حد ذاته و بالنسبة إلى صارف الجميع في الجميع في معظم الأوقات ولا يقدح شيء من ذلك كونه قليلاً بالنسبة إلى الصارف في وقت ما فكمما يجوز إرادة المعنى الثاني في الآية يجوز إرادة المعنى الأول أيضاً فليُتأمل (وقال : و قليل ما هم) الضمير راجع إلى الموصول في قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات » أي المؤمنون العاملون للصالحات قليلون جداً ، و « ما » من يدلة الإبهام و التعجب من قلتهم و سبب القلة أن الله سبحانه خلق أعضاء الإنسان على مقتضى حكمته البالغة بحيث تصلح أن تناول الخير والشر فإن اليد تتناول الضرب و البطش و الإعطاء و المنع و غيرها من الأفعال الصادرة منها ، و الرجل يتناول المشي إلى سبيل الحق و الباطل ، و البصر يقدر أن يدرك المصنوعات العجيبة و المبدعات الغريبة التي دلت على وجود صانعها و قدرته و حكمته . و أن يدرك المحرّمات من الصور و غيرها و السمع يصلح أن يسمع الآيات و البيّنات المحرّكة للسير إلى الله تعالى ، و أن يسمع الهزل و اللغو و الأقوال الكاذبة الموجهة للبعد منه و من رحمته ، و قدس عليها البواقي و جعل النفس واسطة بين القوة الشهوانية و الغضبية و غيرها من القوى الطبيعية الحيوانية و بين القوة العاقلة و الملكية ، و هي بالأولى تحرص على تناول اللذات البهيمية الفانية كالقهر و الغلبة و الشره و الشبق (١) و العداوة ، و التهجم على الغير بالضرب و الشتم و تستعمل الأعضاء و الجوارح في وجوه الشر و الضلالة و إذا استمرت على ذلك صارت شيطانياً و احدثت بزمرة الشياطين و ترجع إلى أسفل السافلين ، و بالثانية تتناول اللذات الملكية الباقية مثل العلوم الحقيقية و الخصال الحميدة المؤدية إلى السعادات الأبدية و تستعمل الأعضاء و الجوارح في وجوه الخير و تستكمل السياسة البدنية و إذا استمرت على ذلك شاركت الملائكة المقربين في فضائلهم ، و زاحمت الأنبياء و المرسلين في منازلهم ، و تستحق أن تخاطب بآياتها النفس مطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية - و إلى هذين الطريقين أشار سبحانه بقوله « و هديناه النجدين »

و بقوله «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً» ولكن النفس بالذات لما كانت مائلة إلى اللذات آنسة بالمحسوسات، واللذات الفانية الدنيوية لذات حاضرة محسوسة ظاهرة واللذات الأخروية لذات غائبة عقلية مخفية صارت النفوس كلها مائلة إلى الدنيا وزخارفها باغواء الشياطين وغلبة الشقاوة والهوى عليها حتى خرجوا عن الدين، و اندرجوا في سلك الشياطين، و اتصفوا بالخسران الممين، أو خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، و صاروا من المذنبين إلا من عصمه الله وأخذت بيده العناية الأزلية و نور قلبه بنور الحكمة والايمان و أفاض عليه مياه الكرامة والاحسان وطهر ظاهره بالأعمال الصالحة وحلّى باطنه بالأخلاق الفاضلة وهذا القليل الوجود جداً كما أشار إليه مولانا الصادق عليه السلام بقوله : «المؤمننة أعز من المؤمن والمؤمن أعز من الكبريت الأحمر» ، فمن رأى منكم الكبريت الأحمر الأحرر (١).

(قال : وقال رجل مؤمن من آل فرعون) من أفراده . قيل : هو ابن عمه ، و قيل : كان قبطياً من قومه ، و قيل : كان من بني إسرائيل ويرجع الأول لفظ الآل لأنه يطلق على القريب كما قال سبحانه : «إلا آل لوط نجيتناهم بسحر» وهو صفة ثانية لرجل ، و قيل : هو متعلق بقوله (يكنم إيماناً) هذا صفة ثالثة على ما قلنا ، و صفة ثانية على ما قيل ، و هذا القول بعيد لأنّه يلزم الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي ، اللهم إلا أن يجعل « يكنم إيماناً » حالاً و هو بعيد جداً . و لأنه لو كان كذلك لكانت تأخيرته أولى إزدواجه لتقديمه إلا الحصر و هو غير مناسب للمقام و لأن كتمان الايمان دل على ثبوت الايمان مثل مؤمن ، فكان الأ نسب أن يذكر بعده بالأفضل ، فإن قلت : فعلى هذا لو كان صفة كان الأ نسب أيضاً تأخيرته عن الصفة الثالثة ، قلت : نعم ولكن في تأخيرته إخلال ببيان المعنى المقصود لأنه يتوهم حينئذ أنهم صلة « يكنم » فلم يفهم أن ذلك الرجل كان من آل فرعون فقدم لدفع هذا التوهم على أن تقديمه أهم لأن إيمانه مع كونه من آل

فرعون كان مستبعداً (أتقتلون رجلاً) وهو موسى عليه السلام والمهزة للانكار إما المتوبيخ أو المتعجب و حملها على حقيقة الاستفهام بعيد (أن يقول) أي لأن يقول أو وقت أن يقول (ربّي الله) وحده لا شريك له و هو يفيد قصر الربوبية على الله ردّاً لقول فرعون أنا ربكم الأعلى فهو من قبيل صديقي زيد والغرض من ذكر الآية الكريمة أن الله سبحانه وصف رجلين من بين كثيرين لا يعلم عددهم إلا هو بالايمان و مدحهما به (وقال ومن آمن) عطف على أهلك في قوله تعالى وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول، ولاءً أوحى إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن و أمره بعمل السفينة و أخبره بأهلاك قومه بالغرق شرع عليه السلام في عمل السفينة ، فلما تم عمله و جاء أمر الله تعالى و فارتدّوا أمره بأن يحمل معه في السفينة من كل نوع من الحيوان ذكرًا و أنثى و أهله إلا ابنه كنعان و أمّه و أن يحمل فيها المؤمنين فحمل عليه السلام فيها زوجين من كل حيوان و كل من آمن (وما آمن معه إلا قليل) قيل : كانوا ثمانية مقاتلاً و في ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بها لأن هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها و هذا القول بعيد و قال في الكشاف روي عن النبي صلى الله عليه و آله قال : كانوا ثمانية نوح و أهله و بنوه الثلاث و نساؤهم ، و عن ثمانين إسحق كانوا عشرة خمسة رجال و خمسة نسوة و قيل : كانوا اثنين و سبعين رجلاً و امرأة و اولاد نوح سام و حام و يافث و نساءهم وجميع ثمانية و سبعون نصفهم رجال و نصفهم نساء و قال :

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي لا يوجد لهم حقيقة العلم ولا يعلمون استقامة هذا الدّين لعدم تدبّرهم فيه حتّى يحصل لهم العلم باستقامته و بما يتبعها من نظام أحوالهم في الدّنيا والآخرة (وقال أكثرهم لا يعقلون) أي ليس لهم فضيلة العقل أو لا يعقلون الحلال و الحرام وما جاء به رسواهم من المصالح و الأحكام ليندبوا ظاهريهم و باطنيهم و يتصفوا بكمال الانسان و يتركوا ما سوّلت لهم أنفسهم و زينته

لهم الشيطان (وقال أكثرهم لا يشعرون (١)) بما فيه صلاحهم في الدارين وكمالهم في النشأتين وهذه الآيات الثلاث يستلزم مدح القليل وهو المقصود في هذا المقام. واعلم أن الآيات والآيات والآيات الدالة على ذم الكثير ومدح القليل أكثر من أن تحصي ، والغرض من ذكر بعضها هنا أمران : أحدهما بيان أن الضلالة والطغيان صارتا كالطبيعة الثانية للإنسان إلا من عصمه الله من سلوك سبيل الشيطان و نور قلبه بنور المعرفة والایمان وهذا الصنف قليل جداً بل ينحصر في بعض الأعصار في فرد كما قيل في تفسير قوله تعالى «إن إبراهيم كان أمياً» إنه كان وحده مؤمناً وكان سائر الناس كفاراً ، الثاني التنبيه على أن ما وقع بعد نبينا ﷺ من ارتداد أكثر الناس و خروجهم عن الدين و بقاء قليل منهم مثل عمارة و سلمان و أبي ذر و أضرابهم غير مستبعد (يا هشام ثم ذكر أولى الأبواب) أي ذوي العقول الخالصة عن لواحق الوهم و الفشل ، الكاملة بفضيلتي العلم والعمل (بأحسن الذكرك) الذكرك نقيص النيسان و يطلق أيضاً على الصيت والثناء والشرف كما في قوله تعالى «والقرآن ذي الذكر» أي ذي الشرف (وحالهم بأحسن الحلية) أي زينتهم بأحسن الزينة ، أو وصفهم بأحسن الصفة ، والحلية بكسر الحاء المهملة و سكون اللام تطلق على الصفة مثل العلم والشجاعة والسخاوة ونحوها وعلى الزينة من ذهب أو فضة أو لؤلؤ أو نحوها وفي النزير «وتستخرجون حلية تلبسونها» ومن حلي بضم الحاء وكسر اللام وشد الياء جمع حلي بفتح الحاء وسكون اللام وهي ما يتحاى به المرأة ، جمع الحلية حلي مثل الملحمة ولحي وربما ضم (فقال يؤتى الحكمة) قال أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) : «هي طاعة الله ومعرفة الامام» (٢) وهذا القول منه (عليه السلام) إشارة إلى الحكمة النظرية والعملية (٣) وهما خروج النفس من القوة الاستعدادية إلى

(١) ليس في القرآن بلفظ لا يشعرون ولعله مصحف. (٢) راجع تفسير البرهان ذيل الآية.

(٣) هذه الحكمة هي التي آتانا الله لقمان ولم يكن لقمان نبياً ولم ينزل اليه وحى بل كان يعرف الامور بعقله وروى أنه لم يقبل الوحي والنبوة واختار الحكمة و ليست الحكمة أيضاً أخذ علوم الشريعة من نقل رواية الاحكام عن النبي المعصوم إذ لم يختص ذلك بل لقمان بل هو حاصل لكل أحد «ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيراً كثيراً» خاص ببعض عباد الله «ش»

حقيقة العلم والعمل لأن معرفة الامام إشارة اجمالية إلى معرفته على ما ينبغي ومعرفة الرسول وما جاء به ومعرفة الله وما يليق به، وهذه المعارف عبارة عن الحكمة النظرية. وطاعة الله إشارة إلى تخليع الظاهر والمأطن عن الرذائل وتحليلتها بالفضائل وهذه هي الحكمة العملية ويرجع إلى هذا التفسير قول القاضي: هي تحقيق العلم والعمل. وقول صاحب الكشاف: هي العلم والعمل بهما الحكيم عند الله هو العالم العامل. وقول المازري: هي العلم النافع المصحوب بـ ناراة البصيرة وتهذيب النفس. وقول ابن دريد: هي كل ما يؤدي إلى مكرمة و يمنع من قبيح. وقال شيخ العارفين بهاء الملة والدين: هي ما يتضمن صلاح المشأتين أو صلاح النشأة الأخرى من العلوم والمعارف وأما ما تضمن صلاح الحال في الدنيا فيفقط فليس من الحكمة في شيء. وقال مالك: الحكمة هي الفقه في الدين (١) وهذا التعريفان لا يصدقان على الحكمة العملية كما لا يصدق تعريف من قال: هي الإصابة في القول ومن قال: هي طاعة الله تعالى على الحكمة النظرية. (من يشاء) مفعول أول أختبر للاهتمام بالمفعول الثاني وللدلالة على تعظيمه في أول الأمر (ومن يؤت الحكمة) بفتح التاء في القراءة المشهورة على البناء للمفعول لأن المقصود بيان حال المفعولين بخلاف الأول لأن المقصود هنا تعلق الفاعل بالفاعل أيضاً ليتبين أن الحكمة فضيلة الهيبة وموهبة ربانية

(١) بعض مسائل الفقه يتضمن صلاح الحال في الدنيا فقط ودور في المصالح الدنيوية كالقضاء بالشاهد واليمين فإنه لا يحرم حلال الله ولا يحمل حرامه بل المصلحة فيه قطع النزاع ومثله التمسك باصالة الصحة والسلامة وعدم الغفلة في العقود والمعاوضات والانتكحة فإنه لا يغير الأحكام فإذا أوقع البيع والنكاح فافلاعن معناهما أرسها ونسياناً لم يعمل به شيء واقعاً وبحكم بصحة المعاملة ظاهراً، ومنه الحدود والتعزيرات للمصالح الدنيوية ولذلك إذا أسر المعصية لم يكن عليه حد وكذلك الصلاة وأنواع العبادات، فإن الفقه يحكم بصحتها ونظره إلى إسقاط القضاء وهو أمر دنيوي والمتكلم نظره إلى ترتيب الثواب عليه وهو أمر أخروي وهكذا وبين ذلك الغزالي في الاحياء اتم بيان «ش»

للسفوس المستعدة لها ولا تحصل بمجرد الاكتساب وإن كان الاكتساب مدخل فيها (فقد أوتى خيراً كثيراً) التشكير للمنظيم والتكثير جميعاً والوصف بالكثرة للمبالغة والتأكيد و كثرته باعتبار اشتماله على خير الدنيا والآخرة، وفيه دلالة على كمال العلم و علو منزلته و عموم فوائده . لا يقال هذا ينافي قوله تعالى: « ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » لأن قلته بالإضافة إلى علم الواجب لا ينافي كثرته بالنظر إلى ذاته و مدة بقائه وبقاء السعادة اللازمة له (وما يذكّر) أي وما يعلم الحكمه التي أعطاها للسفوس القابلة ولا يعرف قدر تلك النعمة ، أو وما يتفكر في القرآن و ما فيه من حقائق العلوم و دقائقها (إلا أولو الأبواب) أي ذوو العقول الكاملة المائلة عن الدنيا وزهراتها، الآمنة من مكاييد النفس و متمنيات بها، وقد نقل في هذا الكتاب عن الرضا عليه السلام في فضل الامام و صفاته في حديث طويل : « إن الأنبياء عليهم السلام يؤقتهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه و حكمته ما لا يؤتونه غيرهم فيكون علمهم فوق علم أهل زمانهم ثم قرأ هذه الآية (١) (وقال : والراسخون في العلم) رسخ الشيء رسوخاً ثبت و كل ثابت راسخ و منه الراسخون في العلم أي الذين ثبتوا فيه و استقرّوا بحيث لا يؤزّهم شيء من مكاييد الشيطان و متمنيات النفوس و زهرات الدنيا على الخروج عن سبيل الحق بوجه من الوجوه (يقولون آمنا به) أي بالكتاب الذي منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات أو بالمتشابه و هو كلام يحتمل وجوهاً متعددة لا يتضح المقصود منه لأجمال أو مخالفة ظاهر إلا بالفحص الشديد والنظر الدقيق . والمحكم كلام لا يحتمل إلا وجهاً واحداً (كل من عند ربنا) أي كل واحد من المحكم والمتشابه نزل من عند ربنا وهذا كالتأكيد للسابق فلذا فصل عنه (وما يذكّر إلا أولو الأبواب) أي وما يعلم المتشابه إلا الكاملون في العقول وهم الراسخون في العلم أو و ما يعلم الراسخين في العلم وهم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرون عليهم السلام وما يذكّر أحوالهم إلا أولو الأبواب الذين هم شيعتهم . روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « نحن الراسخون في

العلم ونحن نعلم تأويله» (١) وروى عبد الله بن بكير عنه عليه السلام قال: «الراسخون في العلم أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام» (٢) وروى بر يدين معوية عن أحدهما عليه السلام «أن رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم قد علمه الله جميع ما أنزله عليه من التنزيل والتأويل وما كان لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله الحديث» (٣) روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يندّ كرأولوا الأبواب» قال أبو جعفر عليه السلام: «إنما نحن الذين يعلمون والذين لا يعلمون عدونا وشيعتنا أولوا الأبواب» (٤).

(و قال إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات)
أي لعلامات ظاهرة وأدلة واضحة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وحكمته وتدبيره (لأولى الأبواب) أي لذوى العقول الثاقبة والبصائر النافذة لأنهم لصفاً ضمائرهم نور بصائرهم هم القادرون على التفكير في خلق السموات وما فيها من الثوابت والسيارات وحرركاتها شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً اجتماعاً وافتراقاً إلى غير ذلك من أحوال السماء والسموات وما يترب عليها من المنافع والمصالح ، وفي خلق الأرض وما فيها وما عليها من أنواع المعادن والنباتات والحيوانات و منافعها وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتفاوتهما في الزيادة والنقصان و فوايدها وعلى الاستدلال بهذه الأمور وأمثالها مما لا يحصى على أن لها صناعاً لطيفاً عليماً خبيراً حكيماً قادراً موجداً لها بمجرد إرادته ومشيته بلا مشارة ولا معاونة وأما غيرهم ممن ضعف ضمائرهم وعمت بصائرهم فهم إنما ينظرون إليها نظر البهائم ويدركون منها ما يدركه المخلوقة والسوائم ، ذاهلين عما فيها من عجائب الفطر ولطائف التقدير و غرائب الصنع وبدايع التدبير . قال القاضي : ولعلّ الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغير ، والتغير إما أن يكون في ذات

(١ و ٢ و ٣) الكافي كتاب الحجة باب أن الراسخين في العلم هم الأئمة

عليهم السلام .

(٤) ردا البرقي في المحاسن ص ١٦٩ . وسباني في كتاب الحجة باب من وصفه الله بالعلم.

الشيء كتنغير الليل والنهار ، أو في جزئه كتنغير العناصر بتبدل صورها ، أو في الخارج عنه كتنغير الأفلاك بتبدل أوضاعها ، و قال بعض أهل الإشارة : وخلق السماوات (١) إشارة إلى خلق الأرواح و أطوارها العالية و خلق الأرض إشارة إلى خلق النفوس البشرية و قرارها و تسقلها في مراكز الأبدان ، و اختلاف الليل والنهار إشارة إلى اختلاف ظلمة النفوس البشرية والأنوار الروحية فإن هذه الأمور أدلة واضحة على وجود الصانع لأولى الأبواب ، و هم الذين عبروا بقدم الذكور والفكر عن قشر الوجود انظلماني الفاني إلى لب الوجود الروحاني الباقي فشهدوا بعيون البصائر و نواظر الضمائر أن لهم إلهاً قيّوماً قادراً حياً عليمًا سميعاً بصيراً متكلمًا حكيمًا له الأسماء الحسنى والصفات العليا (و قال : أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) لما ضرب الله سبحانه مثلاً للذين استجابوا لربهم استجابة حسنة وهم المؤمنون العاملون والذين لم يستجيبوا له وهم الكافرون والجاهلون تارة بالماء و زبدته وهو و ضره و درنه و تارة بالفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس و زبدتها وهو خبزها و رديتها و أوضح الفرق بين الفريقين بأن الأول بمنزلة الماء والفلزات الخالصة التي تبقى في الأرض و ينفع بها انتفاعاً عظيماً والثاني بمنزلة زبدتها و درنها يرمى به الماء والفلزات المذابة الخالصة أنكر على من زعم التساوي بينهما بعد ضرب المثل و الايضاح و بين أنه لامساواة بين من يعلم أن ما أنزل إليك من ربك وهو القرآن و ما اشتمل عليه من التوحيد و صفات الواجب والأحكام و أحوال الحشر والنشر و الثواب والعقاب والأمثال وغيرها حق و صدق و يدعن به إذعاناً جازماً ثابتاً ، و بين من هو أعمى القلب فاقد البصيرة لا يهتدي إلى الحق منكراً له أو جاهلاً به بل بينهما مباينة تامة و بعد مفرط كبعد ما بين الماء والزبد والفلزات الخالصة و أخبائها (إنما يتذكر) أي ما يعلم ذلك أولاً يتفكر فيه إلا (أو لولا لباب) و

(١) السماء قد يطلق على العالم الروحاني والمجردات في القرآن والახبار كما

هو ظاهر المستنبع . (ش)

أمّا الكفرة والجهلة الفاقدون للبصائر الذّهنيّة والأنوار العقليّة والسّالكون سبيل النّهي والضلالة فهم بمنزلة البهائم، بل هم أضلّ فطمع التذكّر والتفكّر منهم في المطالب العالية كطمعه من البهائم.

(وقال أمّن هو قانت) أي قائم بوظائف الطاعات من القنوت و هي الطاعة والدّعاء والقيام في قوله عليه السلام : «أفضل الصلوة طول القنوت (١)» والمشهور الدّعاء، و قولهم دعاء القنوت إضافة بيان كذا في المغرب، وقال الجوهري : « القنوت الطاعة هذا هو الأصل ! ومنه قوله تعالى « والقانتين والقانتات » ثمّ سمّي القيام في الصلاة قنوتاً وفي الحديث «أفضل الصلوة طول القنوت» ومنه قنوت الوتر. وقال ابن الأثير في النهاية : « قد تكرر ذكر القنوت في الحديث و يرد بمعان متعدّدة كاطاعة و الخشوع و الصلاة و الدّعاء و العبادة و القيام و طول القيام و السكوت فيصرف في كلّ واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظ الحديث الوارد فيه . قرأ حمزة « أمّن » بتخفيف الميم بمعنى أمّن هو قانت كمن هو ليس بقانت ، و المقصود نفي المساواة بينهما وإثبات الفضل للأوّل ، وقرأ الباقر بتشديد الميم أصله أمّن ادّعت الميم في الميم و«أم» متصلة معطوفة على محذوف دخل عليه حرف الاستفهام تقديره أتارك القنوت خير أمّن هو قانت مثل قولك أزيد أفضل أم عمر وأومقطة بمعنى بل والمعنى بل أمّن هو قانت كمن ليس كذلك قيل: فيه دلالة على أنّ العمل الذي يتصف بسببه الإنسان بالكمال هو ما كان الإنسان مواظباً عليه ، فإن القنوت عبارة عن كون الرّجل قائماً عليه من الطاعات فملاً مواظبة فيه من الأعمال ليس فيه كثير فائدة (آناء الليل) أي ساعاته خصّها بالذكّر مع أنّ العبادة في كلّ وقت فضيلة يتقرّب بها العبد إلى الله تعالى ، و يتميز بها عن غيره لوجوه أوّلها أنّ القلب في الليل فارغ عن المحسوسات المانعة عن السّير إلى الله سبحانه، فيتوجّه إلى ذكره مشاهداً له و لصفاته الذّاتيّة والفعليّة ، و كمال قدرته و غلبته على جميع الممكنات فيحصل له بذلك خوف وخشية بحيث لا يغفل عنه طرفة عين وهذه

الحالة أفضل الحالات والطاعة الواقعة فيها أفضل الطاعات لأن التفاوت في مراتب الطاعات بحسب تفاوت مراتب القلب في القرب والبعد ، وثانيها أن الليل وقت النوم والاستراحة فيكون القيام أشق فيكون الطاعة فيه أفضل وقد دل على هذين الوجهين قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً » وثالثها أن القيام في الليل لكونه أقرب من الخلوص وأبعد من الرياء أفضل من القيام في النهار و رابعها أن النهوض في الليل للعبادة لما كان غير مدافع بطلب المعاش ونحوه كان أكمل من النهوض في النهار وأفضل (ساجداً وقائماً) حالان من فاعل « فانت » ونقل أيضاً قراءتهما بالرفع والخبرية وتعمد الخبر بدون العطف جائز والواو للجمع بين الصفتين ، و تقديم السجود على القيام للاهتمام به لأن السجود أرفع منازل العارفين وأعلى مدارج العابدين كما نطق به الأخبار عن الأئمة الطاهرين (يحذر الآخرة) أي عذابها (ويرجو رحمة ربه) استيناف للتعليل كأنه قيل ما سبب قنوته وسجوده وقيامه فأجيب ببيان سببها أوفي موضع النصب على الحال ولا بد من نكتة في إيراد بعض الأحوال مفرداً وبعضها جملة فعلية ولعل النكتة فيه هو التنبيه على اعتبار استمرار الحذر والرجاء ووجود كل واحد منهما في زمان وجود الأخرى بخلاف السجود والقيام وإنما أثر الحذر على الخوف مع أن الخوف في مقابل الرجاء على ما هو المتعارف لأن الحذر أبلغ من الخوف لأنه خوف مع الاحتراز عن المعاصي وإنما أضاف الحذر إلى الآخرة لا إلى عذابه وأضاف الرجاء إلى رحمة الله للتنبيه على أن الرجاء أفضل وبحضرة الربوبية أليق ولذلك أيضاً أضاف الرحمة إلى الرب والرب إلى الضمير مع ما فيه من الدلالة على الاستعطاف والاختصاص ورجحان الرحمة على العذاب (قل هل يستوي الذين يعلمون) وهم القانتون الموصوفون بالصفات المحمودة المذكورة (والذين لا يعلمون) وهم التاركون للقنوت ، وهذه الآية على هذا التفسير بيان للسابق وإشارة إلى أن منشأ تلك الصفات هو العلم ومنشأ عدمها هو الجهل وتنبيه على شرف العلم والفضيلة وفضل العلماء على الجهال وتفي لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية كما أن

السابق نفى لاستوائهما باعتبار القوة العملية للأشعار بأن الحقيقة الإنسانية إنما تنقسم بالنباهة والجلال وتنصف بالفضيلة والكمال باعتبار العلم والعمل فمن لم ينصف بهما ليس له من وصف الإنسانية إلا اسم ولا من حقيقتها إلا اسم، وإنما أختار العلم عن العمل مع أن العمل تابع له، منوقف عليه للتنبيه على أن العمل هو الغرض الأصلي من العلم حتى أن العالم إذا لم يعمل بعلمه كانت الحجّة عليه أعظم والحسرة عليه أدوم، أولدلالة باختلاف الآثار الظاهرة أعني العبادة وعدمها على اختلاف مبادئها الباطنة أعني العلم والجهل فكان من قبيل اثبات معقول بمحسوس، وقيل: وجه الترتيب بين الأوصاف المذكورة أن الإنسان عند قيامه بوظائف الطاعات ومواظبته عليها ينكشف له في أول الأمر مقام القهر المقنض للخوف والحذر ثم ينكشف له بعده مقام الرحمة الباعث للرجاء ثم يحصل له بعده أنواع العلوم والمكاشفات فالعلم على هذا تابع للأوصاف المتقدمة ولذلك أخره عنها (إنما يتذكر أولو الألباب) يعني أن هذا التفاوت العظيم بين العالم والجاهل وبين القانت وغيره لا يعرفه إلا ذو العقول الكاملة الخالصة عن غواشي الأوهام لأنهم القادرون على التمييز بين الحق والباطل بما لهم من بصيرة عقلية وقوة روحانية دون غيرهم ممن كان على بصائر عقولهم غشاوة وفي صفحات قلوبهم قساوة وقد روي عن الباقر عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية: «نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب» (١) وعن الصادق عليه السلام «أن الآية نزلت في وصف علي عليه السلام ودم أبي الفصيل (٢)» يعني أن علياً عليه السلام لكونه قائماً بالأوصاف المذكورة وعالمها بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله ليس مثله، وهو لا يقتد ولا يعلم ذلك ويقول باطناً أنه ساحر كذاب وما نقلناه معنى الحديث والحديث المذكور في كتاب الروضة قبل حديث الصحيحة.

(١) رواء البرقي في المعائن كما تقدم.

(٢) روضة الكافي تحت رقم ٢٤٦.

(وقال : كتاب أنزلناه إليك مبارك) مبارك بالرفع على القراءة المشهورة صفة للكتاب أو خبر بعد خبر ، و بالنصب على الحالبة في بعض القراءة ومعناه نفع من البركة و هي في الأصل الزيادة والنمو (ليتدبروا آياته) فيعرفوا ما فيه من الشرايع والأحكام والمواعظ والنصائح والبر التي بها يتم نظامهم في الدارين و يصلح حالهم في النشأتين (و ليتذكر أولو الألباب) أي و ليعلم ما فيه من الأسرار الالهية التي لا يهتدي إليها إلا ذو العقول الكاملة و الأذهان الشاقبة وهم أهل العصمة عليهم السلام فإن علوم الكتاب بعضها ظاهر سهل المأخذ يعرفها أكثر العلماء بالتدبر والتأمل فيه ، وبعضها خفي لا يصل إليه إلا أولو الألباب و ذوو العقول الكاملة العارفة عن شوايب النقصان ، و قيل : الكتب الالهية بيان لما لا يعرف إلا بالشرع و إرشاد إلى ما يستقل به العقل والتدبر للأول والتذكر للثاني ، و قيل : الكتاب مشتمل على أسرار عظيمة و معارف لطيفة و فائدة إنزاله أن يتدبر المتدبرون ويفكر المتفكرون آياته ، والغرض الأصلي من التدبر والتفكير وهو النظر و التأمل أن يحصل لهم التذكر أي المعرفة اليقينية بتلك الأسرار والمعارف ، والتدبر لا يستلزم التفكير إذ ربّ متفكر لا ينتهي بفكره إلى المطلوب فالتدبر غير مختص بأولي الألباب ، بل يعمّم و غيرهم بخلاف التذكر فإنه مختص بهم ، فقد ثبت أن غاية إنزاله ليس إلا التذكر المختص بأولي الألباب ، وهذا غاية المدح والتعظيم لهم ، وفيه أن ظاهر العطف يقتضي أن كلاً من التدبر والتذكر غاية مستقلة لانزاله (قال : ولقد آتينا موسى الهدى) أي الدلالة على الدين أو ما يهتدي به إليه من المعجزات والصّحف والشرايع (و أورثنا بني إسرائيل الكتاب) أي التوربة يعني تركناه بعده عليهم يتوارثونه و يأخذونه بعضهم من بعض و يحملونه و يحفظون ألفاظه و مدلولاته اللفظية و معانيه الأولية و أحكامه الظاهرية (هدى و ذكرى) مفعول له لقوله أورثنا أو حال عن فاعله أو عن الكتاب أي أورثناه لأجل الهداية والتذكير أو هادياً ومذكراً (لأولي الألباب) أي لذوي العقول الصحيحة السليمة وهم الراسخون في العلم العارفون بالله و صفاته و أفعاله العالمون بأحوال المبدء و المعاد المشاهدون لها بعبون البصائر

المهندّون لأخلاقهم الظاهرة والباطنة وملخصه أنّ غير أولي الألباب من أهل الكتاب بمنزلة الخدمة لهم يحفظون الكتاب أثلاً يندرس بطول الأزمنة فيبقى محفوظاً لهؤلاء الكاملين في العقول وهم أوصياء موسى عليه السلام وعلماء أمته فهم الممدوحون غاية المدح والتعظيم المقصودون من الثناء والتكريم ، وفيه تنبيه على أنّه سبحانه أورد القرآن في هذه الأمة بعد نبينا عليه السلام هدى وذكرى لأولي الألباب وهم العلماء الراسخون من أمته والأوصياء المرضيئون من عترته لا يفارقهم القرآن ولا يفارقونه حتّى يردوا عليه يوم القيمة كما قال عليه السلام : « إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي ألا وهما الخليفتان من بعدي ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض (١) ».

(وقال و ذكر) لما أمر الله سبحانه نبيه محمداً عليه السلام بالتولي والاعراض عن مجاداة المشركين المنكرين لنبوته المصطفى عليه السلام على إنكار دعوته إلى ما فيه صلاحهم في الدارين وبيّن أنّه ليس بملوم على ذلك الاعراض لبذل جهده في التبليغ بقوله « فنولّ عنهم فما أنت بملوم » وأمره ثانياً بالتذكير والتعليم تسليّة وبشارة له بقوله « ذكره » يعني لا تدع التذكير والموعظة الحسنة (فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين) أي الذين يؤمنون بك ممّن هو في أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات إلى يوم القيمة ، أو الذين آمنوا بك فأنّها تنفعهم وتزيد بصيرتهم وتحبّي أرواحهم وتنور قلوبهم وتصلّي إذهابهم كما أنّ المطر في الأرض القابلة توجب حيوتها وفي ذكر هذه الآية في مقام مدح أولي الألباب إشارة إلى أنّهم هم المؤمنون بالآيمان الحقيقي وهذا غاية المدح والتعظيم لهم .

(يا هشام إنّ الله تعالى يقول في كتابه : إنّ في ذلك) أي فيما ذكر من

(١) أما من طريق العامة أخرجه مسلم ج ٧ ص ١٢٢ والدارمي ج ٢ ص ٤٣٢ و

مسندك الحاكم ج ٣ ص ١٠٩ ونصائص النساء ص ٣٠ ومسنّد أحمد ج ٣ ص ١٤ و ١٧ و

و ٢٦ و ٥٩ و ج ٤ ص ٣٥٦ و ٣٨١ بالفاظ مختلفة وأما من طريق الخاصة فمروى

بطرق متعددة .

خلق السماء و بنائها بلا عمد و تزيينها بالكواكب و مد الأرض و إلقاء الجبال
الرواسي فيها و إنبات أنواع النباتات الحسنة المبهجة و تنزير الأمطار و إنبات
الزروع والأشجار والجنات الرائقات والنخيل الباسقات و إحياء البلاد و إهلاك
بعض القرون السابقة بسبب تكذيب رسلهم مثل قوم نوح و أصحاب الرس و ثمود
و عاد و فرعون و إخوان لوط و أصحاب الايكة و قوم تبّع إلى غير ذلك من
الأمور المذكورة في سورة في (لذكرى) أي لذكورة (لمن كان له قلب) أي
عقل و إطلاق القلب على العقل شايع لغة و عرفاً و بذلك فسره القراء أيضاً في
هذه الآية و من قال: قلب واع يتفكر في الحقائق. أراد به ما قلنا لأن التفكير
من صفات العقل (١) دون العضو المخصوص المتشكّل بشكل مخصوص صنوبري
لأن ذلك موجود في الصبيان والمجانين مع عدم تحقق التفكير لهم وفيه دلالة
واضحة على أن غاية إيجاد هذه العالم وإنزال المواعظ الربانية والنصائح القرآنية
ليست إلا أصحاب العقول الراسخة و هذا كمال المدح والتعظيم لهم.

(و قال و لقد آتينا لقمن الحكمة قال القم و العقل) الفهم العلم تقول :

فهمت الشيء إذا علمته والعقل الجوهر المجرد (٢) الذي يدرك المعاني الكلية
والحقائق المعنوية من عقل البعير عقلاً إذا شدّ بالعقال سمّي به لأنه يمنع صاحبه
عن ارتكاب ما لا ينبغي مثل العقال وإطلاق الحكمة عليهما إن كانت عبارة عما يمنع

(١) قال الحكماء القوة المتخيلة أو المنصرفة أن كان تصرفهما بتدبير العقل سميت

مفكرة و أن كان بتدبير الوهم سميت متخيلة فالتفكر و أن كان قوة من القوى الجسمانية
لكن لا يكون تفكراً إلا بالعقل (ش).

(٢) العقل: الجوهر البجرد هو الذي يقول به الحكماء و الشارح قائل به كما

صرح مراراً و إما ما يفهم من بعض عباراته من عدم الدليل على وجود العقل الذي يقول
به الحكماء فالمراد به بعض ما يلتزم به المشاؤون من كون عدد العقول عشرة و أن كل
عقل صدر منه فلك عقل وما يتوهمه الجاهل من تفويض الواجب فله و قدرته إلى العقل
وغير ذلك (ش) .

من الجهل كما صرّح به في المغرب أو ما يمنع من قبيح ويؤدّي إلى مكرومة كما صرّح به ابن دريد ظاهر لأنّهما يمنعان صاحبهما عن الجهل و القبيح و إطلاقيها على الفهم إن كانت عبارة عن العلم مطلقاً كما صرّح به بعض أرباب اللغة أو عن العلم بالدين كما صرّح به بعض العلماء أو عن معرفة حقائق الأشياء و أحوالها و التخلّق بالأخلاق الحسنة على قدر الطاقة البشرية كما هو المعروف أيضاً ظاهر و على العقل يعني العقل بالفعل من قبيل إطلاق الحال على المجلّ أو إطلاق الأثر على المبدء والمؤثر أو على اعتبار اتحاد بين العقل والمعقول (١) وقال القاضي: هو ابن أخت أيّوب أو خالنه و عاش حتّى أدرك داود و أخذ منه العلم و كان يفني قبل مبعثه ، و قال بعض الأفاضل ناقلاً عن كتاب عين المعاني : إنّه تولّد في عشر سنين من سلطنة داود عليه السلام وعاش إلى أن أدرك يوسف عليه السلام وقيل : إنّه عاش ألف سنة ، واختلف في نبوته فأكثر العلماء على أنّه لم يكن نبياً ، و قيل : كان حبشياً أسود اللون غليظ الشفتين و قيل : ذكر السجّاوندي نقلاً عن أهل السير أنّه كان في بيته وقت القيامة إذ دخل جمع من الملائكة وسلموا عليه فأجابهم ولا يرى أشخاصهم ، فقالوا : يا لقمان نحن ملائكة الله نزلنا إليك لنجعلك خليفة في الأرض لنحكم بين الناس بالحق قال إن كان هذا أمرأحنمياً فالسمع والطاعة وأرجو منه أن يوفّقني و يسدّدني وإن جعلني مخيئراً فأبّي أريد العافية لا التعرّض للفتنة فاستحسنه الملائكة و أحبّه الله و زاده في الحكمة والمعرفة (٢) و من حكمته أنّه

(١) يعني إطلاق الحكمة على العقل لا يخلو عن تجاوز بوجه لأن الحكمة هي المعقولات و اما العقل فهو آلة درك الحكمة لانفس الحكمة الا ان يقال باتحاد الماقل والمعقول فيصح حقيقة فان المعقولات نفس العقل حينئذ والانعاد مذهب صدر المتألهين قدس سره و الشارح يرتضى آرائه غالباً و يختارها في هذا الشرح و يعرض عما يحتاج اثباته الى دفع المناقشات و تزييف الاعتراضات . (ش)

(٢) هذا صريح في ان الحكمة التي اوتيتها لقمان لم يكن من النبوة و لا علوم الشريعة المبنية على التعبد بالمعقول فانها لا تختص برجل دون رجل بل كل أحد يستأهلها

صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلمّا أتمّها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت ، و قال : الصمت حكمة و قليل فاعله و إن داود قال له يوماً : كيف أصبحت فقال : أصبحت في يدي غبري مرتين بعملتي ، و أنّه أمره بذببح شاة و أن يأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام امر بأن يأتي بأخبث مضغتين فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبنا .

((الأصل)) :

« يا هشام إن لقمان قال : لابنه : تواضع للحق تكن أعقل الناس و إن ،
« الكيس لدى الحق يسير ، يا بني إن الدنيا بحر عميق ، قد غرق فيها عالم كثير .
« فلتكن سفينةك فيها تقوى الله وحشوها الايمان و شراعها النوكيل و قيمها العقل ،
« و دليلها العلم و سكانها الصبر .
« يا هشام إن لكل شيء دليلاً و دليل العقل التفكير ، و دليل التفكير ،
« الصمت ، و لكل شيء مطيعة و مطيعة العقل التواضع و كفى بك جهلاً أن تتركب
« ما نهيت عنه .
« يا هشام ما بعث الله أنبياءه و رسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله فأحسنهم »

ثم إن يوثبه الله علم الشريعة المنقولة بالسمع و الحفظ و في سورة لقمان حجة قاطعة على من ينفر عن النظر و الحجّة و الأدلة العقلية و علم الكلام و الحكمة رأيت لهما و ربما يتعسف متعسف و يأول الحكمة المدونة في القرآن بعلم الشريعة نقلاً و قد ذكرنا في حواشي منهج الصادقين أن مجلة لقمان الحاوية لبعض حكمه كانت معروفة عند العرب و كانت عند سويدين صامت نسخة منها أراها رسول الله «ص» نقل: عندي أحسن منه وقرأ عليه أشياء من القرآن. و قلنا هناك أيضاً أن لقمان في رواية كان مصرياً و نقل الطنطاوي أسامي جماعة من حكماء مصر القدماء كشفوا أسماءهم و صحفهم في هذه المصوّر واحد منهم قافله والله أعلم «ش».

«استجابة أحسنهم معرفة ، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً . وأكملهم عقلاً أرفعهم ،
«درجة في الدنيا والآخرة».

«يا هشام إن الله على الناس حجتين : حجة ظاهرة و حجة باطنة ، فأما
«الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وأما الباطنة فالعقول»

«يا هشام إن العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره ولا يغلب الحرام صبره».

«يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله : من أظلم»

«نور تفكره بطول أمه و محاط رائف حكمته بغضول كلامه و أظماً نور عبرته»

«بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله ، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه»

«و دنياه» .

«يا هشام كيف يزكو عند الله عملك و أنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك»

«وأطعت هواك على غلبة عقلك».

«يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل ، فمن عقل عن الله اعتزل»

«أهل الدنيا والراغبين فيها و رغب فيما عند الله ، و كان الله أنسه في الوحشة و»

«صاحبه في الوحدة و غناه في العيلة و معزاه من غير عشيرة»

«يا هشام نصب الحق لطاعة الله ، ولا نجاة إلا بالطاعة ، والطاعة بالعلم ،»

«و العلم بالتعلم ، و التعلم بالعقل يعتقد ولا علم إلا من عالم رباني ، و معرفة»

«العلم بالعقل».

«يا هشام قليل العمل من العالم مقبول مضاعف و كثير العمل من أهل»

«الهمى والجهل مردود».

«يا هشام إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة ، ولم يرض»

«بالدون من الحكمة مع الدنيا ، فلذلك ربحت تجارتهم» .

«يا هشام إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب و ترك الدنيا»

«من الفضل و ترك الذنوب من القرض».

«يا هشام إن العاقل نظر إلى الدنيا و إلى أهلها فعلم أنها لا تنال إلا»

« بالمشقة ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة فطلب بالمشقة أبقاهما »
 « يا هشام إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، لأنهم علموا »
 « أن الدنيا طالبة مطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته »
 « الدنيا حتى يستوفي منها رزقه ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت »
 فيفسد عليه دنياه وآخرته.

« يا هشام من أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الجسد والسلامة في الدين، فليتنصرع إلى الله عز وجل في مسألة بأن يكمل عقله، فمن عقل »
 « قنع بما يكفيه ومن قنع بما يكفيه استغنى ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك »
 « الغنى أبداً »

((الشرح)):

(يا هشام إن لقمان قال لابنه : تواضع للحق تكن أعقل الناس) التواضع التذلل من الوضع وهو خلاف الرفع ويحصل ذلك بالاجتناب عن التكبر والافتخار وسائر المنهيات والإتيان بالأوامر والمصالح وسائر الخبرات والتمسك بحول الله وقوته في الحركات والسكنات ولاريب في أن هذه خصلة عظيمة دلت على أن صاحبها من أعقل الناس لأن العقل هو الداعي إليها ويمكن أن يكون المراد أن تواضعك سبب لصيرورتك من أعقل الناس ، ويؤيده ظاهر الشرط المقدر وتوجيه ذلك أن العقل من أفضل النعماء وشكرها التواضع وشكر النعمة يجلب الزيادة كما قال سبحانه « ولئن شكرتم لأزيدنكم » فالتواضع سبب لزيادة العقل وكماله (وإن الكيس لدى الحق يسير) الكيس - بفتح الكاف وتشديد الياء مع كسر هاء - من دان نفسه وعمل لما بعد الموت أي العاقل الذكي المتأنس في الأمور وحسن عاقبتها ، وقد كاس يكيس كياساً وكياسةً يعني أن العاقل الذي يعمل بمقتضى عقله ويطلب ثواب الله ورضاه بتسديد قوته في العلم والعمل عند الحق قليل لظهور أن أكثر الناس تابع للنفس وهواها مشغول ب لذات الدنيا ومقتضاها

كما نطق به الكتاب العزيز في مواضع عديدة والسنة النبوية في مواطن كثيرة ،
 و هذا الحكم وإن كان ظاهراً لكن أمّا كان خلافه أولى صار بهذا الاعتبار محالاً
 للإنكار ، فلذا أكتفه ، ثم لا يبعد أن يكون الغرض من هذه الأخبار هو التنبيه على
 أن الاعتزال عن أكثر الناس أولى وأهم والقرار عنهم أخرى وأسلم ، ويحتمل أن
 يكون الكيس - بفتح الكاف وسكون الياء - وهو العقل والذكاء و حسن النائي في
 الأمور ، واليسير أيضاً بمعنى القليل يعني أن عقل الرجل وذكاء و حسن تأنيبه و
 تدبره عند ظهور الحق و موافاته قليل كما هو المشاهد في أكثر الناس ، والمعلوم
 بالنظر إلى أحوالهم ، قيل : اليسير ضد العسير و معناه أن كياسة الإنسان و هي
 عقله و فطنته سهل هيئن عند الحق لأقدر له و إنمّا الذي له قدر عند الله تعالى
 هو التواضع والمسكنة والخضوع والعجز والافتقار ، فكل علم و كمال لا يؤدي
 بصاحبه إلى مزيد فقر و حاجة إليه سبحانه يصير وبالاً عليه و كان الجهل و
 النقص أولى به ولذلك قيل غاية مجهود العابدين تصحيح جهة الإمكان والفقر
 إليه تعالى فكل عالم كيس [زعم] أن له وجوداً و كمالاً غير ما هو رشح من
 رشحات بحر وجوده وتفضله (١) فهو في عطاء شديد وحجاب عظيم عن درك الحقيقة .
 (يا بني إن الدنيا بحر عميق) هذا تشبيه بليغ بحذف الأداة وحمل المشبه
 به على المشبه للمبالغة في الاتحاد ووجه التشبيه تغيرها وانقلابها واضرابها وعدم
 ثبات ما فيها من صور الكائنات كتغير البحر و انقلابه و اضطرابه بالأعواج
 المتعاقبة أو إهلاك من دخل فيها و ركن إليها و مشى عليها بقدم الضلالة والطغيان
 وأخذها بيد الجهالة والعصيان و هذا الوجه أظهر و لما كان وجوده في الأصل

(١) حقه صدر المتألهين في أكثر كتبه و عليه مبنى حكمته فوجود الممكن ليس
 وجوداً في نفسه و بنفسه وانفسه بل هو نظير الممتنى الحرفي الذي لا استقلال له ولا يمكن
 أن يتصور وحده من غير أن يتصور معه اسم أو فعل و أصل الوجود و حقيقة هو الله
 تعالى و ما سواه ليس بشيء و من لم يعرف ذلك فلم يعرف شيئاً على ما ذكره
 الشارح (ش).

ظاهراً محسوساً بخلاف وجوده في الفرع أوضحه بقوله (قد غرق) أي هلك (فيها عالم كثير) لانهما كهم في لذاتها و انغمارهم في زهراتها و اشتغالهم بشهواتها و إغماض بصيرتهم عن الآخرة و أحوالها و تركهم ما يوجب النجاة عن عقباتها و الخلاص من عقوباتها و جعلهم قوله تعالى فولاتنركم الحيوة الدنيا ولايغركم بالله الغرور من وراء ظهورهم ورضائهم بالذات الحاضرة الهالكه والمنافع المغوية الباطلة بغرورهم فكأنهم لم يسمعوأقوله سبحانه ووعداالله لاينخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمونه فيعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم الآخرة هم غافلون وإنما خص العالم بالذكر لأن هلاكه محل التعجب و أمّا الجاهل فلااعتناء به لعدم انتصافه بالحقيقة الانسانية والمطيفة الروحانية ، أولان حكمه يعلم بالأولوية وفي الكلام استعارة تبعية لأن شبهة الهلاك بالغرق واشتق منه فعل فوقع التشبيه في المشتق بتبعية المصدر وهي تأكيد لتشبيه الدنيا بالبحر باعتبار أنه أثبت المشبهة ما هو من خواص المشبهة به ، ثم في تشبيه الدنيا بالبحر إيحاء لطيف إلى أنه يجب لأهلها أن لايقصدوا الإقامة فيها والركون إليها ، بل يجب لهم أن يقصدوا المرور منها إلى ساحلها أعني دار الآخرة كما أن راكب البحر لا يقصد الإقامة فيه والركون إليه بل غرضه المرور إلى ساحله ، ولما شبه الدنيا بالبحر وكان سائر البحر يحتاج إلى آلات للنجاة منه والوصول إلى الساحل سالماً فانما كان السائر في الدنيا أيضاً محتاجاً في المرور منها والوصول إلى جناب الحق ونعيم الأبد إلى أمور للنجاة منها ، وقد بينت هذه الأمور وشبهتها بتلك الآلات في كونها أسباباً للنجاة بقوله (فلتكن سفينتك فيها تقوى الله) وهي ملكة النجيب عن المعاصي والتزوء عما يشغل السر عن الحق وإنما شبهتها بالسفينة لأن من اتصف بالتقوى وجلس فيها يطفواالدنيا ويأمن من الرتوب فيها كما أن جالس السفينة يطفوا البحر ويأمن من الرتوب فيه (وحشوها الإيمان) بالله وبصفاته وأفعاله وجميع ما أنزله إلى رسوله وإنما شبه الإيمان بما في السفينة من المتاع وأنواع ما يتشجر به لأنه حافظ للتقوى عن الانقلاب والاضطراب مثل ما

في السفينة أولاته ينفع بعد الخروج من الدنيا ، كما أن ما في السفينة ينفع جالسها بعد الخروج من البحر إذ لو حلت سفينة التقوى عن الإيمان بقي صاحبها بعد خروجه من الدنيا فقير مضطراً متحيراً في أمره مستحقاً للمعذاب (وشراؤها التوكّل) شرع السفينة بالفارسية باريان كذا في المغرب والشين مكسورة ، والتوكّل إظهار العجز والاعتماد على الله والثوق به في جميع الأمور وتمويضها إليه وهو درجة عليّة للعارفين ومنزلة رفيعة للمساكين ، من وصل إليها بطلت عنه قيود الغموم ، وتشتت عنه سحاب الغموم ، وارتفعت بواعث الاضطراب ، وانقطعت عنه دواعي الاكتساب ، وسبحت عليه مزن الأمن والإيمان ، وجلس على موائد الرحمة والرّضوان وارتوى من حياض الفيوضات الرّبّانية وشبع من موائد الكرامات الرّحمانيّة وإنّما شبهه بالشرع لأنّ سفينة التقوى المحشوّّة بالإيمان لا تسير بدونه ، إذ من لم يعتقد أنّ الأمور كلّها يجري بأمر الله والأرزاق كلّها بيد الله وأنّه المتكفّل لها يعتقد بأسبابها ويشغل بتحصيل تلك الأسباب فيمنعه ذلك عن السير إلى المقامات العالية وطلب الوصول إليها بالطاعات ويضعف اعتقاده بالمبدئ كما أنّ غير المتوكّل من المسافرين في هذه الدنيا يشغل بتحصيل الأسباب وينتظر وجود القوافل والرفيق حذراً عن عدم القوت وخوفاً عن قاطع الطريق فيبقى مقبماً في آونة من الزّمان منتظراً في مدّة لحصول الأسباب واجتماع الإخوان (وقيّمها العقل) العقل (١) جوهر قلبي قابل لمعرفة الصانع وما يتعلق به ، أي معرفة الآخرة وما يتعلق بها ، وهو مبدئ التقوى وبه ضبطها وحفظها وسيرها ونقل صاحبها إلى ساحة حضرة القدس وقرب الحقّ فهو بمنزلة قيّم السفينة وربّانها (٢) في إصلاحها وضبطها وحفظها من المفساد والخلل الواردة عليها فكما

(١) العقل عند العامة عرض من العوارض النفسانية وعند الحكماء جوهر مستقل وهو الذي اختاره النّارح وأمور الآخرة تدرك بالعقل كما أنّ المبدئ أيضاً يعرف به ولذلك لم يكلف الحيوان وإن قوى حواسه المدركة للجسمانيات بمعرفة المبدئ والمعاد (ش).

(٢) ريان - كرمان - من يجري السفينة .

أنه لو لم يكن للسفينة قيم فسدت أمورها و بطلت أوضاعها و تعطلت أحوالها بحيث لا تصلح لقطع البحر الزاخر و يصير أهلها مشرفاً بالهلاك كذلك لو لم يكن للمتقى عقل ينهدم أساس تقواه إذ لم يتميز عنده الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، و مخاطرات الشيطان من إلهامات الرحمن (و دليلها العلم) الدليل ما يهديك إلى شيء ، سمي العلم دليلاً لأنه يدل العقل على الطريق المستقيم ويهديه إلى المنهج القويم كما أن دليل المسافرين يهدهم إلى سواء السبيل والكواكب دليل قيم السفينة و به يهتدي إلى الطريق بل النسبة بين العلم والعقل آكد من النسبة بين الكواكب والقيم إذ العقل لا ينفك عن العلم فإن نسبته إلى العقل كنسبة النور إلى السراج و نسبة الرؤية إلى البصر (و سكانها الصبر) السكان ذنوب السفينة لأنها بدتقوم وتسكن ؛ و الصبر في الأصل الحبس يقال : صبرت نفسي على كذا أي حبستها ؛ و يطلق على حبسها على الطاعة بأن يربطها عليها ليلاً و نهاراً و يقدم عليها سرّاً و جهاراً ، و على المصيبة بأن لا يجزع ولا يشكو ، و على الفاقة والمسكنة بأن يرضى بها ولا يسأل غير الله سبحانه أصلاً ، و على الغنى بأن لا يغتر به ولا يتكبر و يؤذي الحقوق المالية و على المجاهدات الطويلة و الرّياضات الشديدة بأن يقوم عليها طلباً للوصول إلى المقامات العالية و على الأمراض والبلايا بأن يرضى بها ولا يشكوها وإنما شبهه بالسكان لأنه كما يتوقف سير السفينة و تقويمها و تسديدها و تسكينها و ثباتها بالسكان يعرف ذلك ربانها و قيمها بعلمه و تدبيره كذلك يتوقف سير سفينة التقوى إلى حضرة القدس و قرب الحق في تقويمها و تسديدها و تسكينها و ثباتها بالصبر على الأمور المذكور لظهور أن ارتقاء النفس من حدّ النقص إلى حدّ الكمال ومن المنازل البشرية إلى المنازل الإلهية لا يتحقق إلا بتحوّلات كثيرة (١) وانتقالات عديدة و انقلابات شديدة و مجاهدات عظيمة في مدة طويلة مع النفس المائلة إلى الراحة فيحتاج إلى صبر كامل وعزم ثابت

(١) تعبير قريب المتناول قابل لفهم أكثر الناس عن الحركة الجوهرية التي حققها صدر المتألهين وهي أحد أركان حكمته (ش).

ولذلك أمر الله سبحانه أشرف الكاملين الصديقين الراسخين بقوله «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» وتلك الأمور ستة ضرورة (١) المنجاة من العقوبة الدنيوية والأخروية، والفوز بالسعادة الدائمة الأبدية.

(يا هشام إن لكل شيء) و هو يطلق على الموجودات أو على المعدومات أيضاً عند المحققين (دليلاً) و هو الموجودات عبارة عما يقتضي وجودها أو العلم بها من الأسباب والشرائط والآثار ، وإنما سمي هذا دليلاً لأن الأشياء بسببه تنتقل من العدم إلى الوجود كما أن المسافر بالدليل ينتقل من بلد إلى بلد ، وأما المعدومات فدليلها (٢) عدمي أعني عدم ما يقتضي وجودها فإنه سبب لنقل العدم من آن إلى آن آخر ، و من زمان إلى زمان آخر (و دليل العقل التفكير) في أبواب المعارف وأحوال المبدء والمعاد وما يتبعهما وإنما صار التفكير دليل العقل لأن العقل بسببه ينتقل من عالم الجهالة والسفالة الذي هو منزل الإدبار والمسوخ عند أصحاب القلوب النورانية إلى العلم الحقيقي والعالم العلوي فيستريح عن الذواحق المأسونية ويتحلى بالفضائل اللاهوتية وهذا المعبر عنه بالإقبال كما في بعض الأحاديث (و دليل التفكير الصمت) أي السكون عما لا يعني لأن التفكير أعني حركة الروح النورانية القابلة للمطالب العالية من المبادي إلى تلك المطالب إذا أخذت في الاستدلال أو إدراكها معاً إذا كانت لها رتبة المكاشفة يتوقف على سد طرق الحواس و يحتاج إلى المنع من دخول الأغيار

(١) السنة الضرورية عند الأطباء هي الهواء والطعام الشامل للمشروب والنوم واليقظة والحركة والسكون والاستغراغ والاحتباس والأعراض الفسائية وهي ضرورات الحياة الجسدية والتحول والانتقال والانتقال والمجاهدة مع الصبر والعزم ستة ضرورة للحياة العقلية (ش)

(٢) الدليل سبب لا يقال النعم إلى المدلول وبهذا الاعتبار يسمى دليلاً والعدم الصرف لا يمكن أن يتصور فلا ينتقل إليه الذهن إذ التصور نحو من الوجود والعدم إذا تصور و دل عليه فله نحو من الوجود (ش).

في القلب أمّا على الأول فلأنّ مشرب القلب على ذلك التقدير ضيق جداً فلا يرد فيه من لطايف المعاني إلاّ واحد بعد واحد فإذن دخول الغير من طرق الحواس يمنع ورودها فيه قطعاً ، و أمّا على الثاني فلأنّ القلب لغاية صفائه و نهاية ضيائه يتأثر سريعاً من أنفاس تلك الأغيار و أكدارها فلا ينطبع فيه صور هذه المطالب و من جملة الحواس اللسان و هو أعظمها فإنه يتناول كل موجود و معدوم و معلوم و موهوم و يتعرّض له بنفي و إثبات و هذه الحالة لا توجد في غيره فإنّ اليد لا تصل إلى غير الأجسام والأذن لا تصل إلى غير الأصوات و كذا القياس في البواقي فلذلك خصّ الصمّت بالذكر تنبيهاً على اعتبار حال سائر الحواس أيضاً فإنّ الصمّت ممّا يتوقّف عليه التفكير و هو دليله في انتقاله من القوة إلى الفعل .

(و لكل شيء مطيئة ومطيئة العقل النواضع) المطيئة الدابة التي تمطو في سبورها أي تجدد وتسرع والجمع المطايا والمطي والامطاء ، و في النهاية هي الناقة التي يركب مطاها . أي ظهرها يعني لكل شيء في انتقاله من العدم إلى الوجود أو من القوة إلى الفعل أو من حالة أنقى وأدنى إلى حالة أرفع وأعلى سبب هو كالمطيئة له وسبب انتقال العقل من القوة الذاتية الفطرية إلى العقل بالفعل ومن عالم الغواشي الجسمانية إلى عالم المجردات (١) هو النواضع لله سبحانه والتذلل له عند الوقوف على معارفه والعكوف على نواحيه وأوامره فمن ورد في مكان المعارف والأحكام و لم ينواضع له تعالى فقد فقد مطيئته للمحرّكة إليه و النزول بين يديه فيبقى تائهاً متحيراً في ذلك المكان أو يرجع مدبراً بتناول الأعادي و إغواء الشيطان . و قيل تحقيق هذا الكلام أنّ لكل شيء طبيعة متوجّهة إلى ذاتها و له مادة حاملة لقوّتها و استعدادها نحو كمال هي بمنزلة الراحلة (٢) له ومادة

(١) أشار إلى ما حققه الحكماء من أن لنفس الإنسان أربع مراتب من العقل

الهيولاني إلى العقل بالفعل و من التجسم إلى التجرد و ان النفس في هذه المرتبة مجردة (ش).

(٢) الممكن قسمان أحدهما ما يتغير عن حاله و يطلب كمالاً آخر كالبدن يصير

العقل هي النفس وكل مادة تستعد لكل صورة كمالية فانما تستعدّها لكونها في نفسها خالية عن الفعلية والوجود الذي من جنسها وإلا لم تكن قابلة فكذلك النفس ما لم تصر موصوفة بصفة التواضع والفقر لم تصر مطيعة للعقل الذي هو الصورة الكمالية التي بها تصير الأشياء معقولة للانسان فليتأمل وفي صدر هذا الكلام استعارة مصرّحة وفي آخره تشبيه بليغ (و كفى بك جهلاً أن تتركب ما نهيت عنه) ارتكاب المنهي عنه من آثار الجهل وعلاماته وقد شبهه بالمركوب لأن الانسان بسببه يتقلب في عالم اللذات الجسميّة وينقل إلى أسفل السافلين كما أنّه بالتواضع لله وانقياد أحكامه والعمل بها يتقلب في عالم المجردات ويرتقى إلى أعلى عليين، ففي الكلام استعارة مصرّحة وذكر المركوب ترشيع وقيل في بيان هذا الكلام أن جميع المناهي أمور محسوسة ولذات جسمانية و اشتغال النفس بها يوجب تقييدها بالصور الجسميّة فيحجب العقل عن إدراك الصور العقلية لأنها تضاد تلك الصور ، و ينبغي أن يعلم أن العقل إما مستقيم أو راجع أو مقیم والاستقامة بأن يسير إلى أعلى عليين ومر كبه التواضع ، و الرجوع بأن يسير إلى أسفل السافلين و مر كبه المناهي ، والاقامة بأن يقف في هذا العالم ويشغل بالمباحات، وهذا وإن كان مذموماً من حيث أنّه مفوت للمقصود و لكمّه غير مذموم من حيث أنّه لم يشغل بالمناهي و غير ممدوح من حيث أنّه لم يتصف بالتواضع فلذا لم يذكره ^{في} و اقتصر على الأولين لأن المدح والذم إنما يتعلقان بهما وينبغي أن يعلم أيضاً أن الجهل عند العزرة ^{هو} ارتكاب المناهي وإن كان المرتكب لها عالمًا بل هو عندهم في الحقيقة أجهل و الذم المتعلق به أشنع و أكمل فمن ادّعى كونه عالمًا عاقلاً واختار الدنيا وشهواتها وآثر الزهرات الفانية ولذاتها فهو

به نباتاً ، والثاني مالا يتخير وجميع ما يمكن له من الكمال حاصل من أول خلقته والفسم الاول يحتاج الى مادة بها يستعد لقبول الكمال كما ثبت في الحكمة و الانسان قابل للكمال فله مادة و مادته النفس الهيولانية وهي جسمانية اذا المراد به النفس المنطبعة لا النفس المجردة والنفس المنطبعة نقل بالقوة لا بالفعل ، (ش)

مفتون بالضلالة وملتبس بلباس الجهالة .

(يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله) أي ليعرف العباد و يعلموا بتعليم الرسل وتفهيمهم من الله ما لا يعلمون من عند أنفسهم أوليؤدعي الرسل عند ما لزمه من هداية عباده و إرشادهم إلى دين الحق من عقلت عن فلان إذا أدريت عنه ما لزمه (فأحسنهم استجابة) أي أحسن العباد أو أحسن الرسل استجابة لله تعالى بالطاعة والاجتهاد والصبر والانقياد وكذا ضمير الجمع في الفقرات الآتية يحتمل الأمرين إذ كما أن درجات العباد متفاوتة كذلك درجات الرسل كما نطقت به الآيات والرؤايات الكثيرة (أحسنهم معرفة) بالله و آياته وغيرها من مصالح الدنيا والآخرة ، و ذلك لأن حسن الاستجابة تابع لحسن المعرفة فكلما زاد حسن الأصل زاد حسن الفرع (و أعلمهم بأمر الله) يعني أحسنهم معرفة بأحكامه و شرايعه (أحسنهم عقلاً) لأن حسن العلم والمعرفة تابع لحسن العقل (و أكملهم عقلاً) يعني أحسنهم عقلاً و إنما عبر عنه بذلك المتعقبات و للتنبيه على أن حسن العقل بكماله في العلم بالموجودات والاحاطة بالمعقولات (أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة) لأن تفاوت الدرجات فيهما غاية أخيرة للأمور المذكورة و تفاوت الغاية في الكمال والنقصان باعتبار تفاوت ذي الغاية فيهما وهذا الحديث على ما قررناه من باب القياس المفصول النايح ينتج أن أحسنهم استجابة أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة (١) وفيه مدح عظيم للعقل حيث جعله أصلاً لجميع الخيرات و مبدء للفاضل في الدرجات كما يظهر ذلك بالتأمل المصادق لأنه جعل كمال الدرجات في الدنيا والآخرة الاستجابة كما يقتضيه مضمون النتيجة ، و جعل كمال الاستجابة تابعاً لكمال المعرفة و كمال المعرفة تابعاً لكمال العقل فيفهم منه أن العقل أصل لجميع الكمالات و مبدء للفاضل في الدرجات .

(يا هشام إن الله على الناس حجتين) أي دليلين (حجة ظاهرة) مشاهدة (و حجة باطنة) مسنونة (فأما الظاهرة فالرسل و الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، و أما الباطنة

فالعقول (لما خلق الله جل شأنه النفوس البشرية واسطة بين المتجدين ، مستعدة لسلوك الطريقين طريق الخير وطريق الشر . قابلة للضدين من الصفات الشريفة والسمات الرذيلة مايلة إلى اكتساب الحسنات متشوقة إلى اقتراف السيئات لما فيها من اللذة الحاضرة والمنفعة الظاهرة وأيدها بالقوى الشهوية والغضبية وغيرها من القوى الطبيعية الداعية إلى الشر الناهية عن الخير كانت النفوس لذلك ولما يوحى إليها إبليس وجنوده من الشر أقرب ومن الخير أبعد فآله سبحانه أخذ بأعهم برحمته في تيمم الضلالة بنبيين المنهج وتعيين الحجج ، فجعل عليهم حجنتين إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة ، أمّا الظاهرة فهم الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام لأنهم أنوار ساطعة في بلاده وبراكين ظاهرة في عبادته يدعونهم إلى سبيل النجاة ويخرجونهم من غياهب الظلمات (١) ويحرّكونهم من حضيض النقص والوبال إلى أوج الفضل والكمال ، فمن تبعهم فقد اهتدى ومن تخلف عنهم فقد غوى ، وأمّا الباطنة فهي العقول لأن بها تميز الحق من الباطل والصواب من الخطأ والسعادة من الشقاوة ، والحسن من القبيح والخير من الشر وتأمّرهم في كل ذلك بالتباعد أشرف المناهج وأقوم السبل واستماع ما يتلو عليهم الأنبياء والرسل ؛ ويحكم بأن في ذلك حسن عاقبتهم وسعادة خاتمتهم كل ذلك ليحيى من حي عن بيته ويهلك من هلك عن بيته .

(يا هشام إن العاقل الذي لا يشغل) من شغل لاهن أشغل فأنه لغة رديّة و الموصول خبر « إن » (الحلال) وهو كل ما يجوز التصرف فيه والانتفاع به شرعاً وعقلاً من الأموال والأزواج وغيرها (شكره) أي صرف اللسان في مدح المنعم والثناء عليه ، و صرف جميع الجوارح فيما خلقن لأجله كصرف اللسان في الثناء والتعظيم و صرف البصر في مطالعة المصنوعات ليستدل به على وجود الصانع و وحدته وقدرته وحكمته وتدبيره و صرف القلب في التفكير في ذاته و صفاته و دقائق حكمته و آثار قدرته ، وبالجملة العاقل من لا يمنعه كثرة نعم الله عليه و وفور أياديه لديه

(٢) الغيب - كزريق - الظلمة ، الشدة السوداء من الخيل والليل - جمه غياهب .

عن ذكر الله في جميع الأحوال والأزمان ، و عن الاقرار له بالعظمة والجود و الاحسان ، وعن النذلل له والتخشع لديه و جلب المزيد منه ، والتضرع إليه كما قال سبحانه « يا أيها الذين آمنوا لا تلتهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله و من يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » (ولا يغلب الحرام) وهو كل ما لا يجوز التصرف فيه شرعاً أو عقلاً (صبره) في الفاقة والجوع والشدايد ، ولا يخرجهُ التمكن من اكتساب الحرام عن سنن الشرائع و اصول القواعد ولا يقطع عنان اضطباره شمس النفس و جموح (١) الطبيعة بل يقمع نفسه بالمواعظ المحسنة و مقامع النصيحة ويرجو في ذلك أجر الصابر الحزين و محبة رب العالمين كما قال سبحانه « إن الله يحب الصابرين » .

(يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث فكما أنما أعان على هدم عقله) كأنما أصله أن دخلت عليه كاف التشبيه وألحقت به مما انكافة فلذلك وقع بعده الفعل . والهدم مصدر ، هدم البناء أي نقضه و كسره ، ففيه استعارة تمثيلية لشبيه الصورة المعقولة بالصورة المحسوسة لزيادة الايضاح و التفسير أو استعارة مكنية لتشبيه العقل بالبيت في أنه يكن صاحبه و يصونه من المكاره و استعارة تخيلية باثبات الهدم له ، وإنما أدرج لفظ كأن وأعان ولم يقل : فقد هدم عقله التنبيه على أن تسليط الثلاث على الثلاثة إنما يوجب هدم المسلط عليه حقيقة إلا أن المسلط عليه لما كان من خصال العقل كما سنعرفه في التفصيل فكان هدم ذلك هدمه و يحتمل أن يكون كان ههنا مستعملاً للمعلم بثبوت الخبر من غير قصد إلى التشبيه و يؤيده قوله في آخر التفصيل « ومن هدم عقله أفسد عليه دينه و دنياه » (من أظلم نور تفكيره) في أحوال المبدئ والمعاد ، والاضافة من باب لجين الماء ، لأن التفكير يشبه النور في الاصال إلى المطلوب أو بتقدير اللام والمراد بالنور العلوم الحاصلة من التفكير (بطول أملة) فيما لا ينبغي من المقتنيات الثمانية المورثة لنسيان الآخرة و خمود التفكير و هو معنى الاظلام و ذلك لأن طول توقع الأمور المحبوبة الدنيوية يوجب دوام

(١) الشموس و الجموح بضم الشين والجيم مصدران لهما بفتحهما و زان جموش و بضمناه .

ملاحظتها الموجب لدوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة وهو يجب انحاء ما تصور في العقل من تلك الأحوال وذلك معنى النسيان وخمود نور التفكير ولذلك قيل : الدنيا والآخرة ضربان لأن محبة إحدیهما (١) توجب الاضرار بالآخرى (و هذا طرايف حكمته) عن لوح العقل ، قال بعض الحكماء : الحكمة شيء يجعله الله تعالى للقلب فينوره حتى يدرك به المشروعات والمحظورات ويعلم المعقولات والمستحبات ، كما أن البصر شيء يرى به المحسوسات ، وسمي ذلك الشيء المنور للقلب حكمة تشبيهه بحكمة اللجام وهي الحديد المعتبرة في فم الفرس في منع صاحبه من الخروج عن طريق الصواب. والطرائف جمع طريف وهو كل شيء مستحدث يعجبك ، والاضافة إما ببيان أو من باب جرد قطيعة أو لامية بأن يراد بالطرائف العلوم والأدراكات النابتة لذلك الثور (بفضول كلامه) الفضل الزيادة وقد غلب جمعه على ما الأخير فيه حتى قيل : شعر فضول ، وقيل : لمن يشتغل بما لا يعينه : فضولي ، وانتكلم بما لا يعني سبب لمحو الحكمة وطرائفها لأن اللسان ينبوع القلب فإذا اعتاد المتكلم بالمغو وتقاطر منه ذلك أفاض ذلك على القلب وهو يغسل الحكمة عنه ويمحوها. ولأن مشرب القلب ضيق كلما دخل فيه شيء يخرج منه ضده ولولم يخرج به بقي شيء مختلط من الحق والباطل وهذا ليس بحكمة كما أن قليلاً من الماء إذا خالطه دم كثير لا يسمى هذا المختلط ماء ، وأكثر الشبهات مبدؤها ذلك المختلط ، وأيضاً من أكثر الكلام في مجلس العوام يجد لنفسه في تأثير قلوبهم حلاوة ونذرة فإذا دام على ذلك يميل طبعه الخسيس إلى كل كلام مزخرف يروجونه وإن كان باطلاً وينفر عن كل كلام يستقلونه وإن كان حكمة فيصرف همته إلى ما تحرك قلوبهم لمعظم منرائه عندهم فلامحالة ينمحي طرائف الحكمة عن قلبه لأن الذي يؤثر في قلوبهم ليس إلا ما فهموه

(١) ان التوجه الى الامور الدنيوية يوجب انحاء ما تصور في العقل من احوال الآخرة. فالدنيا ضرة للآخرة والضرران امرأتان تحت زوج واحد اذا اقبل على احدهما اعرض عن الاخرى ، والعقل يناسب الآخرة والحس يناسب الدنيا فان الامور الاخروية لا تدرك هنا الا بالعقل والحس خاص بادراك ما في الدنيا (ش) .

وما فهموه ليس من الحكمة في شيء (وأطفأ نور عبيرته بشهوات نفسه العبرة هي ملاحظة أحوال الماضين والانتعاش بما كانوا فيها من نعيم الدنيا و لذاتها والمباهات بكثرة العشيرة والاولاد والافتخار بكثرة أسبابها ومقتنياتها ، ثم مفارقتهم لاذك كله بالموت الذي هو هادم اللذات و كاسر الفقرات و بقاء الحسرة والندامة لهم حجباً حائلة بينهم وبين الرحمة الالهية؛ وكل من انصف بالعبرة و مارسها حتى صارت ملكة يحصل في قلبه نور يهديه إلى الآخرة و ما يوجب تعميرها من الأعمال الصالحة والصفات الفاضلة و من تبع النفس الأمارة بالسوء و شهواتها و ارتفع في مرعى ضلالها و لذاتها حصل في قلبه ظلمة شديدة و غشاوة عظيمة مانعة عن دخول نور الاعتبار و نور الاستبصار ، و من سلط هذه الخصال الثلاث التي بناء الهوى والجهل عليها أعني طول الأمل و فضول الكلام و الشهوات النفسانية على الخصال الثلاث التي بناء العقل عليها أعني نور التفكير و طرايب الحكمة و نور العبرة (فكأنما أعان هواه) و هو ميل النفس الأمارة بالسوء إلى ما يقتضي طباعها من اللذات الدنيوية الفانية إلى حدٍّ أخرجه من حدود الشريعة (على هدم عقله) وهو نور يسلك به الانسان طريق الجنان وعبادة الرحمن فيصل إلى السعادة النائمة الكبرى وهي مشاهدة الحضرة الربوبية و مجاورة الملأ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، و ذلك لظهور أن أتباع النفس الأمارة بالسوء لميولها الطبيعية و سيرها في سبيل هواها و اشتغالها باستيفاء مقتضاها أشدَّ صدمة على العقل و أقوى ظلمة في طمس نوره ، وأكمل جاذب له عن طريق الحق ، و أظهر ساد له عن قصد الكمالات والترقي في ملكوت السموات كما نقل عن سيّد المرسلين عليه السلام ثلاث مهلكات شح مطاع و هوى متبع و إعجاب المرء بنفسه (١) (ومن أفسد عليه عقله أفسد عليه دينه و دنياه) أمّا إفساد الدين فلان استقامته إنما هي بإدراك أحوال المبدء والمعاد والتصديق بها والعمل بما ينبغي أن يعمل والانزجار عما ينبغي أن يترك، و المدرك لهذه الأمور والدليل عليها و الحاكم بحقيقتها إنما هو العقل فإذا فسد

العقل فسد الدين، وأما إفساد الدنيا مع أنه روي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عليه السلام قال: «وكل الرزق بالحق، و وكل الحرمان بالعقل (١)» وروي عن أبي عبد الله عليه السلام «أن العقل ما عبد الرحمن واكتسب به الجنان (٢)»، وأما الذي يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية بالمكر والحيل مثل ما في معوية وأضرابه فتلك شيطنة ونكراء وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل فوجه أمران الأول أن الدنيا المعتمدة عند أهل البيت عليهم السلام هي النبي تكون معبرة يعبر بها إلى الآخرة كما دل عليه قولهم: «الدنيا مزرعة الآخرة (٣)» فالدنيا عندهم ما يهيم به المؤمن أمر آخرته ويجعله وسيلة إلى تحصيل فوائدها وذريعة إلى تكميل عوائدها، و ظاهر أن هذه الدنيا لا يمكن استقامتها ولا يتيسر استفادتها بدون العقل، إذ غير العاقل لا يأمن وقوعه في الشبهات ووروده على المحرمات واستقراره في المهلكات، الثاني أن كثرة الرزق وحصول الدنيا وإن كان منوطاً بالبطالة والحمالة ومربوطاً بالسفاهة والجهالة لكن الأحق لا يأمن وقوعه في أشنع المهلكات وسلوكه في أفبح المسالك وتورطه في أعظم الشدائد والمكائد الموجبة لهلاكه وفساد دنياه كما يشهد به المشاهدة.

(يا هشام كيف يزكو) أي كيف يظهر عن أعراض الدنيا وشوائب النقائص أو كيف يزكو ينمو عند الله (اعملك وقد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك) بالتسلط المذكور في الكلام المتقدم يعني لا يكون عملك طاهر أو مطهراً أو نامياً زاكياً عند الله تعالى وأنت على هذه الصفة لأنك إذا قامت بين يديه ولا يكون قلبك متوجهاً إليه بل يكون شاغلاً عن أمر الله وفارغاً عن ذكر الله وغافلاً عن عظمة الله وتاركاً لأحكام العقل ومقتضاها وتابعاً للفساد المتارة وهواها كنت تعبد

(١) رواه الكليني في كتاب الروضة تحت رقم ٢٧٧ وزاد «و وكل البلاء بالصبر».

(٢) الكافي كتاب العقل والجهل تحت رقم ٣.

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس كما في كنوز الحقائق للشيخ عبد الرؤف

الماوي تحت عنوان الدال.

شرح أصول الكافي - ١٢ -

بحسب الظاهر إلهاً و بحسب الحقيقة إلهاً آخر لأن أصل العبادة هو الطاعة و الانقياد و لذلك جعل الله سبحانه اتباع الهوى و الانقياد له عبادة فقال جل شأنه «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه» و جعل طاعة الشيطان عبادة له فقال : «الم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان» و في بعض الروايات «إن طاعة أهل المعاصي عبادة لهم (١)» «وإن من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبده الله وإن كان يؤدّي عن الشيطان فقد عبده الشيطان» (٢) وهذا هو الشرك الخفي عند العارفين ولئن نزلنا عن ذلك فلا شبهة في أنه يفوتك حينئذ حقيقة العبادة و روحها الذي به تصعد العبادة إلى الدرجة العليا والمرتبة العظمى من الشرف و القبول فلا يكون عبادتك مأمونة عن طرء البطلان و لامصونة عن شوائب النقصان ولا قابلة للزيادة والنماء عند ما يأخذ العابد بواحدة عشرة أمثالها أو مازاد في يوم الجزاء. فلا بد لك أيها العاقل أن تقتل هواك بسيف عقلك و توجه قلبك إلى أمر ربك و تعبد كائنك تراء ، و هذه المرتبة مقام المشاهدة وهي أعلى منازل العابدين ولولم يكن لك هذه المرتبة فلا أقلّ تعبد و في قلبك أنه يراك و هذه المرتبة مقام المراقبة وهي أوسط منازل المقر بين و مع ذلك تكون خائفاً خاشعاً متضرعاً راجياً إلى رحمته ، لعلمك تكون من المفلحين ، وفي هذا الكلام دلالة واضحة على أن قبول الأعمال وصلاحها و كمالها و طهارتها و نموّها إنشأها هو بالعقل الكامل المتأمل في عظمة الله و قدرته و سطوته و سلطنته و غلبته على جميع الممكنات ، و أمّا الجاهل المغرور المطيع للنفس و هواها الغافل عن أوامر ربه و مقتضاها فهو عبد لثيم ، و عمله ساقط هابط سقيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(١) روى الكليني في الكافي كتاب الايمان و الكفر باب الشرك تحت رقم ٨ عن

أبي عبد الله «ع» « من أطاع رجلاً في معصية الله فقد عبده » .

(٢) روى الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول من ٤٥٦ عن أبي جعفر الثاني «ع»

وفيه «ابليس» مكان «الشيطان» في الموضمين .

(يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل) لأن الإنسان مدني بالطبع وله ميل إلى بني نوعه في التأليف والتودد والاستيناس بهم والمشاركة معهم في طلب المعاش وسائر ما يحتاج إليه فإذا ترك ذلك كله لعلمه بأنه يوجب منقصة في دينه وضعفاً في يقينه وأثر الوحدة على الكثرة ورجح الفرقة على الألفة للنحز عن مشاركتهم في أفعالهم الشنيعة وأطوارهم الدنيئة علم أنه قوي في العقل والتدبير في أمور الآخرة لأن ذلك من آثار العقول الكاملة (فمن عقل عن الله) أي فمن عرف الله وعرف ذاته وصفاته وما يجوز له وما يمتنع عليه وأحكامه وشرايعه وأحوال الآخرة وشدة فاقة الناس وكثرة احتياجهم إليه يوم القيمة الذي يشتمل فيه الأبرار بأنفسهم فضلاً عن الأشرار (اعتزل عن أهل الدنيا والراغبين فيها) وهم السدين يؤثرون الدنيا وزهراتها ويبدلون الجهد في اقتنائها وأدخال ثمراتها كما هو المشاهد من أبناء الزمان الذين يجلبون دواعي النفس في منازل الطغيان ويقتفون آثارها ويسمعون وساوس إبليس في مراحل العبدان ويطأون أدبارها كما هو المعلوم من أرباب الفسوق والكفران، وفيه دلالة على شيئين أحدهما أن الاعتزال إنما للمعاقلة العالم بمعالم دينه وأما الجاهل فالأولى بحاله أن يخالط الناس ويشغل بطلب العلم فإن أمكنه في بلده وإلا فليطلبه في بلد آخر كما قيل: «اطلبوا العلم ولو بالصين» (١) الثاني أن الاعتزال مطلوب عن أهل الدنيا وأهل العصيان لأن أهل الآخرة، فأنهم أولياء الله وأنصاره في دينه، والتوصل بهم يوجب الاستنارة بنورهم والاستضاءة بضوئهم (ورغب فيما عند الله) من الخيرات والأنوار الإلهية والأشراق العقلية والابتهاجات الذوقية والفرقيات الروحية، إلى غير ذلك مما لا يمكن رأته ولا أذن سمعه ولا خطر على قلب بشر، ولا بأس أن نشير إلى العزلة وأقسامها وشي من فوائدها ومنافعها إذ ذكر جميع فوائدها متعذراً لأنها ذوقية حاصلة لأرباب

(١) ظاهر كلام المؤلف أنه من كلام غير المصنوع لكن رواء العقيلي في الضعفاء

و ابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب من حديث عائشة، وابن عبد البر وفي العلم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله.

العزلة بعد الممارسة في مدّة طويلة لمجاهدات شديدة فقول :

* العزلة من الناس أقسام :

الأول وهو أدناها أن يكون بينهم ولا يكون معهم بل يكون وحيداً غريباً مستوحشاً منهم ولا يجالسهم وإن جالسهم أبعضهم كما روى عن الصادق عليه السلام قال : « إذا ابتليت بأهل النصب ومجالستهم فكن كأنك على الرضف » (١) حتى تقوم فإن الله يمعنهم ويلمعهم فإذا رأيتهم يخوضون في ذكر إمام من الأئمة فقم فإن سخط الله ينزل هناك عليهم (٢) .»

الثاني وهو أوسطها أن يسكن في بيته ولا يخرج إليهم أصلاً ولا يركن إلى مجالستهم ومقاولتهم كما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « يا أيها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس فطوبى لمن لزم بيته ، و أكل قوته ، و اشتغل بطاعة ربه ، و بكى على خطيئة » (٣) ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله حين سأله عن عقبة بن عامر الجهني عن طريق النجاة أنه قال له : « ليس بك بيتك وأمسك عليك دينك وابك على خطيئتك » (٤) .»

الثالث أن يخرج إلى الصحاري وفل الجبال و شعبها و يعبد الله ربه حتى يأتيه اليقين كما قيل له عليه السلام أي الناس أفضل : فقال : « رجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » (٥) و قال عليه السلام : « إن الله يحب العبد التقي النقي »

(١) الرضف: الحجارة المصممة على النار.

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب مجالسة اهل المعاصي تحت رقم ١٣ .

(٣) اورداه الشريف الرضي في النهج في خطبه عليه السلام تحت رقم ١٧٤ أوله : « انتقموا

ببيان الله » و قال بعض الشراح في هذا الكلام ترغيب في العزلة عن انارة الفتن واجتناب الفساد و ليس ترغيباً في الكسالة و ترك العامة و شأنهم فوجدت أمير المؤمنين عليه السلام في غير هذا الموضع - على مقاومة المفسد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٤) رواه الترمذي ج ٩ ص ٢٤٧ و حسنه ، و احمد ج ٤ ص ١٤٨ .

(٥) تمام الخبر كما رواه احمد في مسنده ج ٣ ص ٤٧٧ باسناده عن كرز بن علقمة

الغزاعي قال أتى النبي صلى الله عليه وآله أعرابي فقال يا رسول الله هل لهذا الامر من منتهى ، قال : «

الخفي (١) هو الأخبار الدالة على مدح المعتزلين من طرقاً وطرق العامة أكثر من أن تحصى و فوائد كثيرة منها الفراع لعبادة الله تعالى والذكر لدوا الاستيناس بمناجته والاستكشاف لأسراره في أمور الدنيا والآخرة من ملكوت السموات والأرض وذلك كان رسول الله ﷺ يتعبد بجبل حراء و يعتزل به حتى أنه النبوة

و منها الإخلاص في العبادة وتبعيدها عن تطرُق احتمال السمعة والرأياء كما روي عن الباقر عليه السلام: «لا يكون العبد عابداً لله حقَّ عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلهم إليه فحينئذ يقول: هذا خالصٌ لي فيقبله بكرمه (٢)».

و منها صرف القلب عن غير الله و هي نعمة عظيمة و فائدة جلية كما قال الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله عز وجل من أن لا يكون في قلبه مع الله عز وجل غيره».

و منها الأمان من نزول العذاب عليه عند نزوله بساحة الظالمين كما روي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: «أما من أصحابه عن مجالسة خالده و من أهل الضلال فقال: أي شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ فقال عليه السلام: أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً، أما سمعت بالذي كان من أصحاب موسى كان أبوه من أصحاب فرعون، فلما لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعط ألباه فيلحقه بموسى فمضى أبوه و هو يراغمه حتى بلغا طرفاً من البحر ففرقا جميعاً؛ فأتى موسى الخبر فقال عوفي: رحمه الله ولكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن

«نعم فمن أراد الله به خيراً من أعجم أو عرب أدخله عليهم ثم تقع فتن كالظلم يعودون فيها أسود صبا يضرب بعضكم رقاب بعض و أفضل الناس يومئذ مؤمن معتزل في شعب من الشعاب يتقى ربه تعالى و يدع الناس من شره» و رواه البخاري ج ٤ ص ١٨ و ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٨ كما في المتن.

(١) أخرجه أحمد في مسنده من حديث سعد بن أبي وقاص بسند صحيح كما في الجامع الصغير.

(٢) نقله ابن فهد الحلبي في عدة الداعي في مبحث الاعتزال عن الناس.

قارب المذنب دفاع (١)».

و منها الانتقاء عن مواضع الثمرة والريبة كما روي عن الصادق عليه السلام قال:
« لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم » قال رسول
الله صلى الله عليه وآله : المرء على دين خليله وقرينه (٢) و عنه عليه السلام قال : قال « أمير المؤمنين
عليه السلام : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقوم مكان ريبة (٣) »
و منها التخلص عن المعاصي إذ الخاطئة لا يخلو عنها غالباً كالغيبة والكذب
والسب والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوها.
و منها الخلاص من شرهم فإنهم كثيراً ما يؤذون جلسهم بالاستهزاء والغيبة
والنهمة والبهتان وافتراء الأقوال والأعمال عليه
و منها النجاة من خبث مشاهدة الثقلاء والحمقاء و قبح ملاحظة أطوارهم و
أخلاقهم فقد قيل للأعشى : لم أعشت عينك؟ قال : من النظر إليك ومن النظر إلى الثقلاء.
ولهذه الوجوه من الأدلة والفوائد ذهب جماعة من المحققين والعارفين إلى أن العزلة
أفضل من المخالطة وذهب طائفة إلى العكس لقوله تعالى « وألف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخواناً » و قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا و اختلفوا » و معلوم أن
العزلة تنفي تألف القلوب و توجب تفرقها و لقوله صلى الله عليه وآله « من فارق الجماعة قيد
شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه (٤) » وقوله صلى الله عليه وآله « لا هجرة فوق ثلاث (٥) »
و قول الصادق عليه السلام « ولا خير في المهاجرة » (٦) إلى غير ذلك من الأخبار الدالة

(١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب مجالسة أهل المعاصي تحت رقم ٢ .

(٢) الكافي كتاب العشرة باب من يكره مجالسته و مرافقته تحت رقم ١٠ .

(٣) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب مجالسة أهل المعاصي تحت رقم ١ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده كما في كنوز الحقائق للشيخ عبدالرؤف المناوي .

(٥) رواه الكليني في الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الهجرة عن أبي عبدالله

«ع» عن النبي «ص» ، و روى البيهقي في صحيحه ج ٨ ص ٢٣ من حديث أنس بن مالك

«لا يجعل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» .

(٦) رواه الكليني في الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الهجرة تحت رقم ٤ .

على الأمر بالنصاف والتعاق والتعاشر والاجتماع ، و على المنهي عن المهاجرة و قطع الرحم والتباعد والافتراق ولكثرة منافع الخلطة و فوائد ها التي لا توجد في العزلة مثل التعليم والتعلم والتأديب والتأديب والفح والانتفاع والإمداد في المهمات و فضيلة الجماعة والجماعة والزّيارة والتبرّك برؤية العلماء والصلحاء والعبرة بمشاهدة الأحوال و كسب الأخلاق المرضيّة من أهلها و ثواب التأهل والنكاح و تكثير الأولاد إلى غير ذلك من المنافع الدنيويّة والأخرويّة ، و ينبغي أن يعلم أن كلا الاحتجاجين صحيحٌ ولكن ليست العزلة أفضل من المخالطة مطلقاً ولا المخالطة أفضل من العزلة مطلقاً ، بل كلّ في حقّ بعض الناس و في بعض الأوقات بحسب المصالح ، إذ لكلّ منهما مصالح و شرائط متفاوتة بحسب تفاوت الأشخاص والأوقات وقد مرّ أن من شرائط الاعتزال أن يبلغ الإنسان رتبة الكمال في القوّة النظرية والعملية ويستغني عن مخالطة كثير من الناس و أن يعتزل المنهمكين في الدنيا الراغبين في حطامها السالكين سبيل العصيان التابعين لوساوس الشيطان فلولم يبلغ المعتزل تلك المرتبة أولم تكن الجماعة موصوفين بالصفات المذكورة كانت المخالطة أفضل والاجتماع لتحصيل المحبّة والألفة أجدر و أكمل ، وبالجملّة النبي ﷺ ومن يقوم مقامه علماء حكماء وقد يمتنوا ما فيه صلاح الناس عاجلاً وآجلاً جليلاً وخفياً ولا ينافي تفاوته في أفرادهم كما أمروا بالنكاح تارة ونهوا عنه تارة وأباحوه تارة لتفاوت ذلك في أفراد البشر و من أراد أن يعرف مقاصدهم من أوامرهم ونواهيهم وتدبيراتهم وتقديراتهم ينبغي أن يعلم طرفاً من قوانين الأطباء و مقاصدهم من العبارات المطلقة ، فإنّه كما أن الأطباء معالجون للأبدان بأنواع الأدوية والعلاجات لغاية بقائها على صلاحها أو رجوعها إلى العافية من الأمراض البدنيّة كذلك النبي ﷺ و من يقوم مقامه أطباء النفوس وهم مبعوثون لعلاجها من الأمراض النفسانيّة كالجهل والحقد والحسد والرّياء و سائر رذائل الأخلاق بأنواع الكلام من الآداب والنصائح والمواعظ والأوامر والنواهي والضرب والقتل والاعتزال والاختلاط ، وكما أن الطبيب قديقول إن الدّواء القلاني نافع من المرض

الفلاحي ولا يعني به في كل الأمزجة وفي كل الأوقات وفي كل البلاد بل في بعضها ، كذلك النبي ﷺ والقائمون مقامه إذا أطلقوا القول في شيء أنه نافع كالعزلة مثلاً فإنهم لا يريدون أنه نافع لكل إنسان وفي كل زمان (١) وكما أن الطبيب قد يصف لمريض دواء ويصف شفاء فيه و يرى أن ذلك الدواء بعينه لمريض آخر كالسم القاتل و يعالجه بغيره ، كذلك النبي ﷺ والقائمون مقامه قد يرون أن بعض الأمور دواء لبعض النفوس فيقتضون عليه و يأمرون به كالعزلة وقد يرون أن ذلك مضرّاً لغير تلك النفس فيأمرون بضد ذلك مثل المخالطة وإن أردت أوضح من ذلك فتقول : إما أن لا يكون في الخلطة خير أصلاً أو يكون فيها خير والخير إما للطرفين أولاً أحدهما ، فهذه أربعة أقسام ، ثم الخير إما خير في الدنيا فقط ، أو في الآخرة فقط ، أو فيهما ، فينبعث منها أقسام يرجع في بعضها الخلطة و في بعضها العزلة و يتساوي في بعضها الأمران ، فللمعاقل العظام المتدرب أن يختار منها ما يقتضيه عقله و تدبيره والله أعلم بحقائق الأمور (٢) .

(١) فإن قيل إن الإطلاق يفيد التعميم فمن أين يفهم التخصيص ويعرف المورد الذي يخصص الحكم به؟ قلنا جميع ما ورد من هذه الأمور مقرون بقرائن و مبهين بأسباب و معلل بعلم يظهر منها المراد مثلاً ورد في مدح العزلة بعدد ربه و يدع الناس من شره و يعلم منه أن حسن العزلة للعبادة و سلامة الناس من شر المعتزل و يعرف من ذلك أن المعاشرة إذا كانت عبادة كتعلم الدين و القرآن أو تعليم ما أو كسب الرزق الملال للانفاق في سبيل الخير مع الأمن من أضرار الناس و إذا هم فلا يرجع العزلة عليها و كذلك المعاشرة والصحبة مظنة الوقوع في المعاصي والحسد والفتنة و طول الآمال وبعث الشهوات الدنية والرغبة في حطام الدنيا و إعانة أهل الظلم والمعصية و تحسين أفعالهم السيئة والتسليم معهم بترك النهي عن المنكر وإذا لم تكن مستلزمة لهذه الأمور و أمثالها فلا ومثل ذلك الترغيب في كسب المال و مدح الفسقة باليسير كلاهما معلل بعلم منها وجه كل منهما «ش» .

(٢) راجع تفصيل الكلام في مدح العزلة وذمها و فوائدها و غوائلها و كشف الحق فيها المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء كتاب العزلة.

(وكان الله أنسه في الوحشة) الأنس مصدر قولك آنست به أنساً من باب حسب أو من باب ضرب وهو ضد الوحشة، والمشهور فيه ضم الهمزة وسكون النون وقد جاء بكسرة الهمزة قليلاً وبفتح الهمزة والنون جميعاً، والحمل على سبيل المبالغة أو الأنس بمعنى الأنيس ويؤيده أنه نقله صاحب المدّة بلفظ الأنيس ويحتمل أن يقرأ آنسه على وزن الفاعل وأصله آنساً به أضيف إلى الضمير بعد حذف الجار من باب الحذف والإيصال، وصح إطلاق الأنس عليه سبحانه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه: «اللهم إنيك أنس الآنين بأوليائك» والوحشة بمعنى الخلوة أو بمعنى الهم والحزن الحاصلين له بسبب فقد الألفة بينه وبين بني نوعه وعشيرته أو بسبب الغربة والانفراد من جهة العزلة خصوصاً في مباريتها أو بسبب عدم تعاوده لذلك المكان إذ غير المألوف من المكان يوجب الوحشة كما يحكم به التجربة، ومحصل معناه أن المعتزل لو حصلت له وحشة ما لأجل تركه صحبة بني نوعه وعشيرته وسلوكه طريق الحق بالمحبة الراسخة والنية الصادقة والرغبة الكاملة كان الله أنيسه الذي يرفع وحشته ويدفع عنه حزنه وكرهه ويصرف وجه قلبه إلى شطر كعبة وجوده ويسره بمطالعة أنوار كبريائه ومشاهدة إضافات جوده حتى يرى كل خير حاضراً وكل كمال ظاهراً، فهو بكرمه يأنف، وبفضله يستزيد، وبرحمته يستفيض كل ما يريد (وصاحبه في الوحدة) والله سبحانه وإن كان صاحب الكل في كل الأوقات كما قال الله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا» لكن المقصود هنا إفادة الاختصاص كما يفيد الإضافة ووجه ذلك أن الرجل إذا ترك منافع الدنيا وأبناءها، وأعرض عن الاستماع به واقتنائه، واختار الوحدة والانفراد، وتمرن على الطاعة والانتقياد، وأقبل بحسن الطوية إليها وحسن نفسه بنهاج المشيئة عليها وفك عنه أغلال اللذات الدنيوية وقطع عنه أنواع العلاقات النفسانية والهيئات البدنية بحيث لا يبقى معه شيء إلا التفكير في ذاته وصفاته تعالى وما يوجب قرب به يستقبله حينئذ نور الحق كمال قال: «من

تقرب إليّ بذراع تقربت إليه بباع (١) «وينزل له على بساط العز والمصاحبة ويشرّفه بشرف
الأنس والمكالمة ويكرمه بأنواع التعظيم والمخاطبة حتى إذا ناداه أجا به بلبّيك وإذا سكت
ناداه يا عبدي أنا مشتاق إليك لم سكت عن عرض الحالات والمقالات بعد الفرخص
لك بالأجوبة والسؤالات وعند ذلك ينكشف عنه الحجاب ويسكن فيه عروق
الاضطراب، ويزول عنه لواحق الوحشة والاضطراب، فيقول: لا إله إلا أنت ولا أشرك
بك أحداً، وتسيل عليه الكرامات الإلهية والسّاعات الربّانية والكمالات النفسانية
مالم يكن يخطر بباله أبدأ (٢) (وغناه في العيلة) الغناء بالفتح والمدّ النفع، و
قبيل: الكفاية وبالكسر والقصر اليسار والحمل على سبيل المبالغة والمصدر بتأويل
الفاعل، والعيلة بالفتح الفقر والفاقة يعني أنّه سبحانه نفس غناه أو مغنيه في وقت
حاجته وفقره لا غيره إذ عين افتقاره حينئذ لا تنفتح إلاّ إليه ويد اضطرابه لا تنحرك
إلاّ بين يديه ولا ما جأ له سواء حتى يكله عليه، واعلم أنّه يحتمل أن يراد بالفقر
والغناء ما هو المعروف بين الناس وهو أن يجد من مناع الدنيا ما يعيش به و
يسدّ خلله و يقيم أمره و يكمل نظامه و يرضون وجهه و أن يفقد ذلك و يحتمل أن
يراد بهما الغنى والفقر الأخرويين وقد شاع إطلاقهما عليهما قال أمير المؤمنين (عليه السلام):
«الغنى والفقر بعد العرض على الله سبحانه» (٣) يعني هما يتبيّنان يوم القيمة ويتحقّقان بعد
العرض على الله سبحانه وبعد الفراغ من الحساب والفقر في ذلك اليوم من تحيّر
في خسارة نفسه و حرم من كرامة ربّه والغنى من تحلّي نفسه بالأخلاق والكمالات

١- الباع ضعف الذراع والخبر رواه البخاري في صحيحه ج ٩ ص ١٩٢.

٢- وقد روى عن عمران بن الحصين وهو من أصحاب رسول الله «ص» أنّه قال: كان يسلم
على معنى الملائكة كانوا يسلمون عليه في خلواته فاكتويت يعني عالج نفسه في مرض
طرى عليه بالكى وانقطع السلام منهم لكرامة العلاج بالكى ثم منع الراوى أن يروى
حديثه مادام حياً لانه خشي أن بهجم عليه الناس للتبرك به فيؤذوه أو يتوقعوا منه شيئاً
لا يقدر عليه وعمران هذا كان ممن رجع إلى أمير المؤمنين وكان يندد على من قال بربّه
في المنعة و كشف الامور المكونية لا يحصل الا لمن يعزل الناس ويانس بالوحدة (ش)
(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٥٢.

و استحق الفوز بالسعادات والكرامات و نظر إليه ربّه بعين الرّحمة و الغفران و أنزله أعلى درجات الفردوس و أشرف منازل الجنان ، و هذا الاحتمال أقرب من الأوّل لأنّ الفقر بمعنى الإفلاس في الدّنيا سهل لأنّه ينقطع شدائده بموت بخلاف الفقر والإفلاس في الآخرة فإنّه يوجب الهلاك الدائم والشقاء الأبدي (و معزّه من غير عشيرة) المعز من العزّ خلاف الذلّ أو خلاف الضعف بمعنى القوة والشدة ، والمعنى وكان الله معزّه في الآخرة بالثواب الجزيل أو في الدنيا بالذكر الجميل والمدح الجليل و بإفاضات الأسرار الغيبية وكشف الحقائق العينية ، والثاني أنسب بقوله من غير عشيرة لأنّ العشيرة و هي القبيلة المتأكّدة بينهم العشرة والصحة توجب العزّ في الدّنيا .

(يا هشام نصب الحقّ لطاعة الله) نصب إمّا على البناء للمفعول أي أقيم الحقّ يعني الدّين بإرسال الرّسل و إنزال الكتب لأجل طاعة الله في أوامره و نواهيه ، ولو تركت الطاعة صار الحقّ موضوعاً والدّين مخفوضاً و هو يوجب زواله بالكبتة و إمّا على البناء للفاعل لكن بحذف الفاعل أو استتاره أي أقام الله تعالى الحقّ يعني الدّين لطاعته ، وهذا قريب ممّا ذكر بحسب المعنى أو بحذف المفعول ، والمراد بالحقّ هو الله تعالى أي أقام الله تعالى خلقاً أو ديناً لطاعته في الأوامر والنواهي و إمّا على المصدر و المراد بالحقّ الدّين كما في الأوّل أي إقامة الدّين الحقّ بتحقيق طاعة الله بفعل ما أمره وترك ما نهاه (و لاجابة إلّا بالطاعة) أي لاجابة من الشدايد الأبدية والعقوبات الأخروية على سبيل الحتم والجزم إلّا بطاعة الله و اتقياده و أوامره و نواهيه أو الحصر إضافي بالنسبة إلى المعصية ، و على التفسيرين لا ينافي ذلك حصول النجاة في بعض الأحيان بالعفو والغفران كما دلّ عليه بعض الأخبار و آيات القرآن ، و يحتمل أن يراد أنّه لاجابة للإنسان من الظلمات البشريّة والهويّات النّاسوتية في عالم الأجسام وعالم الأشباح ولا يحصل لهم الترقّي إلى مشاهدة الأنوار الربوبية والأسرار اللاهوتية في عالم المجرّيات ، و عالم الأرواح إلّا بالطاعة إذ هي مراقبة للإنسان في البلوغ إلى غاية

مراهم والوصول إلى نهاية مهامهم وهي التشبه بالرّوحانيين والدّخول في زمرة المقرّبين . و اعلم أنّ الغرض من هاتين الفقرتين بيان أنّ الطاعة أصل عظيم إذ بها يتحقّق إقامة الدّين والنّجاة من العذاب المهيّن كما عرفت ثمّ بين أنّها متوقّفة على العقل بثلاث مقدّمات آتية على سبيل القياس المفصول النتائج ليظهر للشّرافة العقل و أصالته بالنّسبة إلى جميع المقاصد وهذا غاية المدح والتّعظيم له و لمن اتّصف به (والطاعة بالعلم) أي الطاعة متوقّفة على العلم إذ هي عبارة عن فعل المأمور به و ترك المنهيّ عنه و كسب الأخلاق المرضيّة والأطوار الحسنة للتقرّب بالحقّ فلا بدّ من العلم بهذه الأمور و بصفات الحقّ ممّا يجوز له و ما يمنع عليه و بأحوال المعاد (والتعلّم بالتعلّم) أي العلم بالأُمور المذكورة موقوف على التعلّم إمّا بلا واسطة بشر كالأنبياء والرّسل و معلّمهم هو الله سبحانه أو بواسطة بشر كما للأئمّة فإنّ معلّمهم هم الأنبياء والرّسل عليهم السلام بالإرشاد والهداية ، وأمّا مفيض العلوم والصّور فليس إلّا هو و يحتمل أن يراد بالعلم معناه على الإطلاق تصوّريّاً كان أو تصديقيّاً ، ضروريّاً كان أو نظريّاً دينيّاً كان أو غيره ، فإنّ حصول كلّها للبشر متوقّف على التعلّم من المعلّم الحقيقي و هو الله سبحانه بالأفاضة أو الإلهام أو التعليم بواسطة أو بدونها (والتعلّم بالعقل يعتقد) من اعتقاد الشّيء إذا اشتدّ و صلب أو من عقدت الحبل فانعقد والزيادة للمبالغة ، و في بعض النسخ «يعتقل» باللام من اعتقل الرّجل أي حبس ومنع والظرف متعلّق ب«يعتقد» قدم المحصر ، أو للاهتمام يعني تعلّم الأحكام والمعارف معقود بالعقل و محكم به ، أو محبوس عليه ملازم له لا يحصل بدونه لأنّ العقل هو القابل لجميع العلوم فلولا ما يكن للمتعلم عقل منفعل بالقوّة قابل لفيضاتها من المعلّم العالم بها بالفعل كان تعلّمه بلا فائدة وسعيه بالأثر كالأرقم على الماء .

(و لا علم إلّا من عالم ربّانيّ) في النّهاية الرّبّانيّ منسوب إلى الرّبّ بزيادة الألف والنون للمبالغة و قيل : هو من الرّبّ بمعنى التّربية كانوا يرثون المتعلّمين بصغار العلوم قبل كبارها ، والرّبّانيّ العالم الرّاسخ في الدّين أو الدّني يطلب

بعلمه وجه الله و قيل : العامل المعلم و في الصّحاح و القاموس الرباني المثلثة العارف بالله تعالى و في الكشف الرباني هو شديد التمسك بدين الله تعالى و طاعته و في مجمع البيان هو الذي يربّ أمر الناس بتدبيره له و إصلاحه إياه و هذه الجملة اعتراضية وقعت بين كلامين متصلين معنى لنكتة وهي التنبيه على أنّه يجب على المتعلّم أن يأخذ العلم من العالم الرباني دون غيره أو يقال لأنّه وقع حقيقة في آخر الكلام لأفادة نكتة يتم أصل المعنى بدونها وهي زيادة المبالغة و التأكيد لما يستفاد من قوله والعلم بالتعلّم فإنّه يفهم منه أنّ حصول العلم موقوف على التعلّم من العالم الرباني إذ المراد بالعلم العلم الإلهي فظاهر أنّ العلم الإلهي إنّما يستفاد من العالم الرباني، و إنّما قلنا حقيقة لأنّ ما بعدها نتيجة للسابق فكان الكلام قد انتهى وتمّ قبل ذكره من غير حاجة إليه.

(و معرفة العلم بالعقل) هذا في الحقيقة نتيجة للكلام السابق وهو قوله : « والعلم بالتعلّم والتعلّم بالعقل » فقد ثبت ممّا ذكر أنّ العلم والطاعة مع كونهما أصليين للوصول إلى الدرجة العظمى والبلوغ إلى المرتبة القصوى يتوقفان على العقل و فيه غاية التعظيم للعقل و نهاية التكريم لأهله، و من العجائب أنّ أمة من السفهاء وزمرة من الحمقاء في عصرنا هذا (١) يعتقدون أنّهم الغاية الكبرى من الأيجاد والتكوين و يجالسون العلماء والعقلاء بصفة المناقذين « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّنا معكم إنّما نحن مستهزؤون » الله يستهزئ بهم و يمدّهم في طغيانهم بعمهون.

١- كأنه يريد بهم المتظاهرين بالنصوف من أهل الدنيا من غير أن يكون لهم بصيرة في الدين و معرفة بالله ولا يملكون الاصطلاحات المتداولة عند العرفاء فضلا عن المعاني وذلك لأن الدولة في ذلك العصر كانت للصوفية، والسلطان منهم و كل من كان يريد التقرب إليهم يتظاهر بالنصوف حتى يفوز بالمقامات والمناصب من غير أن يعرف شيئا منه و هكذا كل علم يكون وسيلة لنيل الجاه والمال في زمان كالطلب والفقه يكثر المتشبهون بالعلماء فيه وما لا يكون وسيلة إليهما لا يدعى به العلم إلا المحقون به ولا يشبه الجاهل بهالم لا يكون علمه طريقا إلى تحصيل الدنيا. (ش)

(يا هشام قل ليل العمل من العالم مقبول مضاعف) لأنّ العالم بمعرف ربّه وما يليق به وما لا يليق وما صنع من إكراهه وإنعامه الذي يعجز عن ذكره اللسان ولا يحيط على وصفه البيان وما شرع من الأوامر والنواهي والأعمال والعبادات وشرائطها ومحسناتها وما يتخلّص به العبد عن مخالفته و كيفية التخلّص منها ، وبالجملة يعرف حقيقة العمل ومصلحه و شرائطه وفوائده ومفاسده و يكون لأنوار تلك المعارف قلبه تقيّاً تقيّاً زكياً صافياً ظاهراً مضئاً . و يكون عمله وإن كان قليلاً خالصاً كاملاً مشتملاً على جميع الأمور المعتبرة في قوامه و كماله و اعتباره و قبوله و تضاعفه فيكون مقبولاً مضاعفاً لأنّ الله سبحانه حكيمٌ كريمٌ لا يردّ عملاً صالحاً وإن كان قليلاً إذ الكثرة ليست من شرائط القبول كيف وقد مدحه في القرآن العزيز في مواضع عديدة و وعد الوفاء به مع الزيادة كما قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » وقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (و كثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود) لأنّ الجاهل لا علم له بشي من الأمور المذكورة بل ينظر إليها بعين عمياء فيخطئ في كثير منها خبط عشواء وذلك لأنّ صلاح العمل طريقاً واحداً لا يعرفه إلا ذو فطنة ثاقبة وبصيرة كاملة ، ولفساده طرق متكثرة فمن أراد أن يسلك طريق العمل الصالح بلا بصيرة ولا دليل مع مرافقة الجهل والهوى المتفانية والوساوس الشيطانية ضلّ عنه وسلك أحد هذه الطرق المضلّة ، ثمّ كلّما بالغ فيه وأكثر صار أبعد من الحقّ وأقرب من الباطل و أفسد عليه سعيه وعمله فيكون عمله مردوداً عند الله تعالى إذ لا يصعد إليه إلا العمل الصالح ، ولو فرض أنّ عمله مشتمل على جميع الأمور المعتبرة في صلاحه نادراً كان ذلك مثل الكثير لأنّ الاتفاقيات من الأعمال غير معتبرة بل لا بدّ من وقوعها على إيقان وتصديق هذا وللبعض الناظرين في هذا الكلام كلام طويل في تفسيره و ظنّي أنّ المقصود منه ليس ما ذكره و هو أعرف بما قال ، وحاصله بعد حذف الزوائد (١) أنّ العلوم الحقيقية والمعارف الإلهية تطلب لذاتها لا للعمل ثم هي

(١) لخصه أيضاً صاحب الوافي بلفظ أجمع واخصر قال : قليل العمل من العالم

تصلح القلب و تصقله لأنه ينكشف جلال الله و عظمته في ذاته و صفاته و أفعاله و الأعمال لما كانت وسيلة إليها . معينة لها ، حافظة إياها تطلب لأجلها ، ففضيلة كل عمل إنما هي بقدر تأثيره في صفاء القلب و إزالة الحجاب عنه فكل عمل كان تأثيره أكمل من غيره فهو أفضل ، و مراتب الإنسان في ذلك مختلفة ، فرب إنسان يكفيه قليل العمل في تأثير قلبه للطائفة طبعه ورقة حجاب و رب إنسان بخلافه لغلظة طبعه و كثافة حجاب و ربما يؤثر كثير العمل فيه تأثيراً قليلاً ، و بعد تقرير هذا يتبين معنى قوله (عليه السلام) «قليل العمل من العالم مقبول مضاعف» لأن معنى كونه مقبولاً أنه مؤثر في صفاء قلبه و إزالة الحجاب عنه ومعنى كونه مضاعفاً أن تأثيره في قلبه أضعاف تأثيره في قلب غيره ، و ذلك لأن ارتفاع أكثر الحجب عنه بممارسة العلوم فإن كل مسألة يحققها العالم تجلّي قلبه و تصقله ، فإذا ترادفت المسائل و العلوم يبلغ قلبه في الصفاء إلى حد لا يحتاج إلى كثير عمل لكن مادام الإنسان في دار الغرور لا يستغنى بالعبادة عن عمل و كسب لا لأجل إنشاء أصل التصديق الذي قد فعل بل للمحافظة عليه و حرسته من الآفات و هي مما يكفيه

مقبول لأنه يؤثر في صفاء قلبه و ارتفاع الحجاب عنه ما لا يؤثر أضعافه في قلوب أهل الهوى و الجهل لممارسة العلوم و الأفكار المجلية لقلبه و المصقلة له عن الرين و الغين المعدة له لاستفاضة النور عليه بسبب قليل من العمل وقوة قلوب أهل الهوى و الجهل و غلظ حجبهم و جرمانية نفوسهم و بعدها عن قبول النصفية فلا يؤثر فيها كثير العمل انتهى . وهذا معنى لطيف و تفسير معقول يصح أن يحمل عليه عبارة الحديث و لا موجب لظن الشارح أن مراد الحديث غيره و ما ذكره الشارح من التفسير أيضاً لا بأس به مع نقصه و حاصله أن عمل أهل الهوى باطل غير جامع لشرائط الصحة و لذلك يرد و أما عمل أهل العلم فصحيح جامع لشرائط الصحة و لذلك يقبل ، وهذا بين وجه كون عمل العالم مقبولا و لا بين وجه كونه مضاعفاً و الحق أن عملاً واحداً جامعاً لشرائط الصحة يكون نوابه للعالم أفضل و أكثر من غير العالم و لا بد لتصور معنى التضاعف أن يكون للعمل نواب غير مضاعف للعامل ما و هذا العامل ليس هو العالم لأن نوابه مضاعف فهو جاهل غير معاند و لا تابع لمعاند (ش) .

القليل من الأعمال و معنى قوله **تعلقها** و كثير العمل من أهل الهوى و الجهل - ل
مردود أنه لا يؤثر الأعمال الكثيرة في تلطيف قلوبهم و إزالة الحجاب والغشاوة
عنها لأن قلوبهم قاسية و نفوسهم جرمانية و سد بهم شديد.

(يا هشام إن العاقل رضي بالدُّنْيا من الدُّنْيا مع الحكمة) المتقسط حيوتان
و موتان بازاء كل حياة موت ، الحياة الاولى للنفس تعلقها بهذا البدن و تصرُّفها
بهذا النحو من التعلق و التصرف المعلومين ، و موتها انتقالها من هذا البدن و
انقطاع تعلقها و تصرُّفها فيه ، الحياة الثانية ابتهاجها بكمالاتها و صفاتها و أعمالها و
أخلاقها المرضية الموجبة لقرب الحق جل شأنه ، و موتها فقدان تلك الكمالات
و الأعمال و الأخلاق و تحريرها في ظلمات أضدادها ، و العاقل يعلم قطعاً أن الحياة
الأولى حياة مجازية لسرعة انتقال النفس عن البدن و قلّة مدتها ، و أن الاحتياج
إلى زهرات الدُّنْيا التي هي سبب لهذه الحياة إنما هو يقدر بقائها في تلك المدة
القليلة و إن الزائد على ذلك و بال عليه و تضييع للمعمر فيما لا يحتاج إليه ، و يعلم
أن الحياة الثانية حياة حقيقية أبدية لعدم انصرافها أبد الآبدين و إن سبب
هذه الحياة هي الحكمة و قد عرفت تفسيرها آنفاً فيرضى مع الحكمة الموجبة
للحياة الأبدية بالدُّنْيا و القليل منها الذي هو سبب للحياة المجازية
(و لم يرض بالدُّنْيا من الحكمة) و قليل من العلم و المعرفة (مع الدُّنْيا الكثيرة)
الزائدة التي لا يحتاج إليها في بقاء الحياة الدُّنْوية ، فأولئك اشتروا الأشرف
بالأخس و الأعلى بالأدنى حيث استبدلوا الحكمة التي قال الله تعالى في وصفها «و
من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» بما لا يحتاجون إليه من فضل الدُّنْيا و
اختاروها عليه (فلذلك ربح تجارتهم) ضمير الجمع باعتبار إرادة الجماعة من الجنس
و إسناد الربح و هو الفضل على رأس المال إلى التجارة و هي طلب الربح بالبيع
و الشراء إسناد مجازي لأن الربح حقيقة للتاجر إلا أن التجارة لما كانت متعلقة
بالتاجر و متلبسة به و سبباً للربح أسند الربح إليها اتساعاً . وفيه حث بليغ على
الزُّهد في الدُّنْيا و زهراتها إلا القدر الذي له مدخل في البلغة و الحياة فإن
زهراتها مع عدم الاحتياج إليها شاغلة للمفكر مانعة للقلب عن التوجه إلى حضرة
القدس ، باعثة لشدة الحساب : مقرّبة إلى العقاب ، محرّكة للأمال ، منسئة

لآجال ، مذهباً للمعبادة وحلاً ونهاداعية للنفس الأمارة إلى شقاوتها ، وحضٌ عظيم على طلب الحكمة (١) فإن السعادة في الدارين والفاضل في النشأتين إنما تحصل بها بل هي عين السعادة العظمى والغاية القصوى والفضيلة الكبرى ، بها يتم نظام الدين ؛ و يحصل قرب رب العالمين ، والوصول إلى أعلى منازل المقرّبين ، و لذلك أمر الله سبحانه حبّيه و صفّيه بعد تشرّفه بشرف الرّسالة و تحلّيه بلباس الكرامة فقال : عزّ شأنه و جلّ برهانه « قل ربّ زدني علماً » ولو كان شيء أعظم من العلم لأمره بطلب زيادته.

(يا هشام إنّ العقل ، تر كوا فضول الدنيا) وهي المباحات (فكيف الذنوب) الموبقة المورثة لخزي الوبال و شدايد النكال ، فانهم تر كوها بالطريق الأولى وأعلم أنّ امور الدنيا على تكثّرها مندرجة تحت الأحكام الخمسة ، لأنّها إمّا حرام أو حلال ، والحلال إمّا واجب أو مندوب أو مكروه أو مباح ، والمراد بالفضول هو الأخيران ، وبالدّنب هو الأوّل و أمّا الواجب وهو تحصيل القدر الضروري الذي لا يمكن النعيّش والبقاء بدونه ، والمندوب وهو الزّائد على ذلك ممّا يتوسّع به الرّجل على نفسه و عياله على حدّ القانون الشرعي الذي يسمّونه كفافاً فليس بمذموم بل هو واجب أو مستحسن عقلاً و نقلاً ، إذا تبيّن ذلك فنقول : العقل تر كوا فضول الدنيا لأنّها مذمومة إذ لا تمّ فيها بل غاية تنزّههم ونهاية تقدّسهم و كمال حراستهم صرف العمر فيما يشغل القلب عن ذكر الله تعالى ومشاهدة عظّمته و جلاله و مخافة أن ينجرّ ذلك إلى الجرام كما قال ﷺ : « لا يكون الرّجل من

(١) سبق أن الحكمة - وهي العلم باحوال الوجود على ما هو عليه بقدر الطاقة البشرية -

علم مرغوب فيه شرعاً وهي تشمل الحكمة النظرية من الطبيعي و الرياضي والالهي و الحكمة العملية كل ذلك بالدليل و اما التقليد وهو أخذ الشيء من غير دليل من غير المعصوم فمذموم والضلال يحصل من ترك التمسك بالتقليد فقط فكما ضل بعض الفلاسفة لتلك الملة فقد ضل اقوام لم تكونوا عارفين بالحكمة اصلاً (ش)

المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، و ذلك مثل الاجتناب عن التحدث بأحوال الناس لمخافة أن ينجس ذلك إلى الغيبة ، و إذا تركوا الفضول لهذه الأمور تركوا الدُّنوب الموجبة للعذاب المبين ، والبعد عن رحمة رب العالمين ، المحركة للنفس إلى أسفل السافلين ، والدُّأعية لها إلى الخسران المبين أو ترك الدُّنيا من الفضل وترك الذنوب من القرض (الجملة الحالية وهي كالتأكييد للمسبق و الدليل عليه ، لأن ترك فضول الدُّنيا إذا كان من باب الفضل والكمال دون القرض وترك الدُّنوب والاجتناب عنها من باب القرض الذي يطلب به النجاة عن عقوبات الدُّنيا والآخرة فهم إذا ارتكبوا ما ليس بفرض ارتكبوا ما هو فرض قطعاً وإنما قال : و ترك الدُّنيا ، ولم يقل : و ترك فضول الدُّنيا للتنبيه على أن غير الفضول وهو القدر الضروري ليس من الدُّنيا في شيء ، لأن المقصود منه حفظ النفس والاستعانة به على العمل للآخرة في طلبه عبادة كما روي «الكاذب» على عياله كالمجاهد في سبيل الله (١) ، والعبادة لاتعد من الدُّنيا (١)

(يا هشام إن العاقل نظر) بعين البصر والبصيرة (إلى الدنيا و إلى أهلها) الطالبين لزهراتها ، الغارقين في شهواتها ، المائلين إلى أدائها (فعلم أنها لاتنال إلا بالمشقة) لما رأى من أهلها في تحصيلها من خوض الأعرج و سفك المهج و قطع البحار و طي القفار في التجارات و صرف الأعمار و قصر الأفكار في الزراعات

(١) الكافي ج ٥ ص ٨٨ رقم تحت ١ .

(٢) جميع ما عدهنا من مناقضات العقل هي من آثار الوهم وما عده من علانم العقل هو من مناقضات الوهم عليك بالنال فيها بعد ما شبه عليه النموذج و مثالا فحب المال والجاه والتجمل والرياسة و امثال ذلك مما يسمى بالدنيا إنما هو من الوهم والوهم حس يدرك به المعاني الجزئية كما يدرك الغنم وحشة من الذئب وعداوة فيه يبعثه على الفرار منه والام تدرك محبة المولد تبعثها على ارضاعه و حضائه و اهل الدنيا يدركون في انفسهم محبة للمال والجاه يبعثهم على الخيانة والفساد والسعي في جمع المال من أي وجه كشهوة انجرهم من غير اختيارهم إلى شئ يضرهم (ش).

إلى غير ذلك من أنحاء الأسباب و أنواع الاكتساب ، و في حفظها من دوام السهر ليلاً و نهاراً و جعلها نصب العين سرّاً و جهراً إلى أن يموتوا أو يفتنوا ذلاً و صغاراً (و نظر) بعين البصيرة (إلى الآخرة) و مقاماتها الرفيعة ، و منازلها الشريفة ، و مثوباتها الجزيلة ، و منافعها الجميلة . وإنما لم يقل هنا « و أهلها » كما قال في قرينه للتنبيه على قلتهم بل على عدم وجودهم (فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة) الحاصلة من صرف الفكر في المعارف الإلهية و الأحكام الربانية في جميع الأوقات و حبس النفس و الجوارح على الطاعات في آناء الليل و أطراف النهار و أشرف الساعات ، و علم مع ذلك أن الدنيا و الآخرة كضرتي إنسان في أن محبة أحديهما إسقاط للأخرى ، أو مثل كفتي ميزان في أن رفع أحديهما وضع للأخرى (فطلب بالمشقة أبقاهما) لما جبلت النفوس عليه من عدم تحمل المشاق إلا لأجل المنافع و المنافع الآخروية أجل قدر أو أعظم شأناً و أدوم زمناً من المنافع الدنيوية بل لا نسبة بينهما إذا المتناهي لا يقاس بغير المتناهي كما قيل عز شأنه حكاية عن قوم حين شاهدوا أهوال القيعة و علموا طول زمانها و سئلوا عن كمية زمان تلذذتهم في الدنيا قالوا لبنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ، و قال أمير المؤمنين عليه السلام لو كانت الدنيا من ذهب و الآخرة من خرف لاختر العاقل الخرف الباقي على الذهب الثاني . كيف و الأمر على العكس هذا حال العاقل ، و أمّا الجاهل فلكونه ضريراً يرى أمر الدنيا عظيماً و أمر الآخرة حقيراً ، و ربّما يخطر من تدليس إبليس بهاله انقاص و ذهله الفاتر أن النقد خير من النسبة فيختار الدنيا على الآخرة و لا يعلم لعميان قلبه (١) و نقصان بصيرته أن النقد خير من النسبة

(١) عيان القلب و نقصان البصيرة من غلبة الوهم على العقل و مثل ذلك المنطقيون

بان العقل يركب مقدمات صحيحة و يعترف بها الوهم فإذا اراد الاستنتاج نكس الوهم على عقبيه كالشيطان ، مثلاً يقول العقل الميت جماد و هو حق و الجهاد لا يخاف عنه و هو أيضاً حق و يعترف به الوهم و النتيجة الميت لا يخاف عنه و يعترف به العقل دون الوهم فان كان الإنسان تابعاً لوهمه خاف ، و إن كان تابعاً لعقله لم يخف ، و الوهم هو السلطان المطلق

إذا كان مماثلاً لها في الكمية والكيفية و ليس الأمر ههنا كذلك إذ هذا النقص لا قدر له أصلاً ولا وزن له قطعاً عند هذه النسبة على أن أصحاب الإيمان وأرباب العرفان لكثرة عبادتهم وشدة رياضتهم يجدون تقدماً من الفيوضات الإلهية والإشرافات الربانية ما لا يرضون بعوض واحد منها أخذ الدنيا وما فيها .

(يا هشام إن المقلا، زهدوا في الدنيا) وأعرضوا عن حطامها وزهراتها القانية و طهروا ساحة قلوبهم عن طول الأمل و لوث العوائق و قطعوا عن رقاب نفوسهم زمام التماسي و حبل العلائق (و رغبوا في الآخرة) و طلبوا ثوابها باستعمال العبادات و استكمال الطاعات و اجتهدوا في الوصول إلى أشرف المنازل و أرفع المقامات فتاهت أرواحهم في مطالعة الملك والملوكوت ، و كشفت لهم حجب العز و الجبروت ، و خاضوا في بحر اليقين ، و تنزهوا في رياض المنقين ، و ركبوا سفينة التوكل و أقبلوا بشراع التوكل ، و ساروا بريح المحبة في جداول قرب الغرة و حطوا بشاطئ الإخلاص (١) حتى نزلوا في ساحة الجلال ومنزل الاختصاص (لأنهم علموا أن الدنيا طالبة لمن فيها لتوصل إليه ما عندها من رزقه المقدر و قوته المقرر (مطلوبة) يطلبها أهلها حرصاً في جميع ما لا يحتاج إليه و ذخراً ما

هو الحاكم في الحيوان و يعرف في زماننا في لسان العوام بالتريزة والعطرة وقد يطلق عليه المواطن في الانسان والروم مع تلبطه و معارضته العقل له شأن كبير ومصالح عظيمة خلق الله تعالى تلك المصالح فلو لا الخوف والروم لم يرض الناس بدفن اعزتهم واحبتهم في الزراب ولما تحمل احد مشقة تربية الاولاد ولما دافع الناس عن اعراضهم واموالهم و اقاربهم ولما خاطروا بأنفسهم في سبيل جمع المال و تحصيل الجاه فان ذلك كله ناش من تصور معنى جزئي كالمحبة والمداوة ينبعث منه الغضب والشهوة لكن الانسان مأمور بتسخير وهمة لعقله وأن يستعمله حيث يجوزه العقل وسائر الحيوان مجبولة بمتابعة اوهامهم ولا عقل يردعهم عما يامر به وهمهم (ش).

(١) و حطوا أي انزلوا رجالهم والدنيا لا تطلب الا بالوهم فانها مال و جاه و رئاسة و غلبة و تلذذ و امثال ذلك من القوة الواهمة والعقل معارض لها (ش).

يكون نفعه لغيره و ضرره عليه (والآخرة طالبة) لمن في الدنيا لتؤتيه ما عندها من وقته المقرّر وأجله المقدّر، إذا أجل مثل الرزق مكتوب مقدّر (ومطلوبة) يطلبها أهلها للوصول إلى أشرف درجاتها و أرفع طبقاتها بالأعمال الصالحة والأخلاق انفاضة، وفي ترك عطف «مطلوبة» على «طالبة» في الأول وعطفها في الثاني تنبيه على أن المتحقق من نسبة الطالبة و المطلوبة إلى الدنيا والواقع منهما في نفس الأمر هو المطلوبة بناء على أن النفي والإثبات في الكلام راجعان إلى القيد كما هو المقرر في العربية و وجهه ظاهر اظهر أن الناس كلهم إلا من شدّ طالبون للدنيا بخلاف نسبتها إلى الآخرة ، فإن طالبتها أيضاً متحققة في نفس الأمر هذا إن جعلت «مطلوبة» صفة «طالبة» و قيداً لها و إن جعلت خبراً بعد خبر كما هو الأنسب باتقربة الثانية فالوجه في ترك العطف هو الإيما، إلى كمال اتصال مطلوبة الدنيا بطالبتها ، و نهاية ربطها بها ، وعدم افتراقها عنها باعتبار أن الدنيا في الواقع مطاوعة للكل فلاحاجة هنا إلى رابطة مستفادة من العطف بخلاف مطلوبة الآخرة فإنه لا اتصال بينها و بين طالبتها لوقوع الافتراق بينهما باعتبار قلّة طالب الآخرة فاحتيج في ربط إحديهما بالآخرى إلى العطف هكذا فافهم ، ثم الطالبة والمطلوبة في كل واحدة من الدنيا و الآخرة يمكن أن تتصور على وجهين أحدهما أن كل واحدة من الدنيا والآخرة متصفة بهما مع قطع النظر عن الأخرى ، و ثانيهما أن كل واحدة منهما طالبة عند كون الأخرى مطلوبة ومطلوبة عند كون الأخرى طالبة ، والوجه الثاني هو المراد هنا كما يرشد إليه قوله تعالى (فمن طلب الآخرة) و سعى لها سعيها طلباً لمقاماتها العالية ، و إنّما قدّم هنا طلبها على طلب الدنيا للاهتمام به ، والتنبيه على أنه هو الذي يجب رعايته، وعكس في السابق باعتبار تقدّم الدنيا على الآخرة و ملاحظة وقوع طلبها في نفس الأمر (طلبته الدنيا حتّى يستوفي منها رزقه) كما قال الله سبحانه « و في السماء رزقكم و ما تعدون . ف ورب السماء والأرض إنّهُ لحقّ مثل ما أنتم تنطقون » و قال : « و ما من دابة في الأرض إلا على الله

رزقها ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا يموت نفس حتى تستكمل رزقها (١) » وقال الصادق عليه السلام : « لو كان العبد في حجر لا تاه الله برزقه (٢) » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « الرزق رزقان رزق يطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأتئه أنك » وقال : « يا ابن آدم لا تحمل هم يومك الذي لم يأتك على يومك الذي أتاك فإنه إن يك من عمرك يأتي الله فيه برزقك (٣) » و قيل لبعض الأكابر : قد غلأ السعر ، فقال : لو كان وزن حبة من الطعام بمثقال من ذهب ما باليتُ فإن عايناً أن نعبد كما أمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا . ومن ثم قيل : أترك الدنيا وخذها فإن تركها في أخذها وأخذها في تركها (و من طلب الدنيا) وسعى لها سعيها و صرف عمره الذي هو رأس ماله في أدخار متقنيات (طلبته الآخرة) حتى يستوفي منها أجله (فيأتيه الموت فتفسد عليه دنياه و آخرته) أما فساد دنياه فلا تقطعها عنه وعدم وفائها وزوال تصرفه فيها وعود ما جمعه إلى غيره حتى كأنه كان عبداً لذلك الغير ، و أما فساد آخرته فلأن صلاح الآخرة إنما هو باكتساب الأعمال المرضية و صرف المكرف في الأحكام الزافعة الشرعية ، و هما إنما يكونان قبل الموت و في دار الدنيا ، و هو قد كان في الدنيا عاملاً للدنيا ، و مكتسباً لآخرها ، و متفكراً في منافعتها ، و عبداً لغيره ، فقد ظهر من هذا الحديث أن طالب الآخرة له الدنيا و الآخرة و طالب الدنيا خاسر فيهما و نظيره قول أمير المؤمنين عليه السلام : « الناس في الدنيا عاملان عامل في الدنيا قد شغلته دنياه عن آخرته ، يخشى على من يخلفه الفقر و يأمنه على نفسه ، فيفنى عمره في متعة غيره ، و عامل عمل في الدنيا لما يبدؤها فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل ، فأحرز العظمين معاً ، و ملك الدارين جميعاً فأصبح وحيهاً عند الله تعالى

(١ و ٢) رواه الكليني في الكافي ج ٥ ص ٨٠ باب الاجمال في الطلب من

كتاب المعيشة.

(٣) النهج ابواب الحكم تحت رقم ٣٢٩ بأدنى اختلاف .

لا يستل الله حاجة فيمنعه (١) وفيه ترغيب في تفويض الرزق إلى الله تعالى والتوكل عليه وتنبيه على أنه لا يبلغ هذه المرتبة إلاّ العقلاء لأنهم الذين إذا تأملوا بعقولهم الصحيحة ونظروا إلى لطف الله تعالى في باب الرزاق وتفكروا في رزق الطيور والجنّة في بطون الأمّيات و رزق المجانين وسائر الحيوانات بلا تكلف ولا حيلة علموا أن وصول الرزق منوط بالمشيئة الإلهية وما قدر للشخص فهو يأتيه قطعاً ويطلبه جزئاً ، فيكون طلبه عبثاً لا فائدة فيه و تضييعاً للعمر فيما لا يعنيه ، وصرفوا عنان الهمّة نحو الآخرة ساعين عابدين خاشعين متضرّعين لعلمهم بأن الآخرة و درجاتها لا تناول إلاّ بالأعمال الصالحة، فمسأل الله تعالى الاقتفاء بآثارهم والتمسك باطوارهم إنّه على ذلك قديرٌ و بالإجابة جدير .

(١) ياهشم من أراد الغنى بالمال (٢) الغنى الدنيوي على وجهين أحدهما ما يدفع ضرورة الحاجة بحسب الاقتصاد والقناعة، وثانيهما المفهوم المتعارف بين أرباب الدنيا من جمع المال و ادخاره و الاتساع به فوق الحاجة و الغنى على الوجه الاول ممدوح عقلاً ونقلاً، و على الوجه الثاني مذموم والغنى الدّيني - وهو ما يدفع النزول في عذاب الجحيم ويوجب الوصول إلى جنات النعيم - مع تفاوت مراتبه كلّها ممدوح و الأنسب هنا هو الوجه الأول بقرينة التفريع الآتي و الشكير في قوله « بالمال » حينئذ للتكثير لأنّ الاقتصاد والقناعة يحتاج إلى قليل من المال وحمله على المعنى الأخير محتمل لكنّه بعيد جداً (وراحة القلب من الحسد) تارة بأنّه تمنى الرجل زوال النعمة من ذوى النعمة وعودها إليه ، وأخرى بأنّه اغتمامه بخير يناله غيره من حيث لا مضرة عليه، واتفق أرباب القلوب على أنّه من أعظم

(١) أورده الشريف الرضي في النهج أبواب الحكم تحت ٨ قم ٢٦٩.

(٢) الغنى بالمال هو القناعة و مقابلة الطمع و توهم الحاجة إلى التجل وادخار المال وهو من القوة الواهمة المعارضة للمنافاة فإذا غلب العقل ذهب الوهم وكذلك الحسد من حب الغلبة والاستكثار وتصور العداوة وهي معاني جزئية تدركه الواهمة تبحث به الإنسان على الاضرار و تمنى زوال النعمة والوساوس والافات النفسانية المضرة بالدين كلها من الواهمة ودافع العقل . (ش)

أبواب الشيطان التي يدخل بها على القلب ، وعلى أنه من أقبح العوارض الرديئة للقلب و يتولد من البخل والشر و يراد بالشر النذاذ الطبع بما يضر الناس و اغتمامه بما يوافقهم ، وعلى أنه مضر بالقلب . والجسد إما بالقلب فلا أنه يصرف فكره إلى الاهتمام بأمر المحسود والاعتماد بشأنه حتى لا يفرغ المنصرف فيما يعود نفعه إليه وينسى ما حصل له من الملكات الخيرية التي هي الحسنات المنقوشة في جوهره فنضمحل تلك الملكات على طول الحسد و اشتغال الفكر في المحسود و طول الحزن و الهم في أمره و يتضيّق وقته و يتوقى عقله من تحصيل الحسنات والخيرات ، ولذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) « لا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب » (١) وإما بالجسد فلا أنه يعرض له عند حدوث هذه الأراض الشنيعة و الأمراض الرديئة طول السهر و سوء الاعتناء ، ويعتب ذلك رداة اللون و سوء السحنة و فساد المزاج والقوى (والسلامة في الدين) من الآفات الفسائية و الوسوس الشيطانية (فلينضرع إلى الله عز وجل في مسئلته بأن يكمل عقله) أي علمه أو جوهره المجرد القابل (٢) له و فيه دلالة على أن العقل موهبة الهيّة و عطية ربانية لا يزداد ولا يكمل إلا بعنايته ، وعلى أنه سبب للأمور الثلاثة المذكورة أمّا الثاني فلأن العاقل الكامل يعلم أن الحسد لا ينفعه بل يضره و أنه صفة موجبة للمقت من الله جل شأنه لعلمه بأن الحاسد مضاد لأرادته لأنه تعالى هو المتفضل للكل و هو المفيض للخير إلى كل أحد بما يليق به و يصلح له فيعلم أن كلاً من الإعطاء والمنع وقع على وفق الحكمة والمصلحة فيطمئن قلبه بقسمة ربه ، و أما الثالث فلأن العاقل يعلم بنور عقله طريق الحق و كيفية سلوكه إلى حضرة

(١) رواه الكليني في الكافي كتاب الايمان والكفر باب الحسد .

(٢) يعنى نفسه والنفس الناطقة جوهر مجرد قابل للعلم كما سبق و القول المقابل لذلك هو ان النفس والعقل قوة جسمية حالة في الدماغ ويلزمه ان يضمحل بالموت وفساد الدماغ كالنور يغنى بنقاء الدهن وهو قول الملاحدة والزندقة وربما يتفوه به غير البصير من المتعجلين الى الاسلام والملحد المتظاهر بالدين . (ش)

القدس ويعلم آفات الدين و كيفيته اجتنابه عن تلك الآفات و يعمل بمقتضى عقله الصريح و ذهنه الصحيح فيتم له بهذين العلمين مع العمل بنظام الدين و كمالاته ، ويسلم عن مفسده و آفاته ، وأما الأول فلما أشار إليه بقوله (فمن عقل قنع بما يكفيه) لأن العاقل إذا نظر إلى جلال الله و آثار ملكه وملكوته و إلى أحوال الآخرة و ما فيها من المقامات العالية و المراتب الروحانية و إلى ما حصل له عجمالة من الأنوار العقلية و الفيوضات القلبية و إلى أن كماله فطام النفس عن الشهوات و نزاع القلب عن الأماني و الشبهات و ترك ما يمنعه من التوجه إلى الآخرة من الزهوات و خلوا السر عن النظر إلى الدنيا و ما فيها من المقتنيات استحق الدنيا و ما فيها و رجع بالكلمة إلى حضرة الحق و ما في الآخرة من المقامات فيقنع من الدنيا بقدر الكفاف و بما يقيم به بدنه و قواه و يقدره على الإقامة بالطاعات إذ التعرض للزائد على ذلك لقصور العقل و ضعف اليقين و فتور النيات و خلو النفس عن المعارف النورانية و إلغائها بالمحسوسات و انفتاح عينها إلى الأمور الدنيوية و الصور الوهمية و احتباسها في الظلمات و غفلتها أن الدنيا كسراب ببيعة يحسبها الظلمات ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فيضيع سعيه و يزداد عليه الندامة و الحسرات (ومن قنع بما يكفيه استغنى) بما يكفيه عن الزائد أو بالآخرة عن الدنيا أو بالحق عن الخلق فإن من رضي بالقوت و توكل على الحي الذي لا يموت لم يفتقر إلى غيره لأجل المسكنة (ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً) لأن الغنى هو الكفاف فمن لم يكفه الكفاف فجميع ما في الأرض لا يكفيه ، ولأن طلب الزيادة منوط بالحرص ، و مراتب الحرص غير محصورة ، فإذا حصلت له مرتبة من تلك المراتب طلب ما فوقها فلذلك قال عيسى عليه السلام لأصحابه : يا معشر الحوارين لأنتم أغنى من الملوك ، قالوا : وكيف يا روح الله؟ وليس نملك شيئاً ، قال : أنتم ليس عندكم شيء ولا تريدونه وهم عندهم أشياء ولا يكفهم .

((الاصل)):

- « يا هشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد »
 « إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب » حين علموا أن القلوب »
 « تزغ وتعود إلى عماها ورداها ، إنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله ومن لم يعقل »
 « عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه ولا يكون أحد »
 « كذلك إلا من كان قوله لفعله مصداقاً وسراً لعلانيته موافقاً . لأن الله تبارك »
 « اسمه لم يدُل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه . »
 « يا هشام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : ما عبد الله بشيء أفضل من العقل وما »
 « تم عقل امرئ حتى يكون فيه خصال شتى : الكفر والشر منه مأمونان ، والرشد »
 « والخير منه مأمولان ، وفضل ماله مبذول ، وفضل قوله مكفوف ، ونصيبه من الدنيا »
 « القوت ، لا يشبع من العلم دهره ، الذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره ، والنواضع »
 « أحب إليه من الشرف ، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من »
 « نفسه ، ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم في نفسه وهو تمام الأمر . »
 « يا هشام إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه . »
 « يا هشام لا دين لمن لا مروءة له ولا دين لمن لا عقل له ، وإن أعظم الناس قدراً الذي »
 « لا يرى الدنيا لنفسه خطراً ، أما إن أبدأنكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها . »
 « يا هشام إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : إن من علامة العاقل أن يكون »
 « فيه ثلاث خصال : يجيب إذا سئل وينطق إذا عجز القوم عن الكلام ويشير بالرأي الذي »
 « يكون فيه صلاح أهل له ، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو أحمق »
 « وإن أمير المؤمنين عليه السلام قال : لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه هذه الخصال »
 « الثلاث أو واحدة منهن فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس فهو أحمق . »
 « وقال الحسن بن علي عليه السلام : إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها ، قيل يا ابن »
 « رسول الله ومن أهلها ؟ قال : الذين قص الله في كتابه وذكركم ، فقال : إنما يتذكركم »

« أولو الألباب قال : هم أولو العقول . »

« وقال علي بن الحسين عليه السلام : مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح »
 « وآداب العلماء زيادة في العقل ، وطاعة ولاية العدل تمام العز ، واستثمار المال »
 « تمام المروءة ، وإرشاد المستشير قضاء الحق النعمة ، وكف الأذى من كمال العقل »
 « وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً . »

« ياهشام إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف نفيه ، ولا يعد »
 « ما لا يقدر عليه ، ولا يرجو ما يعنف برجائه ، ولا يقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه . »

((الشرح)) :

(ياهشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا ربنا لا ترغ) أي لا تمل من
 الازغاة وهي الامالة (قلوبنا) من الحق إلى الباطل أو من الايمان إلى الكفر أو من اليقظة
 إلى الغفلة أو من العلم والهداية إلى الجبل والغواية ، وقال صاحب الكشف لا تبتلنا
 ببالايا تزيغ فيها قلوبنا (بعد إزهديتنا) إلى الخيرات المذكورة «بعد» نصب على
 الظرف «إذ» في موضع الجر بالإضافة ، وقيل : «إذ» ههنا بمعنى أن ولما كان بين
 الرغبة والرغبة تلازم وقد صدر منهم الدعاء بالنظر إلى الأولى أو لا صدر منهم
 الدعاء بالنظر إلى الثانية ثانياً طلباً لزيادة الإفضال والإحسان ورجاء لمزيد النعمة
 والامتنان (فقالوا : وهب لنا من لدنك رحمة) أي كرامة توجب قربنا منك والزلزلة
 إليك والفوز بالفلاح لديك أو توفيقاً للمثبات على الحق أو الايمان أو مغفرة
 للذنوب ، ثم قالوا : انما كيد رجائهم في إجابة دعائهم (إنك أنت الوهاب) في
 النهاية : الهبة انعطية الخالية عن الأعواض فإذا كثرت سمى صاحبها وهّاباً ، وهو من
 أبنية المبالغة ، يعني أنت الوهاب لكل طلبة و مسئلة أو لوجود كل شيء ، و حقيقة هو
 ماهيته و خواصه و آثاره و كماله من غير عوض ، وفيه دلالة على أن السلامة من
 آفات الدنيا والهداية إلى المولى والنجاة من الضلالة والعمى والاستقامة على
 سبيل الرشاد من الله المتفضل برحمته على العباد (حين علموا) ظرف لقالوا (أن)

القلوب تزيع) يفتح الناء من زاغ بمعنى مال ، أي تميل عن طريق الصواب (و تعود إلى عماها) (١) أي جهلها يقال : رجل عمى القلب أي جاهل ، و أصل العمى ذهاب البصر وإذا أضيف إلى القلب يراد به ذهاب البصيرة ، وقد يجعل كناية عن الجهل (وردأها) أي هلاكها من ردى الدابة في البئر إذ اسقط فيها ، أو من ردى فلان في الأرض إذا ذهب و تاه فيها ، أو من ردى فلان بالكسر يردى ردياً إذا هلك ، وفيه إشارة إلى شيئين أحدهما أن القلوب يعني النفوس البشرية كانت في مبدئ الفطرة جاهلة للمعارف الإلهية ، غافلة عن الأنوار الربانية ، هالكة ساكنة في تيه الجهالة قابلة لنور الهداية و ظلمة الغواية ، كما يظهر ذلك لمن تفكّر في أطوار الإيجاد والتكوين فإنه يعلم أنها كانت صوراً جمادية ، ثم صارت صوراً نباتية ، ثم صارت صوراً حيوانية ، ثم صارت بتلك الاستحالات صوراً إنسانية مستعدة للخير والشر قابلة للهداية والضلالة ، ثم حصلت لها بالترقيات الإلهية والتوقيفات الربانية كما يرشد إليه قوله بعد إذ هديتنا جملة من العلوم و زمرة من المعارف و نبذة من الأحوال والأعمال فخرجت بذلك من حجب النقص على الإطلاق في قوتها العلم والعمل إلى مرتبة الكمال الثاني أن هذه المرتبة ليست لازمة للنفس ثابتة لها غير منفكة عنها لأن النفس الحرة قد تقف من الجرى في ميدان العلم والعمل ، بل ترجع القهقري إلى حالتها الأولى ، و سر ذلك أنها ما دامت في الدنيا متعلقة بهذا البدن مائلة إلى الهوى ودواعي الشيطان ذاكرة لأصناف الباطل وأنواع العصيان فربما تأخذ يد الشقاوة زمامها و تسوقها إلى ما هو مطلبها و مرامها ، وتجذبها عما

(١) « تزيع وتعود إلى عماها » ربما غلب العقل على الوهم و دفعه إلى تسليم

الحقيقة و ربما يقوى الهوى فيرجع الوهم إلى ما كان و يزيع عن الهدى مثلاً في الشبهات الاعتقادية ، ربما يدخل على الوهم شبهة أن الموجود محسوس فيشكك في المبدء بعد أن كان معتقداً و ربما يشتغل بالعبادة و يضي على ذلك مدة ثم يغلب عليه الهوى و حب الشهوات فيرجع عما كان عليه و يشتغل بالملذات و هذا أيضاً من القوة الواهمة المدركة للمعاني الجزئية في غير تدبير العقل. (ش)

هي عليه من العلوم والأعمال الصالحة وتوردها في تبه الجهالة والضلالة ، وقد روى أبو بصير وغيره قال : قال الصادق عليه السلام : « إن القلب ليكون الساعة من الملبس والنهار ما فيه كفر ولا إيمان كالثوب الخلق ، قال ثم قال لي : أما تجد ذلك من نفسك ، قال : ثم تكون المنكبة من الله في القلب بما شاء من كفر ولا إيمان » (١) ولذلك خاف الصالحون وجل المتقون وطلبوا بالنضج والابتهال حسن العاقبة بقواهم « ربنا لاترغ قلوبنا بعد إزهدتنا » والأدعية المأثورة في هذا الباب أكثر من أن تحصى ، ولما يبين أن بقاء النفس على كمالها العملي والعلمي مادامت في الدنيا ومسكن الشياطين غير لازم ، بل ربما تعود إلى عماها ورداها وتترك العمل وتنسى العلم والآخرة أراد أن يبين ذلك فيمن لم يكن قلبه مستضيئاً بنور الله وعقله مهتدياً بهداية الله و لم يأخذ علمه من الله تعالى إما بلا واسطة كالأنبياء والرسل أو بواسطة كالمستكين بذيل عصمتهم والراجعين في كيفية العمل والعلم إلى معدن طهارتهم فأشار إلى الأول بقوله (إنه) أم يخف الله من لم يعقل عن الله) لأن من لم يكن علمه بذات الله وصفاته وشرائعه وأركان الأعمال وشرائطها وأحوال الآخرة مستنداً إلى الله تعالى بأحد الوجهين المذكورين كان علمه إما تقليداً محضاً كما في أكثر العوام وإما رأياً وقياساً كما في أكثر الناس وإما ظناً وتخميناً وجدائياً كما في أكثر المتكلمين (٢) الذين وضعوا لأنفسهم دلائل على هذه الأمور واستحسنوها وكل ذلك لا يوجب الخوف من الله سبحانه والخشية من عذابه، أما التقليد فظاهر لأنه لم يحصل لهم من الحقيقة الإلهية إلا الاسم ومن حقيقة الأحكام الشرعية وأركانها وشرائطها إلا الرسم ، ومن أحوال الآخرة و شدايد أهوالها إلا اللفظ، والخوف منوط بأدراك حقيقة هذه الأمور ، وأما القياس فهو أيضاً ظاهر وكذا تخمين المتكلمين على أن أكثرهم القائلين بالفاعل المختار

(١) روى الكليني في الكافي في كتاب الإيمان والكفر باب سهو القلب تحت رقم ١

(٢) ذم التقليد وهو الأخذ من غير دليل وذم الكلام أيضاً وهو الأخذ بدليل جدلي

ادعاني فبقي أن يكون الدين مستنداً إلى دليل برهاني أو كشف عرفاني . (ش)

ينكرون السببية في الممكنات (١) ويجوزون مغفرة الكافر الشقي ومعاقبة المؤمن السعيد فلا يحصل لهم خوفٌ وخشية ، وإذا انتفى الخوف انتفى العمل وكماله والجدُّ فيه ، وأما العلماء الراسخون الآخذون علومهم من مشكوة النبوة فهم يعلمون الحقائق كما هي وصفات الواجب وما يجوز له وما يمتنع عليه وأحكام الدين وأركانها وشرائطها وأحوال الآخرة وشدائد أحوالها كأنهم يشاهدونها ويعلمون أن الله تعالى لا يظلم أحداً عن ذرةٍ وأن ما يرجع إليهم من الخير والشر فهو من نتائج تقوسهم ولوازم أخلاقهم وتبعات أعمالهم (٢) وأفعالهم فيخافون من الله عزَّ شأنه غاية الخوف

(١) هذا مذهب أكثر المتكلمين وهم الاشاعرة واتباعهم من غيرهم فانهم ينكرون التسبب يقولون مثلاً ليس البارقة للحرارة ولا الماء للمبرودة ولا الشمس للنمو ولا السموم للقتل وهكذا ولكن عادة الله جارية بالاحراق عند ملاسة النار وغير ذلك .

وهذا مذهب باطل بل جعل الله لكل شيء سبباً لا يجاوز والفاعل المختار بالارادة الجزائية غير حكيم والله تعالى حكيم فلا يفعل شيئاً بالارادة الجزائية افان قيل قد صرح صاحب التجريد بصير الدين الطوسي به والعلامة وغيرهما بأنه تعالى فاعل مختار فكيف بخطئه الشارح مع انه مذهبنا قلت الفاعل المختار عند متكلمي الشيعة ومن يمتد بقوله منهم و يؤخذ العلم عنه ويقول ما يقول عن تدبير وبصيرة هو ما يكون مقابل الفاعل المضطر والفاعل بلا شعور فان صدور الفعل عن الله تعالى ليس كصدور النور عن الشمس بلا شعور مضطراً ولا يريدون أن فعله تعالى كمثل الانسان المختار بفكر ورؤية تارة يختار هذا وتارة يختار ذلك في ظرف و أمد ولا يخفى أن مثل هذا الكلام من الشارح وغيره من الحكماء صادر من شأن أن ينسب إليهم القول بأن الله فاعل موجب وهذا من قلة التأمل والشارح مع تصريحه هنا بالقدح في الفاعل المختار صرح في كلامه كثيراً بالقادر المختار كما مر وكل بمعنى (ش) (٢) هذا ايضا منفرع على ما سبق من التسبب فلا يفعل الله تعالى شيئاً في الدنيا والآخرة الا بسبابها ولا يكون ارادته ارادة جزافية وليس فاعلاً مختاراً بالمعنى الذي يفهمه بعض المتكلمين فكما أن سبب نمو النبات في الدنيا البذر والماء والحر والشمس ولا ينبت الحنطة من بذر الشعير كذلك أبواب الآخرة مسبب عن ملكات النفوس وأخلاقها وما رسمت فيها من الصفات بالأعمال الصالحة والسببية (ش)

كما قال سبحانه وإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ فلا جرم يعملون في الدنيا لآخرة ويسعون لها غاية السعي ويحصلون ما يوجب نجاتهم من النار وفوزهم بالجنة وأشار إلى الثاني (١) بقوله :

(ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها و يجد حقيقتها في قلبه) يعنى من لم يأخذ علمه من الله سبحانه بأحد الوجهين المذكورين لم يكن إيمانه ثابتاً ولا علمه باقياً لأنهما يزولان بأدنى شبهة بخلاف من أخذ علمه منه تعالى فإن إيمانه ثابت وعلمه راسخ لا يزول بوجه من الوجوه كما قال العالم عليه السلام من : « أخذ دينه من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه وآله زالت الجبال قبل أن يزول ومن أخف دينه من أفواه الرجال ردته الرجال » (٢) وقال عليه السلام « من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتكذب الفتن » (٣) (ولا يكون أحد كذلك) أى يعقل عن الله ويعقد قلبه على معرفة ثابتة ويبصرها و يجد حقيقتها في قلبه (إلا من كان قوله لفعله مصداقاً) بأن يكون عاملاً بالمعروف آمراً بما بد، وتاركاً للممنكر ناهياً عنه، فإن العلم الحقيقي والإيمان الكامل يحكمان بالتلازم بينهما وحمل القول هنا على الاعتقاد بعيد (وسره) لعلايته موافقاً بأن يكون صفاته وكمالاته الباطنة موافقة لصفاته وكمالاته الظاهرة مثل الأعمال الحسنة وحسن الخلق وطلاقة الوجه وإكرام المؤمن و أمثال ذلك (لأن الله تبارك اسمه لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه) أى مخبر عنه ومشعر به هذا دليل على ما يفيد الاستثناء من أن من كان قوله لفعله مصداقاً وسره لعلايته موافقاً تجده عاقلاً عن الله ثابتاً على معرفته راسخاً في إيمانه وعرفانه و يجد حقيقته ذلك في قلبه . بيان ذلك أن العلم بحقيقات الأمور وصفات انقلب ليس إلا لعالم الغيوب لأنه العليم بذات الصدور وأما غيره فقد يعلم الباطن من الظاهر، فكما يعلم من حمرة الوجه وانتفاخ العروق وغلظ الصوت شدة الغضب

(١) أى نسيان العلم و الآخرة ان اسم يكن علمه مستنداً إلى الله باحد

الوجهين (منه) .

(٢) و (٣) تقدم في مقدمة الكتاب .

وإرادة الانتقام، ومن اصفراد الوجه وتضائل البدن وتحرك الفرائص شدة الخوف كل ذلك المناسب بين الروح والبدن بحيث يصل أثر أحدهما إلى الآخر كذلك يعلم الصفات النفسانية والكمالات الروحانية والعلوم والعقائد الراسخة القلبية من الأعمال والأفعال الصادرة من الأعضاء، الظاهرة مثلاً يقول فلان عليم مؤمن راسخ في علمه وإيمانه وكريم حلیم رحيم إذا صدر منه الأفعال النابعة للمعلم والإيمان وأفعال الكريم والحليم والرحيم مراراً كررة بعد أخرى، والسر في ذلك أن تلك الصفات أسباب لهذه الأفعال والأعمال لأنه ينبعث منها الشوق والإرادة والعزم ويتحرك بسبب هذه الأمور الأعضاء نحو المنشوق والمراد، فيظهر منها الأفعال والأعمال، ودلالة هذه الأعمال والأفعال على تلك الصفات كدلالة الأثر على المؤثر وبالجمله ظاهر الرجل عنوان لباطنه ومعرفة باطنه تابعة لمعرفة ظاهره، فان كان جميع أفعاله الظاهرة دائماً مستقيمة واقعة على القوانين الشرعية دل ذلك على ثبوت معرفته وإيمانه وكمالهما ورسوخهما وإن كان جميعها غير مستقيمة أو كان القول مستقيماً وغيره من الأفعال غير مستقيم أو كان عكس ذلك دل ذلك على عدم ثبوت معرفته وإيمانه وعدم كمالهما ومثل هذه المعرفة والإيمان في معرض الزوال.

(يا هشام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : ما عبد الله بشيء أفضل من العقل) المقصود أن العقل أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى وكل ما يتقرب به سواء دونه في الفضل وهذا كمال المدح له ولأعلمه وأعلم أن للعقل اطلاقات والمشهور منها أمران : الأول القوة المهيأة للعلوم الكلية ضرورية كانت أو نظرية تصورية كانت أو تصديقية ولا نعني مجرد القوة والاستعداد بل نعني بها القوة الحاصلة معها كمالاتها بالفعل، والثاني العلم والحكمة التي هي ثمرته ويمكن حملها هنا على كل واحد منهما لأن كل واحد منهما أصل يتوقف عليه غيره مما يتقرب به العبد إلى الله تعالى مثل الصلوة والصيام والحج والزكوة ونحوها فكل واحد منهما أفضل مما عداه وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام : يا علي إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات

والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة (١) (وما تم عقل امرء حتى تكون فيه خصال شتى) الخصال بالكسر جمع الخصلة بالفتح وهي المرة من الخصل وهو الغلبة في النضال، والخصلة أيضاً الخدّة وهي المراد هنا وكأنّها منقولة عن الأولى لجامع الغلبة والفضيلة بينهما، وشتى جمع شتيت وهو التفرّق، يقال ثغر شتيت أى مفالج (٢) وقوم شتى وأشياء شتى وجاؤا أشتاتاً أى متفرّقين واحد م شت وقد ذكر ههنا اثنتى عشر خصلة :

(الكفر والشر منه مأمونان) والناس آمنون من كفره وشره (٣) والكفر يطلق على خمسة معان كما يأتى فى باب الكفر: الأول إنكار الرب، الثانى إنكار الحقّ مع العلم بأنّه حقّ، الثالث ترك ما أمر الله تعالى به، الرابع كفران النعم قال: «هذا من فضل ربّي ليبلوني» أشكر أم أكفره الخامس كفر البراءة قال: «كفرنا بكم وهدأ بيننا وبينكم المداوة والبغضاء» يعنى تبرأنا منكم، والشر يطلق على كلّ خبيث ومنقصة كما يرشد إليه قول أمير المؤمنين (عليه السلام) والشر جامع مساوي العيوب والحاصل أنّه امرٌ كلّى تحته أفراد كثيرة كلّها من العيوب والخبائث وقد يقسم إلى شرّ مطلق كعدم العقل مثلاً وإلى شرّ مقيد كعدم كلّ واحدة من الصفات

(١) رواه أبو نعيم فى الحجة من حديث على عليه السلام هكذا «إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقروا بها إلى ربنا عز وجل فاكسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب» وأورده الشيخ أبو على سينا فى الرسالة المعراجية ص ١٥ ونقله المحقق العاماد فى كتاب الصراط المستقيم بهذا اللفظ «يا على إذا عنى الناس أنفسهم فى تكثير العبادات والخيرات فانت عن نفسك فى ادراك المعقولات حتى تسبقهم».

(٢) الانفراج بين الاسنان .

(٣) الكفر بى معنى فرض لا يجتمع مع العقل فإن انكار الرب مبنى على قاعدة وهمية وهى أن كلّ موجود محسوس ولا يبرق بشىء لا يحس به وانكار الحقّ مع العلم بالحقّ وظيفة الواهية كما عرفت من المثال المتقدم من أن الميت لا يخاف لانه جمادى وكذلك ساير المعانى الذى ذكره كما يظهر بالتأمل . (ش)

المرضيّة والشرائع النبويّة ووجود أضدادها.

(والرّشد والخير منه مأمولان) يعني العقلاء آملون صدورهما منه ، والرّشد الهداية و خلاف الغي ، والخير لفظ جامع لجميع الأمور الحسنّة كما أنّ الشرّ جامع لجميع الأمور القبيحة فهو أيضاً مفهوم كلّّي تحته أفراد كثيرة ويقسم إلى خير مطلق كوجود العقل وإلى خير مقيد كوجود كلّ واحدة من الصفات المرضيّة والشرائع النبويّة. ولعلّ المقصود أنّ من اتّصف بالخير والرّشد والهداية واجتنب سبيل الشرّ والغي والضلالة ، وكان جميع أفعاله وأعماله بالفعل على الوجه المستقيم بحيث يأمل العقلاء منه خيراً ورشداً في غابر عمره و يستنبطون منه ذلك في بقيّة دهره ، فهو تامّ العقل و يجعل ذلك دليلاً على كماله ، وإنّما قلنا المقصد ذلك لأنّ كونه قابلاً لمطلق الرّشد والخير في حيّز الاستعداد و كونهما مأمولين منه بالقوّة من جميع الوجوه لا يدلّ على تمام عقله و كماله لأنّ عقله حيثنّذ في المرتبة الهيولانيّة.

(و فضل ماله مبذول) يحتمل أن يراد بالفضل ما زاد على القوت والكفاف وإنّما خصّ بالفضل لأنّ بذل الكفاف قد لا تطيب به نفس أكثر العقلاء بل قد ورد النهي عنه في بعض الرّوايات ، ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالى : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ السط فتفقد مملوماً محسوراً ، ويحتمل أن يراد به الصدقات المقرّوضة مثلاً الزكوة وغيرها وفي الخبر أنّ السخي هو من أدّى فرايض ماله (١) وأعلم أنّ لبذل المال ومنعه غايات و بين غاياتهما تفاوت والفضل لغايات البذل والحاكم بذلك هو العقل الصحيح والنصّ الصريح ، أما غايات البذل فمنها الذّكر الجميل بين النّاس و هو مطلوب عقلاً و شرعاً لقوله تعالى : حكاية عن إبراهيم عليه السلام : «و اجعل لي لسان صدق في الآخرين» (٢) وقول أمير المؤمنين عليه السلام :

(١) راجع الكافي كتاب الزكاة باب معرفة الجود والسخاء .

(٢) و ذلك أن الناس لا يذكرون أحداً بخير إلا للمكانة الفاضلة وصفاته الحسنّة أو لانه أفادهم فائدة أو دفع عنهم ضرراً و جميع ذلك مطلوب في الشرع ، فإن كان فاعله مؤمناً يستحق الثواب ولا يدفع إليه اعراض كتحفيف عذاب إن كان يستحق العقاب (ش).

« ولسان صدق يجعله الله للمروء في الناس خيراً له من المال يؤثره غيره (١) » ،
ومنها رعاية حال الفقراء الذين هم ودائع الله وعبال رسوله وجبر كسر قلوبهم و
مواساتهم وقد وقع الحث عليها في روايات متكثرة ، ومنها جلب قلوب الناس إلى
المحبة والمودة ، ومنها تحصيل رضوان الله تعالى وطلب الدرجات العالية في
الآخرة ، ومنها أنه يأخذ بدل واحد أصغافاً كثيرة قال الله تعالى : « من ذا
الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أصغافاً كثيرة » وقال أمير المؤمنين عليه السلام :
« من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة (٢) » يعني من يعطي يسيراً يجزي به
كثيراً واليدان عبارتان عن النعمتين ، وفي طرق العامة قال أبو ذر : « يا نبي الله
أرأيت الصدقة ماذا هي ؟ قال : أصغاف مضاعفة وعند الله المزيد » قوله : « وعند الله
المزيد » هي الزيادة على الثواب لمن يشاء بما يشاء كما قال سبحانه : « للذين
أحسنوا الحسنى وزيادة » وأما غايات المنع وترك البذل فيعرف مما ذكرنا بالنضاد
و أيضاً المنع يورث البخل والشغل عن ذكر الله تعالى ومحبة الدنيا إلى غير ذلك
من المفاسد فمن أثر البذل على الجمع مع أن من مقتضى النفوس البشرية و
الأوامر الشيطانية فإن الشيطان دائماً يأمر الإنسان بالمنع والجمع و يعدم
بالفقر بسبب الاحسان و البذل علم أن ذلك من تمام عقله و متانته و كمال رأيه
ورزاقته .

(و فضل قوله مكفوف) لأن العاقل هو الذي يضع الأشياء في مواضعها
و من جملة ذلك أن يتكلم بما يحتاج إليه و يترك ما زاد عليه (٣) و هو المراد
بالفضل ، ولأنه يعلم أن الأكثر يوجب الاهجار ، و من ثمة قال رسول الله ﷺ :

(١) أورده الشريف الرضى في النهج أبواب الخطب تحت رقم ٢٣ .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٣٢ .

(٣) الكلام اما ان يكون حكمة ولا فضل فيه والفضل هو الزيادة التي لا يحتاج

اليه و ان كان غير الحكمة فهو محمول الوهم ولا يحوم حوله العاقل . (ش)

« من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثر ذنوبه ومن كثر ذنوبه فالنار أولى به (١) »
 و إن الكلام في وثاقه ما لم يتكلم به فإذا تكلم صار هو في وثاق الكلام فلا يتكلم
 إلا بالاحتياط . ولذلك قيل : لا تتكلم بلسانك ما تكره به أسنانك و أن الجوارح
 مسؤولة يوم القيمة فلا تتكلم إلا بالحكمة والموعظة الحسنة . وقال أمير المؤمنين
 عليه السلام : « من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه (٢) » .

(ونصيبه من الدنيا القوت) لأن العاقل الكامل يعلم عين الاعتبار والبصيرة أن
 المال مادة الشهوات و حباله الشيطان فلا يطلبه حذراً من الدخول فيها وأن من
 اقتصر على القوت لا يفقر أبداً و أن من رضى به كان مستريحاً في الدنيا ناجياً
 في الآخرة و إلى الوجهين الأخيرين أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « لا مال
 أذهب للمفارقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بلعة الكفاف فقد انتظم الراحة ،
 و تبوأ خفض الدعة (٣) » يعني من قنع فقد ألزم الراحة فلهذه الوجوه و غيرها
 رضي العاقل بالقوت و كف نفسه عن طلب الزائد عليه .

(لا يشبع من العلم دهره) دهره منصوب بنزع الخافض أي في دهره يعني
 تمام عمره ، والمراد بالعلم العلم المتعلق بأحوال المبدء والمعاد و غير ذلك من
 الأمور الدينية والأحكام الشرعية ، و هذا العلم هو الذي يكسب به الإنسان
 الطاعة في حياته والذي كر الجميل والثواب الجزيل بعد وفاته ، و إلى مدح هذا
 العلم و أهله أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « هلك خز أن الأموال والعلماء باقون
 ما بقي الدهر (٤) » يعني لتنور قلوبهم بأنوار الهيّة وفيوضات ربّانية أولاً شتار صيتهم

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .

(٢) رواه الكليني في كتاب الإيمان والكفر من الكافي باب الصمت و حفظ

اللسان تحت رقم ١٩ من حديث أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله

لكن في النهج من كلامه عليه السلام في أبواب الحكم تحت رقم ٣٦٩ .

(٣) أورده الشريف الرضي في النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٧١ .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٤٧ .

و انتشار فضلهم فيما بين فرق الأنام إلى يوم القيمة ، و في قوله « لا يشبع » إشارة إلى أن العلم غذاء القلب و حيوته و به يتعدى و يتقوى و يكمل كما أن الطعام غذاء البدن و حيوته و قوامه ، و بالجملة شبه العلم بالغذاء إذ كما أن الغذاء سبب لبقاء البدن و حياته في مدة العمر كذلك العلم سبب لبقاء النفس و سعادته في الدارين ، و لذلك يقال : الجاهل ميت . و السرفي أن جوع العاقل في تحصيل العلم لا يسكن هو أن مراتب شوقه غير منتهية و كذا مراتب العلم كما قال سبحانه « فوق كل ذي علم عليم » فكلما وصل إلى مرتبة من مراتب العلم و استضاء قلبه بنور تلك المرتبة و كمل به و استشرق ، رأى فوقها مرتبة أخرى أكمل منها و أنور فيسوقه الشوق إليها و يستضيء بنورها و هكذا إلى ما شاء الله و من ههنا ظهر أن العاقل في كل آن ترقّيات و في كل زمان انتقالات و ابتهاجات و تلك الترقّيات حقيق بأن تسمى معارج النفوس .

(الذّل أحب إليه مع الله من العز مع غيره) لعل المراد أن ذل نفسه و هو مع الله بأخذ زمامها كيلا تنجاوز عن حدود الشريعة أحب إليه من عز نفسه و هو مع غيره بإرسال زمامها لكي تجري في ميدان مرامها ، فلا يرد أنه إذا كان مع الله كان عزيزاً لا ذليلاً لقوله تعالى : « والله العزّة و رسوله و للمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » و يحتمل أن يراد بالعزّ و الذّل ما هو المتعارف عند الناس أعني الرّفعة فيما بينهم و عدمها يعني إذا كان المماشاة مع الناس موجباً لرفع الرّعة القدر فيما بينهم و السير في سبيل الله و التمسك به جعل الله موجباً للذلّ و وضع القدر عندهم فالعاقل هو الذي يحبّ هذا الذّلّ و يختاره على ذلك العزّ لعلّه بأن في هذه الرّفعة مفاسد غير محصورة ، و أنّها رفعة دنيويّة و ذلك الذّلّ رفعة أخرويّة ، و الرّفعة الدنيويّة مثل الدنيا دائرة داحضة ، بخلاف الرّفعة الأخرويّة ، فإنّها باقية أبداً .

(و التواضع أحب إليه من الشرف) التواضع التذلل من الوضع و هو خلاف الرّفيع . و الشرف الترفّع بالنسب أو بالحسب . و المعنى أن العاقل هو الذي يؤثر

النواضع لله على الشرف والرفعة (١) لأنه لما عرف عظمة الله ونظر إلى جلال قدره وكمال قدرته على جميع المقدورات وشدة استيلائه على جميع الممكنات بالابحار والافناء وغاص في بحار وجوده وكماله وقدرته وتفكر في قهره ومنه وجوده احتقر نفسه ووجوده وكماله وقدرته بل لا يرى لنفسه وجوداً وكمالاً وقدرَةً، وإنما يرى هذه الأمور الجاهل الذي لم يخطر بباله ذات الباري وصفاته فيرى لنفسه وجوداً ووجوده آثاراً نظير ذلك أن من لم يرمأ أبداً ثم رأى جدولاً صغيراً فإنه يستعظمه فإذا وقف هناك بقي له ذلك الاستعظام، وأما إذا جاوزه ورأى نهراً عظيماً فإنه يزول عنه ذلك الاستعظام ويستعظم هذا النهر، ثم إذا جاوزه ورأى بحراً زائلاً زال عنه استعظامه ماسواً قطعاً، وإلى ما ذكرنا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يستعظم (٢)» فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمتهم أن يتواضعوا له في هذا التعليل إشارة إلى أن النواضع له سبحانه عين الرفعة وذلك لأن الله سبحانه هو العظيم المطلق وكل عظمة ورفعة فمستفادة من وجوده والقرب منه فكما كانت العادة جارية من الملوك في حق من يتواضع لهم و يوقتهم حقهم من الاجلال والاكرام وحسن الانقياد أن يرفعوه ويعظموه كذلك عادة مالك الملوك جل شأنه، يرشد إلى ذلك رفعة حال الأنبياء والأوصياء والصالحين عليهم صلوات الله أجمعين، ويدل عليه قول الصادق عليه السلام «إن

(١) الشرف والرفعة معنى جزئى يدركه الوهم ويجه الإنسان بهذه القوة الغيبية والعقل لا يصدق بحسن ذلك الا أن يكون وسيلة الى دفع ظلم عن مظلوم أو ترويض حق كما قال سليمان (ع) «رب هبلى ملكا لا ينبغي لأحد من عبادى» أراد ذلك لانقاذ الحق و ترويض التوحيد وحينئذ فلا يكون الشرف مطلوباً لذاته بل اذا علم ان مقصوده الدينى يحصل بالتواضع والخمول والضعفة كان طالباً له دون الشرف وبالجملة فطلب الرفعة من علامات ضعف العقل وغلبة الوهم (ش).

(٢) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٤٥ - اوله «فبعت محمد صلى الله عليه و

ففي السماء ملكين موكلين بالعباد فمن تواضع لله رفعاه و من تكبر وضعاه (١) وقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا حسب كالتواضع (٢)» يعني في إيجاب الرتبة هذا حال التواضع لله سبحانه وأما التواضع للفقراء والصالحين فمن شعب تواضعه الله تعالى شأنه لأن من أحبّ أحداً و تواضع له فأنه يجب أن يحبّ محبوبه و يتواضع لهم على أن التواضع لهم يوجب ازدياد المودة . وقال أمير المؤمنين عليه السلام «التودد نصف العقل (٣)» و وجه ذلك أن العقل نصفان نصف عقل المعاد و نصف عقل المعاش ، و قال الصادق عليه السلام : «من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، و أن تسلم على من تلقى ، و أن تترك المرء و إن كنت محققاً ولا تحب أن تحمد على التقوى (٤)» و في حديث آخر: «التواضع درجات منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزل منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي إلى أحد الآمثلة ما يؤتي إليه ، إن رأى سيئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ عاف عن الناس والله يحب المحسنين (٥)» و ينبغي أن يعلم أن الأولى والأحسن بحال الفقراء أن يتركوا تواضع الأغنياء ، و يعتزلوا عنهم و يتكلموا على الله سبحانه كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، و أحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكلاً على الله (٦)» والنيه التكبر ، و لعل المراد به ما ذكرناه من الاعتزال عنهم و ترك التواضع لهم وإلا فالتكبر قبيح من كل أحد لأن الكبرياء إنما يليق بالحق عز شأنه إذا خلق محل النقص ، فإذا تكبر تكلف أن يتصف بما لا يليق به ، ومن ثم قيل : هتك ستره من جاوز قدره .

(يستكثر قليل المعروف من غيره) العاقل يؤثر ذلك من وجوه : الأول

(١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب النواضع تحت رقم ٢ .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١١٣ .

(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٤٢ .

(٤ و ٥) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب النواضع تحت رقم ١٣ و ٦ .

(٦) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٠٦ .

التشبه بالبارئ جل شأنه فإنه يقبل قليل الحسنات من عباده و يضاعفه أضعافاً كثيرة و في الأدعية الماثورة «يا من يقبل القليل و يعفو عن الكثير» . الثاني استكثاره تعظيم للنعمة والمنعم ، و كلاهما مطلوب و استقلاله تحقير لهما و هو مذموم جداً . الثالث استكثاره نوع من الشكر و هو يوجب الزيادة لقوله تعالى : «وئن شكرتم لأزيدنكم» و لما رواه مسمع بن عبد الملك قال : كنا عند أبي عبد الله عليه السلام بمنى و بين أيدينا عنب نأكله فجاء سائل فسأله فأمر بعنقود فأعطيته فقال السائل : لا حاجة لي في هذا إن كان درهم ، قال : يسع الله عليك ، فذهب ثم رجع فقال ردوا العنقود فقال : يسع الله لك و لم يعطه شيئاً ، ثم جاء سائل آخر فأخذ أبو عبد الله عليه السلام ثلاث حبات عنب فناولها ، إتياء فأخذ السائل من يده ثم قال : الحمد لله رب العالمين الذي رزقني ، فقال أبو عبد الله عليه السلام : مكانك فحنأ ملاً كفيه عنباً فناولها إتياء ، فأخذها السائل من يده ، ثم قال : الحمد لله رب العالمين . فقال أبو عبد الله عليه السلام : مكانك ، يا غلام أي شيء معك من الدراهم فإذا معه نحو من عشرين درهما فيما حرزناه (١) أو نحوها فناوله إتياء ، فأخذها ثم قال : الحمد لله هذا منك وحدك لا شريك لك فقال أبو عبد الله عليه السلام : مكانك فخلع قميصاً كان عليه فقال : البس هذا ، فلبسه ، ثم قال : الحمد لله الذي كساني و سترني يا أبا عبد الله أو قال : جزاك الله خيراً ، لم يدع لأبي عبد الله عليه السلام إلا بذاً ثم انصرف ، فذهب فظننا أنه لو لم يدع له لم يزل يعطيه لأنه كلما كان يعطيه حمد الله أعطاه (٢) .

(و يستقل كثير المعروف من نفسه) لأن العاقل يعلم أن في استعظام ما أعطاه من المعروف مفسد شتى منها أنه يؤدي الآخذ وأذا ما يحبط الأجر لقوله تعالى وقول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها أذى و الله غني حليم و منها أنه

(١) الحرز تعيين مقدار شيء بالنعمتين . (ش)

(٢) رواه الكليني في الفروع كتاب الزكاة أبواب الصدقة باب النوادر تحت

يوجب من تأعليه والمن يهدم أجره لقول الصادق عليه السلام : «المن يهدم الصدقة (١)» و
منها أنه يستلزم البخل لأنه لا يستعظم إلا ما عظم في عينه و كثر في نظره فيشق
عليه إخراجها ، و من ثم قيل : الجواد لا يستعظم ولو أعطى الدنيا بحذاقها ، و
منها أنه يوجب العجب والفخر وهما من الصفات الرذيلة التي لا يرتكها العاقل
و أيضاً العاقل إذا شاهد نعم الله تعالى على الفقراء ظاهرة و باطنة مما لا يعد ولا
يحصى ، و علم أنه تعالى مع ذلك يستصغرها ويخاطبهم يوم القيمة بالاعتذار ويقول :
يا عبادي ما معكم في الدنيا واني بكم بل لا كرامي لكم في هذا اليوم . (٢) و قاس
معروفه على نعماء الله تعالى يجده شيئاً قليلاً بل لا شيئاً محضاً ، فلا يخطر بباله
استعظام ذلك قطعاً ، ثم الاستعظام بأن يقول مثلاً : لي عليك نعمة عظيمة ، أو أعطيتك
مالاً كثيراً ، أو أحيينك باعطاء كذا وكذا ، أو أخذ هذا المال الكثير ، أو يعد نعماءه
و يكررها عليه ، أو نحو ذلك مما يدل عليه صريحاً أو ضمناً أو كناية .

(ويرى الناس كلهم خيراً منه) لحسن الظن بهم و عدم علمه بخفيات أمورهم
ولاجتنابه عن رذيلة العجب المانع من الترقى في الكمال والنود في الالتزام
ولأن هذا نوع من التواضع لله تعالى و لعباده والتواضع يوجب السعادة في
الدارين والرفعة في النشأتين ومحبتهم إياه ، ولأن الخيرية الحقيقية لكل أحد باعتبار
قربه بالمبدء واطف المبدء بدو لا يعلم ذلك إلا الله سبحانه ، و مراتبهم مختلفة متفاوتة
في الزيادة والنقصان ، والعاقل يجوز أن يكون القرب واللفظ في غيره أكمل فلذلك
يراه خيراً منه وحكاية موسى عليه السلام : مع الكلب مشهورة و في الكتب مذكورة .

(وأنه شرهم في نفسه) لما فيه من التواضع والتذلل وإهانة نفسه و عدم
إكرامها . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : «طوبى لمن ذل نفسه (٣)» ولأن العاقل عارف
بعيوبه وعجزه وقصوره لابيوب غيره (وهو تمام الأمر) أي هذا الأخير وهو

(١) الفروع من الكافي كتاب الزكاة باب المن وفيه : «المن يهدم الصنعة» .

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب فضل فقراء المسلمين تحت رقم ٩٠ .

(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٢٣ .

أن يرى العاقل أنه شر الناس في نفسه تمام العقل و كماله إذ به يحصل الاستكانة والتضرع والخضوع لله تعالى والرّجوع إليه بالكلية، والتعري عن جلبات الوجود والهوية المجازية والنوصل إلى الغناء في الله والهوية الحقيقية، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى جميع ما تقدّم من الخصال المذكورة فهو حيث يذ بمنزلة إعادة ما أفاده عليه السلام بقوله: و ما تمّ عقل امرء حتى يكون فيه خصال شتى.

(يا هشام إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواء) فريب منه قول أمير المؤمنين عليه السلام : علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك (١) ، قال في المغرب : الهوى مصدر هويه إذا أحبه و اشتهاه ثم سمي به الهوى المشتهى ، محموداً كان أو مذموماً ، ثم غلب على غير المحمود ف قيل : فلان اتبع هواه إذا أريد ذمّه ، و في التنزيل : ولا تتبع الهوى ولا تتبع أهواء قوم ، و منه فلان من أهل الأهواء إذا زاع عن الطريقة المثلى من أهل القبلة كالجبرية والحشوية والخوارج . والمعنى أن العاقل لا يكذب فيما فيه هواه و نفعه تحرّراً من الفضيحة و وقوع الناس في أعراضه عند ظهور خلافه أو من عقوبة الله والبعد من رحمته فكيف إذا لم ينفعه الكذب ولا يهويه و فيه ترغيب في إثبات الصدق على الكذب و مبالغة في أن العاقل لا يكذب أصلاً ، و قال بعض الحكماء : الكذاب والميت سواء لأن فضيلة الحي النطق فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته .

(يا هشام لا دين لمن لا مروءة له) في المغرب المروءة كمال الرّجاءية ومنها تجافوا عن عقوبة ذي المروءة وقد مرّ الرّجل مروءة وفي الصحاح المروءة الإنسانية (ولا مروءة لمن لا عقل له) الظاهر أن النفي في المواضع الأربعة وارد على الحقيقة كما يقتضيه وقوع النكرة في سياق النفي، والمعنى لا تتحقق حقيقة الدين ولا توجد لمن ليس له حقيقة المروءة ، ولا تتحقق حقيقة المروءة لمن ليس له حقيقة العقل

ينتج لا يتحقق حقيقة الدين لمن ليس له حقيقة العقل، والمقدمتان ظاهرتان ضرورة أن من كان له مروءة في الجملة كان له دين في الجملة ومن كان له عقل في الجملة كان له مروءة في الجملة، ويحتمل أن يكون النفي فيها وارداً على الكمال كما هو الشائع في استعمال نحو هذا الكلام، والمعنى لا يتحقق كمال الدين لمن ليس له كمال المروءة ولا يتحقق كمال المروءة لمن ليس له كمال العقل، ينتج لا يتحقق كمال الدين لمن ليس له كمال العقل، والمقدمتان أيضاً ظاهرتان ولا يجوز أن يراد في الأولى نفي الحقيقة وفي الثانية نفي الكمال أو بالعكس لفقد الارتباط حينئذ بين الفقرتين وعدم الانتاج لعدم تكرار الأوسط. والأول أظهر لما مر، والثاني أنسب بما بعده، ولما بينت ^{في} أن المروءة والانسانية بالعقل و كان كل واحد منهما مستوراً لا يدركه الحواس وكانت الظواهر أدلة على البواطن كما مرّ أشار إلى أنه يعرف ذلك بترك الدنيا وعدم الركون إليها، وإلى أن مراتبه متفاوتة في الشدة والضعف بقوله:

(وإن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً) الخطر: الحظ والنصيب والقدر والمنزلة والسبق الذي يتراهن عليه، وقد أخطر المال أي جعله خطراً بين المتراهنين، ويجوز إرادة كل واحد من هذه المعاني هنا، أما الأول لأن فظاهران لأن أقدار الناس عند الله سبحانه في الدنيا والآخرة متفاوتة في الفضل والكمال والقرب والبعد وأعظمهم قدراً من لا يرى الدنيا خطراً ونصيباً وقدرًا ومنزلة لنفسه ولا يلتفت إليها أصلاً لمنوّر قلبه بضوء عقله وإشراق قلبه بنور ربّه؛ فعاد بحيث لا ينظر إلا إليه ولا يرغب إلا فيما لديه ولعلمه بأن الدنيا والآخرة عدوان متفautان وسبيلان مختلفان وهما بمنزلة المشرق والمغرب، وأن من أحب الدنيا وتوّلّاها أبغض الآخرة وعادّاها، وأن من مشى إلى أحدهما بعد عن الأخرى، وأن من راد الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة. وأن الدنيا موبقة زهراتها مملكة شهواتها، باقية آفاتها، دائمة كدوراتها، حائلة بين المرء والطاعة لذاتها، فلذلك ترك الدنيا من وراء ظهره وسار إلى حضرة المولى فصار عنده أعظم قدراً

و أرفع مكاناً و أعلى شأناً و وجبها في الدنيا والآخرة ، و من المقر بين الذين
 لأخوف عليهم ولا هم يحزنون ، و أمّا الآخر فلأنّ الناس في هذه النشأة بمنزلة
 أهل السباق والثرهان ينساقون لأغراض مطلوبة و غايات مقصودة و أعظمهم قدراً
 عند الله تعالى من شرق عقله و كمال علمه فصار بحيث لا يرى الدنيا وزهراتها الغائلة (١)
 و لذاتها الزائلة و مقتنيات الباطلة خطراً و سبقاً لنفسه أصلاً بل غرضه من
 السباق و غايته من الاستباق هو الفلاح بالسعادات الأخروية والفوز بالمكاشفات
 الربوبية والدخول في زمرة الأبرار و في جنات تجري من تحتها الأنهار ، و
 بالجملة ترك الدنيا دل على كمال العقل والعلم ، و ظاهر أن العالم الكامل العقل
 أعظم قدراً عند الله تعالى من غيره (أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة) فيه
 تنبيه المغالين و إيقاظ لهم عن نوم غفلتهم و ترغيب المسالكين في الزهادة عن الدنيا
 و تحريض للعاملين على تحمل المشقة والفناء ، بتوقع رفع المنزلة و عظيم الجزاء ، بنوع
 من التشبيه والتمثيل ، و تلميح إلى قوله تعالى و إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم
 و أموالهم بأن لهم الجنة أي استبدل من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة
 حيوتها السرمدية بالأنفس و نعيمها الأبدية بالأموال فامشترى هو الله تعالى ،
 والبائع هو النفوس البشرية ، والمبيع هو الأبدان ، و الثمن هو الجنة العالية ،
 الباقية ، والدنيا أو ان التسليم ، فارتضوا بهذا البيع و استبشروا ببيعكم الذي ينعتم
 به و سلموا المبيع إلى المشتري لنسفيده و الربح العظيم فإن البائع إذا قصر في تسليم
 المبيع حتى هلك انفسه و بطل الربح ، قيل : وفي جعل الجنة ثمن الأبدان إشارة
 إلى أن ثمن النفوس المجرّدة هو الله تعالى فكانت الجنة قال : أما أن أبدانكم ثمنها
 الجنة فلا تبيعوها بغيرها و أمّا نفوسكم المجرّدة و أرواحكم القدسية فإنما
 ثمنها هو الله سبحانه والفناء المطلق فيه (٢) و في مشاهدة الوجه الكريم فلا تبيعوها

(١) في بعض النسخ [زهراتها الغائبة] .

(٢) الغناء شيء لا يعرفه الا الراسخون في العلم فمن تفوه به ولا يعرف معناه غيب
 عليه الضلال ولا يعرف احد بعدم المعرفة و اما من عرف معنى الغناء فهو غاية مقصود

بغيرها ولما كان البيع منوطاً بالرضا و كان عليه السلام هو الناصح الأمين رغبهم في هذا البيع لما فيه من المصالح الدنيوية والمنافع الأخروية ونهاهم عن بيع أبدانهم بالدنيا الفانية الزائلة الخاسرة الغدارة المكثرة بقوله (فلا تبعوها بغيرها) يعني يجب عليكم أن لاتعاملوا الشيطان ولا تبعوها الأبدان بالدنيا وشهواتها فإن من أثر مبايعة الرحمن على مبايعة الشيطان فأولئك هم الرابحون ، ومن عكس فما ربحت تجارتهم وأولئك هم الخاسرون . و ينبغي أن يعلم أن العبد في الدنيا ناجرٌ وهو في محل الخطر بنفسه و ماله فلا بد أن لا يغفل لحظة من حاله ، فإن الشيطان قاطع الطريق ، مترصد في اغتياله ، منتهم للمفرصة في إضلاله ، و المشتري و هو الله تعالى عالم بأحواله ولا يقبل إلا السليم والجيد من أعماله و أقواله و أفعاله فيجب عليه أن يبتهل أن لا يكون من الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين .

(يا هشام إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : إن من علامة العاقل علامة الشيء ما يعرف به ذلك الشيء ، و للعاقل علامات كثيرة كما يظهر لمن تصفح أحاديث هذا الكتاب و غيرها والمذكور هنا ثلاثة كلها لتكميل الغير اثنان منها لتكميل العلم و الآخر لتكميل العمل أو لتكميل العلم والعمل جميعاً) (أن يكون فيه ثلاث خصال)

١- المعارف في الحديث « يتقرب العبد الى بالتواقل حتى احبه فاذا أحبيته كنت سمع الذي يسمع به و يبصره الذي يبصر به و لسانه الذي ينطق به و يده التي يبطش بها » نقلنا من كتاب عين الحيوة للمجلس عليه الرحمة مترجماً ثم بعد نقله هذا الحديث تكلف التأويل الفناء بما يوافق مذاقه وأطال الكلام فيه جداً ويمكن تلخيص كلامه في جملتين الأولى ان المراد كنت مسدوعاً ومبصره فقال السمع و اراد المسموع ، الثانية ان الله تعالى يده التي يبطش اي يفعل الشيء في زمان يريد العبد فعل ذلك الشيء ولا يسع المقام البحث في ذلك ولعل الله يوفقنا في مكان أليق ، واما على اصول الشارح فلا يحتاج الى التأويل لان وجود الممكنات بالنسبة الى وجود الواجب كالفيء من الشيء وجود تعلقى صرف فاذا وصل المعارف الى ادراك ذلك بالوجدان لا بالقول فقط فقد وجد فناءه (ش).

يريد أن كل واحدة منها علامة بدليل ما بعده (يجيب إذا سئل) لأن الجواب على نهج الصواب عقيب السؤال دل على كمال المجيب وإنارة عقله ونضارة ذهنه ومهارة طبعه في العلوم ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : « تكلموا تعرفوا فان المرء مخبوء تحت لسانه (١) » وقال أيضاً : « قدر كل امرء ما يحسنه فتكلموا في العلم تبيين أقداركم (٢) » ولأن هذا الجواب ينفع السائل لأنه ينور قلبه بالحكمة وايصال النفع من الصفات الجلية والسمات العلية للعاقل كما يرشد إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام : « خير القول ما نفع (٣) » وقوله : أيضاً « ولا خير في علم لا ينفع (٤) » قيل يعني لا ينفع صاحبه غيره بل فيه مضرّة لقول النبي صلى الله عليه وآله : « من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيمة بلجام من نار (٥) » وهذا يفيد وجوب الجواب عقيب السؤال ويستثنى من ذلك ما إذا كان الجواب موجباً لمضرّة والترك مشتملاً على المصلحة كالنقيّة ونحوها يدل على ذلك ما رواه المصنف (٦) عن الحسين بن محمد عن معلى بن غدير عن الوشاء قال : سألت الرضا عليه السلام فقلت له : جعلت فداك « فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون » فقال : نحن أهل الذّكر ونحن المسؤولون ، قلت : فأنتم المسؤولون ونحن السائلون ؟ قال : نعم ، قلت : حقاً علينا أن نسئلكم ؟ قال : نعم ، قلت : حقاً عليكم أن تجيبونا ؟ قال : لا ، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل أما تسمع قول الله تعالى : « هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب » وبالجملّة العاقل حكيم يجيب إن رأى الجواب خيراً ويترك الجواب إن رأى تركه خيراً ، وترك الجواب والصمت لمصلحة أيضاً من علامات العاقل ، وقد نقل بعض أرباب السّير أن رجلاً

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٩٢.

(٢) الاختصاص للشيخ المفيد - رحمه الله - ص ٢.

(٣) و (٤) النهج جزء من كتاب له عليه السلام إلى ولده الحسين بن علي (ع).

(٥) أخرجه البغوي في المعانيج ج ١ ص ٢٢ بسند ضعيف عن أبي هريرة .

(٦) كتاب الحجّة باب أن أهل الذّكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الائمة « دع »

من أهل العراق حج بيت الله الحرام و غلبه النوم ليلة في المسجد الحرام فاعطى في المنام تعبير الرؤيا ، فلما رجع إلى بلده اشتهر بذلك حتى كان الناس ينتقلون إليه من البلدان البعيدة لاستعلام رؤياهم وكان يجيبهم و يعبر لهم ولا يخطئ أصلاً و نقل من جملة تعبيراته حكايات عجيبة غريبة فبلغ ذلك إلى الوالي فطلبه وأجلسه بين يديه و شرع بذكر حكايات من مزخرفات و منامات هفتريات على سبيل السخرية والاستهزاء ، وكان ذلك الرجل ساكناً في كل ما يقول ولم يجبه أصلاً فقال له الأمير بعدما أطال الكلام لا يش ما تتكلم؟ فقال: أيها الأمير نحن نتكلم إذا كان السائل مستفهماً لا ما إذا كان مستهزئاً ومتعنتاً ، فاستحسن عقله وتديبره فعززه و قر به .

(وينطق إذا عجز القوم عن الكلام) بالحكمة الالهية ، والاسرار الربوبية والقوانين الشرعية والأخلاق النبوية والسياسات المدنية ، و غيرها لشدة خوصه في العلوم والحقائق و كثرة غوصه في بحار المعاني والدقائق إما بتعلم ومناظرة مع الخلان في مدة طويلة و آوثة من الزمان أو بمكاشفات و الهامات لكثرة أفكار و رياضات فحصل له بذلك كمالات لازمة و سعادات دائمة وملكات ثابتة و أحوالات راسخة حتى عرج بذلك إلى رتبة التعليم بعبارات لائقة، و درجة التفهيم بكلمات رائقة ، ومنزل التقويم بتقريرات واضحة ، كما هو شأن العلماء و دأب الحكماء ، وطرز العقلاء ، فدل ذلك على كماله في عقله و تفوقه في فضله وتقدمه في جلال قدره و كمال نيته و من ههنا يظهر أن أمير المؤمنين عليه السلام مقدم على الثلاثة المنحلقين للمخالفة لعجزهم عن معرفة كثير من الأحكام و رجوعهم إليه في كثير من مسائل الحلال والحرام (و يشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله) لأن ذلك يتوقف على التميز بين الحق و الباطل و الحسن و القبيح و الصحيح والسقيم والخير والشر في الأقوال والأعمال والأخلاق كلها ، ثم اخنبار أفضل هذه الأمور للاخوان والاشارة إليه شفقة عليهم ، و كل ذلك من آثار الفضل

وعلامات العقل و لذلك قيل : من أشار إلى أخيه بأمر يعلم أن الرشد فيه فقد كمل عقله وفاق فضله وظهر عدله . وهذه الفقرة من الكلمات الجامعة لشمولها جميع أنواع الخير مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالأخلاق العريضة والترغيب في أمر الآخرة والتزهيد عن الدنيا ، وغير ذلك مما يتم به نظام الدارين وتكمل به سعادة الكونين ، وقيل الفقرة الأولى ناظرة إلى الفتاوى في المنقليات والشرعيات والثانية إلى تحقيق المعارف والعقليات والثالثة إلى معرفة التدبيرات والسياسات في العمليّات (١) (فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء) يعنى لم يقدر على الجواب عند سؤال ، وعلى المنطق عند عجز القوم . وعلى الإشارة بما فيه صلاح أهله فهو أحق ناقص العقل لفساد قوّته النظرية والعملية المعبرتين بالعقل النظري والعملية ، قال في المغرب : الحق ناقص العقل عن ابن فارس ، وعن الأزهري فساد فيه و كساد ، ومنه انحق الثوب إذا بلي ، انحمت السقوق إذا كسدت ، وقد ححق حنقا فهو أحمق ، وححق حماقة فهو أحمق

(إن أمير المؤمنين عليه السلام) تأكيد للمسبق وتقرير له و لذلك ترك العاطف (قال لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه هذه الخصال الثلاث) التي هي من أعظم أصول حاجات الناس (أو واحدة منها) لأن صدر المجلس لأصحاب العلوم الراسخة و أرباب العقول الكاملة في قوتهم العلم والعمل ليرجع

(١) لأن قوله في الفقرة الثالثة صلاح أهله صريح في السياسة وتدبير المنزل والاخلاق

وأما الفقرة الثانية فوجه اختصاصها بالمعارف والعقليات ان الناس لا يستلونها عنها حتى ينحصر التعليم في مورد السؤال بل على العالم ان يعلم الناس التوحيد و يوجههم الى الآخرة و يبين لهم النبوة والامامة قبل ان يلمتوا ويستلوا ولما الفروع فيستلونها المؤمن بالله والآخرة فيجيب العالم كما في الفقرة الاولى (ش) .

إليهم الضعفاء و يلوذ بهم الفقراء في تحصيل الكمال و تكميل الأحوال ويعظموهم
لحقق التعليم والإرشاد و يوقروهم لحقّ التقدم في المعرفة والعلم بأحوال المبدء
والمعاد، وهذا صريح في أنّ تفاوت الرّجال في المجالس باعتبار تفاوتهم في الفضل
والكمال لا باعتبار تفاوتهم في النسب والمال ، يدلّ على ذلك قوله عليه السلام أيضاً قبيصة
كلّ امرء ما يحسنه (١) و قول الصادق عليه السلام «أعرفوا منازل الناس على قدر روائداتهم
عنا (٢)» و بالجملة التقدّم على الإطلاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ثم بعده لعلي بن أبي طالب
و أولاده الطاهرين عليهم السلام ثمّ بعدهم لشيعتهم على تفاوت مراتبهم في العلم والعمل
(فمن لم يكن فيه شيء منهنّ فجلس فهو أحمق) لأنّه وضع لنفسه في غير موضعها
ووضعها موضع أرذل الناس لأنّ مردل وإن كان ذا نسب لقول النبي صلى الله عليه وآله «ما استرذل الله
عبداً إلّا حظر عليه العلم والأدب (٣)» و قول أمير المؤمنين : «إذا أرذل الله عبداً
حظر عليه العلم (٤)».

(وقال الحسن بن علي عليه السلام إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها) يمكن
أن يراد بالحوائج الحوائج الدنيويّة أعني أصول المعارف والأحكام وفروعها و
أن يراد بها الحوائج الدنيويّة وقد دلّ العقل والنقل على قبح الطلب وضمّ السؤال
في أمور دنيويّة لأنّ فيه خساسة وذلّاً و انكساراً ودنيّة وإراقة ماء الوجه وهي
أشدّ وأصعب من منيئته، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : «أكرم نفسك عن كلّ
دنيّة وإن ساقطت إلى الرّغائب (٥)» هي جمع الرّغبة يعنى العطاء الكثير وفي
الخبر أيضاً «لأنّ يأتي أحدكم جبلاً فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ

(١) تقدم آنفاً (٢) سياقي في كتاب العلم ان شاء الله .

(٣) أخرجه ابن النجار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كافى الجامع الصغير .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٨٨ .

(٥) جملة من كتاب له (ع) الى الحسن بن علي (ع) في النهج تحت رقم ٣١ .

الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه (١) ، وإن اضطررتهم وليس الاضطرار إلا لقلّة البصيرة وضعف اليقين بالله ، لأن من توكل على الله فهو حسبه فاطمبوها من أهلها لأنّه إن قضاها قضاها بالأمّة ولا استهانة و على وجه جزيل وإن ردّها ردّها بوجه حسن و على وجه جميل ، ولا تطمبوها من غير أهلها لأنّ تلك دنيّة حاضرة و مذلّة ظاهرة ، وفوت الحوائج أحسن وأهون منها (قيل يا ابن رسول الله و من أهلها ؟ قال : الذين قصّ الله في كتابه و ذكرهم فقال : « إنما يتذكر أولو الألباب » قال : هم أولو العقول الخالصة) عن شوائب النقص والأوهام (٢) إن أريد بالحوائج الحوائج الدنيّة فالرجوع فيها إلى أولى الألباب وطلبها منهم ظاهر لأنّهم العارفون بالمعارف والأحكام و سائر الناس فقراء يحتاجون إلى السؤال منهم والأخذ من خزائن عقولهم ، وكذا إن أريد بها الحوائج الدنيّة لأنّهم بسبب كمال عقولهم و علوّ طبعمهم وشدّة محبتهم و مودّتهم بخلق الله إمّا يقضون حوائجهم على الوجه الأحسن كما روي أنّ سائلاً سأل الرضا عليه السلام اجلس رحمك الله فدخل الحجر وبقى ساعة ثم خرج وردّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال للمسائل : خذ هذا المائتي دينار واستعن بها على مؤوّنك ونفقتك

(١) أخرجه البغوي في المصابيح ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) العقل الخالص عن شوائب الأوهام لفظ يتفوه جميع الناس و يظنون أنفسهم واجدين له متصفين به ولكن الحق أن الخالص المعص ليس إلا في قليل و يعرف ذلك من عرض نفسه على العلامات المذكورة في هذا الحديث الشريف للعاقل كما مر و بينا في بعض مامر كيفية ارتباط منافيات العقل للوهم انموذجاً يقاس به الباقي ماذا رأيت أحداً يصدق بشيء لم يعم عليه دليل ولا يدرك بالبدنية كالفناء الغير المتناهي و الجزء الذي لا يتجزى وأن كل موجود محسوس فاعلم أن عقله مشوب بالوهم فهو بهيئة نظيره من بمنزلة بان الميت جماد ومعدّلك بخافته ولكن لبس جميع الاصول المعقبة مما يعارضه الوهم في التصديق بل في العمل ولولا ذلك لم يكن العقل حجة اذا لم يميز الانسان مدركات و همه من مدركات عقله . (ش)

و تبرك بهائم خرج بعد ذهاب السائل : فقبل له : جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته (١) ، وإما يردونهم على الوجه الأحسن و يرشدونهم إلى ما يتحصل به قضاء حوائجهم كما روي «أن رجلاً اشتد فاقته فقالت له امرأته لو أتيت رسول الله فسأله فبجاءه ليسأله فلهما رآه النبي ﷺ قال : من سألتنا أعطيناك ومن استغنى أغناه الله فقال الرجل ما يعنى غيرى فرجع إلى امرأته فأعلمها فقالت : إن رسول الله بشر فأعلمه ، فأتاه فلما رآه قال : من سألتنا أعطيناك ومن استغنى أغناه الله حتى فعل ذلك ثلاثاً ثم ذهب الرجل واستعار معولاً واشتغل بالاحتطاب و ابتاعه حتى اشترى بكرين و غلاماً ثم أثرى حتى أيسر فجاء إليه ﷺ فأعلمه كيف جاء يسأله و كيف سمع منه ، فقال ﷺ قلت لك : من سألتنا أعطيناك ومن استغنى أغناه الله (٢) ، فانظر رحمك الله إلى جلاله قدر العقاد و نبالة حالهم و عظمة شأنهم حيث جعلهم الله سبحانه مناراً في بلاده بهم يعرفون معالم الدين و يصعدون إلى أعلى معارج اليقين ، وما إذا أعباده بهم يتوسلون في تحصيل المطالب و يتمسكون في تيسير المآرب ، تلك نعمة يمن بها على من يشاء من عباده وهو الحكيم العليم . (وقال علي بن الحسين عليهما السلام : مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح) لأن كلامهم يعمد قلب الأنيس و يلين طبع الجليس (٣) و يخرجهم من الغفلة والنسيان و يذكرهم ثواب الأبد ونعيم الجنان و يحببهم بالموعظة العليا والسعادة العظمى والزهادة عن الدنيا حتى يصير تكون نه كنكوتهم و تلو نه كتلوهم فيرتقى بذلك

(١) رواه الكليني في الكافي كتاب الزكاة باب من أعطى بعد المسألة تحت رقم ٣.

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الغناة تحت رقم ٧ .

(٣) ما نقل عن زين العابدين (ع) هنا راجع الى عقل المعاش والمعايشة مع الناس

بعد ما كان مارواه سابقاً عليه من عقل المعاد وتبذير النفس اشار الى ذلك استناداً للحكماء المتألهين صدر الدين قدس سره وذلك لان المعايشة مع الصالحاء والمدايرة مع الاعداء من كمال العقل والشرعة الكاملة المجددية (من) تدعوا الى التعاون والمعايشة . (ش)

إلى معارج القدس ، ويرتفع في رياض الأنس ، ألا يرى أن من عقد خدمة النبي في وسط روحه كيف فتح الله عليه أبواب فتوحه ومن قارن بيضاء سماء الولاية ولازم نير فلک الإمامة و أخذ جواهر المعاني من زواهر كلماته و اقتبس أنوار الحقائق من ضوء مشكوته كيف نور الله بذلك مهجته وزاد بهاءه . بهجته ، وقد يرشد إلى ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام : « قارن أهل الخير تكن منهم و باين أهل الشر تبين عنهم (١) » أي تتميز عنهم . وفيه حث عظيم على وجوب مفارقة الفاسقين والاحتجاب عن الظالمين و الفرار عن أولياء الشياطين حتى كان تقارنهم موجباً للاتحاد بين الاثنين و ذلك لأن جلس أهل الشر يأخذ منهم أعمال الشر بداراً كما أن الحديد بمجاورة النار يصير ناراً ، إذ قد اجتمع على تلك الأعمال بواعث من الطبع وواسوس من الشيطان وتدابيسات من مردة الأنس ، وتلبيسات عن أهل الخذلان ، فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ويزين كل صاحب به باطلاً وزوراً

(و آداب العلماء زيادة في العقل) الآداب جمع الأدب (٢) قال في المغرب الأدب ألب التمس والدرس - وقد أدب فهو أديب و أدبه غيره فتأدب و استأدب وتر كيبه يدل على الجمع - والدعاء ومنه الأدب لأنه يأدب الناس إلى المحامد أي يدعوهم إليها عن الأزهرى ، و عن أبي يزيد الأدب اسم يقع على كل رياضة

(١) النهج كتاب له «ع» إلى ابنه الحسن بن علي «ع» -

(٢) المبتدأ في تلك الجملة مصدر و اسم مصدر مثل مجالسة الصالحين وطاعة ولاء

الامر واستثمار المال وإرشاد المستشير وكف الذي فلا بد أن يكون آداب أيضاً مصدراً حتى يتناسق الالفاظ و يتناسب المعنى إذ ليس آداب العلماء زيادة في العقل بل المعاشرة معهم و الاختلاف اليهم و مصاحبتهم و ملازمة خدمتهم . والانسب عندي بعد فرض صحة الكلمة ان يقرأ آداب العلماء مصدر باب الافعال من دأب يعني الإلحاح والسؤال المتتابع والاصرار في ملازمتهم والشرف بخدمتهم واستنباط المعارف منهم والآداب المتابع و التكرار قال تعالى «تردعون سبع سنين دأباً» أي متتابعاً وفي نسخة لنا مصححة مقروءة على المحدث الجزائري «آداب العلماء» وهو أحسن من «آداب» (ش) -

محمودة يتخرج به الإنسان في فضيلة من الفضائل والمقصود أن آداب العلماء موجبة لزيادة عقل من جالسهم وعروجه من حضيض النقص إلى أوج الكمال ، والوجه في ذلك مع ظهوره أن عقول العلماء مشرقة مضيئة في سماء الأبدان كالشمس فانقشعت عنهم سحائب الحجب وظلمات الغشاوة إلى أن شاهدوا العلوم الإلهية والحكمة الربانية وإذا قابلت العقول الناقصة القابلة عقولهم استعدت بذلك لأن يتنور بنورها وتستضيء بضوئها كما أن القمر المقابل للشمس يتنور بنورها ويستضيء بضوئها وعلى حسب ذلك ينكشف عنها الحجاب والعوائق ويحصل لها الترقى إلى عالم العلوم والحقائق و لذلك قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام «محادثة العالم على المزابل خير من محادثة الجاهل على الزرابي» (١)

(وطاعة ولاية العدل تمام العز) (٢) لما كان الإنسان أسيراً للمفسد الأمارة

(١) سبأني في كتاب العلم ان شاء الله تعالى .

(٢) نقوله و طاعة ولاية العدل الظاهر المتبادر الى الذهن في كلام الائمة «ع» وشيعتهم من ولاية العدل الامام المعصوم وأما سائر الولاة وان اتسموا بالعدالة فهم جاثرون لا يجب اطاعتهم الا بالغير غير المعصوم من أمر بالغيب ولو خطاء وهذا مذهبنا في الحكومة والسياسة ونقول: يجب نهي حكمة الله تعالى ولطفه أن ينصب في كل زمان اماماً معصوماً حجة ويوجب طاعته على العباد والمدينة الفاضلة التي يقول به الحكماء هي التي يكون الامير فيه بصفة العلم والحكمة والعدل و توجد فيه العصمة ، وقال الفارابي في معنى كنيته ما حاصله أن أفضل أنحاء المدينة بعد المدينة الفاضلة مدينة الجماعة وعرفها بما يطابق الحكومة الديمقراطية في عهدنا وقال هذه المدينة بعد الناس و يهتفون لقبول المدينة الفاضلة ومدينة الجماعة هي التي قبلها أكثر بلاد النصارى ولم يعهد الي زماننا هذا حكومة اعدل منها اذ عرلوا الامراء والولاة والجنود بل الوزراء مع كمال قدرتهم ان ينفذوا شيئاً بأوامرهم و يستبدوا بشيء من الاحكام الا اذا رضى به الناس وصوبه الرعايا ومع ذلك فليس اطاعة ولاه مثل تلك الحكومات أيضاً واجبة على الناس ان فرض محالاً وجودها بين المسلمين الانقية ونحذرذاً عن الفتنة وأتمثال ذلك (ش) .

بالشهوات والقوى الداعية إلى اللذات وكانت أهواؤهم لذلك مختلفة وآراؤهم متباينة وقلوبهم متفرقة كانت استقامة نظام أحوالهم في أمر معاشهم ومعادهم وحاجة إلى سلطان قاهر وحاكم زاجر تأتلف برهمنه النفوس والأهواء وتجتمع بهيئته القلوب والاراء وتنكشف بسطوته الأيدي العادية إذ في طبائعهم من حب الغلبة على ما أثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي و رادع ملي و زاجر جلي و قد أفصح المتنبي عنه حيث قال :

لا يسلّم الشرف الرقيق من الأذى ❦ حتى يراق على جوانبه الدّم
والظلم من شيم النفوس فإن تكن ❦ ذاعفة فلعلمة لا يظلم
والعلمة المانعة من الظلم عند الاستقراء ترجع إلى أمور أربعة إما عقل
زاجر أو دين حاجر ، أو عجز مانع ، أو سلطان رادع ، والسلطان القاهر
أبلغها نفعا و أعظمها ردعا لأن العقل والدين ربما كانا مغلوبين بدواعي الهوى و
العجز قد ينتفى كما هو المشاهد في الأكثر فيكون رغبة السلطان أقوى ردعا و
أعم نفعا ، ثم السلطان الجائر و إن كان دافعا للمفتنة من بعض الجوانب لكنه
جالب لها من جوانب آخر فلاخير فيه من جهة ما هو جابر فلا بد من أن يكون
السلطان عادلا ليكون دافعا للمفتنة بالكلية مانعا من وقوع الهرج والمرج والذل
والخسران في الخلق ولكن رفعه لها منوط بطاعتهم و متابعتهم له فوجب عليهم الوفاء
بذمائمهم والاستماع إلى كلامه ، والاتباع لأفعاله وأعماله ، والملزوم الألفة والتحاض
عليها والتواصي بها ، و الاجتناب عن الفرقة و غيرها مما يكسّر فقرتهم و يوهن
قوتهم من تضاعف القلوب و تشاحن الصدور و تدابر النفوس و تخاذل الأيدي
ليحصل له قوة لدفع كيد المعاندين و شر الظالمين و مكر الحاسدين و طعن
الملحدين عن حوزة المسلمين و عرض المؤمنين ، فتحصل لهم العافية و تكمل لهم
النعمة و تجري عليهم العزة والكرامة ، و يكونون حينئذ أنصارا معززين و ربابا
في الأرضين ملوكا على رقاب العالمين ، ولو تتركوا طاعته واختاروا فرقة و جانبوا
الفتنه و هدموا كلمته و كسروا شو كته و تشعبوا مختلفين و تفرقوا متحاربين

خلع الله تعالى عنهم لباس كرامته ورداء عزته و غضارة نعمته فيستولي عليهم الاعداء و يتخذونهم عبيداً ويسومونهم سوء العذاب وهم متحيرون في دلّ الملكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع (١).

(واستثمار المال تمام المروءة) أي استثمار المال واستثماره بالتجارة وغيرها من أنواع الاكتساب تمام الانسانية وكمال الرجولية (٢) لما فيه من الاستغفار عن الناس والسعي للتوسعة على الأهل و العطف على الجار والاقتدار على قضاء الحوائج والإتيان بسائر أبواب البر من مصالح الدنيا والآخرة. قال الصادق عليه السلام: «إصلاح المال من الإيمان (٣)» وقال أيضاً: «عليك بإصلاح المال فإن فيه منبهة للكريم واستغناء عن اللئيم (٤)» والاعخبار المرغوبة في كسب الحلال والاستغناء عن الناس وجعله وسيلة إلى السعادات الآخروية والتقرب بالقربات الإلهية و صرفه في وجوه البر أكثر من أن تعدّ و تحصى و إنما المذموم من جعل الدنيا لنفسه استقراراً و رضي بها داراً و اطمأن بها و ركن إليها و جعلها آلة للشهوات الباطلة

(١) من قوله: «واللزوم للآفة» إلى هنا مقتبس من النهج الخطبة المروءة بالفاصلة.

(٢) المروءة مصدر مرء الرجل و ارادوا به شيئاً غير كون الانسان مرءاً أي رجلاً فان هذا المعنى ثابت لكل رجل وليس كل رجل ذا مروءة وذلك لان الناس على ضربين منهم من يعتنى بنفسه ويتعاهده ويجب ان يحفظه مما يندسه و يعبيه ومنهم من لا يبالي بنفسه ولا يمتد بما يقول وما يقال فيه، و نظير ذلك اختلاف الناس في سائر اموالهم وما يتعلق بهم مثلاً بعضهم يعتنى بداره واثاثه واولاده، وبعضهم يهمل كل شيء له والعالم يعتنى بكتبه ويحفظها من التلف ويضن بها من الضياع وغير العالم لا يعتنى بما يقع في يده من الكتب والزارع كذلك بالنسبة الى البذور والحقول والبساتين يعتنى بامور لا يعتنى به غيره وصاحب المروءة هو المعتنى بنفسه والمروءة مدحوخة في الشرع والعرف و عدها الفقهاء من شرائط العدالة لان البدن الوقبح الذي لا يبالي بما يقال فيه ولا يمد نفسه مما يجب ان يتعاهد لا يجنب الفبائح البتة. واما استثمار المال فعده من تمام المروءة فان من يعتنى بنفسه يعتنى بماله من حيث ان ماله يقي عرقه ويحفظه من السوال ويسهل عليه البذل واعانة المضطرين و اغانة الملحوفين فيحفظ المال كمال لحفظ النفس (ش).

(٣) و (٤) الكافي كتاب المعيشة باب اصلاح المال وتقدير المعيشة تحت رقم ٦٥٢.

وَاللَّذَاتِ الزَّائِلَةُ وَالسَّيِّئَاتِ الْحَائِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّعَادَةِ الْبَدِيَّةِ. وَقَدْ رَوَى «إِن الدُّنْيَا دُنْيَا، إِنْ دُنْيَا مَمْدُوحَةٌ وَهِيَ مَا يُوْجِبُ زِيَادَةَ الْقُرْبِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَدُنْيَا مَلْعُونَةٌ وَهِيَ مَا يُوْجِبُ الْبَعْدَ عَنْ رَحْمَتِهِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْمَارُ الْمَالِ كُنْثَايَةً عَنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ لِأَنَّ إِخْرَاجَ الزَّكَاةِ يُوْجِبُ نُمُوَّ الْمَالِ وَلِذَلِكَ سَمَّيَ الْمَخْرَجَ مِنَ الْمَالِ زُكُوةً وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام : «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الزَّكَاةَ قُوْتًا لِلْفُقَرَاءِ وَتَوْفِيرًا لِّأَمْوَالِكُمْ» (١).

(و إرشاد المستشار قضاء لحق النعمة) الاستشارة أمر مرغوب فيه شرعاً و عقلاً و الروايات المرغبة فيها متظافرة و قد أمر الله تعالى بها سيد المرسلين و هو أعقل العاقلين فقال : « و شاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » فمن اهتم بأمر يعلم أن الخيرة في فعله أو في تركه فعليه أن يستشير بندي الرأي المنيين فانه سبحانه يلهمه الخير و الشر وعلى المستشار أن لا يخونه فإن من خان مسلماً فقد خان رسول الله صلى الله عليه وآله ومن خان رسول الله فقد خان الله و من خان الله أخزاه الله في الدنيا والآخرة و جلب عنه نعمة و رحمة و عليه هدايته و إرشاده إلى ما هو خير له « قضاء لحق النعمة » أي نعمة المستشار عليه لأن تفويض المسلم أمره إلى أخيه و اتكاله على رأيه فيه نعمة عليه، أو المراد بالنعمة عقل المستشار لأن العقل من أفضل نعماء الله تعالى على عباده و المراد بها أعم من ذلك وعلى التقادير إرشاده سبب لمقتضى حقها و استبقائها لها و إضلاله سبب لفسادها و يرشد إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام « إِنْ لَّهِ عِبَادٌ يَخْتَصِمُونَ بِالنَّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَيَقْرَئُهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا يَذَلُّوْهَا فَإِذَا مَنَعُوْهَا نَزَعَهَا ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ » (٢)

(و كذا الأذى من كمال العقل) قال في المغرب: الأذى ما يؤذيك وأصله المصدر و قوله في المحيط «هو أذى» أي شيء يستقذر كأنه يؤذي من يقربه نفرة و كراهة، والتأذي أن يؤثر فيه الأذى. أقول: الأذى لفظ شامل لجميع أنواع الخصال المذمومة مثل الضرب والشتم والهجو والغيبة والتمهمة وغيرها وإنما كان

(١) في المحاسن ص ٣١٩ والفقيه و الكافي و العلل من حديث المقر قوفى عن

موسى بن جعفر عليها السلام .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٦٥ .

كف الأذى من كمال العقل لأن العاقل يعلم أن الغرض الأصلي من الخلق هو الوصول إلى جناب عزته والطيران في حظائر قدسه بأجنحة الكمال مع الملائكة المقربين وأن ذلك كما يتوقف على عبادة الرحمن كذلك ينوقف على كف الأذى من الأخوان ، فكما أن صرف الهمّة في العبادة من كمال العقل كذلك صرف النفس عن الأذى ، وأما المؤذي فهو بمنزلة البهائم والسباع ، عار عن حليمة العقل و يعلم أيضاً أن ترك الأذى يوجب التعاون والتعاطف والتراحم والتواصل والتظاهر والتواخي والتآلف والتودد والاجتماع ، وكل ذلك مما يقتضيه كمال العقل و يعلم أيضاً أن ترك الأذى يدل على حلمه وأناته ورفقه وإشفاقه وعلمه بعواقب الأمور وهي من آثار العقل ، و يعلم أيضاً أن إيذاء المسلم نقصان في الدين أو خروج منه لقوله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١)» فذلك يتركه طلباً لكماله وأنه من كمال العقل ولا تفاوت في هذا الحكم بين كف نفسه عن أذى الغير أو كف غيره عن أذى أحد (وفيه راحة البدن عاجلاً و آجلاً) لأن الدنيا والآخرة دار المكافاة فمن ترك الأذى سلم عن الآفات أما الآخرة فلقوله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرة شراً يره» وقوله تعالى : «سيعلم الشدين ظلموا أي متقلب ينقلبون» وقول أمير المؤمنين عليه السلام «بئس الزّاد إلى المعاد العدوان على العباد (٢)» وقوله «يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم (٣)» إلى غير ذلك من الآيات والروايات ، وأما الدنيا فلقوله ﷺ «من سلّ سيف البغي قتل به ، و من حفر بئراً لأخيه وقع فيها» (٤) ولأن المظلوم إن كان ذا قوة فقد ألقى المؤذي نفسه إلى التهلكة وإن لم يكن ذا قوة اضمحل العداوة ويستنز الفرصة لا يتقاع المكروه به كما هو المعلوم من أحوال أبناء الزّمان ، وأيضاً قد يرفع الدهر وليس ذلك من الدهر بهيعد فالمؤذي دائماً في معرض الهلاك وقد يقال : الناس إما كاملون أو ناقصون والناقص

(١) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٦٥ أولها «إن الله تعالى أنزل كتاب هادياً» .

(٢) و (٣) و (٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٢١ و ٢٤١ و ٣٤٩ .

نقصانه إما بحسب الدنيا أو بحسب الآخرة والنقصان بحسب الآخرة إما بحسب العمل أو بحسب العلم، والنقصان بحسب الدنيا إما في الجاه والعزّة أو في المال والثروة، والكامل من حقّه أن ينفع غيره أو يدفع الضرر عنه فصارت الأقسام ستة أربعة من جهة النقص وإثمان من جهة الكمال فقولنا **مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح** إشارة إلى الناقص من جهة العمل المفتقر إلى من يدعوه إلى الصلاح وقوله : « و آداب العلماء، زيادة في العقل » إشارة إلى الناقص في العلم المفتقر إلى التعلم وقوله : « وطاعة ولاة الأمر تمام العزّة » إشارة إلى الناقص بحسب الدنيا من جهة العزّة. وقوله : « واستثمار المال تمام المروءة » إشارة إلى الناقص بحسب الدنيا من جهة المال، فهذه أقسام الناقصين وعلاج جميعهم بالمعاشرة والصحبة. وقوله : « وإرشاد المستشير قضاء لحقّ النعمة إلى الكامل النافع لغيره. وقوله : « وكف الأذى تمام العقل » إشارة إلى الكامل الدافع للضرر عن الغير.

(ياهشام إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه) لأنّ العاقل لا يعين غيره بالإثم والعدوان ولا يسعى على نفسه بالاستهانة والخذلان بل يحفظ قدره و شرفه على قدر الامكان و يجتنب من تحديث من يكذب به كما يجتنب من الدّ نوب والعصيان أو أشدّ اجتناباً لقول أمير المؤمنين **عليه السلام** : « أشدّ الدّ نوب ما استهان به صاحبه (١) » ولأنّ المكذّب للعاقل جاهل ورؤية الجاهل و مجالسته شوم فكيف تحديثه ومجاورته و لأنّ تحديثه مع احتمال تكذيبه ربّما ينجرّ إلى الخصومة و الجدال و قد ورد النهي عنها .

(ولا يسأل من يخاف منه) لأنّ أصل السؤال - والطمع - عمّا في أيدي الناس ذلّ والخيبة بالمنع وعدم الانجاح ذلّ آخر فالعاقل لا يسأل غيره ما استطاع لقول أمير المؤمنين **عليه السلام** : « إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فإنّك مدرك قسمك و آخذ سهمك، وإنّ اليسير من الله سبحانه أكرم و أعظم من الكثير

من خلقه وإن كان كل منه (١) ، وإن اضطر إليه و نظر إلى أن المال في أيدي
العباد مال الله في الحقيقة قد ملكهم انصرف فيه وأن هذا العالم عالم الأسباب فلا
يسأل قطعاً من يخاف منه تحاشياً عن ذل في ذل وانكسار في انكسار وإراقه
ماء الوجه بالامتعة أصلاً و تماسكاً بقوله عليه السلام ماء وجهك جامد فانظر عند من
تقطره (٢) و بقوله : لقلع ضرر ، وضك حبس ونزع نفس ، ورد أمس
وحمل عار ، ونفخ نار و بيع دار بعشر فلس و قود قرد ، و نسج برد
ودبغ جلد بغير شمس و قتل عم ، وشرب دم وحمل غم ، ونقل رمس
أهون من وقفة بباب تلقاك حجائبها بعبس

(ولا يعد مالا يقدر عليه) لأن خلف الوعد من صفة التفاق وصنع اللثام و
فيه مذلة حاضرة وخساسة ظاهرة يستنكفها أصحاب العقول الخالصة وقدروي عن
أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقاً وعد منها
خلف الوعد (٣) ، ولاظهار شرف الوفاء به و سمو رتبته و علو درجته ذكر الله
سبحانه في القرآن العزيز وقدمه على وصف الرسالة والنسب و غيرهما من الصفات
العالية مثل الأمر بالصلوة والزكاة فقال : و اذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان
صادق الوعد و كان رسولاً نبياً ، وقيل ، معناه إن العاقل لا يعد أمراً من الأمور
حتى يعلم أنه قادر على إتمامه والبلوغ إلى غايته ، وكأنه قرأ يعد بشد الدال
من الإعداد والظاهر أنه تصحيف (ولا يرجو ما يعتف برجائه) التعنيف المألوم و
التعيير والرجاء هي الصورة الحاصلة في النفس من تقدير شيء و تصويره فيها و
أكثره ينشأ من تخمين بالروية ، وفي النهاية الرجاء هي التوقع والأمل والمراد

(١) النهج من كتاب له «ع» إلى ابنه الحسن «ع» .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٤٦ .

(٣) بحار الانوار المجلد الخامس عشر الجزء الثالث من كتاب الايمان والكفر باب

صفات المنافق والمرائي عن هرون بن مسلم عن مسعدة بن زياد عنه عن آباء «ع» عن النبي
«ص» «المنافق ثلاث علامات اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان» .

به هنا طلب رجل ما لا يستحقه ولا يليق به حاله كما هو من بضائع النوكى (١) وشرابيع الحمقى مثل أن يطلب الفقير الخمول السلطنة والجاهل الغنى التطلع بالأسرار والأهوية ويدعي المبتدئ في العلم رتبة الاستادين الكاملين ورجاء أمثال ذلك من لوازم الجهالة ولو احق الغباوة لامن صفة العلماء وسمت العقلاء فان العاقل العالم لا نار قلبه وإضاءة ذهنه وانفتاح عين بصيرته له حاجز عن ذلك ونور يسنين به العواقب ويترك به القبايح ويجتنب عن رجاء ما لا يليق به وينزل نفسه في مكانها ويطلب الأشياء في مقلتها . رحم الله عبداً عرف قدره فلم يجاوز طوره . (لا يتقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه) قرء بعض العلماء قوته بالقفاف المضمومة وتشديد الواو ، و قال : أي على قوته فالنصب على نزع الخافض ، والنسخ التي رأيناها بالفاء المفتوحة والواو الساكنة يعني أن العاقل لا يقدم على فعل ليس في وسعه ولا يرتكبه تجرؤاً عن حقوق اللوم بسبب العجز عنه رأساً أو بسبب العجز عن الايمان به على وجه الكمال وكذا لا يقدم على قول وفعل في غير وقتيهما لأنه يعلم أن الأشياء مرهونة بأوقاتها ومن أقدم عليهما في غيرهما عجز عنهما (٢) وأذل نفسه ، و قال

(١) بضايح جمع البضاعة. النوك - بالضم والفتح - جمع نوكي كسكري (القاموس)

(٢) ادب المعاشرة مع الناس ينقسم بانقسام الناس وهم طوائف فمنهم العلماء والمعاشرة

معهم لتحصيل الاداب و زيادة العقل، ومنهم ولاية العدل وادب الناس معهم الطاعة لحفظ المزة ، ومنهم من تعرفه وبعرفك وله حق نعمة عليك بوجه من الوجوه وأدبك معه بذل النصيحة وترك الخيانة في الرأي و مراعاة مصلحته ، ومنهم من ليس بينك وبينه معارفة و أدبك معه الكف عن اذاه و الامتناع من الاضرار به ، و اما ادب النفس بحيث يحفظ بكرامته عند الناس فأوله استثمار المال، ذكره بعد ذكر طاعة الولاة لما بينهما من الارتباط ثم أن لا يحدث من يخاف تكذيبه فان ذلك يشهره بالكذب ، ولا يسأل من يخاف منعه فانه يوجب الذلة ، ولا يعدها لا يقدر عليه فان هذا أيضاً يوجب مهاتته وعدم اعتماد الناس عليه ، ولا يتعرض لطلب ما لا يناله فان هذا يستلزم رعيه بالسفاهة و يستهزئ به و يذهب بكرامته ولا يستعجل في ادراك شيء يظن أنه لا يدركه لعجزه فان ذلك أيضاً سفاهة (ش).

الصادق عليه السلام : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قيل له : وكيف يذل نفسه ؟ قال :
يتعرض لما لا يطيق » (١) ، وفي رواية أخرى (٢) عنه عليه السلام قال : « يدخل فيما
يعتذر منه » . (٣)

((الاصل)) :

١٣- « علي بن محمد ، عن سهل بن زياد رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام :
« العقل غطاء ستير ، والفضل جمال ظاهر ، فاستر خلل خلقك بفضلك ، وقاتل هواك »
« بعقلك ، تسلم لك المودة » ، وتظهر لك المحبة » .

((الشرح)) :

(علي بن محمد عن سهل بن زياد رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : العقل

(١) و (٢) الكافي في كتاب الجهاد باب كراهة التعرض لما لا يطيق تحت رقم ٤ و ٥ .
(٣) هذا خبر طويل رواه الحسين بن محمد بن عمران وهو ثقة ، عن بعض أصحابنا
وهو مجهول عن هشام بن الحكم مرسل فروايت غير معتبرة من جهة الاسناد ، والاعتماد
على متنه اذ يتضمن مدح العقل مع الاستشهاد بالقرآن الكريم و التأييد بالدلة العقلية
فإن شمل بعض ألفاظه على ما يحتاج الى تكلف في تفسيرها أو ينقل آية على خلاف ما في
المصحف الشريف لا يستغرب ذلك فإن حفظ جميع ألفاظ الامام «ع» في الروايات الطويلة
خرق للعادة ولا يمد سهو الراوي ونقله بعض الكلمات بتعريف و تصحيف ولا يجعل
مثله دليلاً على تحريف القرآن كما هو دأب الاخباريين فإن احتمال تطرق الوهم والتحريف
الى الخبر قريب و الى القرآن ممتنع . و قال صاحب الوافي قدس سره : و لهذا الحديث
ذيل في غير الكافي نذكره في كتاب الروضة ان شاء الله تعالى وفي الوافي ايضاً شرح وتحقيق
كثير اقتبس بعضه من السيد الداماد واستاده صدر المتألهين قدس سرهما ونقل منه كثيراً
في هذا الشرح بالفاظهم من غير ان ينسبه اليهم وله عذر في ذلك تشير اليه في موضعه ان شاء الله
تعالى (ش) .

غطاء ستر) العقل جوهر مجرد له مراتب متفاوتة في النقص والكمال باعتبار التفاوت في العلم والعمل والكشف حتى يبلغ غاية الكمال الذي تختص به بقول الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ، والمراد بالعقل هنا نوعه في ضمن أي صنف وجد غير الصنف الذي هو في غاية الكمال سواء كان من جهة المكاشفة أو من جهة الاكتساب بقرينة أن هذا الصنف لا يحصل إلا بعد قتل مشتهيات النفس و هواها . و الغطاء كالكساء ما يغطي ويستر به مثل الثوب ونحوه وسمي العقل غطاء على سبيل التشبيه لأنه يستر المقابح الظاهرة و المفاسد الفاضحة و العيوب الباطنة بالمدافعة و الممانعة ، ووصفه يستتر بمعنى سائر على سبيل الكشف والإيضاح أو بمعنى مستور لأن العقل جوهر مجرد مستور عن الحواس لا يدرك إلا بشيء من آثاره وأحواله كما أشار إليه بقوله (والفضل جمال ظاهر) والمراد بالفضل إما جنوده الآتية مثل الرأفة والرأفة و العفة و أمثالها و وجه ظهورها ظاهر ، وإما ما حصل له من العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية والأخلاق النفسانية و ظهوره إما لأنه يظهر في بعض الأوقات بالتعليم و التفهيم أو لأن أكثره حصل من طرق الحواس وإما كان مقتضى العقل هو القرب من الخالق و تحصيل المحبة والإلف بالمخلوق و تكميل المودة ليتم له سعادة الدارين و نظام النشاطين و مقتضى النفس ضد ما عني الميل إلى أنواع المشتهيات وأنواع المستلذات ولو بالغلبة الموجبة لعداوة الخالق و المخلوق و كان بينهما تدافع و تعارض و كان لكل منهما ممد و معين أما معين العقل فهو العلوم والمعارف وما أعطى له من الأخلاق والأعمال المرضية وهي جنوده الآتية وأما معين النفس فهو ما قدر لها من الأخلاق الرذيلة وهي جنودها الآتية ، و اشتغال الحواس والقوى بتحصيل منمسياتها و تكميل مهيئاتها أراد عليه السلام أن يبين لنا طريقاً به يقطع التنازع بينهما و يحصل القوة على النفس ويصل إلى مقصوده فقال : (فاستر خلل خلقك بفضلك) إن كان «خلقك» بضم الخاء فالمراد بخلله رذائل الأخلاق النفسانية كالغضب والحسد والجور ونحوها ، وإن كان بفتحها فالمراد بها هذه والطرق الموصلة للصورة الشهية المحسوسة إلى النفس

أعني الجواس" أيضاً يعني استمر ردائل أخلاقك النفسانية و صور المحسوسات الشهوانية بعلمك و فضائل صفاتك العقلية والمراد بسترها دفعها بلطائف السياسات و طرائف التدبيرات فيتقوى العقل حينئذ بالفضل و تبقى النفس مع المتمنيات و ميلها إلى اللذات بالامعين من خارج و داخل فتصير ضعيفة مغلوقة بحيث تقدر على قتلها بسيف العقل واذلك أمر عليه السلام به حيث قال: (وقاتل) بعد ما صيرت عقلك قوياً و نفسك ضعيفة (هواك بعقلك) أي متمنياتا ومهويتا بها وذلك إنما ينحقق بقتل النفس و يمكن أن يراد بالهوى النفس مجازاً من باب تسمية السبب باسم المسبب (تسلم لك المودة و تظهر لك المحبة) الفعالان مجزومان بالشرط المقدر بعد الأمر أي إن سترت و قتلتم تسلم لك المودة و المخلوق أو مودته الخلق لك لخلوصك عما يوجب التباغض والتحاسد والتفارق و غيرهما من منافرات التودد والالتيام، و تظهر لك المحبة الله تعالى إيتاك أو محبتك إيتاه لعروجك بالعقل والفضل بالامعارض من النفس وهواها و من ردائل الأخلاق و رداها إلى ساحة نفسه و مقام أنسه و في بعض النسخ و تظهر لك المحبة يعني و تظهر لك المحبة والغلبة بذلك على الخلائق فهم يفتنون آثارك و أطوارك لحق رباسمك و يتبعون أفعالك و أقوالك لحسن سياستك فيكمل لك متعبة الدنيا و سعادة الآخرة، هذا ما وصل إليه الفكر الفاتر و الله أعلم بحقيقة كلام وليه .

((الاصل)):

- « ١٤ - عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن علي بن حديد، عن سماعة بن مهران قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجري ذكر العقل و »
 « الجهل فقال أبو عبد الله عليه السلام : اعرفوا العقل و جهده و الجهل و جهده تهتدوا قال سماعة : »
 « فقلت : جعلت فداك لا نعرف إلا ما عرفتمنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله عز »
 « وجل خلق العقل و هو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره »
 « فقال له أدبر فأدبر ، ثم قال له : أقبل فأقبل ، فقال الله تبارك و تعالى : خلقتك ،

« خلقتاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي قال : ثم خلق الجهل من البحر ،
 « الأجاج ظلماتياً فقال له : أدير فأدير ، ثم قال : له أقبل فلم يقبل فقال له :
 « استكبرت فأعنه ، ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً فلمّا رأى الجهل ما
 « اكرم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة فقال الجهل : يا رب هذا خلق
 « مثلي خلقتني وكرّمته وقوّيته وأنا ضده ولا قوة لي به فأعطني من الجندمثل
 « ما أعطيته فقال : نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك و جنّدك من رحمتي قال :
 « قد رضيت فأعطاه خمسة وسبعين جنداً فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة
 والسبعين الجنّد :

« الخير و هو وزير العقل و جعل ضده الشرّ و هو وزير الجهل ، والايمان
 « و ضده الكفر ، والنصديق و ضده الجحود ، والرجاء و ضده القنوط ، والعدل
 « و ضده الجور ، والرضا و ضده السخط ، والشكر و ضده الكفران ، والطمع و ضده
 « اليأس ، والنوكتل و ضده الحرص ، والرافة و ضدها القسوة ، والرحمة ،
 « و ضدها الغضب ، والعلم و ضده الجهل ، والفهم و ضده الحمق ، والعفة و
 « ضدها التهنّك ، والزهد و ضده الرغبة ، والرفق و ضده الخرق ، والرهبة
 « و ضدها الجرأة ، والتواضع و ضده الكبر ، والنوذة و ضدها التسرع ، و
 « الحلم و ضده السفه ، والصمت و ضده الهذر ، والاستسلام و ضده الاستكبار ،
 « والتسليم و ضده الشك ، والصبر و ضده الجزع ، والصفح و ضده الانتقام ،
 « والغنى و ضده الفقر ، والنذكّر و ضده السهو ، والحفظ و ضده النسيان ،
 « والتعطّف و ضده القطيعة ، والقنوع و ضده الحرص ، والمؤاسة و ضدها
 « المنع ، والمودة و ضدها العداوة ، والوفاء و ضده الغدر ، والطاعة و ضدها
 « المعصية ، والخضوع و ضده التطاول ، والسلامة و ضدها البلا ، والحب و
 « ضده البغض ، والصدق و ضده الكذب ، والحق و ضده الباطل ، والأمانة
 « و ضدها الخيانة ، والاخلاص و ضده الشوب ، والشهامة و ضدها البلادة ، و
 « الفهم و ضده الغباوة ، والمعرفة و ضدها الانكار] والمدارة و ضدها المكاشفة ،

« وسلامة الغيب وضدّها المماكرة ، و الكتمان وضدّها الإفشاء ، والصلاة وضدّها
 « الإضاعة » والصوم وضدّها الإفطار ، والجهد وضدّه النكول ، والحج وضدّه نبذ
 « الميثاق ، وصون الحديث وضدّه النميمة ، وبرّ الوالدين وضدّه العقوق ، والحقيقة
 وضدّها الرياء ، والمعروف وضدّه المنكر ، والستر وضدّه التبرّج ، والتقية
 « وضدّها الأذاعة ، والانصاف وضدّه الحميّة ، والتهبئة وضدّها البغي ، و
 « النظافة وضدّها القذر ، والحياء وضدّها الجلع ، والقصد وضدّه العدوان ،
 « والراحة وضدّها التعب ، والسهولة وضدّها الصعوبة ، والبركة وضدّها
 « المحقق ، [والعافية وضدّها البلاء] ، والقوام وضدّه المكاثرة ، والحكمة
 « وضدّها الهوى ، والوقار وضدّه الخفة ، والسعادة وضدّها الشقاوة ،
 « والتوبة وضدّها الاصرار ، والاستغفار وضدّه الاغترار ، والمحافظة وضدّها
 « التهاون ، والدعاء وضدّه الاستنكاف ، والنشاط وضدّه الكسل ، والفرح
 « وضدّه الحزن ، والألفة وضدّها الفرقة ، والسخاوة وضدّه البخل »
 « فلا يجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلّا في نبيّ أو وصي نبيّ »
 « أومؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان ، وأمّا سائر ذلك من موالينا فإنّ أحدهم لا يخلو »
 « من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل وينقى من جنود الجهل »
 « فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء ، إنّما يدرك ذلك
 « بمعرفة العقل و جنوده و بمجانبة الجهل و جنوده ، وثقنا الله وإبناكم لطاعته
 « و مرضاته . »

((الشرح)) :

(عدد من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد : عن علي بن حديد) ضعفه الشيخ
 في كتابي الحديث وقال : لا يعول على ما ينقرد ينقنه وقال المكشي : قال نصر بن
 الصباح ، إنّ فطحى من أهل الكوفة و كان أدرك الرضا عليه السلام و روى عن أبي
 جعفر و أبي الحسن عليهما السلام ما دلّ على مدحه و جواز الصلاة خلفه والأخذ بقوله

ولكن حكم بعض أصحابنا بضعف هذه الرواية (عن سماعة بن مهران) فطحى ثقة روى عن أبي عبد الله عليه السلام و أبي الحسن عليه السلام و ما قيل : من أنه مات في حياة أبي عبد الله عليه السلام فهو غلط لأنه يروى كثيراً عن أبي الحسن عليه السلام (قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام و عنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل فقال أبو عبد الله عليه السلام اعرفوا العقل و جهده) أي أعوانه و أنصاره و فيه مكنية و تخيلية (والجهل و جهده تهندوا) مجزوم بالشرط المقدّر ولعل المراد بالمعرفة المعرفة مع اختيار جنود العقل لأن الهداية لا تحصل إلا بهما (قال سماعة : فقلت جعلت فداك) الفداء إذا كسر أو له يمدّ و يقصر و إذا فتح فهو مقصور ، و عن المبرد المفاداة أن تدفع رجلاً و تأخذ رجلاً و الفداء أن تشتريه و قيل : هما بمعنى . (لا نعرف إلا ما عرفتمنا فقال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله خلق العقل و هو أول خلق من الرّوحانيين) الجار والمجرور إن كان خبراً بعد خبر أي هو أول خلق وهو من الرّوحانيين فأفاد الكلام أن العقل يعني الجوهر المجرد الإنسانى (١) أول المبدعات

(١) « الجوهر المجرد الإنسانى » اعلم أن الموجود أما روحانى ليس له مقدار بالذات واما جسمانى له طول وعرض وعمق والقسمة حاصرة دائرة بين النفى والاثبات و اصطلاحوا على تسمية الأول بالمجرد وهو البراد بالروحانى اذ هو المقابل للجسمانى فى الاصطلاح واختلف الناس فى تقدم الروحانى على الجسمانى أو العكس فذهب الملاحدة وأصحاب الطبائع والدمرية الى الثانى وقالوا أن ما يسمى روحاً ليس الا فرعاً على الجسم متأخراً عنه وائراً من آثاره كالحرارة والبرودة ؛ فان بطل الجسم بطل الروح وليس هنا موجود مدرك غافل مستقل بنفسه غير حال فى الجسم وعلى قول هؤلاء فلا عقل ولا نفس ولا ملائكة ولا جن ومن مات فمات وبطل ونفى وذهب الالهيون والروحانيون الى أن المجرد مقدم على الجسم وليس الروح العاقل المدرك أثراً وفرعاً على الجسم بل هو مستقل بنفسه و مقدم فى الوجود عليه لأن الجسم الجامد محتاج الى الموجود المجرد وليس الموجود المجرد محتاجاً الى الجسم ، و الجسم مركب من المادة والصورة وحفظ المادة بالصورة وحفظ الصورة بالموجود المجرد الروحانى و فتح الله على عقول

و تقدم على غيره من الممكنات كآثارها في الفطرة والابحار ، و يؤيده قوله عليه السلام :
 « أول ما خلق الله العقل » وإن كان بياناً لخلق أو صفة أو حالاً عنه أفاد أنه أول
 خلق بالنسبة إلى الرّوحانيين وأما أنه أول خلق بالنسبة إلى غيره من الممكنات
 كلها فلا إلّا إذ أثبت تقدم الرّوحانيين على سائر الممكنات في الابداع و ثبوت
 ذلك خارج عن مفاد هذا الكلام ، فما قيل : من أن فيه دلالة على أن العقل هو
 المبدع الأول بالحقيقة و على الاطلاق دون غيره من الممكنات لأنها بنوسطه
 فمدفوعٌ أمّا أولاً فلا لأنه لا دلالة فيه على تقدم العقل على غيره على الاطلاق إلّا في
 بعض الاحتمال الذي هو أبعد الاحتمالات فلا يتم بذلك ما ادّعاء ، و أمّا ثانياً
 فلا لأنه لا دلالة فيه على أن غير العقل من الممكنات صدر منه تعالى بنوسط العقل
 و هو ظاهر بل لا يبعد القول ببطلان ظاهر هذا الحكم لأن بناء ظاهره (١) على

بأن الناس بهم في هذا العالم الأدنى بناء إلى عالم النجود وهو الرؤيا الصادقة والالهامات
 فإذا رأى شيئاً من الامور الغائبة المستقبلة مما لا يمكن ان يستنبطه الانسان بعقله ولم يوجد
 بعد ثم وقع كما رأى دل ذلك على وجود عالم عقلي مدرك بعلم ما يقع في المستقبل و
 يتصل روح الانسان في المنام بوجودات ذلك العالم نحواً عن الاتصال ويدرك بعض الامور
 والعقل الذي هو أول خلق من الروحانيين ليس الا الموجود العاقل في ذلك العالم والحديث يدل
 على أن العقل أول خلق من الروحانيين ، و الروحانيون مقدمون على الجسمانيين فالعقل
 أول المخلوق مطلقاً ، ولا يتصور أن يمتدأ أحد أجزائاته أقرب إلى الله تعالى من الروحانيين
 كما سيصرح به الشارح (ش) .

(١) قال ببطلان ظاهر هذا الحكم لاحقيقته لان الذي يتبادر الى ذهن أكثر الناس
 من أمثال هذه المبادرات التفويض أي تفويض الله تعالى امر الخلق الى العقل الاول نظير
 تفويض المولى تدير ملكه الى بعض خدامه وهذا باطل جداً وليس مراد من قال بذلك
 قطعاً وليس توسط العقل الا كتوسط الاسباب كما يشفي الله المريض بالدواء ويرسل الرياح
 فتثير السحاب بها ويمطر من السحاب فيحيي به أرضاً ميتة ومثله الملائكة الموكلون على
 كل شئ في العالم بل ليس المراد من العقل الا الملائكة ولكل اصطلاح فظاهر الحكم

تخليط الفلاسفة وهو أن أرسطو ومن تابعه من فلاسفة الاسلام كالفارابي وابن سينا قالوا: إن الباري تعالى من حيث أنه واجب الوجود يجب أن يكون واحداً ومن حيث أنه واحد يجب أن لا يخلق إلا واحداً إذ لو خلق اثنين لكان ذلك باعتبار أمرين مختلفين في ذاته و تلك كثرة تنافي ماوجب له من الوحدة و ذلك الواحد الصادر هو العقل ثم صدر عن ذلك العقل أربعة جواهر عقل و نفس و فلك مركب من جوهرين مادة و صورة ثم صدر عن العقل الثاني أربعة جواهر أيضاً ، ثم هكذا على الترتيب إلى أن كملت عشرة عقول و تسع أنفس و تسعة أفلاك ، ثم تحركت الأفلاك فحدثت العناصر الأربعة التي هي الماء والهواء والنار والتراب ثم تمازجت هذه العناصر فحدث العالم السفلي و هو ما تحت الفلك القمر عالم الكون والفساد و سموه بذلك لأن الأجسام العلوية أعني الأفلاك العرية عن العناصر تركبت من المادة والصورة تركباً لا يقبل الخرق والانحلال ، والعالم السفلي تركبت من العناصر الأربعة تركباً يقبل الانحلال فسموا ذلك التركيب والانحلال كوناً وفساداً ثم تركبت الموجودات في عالم الكون والفساد من آثار طبائع العناصر و آثار عالم الكون والفساد قابلة لاختلاف الأشكال والصور والآثار التي في العالم العاوي متناسبة غير قابلة لاختلاف الصور ، فالشمس مثلاً لا تقبل أن تكون على غير تلك الصورة و ما يجري في العالم السفلي هو من آثار نفوس الأفلاك و عقولها (١) و

تد وهو التفويض باطل و حقيقته صحيحة . ويجوز أن يقال في العقل بتظير ما يقال في سائر الاسباب (ش) .

(١) الى هنا تقرير مذهب أرسطو و من تابعه ولم يحكم فيه بشيء تفصيلاً الا أنه تخليط أي مزوج حقه باطله وبما لم يبين حقه من باطله لعدم تعلق الفرض به و رجع بعد تقرير كلامهم الى ابطال الاصل الذي يبني عليه أكثرهم وهو لا يوافق مذهب المسلمين وهو أن الله تعالى فاعل الاختيار لان تحقيق ذلك هو الفرض الاصلى . واعلم أن الحكماء المتأخرين كصدر المشائين و أتباعه لا يرتضون مذهب المشائين في حصر العقول في المشرة الطولية وتكثير الجهات على ماذكروه مع أنهم أيضاً لم يريدوا الحصر ، والتفصيل في محله (ش) .

كان أصل أكثرهم في الوجود الأول أن لا يخلق شيئاً بالاختيار، فإيجاد العقل الأول إنما هو بحسب الذات إيجاب العلة معلولها فإن العالم العلوي والسفلي لا مفتوح لوجودهما عندهم لأن العلة والمعلول موجودان معاً وتقدم العلة على المعلول إنما هو بالذات لا بالوجود إلى غير ذلك من المزخرفات التي ليس هذا موضع استيفائها (١) ولا مستند لهم على طريق البرهان فإذا صوبقوا في المطالبة به قالوا : لا تدرك هذه الأمور بالبرهان وإنما تدرك بالرياضات أو بالرياضيات فمن أحكمها علم ذلك ضرورة ، ولا يخفى فساد هذا القول أمّا الرياضات فإن الأنبياء والأوصياء وهم الأقدمون في باب الرياضات والمكاشفة لم يخبروا بذلك (٢) وأمّا

(١) المزخرف العموم بالذهب، شبه الكلام الباطل المشبه بالحق بالنعاس الملبس بالذهب وقال إن أكثر أتباع أرسطو لهم أصل في الوجود الأول تعالى وأنه لا يفعل شيئاً باختياره بل هو فاعل موجب وخص الأول بأكثرهم لأن بعضهم قائلون بالاختيار ولم ينقل من أصولهم الفاسدة هنا إلا واحداً فقط لعدم تعلق غرضه بالنقل ، ثم رجع إلى ما سبق ذكره من بيان مذهب أرسطو في مبدأ الخليقة وكيفية صدور الممكنات منه تعالى وقال لا مستند لهم على طريق البرهان - إلى آخر ما نقل - والحاصل من كلامه بطوله أن ما قالوا من أن العقل هو أول صادر من الواجب تعالى لا يستفاد من لفظ هذا الحديث وهو حق إلا أنه يستفاد من حديث آخر نقله وهو أول ما خلق الله العقل أقول : ومن هذا الحديث أيضاً بضميمة ما ذكرنا من أن الروحانيين مقدمون على الجسمانيين . (ش)

(٢) لا أظن أن أرسطو وأتباعه تمسكوا في أثبات مطلوبهم بالرياضة وهذا بعيد عن طريقتهم إلا أن يكون المراد الإشرافيين وليس مذهبهم في صدور الممكنات ما ذكره هنا بل لهم طريقة أخرى مذكورة في محله وأمّا أن الأنبياء لم يخبروا بذلك فهو لا يدل على بطلانه فإنهم (ع) يخبرون بما علم الله فيه مصلحة الخلق بأخبارهم لا بجميع ما هو حق يعلمه الله تعالى مثلاً لم يخبر الأنبياء بأن زوايا المثلث مساوية لقائمتين فإن الجزء الذي لا يتجزى معال، وأن دواء السل ما هو، وبم يعالج مرض السرطان، وفيه الله لذلك غير الأنبياء عليهم السلام (ش) .

الرّياضيّات فقال المحقّقون : هذا أسخف لأنّ الرّياضيّات كالهندسة و الحساب والهيئة والموسيقى لا ارتباط بينها وبين المطلوب فإنّ الهندسة تنظر في هيئة الجسم المتّصل، والحساب ينظر في الكمّ المنفصل، والهيئة تنظر في كيفية الأجسام (١) والموسيقى ينظر في ترتيب الألحان و تقطيعها على وجه معروف مخصوص ، ثمّ إنهم رضوا في القطعيّات بما لا يفيد علماً ولا ظناً (٢) والحقّ أنّ كلّ هذا

(١) غرض القائل ان عدد السموات يستفاد من علم الهيئة لما يرى من اختلاف حركات الكواكب في الطول والعرض ولا يمكن أن ينسب الحركات المختلفة الى قوة واحدة فاذا رأيت عربة تمشي الى جانب بسرعة واخرى الى جانب آخر يبطؤه علمت أن محرك أحدهما غير الآخر ولم يكن الشارح جاهلاً بمسائل الهيئة كما يدل عليه ماضى منه في تفسير بعض الآيات ولا يحتمل ان ينقل العبارة هناك من غير علم بمعناه ولكن ما ذكره هنا طينان من القلم (ش). (٢) قوله « لا يفيد علماً ولا ظناً » ذكر الفلاسفة قداماؤهم و متأخروهم حتى أهل عصرنا في مبدء الخليقة اموراً لا تستند الى برهان قطعي ولا ظن قوى بل يستحسنون اموراً بذهنهم وبذكرون امارات عليه ويسميها أهل عصرنا نظرية او فرضاً مثل ما نقل عن ثاليس الملطي من القدماء ان أصل الكون هو الماء وقول هرقليطس انه النار وفيثاغورث انه العدد وقول ذي مقراطيس انه الذرات المتحركة في الفضاء فتلاقت بالبعث والاتفاق وقول أصحاب الخليط والكمون والبروز على ما هو مفصل في موضعه و في عصرنا من فلاسفة الافرنج من يقول أن العالم مركب من ذرات روحية تركبت على نظام عقلي وهو قول لينيوز ومنهم من يقول كانت الشمس والسيارات والافكار جميعاً كتلة واحدة من الاجسام المحترقة المتحركة على نفسها بسرعة فتطابر منها قطعات كما ينطابر من الشعلة الجواله ذرات النار فبردت القطعات وكل سيارة قطعة منها وقال بعضهم في تسلسل المواليد بالشو و الارتقاء كما هو معروف وقال بعض أهل عصرنا منهم أنه لا جسم ولا مادة بل قوى مختلفة نظير القوة الكهربائية يتمتع بسرعة انتقالها و دورانها عن ان يغد فيها شيء فيظن صلابه ويتمود جسم ولا يعتقد أحد من أصحاب هذه الأقوال في مبدء اظهار اراتهم صحتها بل يبدون رأياً وينظرون حتى يقضي الادلة والبراهين بعد ذلك على صحتها أو بطلانها وغالباً لا يثبت النظريات والفروض بجميع تفاصيلها، وما نقل عن المشائين نظير تلك الا أن هذه الأقوال طبعية محضة وقول المشائين تخطيط من الطبيعي والالهي والاشراقيين طريقة اخرى (ش) .

باطل (١) والموجود الأزل قديم وحده وفاعل المقول والاجسام والجواهر والأعراض
و لو ازمها كلها بالاختيار على سبيل الحدوث لا بالاجاب و إلى قدرته ينسب
الجميع خالق كل شيء لا إله إلا هو الواحد القهار ، والرُّوح يذكّر و يؤنث و
يجمع على الأرواح وقد تكرر ذكره في القرآن والحديث على معان منها جبرئيل
عليه السلام في قوله تعالى: روح الأمين و روح القدس و منها سائر الملائكة ومنها القوة
التي تقوم بهذا الجسد و تكون به الحيوية و منها القوة الماطقة الانسانية التي يعبر
عنها الانسان بقوله : أنا . واختلف المتكلمون والحكماء و غيرهما في حقيقته و
قالوا فيه أقوالاً كثيرة وظنوا فيه ظنوناً متقاربة صدرت عنهم من غير بصيرة فأنه
لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه و من علمه من عباده كما قال جل شأنه «ويستألفونك
عن الرُّوح قل الرُّوح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» (٢) وهو مذهب
أكثر المتكلمين وأرباب المعاني وأهل الباطن. ونقول في نسبة الواحد: الرُّوحاني
وفي نسبة الجمع : الرُّوحانيين بضم الراء فيهما والألف والنون من زيادات النسب
وزعم أبو عبيدة أن العرب تقول لكل شيء فيه روح و مكان روحاني بالفتح أي
طيب ، ثم الروحانيون يطلق عليهم عالم المجردات وعالم الغيب وعالم الملكوت و
عالم الأمر كما يطلق على هذا العالم المحسوس عالم الماديّات وعالم الشهود و
عالم الملك وعالم الخلق، وقد يقال أن الرُّوحانيين جواهر مجردة نورانية غير
مفتقرة في وجودها إلى جسم و جسمانيّات فان كان في فعلها و تصرفها مفتقرة

(١) لكن بطلانه راجع إلى شيء واحد وهو كون صدور الأشياء عنه تعالى بالاضطرار
والاجاب وبالنفويض إلى العقل (ش) .

(٢) لم يقل الله تعالى ان الناس لا يعلمون شيئاً ثم ما يعلمونه باطل بل قال تعالى
انهم يعلمون وان الله آتاهم علمه اكن ما يعلمون قليل بالنسبة إلى ما لا يعلمون وغاية ما
يعلمون ان الروح جوهر مجرد باق بعد فناء البدن وله في عالمه لذات وآلام اقوى مما في
هذا العالم مثل ما نعلم أن في بلاد الصين رجالاً ونساء ولهم مكاسب ومعايش ولا نعلم منهم
ما نعلم من بلادنا (ش) .

إليها فهي نفس وإلا فهي عقل أو غيره (١) وأن الأنوار كلها حقيقة واحدة لا تفاوت بينها في المهمية و عوارضها بل في الشدة والضعف والكمال والنقص في أصل النورية والوجود والله أعلم بحقيقة الحال (عن يمين العرش) متعلق بخلق أو حال عن الرُّوحانيين واليمين الجانب الأقوى والأشرف خلاف الشمال، والعرش في اللغة سرير الملك و كونهم على يمين العرش كناية عن كرامتهم و علو منزلتهم و رفعة شأنهم من بين المخلوقات لأن من عظمت منزلته تَبَوَّأَ عن يمين الملك و في عرف المتشرعة يطلق على ثلاثة أمور أحدها الملك ، وثانيها الجسم المحيط بسائر الأجسام و هو الفلك التاسع، وثالثها العلم المحيط بجميع الأشياء و كل ذلك على سبيل التشبيه بسرير الملك ، ويمكن إرادة كل واحد منها هنا أمّا الأول فلأن الملك وهو عبارة عن جميع الكائنات له يمين وشمال و يمين أي جانب أقواه وأشرفه هو يلي المبدأ الأول في ترتيب الابداد و تقدمه (٢) فكل ما هو أقرب منه جل شأنه في الابداد فهو أيمن بالقياس إلى ما بعده لكونه أقوى و أشرف و أمّا الثاني فلأن ذلك الجسم المحيط إذا سمّي بالعرش كان له يمين و شمال كما كان لسرير الملك ثم الكائن على يمينه من أهل الكرامة و المنزلة كالكائن عن يمين سرير الملك ، و أمّا الثالث فلمثل ما ذكرناه في الثاني أوفي الأول باعتبار المعلومات لأن العلم المتعلق باليمين يمين بالنسبة إلى العلم المتعلق بما بعده و إن كان علمه بالأشياء بسيطاً والتكثّر إنّما هو في المعلومات ، ولا يبعد أن يقال : يجوز أيضاً إطلاق العرش على عالَمين : أحدهما عالم الجسمانيات كلها ويسمّى بالعرش الجسماني، وثانيهما عالم المجرّيات كلها ويسمّى بالعرش العقلائي والعرش الرُّوحاني . ويجوز أن يراد بالعرش هنا العرش الرُّوحاني وبيمينه أشرف جانيه و هو ما يقرب من الحق في سلسلة الابداد (٣) و أن يقال ، يجوز أيضاً أن

(١) أو غيره مثل نورية أو ملك تفصيلاً اصطلاحاً . (ش)

(٢) هذا تصريح بأن الروحانيين مقدمون في الابداد على الأجسام . (ش)

(٣) هذا أيضاً تصريح بتقديم العقل في الوجود على غيره . (ش) .

يراد بالعرش القلب الانساني لأنّه عرش الرحمن ، و يمينه الجانب المائل إلى الحق ، وشماله الجانب البعيد عنه لأنّه قابل لسلوك الطريقين : طريق الحق وطريق الباطل هذا . وقيل : المراد بالعرش هنا الجوهر المجرد الانساني المسمّى بالعقل و بالعرش العقلاني و هو بازاء الفلك التاسع المسمّى بالعرش الجسماني و كل منهما في جانب مقابل لجانب آخر ، والمراد بيمينه مطلق جانبه وسمي يميناً التشريف والتعظيم، وقيل : العرش جوهر متوسط بين العالم العاقل الثابت و بين العالم المتغير المتجدد نفوساً كانت المتغيرات أو أجساماً والله سبحانه أوجد الثابتات بنفس ذاته بلا واسطة و أوجد المتغيرات بواسطة العرش و الثابت هو اليمين في سلسلة الابداد لأنّه أقرب منه تعالى (من نوره) متعلق بخلق العقل أي خلقه من ذاته بلا واسطة شيء ، ولا اعتبار مادة (١) أوحال عن العقل والاضافة للتشريف والتكريم

(١) فان قيل كيف أنكر أولا كون العقل الاول خلقه الله بلا واسطة ثم اعترف هنا بما أنكره أولا : قلنا : انما أنكر سابقاً دلالة قوله (ع) و هو أول خلق من الروحانيين على كون العقل أول مخلوق ولم ينكر أصل المعنى بل استدل عليه بحديث آخر و هو «اول ما خلق الله العقل» والذي ذيفه هو قول المشائين في كيفية صدور الكثير عن الواحد من أن العقل الاول صدر منه شيان الفلك التاسع والعقل الثاني ثم من كل عقل فلك وعقل الى الماشر ولم يربنوا الحصر في العشرة كما صرحوا به والمتأخرون من الحكماء يزيفون قول المشائين و قال الحكميم السبزوادي مشيراً الى قولهم :

اذ ذا لدى الشرق بلا وثاق اسس اساً شيخنا الاشراقي

ثم قال بعد ابيات :

وليس في الثاني من الجهات ما يفى بشان كثير أنجما

و اعلم ان المجلسي رحمه الله أخا زوجة الشارح أنكر وجود العقل المجرد مطلقاً

بل أنكر المجردات و قال كل شيء غير الله تعالى جسم وقد مضى في الصفحة ٦٩ و ٧٠

و كرر في مرآة العقول انكاره لوجود مجرد غيره تعالى و قال في شرح أربعينه اثبات

العقل المجرد بوجب انكار كثير من ضروريات الدين ولكن الشارح كرر ذكر عالمهم

كما في عيسى روح الله ، أوحال عن الروحانيين بناء على أن الروحانيين كلهم نورانيون والعقل أولهم وأفضلهم وعلى التقادير فيه إشارة إلى أن العقل نوراني لأنه يظهر به الحق عن الباطل والصواب عن الخطأ كما يظهر بالنور الأشياء المتحجبة بالظلام وإن نوريته مستفادة من نور ذاته سبحانه بلا توسط شيء نوراني غيره (١) ولا تكدره كدرة المواد الظلمانية ولذلك إذا عرى عن العوائق وانتزع عن العلائق اتصل بالخالق اتصالاً تاماً ، ومن ثم قيل : لا مسافة في العالم الروحاني ، ويحتمل أن يراد بالنور العدل وإطلاق النور على العدل شائع كما صرح به القاضي وغيره في تفسيره قوله تعالى « وأشرق الأرض بنور ربها » والمعنى أن الله سبحانه خلق العقل خلقاً ناشئاً من عدله إذ لولا العقل لبطل الغرض من إيجاد الإنسان فعدله اقتضى خلق هذا النوع من المخلوق لئلا يفوت الغرض (فقال له : أدبر) عن المنهيات وأنزل إلى عالم السفلى والمنازل الجسمانية التي هي في غاية البعد عن العوالم الربوبية (فأدبر) وأطاع أمره عز شأنه وانتقاد لحكمه من غير أن يفارق نوريته وتجردته وإنما كان إدباره بمجرد إشراقات نوره في العالم الجسماني .

بالمجردات وأن العقول جواهر مجردة وأنها لا تنظر في فعلها إلى مادة والنفوس تنظر إليها ، وقال أيضاً : إن النفس الانسانية جوهر مجرد والانوار العقلية حقيقة واحدة تختلف في الشدة والضعف والنقص في أصل النورية والوجود وغير ذلك مما مضى و سياتى ان شاء الله ولا يتعجب من اختلاف الطريقتين فإن الناس لا يزالون مختلفين (ش) .

(١) لما كان خلق العقل من ذاته سبحانه بلا واسطة شيء نوراني ولا مادي . أمما انه لا واسطة نورانية بينه وبين الله تعالى فلا شيء أشرف من العقل ولا أقرب اليه تعالى ولا واسطة مادية اذ ليس وجود العقل متوقفاً على الاستعداد كالنفوس الانسانية فانها لا تتوقف على أن يستعد المبدن بالنطفة والعلقة والصفرة والعظام واللحم لان ينشأ خلقاً آخر فيكون المادة واسطة بين المبدء وبين النفوس والعقل لا تكدره كدرة المواد الظلمانية فيكون خلق العقل من نور الله سبحانه لذلك يتصل به آخر (ش) .

(ثم قال له : أقبل) إلى الطاعات و ما يوجب النزول في ساحة كرامته تعالى من القربات أو أقبل من مكان من المواد الجسميّة و منازل الظلمات البشريّة و مظاهر الجبال الطبعيّة إلى عالم المجردات النوريّة و منازل الشواهد الربوبيّة (فأقبل) مطيعاً لأمره متقاداً لحكمه تاركاً لمعصيته متدرّجاً في الصعود من طور إلى طور حتّى صار عقلاً فعلاً و ترقى حتّى مرتبة عين اليقين و هناك رجع إلى ما نزل منه و انتهى إلى ما بدأ منه وقد مرّ مثل هذا الحديث و شرحه في صدر كتاب العقل إلّا أنّ بينهما مغايرة في الجملة لأنّ الأمر بالأقبال في السابق مقدّم على الأمر بالادبار ، و هنا بالعكس فإن كانت القضية في الخطاب متعدّدة فالأمر واضح والافقيه إشكال اللّهم إلّا أن يقال : كان في الواقع أمر بالأقبال ثمّ أمر بالادبار ثمّ أمر بالأقبال ففي الحديث السابق لم يذكر الأمر بالأقبال بعد الأمر بالادبار و في هذا الحديث لم يذكر الأمر بالأقبال قبل الأمر بالادبار و من مجموعهما يستفاد ما كان في الواقع فليتنامل (فقال الله تعالى) تعظيماً و تكريماً له وحثاً له على أداء شكر هذه النعمة الجليلة (خلقتك خلقاً عظيماً) العظيم الحقيقي ليس إلّا الله سبحانه و أمّا غيره فعظمته باعتبار قربه منه و إطاعته لأمره وقد تحقّق هذان الوجهان في العقل (و كرّمك) أي شرّفك و فضّلتك ومنه « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » (على جميع خلقي) فيه أنّ العظمة و الشرافة و الفضيلة من باب التفضل منه تعالى من غير اشتراط القابليّة والاستعداد وإنّ العقل أشرف من الملائكة المقرّبين (قال ثمّ خلق الجهل) ليس المراد بالجهل هنا الجهل المركب أعني الصور العلميّة الغير المطابقة للواقع ولا الجهل البسيط أعني عدم العلم عمّا من شأنه العلم لأنّ إطاعته وعصيانته غير متصوّرة فلا يلائم قوله : « فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك و جندك من رحمتي » ولأنّ الجهل بهذين المعنيين من جنود الجهل المذكور هنا و جند الشبهى وغيره ، ولأنّ الجهل بالمعنى الثاني أمر عديم والاعدام غير مخلوقه سواء كانت سلوباً محضة أو ملكات بل المراد به مبدء الشرور والمقايح كما أنّ المراد بالعقل مبدء الخيرات والمجاسن و يمكن أن يراد بهذين

المبدأ بن صفة النفس المسمّاة بالقوّة الجاهلة وصفتها المسمّاة بالقوّة العاقلة و
أن يراد بهما ذات النفس أي الجوهر المجرد المدبّر للبدن المحتاج في فعله
و تصرفه إليه وذات الجوهر المستغنى عن البدن في وجوده و فعله (١) الذي إذا
حصل لغيره و أشرق نوره فيه كان ذلك الغير عاقلاً به و إذالم يحصل له وقام
بذاته كان عقلاً و معقولاً و تسمية النفس بالجهل من باب المجاز لأنّها محلّ
للجهل المر كسب والبسيط ، بل يمكن أن يقال : إنّها من باب الحقيقة لأنّ النفس
و إن كانت مبدءاً للجهالات و منشأً لشرور كلّها ومصدراً للمصور الوهميّة الكاذبة
الباطلة ومقتضيات القوى الشهويّة والغضبّيّة والبهيميّة وسائر القوى البدنيّة لكن
إذا تمكنت فيها هذه الأباطيل ورسخت فيها صارت جهلاً محضاً و شيطاناً صرفاً بعيداً عن
الحقّ جلّ شأنه و كلّما ازداد التمكّن والرسوخ ازدادت جهالتها و شيطنتها و
احتجابها عن الحقّ حتّى بلغت النهاية في الجهالة والغاية في الضلالة و صارت

(١) ذات الجوهر المستغنى عن البدن عبارة عن العقل المفارق الذي يقول به
الحكماء و انه الموجود الاول و هو مستغن عن البدن في ذاته و فعله و هو الذي يشرق
نوره على النفوس فتصير عاقلة باسراقه اذا نظر اليه من حيث هو كان جوهرأ فانما
بذاته و كان عقلاً و معقولاً و هذا مبدء الخيرات و اما مبدء الشرور فهو النفس أي الجوهر
المجرد المدبّر للبدن المستغنى عن البدن ذاتاً والمحتاج اليه في أفعاله ومثل امير المؤمنين
(ع) اشراق العقل على النفوس و تسلطه عليها و اتصالها به في حديث رواه الصدوق
في علل الشرايع عنه (ع) عن رسول الله (ص) قال خلقه ملك له رؤس بعدد الخلائق من
خلق و من يخلق الى يوم القيمة ولكل رأس وجه و لكل آدمي رأس من رؤس العقل
و اسم ذلك الانسان على وجه ذلك الرأس مكتوب و على كل وجه ستر ملقى لا يكشف
ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولود و يبلغ حد الرجال أو حد النساء فاذا بلغ
كشف ذلك الستر فيقع في قلب هذا الانسان نور فيفهم الفريضة والسنة والجيد والردى
الا و مثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت انتهى (ش).

قدوة المترددين وإمام المتكبرين (١) (من البحر الاحاج ظلماتياً) ماء، أجاج أي ملح مرّ و «ظلماتياً» حال عن الجهل أو عن البحر الأجاج والمراد به الغضب (٢) الالهي لأنّه مرّ كربه الطعم والرائحة على مذاق الشاربين و هشام العارفين أو المراد به مجموع الصفات النفسانية التي بعضها حسن و بعضها قبيح لتخمير النفس بها و هذا المجموع من حيث هو بمنزلة ماء، كدر مرّ ممزوج بغير الملكات الدنيئة و مرارة الصفات الشنيعة و ملوحة قبايح الآثار و خشونة فضايح الأطوار و عبّر عنه بالبحر للدلالة على تراكم تلك الصفات و كثرتها و وصفه بالظلمة لسترها أنوار العقول حايلاً بينها و بين بصيرتها ، أو المراد به المواد البدنيّة الهولائيّة التي هي محض الاستعداد وعلّة قابليّة لتعلّق النفس بها و تشخصها و عبّر عنها بالبحر الظلماتي لتراكم مياه الشرور والصفات المنغائرة المتضادة فيها و نسبتها إليها كنسبة البحر إلى الأمواج (فقال له : أدبر فأدبر) أمره بالهبوط من عالم الملكوت والنور إلى عالم الظلمات والشرور والنوحه إلى ما يلايمه من المشتبهات والنظر إلى ما فيه هواء من المستلذات فهبط لما في ذلك من مصلحة و هي ابتلاء العباد و نظام البلاد و عمارة الأرض إذ لو لا ذلك لكان الناس بمنزلة الملائكة عارفين عن حلية التناكح والناسل والزراعة وتعمير الأرض وبطل الغرض المطلوب من هذا النوع من الخلق و بطل خلافة الأرض ، ولزم من ذلك بطلان الثواب و العقاب وعدم انكشاف صفات الباري و انجلاء حقايقها و آثارها مثل العدالة والانتقام والعجباريّة والقهاريّة والعفو والعفوان وغيرها (ثمّ قال له : أقبل فلم يقبل) أمره بعد الادبار بالاقبال إليه تعالى والرّجوع إلى ماله من المقامات العليّة والكرامات الرفيعة التي لا يتيسّر الوصول إليها إلّا بالانتقال من طور أخسّ إلى طور أشرف

(١) و لعله لا يريد ان الشيطان بعينه هو النفوس الراسغة في الضلالة و الشرور

بل يريد انها مثله في صفاته الخبيثة. (ش)

(٢) لامناص عن الاستعارة والتمثيل في هذه العبارات و كلما كان العالم ظاهرياً

حائلاً للالفاظ على المعاني الجسمانية لم يمكنه في هذا الحديث كما لا يمكن في مثل

يد الله و عين الله. (ش)

و من حالة أدنى إلى حالة أعلى و من نشأة فانية إلى نشأة باقية و هكذا من حال إلى حال و من كمال إلى كمال حتى يبلغ إلى غاية مشاهدة جلال الله و نهاية ملاحظة أنوار الله و يرتفع في جنّة عالية قطوفها دانية فأبى السلوك في سبيل الرّشاد و التقيد برتبة الانقياد و التمسك بلوازم الوعظ و النصيحة و الانقلاع عن الأفعال القبيحة كلّ ذلك لشدة احتجابه بحجاب الظلمات و انغماسه في بحار ذمائم الصفات لتوهّمه أنّ تلك الذمائم الخاسرة و الصفات الظاهرة و المشتبهات الحاضرة كمال له فاعتزّ بها أو افتخروا أخذها بضاعة له و استكبر (فقال له : استكبرت فلعنه) الاستفهام للتوبيخ و التعبير و اللعن الطرد و الإبعاد من الخير يعني تركت أمري بما يصلح في النشاطين استكباراً و جعلت الامتثال به مذلة و افتقاراً أو استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير لجهلك بما يوجب قرارة العين و السرور و احتباسك بقيد الجهالة و الشرور فالأجرم أنت بعيد من الرحمة و السلامة ، مطرود عن مقام العزّة و الكرامة فإن قلت : من لعنه الله تعالى فهو مقيّد بقيد العصيان ، مقيم مقام الخذلان ، محروم عن الرحمة و الجنان أبدأ فما وجه قوله : فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك و جندك من رحمتي قلت : اللعنة مشروطة بالاستكبار ، فإن دام دامت وإن زال بالتوبة و الانابة زالت لأن الله تعالى يحب المفتن الثواب (ثم جعل للعقل خمسة و سبعين جنداً) في المغرب الجند جمع معدّ للحرب و جمعه أجناد و جنود . و في الصباح الجند الأعوان و الأناصر و في عدّ كلّ واحد من الأمور المذكور جنداً باعتبار تكثير أفراد و شعبه ، ولما كان الطريق إلى الله مخوفاً و في كلّ قدم منه شعبة و على كلّ شعبة منه عدوّ مقاتل و خصم مجادل يقود سالكه إلى مهاوي الضلالة و مساوي الجهاة احتاج سلطان العقل في قطع هذا الطريق إلى أعوان و أنصار يستعين بهم في دفع الأعداء و المحاربة مع الخصماء ، فأعطاه الله سبحانه بفضل رحمته و كمال رأفته جنوداً تعينه في مواضع الجدال و مواطن القتال و توصله على السلامة إلى منازل القرب و الكرامة ، و هذه الجنود خمسة و سبعون على ما في العنوان و المذكور في التفصيل ثمانية و سبعون و لا منافاة بينهما إذ ليس في

العنوان ما يفيد الحصر (١) إلا مفهوم العدو هو ليس بمعتبر كما يستفاد في أصول الفقه . و قال الشيخ بهاء الملة و الذين رحمهم الله على ما نقل عنه : اعل الثلاثة الزائدة إحدى فقرتي الرجا، و الطمع و إحدى فقرتي الغم و إحدى فقرتي السلامة والعافية . فجمع الناسخون بين البديلين غافلين عن البدلية و سنشير إلى توضيح ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى

(فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل) من تصفينه بنورانية الذات و تقويته بكثرة الجنود و شرائف الصفات التي بمضارته تشرق قلوب العارفين ، و بإثارتها تضيء صدور السالكين ، وباضائها يسرون إلى أعلى المقامات وينالون أشرف الكرامات (أضمر له العداوة) بين العقل والجهل تضاد بحسب الذات لأن العقل جوهر نوراني والجهل كدر ظلماني (٢) وهذا يصلح أن يكون منشأ لعداوته . و لذلك كانت العداوة بين العاقل والجاهل والمؤمن والكافر قائمة إلى قيام الساعة كما قال سبحانه و يد ابيننا و بينكم العداوة والبغضاء إلى يوم القيمة ، ولكن لما كان النور والظلمة متساويين في الغلبة والدفاع كأنه لم يحصل للجهل من هذه الجهة عداوة ، وإنما حصلت العداوة على من جهة إكرام العقل بالجنود و تقويته بالفضائل و الكمالات الموجبة لغلبته على الجهل فلذلك أضمر الجهل عداوة له حسداً و لم يظهرها لعدم القدرة على إضمار آثارها بل طلب لنفسه مثل جنوده في القوة والعدد كما أشار إليه بقوله (فقال الجهل يارب هذا خلق مثلي) أي مثلي في كونه مخلوقاً أو مثالي بحسب الذات ولازمية له على في المحاسن الذاتية وهذا القول منه على الأخير تمويه و اغترار بنفسه كما هو شأن الجاهل حيث يعد نفسه مماثلاً للعاقل و هو إما غافل عن التفاوت الفاحش بين النور والظلمة أو عالم به لكنه قال ذلك إدعاء واستنكافاً لا انحطاط ذاته عن ذات العقل وإلا فأين المماثلة بحسب الذات

(١) فان الجنود أكثر وذكر منها الأهم .

(٢) بناء على ما ذكره الشارح من أن الجهل هو النفس باعتبار عدم تنوره بنور

العقل فلا يستبعد نسبة اضمار العداوة والقول و خطاب الله تعالى له إليه ولا يجوز أن يتوهم أن الجهل عدم والعدم لا ينسب إليه هذه الأمور (ش).

بين المخلوق من ماء الرحمة والنور الرباني وبين المخلوق من نار الغضب و البحر الأجاج الظلماني و لعدم الفرق بينهما استكبر الشيطان لعنه الله و أبى أن يسجد لآدم عليه السلام و تمسك بقوله فخلقني من نار و خلقته من طين، وهو لقصر نظره لاحظ طينته آدم و غفل عن نورانيته و لو علم ذلك لعلم بطلان قياسه (خلقته و كرمته و قوته) يعني خلقته من نورك و كرمته على جميع خلقك و قوته بجنود يتقوى بها في الحركة إلى عالم الأوس والانتقال إلى عالم القدس (وأنا ضده و لا قوة لي به) في المضادة والمقابلة والانتقال إلى ما هو غاية مرامي ونهاية مقامي في اللذات التي عاينتها والحركة إلى أقصى مدارجها (فأعطني من الجنود مثل ما أعطيتني) في العدد والقوة ، طلب ذلك ليحصل له قوة بسبب جنوده على معارضة العقل و جنوده فيتمسك للوصول إلى غاية منيته ونهاية بغيته (فقال : نعم) أعطيك مثل جنود العقل اختباراً و امتحاناً لك و تكميلاً للحجة عليك (١) بأعطاء سؤالك و انتظاراً لرجعتك إلى درجة رفيعة و منزلة شريفة ، فإن المطيع مع العجز و فقد الآلات ليس مثل المطيع مع القدرة على المخالفة ، بل أولئك أعظم درجة وأرفع

(١) جنود العقل تساعد في الخيرات و جنود الجهل في الشرور ، والحقيقة ان الجنود من حيث هم جنود نسبتهم الى الخير والشر سواء فجنود الملك قد تعينه في الجهاد و فتح بلاد الكفار وقد تعينه في الظلم والاضرار بالمسلمين و سلب الاموال و قتل النفوس ، و جنود الجهل اذا اغتبرت من حيث وجودها في انفسها لا شرية فيها بل هي خير من جهة وجودها الصادر عن الله تعالى فان قيل معنى قوله : اختباراً و امتحاناً و تكميلاً للحجة أن تلك الجنود تعين الجهل في الخيرات لا في الشرور اذ بأسباب الخير والسعادة يتم الحجة على المكلف لأسباب الضلال والعصيان . قلنا يندفع السؤال بما ذكر من ان الجنود من حيث هم جنود لا شرقيهم وان الجهل اذا استعملهم في الشر صاروا اشراراً وأعطاه الله جنوداً يستعين بها في الخيرات ولم تكن اسماءها شرّاً كالحرص والرياء فاستعملها في الشرور وهذه الاسامي التي تدل على الشرور انما صارت لها بعد استعمال الجهل والافليس (الوجود الصادر عن المبدء الا لغير المحض) (ش) .

منزلة ، و لذلك كانت عباده الشبان و إنابتهم و إخبارتهم أحسن و أشرف من عبادة
الشيوخ و إنابتهم و إخبارتهم (فإن عصيت بعد ذلك) أي بعد ذلك العصيان بترك
الاقبال أو بعد أن أعطيتك جنوداً و أنصاراً مقابلة لجنود العقل و أنصاره (أخرجتك
و جندك من رحمتي) المعدة للمطيعين فتشقى بذلك و تدخل في زمرة الأشرار و
تستحق الدخول في الدرك الأسفل من النار ، والوجه ليكون معصية النفس مع الجنود
موجباً للخروج من الرحمة دون معصيتها لأمعها أن النفس إذا كانت ضعيفة فاقدة
للأنصار كانت أفعالها ناقصة فلم تكن شقاوتها شديدة موجبة للخروج من الرحمة
بخلاف ما إذا كانت قوية واحدة لأنصارها وآلاتها فإن سلوكها في طريق الشقاوة
و سيرها في منهج الضلالة أفخم ، و اكتسابها للأخلاق الذميمة و الرذائل وإنهما كلها
في ظلمات الغي و الغوائل أعظم فيكون تباعدها عن الرحمة الإلهية و الألفاف
الربانية أكثر و أقوى ودخولها في دركات الجحيم و استحقاقها للعذاب الأليم
أقرب و أولى (قال رضي) رضي عن الحق بأجابة سؤاله أو رضي بالخروج عن
الرحمة على تقدير معصيته و النفس و إن كانت مائلة إلى الفساد علملة بأمراض
تلك الصفات والأجناد لكن ذلك لا يسلب عنها الاختيار ولا يوجب صدور القبايح
عنها على سبيل الاضطراب بل يمكن لها تحصيل الصحة والسلامة عن الوسواس
الشیطانية بالأدوية والعلاج المقررة لدفع الأمراض النفسانية و بالجملته النفس
بعد تقويتها بالجنود والصفات التي هي بمنزلة العلل والأمراض لها اختيارات في أعمالها
و قدرة على أفعالها و ليس صدور تلك الأعمال والأفعال عنها على سبيل الإلجاء و
الاضطرار فلها أن تترك مقتضيات تلك الصفات، و ترتقي إلى أعلى مدارج الكمالات
الأبدية حتى تستحق أن يقال لها يا أيها النفس المظمئة ارجعي إلى ربك
راضية مرضية و لها أن تمضي تلك المقتضيات وتسرح في مراعي هذه الصفات حتى
ترتد إلى أسفل السافلين و تبعد عن رحمة رب العالمين (فأعطاه خمسة و سبعين
جنداً) في مقابلة ما أعطا العقل و كما أنهما متقابلان كذلك جنودهما متقابلان

فحصل التكافؤ في الإيجاد وتحقيق التعاند والنضاد وبقيت العداوة بينهما إلى يوم النضاد (١) وذلك لمصلحة ظاهرة يعلمها أولو الألباب وخفية لا يعلمها إلا تلام الغيوب ، وينبغي أن يعلم أن اجتناس الفضائل باتفاق الحكماء أربعة الأول الحكمة ، الثاني الشجاعة ، الثالث العفة ، الرابع العدالة وذلك لأن الإنسان قوى ثلاثة متباينة هي مبادي الآثار مختلفة مع مشاركة الإرادة وإذا غلبت أحدها على البواقي صارت البواقي مغلوطة أو مفقودة وتلك القوى أو لها قوة ناطقة وتسمى نفساً ملكية وهي مبدء الفكر في المعقولات والنظر في حقائق الأمور وثانيها القوة الغضبية وتسمى نفساً سبعة وهي مبدء الغضب والإقدام على الأهوال والنسك والترف على الغير ، وثالثها القوة الشهوية وتسمى نفساً بهيمية هي مبدء الشهوة وطلب الغذاء وشمق الانداز بالماكل والمشارب والمناكح ، وإذا تحررت القوة الناطقة بالاعتدال في ذاتها واكتسب المعارف اليقينية حصلت فضيلة العلم والحكمة وإذا تحررت القوة الغضبية بالاعتدال وانقادت للقوة العاقلة فيما تعدم حظاً ونصيباً لها ولم تتجاوز عن حكمها حصلت فضيلة الحلم والشجاعة وإذا تحررت القوة الشهوية بالاعتدال وانقادت للقوة العاقلة واقتضرت على ما تعدم العاقلة نصيباً لها

(١) و زعم بعض أهل عصرنا ممن له الملم بالنقلات من غير نظر أن الجهل الذي يضاد العقل هو الجنون لأن الماقل ضد المجنون و جنود الجهل على ما هو مذكور في الحديث احساسات و مواطن اصطلاح أهل العصر والجنون عبارة عن متابعة احساسات والمواطن كالغضب وعدم ادراك الفبح والعفة والطيب والحزن والغم وغير ذلك تنرى المجانين بعضهم يضحك وبعضهم يبكي وبعضهم يبطش على من يغربه وهكذا. واقول هذا خبط وخروج عن اصول المنهج وطريقة أهل العلم فإن المجنون غير مكلف ولا يؤخذ بشيء مما يرتكبه في الدنيا والاخرة والجاهل في هذا الحديث مؤخذ بفعله شيء ممدود من الاشرار مستحق للنداء فما ذكره باطل جداً. وليس المراد بالجهل الجنون ولا ما يقرب من الجنون وليس في عدل الله وحكمته ان يجن احداً و يعاقبه على أعمال المجانين. (ش)

ولم تخالفها في حكمها حصلت فضيلة العفة والسخاء وإذا تر كبت هذه الفضائل الثلاثة و تمارجت حصلت حالة متشابهة هي فضيلة العدالة ثم إنه يندرج تحت هذه الأجناس الأربعة أنواع غير محصورة من الفضائل اما الحكمة فالمشهور من أنواعها سبعة: الذكاء وسرعة الفهم وصفاء الذهن وسهولة التعلم وحسن التعلل والتحفظ والتذكير، وأما الشجاعة فالمشهور من أنواعها أحد عشر: كبر النفس والنجدة والهمة والذبات والحلم والسكون والشهامة والتحمل والتواضع والحمية والرفقة. وأما العفة فالمشهور من أنواعها اثني عشر: الحياء والرفق وحسن الهدى والمسالمة والدعة والصبر والقناعة والوقار والورع والانظام والحرية والسخاء، ثم السخاء نوع يندرج تحته أصناف كثيرة من الفضائل والمشهور منها ثمانية: الكرم والابتناء والعفو والمروءة والنبل والمواساة والسماحة والمسامحة، وأما العدالة فالمشهور من أنواعها اثني عشر: الصداقة والألفة والوفاء والشفقة وصلة الرحم والمكافاة وحسن الشركة وحسن القضاء والتودد والتسليم والتواضع والعبادة. وكذا ينبغي أن يعلم أن أجناس الرذائل أيضاً أربعة بأزاء كل جنس من الفضيلة جنس من الرذيلة الأول الجهل وهو ضد الحكمة، الثاني الجبن وهو ضد الشجاعة، الثالث الشره وهو ضد العفة، الرابع الجور وهو ضد العدالة هذا بحسب بادي النظر. وأما بعد التأمل فأجناس الرذائل ثمانية لأن كل فضيلة لها حد معين إذا جاوزته في طرف الإفراط أو في التفريط تنهى إلى رذيلة، فالفضيلة بمثابة الوسط والرذيلة بمثابة الأطراف فيكون أجناس الرذائل ثمانية: السفه والبله وهما في طرف الحكمة السفه في طرف الإفراط والبله في طرف التفريط، والتهور والجبن - وهما في طرفي الشجاعة - والشره وخمود الشهوة - وهما في طرفي العفة - والظلم والاضلام - وهما في طرفي العدالة - كما أن لكل جنس من الفضائل جنسين من الرذائل كذلك لكل نوع من الفضائل نوعان من الرذائل، أحدهما في جانب الإفراط والآخر في جانب التفريط، و لبعض تلك الأنواع اسم خاص دون بعضها وقد عرفت أن أنواع الحكمة سبعة فأنواع ضدها أربعة عشر: الخبت والبلادة

- وهما في طرفي الذكاء الخبت في طرفي الافراط والبلادة في طرفي التفريط - وسرعة التخييل والابطاء - وهما في طرفي سرعة الفهم - وظلمة الذهن المانعة من إدراك العظام والنهاية المانع من الاقامة على المطلوب - وهما في طرفي صفاء الذهن - والمبادرة المانعة من استنبات الصور والنصب المؤدي إلى التعذر - وهما في طرفي سهولة التعلم - وصرف الفكر في إدراك ما هو زائد على تعقل المطلوب - وصرفه في إدراك ما هو ناقص عنه - وهما في طرفي حسن التعقل - وضبط ما لا فائدة فيه وترك ضبط ما هو مهم - وهما في طرفي التحفظ - وتذكر ما يوجب تضيق الأوقات والنسيان الموجب لإهمال مراعاة الواجبات - وهما في طرفي التذكر - وقس عليه أنواع بواقى الأجناس ، وربما يكون لبعض الأنواع اسم مشهور كالوقاحة والخرق وهما في طرفي الحياء - والاسراف - البخل - وهما في طرفي السخاء - والتكبر - والتذلل - وهما في طرفي التواضع - والفسق - والتحرش - وهما في طرفي العيادة - إذا عرفت هذا فتقول : ما ذكره رحمته في هذا الحديث من الفضائل والذليل بعضها من الاجناس وبعضه من الأنواع وبعضه من الأصناف وبعضه من الجزئيات كما لا يخفى على المتأمل و سيجيء تفسير بعض هذه الأمور إن شاء الله تعالى .

(فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة والسيمة الجند : الخير) ومنه الاولى للتبعض «ما» موصولة ، ومنه الثانية للبيان والظرف خبر كان قدّم على اسمه وهو الجند أو الخير للتشويق إلى ذكره . قال القرطبي : قيل الخير شيء من أعمال القلب نوراني زائد على الايمان وغيره من الصفات المرضية يدل على ذلك ما في حديث أنس « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله و كان في قلبه من الخير ما يزن مثقال ذرة » انتهى . وقيل : الخير هو الوجود وإطلاقه على غيره إنما هو بالعرض وهو ينقسم إلى خير مطلق كوجود العقل لأنه خير محض لا يشوبه شر ونقص (١) وإلى خير مقيد كوجود غيره من الذوات والصفات . أقول : الحق

(١) لا ريب انه لا بدخل في العقل من حيث هو عقل احتمال الشر و انما الشر في

التزامات و التصادفات التي يمنع بعض الاشياء بعضها من بلوغ غاياتها ومقاصدها

إن الخير كَلْمِي يندرج تحته جميع الأعمال الصالحة كما يدل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام : « افعلوا الخير ولا تحتهروا منه شيئاً فإن صغيره كبيرٌ وكبيره قليله كثيرٌ » (١) ، ويؤيده ما في طرق العامة ، يخرج منها (أي من جهنم) قوم لم يعملوا خيراً قط (٢) ، وهؤلاء الذين ليس معهم إلاّ الإيمان (وهو وزير العقل) الوزر الحمل الثقيل يقال : وزره إذا حمّله ، ومنه الوزير لأنه يحمل عن الأمير وزره أي ثقله والوزارة على قسمين تفويض و تنقيذ والأول يستورزه الأمير بتفويض تدبير الأمور إلى رأيّه وإمضاءها إلى اجتهاده بدون مراجعة إليه في كل قضية والثاني أن يكون النظر في الأمور مقصوداً على رأي الأمير و تدبيره و الوزير يتوسط بينه وبين رعيته و يرشده إلى المصالح و يؤدّي عنه ما أمر و ينفذ له ما ذكر و يعينه في الأمور ، وهذا المراد هنا لأن الخير إن كان عبارة عن الكَلْمِي المندرج تحته المصالح كلّها فتحكمه يجري في جزئياته و هو يتوسط بينها و بين العقل في جريان حكم العقل و نفاذ تدبيره فيها و إن كان عبارة عن العمل القلبي النوراني الذي ذكره القرطبي أو عن وجود العقل فهو يتوسط بين العقل و بين سائر ما يصدر عنه من الأعمال المرضية التي هي في الحقيقة أنوار الهيبة تستضيء بها القلوب و الجوارح و يرشده إليها كما يرشد الوزير الأمير إلى الأمور الملكية و مصالحها .

(و جعل ضدّه الشرّ و هو وزير الجهل) لما كان الشرّ ضدّ الخير كان مقابلاً له في المعاني الثلاثة المذكورة فهو إمّا شيء ظلماني من أعمال القلب زايد على الكفر وغيره من الصفات الذميمة أو عدم منقسم إلى شرّ مطلق كعدم العقل ،

ولكن هنا لا يجوز حمل الخير على العقل إذ ليس هو جنساً لنفسه بل المراد منه شيء آخر باعتبار ما يؤل العقل إليه (ش).

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٢٢ .

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في الجزء التاسع من مسنده تحت رقم ٢١٧٩ في

خبر طويل عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري .

وإلى شرّ مقبّد كعدم غيره من الصفات الكمالية أو كلّى يُندرج تحته جمع القبايح ويؤيده قول أمير المؤمنين عليه السلام «الشرّ جامع لمساوي العيوب» (١) ووزارته للجهل تظهر بالتأمّل فيما ذكرناه في وزارة الخير للعقل، ويمكن أن يراد بالخير نورية العقل وضياء ذاته إذ كلّ ما يصدر عنه بتوسطها من الأفعال كان على نهج الصواب فهي وزير له في الدلالة على المحاسن والمصالح وبالشرّ ظلمة الجهل وكدورة ذاته إذ كلّ ما يصدر عنه بتوسطها من الآثار والأفعال كان على نهج الخطأ فهي وزير له في الدلالة على المفاسد والمقايح.

(والإيمان وضده الكفر) الإيمان هو الاعتقاد الثابت الجازم بأحوال المبدء والمعاد (٢) و ملائكته وكتبه ورسله و ما جاء به رسوله الذي من جملته الوصاية والامامة على سبيل الاجمال و هو روح العلوم الحقيقية والتصديق بالمسائل اليقينية على سبيل التفصيل كما يرشد إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام «و بالإيمان يعمر العلم» (٣) ، والحق أن الأعمال غير داخلة في حقيقته لقوله عليه السلام «بالإيمان يستدل على الصالحات وبالصالحات يستدل على الإيمان» (٤) ، يريد بالأول الاستدلال من المؤثر على الأثر و بالثاني عكس ذلك (٥) ، وأما قوله عليه السلام «الإيمان معرفة بالقلب

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٧١ .

(٢) ليس الاقرار باللسان جزء من الإيمان بل هو دليل عليه و ليس العمل بالأركان أيضاً جزء من الإيمان بل هو من آثاره و فوائده . و يعتبر في الإيمان الجزم فلا يكفي الظن والنيات فلا يكفي التقليد (ش) .

(٣) و (٤) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٥٤ .

(٥) تارة يكون الغرض بيان المذهب الحق من بين المذاهب الموجودة و هذا وظيفة العلماء يعرّدون محل النزاع ويبينون القول الحق بالبرهان والادلة وتارة يكون الغرض بيان مفاهيم الاحاديث و بيان ما هو بوجه التناقض فيها و هو وظيفة المحدثين والشارح سلك المسلك الاول اما بيان كلام الشارح فهو أن المسلمين اختلفوا في حقيقة الإيمان اى الفرق بين المؤمن والكافر فان لكل منهما أحكاماً في الشرع فالكافر نجس

و إقرار باللسان و عمل بالأركان (١) و مثله قول علي بن موسى الرضا عليه السلام فالجمع يقتضي أنه تعريف للإيمان الكامل وقد شاع في لسان الشرع إطلاق اسم الايمان عليه، والكفر الذي هو ضده عدم الاعتقاد بالأُمور المذكورة أو إنكار شيء منها وهو روح الجهالات والدّاعي إلى ذمائم الصفات. وقيل : الايمان نور من أنوار الله فائض منه على قلب من يشاء من عباده به يرى الأشياء كما هي وهو المسمّى تارة بالحكمة النظرية يعنى ملكة يقتدر بها الانسان على إحضار المعلومات الحقيقة متى شاء من غير تجشّم كسب جديد و تارة بكمال العقل النظري أو القوة النظرية و تارة بالعقل بالفعل و تارة بالعقل البسيط الاجمالي. والكفر الذي ضده ملكة ظلماتية حاصلة في النفس من كثرة الاغلوطات و تراكم الشبهات وتزاحم الوهميات و رسوخها فتصير تلك الملكة الظلماتية حجاً بآ عن إدراك حقٍّ وعمى في عين قلب عن كل مستتر وصمّأ في أذن عقل عن سماع كل كلام صادق والذي يدل على أن الايمان نور و الكفر ظلمة قوله تعالى : « الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » وفيه أولاً أن تفسير الايمان بما ذكره غير معروف وثانياً أن الآية لا تدل على ما قل بل تدل على أن الايمان سبب للنور ووسيلة إليه و الكفر سبب للظلمة وذريعة إليها فليتنامّل .

(والتصديق و ضده الجحود) أي تصديق الصادقين فيما قالوه ، أو التصديق بالمسائل اليقينية والمعارف الحقيقية على سبيل التفصيل والركون إليها بايراد

«لا يدفن في مقبرة المسلمين ولا يرث من المورث المسلم ولا ينكح في المسلمات الى غير ذلك بخلاف المؤمن والحق ما ذكره الشارح من أن عمل الخوارج لا يدخل في الايمان والمخالف فيه الوعيدية من الخوارج حيث قالوا ان من تركب الكبائر كافر وبعض المحدثين مال الى تفسير الفاظ الاحاديث فطول الكلام و قسم الايمان الى درجات و ذكر له معاني كثيرة ولم يقطع بذهبننا من ان العمل ليس من الايمان (ش) .

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب أن الايمان قبل الاسلام.

الدلائل والبراهين عليها والتفاوت بين الايمان والتصديق على ما ذكرنا مثل
التفاوت بين العلم الاجمالي والتفصيلي والوجود الذي هو ضد انكار الصادقين أو انكار
تلك المسائل والمعارف والرُّكون إلى الشهوات والشبهات والميل إلى الجهالات
والرجوع في المعضلات إلى نفسه والتعويل في المبهمات على رأيه فما أنكرته النفس
كان هو المنكر، وما عرفته كان هو المعروف فهي تاركة لرؤاسم الشريعة، تابعة
لأهوائها مائلة إلى آرائها.

(والرجاء، و ضده القنوط) الرجاء بالمد مصدر بمعنى التوقع والأمل
تقول: رجوته أرجوه رجواً و رجاء و رجاة و همزته متقلبة عن واو بدليل ظهورها
في رجاة وقد جاء فيها رجاة، و مبدأ الرجاء يعني توقع ثواب الله وإحسانه و
إكرامه وإنعامه معرفته تعالى وملاحظة غناه عن العالمين واعتبار أسباب نعمة
ظاهرة وباطنة، جليلة وخفية، ضرورة كآلات التغذية والنمية وغير ضرورة
كتقسؤس الحاجبين واختلاف ألوان العينين إلى غير ذلك من الألفاظ الالهية و
الفيوضات الربانية التي صدرت منه قبل الاستحقاق والأعمال و بعد الاستحقاق و
الاستيصال فإنه إذا تفكر العقل في هذه الأمور وتأمل فيها وفي غيرها استكمل
رجاءه بالله سبحانه والقنوط هو اليأس من رحمة و عفو و هو من صفات الخاسرين
الجاهلين و سمات الضالين الغافلين عن سعة رحمة و إحاطة مغفرته قال سبحانه :
« ورحمتي وسعت كل شيء » « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا
القوم الخاسرون » و قال : « لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو
غفور الرحيم » وقال : « من يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » فمن وقع في شر
وقنط من رحمة ازداد جهلاً على جهل و ترقى من باطل إلى باطل و هو جاهل
بالله العظيم، وأما العاقل فيستغفره و يرجع إليه وينضرع بين يديه ويكون عقله
برجاء غفرانه أوثق وقلبه بشمول العناية له أعلق فإنه لا ييأس من روح الله إلا الذين
عميت أبصار بصائرهم عن أسرار الله تعالى فهم في طغيانهم يعمهون، فأولئك هم الخاسرون،
واعلم أن الرجاء بثواب الله والفوز بالسعادات الآخروية مقام شريف مستلزم لمقامات

عالية لأنه يستلزم الصبر على المكاره وفعل الطاعات وترك المنهيات لعلمه بأن الجنة مخفوفة بالمكاره ومقام الصبر يؤدي إلى مقام المجاهدة والتجريد لذكر الله ودوام الفكر فيه ومقام المجاهدة يؤدي إلى مقام كمال المعرفة المؤدي إلى مقام الأنس المؤدي إلى مقام المحبة المستلزم لمقام الرضا والنوكل إذ من ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب وتفويض نفسه وأمره إليه ، والوثوق بعنايته ، ولذلك قيل: الرجاء لا ينفك عن الأعمال الصالحة ، وقيل : الرجاء مادة الاستهتار بلزوم الطاعة ، ويدل عليه ما روي عن الصادق عليه السلام قيل له : « إن قوماً من مواليك يلمنون بالمعاصي ويقولون : نرجوا ؟ فقال : كذبوا ليسوالنا بموال أولئك قوم ترجحت بهم الأمانى من رجاشئاً عمل لهو من خاف من شيء هرب منه (١) » ومن ثم قالوا : الرجاء من الفضائل إذا قارنه خوف لأن كل واحد منهما بدون الآخر من الملكات الرديئة المهلكة كما يرشد إليه أيضاً قوله تعالى « يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » وقول الباقر عليه السلام « إن الله ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة و نور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم تزد على هذا (٢) » ومن ههنا ظهر أن الخوف غير القنوط فإن القنوط ضد الرجاء لا يجامعه بخلاف الخوف ، ثم قيل : إن بين الخوف والرجاء تفاوتاً في الدوام وعدمه وذلك لأن الخوف ليس من الفضائل العقلية الباقية في النشأة الآخرة وإنما هو من الأمور النافعة للنفس في فعل الطاعات والهرب عن المعاصي مادامت في دار الدنيا التي هي دار العمل وأما عند حلول الأجل والخروج منها فلا فائدة فيه بخلاف الرجاء فإنه باق أبداً إلى النشأة الآخرة لا ينقطع لأنه كلما نال العبد من رحمة الله أكثر كان رجاءه فيما عند الله أشد وأوفر ، لأن خزائن رحمته غير منتهية .

(و العدل و ضدّه الجور) و هي الملكة الحاصلة من التحلي بالأوساط الفاصلة في باب العقائد كالنوحيد بين التعطيل والتشبيه والتعويل على الأمر المتوسط

بين الجبر والتفويض، وفي باب الأعمال كأداء الواجبات والسنن بين الكسالة و
 والترهب التام والاعطاء المتوسط بين القبض بالكثيرة والبسط التام، وفي باب
 الأخلاق كالحكمة بين السفاهة والبلاهة في القوة العقلية، والشجاعة بين التهور
 والجبن في القوة الغضبية، والعفة بين الشره وخمود الشهوة في القوة الشهوية
 وإذا حصلت هذه الاوساط وصارت ملكات حصلت حالة أخرى متشابهة من
 تمازجها واختلاطها وهي المسمّاة بالعدل (١)، وكما أن كل واحدة من تلك
 الأوساط محيطة بأنواع متكثرة من الفضائل إحاطة الجنس بأنواعها ومحاطة
 بجنسين من الرذائل كذلك ملكة العدالة محيطة بأنواع متكثرة من الفضائل
 ومحاطة بجنسين من الرذائل أعني الظلم والانظلام والظلم في طرف الافراط والانظلام
 في طرف التفريط ويعبر عنهما بالجور لأن جور الجائر أعم من أن يكون ظلماً
 على نفسه وعلى غيره ومن هنا ظهر أن العدل أمر وسيط يتوقف حصوله على الأوساط
 المذكورة، ورئيس شريف يتذلل لحكمه كثير من الفضائل العقلية، وأمير كبير
 ينتظم به سلطنة العقل في ملكوت القلب، بل هو طريق تويم وصراط مستقيم يسير
 فيه العقل من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني فيشاهد عجائب الملك و
 الملكوت في هذه النشأة ويدخل جنّات النعيم مع مرافقة الأخيار في النشأة
 الآخرة كما أن الجور الذي هو القرار عن هذه الأوساط والاستقرار في طرف التفريط
 والافراط وهو من أعظم أمراء الجهل وأكابر رؤسائه، ويندرج في حكمه كثير

(١) لا ريب أن هذا الحديث أصل بيتني عليه جميع ما ذكره علماء الاخلاق في
 كتبهم كاحياء العلوم وجامع السماعات والمحجة البيضاء و امثالها خصوصاً ما ذكره
 في المنجيات والمهلكات وهي بمنزلة شرح لهذا الحديث الشريف وعلماء الاخلاق بنوا
 على ان العدل المتوسط في كل شيء وفمر بعضهم العدل بعدل السلاطين وربما يترجم بالفارسية
 (دادو دهش) اي العدل والعطاء والمطاء زايد و عدل الحكام داخل في تفسير الشارح .
 وبالجملة العدل هو الجامع للفضائل كما في قوله تعالى : « و اشهدوا نوى عدل
 منكم » (ش).

من جنوده طريق سقيم و صراط غير مستقيم يبعد سالكه في هذه النشأة عن حضرة الجبار و يدخل في النشأة الآخرة في عذاب النار وقد شبهوا تلك الصورة الباطنة الواقعة في الوسط المسماة بالعدالة لزيادة الايضاح والتقرير تارة بالصورة الظاهرة المحسوسة فكما أن تلك الصورة الظاهرة أركاناً مثل العين والأنف والفم واليد والرجل إلى غير ذلك من الأعضاء الظاهرة، ولا توصف تلك الصورة بالحسن ما لم يحسن جميع تلك الأعضاء، ولم يتوسط بين الإفراط والتفريط كتوسط العين بين زيادة غورها وزيادة برورها و بين زيادة الصغر وزيادة الكبر و توسط الأنف بين زيادة الطول وزيادة القصر و بين صغر الحجم وكبره و على هذا القياس في سائر الأعضاء. كذلك لتلك الصورة الباطنة التي هي صورة القلب أركان مثل القوة الناطقة والقوة الغضبية والقوة الشهوية ولا يوصف تلك الصورة بالحسن والقبول ما لم يحسن جميع هذه الأركان ولم يتوسط بين الإفراط والتفريط على ما ذكرنا وتارة أخرى بالمزاج، فإن تلك الصورة الباطنة بالنسبة إلى القلب كالمزاج بالنسبة إلى البدن فكما أن اعتدال المزاج واستقامته أعني الصحة والسلامة تتوقف على زوال الأمراض البدنية كلها كذلك اعتدال تلك الصورة واستقامتها يتوقف على زوال الأمراض القلبية التي هي الأخلاق الذميمة الواقعة في طرفي الإفراط والتفريط لأن الأخلاق الذميمة علّة مسرية ينجرُّ بعضها إلى بعض والنجاة في النشأتين و حسن القبول في الدارين والتعشق عند الباري جل شأنه و تسخير عالم الملك والملوك لا تحصل إلا بزوال جميعها، ومن ههنا ظهر سر قولهم: «خير الأمور أوسطها».

(والرّضا وضده السخط) في باب الرضا بقضاء الله تعالى أخبار كثيرة فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «نعم القرين الرضا بقضاء الله (١)» وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أوحى الله إلى موسى صلوات الله عليه إنك لن تتقرب

إلى بشي، أحب إلى من الرضا بقضائي (١)، في الحديث القدسي « من لم يرض بقضائي وام يصبر على بلائي ولم يشكر على نعمائي فليعبد رباً سوائى ، وليخرج من أرضى وسمائى » و اختلفوا في تفسيره ف قيل : هو رفع الاختيار ، و قيل : هو سكون النفس تحت مجارى القدر ، و قيل : هو السرور بمر القضاء . وقال الأرجواني : عرفت طرفاً من الرضا لو أدخلنى النار كنت به راضياً . و قيل : هو سكون القلب إلى أحكام الله تعالى ، و موافقة الضمير بما رضى و اختار . و قيل : هو فرح القلب و سروره بنزول الأحكام في الحلو والمر : قال عياض : الأولان تعريف لمبدئه و الثالث تعريف لمنتهاه ، و فى الرابع نظر ، والخامس قريب من الثانى ، والسادس قريب من الثالث . وقال ذوالمفاخر صاحب العدة رحمه الله : سأل النبى ﷺ جبرئيل عليه السلام عن تفسير الرضا فقال ، الرضى هو الذى لا يسهط على سيده أصاب من الدنيا أولم يصب ، ولا يرضى من نفسه باليسير ، و أعلم أيتها اللبيب أن الرضا من أعلى منازل المقر بين و أقصى مراتب السالكين فانه ثمرة المحبة و هى ثمرة الأنس بالله تعالى شأنه و هو ثمرة كمال معرفته و هو ثمرة دوام المجاهدة مع النفس الأمارة والتجرد لذكر الله و دوام الفكر فيه و هو ثمرة الصبر على فعل الطاعات وترك المنهيات و تحمّل المشاق والمكاره و هو ثمرة الخوف من الله تعالى والرّجاء بثوابه و إكرامه و إنعامه . والخوف له تأثير فى الأعضاء الباطنة فيمنعها عن الرذائل النفسانية مثل الكبر والحسد والحقد والعداوة والبخل و غيرها و فى الأعضاء الظاهرة فيكفها عن المنهيات و يقيدها بالطاعات ولعلو منزلة الرضا رفعه الله سبحانه فوق جنات عدن و جعله أكبر من نعمها فقال عز من قائل : و وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة من جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ، فهو فوق نعيم الجنات و غاية مطلب سكانها و إذا رضى العبد عن الله تعالى رضى الله عنه كما قال « رضى

(١) لم أجده من حديث ابن عباس و رواه الكليني فى الكافى كتاب الايمان و

الكفر باب الرضا بالقضاء تحت رقم ٧ من حديث أبى عبد الله (ع) بنحو أبسط .

الله عنهم و رضوانه هـ. و إذا عرفت حال الرضا و شرف منزلته فاعرف حال ضده الذي هو السخط بالتضاد فإن كل ما ذكرنا في الرضا يجري ضده في السخط و أورد عليه بأن المستفاد من هذا الحديث و غيره أن العبد يجب عليه أن يرضى بقضاء الله سبحانه خيراً كان كالإيمان والطاعة أو شراً كالكفر والمعصية لكن الرضا بالكفر وكفر بالمعصية فسق كما ورد في الحديث فكيف التوفيق؟ والجواب المشهور هو أنه فرق بين القضاء والمقضى وأنه يجب الرضا بالقضاء دون المقضى والكفر ونحوه من جملة المقضى ، وردّه بعض المحققين بأن القضاء عبارة عن الحكم بوقوع شيء في الخارج و هو أمر نسبي إضافي فحسنه وقبحه وخيره و شره إنما هو بحسب ما أضاف إليه لأن نفس الإضافة لا توصف بشيء إلا باعتبار المضاف إليه فالتناقض بحاله ثم أجاب عن أصل الاشكال بأن المقضى بالذات لا يكون إلا خيراً والشر مقضى بالعرض لا بالذات والذي يجب الرضا به هو القضاء أو المقضى بالذات والذي يجب عدم الرضا به هو القضاء أو المقضى بالعرض كالكفر والظلم ونحوهما ، وقال بعض الأفاضل لدفع الرد المذكور عن الجواب المشهور : القضاء كالعلم ليس مجرد إضافة و نسبة بل هو صورة عقلية ذات إضافة فإن القضاء الإلهي كما حقق عبارة عن وجود صور جميع الموجودات الخارجية وجوداً عقلياً إجمالياً على وجه أشرف و أعلى فكل ما كان أو سيكون له وجود في عالم علمه تعالى علماً مقدساً منزهاً من التغير والفصول والنقص والشر وأما المقضى فهو الصور الكائنة والمواد الخارجية على وفق ما جرى في القضاء فللقضاء نحو من الوجود و المقضى نحو آخر من الوجود وقد ينطبق إليه النقص والآفة والشر والفساد و الصورة العقلية للكفر والمعاصي ليست كفراً ولا معصية وإنما هي كذلك بحسب وقوعها في الخارج فمن قال: القضاء لا يكون إلا خيراً يجب الرضا به دون المقضى لعلمه أراد بالقضاء صور ما في علم الله سبحانه لا مجرد النسبة و بالمقضى وجود الأكوان الخارجية التي قد يكون شراً أو كفراً فظهر الفرق و رفع التناقض (١)

(١) لا ريب أن المقصود الرضا بالمقضى لا بالقضاء مثلاً الرضا بالفقر ليس معناه

(والشكر و ضده الكفر) إن الشكر حالة نفسانية تنشأ من العلم بالمشكور و صفاته و إنعامه ، و تتمر العمل بالقلب واللسان والأركان ، وهم بالنظر إلى تلك الثمرة عرفوه بأنه فعل دال على تعظيم المنعم سواء كان بالجنان أو باللسان أو بالأركان وتوضيحه أن الشكر على النعمة لا يتحقق إلا بأن تعرف المنعم الحقيقي و صفاته و نعمه و أن تعرف أن النعم كلها منه و أن الأوساط الموصلة لنعمه نعمة أو التي لها مدخل في إيصالها أو تكميلها مثل السماء والأرض والشمس والقمر و النجوم والسحاب والعباد وغيرها كلها منقاد لا مره مضطرة لحكمه كاتقياد تبعه الملك له في إنفاذ أمره (١) وإيصال عطايه فتعرف أن لا منعم في الحقيقة إلا هو و هذه المعرفة تورث حالة نفسانية هي التذلل والانقياد للمنعم والسرور بنعمه لا من حيث أنها موافقة لغرض نفسك إذ في ذلك متابعة في هواها و اقتصار همة في رضاها ، بل من حيث أنها دالة على عنايته بك بمجرّد إحسانه وإفضاله من غير

* الرضا بوجود معناه في علم الله بل بوجوده خارجاً و حصوله المرادى والحق في الجواب أن يشكر قضاء الله تعالى بكفر أحد بمعنى حكمه بكفره بحيث يعد كراهة الكفر كراهة حكم الله بل قضائه بمعنى علمه بكفر الكافر عن اختيار ولا يرضى الله لعباده الكفر و كذلك ينبغي أن لا يرضى به العبد ومعنى الرضا بالفضاء الرضا بالحكم الذي حكم به الله و الزمه على العباد ولا يقدر العبد على دفعه عن نفسه كالمرضى والموت لا ما يقدر على دفعه كالكفر و الفسق فإن قضاء الله بهما اعنى علمه ليس ملزماً والذي علم الله تعالى صيرورته كافراً باختياره يصير كافراً باختياره لا مجبوراً والرضا به في معنى رضاه بكونه مختاراً (ش)
(١) بل أشد انقياداً فإن تبعه الملك مستقلون في وجودهم و ليس وجودهم معلولاً لوجود الملك بخلاف الأوساط الموصلة لنعمه تعالى إلى عباده فانهم معلولون و بقوهم و فتأوهم بشية الله تعالى ولا فرق في ذلك بين مراتب الوسائط فإن العقول المجردة أي الملائكة المقربين والنفوس الكلية فضلاً عن السماء والأرض والشمس والقمر وغيرها هم بامرهم يعملون ولا استقلال لهم في وجودهم فضلاً عن فعلهم وليست وساطة العقول بمعنى تفويض الأمر إليهم كما يتوهم من لا خبرة له. (ش)

سبق استحقاق واستئصال وسيلة إلى التقرب به برعاية حقوقه وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدنيا إلا بما يوجب القرب منه في الدنيا والآخرة ، وهذه الحالة شكر في الحقيقة وهي تورث العمل لأنها إذا حصلت في النفس وتمكنت فيها حصل لها نشاط للعمل الموجب للقرب منه وهذا العمل أيضاً شكر وهو يتعلق بالقلب واللسان والأركان أما عمل القلب فهو القصد إلى تعظيمه وتحميدته وتمجيده وتهليله والتفكير في مصنوعاته وأفعاله وآثار إنعامه وإكرامه وإبصال الخير إلى كافة خلقه إلى غير ذلك من الأعمال القلبية .

وأما عمل اللسان فهو إظهار ذلك المقصود بالتحميد والتمجيد والتسبيح والتهليل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها . وأما عمل الأركان فهو استعمال نعمه الظاهرة والباطنة في طاعته وعبادته والتوقي من الاستعانة بهافي معصيته ومخالفته كاستعمال العين في مطالعة مصنوعاته ، واستعمال الأذن في استماع براهينه وآياته ، وهكذا حكم سائر الجوارح ، وإذا عرفت الشكر فقد عرفت الكفران الذي هو ضده بالمقايضة فأنه أيضاً حالة نفسانية هي العنوسة والظن بالمنعم والنباعد منه والسرور بالنعمة من حيث أنها موافقة للأغراض الفاسدة النفسانية ، وهذه الحالة تنشأ من عدم معرفة المنعم الحقيقي على ما ينبغي وتورث العمل بالقلب كالقصد إلى معصيته والعزم على مخالفته ، وباللسان كالافتراء والشكاية والمذمة وغيرها من الأقاويل الباطلة والجوارح كترك النظر فيما يعنيه وصرفه فيما لا يعنيه ، وبالجملية صرف الجوارح في غير ما خلقت لأجله .

(والطمع وضده اليأس) هذا تكرار للرجاء وضده ، ولذلك قال الشيخ بهاء الملة والدين رحمه الله : اعل أحدهما كان بدلاً عن الآخر فجمع بينهما لئلا يخ غافلاً عن البدلية ، ويمكن أن يقال التكرار إنما يلزم لو أريد بهما أريد بالرجاء أعني الطمع في ثواب الله والأمور الآخروية مطلقاً أما إن أريد به توقع الأمور الآخروية من غير سبق استحقاق وخص الرجاء بتوقعها مع سبق أو مطلقاً أو أريد به توقع الأمور الدنيوية مما يحتاج إليه من الضروريات وغيرها أو أريد به توقع ما في

أيدي الناس وجعل الطمع من جنود الجهل واليأس من جنود العقل على خلاف ما وقع في سائر النظائر من تقدم جنود العقل فلا تكرار وهذه الوجوه وإن كانت بعيدة لكن القول بالتكرار و تخطئة الناسخ أبعد منها:

(والنوكيل و ضده الحرص) معنى توكل العبد على الله تعالى هو صرف أموره إليه والاعتماد فيها عليه يقال : وكَّل فلانُ فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه و من أسماؤه تعالى الوكيل و هو القيم بأرزاق العباد ، و بالجملة التوكُّل حالة فاضلة للقلب توجب تفويض الأمور إلى الحق والانقطاع عما سواه وله مبدء وأثر مترتب عليه ومبدء العلم بأنه تعالى واحد لا شريك له وأنه عالم بجميع الأشياء بحيث لا يعزب عنه تعالى مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وأنه قادر على جميع المقدورات وأنه حكيم لا يجور في حكمه وأنه رؤوف بعباده ولا يبد بعد ذلك من الرضا بقضاء الله إذ بالعلم الأول يعلم أنه لا كفيل لمهماته إلا هو ، و بالعلم الثاني يعلم أنه لا يخفى عليه شيء من مهماته وبالعلم الثالث يعلم أن السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من الرخايات والحيوانات والنباتات والجمادات والأمور الكائنة مستخترات بأمره ، فيعلم أنه لا يعجز عن إمضاء مهماته وإنجاح مطالبه ومراداته ، و بالعلم الرابع يعلم أنه لا يكون ظالماً في تغاير أموره ، و بالعلم الخامس يعلم أنه يفعل كل ما يصلح له و بالسادس يسهل عليه جريان صغاب الأمور فإذا أيقن هذه الأمور واستنار قلبه بأنوار تلك المعارف ولم يعارضه الوهم والجهن و ضعف البصيرة و مع ذلك تأمل في حال بعض الحيوانات الذي لاحيلة له في تحصيل أموره وإدخار قوته كالطيور وأمثالها بل في حال نفسه حين كان جنيناً في بطن أمته وكان مضطراً إلى الرزق و كان رزقه يأتيه بغير حيلة له من حيث لا يدري وقتاً فوقتاً حصلت له حالة شريفة هي وثوقه في أموره بالله سبحانه وانقطاعه عن غيره من الأسباب و الوسائط بل عن نفسه أيضاً لأنه يسلب الحول والقوة عنها و يحكم بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله و يرى حاله معه مثل حال الموكِّل مع وكيله في الثقة به والاتكال

عليه أو مثل حال الطفل مع أمه في الركون إليها، أو مثل حال الشمعة مع المصور في أنها مقهورة تحت يده و قدرته يصورها ويشكلها كيف يشاء وهذه الحالة هي المسمّاة بالتوكل وهي مقام عالٍ من مقامات السالكين ودرجة عظيمة من درجات المقرّبين و منزلة رفيعة من منازل المتقين لا يصل إليها إلا من اطمأن قلبه بالإيمان بالله القاهر فوق عباده ، ثم إن هذه الحالة تتفاوت كمالاتها ونقصانها بحسب تفاوت العلوم المذكورة و صفاء القلب و نورانيته فلها أقسام : أولها الثقة بالله و بكفاله و كفايته و عنايته مع ملاحظة أن العادة جرت على ربط المسببات بأسبابها فيتمسك بالأسباب على قدر الحاجة والأثر المترتب عليه هو الاعتقاد بأن حصول المطلوب وسببه من توفيق الله تعالى وعنايته فيكنسب ويغلق الباب من السارق و ينحصن من العدو مثلاً و يثق بأن الرزق والحفظ منه تعالى ، ولا يتكل على السبب و إنما اتخذ جرياً على العادة و هو راض عن ربه و شاكر له إن لم يحصل المسبب ، بناء على أنه لا يندري في أي شيء الخير و حافظ مع اشتغاله بالسبب لأوقات الصلوات وغيرها من العبادات وبالجملة يكون مقصوده هو الكفيل الحق وخيرته ومنظوره هو التشبث بذيل عنايته وإرادته، والاكتساب على هذا الوجه لاينا في التوكل لأن رسول الله ﷺ كان رأس المتوكلين وقد توارى من العدو و خندق على نفسه و ظاهر بين درعين وإدّ خرقوت عياله سنة ، ولتواتر الروايات عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام على هذا المعنى ولقوله تعالى : «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» ولذا قيل : من طعن في الكسب طعن في السنة ومن طعن في تركه طعن في التوحيد، والكسب الغير المنافي ما كان على قدر الحاجة و حده بعض الممتنع بدون الأربعين ، و اختلف في إدّ خرقوت الأربعين فقيل : يخرج عن التوكل ، وقيل : لا يخرج بما زاد على الأربعين و هذا كله ما لم يتشوش خاطره فإن تشوش فالإدّ خار في حقه أفضل ، بل قيل : لو حبس ضيعة يكفيه دخلها كان أرجح لأن المقصود تفريغ القلب للعبادة حده للمعيل بقوت عام تطميناً لقلبه و قلب عياله لفعل النبي ﷺ ذلك ولم يفعله لطيب

قلبه و إنما فعله ليدل على الجواز و قيل : ادّخار قوت عامين في مقام يتوهّم غلبة العدو لا ينافيه لعدم الأمن بالغلبة والأظهر أن ادّخار القوت مطلقاً لا ينافيه إذا كان اعتماداً على الله تعالى لا على القوت المدّخر وبالجملّة التمسك بالأسباب مع الاعتماد على الله لا عليها لا ينافيه، وثانيها الثقة بالله و بكفالاته مع احتراق حجاب الأسباب والمسببات عنده ولكن لم يعوّد نفسه بالصبر على الجوع والعطش أسبوعاً أو أكثر أو أقل ولا راض نفسه على أكل غير المأنوس من الأطعمة والأشربة و الأثر المترتب عليه لأنّه لا يجوز له ترك الاكتساب ولا الخروج من المعمورة والسكون في البادية ولا السفر بالأزاد ولأما لأن إلقاء النفس إلى التهلكة لا يجوز عقلاً ونقلاً والمقام في المعمورة مظنة إتيان الرزق ، وثالثها مثل الثاني إلا أنّه عوّد نفسه على ما ذكر ، والأثر المترتب عليه أنّه يجوز له ترك الاكتساب والسكون في البادية والسفر بالأزاد ولأما في مدّة يعلم أنّه يتحمّل الرّياضة ولا يجوز له ولا المشائي ترك الأسباب الضرورية كمد اليد للطعام و ابتلاعه ولا انقطاعها في شعب لأماء فيه ولا كلاء ولا إقامتهما في مسيل ماء أو تحت جدار مائل ولا عدم دفاعهما عنهما سبعا ولو قالوا في جميع ذلك : توكلنا فهما جاهلان في معنى التوكل وفي اعتقادهما أن الأسباب الضرورية تنافيه ، و كان بعض المتوكلين لا يفارق الإبرة والمقراض والركوة والحبل لملاحظة أنّه قد ينخرق ثوبه وقد لا يوجد الماء بوجه الأرض ثمّ إنّهما إن تفارغا للعبادة ولم يطعما ما في أيدي الناس و لم يشوشّ بهما في العبادة و راضا نفسيهما على الجوع وصبرا صبراً جميلاً في كلّ حال يأتيهما الرزق لامحالة لأن أصل وجودهما يجلب الرزق وغيره من ضرورات الوجود، وقد قيل لأُمير المؤمنين عليه السلام : لو سدّ على رجل باب بيته و ترك فيه فمّن أين كان يأتيه رزقه فقال عليه السلام : من حيث يأتيه أجله ، و هذا التوكل ، و ترك الكسب إنّما هو للمنفرد ، وأمّا المعيل فالمناسب له هو القسم الأوّل لأنّه ليس له أن يكلف عياله بالصبر على الجوع وقد رجّح جماعة القسم الأوّل على بواقي الأقسام مطلقاً لما مرّ و لغيره من الأخبار الواردة في البحث على طلب المعيشة ويمكن أن

يقال : إن ذلك باعتبار أن القسم الأول أسهل والأخيرين في غاية الصعوبة وهم
 عليهما السلام يحملون الناس على ما لا يصعب عليهم كثيراً . وأما ضد التوكيد
 فالمشهور في السنة العلماء المضبوط في النسخ المعتبرة هو الحرص بالصاد المهملة
 و قال سيد الحكماء الألبين هو الحرص بالحاء المهملة أو لا والصاد المعجمة أخيراً
 والراء في الوسط والتحريرك و أما الحرص بالصاد المهملة فتصحيح لا نه ضد
 القناعة كما سيحییء فلو جعل ضد التوكيد أيضاً لزم أن يكون جند الجهل أقل
 من ثلاثة و سبعين و على خلاف عدد جند العقل و أنه باطل لأنه خلاف قول
 الامام عليه السلام بل هو وهم فاسد في نفسه لأنه ضد القناعة في نفس الأمر لا ضد
 التوكيد لأن ضد التوكيد هو الهم بالشئ والحزن له والوجد عليه وصرف الفكر
 في التوسل إليه والبالغ في تحصيل البغية وتبسيط الأسباب المؤدية إليها وتحريرها
 و تحريرها و تحريرها والغم في إبطاء نيلها و بطوء نجاحها و ذلك كله معنى الحرص
 بالصاد المعجمة و هو الحرص بمعنى هذا محصل كلامه و يمكن دفعه بأن
 الحرص بالصاد المهملة حالة نفسانية تنشأ من الجهل بالأمور المدكورة المعتبرة
 في تحقق التوكيد أو من ضعف الطلب لاستيلاء مرض الوهم عليه فإن الوهم كثيراً
 ما يعارض اليقين كما نراه لا يبيت وحده مع ميتة و هو يبيت مع جماد مع علمه
 بأن الميت أيضاً جماد و تبعث تلك الحالة على السعي التام في الاكتساب و
 شدة الاهتمام بجميع الأسباب و صرف العمر والفكر في جمع المال في جميع
 الأوان كما هو دأب أهل العصر و شأن أبناء الزمان ولا شبهة في أن ذلك اقوة
 الاعتماد على الكسب والطلب و عدم الاعتماد على الله سبحانه ، فالحرص منزه عن
 لأمرين أحدهما المبالغة في الاكتساب والثاني عدم الاعتماد والوثوق بالله سبحانه
 وباعتبار الأمر الأول جعل ضداً للقنوع و باعتبار الأمر الثاني جعل ضد التوكيد
 فلا يكون جند الجهل أقل من جند العقل إذ الحرص في الموضعين ليس
 بمعنى واحد ولا يلزم خلاف قول الامام عليه السلام : ولا يرد أنه ليس ضد التوكيد
 في نفس الأمر .

(والرافة و ضدّها القسوة) قل المازري القسوة ضدّ اللين ؛ والغلظة ضدّ الرأفة وكأنّه غفل عن معنى القسوة ، قال الجوهري " قسى قلبه قسوة وقساوة وقساء بالفتح والمدّ و هو غلظة القلب و شدّته ، والرافة حالة نورانية للقلب داعية إلى الخير و حسن الخلق ورقّة الوجه و طهارة اللسان و كثرة الحياء ، والتلطّف بالخلق والاجتناب عن المناهي ، و ضدّها حالة ظلمانية له داعية إلى الشرّ و سوء الخلق و غلظة الوجه و خبائة اللسان و قلّة الحياء ، و ايذاء الخلق و ركوب المحارم و كشف الاستار والوثوب على الناس في الخصومات ، و كلّ واحدة منهما إمّا طبيعيّة و إمّا كسبيّة تحصل الأولى بممارسة العلوم و الأعمال الصالحة ، والثانية بمزاولة الجهل والأعمال القبيحة والمراد هنا هو القسم الثاني .

(والرحمة و ضدّها الغضب) الرحمة حالة للقلب يثمرها العلم بقبحاحة الطغيان و شناعة العدوان و سوء عاقبتهم و ثمرتها الشفقة على الخلق والتلطّف بهم والترحم عليهم والفرق بينها و بين الرأفة كالفرق بين المسبّب و السبب فإنّ الرأفة لينة القلب الموجهة لميله إلى التلطّف والشفقة والرحمة نفس هذا الميل وقد خفي هذا الفرق على بعضهم فحكم بأنّ هاتين الفقرتين متحدتان في المعنى ولم يدر أنّ الرأفة ليست نفس الرحمة والقسوة ليست نفس الغضب و أنّ الأولى منهما بمنزلة السبب والثاني و أنّ الأصل عدم التكرار عند الجمع بينهما مثل : إنّ الله لرؤوفٌ رحيمٌ ، وإطلاقهما على الله سبحانه باعتبار الآثار وهي الطأفة وإحسانته لى بمن أطاعه وإنكاره على من عصاه و سخطه عليه إعراضه عنه ومعاقبته له ، والغضب من المخلوقين قد يكون ممدوحاً ، وقد يكون مذموماً ، فالمحمود ما كان في جانب الدّين والحقّ ، والمذموم ما كان في خلافه ، وهذا هو المراد هنا و هو أيضاً حالة للقلب يثمر الجهل بما ذكر و تسويل النفس الامّارة والافراط في المؤاخذه و تزيينه ، وثمرتها الطغيان على الخلق باليد واللسان والتعدّي عليهم بالظلم والعدوان و من علاماته أحمرار الوجه والعين وانتفاخ العروق وسرّ ذلك أنّ القوّة الغضبيّة إذا تحرّك نحو الانتقام واشتعلت نارها في الباطن يغلي به دم القلب كغلي الحميم

فيمبعت منه الدخان ويرتفع إلى أعالي البدن كما يرتفع في القدر و يصب في الوجه والعين والعروق فيحمر الوجه والعين وينفخ العروق ، و يختل الدماغ الذي هو معدن الفكر في المحسوسات و ينظفي نور عقله كما ينظفي ضوء السراج في البيت باستيلاء الدخان عليه ، فيظلم بصره و بصيرته بحيث لا يرى شيئاً ويسود عليه الدنيا وما فيها ولا يميز بين الحق والباطل والحسن والقبح ، ولا يؤثر فيه وعظ و نصيحة ، بل قد يبلغ إلى حد يحرق جميع ما يقبل الاحتراق ويفنى الرطوبة التي بها بقاء الحياة فيموت صاحبه غيظاً وهذه الخصلة من أعظم الخصال الذميمة وإذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : «أحذر الغضب فإنه جند عظيم من جنود إبليس (١)» وقال الباقر عليه السلام : «إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار ، فأيما رجل غضب على قوم و هو قائم فليجلس من فوره ذلك فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليمدن منه فليمس به فإن الرجل حم إذا مسّت سكنت (٢)» وقال الصادق عليه السلام : «الغضب مفتاح كل شر» (٣)

(والعلم و ضده الجهل) هما وصفان متقابلان و نعمتان متضادتان للعقل و الجهل اللذين كالامنا في جنودهما لأنك قد عرفت أن المراد بالعقل إما القوة العاقلة أو النفس من حيث استعدادها لسلوك طريق الحق و كل واحدة منهما مبدء للعلوم و بالجهل إما القوة الجاهلة أو النفس من حيث استعدادها لسلوك طريق الباطل و كل واحدة منهما مبدء للجهل المقابل للمعلم أعني عدمه ثم لا علم مراتب: الأول الاعتبار فاعتبروا يا أولي الأبصار و إليه أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله «ومن اعتبر أبصر» الثاني النجلي والانكشاف لنام، الثالث الادراك مطلقاً، الرابع الادراك المطابق لما في نفس الأمر، كالاعتماد بالمعارف الالهية والأحكام الشرعية و هذا القسم قد يجب على الجميع وقد يختلف باختلاف الأشخاص فالذي يجب على

(١) النهج في ابواب كتمه و رسائله تحت رقم ٦٩ في آخر كتاب له دعاء الى

الحادث الهمداني رضي الله عنه .

(٢) و (٣) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الغضب تحت رقم ٣٠٢.

الجميع هو العلم بأن الله تعالى واحد حي قديم أزلي إلى غير ذلك من أصول العقائد والعلم بالصلاة والصوم والوضوء والغسل و شرايطها و مفايدها إلى غير ذلك مما يشترك فيه جميع المتكلمين والذي يجب على البعض هو العلم بأحكام الحج و والزكاة للغني والعلم بأحكام العقود للتاجر، و كذا كل من عمل عملاً وجب عليه العلم بذلك العمل والعلم من حيث أنه علم و متعلق بالحق طريق واحد والجهل المقابل له طرق متعددة وإذا وقعت المحاربة بين العقل والجهل في ساحة القلوب و استظهر الجهل بهذا الجهل الذي من جنوده استظهر العقل بالعلم فيغلبه و يهرمه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

(والفهم ضد الحمق) الفهم هنا بمعنى العقل كما قيل . أوصفة فاضلة للذهن وهي ملكة الانتقال من الملزومات إلى اللوازم بحيث لا يحتاج في ذلك إلى فضل مكث و تأمل كذا عرفه المحقق الطوسي وعدّه نوعاً من الفضائل مندرجاً تحت جنس الحكمة و إنما قلنا هنا لأن الفهم فيما سبأني من قوله **هو الفهم** ضد الغباوة بمعنى الفطنة وهي شدة الجِدس وجود الدّهن وقوته المعدة لاكتساب العلوم أو بمعنى الذكاء، و هو نوع آخر من جنس الحكمة فوق النوع المذكور و عرفه المحقق بأنه ملكة حاصلة من كثرة مزاول المقدمات المنتجة وممارستها موجبة لسرعة انتاج القضايا و سهولة استخراج النتائج على سبيل البرق الخاطف و منهم من لم يفرق بين الفهمين و ظنّ أنّهما بمعنى واحد فحكم بأن إحدى الفقرتين كانت بدلاً عن الأخرى فيجمع بينهما التاسخ غافلاً عن البدلية و منهم من جوز أن يكون الفهم هنا بالقاف دفعاً للتكرار من فهم بالقاف كفرح قلّ شهوته للطعام و أقهم في الشيء أغمض، و عنه كرهه، و عن الطعام لم يشته . وهذا الأخير نقله سيد الحكماء عن بعض ولم يصرّح باسم القائل ثم قال : هذا أعجوبة التعاجيب فأبى أنتم يا معشر المتعجبين، وإذا عرفت الفهم فقد عرفت الحمق بالمقابلة فهو إمّا ضد العقل على ما قيل أو بطوُّ الانتقال من الملزومات إلى اللوازم ويسمى ذلك بالبلادة المفرطة و هو نوع من جنس رذيلة الجهل المقابلة لفضيلة الحكمة و منشأ ذلك

نقصان الذهن (١) وكسادة من انحمق الثوب إذا بلى وانحمت السوق إذا كسدت وانحمق القمر إذا زال نوره وقد عدّ الحمق أعظم الفقر وأكبره لكونه أشدّ إبلاء وأكثر ابتلاء من الفقر المعروف بين الناس إذا أحمق يفقد الدين والكمال الذي هو اشرف من المال والدليل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأكبر الفقر هو الحمق» ويعلم منه بحكم المقابلة إن أعظم الغنى الفهم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(والعفو ضدّ هاهنا) أمّا كان بقاء النوع والشخص مفتقر إلى التناكح والتناسل وتناول الغذاء والفلذّذها أمّا كل والمشارب لأن الحرارة الغربية الخارجة والغريزية الداخلة أعدى عدو للرطوبة الغريزية التي في طينة الانسان فلا تزال تلك الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخّر ها وتغنيها فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء جبر الما يتحلل لفسد المزاج و بطن التركيب في أسرع زمان، خلق الله سبحانه بمقتضى الحكمة البالغة قوة شهوية هي مبدئ الشوق إلى طلب الغذاء والالتذاذ بالما كل والمشارب والمناكح ، والناس في تلك القوة على ثلاث درجات لأن تلك القوة كما بيّنا آنفاً إن تحرّكت بالاعتدال واستقرت في الوسط مثل المر كزبان لا تتعدى عمّا أذن له العقل والشرع من الأغذية والأشربة ولا نكحة وغير ها بل طاعته فيما عداه (٢) حظاً ونصيباً لها واقتصر على وتركت هواها حصلت فضيلة العفة وهي جند عظيم من جنود العقل متقادة لحكمه تابعة لأمره ونهيه ، وإن تحرّكت

(١) نقصان الذهن إذا كان فطرة لا يعاب صاحبه عليه إذ ليس اختيارياً فلا بد ان يعمل الحق هنا على التعامق الاختياري وعدم التوجه والنظر والفهم والدقة كما ذم الله تعالى فوما بالعقلة في قوله «يعلمون ظاهر أمن الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» وقال تعالى «لهم قلوب لا يفقهون بها» ويمكن ان يتكلف ويقال ليس المراد هنا الذم الذي يستتبع العقاب بل التفتيش مطلقاً كما يفهم من قوله «فمثل كمثل الكلب ان تعمل عليه يلهث او تتركه يلهث» فان الذم بالنسبة الى الكلب لا يستلزم عقاباً كما يستلزم بالنسبة الى المشبه به (ش)

(٢) ضمير التثنية للعقل والشرع (ش).

نحو الإفراط و جاوزت عن حكم العقل و الشرع ، و ارتكبت من اللذات ما لم يأذن لها حصلت رذيلة الهتك و خرق الأستار و هي مسمّاة بالشره و الفجور أيضاً و معدودة من جند الجهل لا تقياد حكمه و اتّباع أمره و نهيّه و خروجه على سلطان العقل ، و إن تحرّكت نحو التفريط و أثرت ترك طلب اللذات الضرورية التي أذن لها العقل و الشرع و اختارت البليّة و المشقّة التي تورث الهلاك حصلت رذيلة خمود الشهوة و هي أيضاً من أضرار العفّة و إنما اقتصر على الهتك التي هو في طرف الإفراط لأنّ رذالته أشهر و ضدّيته أظهر .

(والزهد و ضدّه الرّغبة) الزهد جعل القلب حبّاً بمشاهدة أحد - وال الآخرة و عدم الغفلة عنها و ميّناً عن طمع الدّنيا و زخارفها ، و بعبارة أخرى هو إعراض النفس عن الدّنيا و زهراتها و قطع الالتفات إلى ما سوى الله تعالى و بعبارة أقصر هو حذف موانع الالتفات إليه سبحانه و لا يتحقّق ذلك إلّا بحذف الموانع الدّاخلية النفسية عن النفس مثل محبة غير الله تعالى و الميل إلى ما سواه و حذف الموانع الخارجيّة مثل مناع الدّنيا و زهراتها و إليه يشير قول بعض الأكابر الزّهد ثلاثة أحرف زاء و هاء و دالّ فالزّاء ترك الرّغبة ، و الهاء ترك الهوى ، و الدالّ ترك الدّنيا ، و ممّا يبعث على سلوك هذه الطريقة هو تلاوة القرآن الكريم و التدبّر في آياته فإنّها تثمر محبة الحقّ و التوجّه إلى الآخرة و تغسل عن لوح القلب درن الوسوس و خبث الرّذائل و رين الميل إلى الدّنيا ، ثمّ مطالعة أحوال الماضين و رفضهم ما كانوا عليه من الدّنيا و زخارفها و انقطاع أيديهم عنها و استقرارهم في القبور ، ثمّ التأمّل في أحوال الأنبياء و الأوصياء عليهم السلام مع كمال تمسّكهم من الاستمتاع من الدّنيا و تركهم لها طوعاً و رغبة في ثواب الله و مقام القرب منه و ذلك دليل على ذمّ الدّنيا و عيبها و كثرة مساوئها و فانظر إلى حال كليم الله موسى بن عمران عليه السلام (١) إذ يقول : ربّ إنّني لما

(١) ماخوذ من النهج ص ١٥٨ اولها دأمره قضاء ، و الدّنيا الذمومة هي أن يكون النّافق و

الفرس و الشّبه المطلوب لذاته فانه اصل كل خطيئة و رأس كل معصية فان الانسان هو

أنزلت إليّ من خير فقير، وما سأله إلاّ خبزاً يا كله لا، أنّه كان يأكل بقلة الأرض حتّى كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه (١)، وإلى حال داود عليه السلام فأنه كان يعمل سفايف الخوص بيده ويقول لجلسائه أيتكم يكفيني بيعها ويا كن قرص الشعير من ثمنها، وإلى حال عيسى ابن مريم عليه السلام فأنه كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامه الجوع، وسراحه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض و مغاريها، وفا كهنّما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولولدي حزنه، ولأعمال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخارمه يده، وإلى حال نبيك الأطيب الأطهر ﷺ فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزّى وأحب الأعمال إلى الله تعالى التأسّي به والاقتفاء لأثره فأنّه قضّم الدنيا قضمًا وأام يعرها طرفاً (٢) وأهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم بطناً، وعرضت عليه الدنيا وخزائنها فأبى أن يقبلها، وقد كان عليه السلام يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بعض زوجاته ويكون فيه التصاوير فيقول: لها غيبية عنّي فأنّي

لا يرتكب معصية من المعاصي من أكبر كبائرهما كالظلم والقتل إلى أصغر صفائرها إلاّ أن الدنيا مطلوبة عنده لذاته ولو عقل أن في الوجود عالماً آخر روحانياً باقياً ببقاء الله وأن الإنسان من ذلك العالم و يرجع إليه البنية وأن اللذة فيه أضافاً للذات التي يحصل له ههنا وأن الآلام هناك أضافاً أشد الآلام كالنار الدنيوية لم ينظر إلى الدنيا وزخارفها ولم يلتفت إلى لذاتها ولا بأسف على فوات شيء منها ولا يرتكب معصية توجب لذة عاجلة ذميمة وآلاماً آجلة باقية (ش).

(١) شف الثوب أي رق، والصفاق الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر، وقيل جلد البطن كله.

(٢) الطرف نظر العين أي لم يعطها نظرة على وجه العارية فكيف بان يجعلها مطمّح نظره. والهضم محرّكة انضمام الجنبين وخمس البطن. وطوى عنه كشحاً أي أعرض عنه وقاطعه. والكشع: ما بين الخاصرة إلى الضلع.

إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا و زخارفها فأعرض عن الدنيا بقلبي ، وأماتت ذكراها من نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكي لا يتخذ منها ريشاً وتجملاً (١) ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً ، فأخرجها عن النفس ، وأشخصها عن القلب و غيبها عن البصر و كذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه و أن يذكر عنده ، وقد كان فيه ~~نحو~~ ما يدل على مساوي الدنيا و عيوبها إذ جاع فيها مع خاصته و زويت عنها زخارفها مع عظيم زلفته ، فانظر بنور عقلك أكرمه الله تعالى بذلك أم أهانه ، فإن قلت : أهانه فقد كذبت وأتيت بالافك العظيم ، و إن قلت : أكرمه فاعلم أنه تعالى قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له و زواها عن أقرب الناس منه . و إلى حال وصي نبيك أمير المؤمنين عليه السلام فإنه قال : رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل : ألا تنبذها ؟ فقلت : أعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى . قوله عليه السلام : « فعند الصباح - إلى آخره » - مثل يضرب محتمل المشقة ليصل إلى الراحة وأصله أن القوم يسرون بالليل فيحمدون عاقبة ذلك لقرب المنزل إذا أصبحوا و مطابقة الصباح لمفارقة النفس البدن أو لاعتراضها وأتصالها بالعالم الأعلى بسبب تلك الرياضة الكاملة و الزهد عن الدنيا و إشراق أنوار العالم العلوي عليها التي عندها يحمد عواقب الصبر على مكافئ الدنيا وترك لذاتها و معاناة الزهد عنها مطابقة ظاهرة واقعة موقعها ، وقد روى أنه سئل عليه السلام لم رقعت قميصك ؟ فقال : يخشع لها القلب و يقتدي بي المؤمنون (٢) و ممّا نقل في زهده عليه السلام ما رواه أحمد في مسنده (٣) عن أبي الثور بالكوفة قال : جاءني علي بن أبي طالب عليه السلام إلى السوق و معه غلام له و هو خليفة فاشترى مني قميصين وقال لغلّامه اختر أيّهما شئت فأخذ علي عليه السلام الآخر ثم لبسه و مدّ يده فوجد كمنه فاضلاً

(١) الرباش اللباس الفاخر.

(٢) النهج أبواب الحكم تعدت رقم ١٠٣

(٣) ما عثرت عليه في المسند لعله رواه في الفضائل ورواه أبو نعيم في الحلية

و نقل عنه علي بن عيسى الأربلي في كشف الغمة أبواب زهده وورعه (ع).

فقال أقطع الفاضل فقطعته ثم كفته وذهب وقريب من هذا موجود في روايات أصحابنا رضوان الله عليهم فأناس بهم واقتف أثرهم ولج مولجهم لنأمن من الهلكة فإن الله سبحانه جعلهم أعلاماً للعباد واطلعهم على قبايح الدنيا وأحوال الآخرة، فإذا علمت معنى الرّفق فقس عليه الرّغبة التي ضدّه وهي الرّكون إلى الدنيا والميل إلى أسبابها المانعة من خلوص ذكر الله ومشاهدة أحوال الآخرة، وقال بعض العارفين الرّغبة في الدنيا تجرّ إلى مساوي الأفعال وارتكاب المنكرات الحاجة للمروءات إذا الغريق في بحر الدنيا فلما ينفك من الكبر والفخر والخيلاء والظلم وسوء الخلق واستغفار النعم وكفرانها إلى غير ذلك من الصفات الرّذيلة المهلكة، ولو فرض خلوه عن جميع تلك الصفات واتّصفه بجميع الصفات الحميدة كما يفرض المحال والممتنع لكان في غاية الخطر من مزلّة القدم في كلّ حركة وتصرف بخلاف أهل الكشف الذين اقتصروا من الدنيا على مقدار الضرورة والله ولي التوفيق .

(والرفق و ضدّه الخرق) قال سيّد الحكماء : الخرق بالخاء المعجمة و الفاف من حاشيتي الرأء بالتحريك مصدر الأخرق وهو ضدّ الرّفق، و قد خرق يخرق خرقاً والاسم الخرق بالضم أقول : هذا هو المستفاد من الصحاح حيث قال الخرق بالتحريك الدّهش من الخوف أو الحياء والخرق أيضاً مصدر الأخرق وهو ضدّ الرفق وقد خرق بالكسر يخرق خرقاً والاسم الخرق وأما المستفاد من المغرب حيث قال : الخرق بالضم خلاف الرّفق ورجل أخرق أي أحمق وامرأة خرقاء ومن النهاية الأثيريّة حيث قال : فيه - يعني في الحديث - الرّفق بمنّ والخرق شؤم الخرق بالضم الجهل والحمق وقد خرق يخرق خرقاً فهو أخرق والاسم الخرق بالضم أن ضدّ الرّفق هو الخرق بالضم . والمستفاد من القاموس جواز الأمرين أعني التحريك والضمّ فيه حيث قال : والخرق بالضمّ و بالتحريك ضدّ الرّفق و أن لا يحسن الرّجل العمل والتصرّف في الأمور إذا عرفت هذا فنقول : الرفق اللين واللطّف والخرق العنف والعجلة والخشونة و ترك اللطّف ، لأن هذه الأمور من آثار

الحمق والجهل ومن الرِّفْقِ رَفُقَ الرَّجُلُ بِصَدِيقِهِ وَعَدُوُّهُ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوَجِّبُ ازْدِيَادَ الصَّدَاقَةِ وَرَفَعَ الْعَدَاوَةَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ رَفَقَهُ لَجَلَسَائِهِ بِالسَّوَادَةِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالنَّحْبَةَ وَالنَّكَلَمَ كَيْلًا بِوَرِثِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ وَمِنْهُ رَفُقَ الْأَمِيرُ بِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّهُ أَدْخَلَ لَجَلِبَ قُلُوبِهِمْ وَانْقِيَادَهُمْ لِحُكْمِهِ وَإِطَاعَتَهُمْ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِبَعْضِ عَمَّالِهِ : « وَ اخْفُضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ وَ أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ (١) » وَ فِي الْخَبَرِ « أَنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةُ يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ رَفِيقٌ ، وَ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةُ يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ خَرَقَ (٢) » وَ فِيهِ « أَنَّ الرِّفْقَ لَا يَوْضَعُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نَزَعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ (٣) » ثُمَّ الرِّفْقُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جُنُودِ الْعَقْلِ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ أَصْلَحُ وَ أَصَوَّبُ مِنَ الْخَرَقِ وَ إِلَّا فَالرِّفْقُ حِينَئِذٍ خَرَقٌ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام « إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خَرَقًا كَانَ الْخَرَقُ رَفَقًا (٤) » يَعْنِي إِذَا كَانَ الرِّفْقُ فِي أَمْرٍ غَيْرِ نَافِعٍ فَعَلَيْكَ بِالْخَرَقِ وَ هُوَ الْعَنْفُ وَالْعِجْلَةُ وَإِذَا كَانَ الْخَرَقُ غَيْرِ نَافِعٍ فَعَلَيْكَ بِالرِّفْقِ ، وَ الْمُرَادُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى اسْتِعْمَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعِهِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعَاقِلِ الْحَكِيمِ فَإِنَّ الرِّفْقَ إِذَا اسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ كَانَ خَرَقًا وَ الْخَرَقُ إِذَا اسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ كَانَ رَفَقًا وَ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ عليه السلام « رَبِّمَا كَانَ الدَّاءُ دَوَاءً وَ الدَّوَاءُ دَاءً (٥) » وَقَوْلُهُ عليه السلام « وَ أَرْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفُقَ (٦) » يَعْنِي أَصْلَحُ وَ أَصَوَّبُ وَ اعْتَزَمَ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا يَغْنَى عَنْكَ يَعْنِي إِلَّا

(١) النهج أبواب الكتب من كتاب له «دع» إلى محمد بن أبي بكر.

(٢) ما عثرت على لفظه نعم أخرج أحمد في مسنده ج ٣ ص ٢٢ و ٥٥ و الزمرندي في مسنده

ج ٦ ص ٧٠ من حديث أبي سعيد الخدري «ان أحب الناس إلى الله يوم القيامة و أدناهم منه مجلساً امام عادل و أبغض الناس إلى الله و أبعدهم منه مجلساً امام جائر».

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح ج ٨ ص ٢٢ من حديث عائشة عن النبي (ص).

(٤) النهج من كتاب له (ع) إلى ابنه الحسن (ع) تحت رقم ٣١٠.

(٦) النهج أبواب الكتب و الرسائل تحت رقم ٤٦.

الشدة و قوله **﴿لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ﴾** (١) ردوا الحجر من حيث جاء فإن الشر لا يدفعه إلا الشر (١)
فقد رخص **﴿يَتَّقِ اللَّهَ﴾** لمن أرادته الغير بالضرب و الرمي و القتل أن يدفعه بمثل ذلك
إذا علم أن لا دفع إلا به فإن ذلك جائز حسن عقلاً و نقلاً فإن أدنى إلى هلاك
الظالم فلا شيء على الدافع إذا لم يتعد .

(والرهبة و ضدها الجرأة) الرهبة وهي الخوف على ثلاثة أضرب خوف
من الحق و خوف من الخلق و خوف من النفس كل ذلك من ثمرة الحكمة و
العلم بالله و آياته و صفاته و مخاطرات النفس و تسويلاتها و محاسن أمور الدنيا
والآخرة و مقابحها و مضار أخلاق الخلايق و منافعها أمّا الخوف من الحق فيورث
القرب منه كما ورد في الخبر « إذا اقشعر جسد العبد من خشية الله تعالى تنحات
عنه ذنوبه كما تنحات من الشجرة ورقها » (٢) و من البين أن ذلك يوجب القرب
منه . و أمّا الخوف من الخلق فيورث البعد عنهم كما ورد في الخبر « خالط الناس
تخبرهم و متى تخبرهم تقلهم » و من البين أن من يخاف لصاً أو سباعاً يفر منه ،
و أمّا الخوف من النفس فيورث تهذيبها لأن العبد إذا خاف منها يحارسها في جميع
حرركاتها و سكناتها فيدفع عنها سنان مكرها و سيف مخادعتها ، و ذلك يوجب
تهذيب الظاهر و الباطن ، و من ثم قال بعض أهل العرفان : الخوف نار تحرق
الوسوس و الهواجس في القلب و الظاهر المتبادر منها هو الخوف من الله تعالى وهو قد يكون
لأمور مكرهه لذاتها و قد يكون لأمور مكرهه لإدائها إلى ما هو مكرهه لذاته ، و الثاني
له أقسام كثيرة كخوف الموت قبل التوبة أو خوف نقص التوبة أو خوف عدم قبولها ، أو
خوف الانحراف عن الفضل في عبادة الله تعالى أو خوف ابتلاء القوة الغضبية أو القوة
الشهوية بحسب مجرى العادة في ارتكاب الانتقام و استعمال الشهوات المألوفة أو خوف
سوء الخاتمة أو خوف الشقاوة في العام الأزل و أعلى هذه الأقسام بحسب الرتبة عند

(١) النهج أبواب الحكم و المواعظ تحت رقم ٣١٤ .

(٢) أخرجه الطبراني من حديث العباس بن عبد المطلب بسند ضعيف كما في

الجامع الصغير .

الخائفين خوف الخاتمة فإن الأمر فيها خطير بل أعلاها وأدناها على كمال المعرفة خوف الشقاوة السابقة في العلم الأزلي لكون الخاتمة تابعة لها ومظهرة لما سبق في الألواح المحفوظة وقد مثل من له خوف السابقة ومن له خوف الخاتمة برجلين وقع لهما ملك بتوقيع يحتمل أن يكون لهما فيه عناء أو هلاك فيعلق قلب أحدهما بحال نشر التوقيع وما يظهر فيه من خير أو شر ويتعلق قلب الآخر بما حضر للملك حال التوقيع وما ظهر له من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فكسان أولى وأعلى فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم الأزلي في الألواح المحفوظة أعلى من الالتفات إلى الأبد وإليه يشير ما في الحديث «السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي» في بطن أمه (١) ومن طرق العامة «السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله» (٢) وكذا للأول أقسام كثيرة كالخوف من سكرات الموت وشدايد أو من سؤال منكر وفكير أو من عذاب القبر أو من أهوال الموقف بين يدي الله عز وجل أو من كشف السر أو من السؤال عن النكير والقطمير أو من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو من النار وأغلاها وسلاسلها أو من حرمان الجنة أو من نقصان الدرجات فيها أو من الحجاب من الله سبحانه ، وكل هذه الأمور مكروهة لذاتها ويختلف حال السالكين إلى الله فيها وأعلاها رتبة هو الأخير أعني خوف الفراق والحجاب وهو خوف المعارف الناظرين لأنوار عظمتهم وجلالهم ، الغائمين في بدار لطفه وفضله ، كماله ، الذين أضاعت ساحتهم بقلوبهم بمصباح الهداية الرثائية وأشرقت مرآة ضمائرهم بأنوار المعارف الإلهية كما قال الله سبحانه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وأما ما قبله فهو خوف العابدين والصالحين والزاهدين ومن لم يكمل معرفته بعد وإذا عرفت الخوف ودرجاته فقس عليه ضد وهو الجرأة ودرجاتها لأن ضد كل درجة من الخوف درجة من الجرأة

(١) رواه الصدوق في كتاب التوحيد .

(٢) ويجب أن يكون ذلك بحيث لا يوجب الجبر فإن ذلك يوجب اليأس والياس يجرى ،

على المعصية (ش) والخبر رواه الطبراني في مسنده الصغير بسند صحيح عن أبي هريرة .

والأول من أعوان العقل وجنوده، والثاني من أعوان الجهل وجنوده فإذا وقع المطاردة بينهما في ساحة القلوب وميدان الأبدان واستظهر الجهل بالجرأة استظهر العقل بالخوف فيغلبه و يهزمه باذن الله تعالى ألا إن حزب الله هم الغالبون . لا يقال : المعروف في مقابل الرهبة اعني الخوف هو الرجا، دون الجرأة لأن الرجا ليس ضداً حقيقيناً للخوف ولا الخوف ضداً حقيقيناً للرجا، لأنهما قد يجتمعان في قلب المؤمن بل افتراق أحدهما عن الآخر مذموم واجتماعهما ممدوح كما يدل عليه قوله تعالى في وصف العابدين «ويدعوننا رغباً ورهباً» وإنما الضد الحقيقي للرهبه هو الجرأة والصد الحقيقي للرجا هو القنوط كما مر لعدم إمكان اجتماعهما في قلب واحد .

(والتواضع وضده الكبر) من أعظم جنود العقل ومكارم الأخلاق الانسانية ومحاسن الأوصاف النفسانية التي يرتقي بها الانسان إلى أعلى مدارج القرب والكمال ويصعد إلى أقصى معارج العز والجلال التواضع لله ولعباده المؤمنين كما أن من أفاحم جنود الجهل ومساوي الأخلاق ومذام الأوصاف التي يبعد بها الانسان عن قرب رب العالمين ولا ينتهي قهقراه إلا إلى أسفل المستافلين التكبر على الله وعلى عباده المسلمين ولكل واحد من المتواضع والمتكبر وتعز زوائد والانعز ز للمتواضع من عند الله تعالى والنذلل من عند نفسه، وللمتكبر بالعكس. ولا بد هنا من التكلّم أولاً في حقيقتيهما وثانياً فيما هو سبب لحصول تلك الحقيقة، وثالثاً فيما يلزمها ورابعاً في المدايح والمذام الواردة فيهما أمّا حقيقة التواضع فهي هيئة نفسانية تحصل من تصوّر الإنسان نفسه أدنى من غيره وأخس رتبة منه ، ثمّ الاذعان به إذعائاً جازماً لا يشوبه شيء من الشكوك والأوهام ، و أمّا أسبابه فهي معرفة عظمة الله و جلاله و كبريائه و قهره و غلبته على جميع الممكنات ومعرفة نفسه و شدة احتياجه و كمال افتقاره إليه في جميع الأحوال و يكفي في حصول تلك المعرفة التأمل في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سالة من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثمّ خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا

المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم أنكم بعد ذلك لميستون ثم إنكم يوم القيمة تبعثون ، ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ، فأنه إذا تفكر فيه علم أنه كان في الأصل عدماً صرفاً ولم يكن له في الوجود خبرٌ ولا في العين أثرٌ ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم خلقه الله سبحانه من أكثف الأشياء وهو التراب ثم من أخبثها وهو النطفة كما كان في الكتاب مسطوراً ، ثم بدله من حال إلى حال ، ومن طور إلى طور ، ومن نشأة إلى نشأة حتى جعله ذا صورة محصلة وقوة ناطقة وروح باصرة وآلات سامعة ولامسة إلى غير ذلك مما له دخل في استكمال تلك الصورة ثم نقله من رحم الأم إلى رحم الدنيا ورباه صغيراً وكبيراً وجعله سقيماً وصحيحاً وغنياً وفقيراً وقويماً وضعيفاً إلى غير ذلك من الأحوال المتبادلة والصفات المتضادة التي هي خارجة عن قدرة البشر ، ثم يميتة ويقبره ويصيره جيفة منتنة ، يهرب منه الحيوان ، و ينفض منه أوثق الإخوان ، فتبلى أعضاؤه وتنفرق أجزاؤه حتى يصير تراباً كما كان أول أمره ثم إذا شاء أنشره فيقوم من مرقدته ناظراً إلى أحوال موحشة وأرض مبدلة ونجوم منكسرة وشمس منكسفة وجبال سائرة وكتب طائفة وصراط وميزان وحساب وملائكة غلاظ شداد إلى غير ذلك من أحوال القيمة وعقباتها وعقوباتها التي يطير من هولها قلوب العارفين وإذا عرف هذه الأمور حق المعرفة علم أنه لا يملك لنفسه نقماً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً وأنه مضطرٌ ذليلٌ عبدٌ مملوكٌ لا يقدر على شيء ، وأنه متلبس بالمعجز والانكسار ومتصف بالمسكنة والافتقار وأنه بعيد عن الاتصاف بالبطر والكبرياء والفخر والخيلاء ، علمه بأن الكبرياء لا يليق إلا بذاته تعالى لأن الكبرياء تابع لكمال الذات وكمال صفاتها وأفعالها وجميع ذلك حاصل له تعالى أما الأول فلأن كمال الذات عبارة عن كمال وجودها وجوده تعالى أتم الوجودات وأشرفها لاقتضاء الذات إتيانها وأما الثاني فلأن جميع صفاته حاصله له بالفعل بحيث لا يكون له وصف منتظر أزلاً وأبداً ، وأما الثالث فلأنه يصدر عنه تعالى وجود

كل موجود عداه بالمشقة ولا حر كة ولا آلة فاذا علم أن المستحق للعظمة والكبرياء ليس إلا هو وهذا معنى التواضع وحقيقته وأما لوازمها فهي كثيرة جداً لأن تلك الحقيقة إذ انبعث من القلب و جرى في جداول الأعضاء والجوارح رشحاتها تنبت منها أنواع أشجار الفضائل منها العبادات القلبية والبدنية كالذكر والصوم والصلوة ونحوها ومنها مجالسة الفقراء ومحبتهم ومؤاكلتهم وتقديمهم في الطرق والمجالس ومنها لين القول وحسن المعاشرة والرفق بذوي الحاجات ، ومنها الشكر عند حدوث النعمة ودفع النعمة ، ومنها الابتداء بالسؤال وترك المراء .

و أما المدايح الواردة فيه فهي كثيرة في القرآن وانسنة كقوله تعالى لسيد المرسلين و أشرف الأولين والآخرين : « و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » و قوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » وقول النبي ﷺ : « إن التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكم الله (١) » وأما حقيقة الكبر فهي هيئة نفسانية تنشأ من تصوّر الإنسان نفسه أكمل من غيره وأعلى رتبة منه ، و تلك الهيئة تعود إلى ما يحصل للنفس من ذلك تصوّر ، من النخ والهنّة والتعزّز والتعظيم والرّكون إلى ما يتصوره من كمالها و شرفها على الغير و لذلك قال رسول الله ﷺ : « أعوذ بك من نفخة الكبر (٢) » وهي رذيلة تحت الفجور تقابل التواضع و إن تصوّر الإنسان فضيلته على الغير مع قطع النظر عن قياس نفسه إلى متكبر عليه و عن إضافة تلك الفضيلة إلى الله تعالى باعتبار أنها منه و لم يكن خائفاً من زوالها بل كان

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب التواضع تحت رقم ١ .

(٢) ما عثرت على اصل له الاعلى ما أخرجه ابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة

باب الاستعاذة في الصلاة) رقم ٨٠٧ في حديث : « اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه » و قال عمرو : همزه الموتة : و نفثه الشعر ، و نفخه الكبر ، انتهى ، والموتة نوع من الجنون والصرع يمتري الانسان ، فاذا أفانى عاد اليه كمال العقل كالسكران .

ساكناً إليها مطمئناً فذلك هو العجب فاذن العجب هيئة نفسانية تنشؤ عن تصوّر
الانسان فضله و استقطاعه عن المنعم به والرُّكون إليه والفرح به مع الغفلة عن
قياس نفسه إلى الغير بكونه أفضل منه ، و بهذا القيد يمتاز عن الكبر إذ لا بدّ في
الكبر إن يرى الانسان لنفسه مرتبة و للغير مرتبة ثم يرى مرتبته فوق مرتبة غيره
و إن تصوّر فضيلته على الغير و أضافها إلى الله سبحانه باعتبار أنها منه فهو نوع من
الحمد كما يدلّ عليه قوله تعالى « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » و قالوا الحمد
لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين « و أمّا أسباب الكبر فهي أضداد
أسباب التواضع أعني عدم العلم بعظمة الله تعالى و جلاله و كبريائه وقهره على
جميع الممكنات ، و عدم معرفة نفسه و شدة احتياجه و افتقاره إليه سبحانه في
جميع الأحوال ، و لست أعني بعدم العلم بهذه الأمور عدم تصوّرها و الغفلة عنها
بالمرّة فإن كثيراً من الجبابرة والمتكبرين ينسبون أنفسهم إلى العلم بها ، بل
أعني عدم استقراره وتمكّنه في قلوبهم و عدم لصوقه بها كعدم لصوق الماء بريش
الأوز والبط . و أمّا لوازمه و آفاته و ثمراته من الأعمال و التروك فهي أيضاً
كثيرة جداً فإنّ هذا الخلق الأجاج اذا نبع في القلب و جرى في الأعضاء والجوارح
ينبت منها أعمال رديّة و تروك مردية . أمّا الأعمال فمنها باطنة كتحقير الغير
و ازدرائه و اعتقاده أنّه لا يصلح للمجالسة والمجانسة والمؤانسة والمؤاكلة واعتقاده
أنّه ينبغي أن يكون هائلاً بين يديه أو هاشياً من خلقه إلى غير ذلك من العقائد
الفاصلة الموجبة لاستخفاف الغير ومنها ظاهرة كالنقدّم عليه في الطرق والارتفاع عليه
في المجالس و إبعاده عن مجالسته وزجره عن مؤاكلته والعنف عن ردّ قوله والغلظة
على المتعلّمين و ذوي الحاجات و إذلالهم و غيبتهم والتطاؤل عليهم في القول ، و
أمّا التروك فكترك النواضع و ترك معايشة الفقراء و ترك الرُّفق بالناس ونحوها
و أمّا المذامّ الواردة فيه فهي أيضاً كثيرة من القرآن والسنة كقوله تعالى « يطبع
الله على كلّ قلب متكبر جبار » و قوله ﷺ « يقول الله عز وجل الكبر يا عدائي

والعظمة إذ أري فمن ناز عني في واحد منهما ألقينه في جهنم (١) ، وقول الباقر والصادق عليهما السلام لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر (٢) ، قيل وإنما صار الكبر حجاباً من دخول الجنة لأنه يحول بين العبد والفضائل التي هي أبواب الجنة إذ الكبر يغلق تلك الأبواب كلها فلا يقدر العبد ومعه شيء من الكبر أن يحب المؤمن ما يحب لنفسه ولا يتمكن من ترك الرذائل التي توجب الدخول في النار وفعل أضرارها من الفضائل كالنواضع وكظم الغيظ وحب الفقراء والمساكين وحب معاشرتهم ومجالستهم وقبول الحق والرّفق وبالعجالة ما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطرب إليه ليحفظ به عزه وعظمته وما من خلق فاضل إلا وهو عاجز عنه خوفاً عن أن يفوته عزه وعظمته لأن الأخلاق الذميمة علة مسرية (٣) يستلزم بعضها بعضاً فلذلك لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر .

(والتؤدة ضد التسرع) التؤدة بضم التاء وفتح الهمزة وسكونها الرزاة والثاني والتثبت في الأمر وقد اتأد فيه ويؤد أي يتأنى ويتثبت وهو افتعل و يفعل والتأد في اتأد بدل من الواو والتؤدة صفة تابعة للسكون والحلم اللذين هما من أنواع

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٤ ، ودواء صاحب الكافي كتاب الايمان والكفر

تحت رقم ٣ و ٤ باختلاف في اللفظ من حديث ابي جعفر (ع) .

(٢) الكافي باب الكبر تحت رقم ٥ ، ودواء مسلم من حديث عبدالله بن مسعود

ج ١ ص ٦٥ .

(٣) بمعنى علة سارية كالقوله أو مسرية لغيرها كالسل يستلزم العمى ، فان قيل بعض

أهل التكبر وطالبى الجاه والمزة يتكلمون فضائل ليحسن سمعتهم فيتواضعون ويبدلون الاموال و يرفقون بالناس و ينظّمون بأكثر الفضائل كمعوية . قلنا انما الاعمال بالنيات والذي يبذل المال لحفظ الجاه لا يضع احسانه موضع الاحسان بل يبذل للشعراء والغصاق حتى يمدحوهم بما ليس فيهم ولئن يروج امرهم و يصفهم في المجالس بالصفات الحسنة كالعلم والتقوى و يمنعون من لا يتقرب اليهم و ان كانوا أحوج و احق و ليس هذا البذل من الفضائل المأمور بها في الشرع و كذلك النواضع والتعالم وغيرهما (ش) .

الاعتدال في القوة الغضبية فإن حصولها يتوقف عليهما أمّا على السكون فلاّ نه عبارة عن ثقل النفس و عدم خفتها في الخصوصات و أمّا على الحلم فلاّ نه عبارة عن الطمأنينة الحاصلة للنفس باعتبار ثقلها و عدم خفتها بحيث لا يجرّ كها الغضب بسرعة و سهولة و إذا حصلت للنفس هاتان الصفتان أمكن لها الثبوت والتأني و عدم العجلة في البطش والضرب والشتم إلى غير ذلك من أنحاء المؤاخذه و ضدّ التؤدة والنسرع بالسين المهمة في النسخ التي رأيناها ، و قال سيد الحكماء عضدّها التترّع بتأين مثنيين من فوق و تشديد الرؤا قال في الصّحاح : تترّع إليه بالشرّ أي تسرع و هو رجل ترع أي سريع إلى الشرّ والغضب انتهى والنسرع يعني العجلة في الأمور و عدم التأني في الأخذ من فروع النهو الذي في جانب الإفراط من القوة الغضبية ومنشؤه الجهل بحسن السياسة و خفة النفس المقتضية لجرّكتها واضطرابها بأدنى سبب.

(و الحلم و ضدّه السفه) الحلم هيئة حاصلة للنفس من اعتدال القوة الغضبية المسماة بالنفس السبعية التي من شأنها الاقدام على الأهوال وشوق التسلط والترفع والغلبة على الأقران ، و اعتدال تلك القوة إنّما يحصل بانقيادها للعقل فيما عدّه حظاً و نصيباً لها ، و عدم تجاوزها عن حكمه ، و يعتبر في حصول تلك الهيئة عدم انفعال النفس عن الواردات المكروهة المؤذية هذا في حقّ الانسان و أمّا في حقّ الله سبحانه فالحلم عبارة عن عدم انفعاله عن مخالفة عبيده لأوامره و نواهيه و عدم استفزاز الغضب له عند مشاهدة المنكرات ، و عدم حمل قدرته الكاملة له على المسارعة إلى الانتقام والفرق بينه تعالى و بين العبد في هذا الوصف إن سلب الانفعال عنه تعالى سلب مطلق و سلبه عن العبد سلب عمّا من شأنه أن يكون له ذلك الانفعال و يكون عدم الانفعال عنه تعالى أتمّ و أبلغ من عدمه عن العبد و بذلك الاعتبار يكون حلمه أعظم، ثمّ للحلم آثار غير محصورة منها كبر النفس و يعرف ذلك بتحملها للأمر الغير الملازمة لها، و منها نجدتها و يعرف ذلك بعدم صدور حرّكات غير منظمة منها ، و منها علوّ هممتها و يعرف ذلك بعدم جزعها عند الأمور الهائلة حتّى لا يبالى من أهوال الموت و شدايده، و منها سكونها

و يعرف ذلك بعدم طيشها في المؤاخذة او منها تواضعها و يعرف ذلك بالنخسح و التذلل للغير و عدم إظهار مزيئها عليه ، ومنها حميئتها و يعرف ذلك بعدم تهانها في محافظة ما يجب حفظه شرعاً و عقلاً ، و منها رقتها و يعرف ذلك بظهور تألمها عند تألم أحد من المؤمنين و كذاله منافع غير معدودة في الدنيا والآخرة أمّا في الآخرة فيكفي في الدلالة ما روي « أن الرجل ليذكر بالعلم درجة الصائم القائم (١) ، و أمّا في الدنيا فيكفي قول أمير المؤمنين عليه السلام « العلم عشرة (٢) » يعني أن الرجل كما يتمتع بالعشرة يتمتع بالعلم و يتوقّر لأجله ، و من ثم قيل العلم اكتساب المدح من الملوك و الشاء من المملوك ، و السفه الذي ضده ، و طرف الافراط من القوة المذكورة عبارة عن خفة النفس و حركتها إلى ما لا يليق من الأمور التي يقضيها طغيان تلك القوة مثل الضرب و القتل و الشتم و البطش و الترفع و التسلّط و الغاية و الظلم و مفاسده كثيرة وقد يطلق السفه على الجهل و سخافة رأي و نقصان عقل منه قوله تعالى حكاية عن الكفار « أنؤمن كما آمن السفهاء » و هذا المعنى ليس بمترادف هنا لأنه ضدّ العلم و الحكمة النابعين لحركة القوة الناطقة بالاعتدال في العاوم و المعارف .

(و الصمت و ضدّه الهذر) صمت صمتاً و صموتاً و صماتاً أطل السكوت ، و منه الصامت خلاف الناطق . و هذر في نطقه يهذر هذراً و الاسم الهذر بالتحريك و هو الهذيان ، و الهذر من خواصّ الجاهلين و أفعال الناقصين كما أن الصمت عمّا يضرّ و مالا يهيمّ من خصال المرسلين و آداب العاقلين و أخلاق الكاملين و منافعه كثيرة جداً فأنّه يورث القلب فكراً في المعارف العقلية و النقلية و يزينة بالحكمة النظرية و العملية لأنّ الصمت دليل التفكر و قائد الحكمة و يورث السلامة عن الآفات و المعاصي لأنّ آفات الكلام و معاصي اللسان كثيرة ، فعن معاذ بن جبل قال : قلت : يا رسول الله أتؤاخذ بما نقول؟ فقال : تكلتك أمّك و هل يكبّ الناس

(١) رواه ابن حبان في كتاب الثواب . (٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤١٨ .

على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (١) ، و يورث الهيبة لصاحبه فان من رآه يخجل إليه أن له شأناً فيهمب منه ويوقره بخلاف النطق بما لا يعني فانه يمين مكلام العاقل و يبدي مساوي الجاهل ويصغرهما في أعين الناس كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « بكثرة الصمت تكون الهيبة » (٢) ، وقال المرء مخبوء تحت لسانه (٣) ، يعني أن الرجل إذا تكلم يظهر كونه فصيحاً أو معجباً ، عالماً أو جاهلاً ، خيراً أو شراً ، و إن لم ينطق كان جميع ذلك مستوراً عليه عند العامة ثم المظاهر أن السكوت عملاً يشعر بفساد الرأي و قبح العقائد من شعب الاعتدال في القوة الفكرية و عملاً يشعر بالهتك والترفع والغلبة والذم في أعراض الناس من شعب الاعتدال في القوة الغضبية و عملاً يشعر بالميل إلى المستلذات والمشتبهات من شعب الاعتدال في القوة الشهوية والهنر المتقابل له من شعب الانحراف في هذه القوى .

(والاستسلام و ضده الاستكبار) الظاهر أن الاستسلام و هو الطاعة و الانقياد على سبيل المبالغة في متابعة الحق من فروع الحكمة الواقعة في حاق الوسط من القوة الناطقة ، و يحتمل أن يكون من فروع العدالة الحاصلة من توسط هذه القوة والقوة الغضبية والشهوية جميعاً لأن الاستسلام كما يكون في مقتضى القوة الناطقة كذلك يكون في مقتضى هاتين القوتين ، والاستكبار وهو النمرد عن الحق وترك الطاعة والانقياد له من فروع الجهل المقابل للحكمة أو من فروع الجور المقابل للعدالة ، والفرق بينه وبين الكبر أن الكبر كما ذكرناه هيئة نفسانية

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٣ في حديث طويل من حديث معاذ و قوله

(من) « يكب » من كبه ، اذا صرعه . « حصائد ألسنتهم » اي معصوداتهم ، على تشبيه ما يتكلم به الانسان بالزودع المحصود بالمنجل فكما ان المنجل يقطع من غير تمييز بين رطب و يابس وجيد و ردي كذلك المكئد في الكلام بكل فن من الكلام من غير تمييز بين ما يحسن و ما يقيح .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٢٤ .

(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٤٧ .

ناشئة من تصور الانسان نفسه أكمل و أشرف من غيره، والاستكبار عبارة عن إظهار تلك الهيئة فهو كبر مع زيادة كما يدل عليه زيادة البناء .

(والتسليم و ضد الشك) التسليم بذل الرضا بقبول قول الله تعالى و فعله و قول الرسول و أوصيائه و أفعالهم عليهم السلام و تلقيها بالبشر و طلاقة الوجه وإن لم يكن موافقاً للطبع و لم يعلم وجه المصلحة و هو من فروغ العدالة و علامة الإيمان قال الصادق عليه السلام : لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و حجوا البيت و صاموا شهر رمضان . ثم قالوا لشيء صنع الله أو صنع رسول الله صلى الله عليه وآله الأصنع خلاف الذي صنع أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين (١) ثم تلا هذه الآية : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (٢) والشك هو عدم قبول ما ذكر و سمناه شكاً لأنه من آثار الشك في الله وصفاته و في الرسول و أوصيائه و أقوالهم و أفعالهم ، وقيل : المراد بالتسليم هنا الإذعان و التصديق

(١) فإن من يعتقد عصمة الرسول (ص) من الخطأ والغلط لا يشك في صحة أفعاله و أقواله ولا يرجح فعلاً آخر على فعله ولا قولاً على قوله و أما ان لم يعتقد عصمته عن الخطأ فلا يبعد ان يرجح فعل غيره على فعله ، وانتكار العصمة مساوق لانكار النبوة و انكار النبوة شعبة من الشرك . فإن قيل فكيف عبدوا الله و أقاموا الصلوة و آتوا الزكاة مع عدم اعتقادهم عصمة الرسول (ص) عن الخطأ في فهم الوحي و تبليغه و الالتزام بان النبي لا يخطئ في شيء و يخطئ في آخر بشيع فقطيع قلنا بعض الناس فقلبة الاوهام على عقولهم يعتقدون شيئاً و ينكرون لوازمه بل ينكرون عين ذلك الشيء اذا اتى به بلفظ آخر كما قيل لبعض الخلفاء: يموت جميع اقر بانك فساه . فقل عمرك اطول منهم نسره . و يقال لاهل الظاهر: سمع الله وبصره بمعنى علمه بالمبصرات والمسموعات كعلمه بالمذوقات والمشمومات فيقبلون و يستحسنون و ان قيل لهم لا علم له تعالى بالجزئيات الا بوجه كلي فيستنكرون و كلاهما بمعنى واحد و كلاهما غير صحيح (ش).

(٤) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الشرك تحت رقم ٦.

القلبي و فيه أن التسليم بهذا المعنى هو العلم وقد مر ذكره سابقاً وعلى ما ذكرنا لا قصور فيه أصلاً لأن هنا ثلاثة أشياء مترتبة الأول العلم بصدق قول الله و قول الرسول ، الثاني ما ينشئ من هذا العلم و هو الرضا بقولهما ، الثالث ما ينشئ من الرضا وهو قبول قولهما .

(والصبر و ضده الجزع) الإنسان مادام في هذه النشأة كان مورداً للمصائب والآفات ومحلاً للنوائب والعاهات ومكلفاً بفعل الطاعات وترك المنهيات والمشتبهات وكل ذلك ثقل على النفس بشع في مذاقها وهي تنفر منه نفاراً و تتباعد منه فراراً فلا بد من أن يكون فيه قوة ثابتة و ملكة راسخة بها يقدر على حبس النفس على هذه الأمور الشاقة والوقوف معها بحسن الأدب وعدم الاعتراض على المقدّر بما ظهر الشكوى و تلك القوة أو ما يترتب عليها أعني حبس النفس على تلك الأمور ومقاومتها لها هي المسمّاة بالصبر و هو نوع من أنواع العفة و باب من أبواب الجنة و مقام عال من مقامات السالك إلى الله تعالى ، و بناؤه على أربع قواعد الشوق والاشفاق والزهد والترقب للموت فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات وطيب نفسه عن ترك جميع المشتبهات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ، و من زهد في الدنيا استخف بالمصائب ، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات ، والآيات والروايات الواردة في مدحه كثيرة جداً و يكفي في معرفة علو قدره قوله تعالى والله مع الصابرين ، و قوله تعالى و إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، والجزع و هو حمل النفس على الشكاية وفعل ما يدل على عدم رضاها بصنع الله تعالى و هو نقیض الصبر ، وجند الجهد ومنشؤه عنى البصيرة و تكدر السريرة فيتوهم عند نزول البلاء أن الجزع والاضطراب يتبعه فيتمسك به و يتمسك العقل حينئذ بالصبر و يقع بينهما قتال و جدال و معركة هذا القتال قلب العبد و ساحته الجوارح ، و الله يؤيد بنصره من يشاء و هو على كل شيء قدير .

(والصفح و ضده الانتقام) صفح فلان عن فلان إذا عرض عن ذنبه و عفى

عن عقوبته وحقيقته أولاً صفحة وجهه وهو من فروع الحلم وشعب الاعتدال في القوة الغضبية وهو من صفات الأنبياء والأوصياء ومناقب الحكماء والعقلاء ومفاخر العلماء والكرماء إذا الحكيم يتغافل ويتدبر والعاقل يتسامح ويتفكر والكريم يغفر إذا قدر وقد وقع الترغيب فيه في مواضع عديدة من القرآن والسنة قال الله تعالى: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» وقال النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً» (١) وفوائده غير محصورة منها أنه يوجب زيادة الأنصار والأعوان، ومنها أنه يوجب الذكر الجميل بين الإخوان والصيت الحسن في غابر الزمان كما قيل:

فغفوك في الأيام كالمسك قايع ۞ وصفحك في الإسلام كالنجم زاهر

والانتقام وهو المعاقبة بالذنوب والمآثم والمواخذة بالزلل والجرائم من فروع التهور وشعب الانحراف في القوة المذكورة ومن خصايل الجهلاء وذائل السفها ومنشؤه عدم سكون النفس وثباتها، فإن تلك القوة تحرر كها حينئذ بسهولة إلى الشعب وإرادة الانتقام ويحدث بحر كتها حرارة في القلب فيثور دمه ويغلي وينتشر إلى الجوارح فتتحرر هذه الجوارح بعضها إلى الشتم وبعضها إلى الضرب وبعضها إلى غير ذلك من أنحاء المؤاخذة، ومضاره غير معدودة لأنه ينجر إلى استمرار العداوة وغلظتها واستيناف الخصومة وشدتها، وقد يؤدي إلى الظلم والعدوان ويبعث على الجور والطغيان لتجاوزه عن القدر الجائز ولذلك كان الصفح أحسن من الانتقام هذا إذا علم أن الصفح لا يضره ولا يؤدي إلى جرأة الخصم وإلا فالانتقام بالقدر الجائز أحسن وعلى هذا يحمل قول أمير المؤمنين (عليه السلام) والشر يدفعه الشر (٢) وقوله: رد والحجر من حيث جاء (٣).

(والغنى ضد الفقر) في القاموس الغنى كالي ضد الفقر وإذا فتح مد

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث ابن عمر عنه (ص) ونسب

الكافي كتاب الإيمان الكفر باب كظم الغيظ من حديث أبي عبد الله الصادق (ع).

(٢) و (٣) تقدمتا سابقاً.

والاسم الغنية بالضم والكسر والغنوة والغنيان مضمومتين، والغناء ككساع من الصوت ما طرب به وكسماء رمل، وهذه الفقرة يحتمل وجوهاً الأول الغنى والفقر الآخر وبيان وهو الذي أشار إليه عليه السلام بقوله: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لادرهم له ولا مناع؟ فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيمة بصلوة وصيام وزكوة ويأتي قد شتم هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته: فان فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار (١)» وهذا حقيقة الفقر، والافلاس وأما من ليس له مال ومن قلّ ماله فالتاس يسمونه فقيراً ومفلساً وليس هو حقيقة الفقير والمفلس لأن هذا امر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بغنى و يسار يحصل له بعد ذلك في حياته بخلاف ذلك الفقير المفلس فإنه يملك بالهلاك الأبدى وأشار إليه سيد الوصيتين بقوله: «الغنى والفقر بعد العرض على الله سبحانه (٢)» الثاني غنى القلب بالأخلاق وفقره بدمهها وهذا قريب من قوله عليه السلام:

ليس البليّة في أيماننا عجبا إن السلامة فيها أعجب العجب
ليس الجمال بأثواب تزيّنها إن الجمال جمال العلم والأدب
ليس اليتيم الذي قدمته والده إن اليتيم يتيم العقل والحسب

الثالث اظهار الغنى مع كمال المسكنة ورياضة النفس والقناعة بما قضى له والرضا بالموجود والصبر على المفقود والاعراض عن الدنيا والعقبى والافعال على المولى وقطع الآمال وترك القيل والقال كما يرشد إليه قوله تعالى: «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس الحافاً» وإظهار الفقر والطمع ممّا في أيدي الناس وهذا قريب من قوله عليه السلام حين قيل له: ما الغنى؟ قال:

(١) روى نحوه مسلم و احمد في مسنده ج ٢ ص ٣٠٣ وغيره من حديث أبي

هريرة راجع الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٤٠٥ .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت ٤٥٢ .

«اليأس ممّا في أيدي الناس (١)» و من قول بعض الأكابر :

عليك باليأس من الناس إن غنى نفسك في اليأس

الرابع الغنى بالحقّ جلّ شأنه عمّا سواه من الأسباب والوسائل والفقر التمسك بما سواه والاستعانة به والغنى بهذه المعاني من جنود العقل وأعوانه إذ به يترقّي العقل من حضيض المذلة إلى أوج الكمال في الإنسان كما أن الفقر الذي هو ضده من جنود الجهل وأنصاره إذ به يستولى الجهل على معالك القلب بالجور والظفیان.

(والتذكر و ضده السهو) التذكر من أنواع العلم وفروع الاعتدال في القوة العاقلة والسهو من أنواع الجهل المقابل للعلم وفروع الانحراف في هذه القوة وهذه الفقرة أيضاً يحتمل وجوهاً الأول أن يكون المراد بالتذكر تذكر أحوال القيمة وعقباتها وشدائدها فإن من تذكرها ورآها بعين البصيرة يسعى في مرضات الربّ ويأخذ عنان الطبيعة عن يد النفس الأمّارة ويعدّ لنفسه ما ينجيه من الهلاك الأبدی ، الثاني تذكر الموت وسكراته وما يتبعه من أحوال البرزخ وكيفية النجاة وأسبابها ، الثالث تذكر الصور المخزونة في القوة الحافظة بعد زوالها عن القوة المدركة واستحضارها ثانياً ، الرابع الصور العقلية المخزونة في المبادي العالية باقبال النفس إليها وارتباطها بها ، الخامس تذكر حالاته من بدو الوجود إلى كمال نشوئه وكيفية انتقاله من حال إلى حال وارتحاله من طور إلى طور وانقلابه من وضع إلى وضع على ما يقتضيه القدرة القاهرة والسهو مقابل المتذكر بهذه المعاني وكون التذكر من جنود العقل والسهو من جنود الجهل ظاهر لأنّ التذكر نوع من العلم والسهو نوع من الجهل فالأول يعين العقل في السير إلى الله ، والثاني يعين الجهل في الميل إلى الضلالة.

(والحفظ و ضده النسيان) الحفظ أيضاً من أنواع العلم والنسيان من أنواع الجهل المقابل للعلم ، ولعلّ المراد بالأول حفظ الميثاق الذي أخذه الله تعالى من العباد حين كونهم في صورة الذرّ أو حفظ ما يجب حفظه مطلقاً أو حفظ

(١) أخرجه أبو نعیم فی العلّیة والقضاعی فی مسند الشهاب عن ابن مسعود .

صور الحسّية في خزانها أو حفظ الصور العقلية بأن يحصل للذهن ملكة يشاهد بها تلك الصور من المبادي العالية من غير حاجة إلى تجسّم كسب ، والنسيان عبارة عن نبذ الميثاق والغفلة عنه بالمرّة أو عن زوال صور ما وجب حفظه عن القوّة المدركة أو زوال الصور الحسّية عن الخزانة والقوّة المدركة جميعاً أو عن زوال الصورة العقلية بفقد ملكة المشاهدة .

(والتعطف ضدّه القطيعة) العطف الميل ومنه عطفك عليه بمعنى أشفقت عليه و رحمته لأنّ في الإشفاق والرّحمة ميلاً و انعطافاً إلى المرحوم، والعطف الرّداء و تعطف بالعطف أي ارتديته و المتعطف بأحد كأنّه ضمّه إلى نفسه بمنزلة الرّداء ، والقطيعة مصدر يقال : قطع رحمه قطعاً وقطيعة فهو قطع كصردو همزة هجرها وعقبها و بينهما رحم قطعاً إذا لم توصل، والتعطف من أنواع العدالة و ضدّه من أنواع الظلم وعليكم أيّها الإخوان أن تكونوا إخواناً متعاطفين متبازلين متواصلين متآلفين بالنسبة إلى كلّ أحد من المسلمين وأن لا تفرقوا بين الغنيّ و الفقير والقويّ والضعيف والكبير والصغير وقد صدر التّرجيب فيهم من القرآن والسنة قال الله تعالى « إنّما المؤمنون إخوة » و قال « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » و قال رسول الله ﷺ : « لا يجلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث (١) » وهذه الفضيلة فضيلة شريفة من فضائل الأخلاق لا يتّصف بها إلا من امتحن الله قلبه بالتقوى وطهره من الكبر والرّين و نزّهه من الحقد والغين و يندرج تحتها كثير من المكارم مثل خفض الجناح و لين الجانب والرفق في الأقوال والأفعال وعدم الغلظة والجفاوة في جميع الأحوال وبسط الوجه وطلاقة من غير تقطير وتقطيب وعبوس والمواساة بينهم في جليل الأمور و حقيرها و قليلها و كثيرها بقدر الإمكان فإنّ جميع ذلك من توابع الشفقة والرّحمة و لوازمها ، و لها منافع غير محصورة و يكفي في هذا المقام قول أمير المؤمنين عليه السلام « من لان جانبه كثر أعوانه (٢) » و

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٢٣ و في الكافي باب الهجرة نحوه .

(٢) ما عثرت على لفظه وفي خطبة له عليه السلام تحت رقم ٢٣ نحوه .

قوله: «من رفع عن الناس يداً واحدة رفعت عنه أيد كثيرة (١)» ثم إن التعاطف والتواصل من حقوق العشرة والصحبة إذا كانا في جانب الدين وإلا فهجرة أهل الأهواء والبدع دائمية على مرّ الأوقات ما لم يظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق. ولذلك لما خاف عليه السلام على كعب بن مالك وأصحابه النفاق لتخلفهم عن غزوة تبوك أمر بهجرانهم خمسين يوماً.

(والقنوع وضده الحرص) القنوع بالضم هنا مصدر بمعنى القناعة بالكسرو هي الرضى باليسير من متاع الدنيا والاقتصار على قدر الكفاف بل على ما دونه لو تعزز عليه وقد روي عن النبي ﷺ قال: «قلت: يا جبرئيل ما تفسير القناعة؟ قال: يقنع بما يصيب من الدنيا يقنع بالقليل ويشكر باليسير (٢)» وفسرها المحقق الطوسي بعد ما عدها من الأنواع المندرجة تحت العفة الحاصلة من الاعتدال في القوة الشهوية بأنها رضا النفس في المأكل والمشرب والملابس وغيرها بما يسد الخلل من أي جنس اتفق وقد وقع البحث عليها في القرآن والسنة ويكفي في ذلك قوله تعالى لنبي ﷺ «ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم» وقوله تعالى «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا» وقول الباقر والصادق عليهما السلام: «من قنع بما رزقه الله فهو أغنى الناس (٣)» وقول أمير المؤمنين عليه السلام «القناعة مال لا ينفد ولا يفنى (٤)» ومن طرق العامة «القناعة كنز لا يفنى (٥)» يعني بذلك أن الإنفاق منها لا ينقطع كلما تعزز عليه شيء من أمور

(١) النهج من كتاب له (ع) إلى ابنه الحسن (ع) تحت رقم ٣١.

(٢) راجع سفينة البحار ج ٢ ص ٤٥٢.

(٣) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب القناعة تحت رقم ٩.

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٧٥ و ٥٧.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث جابر كما في مجمع الزوائد ج ١٠

ص ٢٥٦. والقضاعي في مسند الشهاب من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

الدنيا قنع بما دونها وورضي و قوله عليه السلام : « كفى بالقناعة ملكاً (١) » يعني أن القناعة منجية عن مهلكة الالتماس كالملك و إن دخلك من ذلك شيء فانظر إلى عيبه ش الأنبياء والأوصياء والأولياء والصلحاء من قبلك وقد بلغك حال نبيك الأظهر أنه إنما كان قوته الشعير وام يشبع منه و حلواه التمر وثوبه الخشن ووقوده السعف إذا وجده ، وأما ضدها وهو الحرص في طلب زهرات الدنيا والانهماك في لذاتها و جمع مشتهياتها زائداً على القدر الضروري الذي يجوزه العقل والنقل فهو من شعب الانحراف في القوة الشهوية و طرف الافراط فيها و صاحبه مع عدم خلوه من المشقات لا يأمن من الوقوع في الشبهات و ارتكابه للمحرمات ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : « والرغبة مفتاح التصب و مطيئة النعب (٢) » و قال : الحرص داع إلى التفتح في الذنوب (٣) و قال « ابن آدم : إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك و إن كنت تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك (٤) » و وجه ذلك ظاهر لأن الحرص في جمع الدنيا و زخارفها يقدم رضا على الرضا بما قد رآه له و يتبع حرصه وأمله و مراتب الحرص غير محصورة و درجات الأمل غير معدودة فلو فرض أنه جمع له تسعة أعشار الدنيا طلب العشر الباقي ، ثم بعده يطلب الدنيا مرتين و على هذا حتى يموت هذا حكم طلب القدر الزائد ، وأما طلب القدر الضروري له و لعيله فليس من الحرص في شيء بل هو من العبادة قال رسول الله ﷺ : « الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله (٥) » فلو ترك ذلك كان مذموماً و ينشؤ ذلك من خمود الشهوة الذي

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٢٩ .

(٢) المصدر أبواب الحكم تحت رقم ٣٧١

(٣) المصدر الباب تحت رقم ٣٧١ وفيه « الحرص والكبر والحمد دواع إلى التفتح

في الذنوب » .

(٤) الكافي كتاب الايمان والكفر باب القناعة تحت رقم ٦

(٥) الكافي ج ٥ ص ٨٨ كتاب المعيشة باب من كد على عياله .

هو طرف التفريط من القوة المذكورة .

(والمواساة ضد المنع) في المغرب آسيت به مالي أي جعلته أسوة اقتدي به ويقتدى هو بي . وآسيت لغة ضعيفة ، وفي النهاية الأسوة بكسر الهمزة وضمها القدرة والمواساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرّزق وأصلها الهمزة فقلبت واو وتخفيفاً ، واعلم أن*
المواساة بمعنى معاونة ذوي الأرحام والأقربين وسائر الناس من الفقراء والمساكين في المعيشة وإشراكهم في القوت والمال من شعب السخاء المعداد من أنواع العفة* و من كمال الصالحين و خصال العاقلين ، إذ العاقل الكامل يعلم بنور عقله أن* سد* خلقة الفقراء ومواساة الضعفاء وإعطائهم ما ينظم به أحوالهم من فضل المال يوجب ذكراً جميلاً في الدنيا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « و إسان الصدق يجعله الله للمراء في الناس خير له من المال يورثه غيره (١) » ، وثواباً جزيلاً في الآخرة كما وعد الله سبحانه أهل الإنفاق بقوله الذين ينفقون أهوالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مثلاً ولا أدى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ويقول له فمن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ، ويعلم أن* الفضل الزائد في ماله على القدر الذي يدفع ضرورته ليست زيادته معتبرة - فهي صلاح حاله ولا نقصانه معتبر في فسادها فلا يزيد له إذن إن أبقاه ولا ينقصه إن أنفقه وأعطاه ، فيسهل عليه إنفاقه على ذوي الحاجات توقعاً لما يترتب عليه من رفع الدرجات ، وأما المنع يعني عدم إعطاء الفقراء ترك مشاركتهم ومساهمتهم في فضل المال فهو من شعب البخل ومن صفات الجاهلين و علامات الغافلين ، إذ الجاهل الغافل مع جهله بما يترتب على الإنفاق من الثناء الجميل عاجلاً والثواب الجزيل آجلاً يظن أنه إن أنفقه يصير فقيراً فيمسكه لنفسه وذلك لسوء ظننه بمالك الأرزاق وعدم إيمانه برب الأرباب و ضعف إدعائه بيوم الحساب فيستحق* بذلك الشقاء العظيم والعذاب الأليم كما قال العزيز العليم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

(١) تقدم سابقاً عن النهج أبواب العطب تحت رقم ٢٣ :

(والمودة وضدها العداوة) المودة المحبة تقول: وددت الرجل أوده ودا إذا أحببته والود بالحر كات الثلاث المودة ولما كان الانسان محتاجاً في عيشه إلى التمدن وهو اجتماعه مع بني نوعه للمعاون والتشارك في تحصيل الملايم والحاجات إذا لم يكن للانسان الواحد القيام بجميع ما يحتاج إليه من المصالح والضروريات التي لا بقاء له بدونها وذلك التعاون والتشارك لا يتم إلا بائتلاف ومعاملة واختلاط ومصاحبة ولا ينتظم ذلك إلا بتحقيق الرّوابط بينهم احناجوا إلى تلك الرّوابط و أعظمها المودة التي هي من فروع الاعتدال في القوة الغضبية وهي من جملة نعوت الكاملين وصفات العاقلين إذا العاقل الكامل يعلم أن مودته للناس مستلزمة لمودتهم ومودة أتباعهم وخدمهم وحواشيهم له ويجلب لنفسه من مودة واحد مودة أشخاص كثيرين له وذلك مستلزم لتفهمهم له وعدم مضرّتهم إيّاه وميل قلوبهم إليه وأنسهم به ومعاونتهم له ومدافعتهم عنه وبذلك يتم نظامهم وصلاح حالهم في الدنيا والآخرة ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «النود نصف العقل (١)» وأما ضدها أعني العداوة التي من فروع الإفراط في القوة المذكورة فهو من جملة نعوت القاصين وصفات الجاهلين إذا الجاهل لغفلته عن سوء العاقبة وخامتها يظن أن عداوة الناس خير له ويغفل عن حصولها فيهم بالنسبة إليه أيضاً وعن بعدهم منه ونفارهم عنه المستلزمين لفساد نظامه وعدم حصول مرامه وتضييق ماله وتغير حاله في الدنيا والآخرة.

(والوفاء وضده الغدر) وفي بعده وأوفى به وفاء وهو وفي إذا قام به وأتمه وهو فضيلة مندرجة تحت العدالة كما أن الغدر الذي هو ضده يعنى نقض العهد رذيلة مندرجة تحت الفجور وبه يشعر قول أمير المؤمنين عليه السلام: «كل غدرة فجرة وكل فجرة كفر» (٢) هذا أشرف الضروب من الشكّل الأول ينتج كل غدرة كفر، والوجه في لزوم الكفر للغادر إن استحل الغدر ظاهر وإلا فالمراد

(١) النهج أبواب الحكم رقم ١٤٢.

(٢) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٩٨.

بالكفر كفر نعم الله تعالى وسترها بإظهار المعصية والمخالفة كما هو المفهوم
 المغوي من لفظ الكفر ثم للموفاء مراتب: الأولى الوفاء بكلمتي الشهادة وثمرته حفظ
 النفس والمال ، والثانية الوفاء بالعبادات المفروضة والمندوبة وثمرته الثواب
 الجزيل والأجر الجميل في الآخرة ، والثالثة الوفاء بترك الكبائر والاجتناب
 عن الصغائر وثمرته النجاة من الجحيم والتخلص من العذاب الأليم ، والرابعة
 الوفاء بالفضائل النفسانية والاجتناب عن رذائلها وثمرته الترقية إلى عالم الرُّوحانيين
 والتشبه بالملائكة المقرَّبين (١) والخامسة الوفاء بعهود الناس ومواثيقهم الموافقة
 لقوانين الشرعيَّة وثمرته استبقاء نظامهم واستكمال مقاصدهم وسراهم والسادسة
 وهي أعلى المراتب وأسناها التعرُّى عن الأغذية البشريَّة بالتجريد والاستضاء
 بالأَنْوار الرُّبوبيَّة والاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن
 غيره (٢) وثمرته الفوز بالكرامة في دار المقامة والاستبشار باللقاء الدائم كما قال

(١) هذا أعلى من الثواب الجميل حيث جمعه في المرتبة . (ش)

(٢) هذا يسمى بالفناء في اصطلاح العرفاء ويصرح بذلك عن قريب ومرفى الصفحة
 ٢٣٥ نقل حديث وكلام عن المجلسي (ره) في الفناء ثم نقول الفناء ثابت فمهر الكل وجود
 ممكن سواء اعترف بالإنسان ووجده في نفسه أم لا لأن الممكن لاستقلاله في الوجود
 وليس بشيء ينظر إليه بل هو معنى حرفي كما قال الشاعر «الأكمل شيء ما خلا الله باطلاً» و
 استحسنته النبي (ص) وإنما ينكره الإنسان الطبيعي لأنه يتوهم نفسه وأمثاله شيئاً فإذا
 عرف الوجود حق المعرفة ووجد نفسه وكل شيء قائماً في الحق كما هو الواقع وغلب
 سره على وهمه وعقله على طبعه واستغرق في التوحيد وغفل عن نفسه لانه لا شيء ذي
 الحقيقة فقد بلغ أعلى المراتب وأسناها إذ عرف الوجود على ما هو عليه وقال العاقل
 المجلسي (ره) في أوائل كتاب عين الحيرة بعد نقل معنى علم اليقين وعين اليقين وحق
 اليقين من المحقق الطوسي هذا أعلى مراتب المعرفة ويعبرون عنه بالفناء في الله واستشهد بالرواية
 المشهورة «لا يزال يتقرب إلى العبد بالنوادر» ويقول تعالى «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله»

سبحانه « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ولعل حذف مفعول الوفاء للدلالة على تعميمه وشموله لهذه المراتب كلها وللفرد أيضاً مراتب تعلم بالمقايسة و المرتبة الخامسة من الوفاء إنَّما تطلب وتمدح إذا كان المعاهد عليه باقياً على عهده و شرطه وإلا فالوفاء حينئذ غير ممدوح بل هو مذموم كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « الوفاء لأهل الغدر عند عند الله والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله (١) » يعني أن إيفاء العهد والعمل بمقتضاه لأهل الغدر ترك العهد و نقضه في حكم الله تعالى و يترتب عليه أثره ، والغدر في حقهم وفاء وذلك إذا كان الغادر على الحق لأنَّ الموفي حينئذ يمدحهم على المعصية والغادر لا .

(والطاعة و ضدّها المعصية) الطوع والطاعة : الإذعان والانقياد ، يقال : طاع له يطوع إذا انقاد ، والعصيان والمعصية خلاف الطاعة ، يقال : عصاه يعصيه عصياً ومعصية و عصياناً إذا خالفه والمراد أن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ و طاعة أُولى الأمر من جنود العقل إذا العقل بها يصعد إلى منازل البرار ويستعد لمرافقة الأخيار كما قال الله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وقال : « وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

« و بالحدیث « اتفقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » وما روى في احاديث الإمامة « بى يسمع وبى يبصر وبى يشى وبى ينطق » ثم تناول في الاحاديث بما كان متقدراً في ذهنه من تتبع اقوالهم و لكنه لم يفرق بين الفناء الذى هو حاصل لكل ممكن والفناء الحاصل للمكمل فى منتهى سلوكهم وقال معترضاً عليهم : ان الفناء لجميع الممكنات عندهم فكيف يخصون به المقربين والجواب ان الفناء حاصل للجميع لكن وجدانه والاعتراف به حاصل للكاملين فقط الا ترى ان تحقق الشئ غير الاعتراف به وقد اتفق له قدس سره ذلك مثلاً ما كنا نعلم ان الشيخ صفى الدين جد السلاطين الصفوية كان له مقام عظيم في العرفان والعلم ونظنه كبعض المدعين اذا لم نرمه اثره يدل على ذلك حتى رأينا فى كتاب عين الحيرة المجلدى سدم وصفه بسلطان العلماء والمحققين وبرهان الاصفياء والكاملين الشيخ صفى الدين فعلمنا فضله وفضل الشيخ واقعا لا بالازم الاعتراف به من كل احد .

عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» ولم يذكر طاعة أُولى الأمر في هذه الآية لأن طاعتهم طاعة الرسول كما يرشد إليه عطفهم على الرسول في الآية السابقة من غير إعادة الأمر بطاعتهم ثم إن النافع مجموع هذه الطاعات دون بعضها كما يرشد إليه قول الصادق عليه السلام «وصل الله طاعة ولي أمره بطاعة رسوله و طاعة رسوله بطاعته فمن ترك طاعة ولاية الأمر لم يطع الله ولا رسوله (١)» فالمعصية المقابلة للطاعة هي ترك هذه المجموع سواء كان تركه بترك جميع أجزائه أو بترك بعضها وهي ذنبلة مندرجة تحت الجور موجبة المدخول في النار كما قال سبحانه «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مبين».

(والخضوع وضدّ النطاوّل) في الصحاح الخضوع النظام والنواضع وفي الكشف الخضوع التّلبّس والانتقياد والنطاوّل إظهار حصول الطول بالفتح يعني الفضل والعلو، و سرّ كون الأول من صفات العاقل والثاني من صفات الجاهل أن العاقل يعرف بنور بصيرته، أن له تعالى شأنه العلو المطلق لافتقار كلّ شيء إليه وله اعلام الوجود لدلالة كلّ شيء عليه وله العزة لكون كلّ موجود سواء مقهوراً في تصريف قدرته، وموصوفاً بالعجز في جريان حكمه ومشيّته، وله خشوع جميع الممكنات وخضوعها في رقّ الحاجة والامكان لانفعالها عن سطوته، وله قواوم جميع الموجودات وقيامها بالتدالّل من عظمته ويعرف أن إليه فزع كلّ ملهوف ومنه غنى كلّ فقير وعزّ كلّ ذليل وقوّة كلّ ضعيف فيوصله تلك المعارف والكمالات إلى أعلى الفضائل وأشرف المقامات وهو مقام الفزع إلى الله بالتخشّع والتخضّع والتدالّل والنواضع وتطيب القلب وتلين السرّ فيحصل له حينئذ قلب خاضع وزهن واله ودمع منهمل وعقل مرتحل، ويؤثر ذلك في جوارحه إذ هي تابعة للقلب ومنه يظهر سرّ ما روي من أن لسان المؤمن من وراء قلبه، فيصدر حينئذ من جميع أعضائه الظاهرة والباطنة أفعال مناسبة في الخشوع وأعمال متناسقة في

الخضوع و في ذلك مراتب متفاوتة و درجات متصاعدة أرفعها الوصول إلى ساحة الحق والفناء المطلق (١) والطيران في حظائر القدس بأجنحة الكمال مع الملائكة المقرئين ، بخلاف الجاهل فإنه لخلوه عن تلك الحالات و غفلته عن تلك المعارف والكمالات محبوس في ظلمات الطبيعة بعيد عن النشرف بشرف تلك الفضيلة إذ قلبه في وادٍ و جوارحه في وادٍ آخر فلذلك أعماله غير منتظمة بروابط الخضوع و أفعاله غير متعلقة بعلائق الخضوع و هو مع ذلك يعتقد لنفسه فضيلة كاملة و رفعة بالغة و رتبة فائقة (٢) وهذا معنى التناول و حقيقة النفاضل كما هو المشاهد من

(١) الفناء المطلق في اصطلاح العرفاء و هو أعلى مدارج السالكين و قد سبق إشارة إليه في بعض الحواشي و أوردنا فيه حديثاً من كتاب عين البصيرة للمجلسي رحمه الله تعالى و ذكرنا تأويله للحديث بما يوافق مذاقه و لا يوافق مذاق الشارح رحمه الله (ش)
(٢) هؤلاء جماعة من الناس محبسون في ظلمات الطبيعة لا يعترفون بغير الموجود الجسماني و لا حقيقة عندهم غير الجسم و ادراك الجسم الماهو بالجواس فلا يعتمدون على غير الحس و يأولون جميع السمات الحقيقية بالذات الروحانية إلى الجسمانيات حتى تكون شيئاً يدرك بالجواس و اذا تصدوا لتعلم العلوم اختاروا شيئاً يدرك بالسمع والبصر لا بالعقل والفقه والاصول والكلام صعب عليهم لتوقفها على مقدمات تدرك بغير السمع والبصر كالاجماع والتواتر والقواعد العقلية التي تستعمل لاستفادة المعنى من اللفظ وانما يسهل عليهم الحفظ والضبط فيدركون نقش الكتابة بالبصر واصوات الكلمات بالسمع يحفظونها و يضبطون أدق و اكمل من العلماء المدققين والكاملين لعدم توجه نفوسهم و انهماهم إلى غير النقوش والاصوات وهذا عندهم فضيلة وليس لهم هم بنهذيب النفس والكمالات بل يختارون في العمل أيضاً شيئاً محسوساً مثلاً اسباغ الوضوء و طول الركوع و تكثير الاذكار والذئطع في اخراج الحروف من مفاطمها من امور محسوسة و اما التوبة وحضور القلب و تخلصه من العجب والرياء فامور غير محسوسة لا يهتمون بها كثيراً و مع ذلك فليس هذا عيباً و مذمة الا اذا نظرنا إلى علماء و زعماء انفسهم اعلى درجة منهم و نسبواهم إلى الضلال و ترك طريقة أهل البيت عليهم السلام كما كان دأب كثير من معاصري الشارح ر ه . (ش)

الجهالة والمعلّم من السفلة و ينبغي أن يعلم أن الخضوع والخشوع والنواضع وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينهما فرقاً ما لأنّ الادّعاء واللين إذا حصل في القلب فمن حيث إنّهما يوجبان انكساراً و افتقاراً و تذللاً خضوع و من حيث إنّهما يوجبان الخوف والخشية والعمل خشوع و من حيث أنّهما يوجبان انحطاط رتبة عن الغير و تعظيم ذلك الغير تواضع وقد يفرق بين الخضوع والخشوع بأنّ الخضوع بالقلب والخشوع بالجوارح ، و بين الخضوع والتواضع بأنّ التواضع عدم اعتقاد المزية بالنسبة إلى الأدنى في الجاه والمنزلة و الخضوع أعمّ أو مختصّ بالنسبة إلى الأعلى .

(والسلامة و ضدّها البلاء) ليس المراد السلامة من الأمراض البدنيّة و الابتلاء بها لما روي عن الصادق عليه السلام : إنّ أشدّ الناس ابتلاء الأنبياء ثمّ الذين يلونهم ثمّ الأمثل فالأمثل (١) ، والسلامة من الفقر والابتلاء به لما روي عنه عليه السلام : قال الله تعالى يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته (٢) ، إلّا أنّ يخصّص الأمراض والفقر بما يوجب كسر الظهر والفنّة في الدّين فأنّه قد تنقل الاستعادة منهما عن أهل العصمة عليهم السلام ، بل المراد السلامة عن إيذاء المسلمين والابتلاء به كما روي « المسلم من سلم المسلمون من يده و لسانه » (٣) ، والسلامة من الأمراض النفسانيّة والآراء الفاسدة والعقائد الباطلة مثل الكفر والكبر والحقد والحسد والتناق و غيرها والابتلاء بها ، فإنّ الأوّل من جنود العقل وأنصاره لكونه من شعب العدالة الواقعة في حاق الوسط ، والثاني من جنود الجهل لكونه من فروع الجور الواقع في طرف الافراط .

(١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب شدة ابتلاء المؤمن .

(٢) المصدر باب فضل فقراء المسلمين تحت رقم ١٢ .

(٣) أخرجه أحمد والحاكم والنسائي وابن حبان والترمذي والبخاري وأبو داود

ومسلم كما في الجامع الصغير .

(والحب و صدّه البغض) الحب بالضم والكسر والمحبة ميل القلب إلى ما يلائمه ، والبغض المقت وقد بغض الرجل بغضة أي صار بغيضاً ، وبغضه الله إلى الناس تبغيضاً فأبغضوه أي مقتوه ، ولعل المراد أن حب الخلق بعضهم بعضاً من جنود العقل و بغضهم من جنود الجهل ، لأن العاقل يعلم أن نظام الدنيا والدين لا يتم إلا بالمحبة فلذلك يختارها تحريراً عما يلزم البغض من التقاطع المستلزم لتطاول الحاسدين و تسلط المعاندين ، ومن الشارح المستتبع لعدم الثبات والقرار والمؤدي بالأخرة إلى الهلاك والبوار ، وإن أردت أن تعرف أنك تحب أحداً فاجعل نفسك ميزاناً فيما بينه وبينك فإن كنت تحب له ما تحب لنفسك و تكره له ما تكره لنفسك فأنت تحبه وهو حبيبك وإلا فلا ، بخلاف الجاهل فإنه لظلمة بصيرته غافل عن حسن عاقبة المحبة وسوء عاقبة البغض فيظن أن البغض خير له في تحصيل مقاصده فيختاره ويسوق سفينة البغضة في بحر الغواية بريح الغباوة إلى أن يدركه الغرق من حيث لا يعلم ، و ينبغي أن يكون أعظم محبتنا لعباد الله تعالى محبتنا لرسول الله ﷺ و عترته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين لشرافة ذاتهم و جريان نعمائهم ظاهراً و باطناً علينا ووصول إحسانهم جلياً و خفياً إلينا وبالجملة محبة الشيء ، إما لحسنه في الظاهر كالصور الجميلة أو في الباطن كحسن بواطن الصالحين و شرافة نفوسهم ، أو لإحسانه بجلب نفع و دفع ضرر كإحسان الناس بعضهم بعضاً ، أو لإعظامه كاعظام الولد والد ، أو لترحمه وشفقته بحسب الجدة و المشاكلة كترحم الوالد على ولده وقد اجتمع الجميع فيهم ﷺ لما فيهم من جمال الظاهر والباطن و إحسانهم إلينا بالهداية والشفاعة و عظمة شأنهم وإنافة قدرهم على كل والد وولد و محسن فلذلك وجب علينا محبتهم على أكمل الوجوه و أتمها و من محبتهم الذب عن سنتهم و نصر شريعتهم والنسك بطريقتهم وبذل النفس والمال دون مهجتهم والوقوف عند حدودهم وإعانة أهل ملتهم ، أو المراد أن حب العباد لله من جنود العقل و بغضه من جنود الجهل لأن محبة العبد لله تعالى شأنه إنما هي على قدر معرفته بجلاله سبحانه و كمال أوصافه و تنزيهه عن النقص ، والعاقل هو

الذي يعرف جماله و جلاله و كماله و قدرته و عظمته و إحسانه فعند شروق أنوار هذه المعارف على مرآة سرّه و بروق آثار الأعمال الصالحة في مشارق قلبه بمطر الله عليه أسباب الحبّ و يكشف عنه الحجاب و تجذبه العناية الأزليّة إلى بساط القرب و تسقيه من ماء المحبّة و تنجيه من هذا السراب ، و أمّا الجاهل فأنه لا يعرف من هذه المعارف اسماً و لا من هذه الأسماء رسماً و لا من هذه الأعمال حداً فكيف له الوصول إلى مرتبة المحبّة التي هي المرتبة العليا للمساكين ، والدرجة العظمى للعاقليين ، والمنزلة الكبرى للزّاهدين ، بل هو بطبعه هارب عن عسالم النور مستقبّل إلى دار الغرور و هذا معنى بغض العبد له تعالى أعاذنا الله من ذلك ، و اعلم أن الفرق بين الحبّ و المودّة و بين البغض و العداوة دقيق جداً حتّى أنّه قد ظنّ رجوع هذه الفقرة إلى قوله **وَالْمُودَّةُ وَضَدُ الْعَدَاوَةِ** وإنّ إحداهما كانت بدلاً عن الأخرى جمع بينهما في الكتابة قلم الناسخ ولكن ظاهر قوله تعالى **وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ** يفيد المغايرة ، و يمكن القول بتحقيق المغايرة بأنّ المودّة ميل ظاهر القلب و المحبة ميل ظاهره و باطنه و به يشعر قوله تعالى **وَقَدْ شَغَفَهَا حُبّاً** فالمحبّة أعظم من المودّة أو بأنّ المودّة و العداوة من الأمور القلبية و الكيفيات النفسانيّة مع قطع النظر عن ظهور آثارهما من الجوارح و المحبّة و البغض من هذه الأمور و الكيفيات مع اعتبار ظهور آثارهما منها و يؤيّد قول القاضي في تفسير الآية المذكورة فلا تتوافق قلوبهم و لا تتطابق أقوالهم فليتماثل .

(والصدق و ضدّه الكذب) صدق الخبر بمطابقة حكمه للواقع و كذبه بعدم مطابقته له لا بمطابقته لاعتقاد المخبر و عدمها ، كما ذهب إليه النظام و لا بمطابقته لهما و عدمها كما ذهب إليه الجاحظ لأنّ العقلاء يصفون كلّ خبر علموا أنّه ليس مطابقاً للواقع بأنّه كاذب ، وإن لم يعلموا اعتقاد المخبر ، والمسلمين يصفون اليهود و المنصاري بالكذب على الله و إن كان أكثرهم لا يعلم أنّه كاذب بل يعتقد أنّه صادق و أورد عليه أولاً بأنّ قول القائل **عَدُوٌّ لِي** و مسيلمه صادقان خبر وليس مطابقاً للواقع ولا غير مطابق له و أوجب بأنّه كاذب باعتبار إضافة الصدق إليهما لأنّه غير

مطابق ، وقد يجاب بأنه كاذب لأنه يفيد صدق أحدهما في حال صدق الآخر ، ورد بان التثنية لاتفيد المصاحبة و ثانياً بأن قول القائل كل كلامي في هذا اليوم كاذب ولم يوجد منه سوى هذا الكلام ليس مطابقاً للواقع وإلا لكان غير مطابق فيجتمع النقيضان وليس غير مطابق وإلا لكان بعض أفراد مطابقاً وليس إلا هذا الفرد فيجتمع النقيضان ، وأجيب بأن الصدق والكذب إسماء يعرضان لخبر مغاير للمخبر عنه حتى يتصور فيه المطابقة فيحكم بصدقه وعدمها فيحكم بكذبه وهناقداً متحداً فلا يدخله الصدق والكذب وللبحث فيه مجال واسع واستدل النظام بقوله تعالى وإذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فانه تعالى شأنه أخبر بأنهم كاذبون في قولهم إنك لرسول الله مع أنه مطابق للواقع فلو كان الصدق عبارة عن المطابقة للواقع لما صح فالكذب ليس باعتبار أنه غير مطابق للواقع بل باعتبار أنه غير مطابق لاعتقادهم ، وأجيب بأن المعنى والله يشهد أنهم لكاذبون في قولهم إنك لرسول الله من عند أنفسهم لأن هذا الخبر كاذب غير مطابق للواقع عندهم أو أنهم لكاذبون في لازم فائدة هذا الخبر وهو كونهم عالمين بمضمونه أو أنهم لكاذبون في « تشهد » باعتبار تضمنه خبراً كاذباً ، وهو أن شهادتنا هذه من صميم القلب و خلوص الاعتقاد بحيث و اطأت فيه قلوبنا ألسنتنا كما يشعر به « أن » واللام واسمية الجملة ، فكذبهم الله تعالى لعلمه بعدم المواظاة بين قولهم و قلوبهم . أو أنهم لكاذبون في دعوى الاستمرار المستفاد من تشهد ، أو أنهم لكاذبون في حلفهم على عدم النسي عن الاتفاق على فقراء المهاجرين أو أنهم لكاذبون يعنى إن شأنهم الكذب فالتكذيب ليس في هذا الخبر بل مطلق فكأنه قيل : إنهم و أن صدقوا في هذا الخبر لكن صدقهم فيه لا يخرجهم من زمرة الكاذبين فإن الكذب قد يصدق ، واستدل الجاحظ بقوله تعالى حكاية عن المشركين « افترى على الله كذباً أم به جنة » فانه بهم حصروا خبر النبي بالحشر والنشر والتوحيد في كونه كاذباً أو كلام مجنون ولا شك أن المراد بالثاني غير الكذب لأنه قسيمه وقسيم الشيء يجب أن يكون

مبايناً له و غير الصدق لاعتقادهم عدمه ولعدم دلالة الثاني عليه فقد أثبتوا بين
الصدق والكذب واسطتين إحداهما عدم مطابقة خبر النبي ﷺ للواقع مع شكته في
المطابقة والأخرى عدم مطابقته له مع اعتقاده المطابقة بأن يكون اعتقادهم العاسد
أن عدم مطابقة هذا الخبر بلغ بمرتبة لا يخفى على من له شايبة عقل فالشك في
المطابقة لا يكون إلا من مجنون فكيف اعتقاد المطابقة ، ولا شك أن الوسطة إنمّا
يكون إذا اعتبر في الصدق والكذب مطابقة الخبر للواقع والاعتقاد جميعاً وعدمها
لهما إذ لا واسطة عند اعتبار المطابقة للمواقع وعدمها ولا عند اعتبار المطابقة للاعتقاد
وعدمها ، و أجب بأن ترديدهم لخبره ﷺ ليس بين الكذب المطلق والاختبار
حالة الجنون ، بل إنمّا هو بين الافتراء ، وهو الكذب عن عمد وعدمه فمعنى قوله
« أم به جنّة » أم لم يفتر فعبروا عن عمد الافتراء بالجنّة كناية عن أن المجنون
لا يفترى فقد جعلوا قسم الكذب عن عمد الكذب لاعن عمد فيكون مقصودهم حصر
خبره الكاذب في نوعيه ولما كان هنا فوائد جمّة و فروع متكثّرة لا ينيسر
القول بها إلا بتحقيق معنى الصدق والكذب أطبقنا القول فيه ومن تلك الفوائد
لو أخبرك أحد بشيء فقلت: إن كنت صادقاً فله عليّ كذا فإن كان مطابقاً
للواقع فقط لزمك الوفاء به على الأوّل دون الآخرين وإن كان مطابقاً للاعتقاد
فقط لزمك الوفاء به على الثاني دون الآخرين وإن كان مطابقاً لهما لزمك
الوفاء عند الجميع ومنها لو شهد عليك رجل فقلت هو صادق فهو إقرار على الأوّل
والآخر دون الثاني ، ومنها لو حلف رجل أن لا يكذب ثم أخبر بما لم يكن مطابقاً
للواقع فقط أو للاعتقاد فقط أولهما فإنه في الأوّل يحث على المذهب الأوّل
دون الآخرين ، وفي الثاني يحث على المذهب الثاني دون الباقيين ، وفي الثالث
عند الجميع ، ومنها لو حلف أن لا يتكلّم اليوم بكلام صادق وكاذب فإنه يحث إذا
تكلّم على الأوّلين دون الأخير فإن فيه مفرّجاً عن الصدق والكذب ومنها لو حلف
أن لا يعطي كاذباً فإنه يختلف فيه الحكم أيضاً كما لا يخفى وأمثال ذلك كثيرة.
واعلم أن الصدق فضيلة عظيمة داخلّة تحت فضيلة العفة وقد وقع مدحه و مدح

المتصف به في مواضع من القرآن والأخبار و يكفي في ذلك قوله تعالى « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » والكذب رذيلة داخلية تحت الفجور وقد نطقت الآيات والأخبار على ذمّه و ذمّ المتصف به ، قال رسول الله ﷺ : « الكذب رأس النفاق وهو مفسدة عظيمة في الدنيا و الدين (١) » والوجدان شاهد عدل بأن الكذب يسود لوح النفس ويمنعه أن ينتقش بصورة الحق ويفسد المنامات والالهامات ويؤدي إلى خراب الدنيا و قتل النفوس و أنواع الظلم والفساد ولذلك اتفق أهل العلم من أرباب الملل و غيرهم على تحريمه وادّعى المعتزلة قبحه بالضرورة .

(والحق و ضدّه الباطل) هذا والسابق عليه متقاربان لأنّ الخبر والاعتقاد إذا طابقا الواقع كان الواقع أيضاً مطابقاً لهما لأنّ المفاعلة من الطرفين فمن حيث أنهما مطابقان أو غير مطابقين له بالكسر يسميان صدقاً و كذباً ومن حيث أنهما مطابقان أو غير مطابقين له بالفتح يسميان حقاً و باطلاً المقصود أن اختيار هما من جنود العقل والجهل، ويحتمل أن يراد بالحق الدّين الحق المسمّى بالصراط المستقيم وبالباطل الدّين الباطل الدّاعي إلى سواء الجحيم وأن يراد بالحقّ الاقبال على الله و بالباطل الادبار عنه ولا واسطة بينهما ، فوجود كلّ واحد مستلزم لعدم الآخر و عدم كلّ واحد مستلزم لوجود الآخر .

(والامانة و ضدّه الخيانة) الأمانة مصدر أمن الرّجل أمانة فهو أمين إذا صار كذلك برعاية مائتمن عليه من حقوق الحقّ أو الخلق و أدائه في وقته كما هو هي تدخل في أفعال الأعضاء والجوارح كلّها لأنّ القلب إذا استضاء بنور البصيرة يهتدى كلّ عضو إلى أمانته و يسعى في حمايتها و حفظها و أدائها على ما ينبغي كما تدخل الخيانة وهي مصدر خانه إذا ترك الحفظ في تلك الأفعال ومنه قوله تعالى « يعلم خائنة الأعين » أي مسارقتها وكثيراً ما تطلق الأمانة على ما تائمن به صاحبك مجازاً على سبيل المبالغة ومنه قوله تعالى « والذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون » أي لما يؤتمنون عليه من جهة الحقّ أو الخلق و قوله تعالى « إن الله يأمركم

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل هكذا « الكذب باب من أبواب النفاق » الحديث .

أن تؤدّ أو الأمانات إلى أهلها ، وفي روايات متكثّرة (١) تصريح بأنّ المراد بأهل الأمانة في هذه الآية الامام عليه السلام وأنّ الله تعالى أمر الامام الأوّل أن يدفع إلى الامام الذي بعده كلّ شيء عنده من أمر الامامة وقوله تعالى وإنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، إنّه كان ظلوماً جهولاً ، روي عن الصادق عليه السلام أنّ المراد بالأمانة ولاية أمير المؤمنين عليه السلام (٢) ، وقيل : المراد بها العبادة والطاعة المطلوبة من الانسان وسمّاها أمانة من حيث أنّها يجب حفظها و أدائها في وقتها . وإباء الأجرام المذكورة يعود إلى امتناع قبولها خوفاً وإشفاقاً بلسان الحال لقصورها وعدم صلاحيتها لها بحسب الطبع أو إلى الفرض والتقدير كأنّه قيل : لو كانت هذه الأجرام عاقلة ثمّ عرضنا عليها لأبين أن يحملنها خوفاً وإشفاقاً من وخامة عاقبتها وإتمام جرمي ، بل يفظ الواقع لأنّه أبلغ أو إلى أنّه تعالى خلق فيها عقلاً وفهماً ثمّ عرض عليها على سبيل التخيير ، فأبين إباء عجزوا واحتقار وخوف وانكسار لإباء استكبار لخضوعها تحت ذلّ الحاجة ثمّ خلق الانسان وعرضها عليه فقبله وحمله مع ضعف بنيته ورخاوة قوّته إنّه كان ظلوماً لنفسه بعدم محافظته لها وتقصيره في أداء حقوقها جهولاً بأسرارها وبما يستلزم حفظها وفعلها وتركها من المثوبات والعقوبات .

(والخلوص و ضدّه الشوب) الشوب الخلط وهو مصدر شبت الشيء أشوبه شوباً فهو مشوب إذا خلط بغيره والخلوص مصدر خلص الشيء بالفتح . يخلص خلوصاً أي صار خالصاً صافياً غير ممزوج بغيره ، والعمل الخالص في العرف ما يجرّد قصد التقرب فيه عن جميع الشوائب وهذا التجريد يسمّى إخلاصاً وقد عرفه بعض أصحاب القلوب بتعريفات آخر ف قيل : هو تنزيه العمل عن أن يكون لغير الله فيه نصيب ، وقيل : هو إخراج الخلق عن معاملة الحقّ ، وقيل : هو ستر العمل عن الخلاق وتصفيته عن العلايق ، وقيل : أن لا يريد عامله عوضاً في الدارين . و

(١) سيأتي في كتاب الحجة أخباره .

(٢) الكافي كتاب الحجة باب فيه نكت ونشف من التنزيل في الولاية تحت رقم ٢٠٢ .

هذه درجة عليّة قلّ من يبلغها وقد أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» ولو قصد العبد في عبادته مجرد وجه الله سبحانه وإطاعة أمره والتقرب إليه يرتقي بأجنحة القبول إلى منازل القرب وحظاير القدس قطعاً ولو قصد مجرد غيره ألبسه الله لباس الذلّ وأبعده عن ساحة رحمته وبساط قربه جزماً وأما لو قصده سبحانه وقصد غيره أيضاً فهو خطر عظيم ، و للمسلمين فيه كلام طويل تر كناه خوفاً للأطناي و نذكر ما أظنه حقاً والله تعالى هو المستعان فنقول : الضميمة إما قصد الثواب أو التحرّز عن العقاب أو قصد الرّياء أو قصد الأمور اللازمة للعبادة كقصد النخلص من النفقة بعثق العبد في الكفارة و غيرها وقصد التبرّد (١) بالوضوء ، أمّا الأول فالظاهر صحّة العبادة لقول الصادق عليه السلام «العباد ثلاثة قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد ، و قوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء ، و قوم عبدوا الله عز وجل حباً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة (٢) فان صيغة أفضل تفيد وجود الفضل في الأولين وهو المطلوب . وقول الباقر عليه السلام «من بلغه ثواب من الله تعالى على عمل فعمل ذلك العمل التماس ذلك الثواب أوتيّه و إن لم يكن الحديث كما بلغه (٣) ، ولغير ذلك من ظواهر الآيات والأخبار ، و أما الثاني فالظاهر بطلانها لقوله تعالى «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً»

(١) قال بعض شراح الشرائع : ان قصد التبرّد مبطل بعد ان حكم المحقق بصحته و لعله أراد أن يكون الداعي الى الفعل التقرب بحيث لو لم يكن التقرب لم يتوضأ ، و ان ضم التبرّد اليه . (ش)

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب العبادة .

(٣) يعني ما اذا كان العمل مستوفياً في الكتاب والسنة من دون تقدير الثواب العاجل أو الاجل ، واما اذا كان العمل غير مستوفى فلا أجر له أبداً ان لم يكن عليه وذر لقول النبي (ص) «لا قول الا بعمل ، ولا قول ولا عمل الا بنية» ولا قول ولا عمل ولا نية الا بصاحبة السنة ، والخبر في الكافي كتاب الايمان والكفر باب (من بلغه ثواب من الله على عمل) .

صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، وقول الصادق عليه السلام لعباد البصري : يا عباد
إيّاك والربّ يا ، فأنه من عمل لغير الله و كله الله إلى من عمل له (٤) ، و لغير ذلك من
الآيات والآيات ، وأمّا الثالث فالقول بالتفصيل - وهو أن العبادة صحيحة إن
كانت هي المقصودة بالذات والضميمة مقصودة تبعاً ، و باطلّة إن انعكس الأمر أو
تساويا - غير بعيد (٢) وإن لم نجد عليه دليلاً تقلياً و الاحتياط في الجميع ظاهر
و بعض الأفاضل حكم بالتفصيل في الأقسام الثلاثة و هو بعيد جدّاً سيما في الرياء
لدلالة الآيات والأخبار على بطلان العبادة لأجل انضمام الرياء إليها و الظاهر
أنه لا خلاف فيه بين أصحابنا قال المحقق الشيخ علي (٣) ضمّ الرياء إلى القرينة
يبطل العبادة قولاً واحداً إلا ما يحكي عن المرتضى أنه يسقط الطلب عن المكلف
ولا يستحق بها ثواباً و ليس بشيء ، والخلوص من جنود العقل و أنصاره والشوب
من جنود الجهل و أعوانه و ميدان مجادلتهم و معارضتهم ساحة القلب وذلك لأن
العقل ميله الصعود إلى عالم القدس وقصده تسخير عالم الملك والملكوت و خلوص
العمل بعينه على ذلك ، و الجهل ميله الهبوط إلى عالم الحس و منازل النسيان
و قصده النزول في محلّ البعد و بساط الخذلان و شوب العمل بالرياء و غيره
من التدليسات النفسانية والتلبسات الشيطانية و المخاطرات الوهميّة يعينه
على ذلك .

(والشهامة وضدها البلاهة) عند المحقق الطوسي الشهامة من أنواع الشجاعة

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الرياء تحت رقم ١

(٢) خبر لقوله « فالقول بالتفصيل » ولا يحتاج الى تصريح به في خبر بل يكفي الادلة

الدالة على وجوب الاخلاص وابطال تشريك غير الله معه في النية فيقال : اذا كان المقصود
بالذات التقرب لم يقدح في الاخلاص ضم غيره تبعاً والعلامة على ذلك أن يعرض المأبد
على نفسه هل كان يصدر هذا العمل منه ان لم تكن الضميمة فان أحس من نفسه أنه يصدر منه
كان العمل صحيحاً (ش) .

(٣) يعني الشيخ علي بن عبد العالي النكر كي - قدس سره -

الحاصلة من الاعتدال في القوة الغضبية وفسرها بأنها حرص النفس على اقتناء الأمور العظام توقعاً للذكر الجميل وهذه ليست بمرادة هنا لأن البلاد ليست بضدّها وليس لصدّها أيضاً اسم مشهور ، بل المراد بها ذكاء الفؤاد يقال : شهيم بالضم - شهامة فهو شهيم أي جلد ذكي الفؤاد فهي من توابع الاعتدال في القوة العاقلة. والبلاد وهي ضدّ الدّكاء يقال : بلد بالضم فهو بليد و تبلد أي تردد متحيراً ، من فروع التفريط والتقصان في القوة المذكورة ، و نعني بهذه البلاد ما كان من سوء الاختيار لاما كان من أصل الخلقة لأن المقصود هو الترغيب في تحصيل الأوّل وترك الثاني و ذلك لا يتصور إلا فيما كان فعله و تركه مقدوراً ، ثمّ كون الأوّل من جنود العقل والثاني من جنود الجهل ظاهر لأنّ الدّكاء سبب لعروج العقل إلى أقصى المدارج من مدارج المعارف الرّبّانية و ضدّه سبب لنزول النفس في أسفل الدّركات من مهالك الشبهات الظلماتيّة.

(والفهم و ضدّه الغباوة) قال بعض المحقّقين : لعلّ هذه الفقرة كانت في الأصل بدلاً عن قوله عليه السلام فيما مضى « والفهم ضدّه الحمق » والناسخون جمعوا بينهما في الكتابة غافلين عن البدليّة والمعنى واحد . ويمكن أن يقال : المراد بالفهم هنا الفطنة وهي جودة تهيّأ الدّهن لا كنساب العلوم و عبارة الأخرى هي إدراك المقصود من الخطاب بسهولة . والغباوة « كودن شدن و درنيا فتن » كما في كنز اللّغة يعني عدم فهم المقصود من الخطاب بسهولة و هذا المعنى غير المعنى المقصود من الفهم والحمق كما أشرنا إليه سابقاً ، وأمّا حمل الفهم هنا على الدّكاء الذي هو فوق الفهم المذكور سابقاً كما أشرنا إليه هناك و إن كان ممكناً ويحصل به المغايرة بين الفهمين لكن معنى هذه الفقرة حينئذ يرجع إلى الفقرة السابقة عليها أعني قوله : « والشهامة و ضدّها البلاد » إذ هما واحد.

(والمعرفة و ضدّها الإنكار) المعرفة سراج القلب يرى بها خيره و شرّه و منافعه و مضاره ، وكلّ قلب لا معرفة له فهو مظلم ، والمراد بها إمّا معرفة الأئمة و فضلهم و علوّ منزلتهم وهي أكمل فضائل العاقل لأنّه يعرف بنور معرفته أنهم

دعائم الاسلام وولايج الاعنصام والهداة إلى نور الدين وأن طلب العلم والفضيلة والوصول إلى أنوار الحكمة و أسرار الشريعة لا يتيسر إلا بوساطتهم ولا يتحصل إلا بعنايتهم ، و أنهم الذين عقلوا الدين عقل وعاية و رعاية لأعقل سماع ورواية (١) ولا يخالفون الحق أبداً ولا يتجاوزونه إلى رذيلة الإفراط والتفريط قطعاً وإنكار شيء من ذلك أو عدم معرفته من أخس رذائل الجاهل المغرور برأيه السقيم الراجع عن الصراط المستقيم ، أو المعرّاد بها معرفة الرب بصفاته وآثاره وأفعاله وكلامه.

(١) فإن قيل أليس الدين لجميع الناس والشريعة لعامةهم ؟ وهل ورد الكتاب والسنة إلا عنهم جميع الأمة وهل يتعمدون الأبطالواهر الالفاظ على ما يفهمون فإن كان هذا حقاً فمن سمع وروى لا بد أن يعرف معنى الكلام وظاهره اذ ليس الغرض من الرواية أن يحفظ اللفظ العربي من لا يعرف العربية كفاً لاسي يحفظ كلمة تركية لا يعرف معناها بل معنى الرواية أن يحفظ لفظاً يعرف معناه وهو حجة عليه فيما معنى قولهم «عقل وعاية» وقد ورد في الحديث مكرراً الترغيب في الوعاية وعدم الاكتفاء بالرواية ؛ قلنا نعم ورد الشريعة لجميع الناس وكلهم متعمدون بظواهرها على ما يفهم الكلام العربي ويشترك فيه كل من يعرف هذا اللسان ومثلك الناس مختلفون في فهم امور زائدة على المشترك بين الكل فمنها ما لم يأت وقت الحاجة اليه ولا يستتبع تأخير البيان فيها فيكون مجعلاً كاحوال القيمة حيث قال «قيم أنت من ذكر ربها» اذ ليس في الدنيا حاجة الى معرفة تفاصيلها ويجوز تأخير البيان عن وقت الخطاب ولعل مثل ذلك كثير في غير الاعمال البدنية واهل الرواية يكتبون بظواهر الالفاظ واهل الوعاية يتفاضلون في فهم ما لا يدل ظاهر اللفظ عليه وفي الالفاظ ما يشاد المعنى منها الى الذهن بحسب العادات كما يشاد من البيت الى الذهن البدوي الخيمة ومن مجيء الملائكة وخروج الروح التجسم .

وهذا كثير مثل «الله نور السماوات والارض» و «انا عرضنا الامانة على السموات والارض» و «هو الاول والاخر والظاهر والباطن» و «الملائكة باسطوا أيديهم» و مثله اختلافهم في معنى المرش والكرسي وانها العلم أو القدرة أو جسمان عظيمان واختلافهم في معنى السموات وانها اجسام لطيفة أو المراد منها عالم المجرّدات أو أريد به كل منها بحسب المواضع ، واختلافهم في يد الله ووجه الله وآيات الجبر والتفويض (ش) .

المعينين يناسب ما اشتهر من أن المعرفة إدراك شيء، ثانياً بعد الغفلة عن إدراكه أولاً وذلك أن الله سبحانه أخذ الميثاق على عباده بأنه ربهم وعباداً وكانوا عبده ورسوله وعلياً عليه السلام أمير المؤمنين وأوصيائه من بعده ولاية أمره و خزان علمه ثم نسوا بعد رقودهم في مراقد أصلاب الآباء ومهاد أرحام الأمهات وانغمارهم في بحار العوائق الجسمانية واستغفارهم بحجب العلايق البشرية تلك الموائيق القديمة والعهود الوكيدة فمن أيقظته صحبحة المواعظ الإلهية عن نوم الغفلة وجذبته أيدي الهداية الربانية عن تيه الظلمة وتوّر قلبه بنور الهداية والارشاد واستشرق ذهنه بضوء الطاعة والانقياد توجهه إلى مولاه ومقتداه بعد النسيان وحصل له بعد الغفلة فضيلة المعرفة وشرف الترقى إلى مقام أهل العرفان ومن غرق في بحار الشهوات ونام في مراقد الغفلات حتى صار بمنزلة الجمادات أو آل إلى النشابة بالموات ولم يؤثر فيه تلك المواعظ والنصائح ، ولم يحصل له التميز بين المحاسن والمقايح فهو غريق الغفلة والنسيان وأسير الغي والطغيان لا ينزجر عن الباطل انزعجاً ولا ينوجه إلى الحق إلا جهلاً وإنكاراً وينترك عنان الطبيعة في يد الهوى ويعرض عن ذكر المولى وهو غافل عن قوله تعالى : ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى .

(والمدارة و ضدّه المكاشفة) المدارة في حسن الخلق التي من فروع الاعتدال في القوة الغضبية تهمل ولا تهمل يقال دارأته وداريته إذا اتقىته وداجيته ولا يئنه ، والمقصود أن مداراة الخلق وترك مجادلتهم ومناقشتهم صديقاً كان أو عدواً ، عاقلاً كان أو جاهلاً ، من صفات العاقل كما يظهر ذلك بالاعتبار في حال الأنبياء والأوصياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل على تفاوت مقاماتهم وتفاضل درجاتهم ، هذا إذا اقتصروا في حقوقه وأما إذا اقتصروا في حقوق الله تعالى فوجب تقويهم واسترجاعهم بالحكمة والموعظة الحسنة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن افترق إلى الغلظة جاز عن قدر الضرورة من المواعظ

الحسنة في استجلاب طبائع الجهال إلى الحق و تأنيسهم به أن لا يحملوه عليهم دفعة فان ذلك ممّا يوجب نفارهم عنه و فساد نظام أحوالهم بل ينبغي أن يحملوه و يأنسهم به على التدريج قليلاً قليلاً و ربّما لم يمكنه تأنيسهم به إمّا لغموضه بالنسبة إلى أفهامهم أو لقوّة اعتقادهم في ضده فينبغي أن يخدعهم عن ذلك و يميلهم إليه بحسب ما يقتضيه الحكمة و ربّما يحتاج إلى إظهار الحق بصورة الباطل كاستدلال إبراهيم عليه السلام بأفول الكوكب بعد قوله : « هذا ربّي » على نقصها المنافي لاهيئتها و المكشوفة من ردائل الأخلق للجهل و من فروع الإفراط في القوّة المذكورة و هي الخشونة و المناقشة و إظهار العداوة و إعلانها المؤدي إلى المخاصمة و المجادلة و المقابلة إلى غير ذلك من المفاصد و الشدائد الموجبة لفساد أحوالهم و بطلان نظامهم .

(و سلامة الغيب و ضدها المماكرة) الغيب ما غاب عن العيون و إن كان محصّلاً في نفسه و كان المراد به هنا القلب أو رجل غائب ، و المنكر الاحتيال و الخديعة و المقصود أن سلامة القلب و خلوصه من الغش و الاحتيال و الخدعة في المعاملة مع الإخوان و المعاشرة مع الخلان و غيرهم أو سلامة كلّ غائب من صفات العاقل لصفاء طبيئته و خلوص عقيدته و علمه بأن المؤمنين كنفس واحدة فلا يرضى لهم إلّا ما يرضى لنفسه و بأن المكر بهم مكرٌ بنفسه حقيقة كما قال سبحانه « ولا يحقّ المكر السيّء ، إلّا بأهلّه » بخلاف الجاهل المنغمس في ظلمة الجهالة فإنّه لكثرة طبيئته و فساد عقيدته يتخذ المكر منهجاً لمطالبة و مسلماً لمآربه و هو غافل عن سوء مآله عاجلاً و آجلاً و عن اختلال حاله ظاهراً و باطناً .

(و الكتمان و ضده الإفشاء) من شأن العاقل كتمان سرّه بوضعه في صندوق جنانه و عدم فتحه مفتاح لسانه و تحريم إبرازه على أوثق إخوانه فإنّك إذا لم تكن سرّاً فكيف تتوقع ذلك من غيرك و لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : « المرء احفظ لسرّه (١) » و قال أيضاً « من كتم سرّه كان الخيرة بيده (٢) » و قال أبو الحسن

(١) النهج أبواب الكتب و الرسائل تحت رقم ٣١ .

(٢) المصدر أبواب الحكم تحت رقم ١٦٢ .

عَنْ عَلِيٍّ: إِنْ كَانَ فِي يَدِكَ هَذِهِ شَيْءٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْلَمَ هَذِهِ فَاذْكُرْ، وَكَانَ عِنْدَهُ
أَنْفَاسٌ فَتَذَكَّرُوا الْأَذَاعَةَ فَقَالَ: احْفَظْ لِسَانَكَ تَعَزَّ وَلَا تُمْكِّنِ النَّاسَ مِنْ قِيَادِ رَقَبَتِكَ
فَتَذَلَّ (١)؛ وَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَعَلَيْكَ بِصَدِيقٍ قَدْ جَرَّبْتَهُ مَرَارًا وَغَامَتِ حِفْظَ لِسَانِهِ
سِرًّا وَجَهَارًا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «الطَّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الْاِخْتِبَارِ
عَجْزٌ» (٢) وَ مِنْ أَشْعَارِهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):

لَا تُودِعِ السِّرَّ إِلَّا عِنْدَ ذِي كَرَمٍ وَالسِّرُّ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَكْنُومٌ
وَالسِّرُّ عِنْدِي فِي بَيْتٍ لَيْسَ غَلَقٌ قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَالبَابُ مَخْتُومٌ
وَيَنْدَرُجُ فِيهِ كَيْفَانُ عَيْبِهِ وَمَعَاصِيهِ وَالْكَرَامَاتُ الَّتِي أَوْدَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَإِنْ
إِفْشَاءُهَا قَدْ يُوْجِبُ زَوَالَهَا وَ كَيْفَانُ دِينِهِ إِذَا تَوَهَّمِ الضَّرَرُ بِإِظْهَارِهِ قَالَ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)
لِسُلَيْمَانَ بْنِ خَالِدٍ: «يَا سُلَيْمَانُ إِنَّكُمْ عَلَى دِينٍ مِنْ كَيْفَانِهِ أَعَزَّ اللَّهُ وَمَنْ أَذَاعَ أَدْبَارَ لَهُ
اللَّهُ» (٣) أَمْرُهُ بِكَيْفَانِ دِينِهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ وَمِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَالَهُ وَ كَيْفَانِ عَيْبِ أَخِيهِ وَ
سِرِّهِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ بَلْ هُمْ مَعْدَنٌ وَاحِدٌ كَيْفَسَ وَاحِدَةً فَمَنْ أَذَاعَ مِنْهُمْ سِرًّا
أَحَدُهُمْ أَوْ عَيْبَهُ كَانَ كَمَنْ أَذَاعَ سِرَّ نَفْسِهِ أَوْ عَيْبِهِ وَقَدْ وَرَدَتْ الْآيَاتُ وَالرُّوَايَاتُ
الْمُتَكَثِّرَةُ عَلَى الْحَثِّ بِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» وَقَالَ: «إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ
آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ: «مَنْ أَذَاعَ فَاخِشَةً كَانَ كَمُبْتَدِيهَا» (٤) وَإِنْ أَوْدَعَكَ أَخُوكَ سِرًّا فَعَلَيْكَ أَنْ لَا
تُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا وَإِنْ كَانَ صَدِيقُكَ لَا تُخْبِرُ لِلصَّدِيقِ أَيْضًا صَدِيقًا وَقَالَ عُمَرَارُ: قَالَ لِي
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَخْبِرْتَ بِمَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ أَحَدًا؟ قُلْتُ لَا إِلَّا سُلَيْمَانَ بْنَ خَالِدٍ. قَالَ:

أَحْسَنْتَ أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

(١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الكتمان تحت رقم ١٤.

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٨٤.

(٣) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الكتمان تحت رقم ٣.

(٤) رواه الكافي في الكافي باب التعمير من كتاب الإيمان والكفر.

فلا يعدون سرّي وسرك ثالثاً الأكل سرّ جاور اثنين شايع (١)
 قوله **عليه السلام** «أحسنتم» للتقريع كما هو الشايع في استعمال هذا الكلام في
 المحاورات و يدل عليه ما بعده و قيل لرجل : كيف تحفظ السرّ؟ فقال : أجد
 للمخبر واحلف للمستخير. و جحدّه و إن كان كذباً لكن الكذب مطلوب في بعض
 المواضع و كذا الحلف و التورية فيها أحسن ، و نقل أن رجلاً أفضى سرّه إلى
 أخيه فقال له أحفظت؟ فقال : بل نسيت ، و من شأن الجاهل إفشاء السرّ و العيب
 لعدم علمه بوخامة عاقبته و سوء خاتمته و إنّما ذلك لظلمة جنانه و ضعف إيمانه و
 رخاوة لسانه و اعتياده بالإيذاء و الأضرار فدائماً نفسه منه في تعب و بلاء و غيره
 منه في نصب و عناء .

(و الصلوة و ضدّها الاضاعة) إقامة الصلوة بحدودها و شرايطها من أكمل
 فضائل العقل و ملكاته ، و إضاعتها من أعظم ردائيل الجهل و صفاته و ذلك لأنّ
 الصلوة الكاملة الموجبة للمجموع من الهويات البشريّة والانّصاف بالصفات الملكيّة
 و العروج إلى المقامات اللاهوتيّة كما يعتبر في تحقّقها أعمال بدنيّة مثل الطهارة
 و ستر العورة و الاستقبال إلى بربّ الله و التكبير و القراءة و الأذكار و الرّكوع و السجود
 و التشهّد و التسليم كذلك يعتبر في تحقّقها أفعال قلبيّة بإزاء تلك الأعمال و تلك
 الأعمال بمثابة الجسد و هذه الأفعال بمنزلة الرّوح أمّا طهارة القلب فتخليصه عمّا
 سواه تعالى و تنزيهه عمّا عداه و أمّا ستره فستر عيوبه عن الرّوحانيين بالثوبه
 و الانايه طلباً لقا بليّة مجاورة الله و مناجاته و الدّخول في ساحة عزّه و مشاهدته
 كمالاته و أمّا استقباله إلى الله فمطالعة جلاله و جماله و قدرته و كماله . و أمّا
 قيامه بين يديه فاذعانه بأنّه عبد ذليل عاجز فقير مائل بين يدي ربّ جليل ، و أمّا
 تكبيره فبأن يعتقد أنّه تعالى أكبر من أن يصفه الواصفون و ينعتنه الناعتون و
 يأتي بحقّ عبادته العابدون ، و أمّا قرأته فبأن يتعمّق في الباطن ما نطق به اللسان
 الظاهر و يتذكّر أنّه تعالى هو المستحقّ للحمد و الثناء و الجامع للكمالات كلها

في ضمن أحسن الأسماء وأنه رب كل شيء، يعطيه ما يليق به من حاله آنافاً
و يبلغه إلى غاية كماله شيئاً فشيئاً فكل شيء سواء في رقب الحاجة إليه مقتر
إلى فيضه مقهور بين يديه وأنه المنعم في الدنيا والآخرة ينعم كل أحد بما يليق
بحاله وأنه المالك في يوم الجزاء بالاستحقاق ولأمالك فيه غيره على الإطلاق، و
أنه المعبود المستحق للعبادة وغاية الخضوع دون غيره، وأنه المستعان في جميع
المهمات وفي أداء العبادات، وأنه الهادي إلى الدين القويم والصراط المستقيم صراط
أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام، وأنه الموفق للميل عن صراط المضالين
المضلين، وأما ركوعه فبان يتواضع وينخشع ويعترف بأنه تعالى متصف
بالعظمة والكبرياء، ومستحق بأن يتدلل له الأشياء بالانحناء، وأما سجوده فبان
يرى كل شيء عند كمال عظمنه موضوعاً و كل قدر عند جلال رفعته مخفوضاً و
يتواضع له زائداً على ما سبق ويلقى نفسه على تراب المسكنة والافتقار ويضع جبهته
على غبار العجز والانكسار، وأما تشهده فبان يشاهد بعين البصيرة تفرده بالالهية
وتوحيده بالربوبية وتنزهه على أن يشاركه في العبادة، وأما تسليمه فبان
يقصد أنه قطع المراحل الناسوتية وبلغ المنازل اللاهوتية ورأى عند أبوابها
الملائكة المقرئين والأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين خاشعين لهيبته فيسلم
عليهم تحية لهم وتأنيساً بهم، وبالجملة المقصود الأصلي من الصلاة تطويع النفس
الأمارة للعقل وتمرينها على موافقته وهو لا يحصل بدون حضور القلب وأفعاله
المذكورة والتفاتة إلى مشارق أنوار الحق ومطالع أسرارته وتجرده عن جلايب
العوايق البشرية وسيره في عالم التوحيد والصلوة بهذا الوجه أعني المشتملة
على الأعمال البدنية والأفعال القلبية من أكمل فضائل العاقل العارف بالله و
آياته، وهي التي ورد في وصفها والحث عليها قوله تعالى «إن الصلاة تنهى عن
الفحشاء» وقوله تعالى «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون» وقوله

صَلَّى اللَّهُ «الصلوة عمود الدين» (١) و قوله «الصلوة مفتاح الجنة» (٢) و قوله «من صَلَّى ركعتين ولم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا غفر الله ذنوبه» (٣) و قوله «قرءة عيني في الصلوة» (٤) و قوله: «الصلوة قربان كل تقى» (٥) و إضاعتها من جنود الجهل وصفات الجاهل وهي عبارة عن تركها بالمرة أو الأتيان بالأعمال البدنية مجردة عن الأفعال القلبية لأن الإضاعة تختلف باختلاف حال الجهل و رسوخه فرب جاهل يبلغ جهله إلى حد يتركها بالكلفة لسواد قلبه و زوال بصيرته واعتقاده و رب جاهل يصلي ولا يخطر بباله أنه يصلي إلى آخر الصلوة لتسلط النفس و الشيطان عليه و اشتغال قلبه بغير الله والتفاتة إلى ما سواه و يشملها الذم في قوله تعالى «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيماً» و رب جاهل يصلي وهو أنه يصلي في بعض الأوقات دون بعض و يحضر قلبه في بعض الأفعال دون بعض وهذا فعلة مختلط وعمله ممتزج بقرب من الحق تارة وبعيداً أخرى والمبني يقتضيه النظر أنه في خطر عظيم ولكن دل بعض الروايات المعتمدة أنه يقبل من صلواته بقدر ما يعقله وهذا دل على صحة صلواته وخروجه عن عهدة التكليف (٦)

(١) أخرجه أبو نعيم الفضل بن دكين في كتاب الصلاة وابن منيع أيضاً . كما في الجامع الصغير وكنوز الحقائق للمناوي .

(٢) لم أجده هكذا وللدارمي في سننه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري «مفتاح الجنة الصلاة» .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج ٤ ص ١١٢ و ١١٧ . ورواه ابن المبارك في الزهد و الرقائق والراوندي في لب اللباب كما في المستدرک الوسائل كلهم بزيادة «من توضأ وصلى ركعتين- الحديث» وبادنى اختلاف في لفظه .

(٤) أخرجه النسائي ج ٧ ص ٦٧ في حديث عن انس . ورواه الصدوق في الخصال أبواب الثلاثة ج ١ ص ٧٩ .

(٥) رواه الكليني في الكافي كتاب الصلاة باب فضل الصلاة تحت رقم ٦ .

(٦) قد يقع في كلام بعضهم ان قبول العمل شيء وصحته شيء آخر ويمكن ان يكون العمل صحيحاً غير مقبول وربما نرى في كلام اهل التحقيق انكار هذا المعنى و نسبته الى *

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(والصوم وصدّه الإفطار) ليس المراد بالصوم هنا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب وغيرهما من الأمور المذكورة في كتب الفقهاء بل المراد به الإمساك عنها وعن جميع ما يوجب البعد عنه تعالى ولا يثبت ذلك إلا بصوم جميع الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة وإمساكها عما يكره أو يحرم وذلك بأن يجتنب عن أذى الخادم وغيره وعن ضربه وشتمه، ويحفظ البصر عن النظر إلى ما لا ينبغي النظر إليه والقلب عن ذكر غير الله والسمع عن استماع ما لا يجوز واللسان عن الكذب والبهتان والغيبة والبهتان والحلف والمراء وإشاد الشعر في الليل والنهار ويعف البطن والفرج عن تناول الشبهات والمجرمات وإكثار الحلال من الأطعمة والأشربة وتناول أنواع المسنذات وقت الإفطار، وقس على ذلك سائر الأعضاء وهو مع ذلك يقوم بين الخوف والرجاء في رذّه لتجويز التقصير فيه وقبوله لملاحظة لطف الله وكرمه ولا ريب في أن الصوم بهذا المعنى من أفضل خصال العقل وأعظم جنوده التي يستعين بها في جهاد النفس الأمّارة بالسوء وكسرها وتهوئ شهواتها وإن الإفطار يعني ترك الإمساك عن جميع ما ذكر أو عن بعضه من أكمل رذائل الجهل وأعوانه في إطاعة المهورات النفسانية وتناول الشهوات الشيطانية والملذذات الجسمانية الموجبة للبعد عن نيل رحمة رب العالمين والقرب من أسفل السافلين نعوذ بالله من مخاطرات الجهل وهزات الشياطين

(والجهاد وصدّه النكول) الجهاد بالكسر مصدر جاهدت العدو إذا قابلته في

المحاربة أي جهال أهل الحديث وحجة هؤلاء أن الله تعالى أمر بشيء انتهى به المكلف على ما أمر به فيستحق الثواب عليه عقلا ونقلا حيث قال «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» ومن يدعي أن الله تعالى ربما لا يقبل العمل الصحيح إن أراد به أنه لا يعطيه نوابا أصلا فهو قبيح لا يجوز نسبته إلى الله تعالى وإن أراد أنه يعطى نوابا أقل من أمثاله لقلة شرائط الكمال فهو ممكن ولكنه غير متبادر من لفظ القبول والحق أن كل عمل صحيح مجزئ شاب عليه وإن اختلفت الأعمال باختلاف شرائط الكمال ولا ريب في صحة ما ذكر الشارح من استفادة صحة العمل من الرواية ولا بد أن يعمل القبول في الروايات على زيادة الثواب لأصل الثواب (ش).

تحمّل الجهد إذ كل واحد من المتخاصمين يبذل طاقته و يتحمّل مشقته في دفع صاحبه ، والنكول الجبن يقال : نكل عن العدو ينكل بالضم أي جبن ، والنكول الجبان ، الضعيف ، ثم الجهاد على خمسة أصناف جهاد مع العدو الظاهر وهو الكافر قال الله تعالى « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله و جهاد مع العدو الخفي قال الله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، و جهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة قال الله تعالى « وجاهدوهم بالتي هي أحسن ، و جهاد مع الفاسق من أهل الايمان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال الله تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرزون بالمعروف وينهون عن المنكر ، و جهاد مع النفس الأمارة بالسوء ، قال الله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سلباً ، وهذا الصنف أشق وأعظم من الجميع كما دللت عليه التجربة و دل عليه ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله بعث بسريته فلما رجعوا قال : « مرحباً بقوم قضاوا الجهاد الأصغر و بقي الجهاد الأكبر ، قيل : يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال : جهاد النفس (١) ، و من نظر في هذا الخبر الذي نحن في صدد شرحه حق النظر وتأمل في كثرة جنود الجهل و كثرة شوكتها و غلبتها في الأكابر حق التأمل عرف سر كون هذا الجهاد أعظم و أكبر و نحن نذكر حقيقته و كیفيته و وجه كونه أعظم في كتاب الجهاد إن شاء الله تعالى ولا يبعد أن يراد بالجهاد هنا جميع هذه الأصناف لأن كل واحد منها من صفات العقلاء ، و خواص الأولياء و الصابرين في البأساء ، والضراء الذين غاية مناهم تخليص نفوسهم و نفوس عباد الله عن قيود الهلكات ، و أغلال الشبهات و سلاسل الزلات و أنزاعها من أيدي هذه الدنيا الغدّارة والأبالسة المكاراة و سياقها إلى بساط الحق و ساحة رحمته ومحلّ كرامته و فناء جنّته فيدخلون فيها إخواناً على سرر متقابلين لا يمسيهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين و أمّا النكول عن الجهاد والتقاعد منه فهم من سمات الغافلين و صفات الجاهلين الذين يسلكون مسالك النفوس الأمارة و يختارون راحتها على مشاقها

و هم عن شناعة العقوبة جاهلون و يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة و هم عنها غافلون.

(والحجّ وضدّه نبد الميثاق) و الحجّ بالفتح القصد وقد غلب على قصد الكعبة للنسك المعروف، وبالكسر الاسم، والميثاق العهد ونبذته نقضه من نبد الشيء من يده طرحه و رمى به لأنّ نقض العهد طرح له والمقصود أنّ حجّ بيت الله تعالى من صفات العاقل الذي شأنه الوفاء بالعهد والميثاق و تركه من صفات الجاهل الذي شأنه نقض العهد والميثاق و ذلك لأنّ الله تعالى لما أراد أن يأخذ الموائيق من العباد أخذها في ذلك المكان و أمر الحجر و هو ملك بهذه الصورة يسمع و يرى فالتقمها فمن أتاه وجدّ له الاقرار يشهد له بالموافاة يوم القيمة ومن لم يأتها فهو ناقض العهد وناسيه ويشهد عليه بالكفر والانكار و نقض العهد يدلّ على ذلك روايات متكررة ويحتمل أن يراد بالميثاق ما أجابوا عند نداء إبراهيم عليه السلام بطلبه إليهم إلى الحجّ وهم في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات بقولهم لبيك اللهم لبيك و يحتمل أيضاً أن يراد بالحجّ القصد إلى الأئمة الطاهرين عليهم السلام و المكوف في أبواب علومهم و معارفهم والسؤال عنهم لأنّ الله تعالى أخذ ميثاق ذلك على العباد و نبذ الميثاق تركهم والرّجوع إلى أصحاب الأهواء الباطلة و أرباب الآراء الفاسدة و من الأفاضل لما رأى أن عدد الجنود زائد على الخمسة و السبعين بثلاثة حكم بأن هذه الفقرات الأربع أعني الصلوة وضدّها الاضاعة إلى آخر الأربع ترجع إلى فقرة واحدة أعني العبادة وضدّها الاضاعة (١) والله أعلم

(١) قد مر في شرح أول الحديث في الصفحة ٢٧٠ أن مفهوم العدد غير معتبر و ليس المراد الحصر في خمسة وسبعين بل الجنود أكثر من ذلك بكثير و إنما ذكر الأهم و الاعرف و مر أيضاً كلام الشيخ بهاء الدين و قال في الوافي: المذكور في النسخ الستة رايها عند التفصيل ثمانية و سبعون و لعل الثلاثة الزائدة الطمع والمافية والفهم لانحداد الاولين مع الرجاء والسلامة المذكورين و ذكر الفهم مرتين في مقابلة اثنين متقاربين و لعل الوجه في ذلك أنه لما كان كل منها غير صاحبه في دقيق النظر ذكر عليه و لما كان الفرق دقيقاً خفياً والمعنى قريباً كما يأتي ذكره لم يحسب من العدد و قال المجلسي - ره - وفي الغصال وغيره زيادات أخر برتقى منها إلى إحدى وثمانين (ش).

(وصون الحديث و صدّه النميمة) نمّ الحديث ينمّه و ينمّه بالضم و الكسر نمّا أي قنّه و الاسم النميمة والرّجل نمّ و نمّ و نمّ أي قنّات للمبالغة والقنّات من قنّت الحديث إذا سمعته وجمعه و كذلك فعل النمّام، وقال في النهاية: النميمة نقل الحديث من قوم إلى قوم على جهة الفساد والشرّ، ومثله قال المازري وعلى هذا هذه الفقرة أخصّ من الكتمان والافشاء لأنّ الكتمان أعمّ من صون الحديث وغيره والافشاء أعمّ من نقل الحديث وغيره، وقال الغزالي: النميمة كشف ما يكره كشفه من قول أو فعل كرهه المنقول عنه أو إليه أو ثالث و على المنقول إليه أن لا يصدق الناقل لأنّه فاسق و أن ينهيه لأنّ نهيه من النصيحة وأن يبغضه لأنّه مبغض عند الله و يجب بغض من يبغضه الله سبحانه وأن لا يظنّ بالمنقول عنه شرّاً وأن لا يجسّس عليه ولا يحكي ما نقل عنه لأنّه يصير نمّاماً، و حكمها الحرمة لتضمّنها مفسدة عظيمة من التباغض والتباعد والتفارق و كسر عرض المؤمن و قد يؤدّي إلى سفك الدّماء و نهب الأموال ونحوها إلا أن تنضمّن مصلحة شرعيّة فلا تمنع كإخبار الامام عمّن يريد أن يوقع فساداً و إخبار الرّجل عمّن يريد أن يفتك به أو بأهله أو بماله وقد يجب ذلك بحسب المواطن إلا أنّها حينئذ ليست بنميمة وقد ورد الرّوايات على ذمّ النمّام منها ما روي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «محرمّة الجنة على القتاتين (١) المشائين بالنميمة» (٢).

(و برّ الوالدين و صدّه العقوق) قال في النهاية: البرّ بالكسر الاحسان منه الحديث في برّ الوالدين و هو في حقّهما و حقّ الأقربين من الأهل ضدّ العقوق وهو الاساءة والنضييع لحقّهم يقال: برّ فهو بار وجمعه بررة وجمع البرّ أبرار و هو كثيراً ما يخصّ بالأولياء والزّهاد والعباد، وعقّ والده يعقّه عقوقاً فهو عاقّ إذا آذاه وعصاه و خرج عليه وأصله من العقّ و هو الشقّ والقطع و قد

(١) قنّوه سخن چینی (ش).

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب النميمة بحث رقم ٢.

ورد من طرق الخاصة والعامة أن عقوق الوالدين من كباير الذنوب فالبر بحكم
التضاد من عظام الحسنات ، و من برّك بهما أن تحسن صحبتهما وتقضى ديونهما ،
و تعينهما على فعل الخيرات ، وتفعل ما يسرّهما وتترحم عليهما ، و توصل ما
أمكن من الخيرات إليهما ، ولا تكلفهما سؤال شيء مما يحتاجان إليه ، ولا تقسول
لهما : أف إن أضجراك ، ولا تنهرهما إن ضرباك ، ولا تملأ النظر إليهما إن أغضباك
ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ، ولا تقدمهما ولا تستسيبهما بأن
تسبّ أباً غيرك و أمّه فيسبّ أباك و أمّك ولا تفعل ما يؤذى نفسك أو صديقتهما
فإن ذلك يؤذيهم ، ولا تعنهما على الظلم فإنّ الاعانة عليه خلاف البر ، ولا تسافر
إلاّ باذنهما و إن كان إلى الجهاد لأنّ أنسهما بك يوماً و ليلة خير من جهاد سنة ،
ثم لا فرق في وجوب برّ هذا بين أن يكونا حبيبين أو ميّتين لرواية محمد بن عمران عن
الصادق عليه السلام ورواية محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ العبد ليكون باراً
بوالديه في حيوتهما ثم يموتان فلا يقضى عنهما دينهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عزّ
وجلّ عاقباً ، و إنّه ليكون عاقباً لهما في حيوتهما غير بار بهما فإذا ماتا قضى دينهما و
استغفر لهما فيكتبه عزّ وجلّ باراً (١) ، و كذا لا فرق بين أن يكونا برّين أو فاجرين
لما رواه عنبة بن مصعب عن أبي جعفر عليه السلام قال : ثلاث لم يجعل الله عزّ وجلّ لأحد
فيهنّ رخصة أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر ، والوفاء للعهد للبرّ والفاجر وبرّ
الوالدين برّين كانا أو فاجرين (٢) ، ولا بين أن يكونا مؤمنين أو مخالفين أو كافرين
لروايات متكررة منها رواية جابر عن أبي عبد الله عليه السلام (٣) ورواية زكريا بن
ابراهيم عنه عليه السلام (٤) .

(والحققة و صدّها الرياء) لكلّ شيء حقيقة و حقيقة العمل هي الاخلاص

(١) و (٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب البر بالوالدين تحت رقم ٢١ و ١٥ .

(٣) و (٤) المصدر تحت رقم ١٠ و ١١ .

يعنى، صرفه إلى الله طلباً لرضاء والرياء وهو القصد بالطاعة إلى التقرب بالمخلوقين و طلب المنزلة في قلوبهم والميل إلى إعظامهم له و توقيهم إياه و تسخيرهم لقضاء حوائجه و القيام بمهماتة إلى غير ذلك من الأغراض الفاسدة النفسانية والتسويات الكاسدة الشيطانية منافية لتلك الحقيقة وضدها لا يجمعها أصلاً كما أشرنا إليه سابقاً بخلاف الشوب في قوله عَلَيْهِ السَّلَام والاخلاص وضده الشوب، فإن بعض أفرادها وهو ما إذا ضم إلى العبادة قصد تحصيل الثواب والتحرز عن العقاب أو قصد التبرُّد والتسخن غير منافي لحقيقة الاخلاص وإنما هو منافي لكماله فلذلك لم يجعل الشوب ضد الحقيقة مثل الرياء إذا عرفت هذا فنقول : إن خصصنا الرياء في هذه الفقرة بالرياء الخالص وعممنا الشوب في الفقرة السابقة بشوب الرياء وغيره أو خصصنا الشوب بشوب غير الرياء وعممنا الرياء هنا بالرياء الخالص والرياء المنضم كان بينهما تباين في التحقق قطعاً وفي الحكم أيضاً على الثانى دون الأول لأن الرياء مبطل للحقيقة مطلقاً والشوب على الثانى غير مبطل للحقيقة بل لكمالها عند بعض وعلى الأول أعم من أن يكون مبطلاً أو غير مبطل وإن عممنا الشوب والرياء كليهما كان بينهما عموم من وجه في التحقق وعموم مطلق في الحكم .

(والمعروف و ضده المنكر) أي الاثبات بهما والكلام هنا في سبعة أشياء الأول في حدّ المعروف وهو في اللغة اسم لكل ما انتصف بحال يوجب كونه معلوماً ومنه يقال : فلان معروف إذا انتصف بوصف يوجب شهرته بين الناس وفي الشرع اسم لجميع ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى واجباً كان أو تدباً مثل الصلوة والزكاة والاحسان إلى الناس وإعطاء فضل المال إلى غير ذلك من مكارم الأعمال ومحاسن الأفعال ولا يبعد تخصيصه هنا بما سوى الواجبات ممّا يتعلق بالحقوق المالية لقول الصادق عَلَيْهِ السَّلَام : المعروف شيء سوى الزكاة فتقرّبوا إلى الله عز وجل

بالبر وصلة الأرحام (١)؛ والمنكر الشيء المتغير عن حاله ووصفه حتى ينكرو
 يجهل ومنه النكرة ضد المعرفة فإن المعرفة إذا غيرت عن وصف التعريف تصير نكرة
 مجهولة. الثاني في باعث معلته قال الصادق عليه السلام: «وليس كل من يحب أن يصنع المعروف
 إلى الناس يصنعه وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه ولا كل من يقدر عليه يؤذن
 له فيه فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والاذن فهناك تمت السعادة للمطالب والمطلوب
 إليه (٢)». الثالث في ثمرته وفوائده، وفوائده غير محصورة منها ما أشار إليه الباقر
 عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، و
 أول من يرد عليّ الحوض (٣)» وما أشار إليه الصادق عليه السلام بقوله «صنائع المعروف
 تقى مصارع السوء (٤)». الرابع في خصال أهله قال الصادق عليه السلام: «رأيت المعروف
 لا يصلح إلا بثلاث خصال تصغيره وتسنيده وتعجيله فإنك إذا صغرت عظمته عند
 من تصنعه إليه، وإذا سترته تمتته، وإذا عجلته هتأته وإن كان غير ذلك سخفته
 ونكذته (٥)». الخامس في وضعه موضعه قال الصادق عليه السلام: «فضل بن عمر: وإذا
 أردت أن تعرف إلى خير يصير الرجل أم إلى شر فانظر إلى أين يضع معروفه
 فإن كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنه يصير إلى خير وإن كان يضع معروفه عند
 غير أهله فاعلم أنه ليس له في الآخرة من خلاق (٦)». وقال جابر: سمعت أبا
 عبد الله عليه السلام يقول: «لو أن الناس أخذوا ما أمرهم الله به فأنفقوه فيما نهاهم الله عنه
 ما قبله منهم ولو أخذوا ما نهاهم الله عنه فأنفقوه فيما أمرهم الله به ما قبله منهم حتى
 يأخذوه من حق ويتفقوه في حق (٧)». السادس في آدابه وهي اختيار المتوسط
 بين الإفراط والتفريط قال الله تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها
 كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً» وقال أبو الحسن عليه السلام: «لا تبذل لآخوانك من

(١) و (٢) و (٣) الكافي كتاب الزكاة باب فضل المعروف تحت رقم ٥ و ٣ و ١١.

(٤) المصدر باب أن صنائع المعروف تدفع مصارع السوء تحت رقم ١.

(٥) المصدر باب تمام المعروف تحت رقم ١.

(٦) و (٧) المصدر باب وضع المعروف موضعه تحت رقم ٢ و ٤.

نفسك ما ضره عليك أكثر من منفعته لهم» (١) السَّابِعُ عدم كفران الطالب للمعروف قال أبو عبد الله عليه السلام: «لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل: وما قاطعوا سبيل المعروف قال: الرَّجُلُ يصنع إليه المعروف فيكفره فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره» (٢) وقال عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أتى إليه معروف فليكاف به، فإن عجز فليمن عليه فإن لم يفعل فقد كفر النعمة» (٣) وإذا عرفت المعروف وأقسامه وأحكامه عرفت المنكر وأقسامه وأحكامه بالتضاد، والأول من صفات العاقل العارف المستيقن بالله وباليوم الآخر، المشفق بعباد الله، والثاني من صفات الجاهل المغرور بالدنيا المفتون بزهراتها.

(والستر ضدّه التبرّج) الستر بالفتح مصدر سترت الشيء، أسترته إذا غطيته فاستتر هو و تستر أي تغطّي والرجل ستر أي عفيف، والجارية ستيرة، و أمّا الستر بالكسر فهو ما يستر به كالستره بالضم يعني أن من جنود العقل و صفات العاقل ستر الذنوب بالتوبة أو سترها عن الناس لقوله عليه السلام: «المذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له» (٤) أو ستر زلات المؤمنين و عوراتهم ومعايبهم أو ستر الحلي والزينة و مواضعها عن الأجانب مثل السوار للزند و الخلخال للمساق والد ملح للمعدن والقلادة للمعنى والقرط للأذن والوشاح للمعاني والكشح، وهذا أظهر الاحتمالات بقرينة ضده إذا الظاهر هو أن التبرّج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للأجانب و هو حرام عليها قال الله تعالى: «ولا يبدن زينتهن» الآية وقال: «ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى» وإذا حرم إظهارها حرم إظهار مواضعها بالطريق الأولى و هو متفق عليه بين العامة والخاصة ومن التبرّج تطييبها و تجميل ثوبها و تزيينها بأثواب فاخرة و خروجها من بينها و تعرّضها نفسها للرجال فيطمع منهم من كان في قلبه مرض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبينة امرأة تطيبت و خرجت من

(١) الكافي باب آداب المعروف تحت رقم ٢.

(٢) و (٣) الكافي باب الكفر المعروف تحت رقم ٢٠١.

(٤) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب ستر الذنوب تحت رقم ١.

بينها فهي تلعن حتى ترجع إلى بيتها متى رجعت « (١) و قال أبو عبد الله عليه السلام لا ينبغي للمرأة أن تجهر ثوبها إذا خرجت من بيتها « (٢) ومنه إظهار صوت حليتها للأجانب قال الله تعالى : «ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» .
 (والتقية ضدّها الاذاعة) في الصحاح اتقى يتقى أصله اتقى على افتعل قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وأبدلت منها الناء و ادغمت، فلمّا كثر استعماله في لفظ الافتنال توهّموا أن الناء من نفس الحروف يعني من نفس حروف الكلمة و أصولها فجعلوه إتقى يتقى بفتح الناء فيهما مخففة ثم لم يجدوا له مثلاً في كلامهم يلحقونه به فقالوا تقى يتقى مثل قضى يقضى . وفي المغرب الوقاية والوقا ، كل ما وقيت به شيئاً والتقية اسم من الاتقاء وتأوها بدل من الواو لأنّها فعيلة من وقيت وهي أن يقى نفسه من اللأئمة أو من العقوبة وإن كان على خلاف ما يضرر و في القاموس اتقيت الشيء ، وتقيته وأتقيته وتقى وتقية وتقاء ككساء : حذرته والإذاعة إفعال من الذيع يقال : ذاع الخير يذيع ذياً إذا انتشر وأداعه غيره أي أفشاه والمذيع الذي لا يكتفم السر إذا عرفت هذا فنقول التقية جائزة إلى يوم القيمة نقله المغرب عن الحسن أيضاً وهي دين الله في عباده وسنة الله في بلاده (٣)

(١) و (٢) الكافي كتاب النكاح باب التّهتر نعت رقم ٣٠٢ .

(٣) التقية دين الله في عباده فانه تعالى امر بذلك وسنة الله في بلاده لان الناس مجبولون

عليها ولا يخالفون الجبارين في سلطانهم الا اذا علموا من انفسهم قوة وقدرة على دفعه .
 واعلم ان التقية من السلطان اعني الحكومة والحكومة لا يهتم بشيء الا بملكه وقدرته فاذا احتل من جماعة خروجاً عليه دفعهم ونكل بهم سواء كانوا موافقين له في المذهب أو مخالفين وان لم يعتقد فيهم خلافاً غلامهم ومذعبيهم ولذلك امر الائمة عليهم السلام بسمتهم باستعمال التقية وإظهار الطاعة حتى يأمن الامراء من بوائقهم ويخلوهم وهذا اكثر تأثيراً في بيان الاحكام و ترويج الشرع وانما بقي مذهب التشيع وانتشر هذا الانتشار السريع العظيم بشيئين بأمن الامراء من طغيانهم وبانقيادهم في بلاد المخالفين وبنزله علماءهم من تصدي مناصب الحكومة واستقلالهم في امرهم بحيث لا يحتمل العزل والنصب في حقهم كما في علماء اهل الخلاف «ش» .

وجنة المؤمن يدفع بها سيوف مكرها كربين وترسه يرد بها سهام كيد الكائدين وحصنه يأوي إليه لدفع تعدى الظالمين و من صفات العاقل الفاضل الذي يعلم حقيقتها و حقيقتها و مواضع استعمالها و موارد الحاجة إليها فيقول و يفعل عند الضرورة والحاجة بخلاف ما يعتقد حقا لنفسه وما له وغيره من المسلمين عن التورط في المبالغة و يحسن صحبة الأشرار تحرزا من عقوبتهم وتفززا من مؤاخذتهم وقدروي «أن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ فقال : بش أخو العشيبة فأذن له فلما دخل عليه أقبل عليه رسول الله ﷺ بوجهه و بشره يحدثه حتى فرغ و خرج من عنده فقيل له : يا رسول الله أنت تذكر هذا الرجل بما ذكرته و أقبلت عليه بوجهك و بشرك فقال ﷺ : إن من شر عباد الله من يكره مجالسته لفحشه (١) و تقيته الأئمة عليهم السلام من أهل الجور مشهورة في الكتب مسطورة و في الآيات والروايات الكثيرة دلالة على جوازها بل على وجوبها قال الله تعالى : «إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان» نزل في عمار بن ياسر حين (٢) أكرهه أهل مكة و قال : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » قال الصادق عليه السلام : بما صبروا على النقيصة و قال : «ويدرون بالحنسة السيئة» قال الشيخ الحسنة النقية والسبئية الإذاعة (٣) »

- (١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب من يتقى شره وأخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ .
 (٢) و يجب مخالفتنا على مذهبينا في النقية و عمدتهم في ذلك أن النبي «ص» والأئمة عليهم السلام في اعتقادكم نصبوا البيان الشرايع والاحكام فلو اتفقوا من الأعداء ولم يبينوا بقيت الاحكام مستورة غير معلومة وانتفت الفائدة من نصبهم وأيضاً لم يبق اعتماد على أقوالهم و أحكامهم اذ يحتمل النقية بيان خلاف الواقع وانتم تقولون الامام يجب أن يكون معصوماً من الخطأ ليكون قوله حجة والنقية مثل الخطأ او اشنع اذ يوجب عدم الاعتماد عليهم والجواب ان فرض النقية انما هو فيما لا يوجب خفاء الاحكام ولا ينفي به الاعتماد على قول الامام و فرق بين النقية وعدم العصمة لان النقية عدم اذنى بالنقية وكان عالماً به لم ينفعه من بيان الحقيقة في وقت آخر بحيث يزيل الشبهة و أما عدم العصمة فربما يغطي في الحكم او في الفعل ولا يعلم به ولا يلتفت اليه فيمضي الامر على خطائهم وان أراد الاستدراك احتمل خطائهم في الثاني دون الاول «دش» .

(٣) راجع الكافي كتاب الإيمان والكفر باب النقية .

و بالجملّة النقيّة ترس العاقل و حرّزه و جنّده ، و أمّا ضدّها و هي الاذاعة فمن صفات الجاهل الذي يقصر نظره عن ملاحظة سوء عاقبتها و قبح مآلها فإنّه قد يفعل شيئاً أو يتكلّم بكلام أو يروي حديثاً يورث قتله أو ضربه أو حبسه أو شتمه أو نهب أمواله أو سبي ذراريه أو نكال غيره من المسلمين وقد دلّت الآيات و الروايات المتكثّرة على ذمّها قال الله تعالى : «فاذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به» و قد عبّرهم بالاذاعة فأيّاً كم و الاذاعة و قال الصادق (عليه السلام) : «ما قتلنا من أذاع حديثنا خطأً ولكن قتلنا قتل عمد (١)»

(و الانصاف و ضدّه الحميّة) الانصاف العدل و النسوية يقال : القاضي أنصف بين الخصمين إذا عدل و سوّى بينهما في المجلس ، و فلان أنصف الناس من نفسه إذا رضي لهم ما رضي لنفسه و كره لهم ما كره لنفسه و حكم على نفسه أو كان الحقّ لهم و عن الصادق (عليه السلام) : «سبعت الأعمال ثلاثة وعد منها انصاف الناس من نفسك حتّى لا ترضى لك بشيء إلا رضيت لهم مثله (٢)» و منه الانصاف في المعاملة وهو أن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا مثل ما يعطيه ولا يناله من المضار ما يناله منه وهو من أكمل فضائل العقل لأنّ العاقل يعلم أنّ من أنصف زاده الله تعالى عزّاً في الدنيا و الآخرة و هو في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله و الحميّة الأنفة يعني استنكاف الرّجل من دخول العار عليه و هي سبب لحميّة و حمايته و غايته أن يدفع عن قومه ظلماً و جوراً و إن أدّى دفعه إلى ظلم و جور أشنع و أقبح من ذلك أو يرتكب لدفع ما هو خلاف الأولى عن نفسه أو عن قومه ضرراً عظيماً لغيره أو يرى شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين أو نجوها ممّا هو شريعة الجهلاء ، و طريق السفهاء لقسوة قلوبهم و غلظة طبائعهم حتّى أنّهم يستعملون لسوط واحد سيوفاً و يحدثون لحنف واحد حتوفاً و يقيمون حميّة الجاهليّة الأولى و يظنّون أنّ ذلك مماثل للانصاف بل هو أفضل وأولى فلا يجدون إلى الانصاف دليلاً أو لكّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الاذاعة تحت رقم ٤.

(٢) المصدر باب الانصاف والعدل تحت رقم ٧.

قال رسول الله ﷺ: «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربة الإيمان من عنقه» (١) وقال: من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعنه الله تعالى يوم القيمة مع أعراب الجاهلية» (٢) و ينبغي أن يعلم أن تعصب الرّجل وحميته في الدّين ومحبة لقومه وإعانتهم لهم لأعلى الظلم ليست من الحميّة المذمومة قال علي بن الحسين (عليه السلام) «لم تدخل الجنة حميّة غير حميّة حمزة بن عبدالمطلب وذلك حين أسلم غضباً للذي» ﷺ في حديث السلا الذي ألقى على النبي ﷺ (٣) وقال (عليه السلام): «ليس من العصبية أن يحب الرّجل قومه و لكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم» (٤) (والتهبئة و ضدّها البغي) التهبئة إمّا بمعنى الموافقة يقال: تهايتوا أي توافقوا أو بمعنى الإصلاح تقول: هيأت الشيء إذا أصلحته، أو بمعنى تهبئة النفس واستعدادها للحركة نحو الفضايل والأعراض عن الرّذائل أو بمعنى ما يشبع ذلك الاستعداد من هيئة حسنة راسخة موجبة لعدم ظهور ريبة منها و لبقائها على حالة واحدة واستمرارها عليها وهي في الحقيقة مبدء لتحصيل الكمالات. قال في المغرب: الهيئة هي الحالة الظاهرة المتهبئة للشيء و قوله (عليه السلام): «أقبلوا ذوى الهيئات عثرائهم» (٥) قال الشافعي ذوى الهيئة من لم يظهر منه ريبة والبغي بمعنى طلب الشر يقال: بغى أحدهما صاحبه في شيء أي طلب له شراً أو أراد له و بمعنى التعدي والاستطالة والظلم وكلّ مجاوزة المحلّ و إفراط على المقدار الذي هو حدّ الشرع وأصل المصوصد والله يعلم أن الموافقة بين الناس أو بين الإمام والرعية أو إصلاح النفس من ريبها وصقلها من كدرة شرارتها أو استعدادها نحو الكمال أو الهيئة التابعة لذلك الاستعداد الموجبة لعدم ظهور ريبة منها و لبقائها على حالة واحدة مع استمرارها على تلك الحالة وعدم خروجها منها من صفات العقل و جنوده و البغي بالمعنى الثاني

(١) و (٢) و (٣) و (٤) رواه الكليني في كتاب الإيمان والكفر باب العصبية تحت

رقم ٢ و ٣ و ٥ و ٧.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن ج ٢ ص ٤٤٦ هكذا «أقبلوا ذوى الهيئات عثرائهم

الالحدود».

المذكورة من صفات الجهل ، هذا وقرأها سيّد الحكماء بالبهشة ، و قال : البهشة
بالباء الموحدة قبل الهاء ، وقبل الشين المعجمة الارتياح لذي فضل و للمعروف و
أحبابه والميل إليه وضدها البغي عليه .

(و النظافة و ضدها القذر) في الصحاح النظافة النقاوة وقد نظف الشيء
بالضم فهو نظيف ونظفته أنا تنظيماً ونقيته والتنظيف تكلف النظافة وفي النهاية فيه
أن الله تعالى نظيف يحب النظافة . نظافة الله كناية عن تنزهه من سمات الحدوث في
صفاته و تعاليه في ذاته عن كل نقص و حجب النظافة من غيره كناية عن خلوص
العقيدة ونفي الشرك و مجازية الأهواء ثم نظافة القلب عن الغل والحقد والحسد و
أمثالها ثم نظافة المطعم والملبس عن الحرام والشبهة ، ثم نظافة الظاهر بملازمة
العبادات ومنه الحديث «نظفوا أفواهكم فانها طرق القرآن (١)» اي صونوا عن
اللفو والفحش والغيبة والنميمة والكذب و أمثالها و عن أكل الحرام والقاذورات
والحش على تطهيرها من النجاسات والسواك ، والحاصل أن طهارة الباطن والظاهر
و نزاهتهما عن جميع ما لا ينبغي اتصاف الناس به ظاهراً وباطناً من أنصار العقل
في الترقّي إلى عالم القدس كما يرشد إليه قوله تعالى : «وثيابك فطهر والرجز فاهجر»
و قذارتهما من أعوان الجهل في النباعد عن ذلك العالم لأن عالم القدس طاهر
لا يسكن فيه إلا الطاهرون وينبغي (ان يعلم) أن طهارة الباطن يستلزم طهارة الظاهر وكذا
نجاسة الباطن يستلزم نجاسة الظاهر لأن ما في الباطن يترشح إلى الظاهر فلا
جرم الحالة الباطنة مبدئ للنجاسة الظاهرة ومن ثم يستدلون بالظواهر على الباطن .
(والحياء و ضده الخلع) قيل : الحياء انكسار يصيب الحياة ، و قيل : هو
تغيّر يلحق من فعل أو ترك ما يذم به ، و قيل : هو خلق يمنع من التبعيض و من
التقصير في الحقوق وهو غريزة في الأكثر وقد يتخلق به بالاكنتساب لأن من
لم يجبل عليه ربما يلزم الحقوق و يتمسك بالشرائع و يمارسها في كثر الدهور

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس كما في كنوز الحقائق للمناوي .

ومرّ الأزمان فيحصل له ملكة الانزجار عن القبائح ومبدء الانتباه عن المحارم و هي الحياء و له مراتب متفاوتة و أفراد متفاضلة أكملها و أفضلها ما ينزجر بسببه الجوارح الظاهرة والباطنة كلها عن ارتكاب ما لا ينبغي و دون ذلك درجات ، فإن قلت قديكون في الانسان ما يمنعه من حقوق الله تعالى فهل هو حياء حقيقه أم لا؟ قلت : لا و إنما هو خور ومهانة وحمق - و إطلاق الحياء عليه أحيانا وتقسيمه إليهما في قوله عليه السلام «الحياء حياء، ان حياء عقل وحياء حمق فحياء العقل هو العلم و حياء الحمق هو الجهل (١)» و فيما نقل عن الحكماء أن الحياء منه سكرية ووقار و منه ضعف و فيما نقل عنهم في باب الأخلق أن كل فضيلة نفسانية وسط بين طرفيها المذمومين طرف الإفراط وطرف التفريط فالحياء الممدوح وسط بين طرف إفراطه و هو الخور أعني الاستحياء من كل شيء و هذا مذموم لأنه يؤدي إلى ترك الواجبات كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره وطرف تفريطه و هو الخلاعة أعني عدم الاستحياء من بعض الوجوه و هذا أيضاً مذموم لأنه يؤدي إلى ارتكاب بعض المحظورات - لا يدل على أن إطلاق الحياء على ما يمنع من حقوقه تعالى على سبيل الحقيقة لأن الاستعمال أعم من الحقيقة والمقسم لا يجب أن يكون محمولاً على معناه الحقيقي ويؤيد ما قلنا ما رواه مسلم عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : «الحياء لا يأتي إلا بخير (٢)» والحياء كله خير (٣) و حمل هذا على الإيجاب الجزئي لاوجه له على أن اصطلاح الحكماء ليس حجة علينا و لذلك أمّا سمع بشر بن كعب عن عمران ما نقله عارضه بقول الحكماء فقال عمران أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفة الحكماء فانكار عمران دل على أن لاوجه لمعارضة السنة بقول الحكماء و يؤيد أيضاً قول المحقق الطوسي - رحمه - حيث عدّ الحياء من أنواع العفة الحاصلة من الاعتدال في القوة الشهوية وعرفه

(١) رواه الكليني في كتاب الإيمان والكفر باب الحياء ٨ .

(٢) أخرجه في صحيحه ج ١ ص ٤٧ والبخاري ج ٨ ص ٣٥ من حديث عمران بن حصين .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٨ وأبو داود في السنن ج ٢ ص ٥٥٢ .

بأنه انحصار النفس عن ارتكاب القبائح احتراماً عن استحقاق المذممة فإنه صريح في أن انحصار النفس عن ارتكاب المحاسن لغرض ما ليس بحياء ، فإن قلت : قد ينسب الحياء إلى الله تعالى فيقال : إنه حييٌ فما معناه ؟ قلت : معناه إنه سبحانه يعامل معاملته من له حياء يعني لا يصدر عنه القبائح وذلك لأنه إذا نسب إليه تعالى مبادي الآثار ولا يصح عقلاً أو شرعاً إرادة تلك المبادي يراد منها تلك الآثار مجازاً أو الجلع الذي هو ضده إما بالجيم وهو قلة الحياء قال في الصحاح : جلعت المرأة بالكسر فهي جالعة و جالعة أيضاً قليلة الحياء تنكلم بالفحش و كذلك الرجل جل جلع و جالع و مجالعة القوم مجاوبتهم بالفحش و تنازعهم عند الشرب والقمار ، وإما بـ الخاء المعجمة و هو النزاع يقال : خلع ثوبه عن بدنه إذا نزع و وجه كونه ضد الحياء ظاهر لأن الحياء بمنزلة اللباس يستر جميع الأعضاء و يمنع ظهور معايبها و صدور قبائحها و ضده هو خلع ذلك اللباس و كشف تلك المعاييب والقبائح وإنما كان الحياء من جنود العقل و ضده من جنود الجهل لأن الإنسان متوسط بين العالمين عالم الهداية و عالم الغواية و عالم القدس و عالم الطبيعة . والعقل يدعوه إلى الأول والجهل يدعوه إلى الثاني فإذا لبس الحياء الزجر له عن ارتكاب القبائح يجذبه العقل إلى غاية مناه بسهولة لأن الجذب بالامانع أشد وأسهل من الجذب معه وإذا خلع منه ذلك اللباس و ظهر منه أنواع القبائح و أصناف المعاييب يجذبه الجهل إلى نهاية مناه بسهولة لما عرفت ، فمن له حياء كامل قريب من الحق بالغ إلى أقصى مدارج الهداية ومن له خلع كامل بعيد عن الحق بالغ إلى أعلى معارج الغواية والمتوسط بين الأمرين متوسط بين العالمين متردد يقرب عن كل منهما تارة ويبعد أخرى حتى يؤل أمره إلى ما شاء الله . والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .

(والقصد و ضده العدوان) القصد بالشيء إرادة الاتيان به ، والقصد أيضاً العدل و هو المتوسط في الأمور بين الإفراط والتفريط و لعل المقصود أن من

جنود العقل إرادة الخيرات كما روي «نية المؤمن خير من عمله» (١) وإن قصد برأ ولم يقدر عليه كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله أو المقصود أن من جنوده التوسط بين الطرفين في الأقوال والأفعال والعقائد كالتوسط في المشي بين الدبيب والاسراع قال الله تعالى «واقصد في مشيك» وروي أن سرعة المشي يذهب بهاء المؤمن (٢) والتوسط في الانفاق بين التبذير والتقتير قال الله تعالى: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» والتوسط في العبادة بحيث لا يلحق البدن مشقة شديدة ينتقل الطبع عنها ولا يتر كها قال رسول الله ﷺ «يا علي إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك فإن المنبت» (يعني المفرط) لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع ، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً ، واحذر حذر من يخاف أن يموت غداً (٣)» [والتوسط في جميع الأخلاق بين الإفراط والتفريط] والتوسط في معرفته تعالى بين التعطيل والتشبيه والتوسط في معرفة الرسول والأئمة ﷺ بين الرُبوبيّة والتكذيب لكمال فضلهم والتوسط في الكسب بين الكسالة والجِدُّ المانع من الراحة البدنيّة أو الحقوقيّة الدّينيّة ، وبالجملّة التوسط في جميع الأمور إلّا الذّنوب المطلوب ممدوح والعدوان بمعنى التجاوز عن الأوساط إلى طرف التفريط والإفراط كما هو شأن الجاهل [الهارب] عن الصراط المستقيم مذموم.

(والراحة : ضدها التعب) يعني أن الراحة الرّوحانيّة والجسمانيّة و

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث سهل - سهل بن سهل.

(٢) رواه الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة العرائني في تحف العقول ص ٣٦ عن النبي «من»

مرسلاً وأخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة والخطيب في الجامع والديلمي في الفردوس من حديث ابن عمر ، وابن النجار عن ابن عباس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٣) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الاقتصاد في العبادة تحت رقم ٦ . ورواه

احمد في مسنده من حديث انس ، والبزار من حديث جابر.

اختيار ما يوجبها من فضائل العقل و جنوده لعلمه بحقارة الدنيا و زهراتها وانصرام زخارفها و لذاتها و انقضاء مصائبها و آفاتنا فيرفض الشواغل الدنيوية وينقض الوساوس النفسانية و يترك اللذات الجسمانية فلا يفتن بفوات الأموال و الأسباب ولا يهتم بتحصيل المقتنيات و الاكتساب ولا يفتن بغيره التزلزل و الاضطراب ، ولا يحسد ولا يبغض ولا يغضب ولا يجادل ولا يمارى فهو دائماً فارغ البال مرفق الحال ، لا ينفسه منه في تعب ولا روحه منه في نصب ، و أمّا الجاهل فهو دائماً في تعب و مشقة و أبدأ في محنة و بليّة لاهتمامه بتحصيل المقتنيات و حفظه للرسوم و العادات ، و اغتمامه بفوات المشتهيات من المطاعم و الملبوسات ، و ارتكابه لأمر شديدة صعوبة من المعاملات و احتماله من الاشغال الدنيوية و الأثقال الزائلة الفانية ما يتعب نفسه من تحملها أو يعجز ، والتجائه في ذلك إلى التحاسد و التباغض مع بني نوعه من أبناء الزمان إلى غير ذلك من الأمور المورثة للحزن و الغم و التعب كما هو المعروف من جملة أفراد الإنسان و منشؤ ذلك استعظام الدنيا و استحقار الآخرة وهم لا يعلمون « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم الآخرة غافلون » فقد ظهر ممّا ذكرنا أن الراحة من صفات العقل و التعب من صفات الجهل . و أمّا إغاثة كل صاحبها فظاهرة لأنّه نجى المخفون و هلك المثقلون .

(و السهولة و ضدّها الصعوبة) السهولة اللينة و اليسر و الذّل بالكسر يعني سرعة الانقياد يعني سهولة الطبع في قبول الحقّ و يسره في قبول الصفات المرضية و الأخلاق الحسنة و الأطوار الصحيحة و ذلك و انقياده في الدين من صفات العاقل و علامات الإيمان كما ورد من طرق العامة و الخاصة « المؤمنون همّيون لينون » (١) و صعوبة الطبع يعني أصداد هذه الأمور من صفات الجاهل العاير الذي ينبوذه من الحقّ الزاهر ، و يمرق طبعه من عرض الصدق إلى الجانب الآخر ، ولا يطيع

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .

ورواه الكليني في الكافي كتاب الإيمان و الكفر (باب المؤمن و علاماته و صفاته)

لقائده إلى منازل العرفان والكمال بل يغلبه مثل الجموح عن دين الحق مسرعاً في سبل الضلال و كذا شأنه دائماً في سرعة المسير إلى أن يقع في أسفل السافلين و يؤس المصير .

(والبركة و ضدّها المحق) البركة النماء و الزيادة و يحتمل أن يراد بها الدوام والثبات من برك البعير إذا استناخ و لزم و ثبت في موضع واحد، والمحق النقصان و ذهاب البركة ، و قيل : هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه أثر، ومنه « يحق الله الرباء أي يستأصله و يذهب ببركته و يهلك المال الذي يدخل فيه و لعل المقصود أن الزيادة في فعل الخيرات والمبالغة في المبررات والثبات والدوام عليهما من صفات العقل و كمال العقلاء كما روي « من استوى يوماء فهو مغبون (١) » و روي أيضاً « ما من شيء أحب إلى الله عز وجل من عمل يداوم عليه وإن قل » (٢) والنقصان في العمل أو عدم الدوام والثبات عليه من صفات الجاهل لجهله بمنافع العمل و غفلته عن جريل الثواب و نسيانه حفظه و نصيبه في يوم الحساب ، و قيل : المراد أن العاقل يحصل المال من الوجه الذي يصلح له و يصرف فيما ينبغي الصرف فيه فينمو و يزيد و يبقى و يدوم له ، والجاهل يحصل من غير وجهه و يصرف في غير المصرف فيبطل ماله و يذهب بركته ، و قيل : المراد أن البركة من صفات العقل لارتفاعه عن العالم التغير والآفة والدور والنقص من صفات الجهل لتعلقه بعالم الفساد والزوال و الشرور .

(والعافية و ضدّها البلاء) يقال : عافاه الله معافاة و عافية إذا سلمه من الآفات وبلاء و أهباءه بلاء، إذا جرّ به و اختبره و امتحنه و يمكن أن يراد بالسلامة والبلاء، فيما

(١) رواء الصدوق - رحمه الله - في معاني الاخبار ص ٣٤٢ باب معنى المغبون باسناده

عن الصادق «ع» « من استوى يوماء فهو مغبون، و من كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط و من كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون ، و من لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان . و من كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة . »

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب استواء العمل والمداومة عليه تحت رقم ٣.

مرّ السلامة من إيذاء المسلمين أو من الأمراض النفسانية كما أشرنا إليه أو من العيوب والآفات البدنية كما قيل فإن السلامة من هذه الأمور من صفات العاقل إذا العاقل لا يؤذي مسلماً ويتخلص من الأمراض النفسانية مهما أمكن من العيوب والآفات حيث يعرفها ويعرف طريق التخلص ، والجاهل يختارها ويقع فيها من حيث لا يدري وأن يراد بالعافية والبلاء هنا العافية والسلامة من الأعمال الظاهرة الفاسدة أو من العقوبات الأخروية وأهوالها بالتحرز عن موجباتها أو مما يوجب سقوط المنزلة عند الله تعالى أو من المكافاة الناشئة من الإخوان، أو من زوال النعمة فإن السلامة من هذه الأمور من صفات العاقل لأنه يفرّ عما يوجب فساد العمل و ثبوت العقوبة وسقوط المنزلة ويعفو عن بني نوعه ويسامحهم فيتخلص بهذه الحيلة عن مكافئهم ويشكر النعم فيجلب النعمة ويأمن زوالها والابتلاء بهذه الأمور من صفات الجاهل . وعلى ما ذكرنا يتحقق الفرق المعنوي بين الفقيرين وإن كان تكلفاً ، ونقل عن الشيخ بهاء الملة والدين أنّهما بمعنى واحد وإن إحداهما كانت بدلاً عن الأخرى جمع بينهما الناسخ غافلاً عن البدلية ، وقال سيد الحكماء : البلاء ضد العافية بمعنى البلوى والبلية والبلاء ضد السلامة بمعنى الامتحان والاختبار ومن توهم أنّهما بمعنى واحد يلزمه أن يكون جند الجهل ثلاثة وسبعين وهو على خلاف قول الإمام عليه السلام وعلى خلاف جند العقل وفيه أولاً أن الامتحان والاختبار أيضاً بلية وثانياً أن من توهم اتحاد البلاء في الموضعين توهم اتحاد العافية والسلامة أيضاً فلا يلزمه أن يكون جند الجهل على خلاف جند العقل وأقل منه ، ولا يلزمه أيضاً أن يكون الجهل أقل من ثلاثة وسبعين لأن تفصيل الجنود زايد على ثلاثة وسبعين بثلاثة و غرض المتوهم أن يرجع بعضها إلى بعض حتى يعود الجميع إلى ثلاثة وسبعين كما أشرنا إليه في أول الحديث .

(والقوام ضد المكاثرة) القوام بالفتح العدل قال الله تعالى : « وكان بين

ذلك قواماً » وقوام الأمر بالكسر ما يقوم به أمره وينمّ به نظامه ، يقال : لفلان

قوام من العيش أى ما يقوم بحاجته الضرورية ، والمكاثرة من الكثرة وهي تقيض

القلّة و كثيراً ما تسعمل للمغالبة يقال: كثرناهم فكثرتناهم أي غلبناهم بالكثرة في المال أو العدة. يعني من صفات العاقل التوسط في تحصيل المعاش والاقتصار بقدر الكفاف وهو القدر الذي يحتاج إليه في بقاء شخصه و يتقوى به في عبادة ربه غير متجاوز عن ذلك الحد لعلمه بحقارة الدنيا ومفارقة لها إلى دار القرار و وقوفه للحساب بين يدي الملك الجبار فيبعثه ذلك إلى إعداد زاد الآخرة والانتقطاع عن حب العلائق و صرف العمر في طلب الحقائق والاجتناب عن زوائد الدنيا و الاختيار في طريق المعاش أحسن الطرائق و هو طريق التوسط ومن صفات الجاهل صرف العمر في تحصيل ما لا يحتاج إليه من زهرات الدنيا و زخارفها الموحية للخسران و في استكثار الأموال والأسباب للغلبة على غيره من أبناء الزمان و ذلك يوجب فرار طبعه السقيم عن إدراك معالم الدين حتى يأتيه الموت بغنة وهو من الهالكين .

(والحكمة و ضدّها الهوى) الحكمة ما يمنع من الجهل والحكيم من منعه عقله منه أخذت من حكمة الدابة وهي حديد اللجام لأنها تمنع الدابة عن الجموح والمراد بها العلم والعمل النافعين في الآخرة واتباع ما هو لأصلح والأفنع فيها لامتثالهم من العلم بحقائق الأشياء والتصديق بأحوالها والعمل بما يقصده العمل إذ هو شامل للحكمة النظرية بأقسامها أعني علم ما بعد الطبيعة و علم الرياضي و علم الطبيعي وللحكمة العملية بأقسامها أعني تهذيب الاخلاق و تدبير المنازل وسياسات المدن والظواهر أنه لا مدخل لأصول الرياضي في الدين والشارع لا يرغب فيها، و هي علم الهندسة الباحث عن المقادير و أحكامها ولواحقها و علم الحساب الباحث عن أحوال العدد و خواصّه، و علم النجوم الباحث عن اختلاف أوضاع الأجرام العلوية بنسبة بعضها إلى بعض و بالنسبة إلى الأجرام السفلية وعن مقادير تلك الأجرام و أبعادها (١). و علم التأليف الباحث عن أحوال المؤلفة، و علم الموسيقى

(١) ليس المراد بالحكمة المذكورة في هذا الموضع من الحديث علم الحكمة

الاصطلاحي لانه (ع) جعلها في مقابل الهوى ولو كان المراد العلم الاصطلاحي لجعله في

الباحث عن تناسب الأصوات بعضها ببعض وكمية زمان سكناها وحرركاتها وكيفية إخراجها عن مواضعها، وكذا لامتدخلكل فروعها فيه، مثل علم المناظر والمرآة و علم الجبر والمقابلة وعلم جرّ الأثقال، وكذا لامتدخلكل فيه لأصول الطبيعى الباحثة عن الزمان والمكان والحركة والسكون والنهاية واللاتهاية وعن الأجسام البسيطة والمركبة وكيفية حدوث الحوادث الهوائية والأرضية وعللها مثل الصاعقة والمطر والرعد والبرق والزلازل وأمثالها، وكذا لامتدخلكل فروعها فيه مثل الطب والفلاحة وغيرهما. والهوى مصدرهواه إذا أحبته واشتهاه ثم سمي به الهوى المشتهى محموداً كان أو مذموماً، ثم غلب على المذموم والمراد به هنا المعنى المصدري أغنى اتباع المهويات الذميمة واقتفاء المشتهيات القبيحة. ووجه كون الحكمة من جنود العقل وأعوانه والهوى من جنود الجهل وأنصاره ظاهر إذ بالحكمة (١) ينشور قلب العاقل

مقابل الجهل أو الفاقة والغبواة وأمثالها وهذا هو الصحيح فى الاحتجاج لاما ذكره الشارح رحمه الله من أن الشارع لا يرغب فى العلوم الرياضية كالنجوم إذ فيه مؤخذان الأول أن الشارع رغب فى علم النجوم وأمثاله بقوله «ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى قوله لايات لقوم يعقلون» لان فيها دلالة على التوحيد كما رغب فى العلوم الطبيعية فى آيات كثيرة وفى الطب والنشريع والجامع لذلك كله «سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» والمؤخذة الثانية أن كل شىء رغب فيه الشارع لا يجب حمل كل كلام عليه وظاهر كلام الشارح أن ما يتعلق من علم الحكمة الاصطلاحى بالالهيات وعلم النفس وتهذيبها وبالجملة ما رغب فيها وهى غير العلوم الرياضية والطبيعية داخل فى المراد (ش).

(١) يعنى به علم الحكمة الالهية فان صاحب هذا العلم يعرف المشروع والمحظور بالحكمة العملية عرفاناً جيداً مأخوذاً من وجهه ودليله ويعرف المعقول من المستحيل بالحكمة النظرية مثل أن يدالله وعين الله بالمعنى الجسمانى محال وأنه ليس فى جهة ومكان وأن الكلام النفسانى محال وأنه لايجوز الفيض عليه تعالى كتنقيص المفضول على الفاضل و يبصر المقاصد الشرعية اى يعرفها على بصيرة مثل أن القرض من العبادة تهذيب النفس فيجتنب الرياء (ش).

حتى يفهم المشروعات والمحظورات والمستحيلات و يبصر المقاصد الشرعية و
يَهْتَدِي إلى وجوه المصالح الدنيوية والأخروية ويحصل له بذلك من القول والفعل
والعقل حالة وثيقة وملكة شريفة لا يرد عليها الانتقاص ولا يعثر به الانتقاص (١)
إلى أن يرد في ساحة الحق والجاهل لما كان قلبه مظلماً بحيث لا يجد إلى معارف
الحق دليلاً ولا إلى منازل القدس سبيلاً إذ اتبع الهوى و ارتكب المحظورات و
استمر على المحرمات وانهمك في المشتميات زادت ظلمته و غلبت كدرته فهو
في بقاء الجهالة طائر ، و في ظلمات بعضها فوق بعض حائر ، حتى يطلع صبح
يوم القيمة عن أفق الموت و أي يوم و يوم تجد كل نفس ما عملت من خير
محضراً و ما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيداً و سيعلم الذين ظلموا
أي منقلب ينقلبون .

(والوقار و ضده الخفة) الوقار بالفتح الرزانة ، والمثانة ، وقد وقر الرجل
وقاراً فهو وقور أي رزين متين إذا كانت نفسه مطمئنة في تحصيل المطالب مستقيمة
في الوصول إلى المآرب بحيث لا يجر كرهاً الغضب ولا يهز لم المكاره بسهولة ولا
يتجاوز عن الحد اللائق به عقلاً و شرعاً و هو من جنود العقل في تصاعده من
المنازل السافلة وعروجه إلى المقامات العالية في الدنيا والآخرة لأن عدم انفعال
النفس بمرور المكاره و عدم اضطرابها بنزول المصائب و عدم تزلزلها بمشاهدة
النوائب راحة حاضرة و منفعة ظاهرة والعفو عن جرائم الناس والصفح عنها و عدم
الغلظة عليهم بتسكين ثوران الغضب واطفاء نيران الغيظ والتعب و ترك ما يوجب
الفرقة من التصاغر والتشاجر والتقاطع والتخاؤل والتنازع والنشائم والطيش و العجلة
من مكارم الأخلاق و محاسن الأفعال و محامد الأمور التي يوصف بها أهل المجد
والشرف والنجدة والرزانة ، و يوجب الرفعة عند الخالق و الخلايق ، و يجلب

(١) لأنه علم كل مسألة اعتقادية بدليل لا يعثر به شبهة فاستقام بخلاف أهل التقليد
والجهال و ربما ترى في كلام أصحاب الحديث أن إيمان الجهال اتقن وأحكم من كثير
من العلماء و هو بمنزل عن الصواب مردود على قائمه . (ش)

محببتهم ومودتهم. والخفة وهي الطيش والعجلة والجزع لفوات قليل والفرح لطلب كثير والاضطراب لأمر يسير والتزلزل لشيء حقير من صفات الجاهل لأن قلبه سخيّف وعقله خفيف ولبّه في تيه الجهالة حائر كأنّه موضوع على جناح طاير فيتحرك ويضطرب دائماً وذلك يثير الفتنة العظمى والبليّة الكبرى، ويسومه سوء العذاب، ويورده في مورد العتاب، ويخلع عنه لباس الكرامة، ويجرّه إلى ذلّ المهانة في الدنيا والآخرة.

(والسعادة و ضدّها الشقاوة) قال الله تعالى: «فمنهم شقيّ وسعيد» فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجدود، والسعيد الحقيقي من آمن وصدق بالله وما لائكنه ورسله إيماناً لا يفوته عمل ولا يشوبه دغل ولا يشوبه زلل ولا يعرضه خلل، وتصديقاً يقوى به عقله على التحرز من المكائد الشيطانية والوساوس النفسانية واللذات الجسمانية ويستعذّ بهذه لشرور أنوار المعارف الإلهية وبروق مكارم الأخلاق الربّانية بحيث ينظر بعين التفكير في ملك الأرضين وملكوت السموات، ويرى الحق بعين البصيرة في عجائب المخلوقات وبدائع المصنوعات ويرتوي من زلال عيون الكمالات ويخلع عن نفسه لباس الشهوات ويجتنب من هموم الدنيا والآلئق حالاتها ويتوجّه إلى أمر الآخرة وشواهد مقاماتها فيصير نوراً في نفسه ومصابحاً لغيره ذلك فضل الله سبحانه على عباده المرسلين والأئمة الطاهرين ومن اقتفى آثارهم من العباد الصالحين، والشقي الحقيقي من كفر بالأمر المذكورة ووقع في مهاوي الضلالة وممالك الغواية وبينهما مراتب متفاوتة ومنازل متباعدة يجتمع فيها اسم السعادة والشقاوة بالإضافة فربّ سعيد من وجه شقي من وجه آخر ومن غلبت سعادته فهو في جنّات النعيم ومن غلبت شقاوته فهو في عذاب الجحيم ومن استوى فيه الأمران فهو في خطر عظيم ورحمة الله قدّامه وهو الغفور الرحيم.

(والتوبة وضدها الإصرار) التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه و منعه من الوصول إلى الحق والندم على ما فرط والعزم على ترك المعاودة و درك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال ورد المظلمة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه فمتى اجتمعت هذه الأمور تحققت حقيقة التوبة و كملت شرايطها و تاب الله تعالى وهي من أهم قواعد الإسلام و أول مقامات السالكين الآخرة ، و قد اتفق أهل الإسلام على وجوبها فوراً و منافعها كثيرة منها أنها تخلع ثوب الدنس و تقطع عرق النجس ، و منها أنها تورث محبة الرب و رضوانه والدخول في جنانه قال الله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وفيه فضل عظيم و شرف جسيم للتائب حيث ينال محبة الحق التي هي أعلي مقاصد السالكين بعد ما كان في زمرة الهالكين ، و قال الباقر عليه السلام « إن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته و مزاده في ليلة ظلماء فوجدها قال الله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها (١) » فانظر أيها اللبيب إلى هذا الحديث الشريف و علو مضمونه تجده كافياً في الترغيب إلى التوبة و التحريض عليها لو لم يكن غيره و لكن الآيات الكريمة والروايات الشريفة في باب التوبة و بيان فضلها أكثر من أن تحصي وهي من صفات العاقل و أجناده لأن العاقل قصده لقاء الله تعالى دائماً و همته النزول في ساحة عزه و هو يجوز ذلك في كل آن و يترقبه في كل زمان فأكبر مقاصده وأعظم مطالبه أن يطهر نفسه بالتوبة والمداومة على ما يوجب البعد عنه من رجس الآثام قبل انتهاء وقت التكليف بالموت و انقضاء مدة العمل بالقوت بخلاف الجاهل فإن وصفه الإصرار على الذنوب والمعاصي والاقامة على الآثام والمناهي إذ هو لعميان بصيرته و فقدان سريره و نقصان عقيدته محجوب عن درك الآخرة و حالاتها و عن نيل عناية الحق و مقاماتها فيظن أن غاية خلق الإنسان هي وصوله إلى هذه اللذات الحاضرة والمنافع الدائرة فيستمر عليها و يستبشر بها ، و هو من الغافلين أو يظن بالآخرة ظناً ضعيفاً يستعد به لقبول ما يتلو عليه الشياطين من

تسوية التوبة غداً بعد غدٍ إلى أن يموت و هو من الخاسرين، ثم الإصرار بالذنب أعم من فعله على الاستمرار و فعله مرة مع عدم عزمه بالتوبة والاستغفار و ما روي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل « ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون » قال « الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار (١) » يحتمل الأمرين والظاهر منه هو الثاني ومن فسّر الإصرار بتكرار ذنب واحد أو بإيجاد حقيقة الذنب في ضمن أنواع مختلفة من الذنوب بحيث يشعر بقلّة المبالاة فقد غفل عن تحقيق معنى الإصرار في ذنب واحد مع عدم التوبة.

(والاستغفار و ضده الإعتار) الاستغفار من الغفر و هو الستر، والاعتار من الفرّة بالكسر وهي الغفلة والجرأة، واعلم أن والي البدن كثيراً ما يطغى في الإمارة ويخون في الولاية و يعصي السلطان الأعظم في إرادته فيستعمل الجوارح الظاهرة والباطنة كلها أو بعضها في غير طاعته ثم إنّه قد يستشعر بنقصه وعصيانته و خيانتته و طغيانه فيخاف أن يعاقب في الدنيا والدنّ و ينكشف مساويه عند المقرّين فيقبل بالطوع والاختيار ويتمسك بذيل الأقالمة والاستغفار طالباً لغفران الذنوب و سترها على الكرام لئلا يفضح بها عندهم يوم القيمة، ولمحوها باللطف العظيم والكرم العميم لئلا يعذب بسلاسل و أغلال في الجحيم، ويمحوها من لوح نفسه و صفحة الجنان لئلا يخجل بتذكّرها بعد دخول الجنة و روضة الجنان و مستكملاً لاستعداد الفوز بالرحمة في الدنيا بانزال البركات و في الآخرة برفع الدرجات والشاهد العدل على ذلك قوله تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً، وقد يرفع الله تعالى باستغفار مؤمن العذاب الذي ينوي عن جماعة من العصاة كما روي « أن الله تعالى يقول: إنّي لأهبط بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين والمستغفرين بالأشجار صرقتهم عنهم (٢) » ثم الاستغفار لا يتحقق معناه بمجرد هذا اللفظ بل لابدّ في تحقّقه من أمور

(١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الإصرار على الذنب تحت رقم ٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بن مالك بسند ضعيف .

لا يتلقاها إلا الصابرون المجاهدون كما يرشد إليها قول أمير المؤمنين عليه السلام لقائل
قال بحضرته أستغفر الله فقال عليه السلام: « شكلك أُمّك أتدري ما الاستغفار إن الاستغفار
درجة العاكين و هو اسم واقع على ستة معان أولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم
على ترك العود أبداً ، والثالث أن تؤدّي إلي المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله
أملس و ليس عليك تبعه ، والرابع أن تعتمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدّي حقها
والخامس أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى
يلصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة
كما أذقته حلالة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله (١) » وإذا عرفت هذا عرفت
أن الاستغفار من جنود العقل و أعوانه في العود إلى الحق والقرب منه والاعتزاز
يعني الغفلة عن الحق والجرأة عليه و الانخداع من النفس و الشيطان الموجب
للاصرار على المعاصي والاستمرار على الطغيان من جنود الجهل و أعوانه في البعد
عنه والاستحقاق بمزيد الخذلان وأنا أستغفر الله و أقول كما قال الشاعر:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفتيك ما علمتني الطلب
أراد بذلك قوله تعالى « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ».

(والمحافظة و ضدها التهاون) الحفظ الحراسة ، و التحفظ التيقظ ، و
المحافظة المراقبة ، والاستيهان والتهاون الاستحقار والاستخفاف ، يقال : استهان به
و تهاون به إذا استحقره و استخفظه ولم يبال ، أراد أن حراسة النفس و تيقظها و
مراقبتها في السير إلى الله سبحانه أو حراسة ما فعله من الصالحات و ما أتى به
من الخيرات و مراقبتها من أن تنطرق إليها الشبهات المبطلة والعقائد الفاسدة
كالرياء والسمعة ونحوهما أو حراسة الطاعات والعبادات بالالتيان بها في أوقاتها مع شرايطها
أو حراسة المؤمنين و مراقبة أحوالهم و محافظة حقوقهم بالأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر من خصائص العاقل لأنه يعلم بنور عقله أن له في كل قدم يرفعها
لله تعالى قريناً من الشيطان مترصداً لاغوائه وفي كل منزل عدواً من الغي لان منتظراً

لاضلاله وإن الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما هو خالص من المفاسد مقرون مع الشرايط واقع في أوقاتها ، وأن المؤمنين كنفس واحدة ، وهو لكماله في العقل بمنزلة راعيهم وحافظهم ، فلا يغفل عن المحارسة ولا يغمض من المراقبة أبداً بخلاف الجاهل فإنه دائماً غافل عن الحرّاس ، بعيد عن الحفاظ مستحقر لذلك العدو ، غير مهبال به مع كمال قوته وكثرة مكيدته ، مستخف بالطاعات متهاون بالعبادات ، مضيع الأوقات حتّى يردّه الشياطين إلى أسفل السافلين ألا ذلك هو الخسران المبين .

(والدعاء و ضده الاستكفاف) الدعاء في اللغة النداء والصيحة تقول دعوت فلاناً إذا ناديته وصحّته ، وفي العرف طلب الرحمة والفيض من الله سبحانه على وجه الخضوع والاستكانة وهو من أجل مقامات الموحّدين وأفضل درجات السالكين لكونه مشعراً بالذل والانكسار ، وإقراراً بصفة العجز والافتقار ، ومظهراً لتمام رتبة الحاجة برتبة الامكان ، واعترافاً بانعدام الممكن في غمرة المسكنة والمقصان ، وقد وردت الآيات المتكاثرة والروايات المتواترة من طريقة الخاصة والعامة في الترغيب فيه والحث عليه حتّى صار شرعه من ضرورات الدّين وهو من شعار الصالحين والصدّيقين وآداب الأنبياء والمرسلين فإن حكاية آدم ونوح وذي النون وموسى وأيوب وداود وسليمان وعيسى وغيرهم عليهم السلام ودعاء خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسيد الوصيين وأولاده الطاهرين عليهم السلام وكمال تضرّعهم وخشوعهم في القرآن العظيم مذكورة وفي كتب السير مسطورة وفي دفاتر المتقدمين والمتأخّرين من بورة وفي السنة الخواص والعوام مشهورة بحيث لا مساغ للرد والانكار ولا مجال للمناد والاستنكار ، وما خالج بعض الأذهان من أن المطلوب بالدعاء إما أن يكون معلوم الوقوع لله تعالى أو معلوم التلاوقوع وعلى التقديرين لا فائدة لأن الأول واجب والثاني ممتنع ، وبعبارة أخرى إما أن يكون وقوعه مصلحة للدّاعي أولاً يكون فعلى الأول يقع وإن لم يطلب لأن الله يفعل ما هو مصالح العباد قطعاً ، وعلى الثاني لا يقع وإن طلب فطلبه على التقديرين عبث ، وأيضاً أعظم مقامات العارفين

الرُّضَا بالقضاء والدُّعَاءُ ينافي ذلك ، فالجواب عن الأولين أن كلَّ كائن و فاسد موقوف في كونه وفساده على شرائط وأسباب كما علم من موضعه و دلُّ عليه أيضاً ما روي من أن الله تعالى يأبى إلا أن يجري الأشياء بأسبابها (١) ، إذا كان كذلك فلعلَّ الدُّعَاءَ من شرائط وجود المطلوب و مصلحته كما أن شرب الدُّوَاءِ من شرائط صحَّة المريض و أسبابه فال المطلوب مع الدُّعَاءِ معلوم الوقوع و مصلحته و بدونه معلوم الالاقوع و غير مصلحة ، وبالجمله هذا العالم عالم الأسباب والأشياء تجري بأسبابها والعبد لعدم كونه عالماً بكيفية علم الله تعالى بالأشياء وقضائه إيَّاهما يكون دائماً بين الخوف والرَّجاء و يجوز كون المعلوم و المقتضى مقبلاً بالدُّعَاءِ و يتأكَّد ذلك بقوله تعالى : « ادعوني أستجب لكم » فلذلك لا يترك الدُّعَاءُ في البأساء والضراء ، على أن لنا أن نقول الدُّعَاءُ لا يخلو من فائدة عظيمة ومنفعة جليلة لأنَّه إن كان من شرائط وجود المطلوب و أسبابه ففائدته ظاهرة ، وإن لم يكن كذلك سواء كان المطلوب مصلحة في نفسه من غير شرطية الدُّعَاءِ وسببته أو لم يكن مصلحة أصلاً كان الدُّعَاءُ عبادة مستقلة بل هو من أفضل العبادات كما دلُّ عليه الرُّوايات المعتمدة فيورث ثواباً جزيلاً وأجرأً جَمِيلاً في الآخرة ، والجواب عن الأخير أن العبد إذا دعا كان دعاؤه من جملة القضاء فكيف يكون منافياً له . و الحاصل أن المنافي للقضاء ما لا يجامعه والقضاء إذا تعلَّق بشيء مقبَّد بشرط أو سبب لا يكون ذلك السبب والشرط منافيين له ، وما روي « أن الدُّعَاءَ يردُّ القضاء وقد أبرم إبراهيم (٢) » فمعناه والله أعلم أن الدُّعَاءَ يوجب اختياراً أحد الفردين من القضاء التخيري مثلاً إذا تعلَّق القضاء بموت هذا المريض بشرط عدم طلب صحته و ببقاءه بشرط طلبها كان هذا القضاء متعلِّقاً بأمرين متضادين مشروطين بشرطين متقابلين و اختيار أحدهما هو كقول إلى العبد فأيهما اختار فقد رضي بالقضاء ، وإذا عرفت أن الدُّعَاءَ من أشرف مقامات السالكين عرفت أن ضده وهو الاستكاف يعني الأتفة

(١) الكافي كتاب الحجَّة باب مرفة الامام والرد إليه تحت رقم ٧.

(٢) الكافي كتاب الدعاء باب (أن الدعاء يرد البلاء والقضاء).

والكراهة والترفع والعدول عن الدُّعاء، الموجب للبعد عن الحق من أخس صفات الجاهلين المالكين قال الله تعالى : « إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » والعبادة هي الدُّعاء .

(والنشاط ضد الكسل) النشاط في العبادة من كمال المراتب الانسانية وهو ينبعث من عدم التقص اللأحق للنفس بسبب كلال بعض القوى الطبيعية عن أفعالها و عدم وقوف الأعضاء و فتورها عن أعمالها بسبب تحلل الروح و ضعفه و رجوعه إلى الاستراحة ولا شبهة في أنَّ ذلك من صفات العاقل الذي فكَّ عنه بالهمة الصادقة قيود الأغلال البشرية ودفع عنه بالهمة الخالصة أو زار الأثقال البدنية ، و أنار بنور عقله أعضاءه الظاهرة حتَّى يرى شخصه في هذا العالم و روحه لغفته و نورانيته في عالم الروحانيين ، يطير مع الملائكة المقربين ، فله من النشاط في العبادة ما لا يدخله سائمة من جدو و دؤوب ، ولا إعياء من كد و لغوب ، ولا نقصان من تطرُّق قصور ، ولا استحسار من طريان فتور كما قال سبحانه في وصف الملائكة : « و له من في السموات و الأرض و من عنده لا يستكبرون عن عبادته و لا يستحسرون الميل و النهار و لا يفترون » و الكسل يعني التناقل في العبادة من صفات الجاهل و المحبوس في سجن الطبيعة البشرية و المغلول بأغلال لواحق القوة الشهوية و المصفود بصفاد عوارض القوى البدنية فهو ثقیل لا یحرّکهُ ریح النشاط عن مرکزهِ إلى الدَّرَجَةِ العلیا، و لا شوق العبادة عن موضعه إلى المرتبة القصوى ، فیرضی - و هو کسلان - بالدُّون من الحیوة الدُّنیا .

(و الفرح ضد الحزن) الفرح السرور يقال : فرح به أي سرّ و أفرحه و فرحه تفریحاً إذا سرّ ، و الفرح أيضاً البطر و الأشر و هذا ليس بمراعاة لآثاره من صفات الجاهل لقوله تعالى « إنَّ الله لا یحبُّ الفرحین » و الحزن خلاف السرور يقال حزن الرجل بالكسر فهو حزن و حزين و أحزنه غیره و حزّنه ، و هذه الفقرة تحتمل معنيين الأول أن يكون الفرح كناية عن البشاشة و طلاقة الوجه للاخوان ، و

الحزن كناية عن الكلوح والعبوس، والثاني - وهو الأظهر - أن العاقل لكونه عارفاً بالمعارف الإلهية وعالماً بالحكم الربانية ومسئراً لأنوار الحق تابعاً لهدها ومقبلاً على عبادة ربه معرضاً عما سواه، مسرورٌ بمنهج فرحٍ أبداً في الدنيا والآخرة بما آتاه الله من الفضيلتين العلمية والعملية إذ لا لذّة أعظم منهما ولو نظر إلى ما يوجب الشرور في دار الغرور والتفت التفاتاً مّا إلى خسائس هذه الأمور بسبب شيطان قاده إليها أو ميل نفس حرصه عليها أخذت بضيعه الأنوار العقلية (١) وتوقظه من رقدة الغفلة في المراقدة الطبيعية، وحذبه العناية الإلهية من ورطة الهلكة الأبدية وأيدته على إبليس وجنوده فيجتهد في مقاومته ويتخلص من مصائده و يترصد لدفع حيله ويثبت في رفح مكائده، فيحصل بذلك ابتهاج و سرور أيضاً لغلبته على عدوه، وأمّا الجاهل الفافداهن الفضيلتين والمقهور في أسر ذلك العدو فهو حزين في الدارين إذ لا ألم أعظم من ذلك في الدنيا والآخرة أعما في الآخرة فظا هر لأن الآلام الأخروية التي توجب لهم والغم والحزن عند مشاهدة السلاسل والأغلال ومعاناة الشدايد والأهوال، ظاهرة غير محتاجة إلى البيان. وأمّا في الدنيا فلا أن الأعراض عنه سبحانه والاشتغال بما سواه كما هو وصف الجاهل ألم نفسي ومرض روحاني يوجب همّاً وغمّاً وحزناً في نفس الأمر ولا يقدح فيه غفلته وتوهمه أن ذلك أنفع له كما أن السم [الم] مهلك وإن توهم شاربه أنه أنفع له على أنه قد يصدق على مقتضى عقله الفطري بأن الأولى به والأ نفع له هو متاع الآخرة سيما عند معاناة الموت فيحصل له ألم شديد وحزن طويل ولكن لا ينفعه ذلك ما بقي على حاله كما أن الخائن المعذب بسبب الخيانة يصدق بأنه كان الأولى به ترك الخيانة ويحزن ويتأسف ولا ينفعه ذلك.

(والألفة و ضدّها الفرقة) الألفة توافق الآراء والعقائد في تدبير المعاش

والمعاد وهي فضيلة مندرجة تحت العدالة التي هي الاستقامة في القوى الفكرية و

(١) الأنوار العقلية هم الملائكة الموكلون بتسديد عباد الله وهدايتهم إلى التقوى

والاخذ بالضميرين كناية عن هذا التسديد والتأييد والضيغ تحت العضد (ش).

الغضببية والشهوية والمتوقفة على كثير من الفضائل النفسانية مثل التحمل و
التواضع والرقّة والحياء والرّفق والصبر والوقار والورع والعفو والمروءة والسماحة
والمسامحة والصدقة والوفاء والشفقة والتودّد إلى غير ذلك من الأمور المعلومّة
لأن تأمّل في فضائل النفس ، وكونها من صفات العاقل ظاهر لأن هذه الأمور المذكورة
لا يتّصف بها إلا عاقل راض نفسه في ميدان المجاهدة ، ولأنّه يعلم بشروق عقله
أنّه يحتاج في غذائه ولباسه ومسكنه ودفع أعدائه وتحصيل أمر الآخرة و
ترويج الشريعة إلى التناصر والتعاون والتعاقد وكل ذلك متوقّف على الألفة ،
والفرقة من أحسن صفات الجاهل لا تصافه بزایل نفسانية مؤدّية إليها أولاً
لظلمة قلبه لأبراعي عواقب الأمور ، ومدى نظره إنّما هو جلب منفعة حاضرة و
دفع كلّ ما هو عائق عنها ولو بسفك الدّماء كما هو المشاهد من أبناء الزّمان
ولأريب في أنّ ذلك موجب للمعاندة والمفارقة ، ويحتمل أن يراد بالألفة الألفة
بأهل البيت عليهم السلام ، وبالفرقة التباعد عنهم ، وقيل : الوجه في كون الألفة من
صفات العقل أنّ العقل جوهر مرتفع الذات عن الجسم والجسمانيّات وعالمه
عالم الوحدة والجمعيّة ، والجهل صفة النفوس المتعلّقة بالأجسام وصورها التي
وجودها عين قبول الانقسام والافتراق ووجدتها عين كثرة وصلتها عين انفصال
ومباينة فكلّ واحد من ذوي النفوس الجزئية قبل أن يستكمل ذاته عقلاً بالفعل
لا يحبّ إلاّ نفسه بل يعادي غيره ويحسده على ما آتاه الله من فضله فإذا أحبّ
بعضهم بعضاً فإنّما أحبه لينوسّل به إلى هواه وشهوته فما أحبّ إلاّ نفسه ولذلك
إذا ارتفعت الأغراض والأغراض بينهم كما في الآخرة رجعوا إلى ما كانوا
عليه من الفرقة والعداوة كما في قوله تعالى : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدوّ إلاّ المتقين .

(والسخا ضدّه البخل) السخاء في اللغة الجود يقال : سخا يسخو إذا جاد
بماله ، وسخو الرجل بالضم يسخو سخاوة أي صار سخياً ، وفي الاصطلاح ملكة
توجب إنفاق الأموال و سائر المقتنيات في موضعه على قدر لا بدّ منه بسهولة ومن

شرايطه أن يأخذ الشيء من موضعه ويضعه في موضعه فلو صرف الحرام في المستحقين أو صرف الحلال في غيرهم لا يكون سخياً ولا يستحق بذلك ثواباً و تلك الملكة خلقية في الأكثر و قد تكون كسبية حاصلة بكثرة الإعطاء و مزاولة الجود ، فإن غير الطبيعي قد يصير طبيعياً بالممارسة و هي فضيلة نفسانية مندرجة تحت العفة التي هي الاعتدال في القوة الشهوية ، و يندرج تحت السخا كثير من الملكات والفضائل ، منها الكرم و هو أن يسهل على النفس إتفاق الكثير فيما نفعه عام على وجه يقتضيه المصلحة ، ومنها الإيثار و هو أن يسهل عليهم صرف ما يحتاج إليه في الفقراء والمساكين ، ومنها المواساة و هي أن يسهل عليها تشريك المستحقين في ماله و أسبابه ، ومنها المسامحة و هي أن يسهل عليها ترك ما لا يجب عليها تركه ، و منها العفو و هو أن يسهل عليها ترك المجازاة بالظلم مع القدرة ، و منها المروءة و هي أن يكون لها رغبة صادقة على التحلي بحلية البذل و إعطاء ما ينبغي ، و منها النيل و هو أن يكون لها ابتهاج بمداومة الأفعال الحسنة والخصال المرضية ، و منها الصداقة و هي أن يكون لها اهتمام على تحصيل أسباب صديقه بقدر الامكان ، و منها الألفة و هي أن يكون لها اعتناء بتدبير معاش الخلطاء ، و منها الوفاء و هو أن تلتزم طريق المواساة والمعاونة ، و منها الشفقة و هي أن يكون لها همّة صادقة على إزالة المكروهات عن الغير ، و منها المكافات و هي أن تقابل الإحسان بمثل أو زائد عليه ، و منها حسن الشركة و هو أن تراعي الاعتدال في المعاملات ، و منها النود و هو إظهار المحبة للأقران و أهل الفضل وتلقّيهم بطلاقة الوجه و حسن البشر ، و منها صلة الرحم و هي أن تراعي حقوق الأقرباء وتشاركهم في الخيرات الدنيوية والأخروية ، و منها التوكل و هو تفويض أمرها إلى الله سبحانه ، و منها الصبر و هو أن لا تجزع من فوات المال و غيره ، و منها القناعة و هي أن لا تحرص على جمع ما لا يحتاج إليه ، و منها الوقار و هو أن تكون ساكنة في تحصيل المطالب غير مضطربة ، و منها الورع و هو أن تجتنب عن الأفعال القبيحة ، و منها الحرية و هي أن تقتصر على اكتساب المال من الطرق الجميلة و لذلك كانت السخاوة

والجود من صفات الأنبياء والمرسلين والصدّيقين ومن اقتفى آثارهم من الصالحين
 الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله ووعده ووعدته في الحشر والنشر والثواب والعقاب
 ورأوا بصدق الهمة في أحوال الفقراء والمساكين والأيام والأراذل والمستحقين
 وقصدوا بخلوص النية رفع الحوائج عنهم لا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً، وقد
 دلّ العقل والنقل على شرافة تلك الفضيلة وعلو منزلتها، أمّا العقل فإنّ عباده
 الله عياله ومن قام لقضاء حوائج عيال أحد في حال حضوره وغيبته ووطن نفسه
 على رعاية حقوقهم ونظر بعين التلطّف والشفقة إليهم كان عند صاحب العيال
 مكرماً معزّزاً محبوباً سيّماً إذا كان كريماً قادراً على جميع أنحاء الإكرام والله
 سبحانه لم يجعل أحداً فقيراً لأجل الهوان ولا غنياً لأجل استحقاقه بالفضل والإحسان
 بل إنّما فعل ذلك لأجل المصلحة والامتحان فمن نظر إلى الفقراء والمحتاجين
 بعين الحقارة وخطر بباله أنّهم لا يستحقّون الكرامة من الله سبحانه وإلاّ أعطاهم
 ورفع حاجتهم فهو جاهل بالمصالح الإلهيّة وكافر بالحكم الربّانيّة ويتوجّه
 إليه الذمّ في قوله تعالى : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا
 للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلاّ في ضلال مبين » وأمّا النقل فلنقله
 تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكيباً ويتيمّماً وأسيراً » إنّما نطعمكم لوجه
 الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً إنّنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقاهم
 الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً و
 قول أبي الحسن (عليه السلام) السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس والسخاء
 شجرة في الجنة من تعلّق بغصن من أغصانها دخل الجنة (١) ، إلى غير ذلك من
 الآيات الكريمة والآيات الصحيحة وهي أكثر من أن تحصى ، والبخل وعدم
 بذل المال سيّماً فضله في وجوه الفقراء والأقرباء من صفات الجاهل ومبدؤه حب
 الدُّنيا والرغبة عن الآخرة وخوف الفقر وسوء الظنّ بالله وبمواعيده الصادقة
 وبعده عن التوكّل والزهد والشفقة والرّقة والرّحمة والتعطّف لغلظة طبعه و

(١) الكافي كتاب الزكاة باب معرفة الجود والسخاء تحت رقمه.

رداءة نفسه و سوء خلقه و شرارة ذاته ، فبيعته ذلك على استمساك المال عن نفسه فضلاً عن غيره فلذا قال سيد الوصيين عليه السلام : « عجبنا للبخل الذي يستعجل الفقر الذي منه هرب و يفوته الغنى الذي إتياء طلب فيعيش في الدنيا عيش الفقراء و يحاسب في الآخرة حساب الأغنياء (١) » و سبب التعجب أنه اختار البخل خوفاً من الفقر وضنك العيش يوماً ما مع أنه يدخل في الفقر وضنك العيش باعتباره أنه لا يتفق على نفسه ولا على عياله ولا على غيره وبالجملة البخل عار في نفسه جامع لمساوي العيوب و هو زمام يقادبه إلى كل سوء و كماك شاهداً قوله تعالى في قصة قارون و أمثاله و قوله تعالى « و من يبخل فانما يبخل عن نفسه » و قول أمير المؤمنين عليه السلام « إذا لم يكن لله في عبد حاجة ابتلاه بالبخل (٢) » و أمثال ذلك من الآيات والرؤايات أكثر من أن تحصى (ولا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل) التي بها يقاتل الجهل و جنوده في ملك الأبدان و ساحة القلوب و هذه الخصال من حيث أن بها يتحقق التناصل والتسابق إلى الخيرات تسمى خصالاً ؛ ومن حيث عروضها تسمى صفات ، و من حيث عدم رسوخها بعد تسمى أحوالاً ، و من حيث رسوخها بالنمرن والندرب تسمى أخلاقاً و ملكات و من حيث إطاعتها للعقل و عدم خروجها عن حكمه تسمى خوام . و من حيث كونها محفوظة بحفظ العقل و حراسته عن الآفات تسمى رعايا ؛ و ما ورد في بعض الأخبار من الأمر بمراعاة الرؤايع لرعيته يندرج فيه هذا أيضاً و من حيث أنها أعوان للعقل في محاربتة للجهل تسمى أجناداً (إلا في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان) أي اختبره بالشدائد والمحن والرّياض والفتن لنحقق الإيمان (٣) له أوليته تحقيق له الإيمان الكامل

(١) النهج ابواب الحكم تحت رقم ١٢٦ .

(٢) الكافي كتاب الزكاة باب البخل والشح تحت رقم ٣ .

(٣) يقول اهل العصر ممن له استهتار باصحاب الطبائع ان عبادة رب لا يرى ينافي الامر بمناجاة العقل و تعظيم شأنه و هذا كلام شيطاني نقل من الملاحدة واصحاب الدهر واجاب بعضهم بان الادراك بالوجدان كالادراك بالعيان . والاعتراض ساقط من اصله اذ

أو صقله و جلّاه من كدر الأرجاس و طهره و نقّاه من دنس الأخبات من معنات
البئر محناً إذا أخرجت ترابها و طينها (و أمّا سائر ذلك) المذكور (من موالينا)
جمع الموالى و هو يطلق على المعتنق بالكسر و الفتح و على ابن العم و العصابة
كلّها و منه قوله تعالى «وإنّسى خفت الموالى» و على الرّبّ و المالك و منه قوله تعالى
«ثمّ ردّوا إلى الله موليتهم الحقّ» و قوله ﷺ «أيتما امرأة نكحت بغير إذن مولاه»
و على الناصر و المحبّ و منه قوله تعالى «ذلك بأنّ الله مولىّ الذين آمنوا» والمراد
به هنا الأخيران (فإنّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود) و
ذلك ظاهر فإنّ شيعة أهل البيت ﷺ هم الذين آمنوا بالله و ملائكته و كتبه
و رسله و اليوم الآخر ففيهم بعض الخصال المذكورة من جنود العقل قطعاً (١)

الإنسان العاقل اذا قامت الأدلة على وجود واجب الوجود عبده و ان لم يره و لم يعبده و
لم يعرف حقيقته و اما ان كل موجود محسوس فمن اغلاط الواهمة سيأتى ابطاله ففى
فى مباحث التوحيد ان شاء الله . (ش)

(١) و اعلم ان كون العقل حجة و دليلاً لا ينافى ماورد فى ذم القياس من ان دين
الله لا يصاب بالعقول و ليس شىء أبعد من عقول الرجال من احكام الله تعالى لأن العقل
حجة فيما افاد اليقين و انتهى انما هو عن الظن اذ لا يستفاد من القياس اكثر من الظن و
الاحكام الشرعية الفرعية مما لا طريق للعقل اليه غالباً كوجوب صوم شهر رمضان و حرمة
صوم العيد و قد يكون للعقل اليه طريق فيكون حجة كحرمة القتل و السرقة و غصب اموال
الناس و قال بعض من لا خبرة له ان العقل لا يحتاج به فى الاصول و المقررات الاولى و
يحتاج به فى التجزية و التحليل و تطبيق الاحكام على مقتضيات الازمان و الحق عدم الفرق
بينهما فما حصل من العقل اليقين فهو حجة فى الاصول الاولى و غيرها و ما لم يحصل لم
يكن حجة مطلقاً و التجزية و التحليل و التطبيق الفاظ مبهمّة لا يحصل لها و ان كان
للتجزية و التحليل معنى معقول فهو القياس بعينه و تطبيق الاحكام على مقتضى الازمان
غلط لان الاحكام الالهية لا تتغير بتغير الازمان و الشرع المجدى (ص) ناسخ لجميع الشرايع
و حلاله حلال الى يوم القيمة و حرامه حرام الى يوم القيامة و الله و رسوله اعلم بمقتضى
كل زمان و مصالحها حيث حكما ببقاء هذا الدين الى الابد. ثم انه مثل مثالا لا يغير احكامه

و بحسب ما وجد منها فيهم يتنور قلوبهم و يصفو أذهانهم و يرتفع درجاتهم و ذلك متفاوت في الكم والكيف والمقدرة على تفاوت أنحاء التركيبات الغير المحصورة المتصورة فيها و لذلك لا تجد اثنين منهم متفقين في خصلة واحدة لا توجد فيها تفاوت . و إنما قال : ه من موالينا ه فان غيرهم قد يخلو من جميع هذه الخصال

❦ الاسلام بمقتضى الزمان و هو ان عبد الملك بن مروان اذ ادهم دار في جوار المسجد الحرام و جعلها فيه فلم يرض صاحب الدار بكل قيمة و تجير عبد الملك ولم يدر ما يفعل لان غصب اموال الناس حرام في الشريعة ولا يجوز بناء المسجد و الصلوة في المكان المنسوب فدلوه على زين العابدين (ع) فافتاه بهدم الدار و عدم استحقاق صاحبها القيمة لان بناء المسجد كان سابقاً على بناء الدور . وهذا غير صحيح وعلى فرض صحته اجنبى عن المقام لان الكلام في ان غير المعصوم امثالننا لا يجوز لنا تغيير حكم الله تعالى الذى ورد من النبي و الائمة المعصومين ، و اما الائمة انفسهم يقولهم حجة مأخوذ من الله تعالى بالوحي والالهام فحكمهم حكم الله تعالى وهو حكم الشرع بعينه وهذا مثل ما حكموا بقطع يد السارق مع حرمة قطع اليد و بيع اموال المديون قهراً عليه لاداء حق الدين مع عدم جواز التصرف في مال احد الا باذنه ولا يلزم من جواز التخصيص والتقييد بل النسخ من الله تعالى في احكامه أن يجوز لنا أيضاً و لعل زين العابدين (ع) علم باخبار غيبى الهى أن تلك الدار كانت غصباً من المسجد وقد روى في الكافى والتهذيب و نقل في الرسائل عنهما في ابواب مكان المصلى ما يؤيده عن أبى عبدالله (ع) حيث سئل عما زيد في المسجد الحرام قال انهم لم يبلغوا بعد مسجد ابراهيم و اسماعيل عليهما السلام و قال ان ابراهيم و اسماعيل حدا المسجد ما بين الصفا والمروة و في رواية اخرى بين الحزورة والمعى . ثم ان ما نقله عن زين العابدين (ع) نقلوه عن العليفة الثانى ولا نعرف معنى كلامه ولا حجة في قوله و لم يحكم احد من ائمة المسلمين ان من سبق الى عمارة ارض له حق فيها يجاوره كلما احتاج اليه بحيث يجوز له عدم بناء من بعده في العمارة . و روى عن عبدالصمد بن سعد وهو مجهول لا يعرف و نكرة لا نعرف عن أبى جعفر المنصور و أبى عبدالله (ع) نظير ما نقل هذا الغائل عن عبد الملك و زين العابدين (ع) و كذا عن رجل اخر مرسل عن المهدي ولا حجة في هذه ❦

و يكون قلبه معسكر الجهل وجنوده كلها و في أطرافه و ثغوره حراً أس بحيث لا يجد العقل إليه دليلاً ولا إلى استطلاع حاله سبيلاً كما قال الله تعالى: «ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة و لهم عذاب أليم» وقد يوجد في بعضهم بعض جنود العقل كالسخاء و نحوه ولكن لا ينفعه لفقده ما هو أعظم منه وأصل للجميع أعني الايمان الذي هو موجب للمرتبة والدخول في الجنة فهو دائماً في الدرجة السفلى محشورة مع الشياطين.

(حتّى يستكمل و ينقى من جنود الجهل) و ذلك الاستكمال أمر ممكن لأنّه لما بنى دينه على أصل متين و أمر يقين و حصل له بعض الخصال المرضية والأ نوار العقلية أمكن له تكميل ذاته بسائر الخصال النورانية والعروج إلى أعلى مدارج الكمال بجذبة من الجذبات الربانية وتنقيته بهمة صادقة ونية خالصة و قدم ثابتة من جنود العقل و أعوانه و ذلك بأن يكون منبسطاً في جميع الأوقات و مراعيّاً لحاله في جميع الحالات و يختار من الأعمال والعقائد والصفات ما هو في الشرع أحكم و أتقن و عند العقل أفضل وأحسن فينظر مثلاً إلى الصلة والسخاء و منافعهما و إلى القطيعة والبخل و مضارهما و يختار الأ ولين على الأ خيرين و كذا دائماً (فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأ نبياء والأ وصياء) و حسن أولئك رفيقاً و إنما لم يذكر المؤمن الممنحن إمّا للاقتصار أو للإشارة إلى أن هذا المستكمل هو ذلك المؤمن (و إنما يدرك ذلك) أي الاستكمال بجميع تلك الخصال أو الكون في الدرجة العليا مع الأ نبياء والأ وصياء والأ ول أولى لفظاً

بأصلاً و أما عبد الملك بن مروان فلم يزد في المسجد الحرام شيئاً على ما صرح به المؤرخون كالطبري والكمال والعمتون بتاريخ مكة والكعبة كالازرقى والفاكهي و النفاسي في شفاء الغرام و صاحب كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ولاريب ان جميع حوادث مكة المشرفة مضبوطة حتى انهم ذكروا عدد السيول التي جرت و السنين التي وقعت فيها و القحط والغلا في كل سنة حدثت فضلاً عن ولائها و عمارة المسجد و غير ذلك و اصل الحكاية فرية بالامرية. نظير ما ادعاه من ترويح المنوكل منهج الاشعري وكان متأخراً عنه بمائة سنة (ش)

و معنى (بمعرفة العقل و جنوده و مجانبة الجهل و جنوده) وجه الحصر ظاهر لأن العمل بشيء منوقف على العلم به ، ولأن التمييز بين الحق والباطل منوقف على العلم بكون هذا حقاً و ذاك باطلاً ، و إنما لم يقل و بمعرفة الجهل و جنوده كما قال في الأوّل لأمرين أحدهما أنّه إذا حصلت معرفة العقل و جنوده حصلت معرفة الجهل و جنوده بالمقابلة لأنّ كلّ ما ليس عقلاً و جنوده فهو جهل و جنوده في حالات الانسان و ثانيهما أنّ المقصود الأهم هو مجانبة الجهل و جنوده لأنّه الغالب في الأثر أكثر و الموافق لمنفوس البشريّة (وفقنا الله وإياكم لطاعته و مرضاته) الرّضوان بالضم و الكسر و الرّضى والمرضاة بمعنى واحد و هذا من كلام الصادق عليه السلام ودعاء لنفسه و لمن كان حاضراً عنده من مواليه ، و لمن غاب عنه و لمن يوجد إلى يوم القيمة من باب تغليب الحاضر على الغائب ، و فيه تنبيه على أنّه لا بدّ لطالب الخير من الالتجاء إليه سبحانه و طلب التوفيق منه إذ بيده الخير و هو على كلّ شيء قدير و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

((الاصل))

مرکز تحقیق کتب پروردگار

١٥ - جماعة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد بن عيسى ، عن الحسن بن علي ، عن ابن فضال ، عن بعض أصحابنا ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما كلّم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله قط ، و قال : قال رسول الله ﷺ : إنّنا معاشر الأنبياء ، أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم .

((الشرح))

(جماعة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن فضال عن بعض أصحابنا ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما كلّم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله قط) كنه الشيء نهايته يقال « أعرفه كنه المعرفة أي نهايتها ولا يشق منه فعل و قولهم لا يكتنهنه الوصف بمعنى لا يبلغ كنهه كلام مولد وقد يكون كنه الشيء حقيقته

التي هو بها هو ، وفيه إشارة إلى كمال عقله ﷺ فإنه نور رباني لا يدانيه شيء من العقول إذ كما أن الأ نوار متفاوتة فنور الشمس والقمر والكواكب والمصباح والبراعة بعضها فوق بعض لا يكون إلا حق مثل السابق ، فكذلك العقول متفاوتة في الدرجات والمراتب وعقله ﷺ أعلى الدرجات الممكنة وأقصى المراتب المتصورة و هو مظهر للحقايق والمعارف الالهية ومعدن للأسرار والعلوم الربانية ومدرك لما يعجز عن إدراكه عقول البشر ويقف دون الوصول إليه الفكر والنظر فلذلك ما كلّم العباد أهدأ بحقيقة ما عرفه ونهاية ما بلغه و كيفية ما عقله لئلا يقعوا في الحيرة وقد بعث لأزاحتها و أرسل لأزالتها ، ولأن الغرض من الكلام إنما هو الافهام والمخاطب إذا لم يفهم كان ذلك عبثاً والحكيم لا يعيثر . ولذلك كانت الحكماء يوصون بضئ الحكمة عن غير أهلها (١) ومن هذا القبيل ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال «قام عيسى ابن مريم خطيباً فقال : يا بني إسرائيل لا تحذروا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم (٢) » وينبغي أن يعلم أن المراد بالعباد أكثرهم فانا نعلم قطعاً أن علياً عليه السلام نفسه المقدسة كما دلّت عليه آية المباهلة وغيرها من الروايات وأنه كلّمه و علّمه بكنه ما عقله ممّا هو كائن ويكون في الدنيا والآخرة.

(و قال قال رسول الله ﷺ : إنا معاشر الأنبياء) أي جماعاتهم جمع معشر وهي الجماعة (أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم) أي على قدر ما يدركه عقولهم من

(١) قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في أول كتاب الاشارات : و أنا أعيد وصيتي و أكرر التماسي أن يضمن بما يشتمل عليه هذه الاجزاء كل الضن على من لا يوجد فيه ما اشترطه في آخر هذه الاشارات ، ومنع في آخر الكتاب من تعليم الحكمة لطائفتين الاولى الجاهلين المبتدئين و من لم يرزق الفطنة والوقادة - الى آخر ما قال - والثانية ملحدة هذه المتفلسفة و مرجهم - الى ان قال - فان ادعت هذا العلم أو أضمته فانه يبنى و يبنى و كفى بالله و كيلا (ش).

(٢) سيأتي في كتاب العلم باب فضل العلم تحت رقم ٤ .

المعارف والحقايق وغيرها لأنَّ الحكيم التحرير يراعي في تعليم العقول النافضة المنحيرة في تيه الضلالة والنفوس المنكدرة برين الغواية وغين الجهالة وتأديبها بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق والنضائل وتخليصها عن غواشي الأوهام ومساوي العيوب والرتايل ما يناسبها ويبلغ إليه فهمها وينتهي إليه دركها (١) وقد يلبس

(١) يدرك أرباب العقول الكاملة فضلا عن الانبياء أموراً لا يمكن تعليمها لعامة الناس بوجه أصلا لعدم استعدادهم لفهمها فيجب عليهم تخصيص تعليمها بمن يجدون فيه استعداداً تاماً و يدركون أيضاً أموراً يمكن تعليمه للناس في صورة مثل و تمثيل قريب الى اذهانهم و أعظم الافات للعامة تمكن العادات و مغالطة الاوهام و عدم تدربهم في فك العقل عن الوهم ولكل شيء في ذهنهم لوازم غير مترتبة عليه واقعاً ولا يتوقع منهم ما يمر على المتدربين في العقليات مثلاً الفرق بين الحدوث الزماني والحدوث الذاتي والفاعل بالاختيار والعلة النامة فانهم وأواكل علة نامة فاعلا غير مختار كالنار المحرق والشمس للنور وأواكل فاعل مختار علة ناقصة كالإنسان وإذا قيل لهم ان الله فاعل مختار ذهب ذهنهم الى انه تعالى علة ناقصة وإذا قيل انه تعالى علة نامة ذهب ذهنهم الى انه فاعل لا بالاختيار ويشعرون من كذا الحكمين ولا يسهل عليهم الجمع بينهما ولا يمكن أيضاً ان يفهم العامة معنى قول العلامة الحلي رحمه الله في شرح التجر بدان اعادة المدوم ممتنعة ويذهب ذهنهم الى انكار المماد وكذلك قوله ان احتياج الممكن الى الواجب لا مكانه لالحدوث وقولهم المحال غير مقدور ولا يعرف الناس معنى المحال ولا يفرقون بين المحال العادي والعقلي بل ولا بين النادر الوقوع والمحال العادي أيضاً ويظنون مثل شق القمر والمراج محالا وقد ورد أن المرأة تحتلم ولكن لا تحدثوهم ولو كان احتلامهن عادة كالرجال وجب تعليمهن لوجوب الفسل والصلوة عليهن ولكن منعوا عليهن السلام من تعليمهن لان ذلك أمر نادر فاذا حدثن بذلك ذهبت أوهامهن الى أن ذلك عادة مستمرة لهن فينتسطن لكل طوبى لرجة في مفاسد آخر و كثير من مسائل الفقه مما يذهب ذهنهم من جوابها الى امور باطلة و ان كان الجواب صحيحاً وان اقيمت بولاية الجائر ذهبت أوهامهم الى تجويز كل ظلم او تجويز الصفق ذهبت الى كل منكر وفحشاء وهكذا. (ش)

المطالب بكسوة الأمثال لعلمهم يفهمون كما قال سبحانه : و تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون وبالجملقة الناس أطفال وعقولهم غير بالغه وهو عقله المعلم والمعلم الرباني لا يعلم الأطفال إلا بما يناسب حالهم و تبلغ إليه عقولهم و ينشئ إلىه ذهنهم.

((الاصل))

١٦- «علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن جعفر ، عن أبيه عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إن قلوب الجهال تستغفرها الأطماع وترتها المني وتستغفرها الخدائع».

((الشرح))

(علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن النوفلي عن السكوني ، عن جعفر ، عن أبيه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إن قلوب الجهال تستغفرها الأطماع أي تستخفها ويفزعها وتزعجها وتطيرها وتسلب طما نيتها ، والأطماع جمع طمع وهو معروف وقد يجىء بمعنى الرزق يقال : أمر لهم الأهر بأطماعهم أي بأرزاقهم وينشؤ ذلك من تموج القوة الشهوية واضطرابها حتى تستولى على ساحة القلب فيصير مظلماً إذا خرج يده لم يكديرها ، وعند ذلك يعدل عن الصراط المستقيم و هو الوثوق بالله العظيم إلى ما هو من أخس مكائد الشيطان وأضر أحوال الإنسان وهو الطمع فيما في أيدي الناس فيقع في وثاق الدل و عبودية العباد ويحرم عما سبق له من الميعاد في دار المعاد و هو أصم لا يسمع نصيح الناصح الأمين قال أمير المؤمنين عليه السلام : ولا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك وهن منك في الدين ، و استرزق الله مما في خزائنه فإن ذلك بين الكاف والنون ، إن الذي أنت ترجوه وتأمله من البرية مسكين بن مسكين وأما العاقل فهو مع علمه بأن مورد الطامع قد لا يكون باعثاً لتحصيل المراد ولا سبباً لإصدار ما أراد بل يتخلف عنه المرام و يصير ذلك

موجباً لتضييع الأيَّام يرى في صفاء مرآة قلبه وخامة مآل تلك الأحوال فيفرُّ منها
فرار الجبان من مشبل معها الأولاد والأشبال (وترتهنها المنى) المرتهن الذي يأخذ
الرهْن و المنية والامنية واحد والجمع المنى والأمانى فتشبيه المنى بالمرتهن
مكنية وإثبات الارتهاَن لها تخيلية ، و الراهن هو النفس الأمارة بالسوء ، و
فيه مبالغة بليغة على كمال إفلاسها حيث رهنت لغاية اضطرابها وعدم اهتدائها إلى
المظلوم ما هو أشرف منافع البيت و هو القلب و ينشؤ ذلك من الإفراط في القوة
الشهوية و مرضها الذي يسرى إلى البصائر و يوهنها و يطمس نورها ويمنعها عن
إدراك المعارف و ما ينفع في اليوم الآخر فلا محالة يتوجَّه إلى الشهوات الزائلة
و الزهوات الحاضرة و الأمانى الباطلة و ينظر إليها بعين الظاهرة فيتمنى دائماً
حصول ما لا يبلغه و بناء ما لا يسكنه و جمع ما يتركه لانتفاء الزَّاجر فلا يبالي من
باطل جمعه و من حقَّ منعه و من حرام حمله و أمّا العاقل فيعلم بنور بصيرته أنَّ
أشرف الغنى ترك المنى والاعتماد على الموالى ، وبخلوص سريره أنَّ الأمانى
آفة تعمى أعين البصائر الثني في الصدور حتى لا ترى وخامة عوالب الأمور فيحصل
له غمّة صادقة تبعثه على فطام النفس عن الشهوات و نزع القلب عن أيدي الأمانى
والشبهات و صرف النظر عن الخلق والرَّجوع بالكلية إلى الحق (و تستعملها
الخدایع) بالعین المهملة والقاف يقال : علّق الشيء بالشيء ، تعلّقاً فتعلّق به و علّق
باباً على داره إذا نصبه و ركبه و علّق بالشيء بكسر اللام بمعنى تعلّق واستعلّق
هنا بمعنى علّق بالكسر لا المجرّد الطلب إلا أنَّ فيه مبالغة لأنَّ الواقع مع الطلب
أشدُّ و أقوى ، و خدعه و يخدعه خدعاً أي خنله وأراد به المكروه والضرر من حيث
لا يعلم والاسم منه الخديعة وجمعها الخدایع و معناه بالفارسية (ميجسید بقلب جاهل
خديعه و مكر) وهذا يحتمل وجهين أحدهما أنَّ الجاهل شأنه أن يخدع غيره و
يمكر به و يزيد إيصال المكروه والضرر إليه لغرض من الأغراض الفاسدة كما
قال سبحانه في وصف المنافقين يخادعون الله أي يخادعون أولياءه و ثانيهما أنَّ شأنه
الانخداع وقبول الخديعة والمكر من الخادعين الماكرين كثيراً سريعاً لقلّة عقله

و ضعف بصيرته و سوء تدبيره في عاقبة أمره، و أمّا العاقل فله عينان في الظاهر و عينان في الباطن و بذلك ينظم حاله ظاهراً و باطناً لا يخدع غيره تحرراً عن صفات المنافقين ولا يخدع من غيره كثيراً كما هو شأن المؤمنين قال عليه السلام «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين (١)» قيل في بعض النسخ «تستلقها» بالقافين أى تجعلها الخدایع منزعة منقطعة عن مكانها. وفي بعضها بالغين المعجمة من استغلقتني في بيعه أي لم يجعل لي خياراً في رده.

((الاصل))

١٧- «علي بن إبراهيم» عن أبيه : عن جعفر بن محمد الأشعري ، عن «عبدالله الدّهقان» عن درست ، عن إبراهيم بن عبد الحميد قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً».



((الشرح))

(علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن جعفر بن محمد الأشعري ، عن عبدالله الدّهقان ، عن درست عن إبراهيم بن عبد الحميد) مشترك بين رجلين أحدهما مستقيم من رجال الصادق عليه السلام والآخر واقفي من رجال الكاظم عليه السلام (قال: قال أبو عبدالله عليه السلام : «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً») العقل نور رباني يفرق بين الحق والباطل ويستبان به المعارف والعواقب وينترك به الذمائم والقبايح ، ويتبعه قوة الالتفات إلى جميع المحاسن والفضائل التي منها حسن الخلق ، و اختلف العلماء في تعريفه فقيل هو بسط الوجه و كنف الأذى و بذل المدي و قيل : هو أن لا يظلم صاحبه ولا يمنع ولا يجهنوا أحداً و إن ظلم غفراً و إن منع شكراً و إن ابتلي صبراً ، وقيل : هو صدق التحمل و ترك التجميل ، و حب الآخرة و بغض الدنيا و الحق أن كل هذا تعريف له بالآثار والأفعال التابعة له الدالة عليه وأنه هيئة راسخة

(١) رواه احمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه في سننه تحت رقم ٣٩٨٣.

حاصلة للنفس بصفات اللاتقية بها ، و ذلك النور كما يتنور به الباطن و يهتدي به كل عضو منه إلى ما يليق به كذلك يتنور به الظاهر و يهتدي به كل عضو منه إلى ما خلق لأجله لما بين الظاهر و الباطن من مناسبة بها يتعدى حكم كل واحد منهما إلى الآخر ، و عند ذلك يستقيم الظاهر و الباطن و يتوجه كل واحد منهما إلى ما هو مطلوب منه ، و ممّا هو مطلوب منه هو حسن الخلق فحسن الخلق تابع لذلك النور المسمّى بالعقل ، ولا شبهة في أنّ العقول متفاوتة في النور و الضياء تفاوتاً فاحشاً لا تكاد تنحصر في عدد وبتفاوتها يتفاوت الأخلق التابعة لها تفاوتاً عظيماً ، فقد ظهر أنّ العقل كلما كان أكمل و أنقى كان الخلق أكمل و أحسن ، و أيضاً العقل محلّ للحكمة الإلهية و المعارف الربّانية وهي توجب محبته تعالى و محبته توجب محبة عباده من حيث أنّهم عباده و صائغ له لأنّ من أحبّ أحداً أحبّ جميع أفعاله من حيث أنّها أفعاله و كما يقتضى محبة الله تعالى تعظيمه ظاهراً و باطناً كذلك يقتضى محبة عباده تعظيمهم و تكريمهم و تلطّفهم ظاهراً و باطناً وهي حسن الخلق ولكن لما كانت درجات معرفته متفاوتة و مراتب محبته مختلفة كانت مراتب محبتهم أيضاً كذلك و من ههنا أيضاً يتبين أنّ العقل كلما كان أكمل كان الخلق أحسن و لذلك قال تعالى الله لنبيه ﷺ : **إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ** لأنّ عقله فوق جميع العقول و أسناها ، و معرفته فوق جميع المراتب و أعلاها ، و محبته فوق جميع الدرجات و أقصاها ، فخلفه فوق جميع الأخلق و أقواها و لذلك اتّصف بالعظمة البالغة التي لا تبلغ العقول إلى منتهائها .

((الاصل))

١٨- «عليّ» [عن أبيه] عن أبي هاشم الجعفري قال: كنّا عند الرضا عليه السلام

«فتذاكرنا العقل والأدب فقال: يا أبا هاشم العقل حياء من الله ، والأدب كلفة»
«فمن تكلف الأدب قدر عليه ، و من تكلف العقل لم يزد بذلك إلا جهلاً» .

((الشرح))

(١)

(عليُّ عن أبي هاشم الجعفري) اسمه داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ثقة جليل القدر عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام شاهدًا بأبا جعفر وأبا الحسن وأبا محمد عليهم السلام و كان شريفاً عندهم وله موقع جليل عندهم وروى أبوه عن الصادق عليه السلام (صه) (١) ونقل سيد الحكماء هذا العنوان هكذا عليُّ عن أبيه، عن أبي هاشم الجعفري ، ثم قال و أمّا ما يروى في عدة من النسخ عليُّ عن أبي هاشم الجعفري فعلط من إسقاط الناسخ فإنّ أحداً من العلويين الذين يعنيه الكايني في صدور الأسانيد وهم علي بن محمد المعروف بعلاء و علي بن محمد المعروف بأبوه بما جيلويده، و علي بن إبراهيم بن هاشم لم يرووا عن أبي هاشم الجعفري من غير واسطة (قال : كنّا عند الرضا عليه السلام فنذا كرنا العقل والأدب فقال : يا أبا هاشم العقل حياء من الله والأدب كلمة فمن تكلف الأدب قدر عليه . و من تكلف العقل لم يزد بذلك إلا جهلاً) الحياء بالكسر العطاء ، يقال : حياء حيوة أي أعطاه وفي المغرب الأدب أدب النفس والدرس وقد أدب فهو أديب، وأدبه غيره فأدب و تركيبه يدلّ على الجمع ، والدعاء و منه الأدب لأنّه يأدب الناس إلى المحامد أي يدعوهم إليها (٢) و قيل الأدب اسم يقع على كل رياضة معهودة يخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : «الأدب حبل مجددة» (٣) يعني كما أن الشخص يتزّين بالحلل كذلك يتزّين بالأدب مثل العلم و ما ينبع من حسن المجاورة والمعاشرة و أمثالها ، و قال بعض أهل المعرفة : للأدب شعب كثيرة فلذا قال بعضهم : هو ما يتولّد من صفاء القلب و حضوره ، و قال بعضهم : هو مجالسة الخلق على بساط الصدق و مطالعة الحقائق بقطع العلايق، و قال بعضهم : هو وضع

(١) دمر الى كتاب خلاصة الاقوال للعلامة الحلي (ره).

(٢) تقدم تحقيقه ص ٢٤٣ .

(٣) النهج ابواب الحكم تحت رقم ٤.

الأشياء موضعها ، و قال بعضهم : أدب اللسان ترك ما لا يعنيه ، و إن كان صدقاً فكيف الكذب ، و أدب النفس معرفة الخير والحرص عليه و معرفة الشر و الانزجار عنه ، و أدب القلب معرفة حقوق الله تعالى و الاعراض عن الخطرات المذهومة ، و الكلفة ما يتكلفه الانسان من المشاق و يتجشّمه يعني أن العقل عطيّة من الله تعالى و غريزة في الانسان و جوهر ربّاني خلفه و جعل نوره في القلب الهداية إلى خير الدنيا والآخرة وليس للعبد قدرة على اكتساب ذلك الجوهر لنفسه كما أنّه ليس ذلك في وسع المجانين و سائر الحيوانات الفاقدة له فمن تكلف في تحصيله و تجشّم في اكتسابه كان سعيه عبثاً ، ومع ذلك يزداد به جهله حيث اعتقد أنّه فاعل لما لا يليق به ولا يقدر على فعله و ارتكب ما يفضي إلى الدّور، نعم الآداب التي يرشده العقل إليها و يدلّه عليها وهي من توابع حرّكاته و سكناته الموافقة لقانون الشرع والعرف داخلّة تحت قدرته فله السعي في اقتنائها والاجتهاد في اكتسابها ليرتقى من حضيض النقص إلى أوج الكمال ، فان قلت لاشبهة في أن أصل العقل منه تعالى فهل درجاته السّلبية و مراتبه العليّة التي تحصل بكثرة التجارب والمعارف و اقتراف العلوم والحفايق و اكتساب الآداب والفضائل منه تعالى أو من العبد (١) ؟ قلت : النظر إلى ظاهر هذا الحديث و ظاهر مامر « ولا أكملتك إلّا فيمن أحب » و ظاهر قوله « إنّما يداق الله العباد في الحساب يوم القيمة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا » إلى غير ذلك من الأخبار المتكثّرة يفتضى أنّها منه تعالى و تلك العلوم والآداب و إن كان لها مدخل في حصولها لكنّها ليست عللاً فاعليّة لها بل هي شرائط لتحقيقها و صدورها من المبدء الفيّاض كما أن الدّهن شرط أو معدّ لزيادة ضوء المصباح وأصل الضوء وزيادته و

(١) احتمال كونه من العبد ساقط من أصله مبنى على اعتقاد العوام من أن بعض الاشياء

بفعل الله و بعضها بفعل غيره وينسبون الى الله ما لا يجدون له سبباً (ش).

كماله منه تعالى (١).

((الاصل))

١٩- «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن يحيى بن المبارك، عن عبد الله بن جبلة، عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك، «إن لي جاراً كثير الصلاة، كثير الصدقة، كثير الحج لا بأس به قال: فقال: يا إسحاق كيف عقله؟ قال: قلت له: جعلت فداك ليس له عقل، قال: فقال: لا يرتفع بذلك منه».

((الشرح))

(علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن يحيى بن المبارك) في بعض كتب الرجال أنه من أصحاب الرضا عليه السلام ومارأيت اسمه في الخلاصة (عن عبد الله بن جبلة عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك إن لي جاراً كثير الصلاة كثير الصدقة كثير الحج) لفظ الكثير منصوب على أنه صفة لأن الإضافة اللفظية لا يكتسب تعريفاً، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وهو والصفة حينئذ جملة (لا بأس به) المراد من نفي البأس هو أنه من أهل الولاية أو أنه من أهل الصلاح لا يؤدي أحداً (قال: فقال: يا إسحاق كيف عقله؟) لمّا بالغ إسحاق في وصفه بالأعمال الصالحة سأل عليه السلام عن أصل تلك الأعمال وهو العقل الذي يميز بين الحق والباطل ويوجب الإقرار بالحق تنبيهاً على أنه هو الحري بالانصاف به لأنّه نور يبصر به خير الدُّنيا والآخرة (قال: قلت: جعلت فداك

(١) وكذلك كل شيء في العالم ليس له علة فاعلية غير الله تعالى لأن غيره لا يقدر

على إيجاد شيء والسحاب والرياح والأمطار علل معدة للنبات لفاعلة والحرارة والقوة المصورة في الرحم كذلك معدة للجنين والوجود من الله تعالى ولا ينور الشمس شيئاً ولا النار يحرق إلا بالأعداد ولا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى (ش).

ليس له عقل ، قال : فقال لا يرتفع بذلك منه (١) أي لا يرتفع عمله بسبب أنه ليس له عقل منه ، و في بعض النسخ « لا ينتفع بذلك منه » أي لا ينتفع ذلك الرجل بسبب أنه ليس عقل من عمله وهنا شيء و هو أنه إن أريد بقوله : « ليس له عقل » نفي العقل عنه مطلقاً حتى ما هو مناط التكليف كما هو الظاهر أو نفي كونه من أهل الولاية كناية كان عدم ارتفاع عمله محمولاً على الظاهر لأن عمل غير المكلف و عمل غير الإمامي ليس مرتفعاً ، ولكن تلك الإرادة ينافي ظاهر ما تقدم ، و إن أريد به نفي الكمال يعني نفي العقل المستتبع للمعلوم الدنيوية والمعارف اليقينية كان عدم الارتفاع مأولاً بأنه لا يرتفع عمله كاملاً ولا يبلغ درجة عمل ذوي العقول الكاملة ، فإن رفعة العمل والثواب عليه على قدر العقل كما مر في عابد بني إسرائيل ، أو بأن هذا الحكم أعني عدم رفع العمل بالكلفة في خصوص الجار المذكور كما يشعر به لفظة منه لعلامة عليه السلام بفساد عمله في الواقع

((الاصل))

٢- « الحسين بن محمد ، عن أحمد بن محمد السمراري عن أبي يعقوب البغدادي » قال : قال ابن السكيت لأبي الحسن عليه السلام : أماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام ؟ « بالعصا و يده البيضاء و آلة السحر ، و بعث عيسى عليه السلام بألة الطب ، و بعث محمداً صلى الله عليه وآله و على جميع الأنبياء بالكلام و الخطب فقال أبو الحسن عليه السلام : « إن الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر فأتاهم منه » « عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله و ما أبطل به سحرهم و أثبت به الحجّة » « عليهم و إن الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات و احتاج » « الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله و بما أحياهم » « الموتى و أبرأ الأكمه و الأبرص بأذن الله و أثبت به الحجّة عليهم و إن الله » « بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب » « و الكلام - و أظنه قال : الشعر - فأتاهم من عند الله من مواعظه و حكمه ما أبطل » « به قولهم و أثبت به الحجّة عليهم ، قال : فقال ابن السكيت : بالله ما رأيت مثلك »

« قَطَّ فَمَا الْحِجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : فَقَالَ عليه السلام : الْعَقْلُ يَعْرِفُ بِهِ الصَّادِقَ ،
« عَلَى اللَّهِ فَيَصْدَقُهُ وَالكَاذِبَ عَلَى اللَّهِ فَيَكْذِبُهُ ، قَالَ : فَقَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ : هَذَا وَاللَّهِ ،
« هُوَ الْجَوَابُ » :

((الشرح))

(الحسين بن محمد) بن عمران بن أبي بكر الأشعري الثقة (عن أحمد بن محمد السبّاري) ضعف و نسب إلى الناسخ (عن أبي يعقوب البغدادي) اسمه يزيد ابن حماد بن الأنباري السلمي ثقة (قال : قال ابن السكيت) اسمه يعقوب بن إسحاق ثقة ثبت عالم بالعربية واللغة مصدق ولا يطعن عليه و كان متقدماً عند أبي جعفر الثاني و أبي الحسن الثالث عليهما السلام قتله المتوكل لأجل التشيع (لأبي الحسن (١) عليه السلام لماذا بعث الله موسى بن عمران) في « ماذا » ثلاثة أوجه الأول أن يكون مجموعه بمعنى أي شيء والثاني أن يكون « ما » بمعنى أي شيء ، « وذا » زائدة ، و الثالث أن يكون « ما » بمعنى أي شيء « وذا » موصولة بمعنى الذي ، وهو على جميع هذه التقادير سؤال عن سبب اختصاص كل نبي من الأنبياء عليهم السلام بأعجاز مخصوص (بالعصا ويده البيضاء) « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین و نزع يده فإذا هي بيضاء للمناظرين » (وآلة السحر) من باب عطف العام على الخاص ، والمراد بهما يناسب السحر و يشبهه عند القاصرين مثل الفلق و الطوفان و الجراد والقمل و الضفادع والدم والطمسة والجذب في واديهم والنقصان في مزارعهم ، والسحر في اللغة مادي مأخذه و لطف سوا ، كان مذموماً شرعاً أو عقلاً أو ممدوحاً ومنه قوله عليه السلام : « إن من البيان لسحراً » قيل : هذا يحتمل المدح والذم ، المدح من حيث

(١) ذكرنا في حواشي كتاب الرافعي (صفحة ٢٣ وما بعده) أن المسؤول هو أبو الحسن

الثالث أعني الهادي (ع) وذكرنا هناك وجهه ومن الناس من نسب الحديث إلى الرضا (ع) وهو خطأ ورأيت بهذا من نسبته إلى الكاظم وهو خطأ لعدم علم قائله بالرجال وعدم تدبره (ش).

أنَّ صاحبه قادراً على استمالة القلوب بحسن عبادته و لطف دلالته و إفصاح مرامه و إبلاغ كلامه ، والذم من حيث أنَّه قادر على تحسين القبيح و تقبيح الحسن و في الاصطلاح قيل : هو أمر خارق مسبب عن سبب يعناد كونه عنه فيخرج المعجزة والكرامة لأنَّهما لا يحتاجان إلى تقديم أسباب وآلات و زيادة اعتماد بل إنَّما تحصلان بمجرد توجُّه النفوس الكاملة إلى المبدء جلَّ شأنه ، و أيضاً الإعجاز ينحقق عند التحدُّى دون السحر ، و قيل : هو كلام يتكلَّم به أو يكتبه أورقينة أو عمل شيء يؤثّر في بدن المسحور أو عقله أو قلبه من غير مباشرة ، و منه عقد الرّجل عن زوجته وإلقاء العداوة والبغضاء والفرقة بينهما وذهب أكثر الأصحاب و بعض العامة إلى أنَّه لاحقيقة له وإنَّما هو تخيُّل محض و توهم صرف ولا تأثير له أصلاً ولا مستند لهم يعتدُّ به على أنَّ التأثير بالوهم يتمّ لو سبق للمسحور علم بوقوعه وقد يجد أثره من لا يشعر به أصلاً ، والظاهر أنَّ له حقيقة في نفس الأمر كما دلَّ عليه ظواهر القرآن والأخبار و ذهب إليه أكثر العامة و بعض الأصحاب و إليه ميل الشهيد الثاني و من شاهد من الأجسام ما هو قتال كالسموم و ما هو مستقم كالأدوية الحارة مثلاً و ما هو مصحح كالأدوية المضادة للمرض لا يبعد في عقله أن يكون تركيب مخصوص في الكلام و تلفيق معين في الكلمات و هيئة مخصوصة في العقود و نحوه مما يؤدِّي إلى الهلاك والفرقة أو السقم أو اختلال الحال إلى غير ذلك من المفاسد و أن ينفرد الساحر بعلم ذلك كما ينفرد صاحب التجربة بخواصِّ الدِّواء (و بعث عيسى عليه السلام بآلة الطب) أي بما يشبه بها من إبراء الأكمه والأبرص و أنواع الأمراض المزمنة وإحياء الموتى . والطب بالحركان الثلاث والكسر أشهر و هو في اللغة الحداقة و كلُّ حادق طبيب عند العرب وفي الاصطلاح علم تعرف به أحوال بدن الانسان من حيث الصحة و الفساد والغرض منه حفظ الصحة وإزالة المرض

(وبعث محمد صلى الله عليه وآله و على جميع الأنبياء بالكلام والخطب) يحتمل أن يراد بالكلام القرآن الكريم المباليغ في الفصاحة والبلاغة حدّ الإعجاز الخارج عن

قدرة البشر و بالخطب الكلام النبوي المشتمل على غاية الفصاحة و البلاغة بحيث لا يدانيه كلام أحد من البلغاء ولا تر كيب أحد من الخطباء والفصحاء، و يحتمل أن يكون المظاف لتفسير الكلام و يراد به الجنس (فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر) كما قالوا أرجه و أخاه و ابعث في المداين حاشرين يا توك بكل سحار عليهم فجمع السحرة لميفعات يوم معلوم و قيل للناس هل أنتم مجتمعون اعلنا تتبع السحرة إن كانوا هم الغالين ، (فأتاهم من عند الله لم يمايكن في وسعهم مثله و ما أبطل به سحرهم و أثبت به الحجة عليهم) كما قال سبحانه قالقي موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون لعلمهم بأن ما جاءوا به من التمويلات النفسانية والتدليسات الشيطانية والصناعات الانسانية و ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الربوبية والبراهين الملكوتية والعنايات الإلهية فوق الحق في قلوبهم و ثبت الايمان في صدورهم و تقرر الايمان في نفوسهم حتى لم يبالوا بلومة اللاتمين و وعيد الظالمين بالقتل والصلب و قالوا لاضير إنا إلى ربنا منتقلبون و إذا وقعت الغلبة على الماهرين في جنس ما كانوا عليه قادرين وهم أذعنوا بها و جب على ضعفاء العقول اتباعهم على أننا نعلم قطعاً أن الله سبحانه يلقي في قلوبهم عند ذلك أنه إعجاز تكملاً للحجة عليهم وليهلك من هلك عن بينة و يحبى من حي عن بينة كما يرشد إليه قول الصادق عليه السلام وما من أحد إلا وقد يرد عليه الحق حتى يصدع قلبه قبله أم تركه وذلك أن الله يقول في كتابه و بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . (١)

(و إن الله تعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات) جمع الزمانات وهي آفة في الحيوانات ، و رجل زمن أي مبتلى بين الزمانات وفي المغرب الزمان الذي طال مرضه زماناً (و احتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله) أي بما عجزوا عن الاتيان بمثله فإن ما جاء به عليه السلام هو إزاحة الزمانات و إزالة الأمراض والآفات بمجرد القوة الروحانية و توجه نفسه

القدسيّة ، وطلب ذلك من الله تعالى من غير فتح أسباب الأمراض و استعمل مال الأدوية المناسبة لها وهم قد عجزوا عن ذلك إذ غاية سعيهم هي المعالجة بمقتضى القوانين الطبيّة والعمل بأحكامها واستعمال الأدوية المناسبة بزعمهم بعد تفقّش الأسباب والخطأ في أمثال ذلك كثير (و بما أحيأ لهم الموتى و أبرء الأكمه) وهو الذي ولد أعمى أو الممسوح العينين (والأبرص بأذن الله البرص بياض براق أملس في الجلد و اللحم معاً و لموضعه غور لقلّة نفوذ الغذاء فيه فيضمر و يغور ، وقلّة النفوذ إنّما يكون لبرد العضو و تكاثفه و انسداد مساماته بالمادّة الفجة و من علاماته بياض الشعر و عدم خروج الدّم بغرز الأبرة ، و من أسبابه انصباب أخلاط رديّة بزيادة رطوبة في العضو غير قابلة لفعل القوّة المغيّرة الثانية (١) في التشبيه و إن لم يكن تلك القوّة ضعيفة في نفسها أو ضعف تلك القوّة في نفسها عن التأثير والتشبيه و على التقديرين يتولّد البياض لأن سوء الهضم يوجب تولّده و إذا تمكنت هذه المادّة أحوالت كلّ غذاء ورد عليه إلى مزاجها فيصير شبيهاً بها ، و قد يكون البرص سواداً و سببه مادّة سوداويّة كثيرة تنراكم في الجلد و ما يقرب منه ، فيزاد بذلك حجم ذلك الموضع و ينكثف جداً و يتمدد و يتقشر و يسقط منه فلولس كفلوس

(١) القوّة المغيّرة اثنتان الأولى ما يفصل العنق إلى مزاجات مختلفة لكل عضو و لأن مزاج اللحم غير مزاج العظم و هكذا ؛ ولا بد من هذه القوّة أذ لو فرض بطلانها صار الجنين قطعة من اللحم من غير تقسيم ، والمغيرة الثانية و تسمى المصورة أيضاً هي التي توجب تخطيط الاعضاء و تشكيلها و هذه القوّة أو قوّة مثلها موجودة في كلّ عضو من بدن الانسان إلى آخر زمان حياته لأن الغذاء إذا تحول إلى الاخلاط و خصوصاً الدم كان له مزاج واحد متشابه و إذا وصل إلى العين مثلاً تبدل صورته إلى شيء و إذا وصل إلى العظم تحول إلى شيء آخر ، والجلد واللحم كذلك و هذا التبدل والتغير متوقف على تأثير القوّة الفاعلة و استمداد المواد القابلة حتى يتشبه الغذاء في كلّ عضو بسائر اجزائه ولولا هذه القوّة حدثت أمراض منها البرص . وهذا الكلام يدل على تبهر الشارح في علم الطب (ش).

السّمك و قوله « بأذن الله » دفعاً لتوهم الألوهيّة فإنّ أمثال الأفعال المذكورة ليست من جنس الأفعال البشريّة (و أثبت به الحجّة) عليهم لأنّه ادّعى النبوة و أتى ببينة من جنس ما هو المعروف بينهم وهم قد عجزوا عن الاتيان بمثلها و علموا لأجل مهارتهم في صناعتهم أنّها ليست من جنس أفعال البشر ، بل هي من جنس أفعال خالق القوى والقدر ، قد أظهرها على يده تصديقاً لدعواه ولو أتى ببينة أخرى غير ما هو المعروف عندهم لأمكن لهم التوهم بأنّه ما هو في صناعته لو اجتهد غيره أيضاً فيها صار مثله.

(و إنّ الله بعث نبيّاً عليه السلام في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب و الكلام - وأظنه قال: الشعر -) بدلاً من الكلام لأعلى الجمع والانضمام وإلّا يقال والشعر والظن من أبي يعقوب و قد ذكروا في السير والآثار ونقلوا عن ثقاة الرواة أنّهم كانوا يلبسون كلامهم ما قدروا عليه من حلية الفصاحة والبلاغة ، و يربّثونه ما يوجب النفوق والبراعة ، و يعتمدون فيه ما يوجب طباقه بمقتضى الحال و ارتقاؤه إلى أعلى مدارج الكمال ، و يقصدون فيه أنواع المحسنات اللفظيّة و المعنويّة و أنحاء بدايع النكت العربيّة و تناسب العبارات و الاستعارات و لطائف التخيّلات والمجازات و محاسن الكنايات والتشبيهات إلى غير ذلك من الأمور التي تزيد في الكلام دقّة و سحرأ و في القلب ابتهاجاً و انبساطاً و سروراً - و يجعلونه كالعروس العارية عن مقابح العيوب التي يفتنح إليها عيون الظواهر و بصائر القلوب و كانوا يجتهدون و يتناشدون و يتفاخرون و يطلبون المعارضة بالمثل و يعتقدون الفضل لمن جاء بالأحسن منه.

(فأتاهم من عند الله من مواعظه و حكمه) أي من مواعظه القرآنية و حكمه الفرقانية (ما أبطل به قولهم و أثبت به الحجّة عليهم) لأنّه أتاهاهم بالقرآن يشفي رمد بضائر أهل العرفان فإنّ الاكتحال بكحل حقايقه يسقى كبد العطشان بالورود على زلال دقايقه ولا يحول فؤاد الأفكار إلى أقصى معارج عجايبه ولا يجول جواد الأنظار إلى أعلى مدارج غرايبه وهو نبيّ مضي لا يضل من ضوئه عقول المسافرين

وعلم رفيع لا يعصى منه أبصار السائرين ، و بحر زاخر لا يصل إلى قعره غـ و ص
 العارفين ، و منهج واضح لا يزل فيه قدم السالكين ، و شجرة نصوص لا يتحرك
 بهبوب صرصر الشبهات أوراقه وأغصانه ، و بنيان مرصوص لا ينهدم بحوادث الخطرات
 حيطانه و أركانه ، و ناطق فصيح لا ينقطع بشبه المخالفين دلاليه و برهانه ، و
 ناصر معين لا يتخذل بهجوم المعاندين أنصاره و أعوانه ، و نور ساطع في قلوب
 أرباب العرفان ، و شعاع لامع في صدور أصحاب الايمان ، و معدن الفضل و التوحيد
 والعدل والايمان ، و منبع العلم والجود والكرم والاحسان ، و قد جعله الله سبحانه
 ريتاً لعطش العلماء ، و ربيعاً لقلوب الفقهاء ، معراجاً لعقول الصالحاء ، و دواء ليس
 بعده داء ، فمن أراد معارضة أقصر سورة من سورة حلت به الندامة وظهرت فيه الجهالة
 والسفاهة إذ هو مصادر " لا طوار الفصاحة ، و مظاهر لأسرار البلاغة التي يعجز
 عن فهمها عقول الفصحاء ، و يقصر عن دركها فحول البلغاء ، و ينحسر فيها أذهان
 مصاقع الخطباء و لذلك بعد ما خيروا بين المعارضة باللسان والمقابلة بالسيف و
 السنان أعرضوا عن الأول مع طول المدة و كثرة العدة و شدة القوة و غاية
 العصبية و نهاية الأنافة و كمال الحرص في الغلبة والرسوخ في إظهار المفخرة
 لعلمهم بأن ذلك خارج عن قدرتهم وفائق على صنعهم و بعيد عن طريقهم فعلم أن
 ذلك وحي أنزله لهداية العباد من ظلم الضلالة و نور أظهره لإرشادهم فسي يبدأ
 الجهالة اللهم اجعله وسيلة لنا إلى أشرف منازل الكرامة وسبباً لنجاةنا في عرصه القيمة
 وذريعة تقدم بها على نعيم دار المقامة ، و فيه دلالة واضحة على أن إعجاز القرآن
 لاشتماله على أمور غريبة و ألفاظ رشيقة و معان دقيقة و نكات لطيفة ، إلى غير ذلك
 من الأمور الخارجة عن قدرة البشر ، و سر ذلك أن الله تعالى عالم الغيب والشهادة
 لا يعزب عنه مثقال ذرة فإذا رتب لفظاً فلاحظته علماً بكل شيء يعلم الكلمة التي
 تصلح أن تليها و يعلم وجوه المعاني و مواضع استعمالات الكلام و حسن ابتدائها و
 اختتامها حتى لو أريد تغيير شيء منها بأحسن من ذلك لم يمكن ولم يوجد و ليس
 في قدرة البشر أن يحيطوا علماً بكل شيء ، فلذلك تجد الفصيح منّا قد يصنع الخطبة

ثم لا يزال ينقح ويبدل . وما ذلك إلا لأنه ظهر له الآن ما لم يكن له ظاهراً قبل فلذلك صار القرآن حجة على الناس إلى يوم الدين لأنه لما نزل قوله تعالى «فأتوا بسورة من مثله» قال كل فصيح من الفصحاء: ما بال هذا الكلام لا يؤتى بمثله فلمّا تأمله تبين له ما تبين وصحّ عنده لأقدرة له على مثله وأنه من الله العزيز العليم فمنهم من آمن ومنهم من أبي حسداً ، وقامت بهم الحجة على أهل العالم لأنهم كانوا من أرباب الفصاحة فإذا عجزوا فغيرهم أعجز وإلا فليأتوا بسورة من مثله ، وذهب الأشعري إلى أن إعجازه بالصرقة (١) ومعناها أن الفصحاء كانوا قادرين على الإتيان بمثله إلا أن الله سبحانه صرف الهمّة عنهم ، وهو بهذا الوجه أيضاً وإن كان آية من آيات الرسالة إلا أنها تحكم محض وقول بالحجة ، والوجه هو الأول . وله مع ذلك فضل على غيره من المعجزات لأن كل معجزة غيره لا تراضها لم يشاهد وجه إعجازها إلا من حضرها وهو باق إلى قيام الساعة ففي كل زمان يحدث من يشاهد وجه إعجازه وينجد إيمانه ولأن فائدة غيره إنما هي إثبات الرسالة فقط ، وفائدته إثباتها مع اشتماله على علم الأولين والآخرين ، وعلم ما كان وما يكون ، وعلم ما جاء به الرسول ﷺ من الوعد

(١) ولأريب أن التعق في البحث عن وجه اعجاز القرآن وسوسة فانه اذا ثبت أن احداً لم يأت بمثله من صدر الاسلام الى الان فهو معجز قامت به الحجة سواء كان سببه فصاحته او اشتماله على الدقائق والنكات التي تقصر عن فهمها اذهان العرب واحتوائه على الاخبار الغيبية أو الصرفة التي يقول بها السيد المرتضى - رحمه الله تعالى - أو لغير ذلك فان توجيه الذهن الى ذلك يوجب صرف الفكر عن نفس الاعجاز وهذا كما نعلم أن سحرة فرعون عجزوا عن معارضة موسى (ع) ولا نعلم أنه كان لنقصانهم علماً أو لتصرفه أو لان طبيعة عملهم غير طبيعة عمل موسى (ع) ولا نعلم بالاجمال أنهم عجزوا ، و اجراء خوارق العادات من الله تعالى على بدل الكاذب قبيح على الله تعالى والا لا يعرف اكثر الناس حقيقة السحر بل يزعمون أنه مغير للحقائق كالمعجزة كما قال فرعون « انه لكبيركم الذي عملكم السحر » (ش).

والوعيد والمواعظ والنصائح وجميع ما يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيمة.

(قال : فقال ابن السكيت : بالله ما رأيت مثلك قط) بالله بدون ألف قبل الجلالة على ما هو المصحح من النسخ ولفظة «باء» تحتمل وجهين الأول أن يكون باء القسم أو تأوّه ، والثاني أن يكون حرف النداء للمتعجب ولما وقف ابن السكيت على سبب اختصاص كل نبي بأعجاز مخصوص من كلام معدن الرسالة مدحه بقوله « ما رأيت مثلك قط » يعنى في العلوم و حضور الجواب ، مصدرأ بالقسم ترويحاً للمدح و تنبيهاً على أنهم من صميم القلب لامن باب الإطراء وظاهر اللسان كما هو شأن أكثر المادحين ، أو بكلمة التعجب إشعاراً بأن نفوذه ^{على} غيره بلغ حدّاً يعجز العقول عن الوصول إليه و عن إدراك كمية وسيمه ، و يحتمل أن يقرأ يا الله بالالف وهو حينئذ للتعجب مثل لا إله إلا الله وسبحان الله فإن هذه الكلمات الشريفة كثيراً ما تستعمل للتعجب و فيه جواز مدح الرجل مواجهة بالفضائل الموجودة فيه ولكن جوازه مشروط بما إذا لم يكن موجباً لفخر الممدوح وتكبره ولما علم ابن السكيت أن كل عصر لا يخلو من داع إلى الله تعالى إما نبي أو وصي نبي ، و علم أن القرآن حجة على الخلق و دليل على صدق نبينا ^{عليه السلام} سأل عن الحجة على الخلق والدليل على صدق الداعي بعده بقوله (فما الحجة على الخلق اليوم) إذا الدعاة متكثرة والآراء مختلفة والقرآن غير رافع للاختلاف إلا بتفسير صادق مؤيد من عند الله تعالى فلا بد اليوم من حجة يتميز بها الداعي الصادق عن غيره (قال : فقال ^{عليه السلام} : العقل) و هو خبر مبتدأ محذوف أي الحجة في هذا اليوم العقل أو مبتدأ خبره قوله (يعرف به الصادق على الله في صدقه و الكاذب على الله في كذبه) لأن العقل يحكم باعتناع أن يمضي ^{عليه السلام} و يضيع أمته ولا ينصب لهم خليفة، فمن نصبه فهو الصادق و غيره ممن يدعى خلافته فهو الكاذب ولأن العقل العاري عن شوائب الأهام يعرف بعد نزول الكتاب و تقرير الدين و تكميل السنة أن الصادق على الله (١) هو الذي يعلم أحكام الكتاب و السنة و

(١) نأول الشارح هنا تأويلاً حسناً حتى يدفع ما يختلج في ذهن من فساده ظاهره

شرايع الدّين و يحكم بها و يحفظ لها و أنّ الكاذب على الله هو الذي لا يعلمها ولا يحكم بها و بالعقل تمتّ الحجة على الخلق فإن عملوا بمقتضاه من تصديق الصادق والعمل بما يأمره والانهاء عمّا ينهاه و تكذيب الكاذب و الاجتناب عن متابعتة انتظم حالهم في الدارين و إن عملوا بالعكس ماتت قلوبهم و مرضت صدورهم حتّى لا يؤثّر فيهم البرهان و يستولى عليهم الشيطان و على هذا الوصف يموتون و ينزل بهم ما كانوا يوعدون (قال : فقال ابن السكيت هذا والله هو الجواب) فيه مبالغه من وجوه أحدها اسميّة الجملة لأنّها من المؤكّدات ، و ثانيها الابتداء باسم الإشارة الدّال على كمال الظهور ، و ثالثها تأكيد مضمون الجملة بالقسم لترويضه و تقريره ، و رابعها تعريف الخير باللام المفيد للمحصر ، و خامسها التوسط بضمير الفصل الدّال على تأكيد المحصر و وجه ظاهر لأنّ التمييز بين الصادق والكاذب لا يتحقّق إلّا بالعقل العادي عن شبهات الأوهام والخيالي عن بليّات الأسقام فإنّه ميزان يوزن به مكائيل الأقوال فيميز بين الرّاجح والناقص و بين الصادق و الكاذب فيصدق الصادق توقّعا لنظام حاله و يكذب الكاذب تحرّزا عن وخامة معآله

فهذا الكلام لأن ما يتبادر الى الذهن أن ابن السكيت سأل الامام عن دليل النبوة في هذه الامة المتأخرة لأن معجزات الانبياء خاصة بزمانهم فأحال الامام (ع) على العقل وهو أن يعرف صدق النبي الصادق و كذب الكاذب بالعقل فإن العاقل بعد تتبع سيرة الرجال يعرف دخلة امورهم و هذا باطل جداً لأن النبوة سر باطني بين النبي و بين الله تعالى ولا يعرف الا بالاعجاز و خوارق العادات ولا طريق للعقل الى معرفة هذا السر .

والسيادي راوى هذا الحديث منهم بالجهل والالحاد وكان يزعم كسائر الملاحدة أن الانبياء كسائر نوابغ العالم فاقوا بعقربتهم وفطنتهم وقوة ذكائهم والشارح تأول الكلام على وجه يستلزم كون معجزات نبينا (ص) خصوصاً القرآن حجة على اهل زمانه وعلى من بعده الى يوم القيمة ، وبالجملة ظاهر الكلام يدل على ان ابن السكيت سأل عن الحجة على النبوة و الدليل على صحة دعواه (ص) وصرّفه الشارح الى السؤال عن الحجة اى الامام في زمانه والدليل عليه (ش).

ثم كون العقل حجة ليس مختصاً بهذا اليوم ولا بهذه الأمة ولادلالة في الجواب على ذلك ، وإنما المقصود منه هو التنبيه على أن العقل حجة الله على عباده وعلى كمال تغطن العقلاء و لطافة قرايهم حتى تمكنوا على تحصيل الايمان بالله و باليوم الآخر و بالصادق الأمين من غير مشاهدة معجزات و ملاحظة كرامات ، بل لا يبعد القول بأن تأثير العقل بالاذعان أقوى و أشد من تأثير المعجزات فيه لأن تأثيره يوجب انقياد القلب و انشراح الصدر و انكشاف البصيرة بخلاف تأثيرها فإنه يوجب الاتقياد فقط من غير تثبيت و رسوخ ولذلك كثير ممن آمن بنبيتنا عليها السلام بمشاهدة الآيات والمعجزات ارتدوا بعده و كثير ممن آمن بموسى على نبينا وعليه الصلوة والسلام بمشاهدة معجزاته طلبوا منه بعد الخروج من البحر أن يجعل لهم أصناماً آلهة و عبدوا عجلأ جسداً له خوار ، كل ذلك اضعف عقولهم و قللة بصيرتهم و عدم تثبيتهم و رسوخهم في الايمان و أمّا المؤمن بنور العقل و المدعى بمقتضاه فهو أثبت من الجبال الراسي . و من هم - لما يظهر التفاوت بين الحججتين واليون بينهما بعد المشرقين .

مرکز تحقیق کتب پروردگار

((الاصل))

٢١- « الحسين بن محمد ، عن معلى بن محمد ، عن الوشاء ، عن المنثي الحنط »
 « عن قتيبة الأعشى ، عن ابن أبي يعفور ، عن مولى لبني شيبان ، عن أبي جعفر »
 « عليه السلام قال : إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم و »
 « كملت به أحلامهم » .

((الشرح))

(الحسين بن محمد ، عن معلى بن محمد) مضطرب الحديث والمذهب (عن الوشاء) الحسن بن علي بن زياد الوشاء من أصحاب الرضا عليه السلام و كان من وجوه هذه الطائفة (عن المنثي الحنط) الظاهر أنه ابن الوليد و له كتاب (عن قتيبة

(الأعشى) بن محمد المؤدب ثقة (عن ابن أبي يعفور) اسمه عبدالله ثقة جليل في أصحابنا
 (عن مولى لبني هاشم عن أبي جعفر عليه السلام قال : إذا قام) أي خرج بعد الغيبة
 المقدرة و ظهر لأظهار دين الحق وإعلاء كلمته (قائماً) المهدي المنتظر الموعود
 بالنصر والظفر وهذا القيام كإين قطعاً لروايات متواترة من طريق العامة والخاصة
 إلا أن العامة يقولون : إنه يولد في آخر الزمان من نسل علي وفاطمة و جدّه
 الحسين عليه السلام كما صرح به الآبي في كتاب إكمال الأكمال ونحن نقول : هو حي
 موجود قامت السموات بوجوده ولولا وجوده لساخت الأرض بأهلها طرفة عين
 (وضع الله يده) أي قدرته أو شفقتة أو نعمته أو إحسانه أو ولايته أو حقه - يظه ،
 والضمير عائد إلى الله أو إلى القائم عليه السلام (على رؤوس العباد فجمع بهاء قولهم) ضمير
 التأنيث إما عائد إلى اليد والباء للسببية أو إلى الرؤوس والباء بمعنى وفي ، وهذا
 الأخير يناسبه ما قيل من أن العقل جوهر مضي خلقه الله تعالى في الدماغ و
 جعل نوره في القلب يدرك الغايات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة (و كملت به
 أحلامهم) أي عقولهم جمع حلم بالكسر وهو الاناة والتثبت في الأمور و ذلك
 من شعار العقلاء ، والمراد بجمع عقولهم رفع الانتشار والاختلاف بينهم و جمعهم
 على دين الحق و بكمال أحلامهم كمال عقل كل واحد واحد بحيث ينقاد له
 القوة الشهوية والغضبية و يحصل فضيلة العدل في جوهر البدن ، والأمران
 يتحققان في عهد صاحبنا عليه السلام لأنه إذ خرج يتفخ الروح في الإسلام ويدعو إلى
 الله بالسيف فمن أبي قتله ومن نازع قهره حتى يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى
 في وجهها إلا دين الحق فيملأها عدلاً وأمناً وإيماناً كما ملئت ظلاماً وجوراً وطغياناً
 فشهادؤه خير الشهداء و أمناءؤه خير الأئمة وأصحابه العارفون بالله والقائمون بأمره
 والمشفقون على عباده والحافظون لبلائه والعاقلون العاملون الكاملون العابدون
 الناصحون له فيعود الخلق بعد التفرقة إلى الجمعية و بعد التشنت إلى المعية و
 بعد الكثرة إلى الوحدة و بعد التفارق إلى التوافق و بعد الجهل إلى العلم وينظرون
 إلى الحق بأعين سالمة من الرّماد و يسلكون إليه بأقدام ثابتة في سبيل الرّشاد

وهذا معنى جمع عقولهم وكمال أحوالهم لأن كمالها بحسب ميلها ورجوعها إلى الحق^١ فإن ذاتها تنطق الرُّجوع ثبت الكمال قطعاً ، هذا و قيل: المراد باليد هنا الملك الموكل بالقلب الذي توسطه يرد الجود الإلهي والفيض الرباني عليه كما في قوله وَالْقَلْبَ الَّذِي يَخْفِىُّ فِيهِ السِّرُّ « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء (١) ، والمراد برؤوس العباد نفوسهم الناطقة و عقولهم الهيولانية ، والمراد بجمع الله عقولهم جمع الله بواسطة ذلك الملك القدسي والجوهر العقلي (٢) عقولهم من جهة التعليم والإلهام فإنَّ العقول الإنسانية في أول نشأتها منغمرة في طبائع الأبدان متفرقة في الحواس ، منشوقة إلى الأغراض والشهوات ، محبوسة في سجون الأمانى وشعب الرغبات . ثم إذا ساعده التوفيق وتبَّه بأن وراء هذه النشأة نشأة أخرى علم ذاته وعرف نفسه واستكمل بالعلم والحوال ، وارتقى إلى معدنه الأصلي ، و عاد من مقام التفرقة والكثرة إلى مقام الجمعية والوحدة ، ولما ثبت وتقرر أنَّ النفوس الإنسانية من زمن آدم عليه السلام إلى الخاتم صلوات الله عليه وآله كانت متدرجة في النطق و مترقية في الاستعداد ، وكذلك كلما جاء رسول كانت معجزة المتأخر أقرب إلى المعقول من المحسوس من معجزة المتقدم . لا جل ذلك كانت معجزة نبيِّنا صلوات الله عليه وآله القرآن وهو أمر عقلي إنَّما يعرف كونه إعجازاً أصحاب العقول الذكيَّة ولو كان منزلاً على الأمم السابقة لم يكن حجة عليهم لعدم استعدادهم لدركه ثم من بعثته صلوات الله عليه وآله إلى آخر الزمان كانت الاستعدادات في الترقى والنفوس في النطق

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ش ٣٢١ هكذا « القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن - الحديث » .

(٢) سبق إن الملك في اصطلاح أهل الشرع هو العقل الجوهرى في اصطلاح الحكماء ، وهذا الكلام تصريح به من فائله ولم يعترض عليه الشارح فيما اعترض عليه والفائل هو صدر الحكماء المتألهين - قدس الله سره - (ش) .

والنذ كنى و لهذا لا يحتاجون إلى رسول آخر (١) يكون حجة الله عليهم لأن
الحجة عليهم هي العقل الذي هو الرسول الداخلي ففي آخر الزمان يترقى
الاستعدادات من النفوس إلى حد لا يحتاجون إلى معلم من خارج على المرسوم
المعهود بين الناس لأنهم مكثفون بالالهام النفسى عن التأديب الوضعى و بالمسد
الداخلي عن المؤديب الخارجى ، و بالمكمل العقلى عن المعلم الحسى كما سائر
الأولياء فيد الله و هو ملك روحاني يجمع عقولهم و يكمل أحلامهم (٢) هذا كلامه
و فيه نظر أمّا أو لا فلأن ترقى العقول على الوجه المذكور غير مسلم و لو كان
كذلك لكان الاختلاف بعد نبينا ﷺ أقل من الاختلاف في الأمم السالفة و قد روت
الأخبار المتكثرة على عكس ذلك (٣) و أمّا ثانياً فلأن المقصود من هذا الحديث
أن تكمل العقول في آخر الزمان بواسطة معلم حسى وهو صاحب الزمان (٤)
و ما ذكره يدل على أنهم لا يحتاجون إلى معلم حسى أصلاً ، و أمّا ثالثاً فلأنه
وإن أمكن حمل اليد هنا على الملك لكن لا حاجة لنا تدعو إليه لأن إعانة أي ملك و

(١) غير رسول الله (ص) لأن العقل يدعو إلى متابعة رسول الله (ص) لما يراه من الأدلة
على صحة نبوته (ش).

(٢) فيعرفون بالعقل المكمل صحة الدين وإمامة القائم (ع) فيشبهونه ولم يكونوا
كذلك في صدر الإسلام . (ش)

(٣) كثرة الاختلاف لا يدل على ضعف العقول نعم لو كانت العقول في أعلى مدارج الكمال
لم يختلفوا كما أن الأمم الذين في أدنى درجات التقليد قد لا يختلفون أيضاً ولكن أهل التوسط
يختلفون جداً والمسلمون في عصر النبي (ص) لم يكونوا في أعلى درجات الكمال حتى
لا يختلفوا (ش)

(٤) الحديث صريح في خلاف هذا الكلام لأن يد الله في الحديث غير الإمام قطعاً
و أمّا بجمع الله عقول الناس بتوفيقه وتسديده وإعانة الملك الذي عبر عنه باليد حتى
يتقوا صاحب الأمر (ع) بعقولهم ولو اظهر في زماننا هذا أوقبه ولم يكمل عقول الناس بعد
لفروا وأعرضوا أو قتلوه (ش)

تسديده أقوى و أحسن من إعانة الصاحب و تسديده عليه السلام (١) .

((الاصل))

٢٢- «علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن محمد بن سليمان ، عن علي بن إبراهيم ، عن عبدالله بن سنان ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : حجة الله على العباد «النبي» ، والحجة فيما بين العباد و بين الله العقل» .

((الشرح))

(علي بن محمد عن سهل بن زياد عن محمد بن سليمان) مشترك بين الضعفاء (عن علي بن إبراهيم) الظاهر أنه علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسن الجواد أني بفتح الجيم وتشديد الواو ثقة صحيح الحديث (عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال حجة الله على العباد النبي والحجة فيما بين العباد و بين الله العقل) هذا الحديث والله أعلم يحتمل وجوهاً الأول ما أشار إليه بعض الأفاضل و هو أن الحجة الموصلة للعباد إلى السعادة والنجاة بعد الاعتقاد بالهبة تعالى وهو النبي عليه السلام ، والحجة فيما بينه وبين العباد الموصلة لهم إلى معرفته تعالى والتصديق به هو العقل ، وفيه أن تخصيص حجة العقل بمعرفته تعالى و حجة النبي بما عداها ممّا لا يدل عليه دليل ولا يتحصل له معنى إذ النبي حجة أيضاً في معرفته تعالى و صفاته والعقل حجة فيما عداها أيضاً الثاني أن النبي حجة الله الموصلة لعباده إلى طريق الحق والباطل وطريق

(١) إعانة الملك ليس أقوى من إعانة الامام (ع) لكن لا بد من العقل الكامل في متابعة الناس أجمعين له (ع) كما كانوا محتاجين اليه على عهد رسول الله (ص) و بالجملة لا يريد القائل أن الناس في آخر الزمان لا يحتاجون الى الحجة (ع) بل يريد أنهم بسبب كمال عقولهم يستعدون لظهوره و قبول قوله و حكمه و يبقون على الحق مستعدين فاقبلين الى يوم القيامة وما كانوا كذا في العصر الاول والاوسط (ش).

الخير والشر كملها يعنى يهديهم إليها والعقل هو الحجّة بينه تعالى وبين العباد الموصلة لهم إلى تصديق نبيّه والاذعان لكلّ ما أخبر به وفي تغيير الأسلوب إشارة إلى ما بينهما من التفاوت في الظهور والخفاء ، الثالث أن النبيّ حجّة الله على عباده على سبيل التفضل لقطع أعذارهم كما يشعر به لفظة «على» والعقل هو الحجّة الكافية في الحقيقة بينه وبين العباد ولو أبى عن الحقّ فإنّما هو لسوء تدبيرهم وبطلان استعدادهم لأمر عرض له بمجاورة الأبدان لالتقصان في ذاته ، الرابع أن حجّة النبيّ مختصة بالله سبحانه ومن صنعه تعالى وليس للمعبود مدخل فيها كما يشعر به الإضافة وحجّة العقل غير مختصة به تعالى بينه وبين عباده ولهم مدخل فيها وذلك لأنّ الله تعالى خلق العقل قابلاً لجميع الكمالات البشرية ومن الظاهر أنّه لا يتّصف بالحجّة حتّى يتّصف بالكمال في الجملة إذ هو في حيّز القوة المحضة ليس حجّة و اتّصافه بالكمال بسعى العباد و طلبهم و حسن تدبيرهم فلم يدخل في حجّيته .

الخامس بيان الاحتياج إلى الحجّتين والتغيير في الأسلوب إنّما هو لمجرّد التفتّن والمقصود أن حركة العبد نحو المقصود لا تحصل إلاّ بدليل خارجي هو النبيّ و دليل داخلي هو العقل أمّا الثاني فلأنّ الوصول إلى منازل القرب لا ينصوّر إلاّ بالاتّصاف بالفضائل والتجرّد عن الرذائل وذلك لا يمكن إلاّ بعد معرفة الفرق بينهما ومبدأ تلك المعرفة هو العقل و أمّا الأوّل فلأنّ العقل وإن كان مستقلاًّ في بعض المعارف لكنّه غير مستقلّ في بعضها كأحوال المعاد و الشرايع الإلهيّة مع تحقّق خطائه فيما يستقلّ كثيراً فاحتاجوا إلى النبيّ المؤيّد من عند الله تعالى ليهديهم إلى المطالب والمحسن و يزجر عن الرذائل والقبايح ليكونوا معه أقرب من الخير و أبعد من الشرّ .

((الاصل))

٢٣- « عدة من أصحابنا، عن أحمد بن عبد مرسل قال : قال أبو عبد الله عليه السلام ،

« دعامة الانسان العقل والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم ، وبالعقل يكمل »

« و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره ، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً ،
 « حافظاً ، ذا كراً ، فطناً ، فهماً فعلم بذلك كيف ولم وحيث ، و عرف من نصحه و »
 « من غشبه ، فإذا عرف ذلك عرف مجراه و موصوله و مفصولة ، و أخلص الوجدانية »
 « لله و الاقرار بالطاعة فإذا فعل ذلك كان مستدر كاً لأمفات ، و وارداً على ما هو آت »
 « يعرف ما هو فيه و لأي شيء هو ههنا ، و من أين يأتيه و إلى ما هو صائر ، وذلك »
 « كله من تأييد العقل ».

((الشرح))

(عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد مرسلًا قال : قال أبو عبد الله عليه السلام دعامة
 الإنسان العقل) الدعامة بالكسر عماد البيت و دعامة السقف الأسطوانة التي
 يقوم عليها السقف ، و دعامة الحائط المائل العماد الذي يسند إليه ليستمسك به فتشبيه
 الإنسان بالبناء مكنية ، و إثبات الدعامة له تخيلية ، و حمل العقل عليها تشبيه
 بليغ و تعريف العقل باللام للحصر يعني أن إثبات الإنسانية للإنسان و تحققها
 و قيام معناها إنما هو بالعقل كما أن إثبات السقف و قيامه بالعماد لظهور أن
 الإنسان ليس مجرد هذا الهيكل المخصوص وإلا لما كان بينه و بين الصور المنقوشة
 على الجدار أو المصنوعة من الحجر والخشب فوق بل الإنسان إنسان بما وجد
 فيه من العقل الذي هو منشؤ المعارف والكمالات و مبد، العلوم و ملكات وأما من
 لم يوجد فيه العقل كالجاهل الفاقد لتلك المعارف والملكات الواحد لأضدادها من
 الشرور والآفات فهو نسناس في صورة الناس (والعقل منه الفطنة و الفهم) أي
 ينشؤ من العقل الفطنة والفهم و هذا الكلام و ما بعده بيان و تفسير لذلك المصراع
 أعني كون العقل دعامة الإنسان ، والفطنة الذكاء و لها مراتب أعلاها أن يحصل
 للذهن ملكة الانتقال من المبادي إلى المطالب بسهولة بحيث لا يحتاج إلى فضل
 مكث وتأمل ، والفهم جودة تهيمؤ الذهن لقبول ما يرد عليه وله أيضاً مراتب في القوة
 والضعف و أعلاها أن يحصل للذهن من كثره مزاولة المقدمات المنتجة ملكة

سرعة انتاج المطالب وسهولة استخراج النتائج على سبيل البرق الخاطف (والحفظ والعلم) اعل* المراد بالحفظ حفظ الميثاق أو حفظ الصور الحسية بضبطها في خزانة الخيال أو حفظ الصور العقلية بأن يحصل للدّهن ملكة الارتباط بالمبادئ العالية بحيث يقدر أن يشاهد تلك الصور فيها متى شاء من غير حاجة إلى تجشّم كسب جديد (١) أو الأعم من الجميع ، والمراد بالعلم الادراك مطلقاً أو إدراك المعارف الالهية و الأحكام النبوية و التصديق بهما على التفصيل، ثم ذكر هذه الأربعة كأنّه على سبيل التمثيل والاقتصار وإلا فأحوالات العقل وفضائله الناشئة منه غير منحصرة فيها كما يظهر لمن تأمل في الآثار سيما الخير الوارد في ذكر جنوده (وبالعقل يكمل) أي يكمل الانسان لأنّ العقل مبدء لجميع الخيرات و منشؤ لجميع الكمالات التي بها يصير الانسان كاملاً في الدارين و تمام العيار في الشأين و ممدوحاً عند الخالق و محبوباً عند الخالق ، و تقديم الظرف لقصد الحصر أو الاهتمام وإنّما لم يقل : و به يكمل مع تقدّم المرجع لئلا يتوهّم عود الضمير إلى العلم ، وهذا وإن كان أيضاً صحيحاً لكن الكلام في العقل و بيان أحوالاته (و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره) أي العقل دليل الانسان إلى سبيل النجاة و و مبصره للخيرات اسم فاعل من بصره و يجوز أن يقرأ بفتح الميم والصاد و يكون الياء ، وقيل : المبصر والمبصرة على هيئة اسم المكان : الحجّة. و مفتاح أمره يفتح

(١) قالوا ان الحافظة للقوة المعاملة هي العقل الفعال و عبر عنه الشارح بالمبادئ العالية اذ قد عبر بذلك عن القول أولانا لانعلم انحصار الموجودات المجردة التي يرتبط بها أفراد الانسان في عقل واحد مسمى بالعقل الفعال ، و بالجملة لكل مدرك حافظ وحافظ المحسوسات قوة الخيال و حافظ المعاني الجزئية يسمى حافظة و حافظ المدركات الكلية هو المبادئ العالية و نسبتها بزوال ملكة الارتباط بين عقل الانسان و العقل الفعال و التذكير ببقاء تلك الملكة ولم يقولوا بكون حافظة المدركات العقلية في الانسان نفسه بل أنبتوه في خارج لان مدرك الكلى مجرد لا يتبعض والمدرك موجود مجرد والحافظ موجود آخر و بينهما ربط (ش).

به أبواب العلوم والكمالات كل ذلك لأن العقل في عالم الأبدان كالشمس يتلألأ نوره ويلمع ضوءه في الحواس الباطنة والظاهرة و يتنور به القلب ويستضيء به الصدر ، فمن حيث أنه يمتدي به كل عضو من أعضاء الانسان إلى ما هو المطلوب منه فهو دليله ، ومن حيث أنه ينظر القلب به أوفيه إلى الحقائق والمعارف و يبصرها بعين البصيرة فهو مبصره ، ومن حيث أنه ينكشف به تلك الحقائق و المعارف للقلب و يمتش فيه صورها فهو مفتاح أمره (فإذا كان تأييد عقله) أي تقويته (من النور) أي بالفضائل العقلية والكمالات النفسانية التي هي من جنود العقل مثل العلم والحفظ والدكر والفطنة والفهم ، و سمّاها نوراً على سبيل الاستعارة و التشبيه به في الهداية كما يسمى أضدادها أعنى الجهل والنسيان والسهو والغاوة والحمق ظلمة ، أو على ملاحظة أنها فايضة من عالم نوراني يعني عالم الملكوت على قلب إنساني ليستعد بها للترقي إليه ، والفاء حينئذ للتفريع إذ هذا الشرط مع الجزاء بمنزلة نتيجة للكلام السابق كما يظهر بأدنى تأمل ، ويحتمل أن يراد بالنور الحجة الظاهرة يعني النبي لأنه نور إلهي في ظلمات الأرض به يتقوى العقول في ثباتها على صراط الحق و اتصافها بالفواضل والفضائل و اهتدائها إلى حضرة القدس ، و أن يراد به بصيرة قلبية أو عناية ربانية أو جوهر مجرد مخلوق من نور ذاته (١) و هو الذي دل عليه بعض الأحاديث المذكورة والمراد بتقوية العقل به ارتباطه و استشراقه من نوره والله أعلم بحقائق كلام وليه (كان عالماً بالله) و اليوم الآخر و عواقب الأمور في الباطن والظاهر (حافظاً لنفسه) في المسير إلى الله من الخطأ والزلل ، و للمصور العلمية و المكتسبات العملية من الفساد والخلل (ذا كراً) لما يفضيه إلى جنات النعيم و ينجيه من عذاب الجحيم (فطناً) في اكتساب الحقائق و اقتراف الدقائق (فهماً) المقابح الدنيا و مكائد زهراتها و

(١) سبق أن العقل جوهر مجرد مخلوق قبل عالم الاجسام ولم يغلفه الله تعالى من مواد هذا العالم الجسماني و عناصره بل خلقه من نور ذاته بلا واسطة ، كما ورد أن العقل أول خلق من الروحانيين (ش).

و منافع الآخرة و شدايد خطراتها .

(فعلم بذلك كيف ولم وحيث) كيف اسم مبهم غير متمكن وإنما حرك آخره لالتقاء الساكنين و بنى على الفتح دون الكسر لمكان الياء و هو للاستفهام عن الأحوال و «ماء» للاستفهام و تحذف منها الالف للتخفيف إذا ضم إليها حرف مثل بم و عم ينسألون ولم وهي سؤال عن علّة الشيء و سبب وجوده ، و حيث كلمة تدلّ على المكان لأنّه ظرف في الامكنة بمنزلة حين في الأزمنة وهو اسم مبنيّ حرك آخره لالتقاء الساكنين ، فمن العرب من يبنّيها على الضمّ تشبيها لها بالغايات لأنّها لم تجىء إلا مضافة إلى جملة كقولك أقوم حيث يقوم زيد، ومنهم من يبنّيها على الفتح مثل كيف استثقلاً للكسر مع الياء ، و لعلّ المراد فعلم بسبب كون تأييد عقله من النور أو بسبب كونه عالماً إلى آخر أحواله و كيفيّتها (١) من كونها خيراً أو شراً نافعاً أو ضاراً أو كيفية سلوكه فيها وجعله وسيلة للسير إلى منازل الآخرة و علم علّة تلك الأحوال (٢) و الباعث لسلوكه فيها وهي الخروج من حضوض النقص إلى أوج الكمال و من الشقاوة إلى السعادة و علّة إيجاده و باعث إنشائه و تحريكه من عالم القدس إلى هذا العالم (٣) وهي كونه عبداً خالصاً راعياً لحقوق عبوديته بقدر الامكان ناصحاً لعباده بالقلب واللسان و علم مقاماته من أول الابداد إلى ما شاء الله فانّ العقل المؤيّد من النور (٤) يعلم بالمشاهدة والعيان أنّ له من

(١) تفسير لكلمة «كيف» يعنى يعلم كيف حاله و منازل و سيره فيها (ش) .

(٢) تفسير لكلمة «لم» لأنها سؤال عن العلّة الغائبة أو الفاعلية . (ش)

(٣) تفسير لقوله «حيث» وهي السؤال عن المكان أين كان والى ما يصير (ش) .

(٤) فهم هذه الامور بالعقل لان أصعاب الحس و اهل الدنيا لا يعرفون هذه المعاني أصلاً و يزعمون أنّ وظيفة الانسان والمقصود من خلقه عمارة الدنيا و تسهيل أمر الممّاش و جميع امورهم يدور حول ذلك حتى أنّ الملكات الفاضلة والخصائل الذميمة عندهم ما تتعلق بنظام هذا العالم ولا يعرفون ما ذكره الشارح من منازل الآخرة والسلوك فيها أصلاً ويعدون ذلك أوهاماً و خرافات (ش) .

بدء وجوده إلي ما شاء الله مقامات متفاوتة و درجات مختلفة متباعدة ويعلم التفاوت فيما بين تلك المقامات والتفاضل فيما بين تلك الدرجات وبالجملته له بصيرة كاملة يعلم بها حالاته و صفاته المطلوبة منه عقلاً ونقلاً وأسباب تلك الحالات والبسائط لوجوده في نفسه و مقاماته المندرجة و منازلة المتفاوتة في السير إلى الله تعالى ، و يحتمل أن يكون المراد أنه إذا كان تأييد عقله من النور علم كيفية الأشياء في نفس الأمر و لم يتبناها و حبسيتها وإثبتها والله أعلم (و عرف من نصحه و من غشته) لأنه يميز بين الأقوال الصادقة والكاذبة و يفرق بين الأحوال الصحيحة والسقيمة فمن أتاه بشيء منها يتلقاه بوجه قلبه ويزنه بميزان عقله ، فيعلم صرفه من ممزوج وخالصه من مغشوشه و صرينه من صرفاته وبذلك يميز بين الناصح الأمين والغاشميون . و بين أئمة الهدى و أئمة الضلال .

(فإذا عرف ذلك) أي كيف ولم و حيث و من نصحه و من غشته (عرف مجراء) اسم مكان أو مصدر ميمي فبضم الميم من الاجراء و يفتحها من الجري و بالوجهين قرئ ، قوله تعالى : **بسم الله مجريها ومرسيها** » يعني إذا عرف الأحوال والصفات و يميز بين رديتها و جيدها و عرف أغراضها و أسبابها والغرض من إيجادها و مقامات وجوده و عرف من نصحه و من غشته معرفة صحيحه خالصة من شوائب الوهم و عرف مسلكه الذي يسلكه وسمته الذي يتوجه إليه أو عرف جريه و سيره إلى حضرة القدس و سلوكه إلى مقام الأنس إذ السير على أي وجه اتفق ليس موجباً للوصول إليه والقيام بين يديه بل الموجب لذلك سير مخصوص وجري معلوم لأرباب العقول المنوثة (و موصوله ومقصوله) أي من ينبغي الوصل معه و الفصل عنه من أئمة الهدى و أئمة الضلال أو ما ينبغي من الأحوال والصفات (و أخلص الوجدانية لله والإقرار بالطاعة) إخلاص هذين الأمرين الذي هو الأصل في التقرب إليه و الفوز بالمزيد من لديه إنما يتيسر لمن له معرفة بالأمور المذكورة لأنه العارف بأنه تعالى هو المستحق للعبادة والإقرار له بالعبودية و الطاعة لكون بدنه منخرطاً في سلك خدمته ، و قلبه مستغرقاً في بحر معرفته ،

و سرّه طالباً إياه ، و عقله معرضاً عما سواه ، و أمّا غيره فلا يخلو قطعاً من الشك الخفيّ أو الجليّ (فإذا فعل ذلك كان مستندراً كماً لمافات و وارداً على ما هوأت) ينبغي الوقف في آخر الكلمتين ، ولا شك أنّ الاخلاص المذكور غاية المراتب العلية في العقائد البشريّة و أنّه متوقف على المعارف المذكورة آنفاً بحكم الشرط المذكور و أنّ تلك المعارف كلّها غير متحصّلة في أوّل التكليف إلاّ لمن خصّه الله تعالى بكمال العقل من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام و من هذه المقدمات يعلم أنّ الانسان لا يخلو من تقصير ما فيما مضى إلى أوان كماله ، و إذا بلغ حدّ الكمال و اتّصف بتلك المعارف و جعل له ذلك الاخلاص و وجد لذّة العبوديّة و تحلّى بغاية الخضوع و تزيّن بلباس الخوف ، كان مستندراً كماً قطعاً لمافات عنه فيقضي بعضه ممّا ينبغي فعله و يستغفر ربّه فيما لا يمكن تداركه إلاّ به ، و يعترف بالتقصير فيما يعجز عنه ، و وارداً على ما هوأت من الأعمال الصالحة و الأفعال الفاضلة ، فاعلاً لها على وجه الاخلاص الموجب لكمال القرب والاختصاص ، ويحتمل أن يراد وارداً على ما هوأت من الثواب الجزيل والأجر الجميل والنعيم المقيم والسرور الدائم في رياض الجنان (يعرف ما هو فيه) حال عن المستتر في « مستندراً كماً » و تأكيداً للكلام السابق (١) وما للاستقهام أو للخبر بمعنى النّدي والضمير المرفوع يعود إلى الانسان والضمير المجرور إلى « ما » يعني أنّ الانسان إذا بلغ حدّ الكمال و اتّصف بالأمور المذكورة مستندرك لمافات و هو يعرف حقيقة الفعل الذي اشتغل به و وجوه اعتباراته وجهات حسنه و طريق الاتيان به على وجه يوافق قانون العقل والنقل ، ويحتمل أن يكون المراد « بما هو فيه » المكان الذي هو فيه ، يعني يعرف حقيقة هذا المكان و مهية هذه النشأة و سرعة انتقال أهلها منها و كثرة ابتلائهم فيها بالتكليف وغيرها (ولاي شيء هو هنا) كلمة أيّ معرب يستفهم بها عما يميز الشيء سواء كان ذاتياً له أو عرضياً يعني يعرف أنّه لا شيء هو في هذه الدار

(١) و ناظر الى قوله « كيف » كما ان « لا ي شيء هو هنا » ناظر الى قوله « ولم »

و « من أين يأتيه » ، والى ما هو صائر ، ناظر الى قوله « حيث » (ش).

الفانية و أن الغرض من كونه فيها تكميل النفس بالقوة النظرية و العملية و
تحريرهما من المنازل السفلية الظلمانية إلى أقصى المعارج الملكوتية النورانية
و اكتسابها للقربات و اجتنابها عن المنهيات ليستأهل النزول في بساط الحق و
القيود عليه و فيه إشارة إجمالية إلى معرفة مقامات النفس و مراتب درجاتها (ومن
أين يأتيه) أين سؤال عن المكان يعنى يعرف من أي عالم يأتي هذا العالم الدائر
الذي فيه اليوم و يعرف ما بينهما من التفاوت فان الأول عالم روحاني و مكان
نوراني (١) و الثاني عالم جسماني و مكان ظلماني حبس فيه الروح ما شاء الله
ليذكر قدر تلك النعمة و يسلك منهج النجاة و يعترف بالعجز و الافتقار و يقر
لربه بالقهر والغلبة. و فيه إشارة إلى علمه بأحوال مبدئه و منازل انتقالاته في المنشأة
الكونية التي يتحير فيها عقول العقلاء و فحول العلماء و قد أشار جل شأنه إلى
هذه المراتب بقوله : « و ما لكم لا ترجون لله وقاراً و قد خلقكم أطواراً » و من
تأمل فيه اضطر إلى معرفة خالقه و الانقياد له و إلى علمه بأن الغرض من اجرائه
من جداول أصلاب الآباء و أرحام الأمهات عهداً بعيداً إلى أن جرى على وجه
الأرض أن يحصل منه زرع صالح و نبات حسن و هي الأعمال التي يوجب أجراً
جميلاً و ثواباً جزيلاً بعد العود (و إلى ما هو صائر) يعنى يعرف أنه بعد استقراره
في الدنيا في أجل معدود و زمان محدود يصير إلى مقام آخر فيه « تجد كل نفس
ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء تود لو أن بينهما وبينه أمداً بعيداً »
و فيه إشارة إلى علمه بأحوال المعاد و منازل و عقباته من القبر و البرزخ و الحشر
و النشور و الميزان و الصراط و الحساب و العرض و الجنة و النار (و ذلك كله من تأييد
العقل) يعنى ذلك المذكور من قوله : الفطنة و الفهم و الحفظ و العلم إلى آخر ما
ذكر من تأييد العقل و تقويته بالنور المذكور إذ الإنسان بذلك النور يخرج من
حد النقص و القصور و يهتدي إلى الأمور المذكورة و ينظر في ظلمة الطبيعة

(١) مبناه على مذهب صدر المتألهين - قدس سره - ان النفس روحانية البقاء و

جسمانية الحدوث . (ش)

البشرية إلى فضاء القدس و عالم الأُنس و يطير بجناح الهمة إلى مقامات رفيعة في جنة عالية .

((الاصل))

٢٤- « علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن إسماعيل بن مهران ، عن بعض رجاله ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : العقل دليل المؤمن . »

((الشرح))

(علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن إسماعيل بن مهران ، عن بعض رجاله ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : العقل دليل المؤمن) إذ بدلالة نوره يخرج المؤمن من المروية الهبولانية إلى استكمال القوة النظرية والعملية و من مرقد الطبيعة البشرية إلى التفتن بالمقاصد اللاهوتية والمواعظ الربانية و من مهد الغفلة الناسوتية إلى استماع نداء الحق إلى منهج السداد في كل آن ودعاء الرب إلى مسلك الرشاد في كل زمان ، فلا يزل بعد هذه الدلالة أقدام بصيرته ولا يضل بعد هذه الهداية أنظار فكرته وهكذا يسير ويسعى نور العقل بين يديه إلى أن يصل إلى أقصى منازل العرفان وأعلى مراتب الايقان فيتخلص عند ذلك من ألم الفراق وينظر إلى جمال الحق نظر الحبيب المشتاق .

((الاصل))

٢٥- « الحسين بن محمد ، عن مغلى بن محمد ، عن الوشاء ، عن حماد بن عثمان ، عن السري بن خالد ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا علي ، « لا فقر أشد من الجهل ولا مال أعود من العقل . »

((الشرح))

(الحسين بن محمد ، عن معلى بن محمد ، عن الوشاء ، عن حماد بن عثمان ، عن السري بن خالد ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا علي لا فقر أشد من الجهل) الفقر في عرف الناس فقد المال وإطلاقه على الجهل مجاز لا اشتراكهما في انتفاء اللذات والمنافع إذ ينفي في الأول اللذات والمنافع الجسمانية وفي الثاني اللذات والمنافع الروحية ، وفي عرف الخواص فقد ما يوجب الانتفاع به مالا كان أو علماً وإطلاقه على الجهل عندهم على سبيل الحقيقة . ثم المقصود أن الجهل أشد أفراد الفقر فإن أهل العرف يفهمون من قولنا ليس في البلد أفضل من زيد أن زيدا أفضل من غيره ، وكون الجهل أشد من فقد المال ظاهر لأن انتفاء اللذات والفضائل الروحية في الدنيا والآخرة أشد وأصعب من انتفاء اللذات الجسمانية المتعلقة بالحياة الدنيا بل لانسبة بينهما عند ذوي البصائر الناقبة (ولا مال أعود من العقل) يقال : هذا الشيء أعود عليك من كذا أي أنفع ، والعائدة المنفعة ، وكون العقل أعظم أفراد المال و أنفعها ظاهر بالقياس إلى ما ذكرناه على أن المال بدون العقل لا ينفع بل يضر أكثر مما يفاده بخلاف العقل فإنه ينجي صاحبه من ملامة الدنيا وندامة العقاب لوضعه الأشياء في موضعها وقد يقال : العقل أنفع من المال لأن المال كالألفاظ الخبير والمنافع في وصوله إليهما والعقل دليل موصل له إليهما وبه معرفتهما واختيارهما فتأمل .

((الاصل))

٢٦- « محمد بن الحسن ، عن سهل بن زياد ، عن ابن أبي نجران ، عن العلاء ، « ابن رزين ، عن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما خلق الله العقل قال ، له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً ، أحسن منك ، إياك أمر وإياك أنهى وإياك أتيب وإياك أعاقب .

((الشرح))

(محمد بن الحسن) كأنه الصفار الثقة واحتمال ابن الوليد الثقة بعيد (عن سهل بن زياد) عن ابن أبي نجران) عبدالله الثقة (عن العلاء بن زريق) عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما خلق الله العقل قال له: أقبل (إلى مقاماتك) (١) أو إلى مرضاتي بالامثال أو إلى مشاهدة جلالتي و كبريائي أو إلى تكميل ذاتك بفضائل صفاتك (فأقبل) إلى ما ذكر والمستحفظون لهذا الخطاب. واليهون في شواهد الملكوت، حائرون من آثار الجبروت طالبون للمقرَّب بحضرة الباري، هاربون عمّا عداه أشدّ هرباً من الأسد الضاري (ثم قال له: أدبر) من عالم النور والمقامات البرّ وحانيّة أو من مرضاتي بالطاعات إلى مسا خطي السيئات، أو من تكميل ذاتك إلى تكميل غيرك كما هو شأن أصحاب الخلافة الكاملين في أنفسهم المستكملين لغيرهم (فأدبر) إلى ما ذكر امتثالاً لأمره، والعقل شأنه الامتثال دائماً وإن يصدر منه خلاف فأنّما يصدر لغفلة في مراقب الطبيعة البشرية و سجون الأبدان و أنسه بالزّهات الدنياوية و صفات النقصان (فقال: و عزتي و جلالتي ما خلقت خلقاً أحسن منك) أكد مضمون الجملة بالقسم مع أنّه أصدق الفائلين إمّا لأنّ المقصود منه صورة القسم ترويحاً لمضمونها أو لأنّ العقل لما شاهد إدباره المؤدّي إلى الشقاوة والبعد توهّم أنّه أحسن الخلق أكد دفعاً لتوهّمه و بشارة له و في التفريع دلالة على أن إقباله مع كونه قابلاً للإدبار سبب لكونه أحسن المخلوقات و سرّ ذلك يظهر ممّا ذكرنا آنفاً (إياك أمر وإياك أنهي وإياك أثيب) بطاعتك و انقيادك فيما ينبغي (و إياك أعاقب) بمخالفتك و عصيانك فيما لا ينبغي.

(١) هذا هو الحديث الأول بعينه عن العلاء عن محمد بن مسلم مع تغيير يسير في

العبارة لا يخلو منه الروايات باختلاف الرواة (ش).

((الاصل))

٢٧- « عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ، عن الهيثم بن أبي مسروق النهدي ، عن الحسين بن خالد ، عن إسحاق بن عمار قال : قلت : لأبي عبد الله عليه السلام : « الرجل آتبه وأكلمه ببعض كلامي فيعرفه ككلمه ومنهم من آتبه فأكلمه ، بالكلام فيستوفي كلامي ككلمه ثم يردّه عليّ كما كلمته ، ومنهم من آتبه ، فأكلمه فيقول : أعد عليّ ؟ فقال : يا إسحاق وما تدري لم هذا ؟ قلت : لا ، قال : الذي ، وتكلمه ببعض كلامك فيعرفه ككلمه فذاك من عجزت نطقه بعقله ، وأما الذي ، وتكلمه فيستوفي كلامك ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركب عقله فيه ، وفي بطن أمه ، وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول : أعد عليّ الذي فذاك ركب عقله فيه بعد ما كبر فهو يقول لك : أعد عليّ . »

((الشرح))

(عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ، عن الهيثم بن أبي مسروق النهدي ، عن الحسين بن خالد ، عن إسحاق بن عمار قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « الرجل آتبه وأكلمه ببعض كلامي فيعرفه ككلمه) يعني ينتقل من البعض إلى الكلّ و يفهم معناه المقصود منه (و منهم من آتبه فأكلمه بالكلام) على التمام (فيستوفي كلامي ككلمه) ويسمعه من أوله إلى آخره ويفهم معناه بعد تمامه لافبله (ثم يردّه عليّ كما كلمته) من غير نقص و زيادة حافظاً لألفاظه ومعناه (و منهم من آتبه فأكلمه بالكلام ككلمه) و يسمعه من أوله إلى آخره ولا يضبط لفظه ولا معناه (فيقول أعد عليّ) طالباً لتكريره لينتقل منه إلى المقصود ، والغرض من هذا السؤال الاستكشاف عن سبب تفاوتهم في العقل والإدراك ، و ينبغي أن يكون الكلام من نوع واحد وسي الدقّة والخفاء ، وإلا فقد يكون المحتاج إلى إعادة أقوى إدراكاً من الأولين (قال : فقال : يا إسحاق وما تدري لم هذا) الظاهر أنّه استفهام على حقيقة أو المتقرين

والواو المعطف على محذوف أي أقول ذلك وما تدري ، و يحتمل أن يكون خبراً عطفاً على كلام السائل وإظهاراً لما هو المقصود من ذلك الكلام (قلت : لا) هذا على الأول تعيين لما هو المقصود من الاستفهام ، أو إقرار للتقني ، و على الأخير تصديق لقوله ﷺ (قال الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرفه كله فذاك من عجنت نطفته بعقله ، و أمّا الذي تكلمه فيستوفي كلامك ، ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركب عقله فيه في بطن أمه ، و أمّا الذي تكلمه في الكلام فيقول : أعد علي فذاك الذي ركب عقله فيه بعدما كبر فهو يقول لك : أعد علي) المواد الإدراكية كلها موجودة في النطفة الإنسانية على سبيل الاستعداد ولكنها مختلفة في القوة والضعف واللطافة والكثافة والنموس الإنسانية العاقلة القابلة للإدراكات الكلية والجزئية متفاوتة في الكدرة والصفاء والظلمة والضياء و بحسب تفاوتها و تفاوت المواد يتفاوت التعلقات والإدراكات فكأنما كانت النفس الناطقة أشرف وأ نور كان تعلّقها بالمواد التي هي ألطف وأقوى أقدم وأسرع ، وكان إدراكها أتم و أكمل لتمام الاستعداد والمناسبة و كمال الصفاء والنورانية فيصل الجذب والإدراك بسهولة ، فمن عجنت نطفته بزلال العقل وخمّرت به واستضاءت موادها بنوره لغاية لطافتها وقوة استعدادها كان بعد انتهاء الاستعداد وحصول بقية شرايط الإدراك بالفعل عاقلاً فاضلاً مدركاً كاملاً عارفاً للآخر من الأول والفرع من الأصل لأنه وقت كونه نطفة إلى أن إدراك كان يمشق الإدراك وينمّرّن عليه والفعل بعد المشق والتمرّن في غاية السهولة والكمال كما لا يخفى على المتدرب ولا يجوز أن ينكر تعلّق العقل بالنطفة حين كونها نطفة باعتبار عدم حصول العلم بذلك التعلّق وإلاّ لجاز أن ينكر تعلّقه بعد تسوية البدن و تكميله لاشتراك العلّة مع أنّه قد يحصل لبعض العارفين المجرّدين عن العلايق الجسميّة والعوايق البدنيّة الناظرين إلى جمال المطلوب بعين المشاهدة علم بتعلقات عقله في الأكوان البشريّة وتصرّفاتة في المواد الجسميّة بل ربّما كان في آن تعلّقه عالماً كاملاً فاضلاً عارفاً بالله وملائكته و كتبه و رسله كما روي في شأن أئمتنا صلوات الله عليهم أجمعين و عدم حركة النطفة و

انقلابها لا يوجب إنكار تعلقه بها كما يشاهد ذلك من النائم و أصحاب السكنة وقد ذهب جماعة إلى إن الأرض والجبال وغيرهما من الجمادات نفوساً متعلقة بها مع أنها ساكنة على أن الحركة الإرادية في الماديات من خواص النفس الحيوانية و امتناع تعلق القوة العاقلة قبلها ممنوع (١).

و بالجملة تعلق العقل بالنظفة أمر ممكن عقلاً وقد أخبر به الصادق عليه السلام فوجب الاعتراف به و من ركب عقله في بطن أمه فهو دون الأول في الإدراك لقلة تمر نه و تدربه و ضعف امتزاج مادته و تعجيبها بخميرة العقل بالنسبة إلى الأول فله الدرجة الوسطى من الإدراك يفهم معنى الكلام بعد تمامه لا قبله مثل الأول و من ركب عقله فيه بعد الرضع إلى زمان التكليف و هذا هو المراد بقوله بعد ما كبر فهو دون الثاني في الإدراك لقلة تمر نه قطعاً و عدم امتزاج مادته بالعقل و ضعف استضاءة سائر قوا الإدراك كقوة بنوره و هو بمنزلة بيت وضع المصباح في خارجه فله الدرجة الأدنى من الفهم والمرتبة الدنيا من الإدراك لا يفهم معنى الكلام بعد تمامه ، بل يحتاج إلى تكريره فلذلك يقول أعد علي ثم هذا المراتب هي الامتهات في مراتب الإدراك و اختلافاتها وإلا فلكل درجة مراتب متفاوتة

(١) ماهية التعلق ليست واحدة مثلاً تعلق المعقول بالعلمة نحو من التعلق لا يستحيل بين الممكن والواجب و اثر هذا التعلق انعدام الممكن على فرض عدم تعلق الممكن به تعالى و تعلق النفس بالبدن تعلق بنحو آخر و أثره زوال الحياة بزوال التعلق و تعلق الملائكة بالموجودات بنحو التدبير و التصرف و تعلق العقل الفعال بالنفوس الناطقة على مذهب الحكماء او بجميع الموجودات في عالم الكون والفساد نحو من التعلق معقول و تعلق النفوس الفلكية بالافلاك أيضاً أمر معقول سواء كان واقعاً أولاً وليس في جميع الآثار نظير تعلق النفس الحيوانية بأبدانها و احتمال تعلق النفس بالأرض و الجبال نظير تعلقها بالافلاك اذ لا يستلزم التعلق سمعاً وبصراً ولمساً و عصباً و دماغاً وغيره باعتبار استلزامه حركة ارادية في الافلاك و هكذا «ش».

في القوة والضعف يدلُّ على ذلك ما رواه يحيى بن أبان عن شهاب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « لو علم الناس كيف خلق الله تعالى هذا الخلق لم يلم أحدٌ أحداً فقلت : أصلحك الله و كيف ذلك ؟ فقال : إن الله تبارك و تعالى خلق اجزاء بلغ بها تسعة و أربعين جزءاً ، ثم جعل الأجزاء أعشاراً فجعل الجزء عشرة أعشار ثم قسمه بين الخلق فجعل في رجل عشر جزء ، و في آخر عشري جزء ، حتى بلغ به جزءاً تاماً ، و في آخر جزءاً و عشر جزء و في آخر جزء و عشري جزء و آخر جزء و ثلاثة أعشار جزء ، حتى بلغ به جزءين تامين ثم بحساب ذلك حتى بلغ بأرفعهم تسعة و أربعين جزءاً ، فمن لم يجعل فيه إلا عشر جزء لم يقدر على أن يكون مثل صاحب العشرين ، و كذلك صاحب العشرين لا يكون مثل صاحب الثلاثة الأعشار ، و كذلك من تم له جزء لا يقدر على أن يكون مثل صاحب الجزءين ، ولو علم الناس أن الله عز وجل خلق هذا الخلق على هذا لم يلم أحدٌ أحداً (١) ، و يحتمل أن يكون قوله « من عجننت نطفته بعقله » معناه من خلقت نفسه قبل التعلق بالبدن على وصف كماله مناسب للعقل و ارتباطها به ثم تعلقت بالبدن و قوله « فذلك الذي ركب عقله فيه في بطن أمه » معناه هو الذي اتصفت نفسه بالوصف الكمالى الموجب لقوة ارتباطها بالعقل بعد تعلقها بالبدن و قوله « فذلك الذي ركب عقله فيه بعد ما كبر » معناه هو الذي اتصفت نفسه بذلك الوصف و حصل لها الارتباط بالعقل بعد استعمال الحواس و حصول الضروريات التي هي مبادئ النظريات والله أعلم بحقايق الأمور .

((الاصل))

٢٨ - « عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ، عن بعض من رفعه ، عن أبي »

« عبد الله عليه السلام قال - قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة ، كثير »

« الصيام فلا تباهاوا به حتى تنظروا كيف عقله . »

((الشرح))

(عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن بعض من رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهاوا به) أي فلا تفاخروا به من المباهاة وهي المفاخرة أو فلا تؤانسوا به من البهاء بالفتح والمدّ وهو الأُنس يقال : بهأت بالرجل بهاء آنست به وحينئذ يقرأ، تباهاؤوا بالهمزة بعد الهاء (حتى تنظروا كيف عقله) فإن وجدتم عقله كاملاً باعتبار ظهور آثار العقل، عنه و اشتمال أعماله وأفعاله على المحسنات العقلية والنقلية وجودة رأيه في الأمور الدنيوية والأخروية وحسن تصرفه في الفضائل العلمية والعملية، و رعاية آداب المعاشرة مع بني نوعه فهو أهل للمباهاة والمفاخرة والمؤانسة، إذ هو مظهر للألطف الإلهية ومورد للكمالات النفسانية ومعدن للفضائل الرُّوحانية ونور في نفسه و منور مرشد لغيره، وإن وجدتم عقله بخلاف ذلك فعمله بعيد عن الاعتبار والافتخار، وفيه دلالة على جواز مدح العلماء والثناء بالعقل، سرّاً وعلانية كيف لا والآيات القرآنية والآيات النبوية مشحونة بذكر كمالهم ونشر فضائلهم زادهم الله شرفاً وتعظيماً.

((الاصل))

٢٩- « بعض أصحابنا، رفعه، عن مفضل بن عمر : عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « يا مفضل لا يفلح من لا يعقل، ولا يعقل من لا يعلم، و سوف ينجب من يفهم، ويفطره من يحلم، والعلم جنّة والصدق عزّ، والجهل ذلّ، والفهم مجدّ، والجود نجاحٌ » « حسن الخلق مجلبة للمودة، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس، والحزم، « مساءة الظن، و بين المرء والحكمة نعمة العالم والجاهل شقي بينهما : الله، « دوليٌّ من عرفه، و عدوّ من تكلفه، والعاقل غفور والجاهل ختور، و إن شئت « أن تكرم فلن، و إن شئت أن تهان فاخشن، و من كرّم أصله لان قلبه، ومن »

« خشن عنصره غلظ كبده ، و من فرط تورط ، و من خاف العاقبة تثبتت عن ،
 « التوغل فيما لا يعلم ، و من هجم على أمر بغير علم جدع أنف نفسه ، و من لم ،
 « يعلم لم يفهم ، و من لم يفهم لم يسلم ، و من لم يسلم لم يكرم ، و من لم يكرم ،
 « يهضم ، و من يهضم كان ألوم ، و من كان كذلك كان أحرى أن يندم . »

((الشرح))

(بعض أصحابنا رفعه عن مفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يا مفضل)
 صدّر الحديث بمبادئه لطلب احضار قلبه و استعداد له لما سيتلو عليه من فضائل العقل و
 رذائل ضدّه (لا يفلح من لا يعقل) لأنّ الفوز بالسعادات الدنيوية و الآخروية
 لا يتصور بدون العقل البدي هو مبدئ لجميع الخيرات و منشؤ لجميع الكمالات ،
 و بدون استيلائه على القوة الغضبية و الشهوية (ولا يعقل من لا يعلم) أي من
 انتفت عنه حقيقة العلم انتفت عنه حقيقة العقل لأنّ تحقق حقيقة العقل وقواها
 و مراتبها إنّما هو بالعلم فإذا انتفى انتفى ، أو من انتفى عنه العلم بقوى النفس و
 محاسنها و مقابحها فلا يعقل يعني لا يستولى عقله على قواه النفسانية ضرورية أنّ
 استيلاءه عليها متوقف على العلم بها فاللازم من المقدّمين إمّا انتفاء حقيقة الفلاح
 و النجاة عند انتفاء حقيقة العلم : أو انتفاء الفلاح و النجاة من مقابح القوى النفسانية
 عند انتفاء العلم بها والله أعلم (وسوف ينجب من يفهم) رجل ينجب أي كريم
 بين النجابة و قد ينجب ككرم نجابة إذا كان فاضلاً منادياً بالآداب العقلية و العقلية ،
 ووجه ذلك ظاهر لأنّ الفهم بنور فهمه يميز بين الحقّ و الباطل و بين الصفات الحسنة
 و القبيحة فهو بمرور الأيام يكتسب المحاسن و يجتنب عن الرذائل و يصير عالماً
 فاضلاً غالباً على النفس و قواها و هواها حتى يصير نجيباً في الدنيا و الآخرة
 (و يظهر من يحلم) الظفر النجاة و الفوز بالخيرات و الحلم بالكسر الاناء تقول
 منه حلم الرجل يحلم بضمّ اللام فهما إذا تأنّى ولم يستعجل و ذلك ظاهر لأنّ من
 تأنّى في العقوبة ولم يستعجل فيها ولم يستخفّ سوء الأدب ولم يستفزّه الغضب يظهر

عن قريب بالمطالب و يفوز بالمآرب لأن ذلك سبب لكثرة المعاون والاصدقاء و
ازدياد الناصر والإخلااء بخلاف المستعجل فإنه يضيق عليه أمره (والعلم حنة)
يقي من سهام مكائد الشيطان و سنان مخاطرات النفوس وصوله القوى الشهوية و
الغضبية والدواعي النفسانية بل من جميع الآفات الدنيوية والعقوبات الأخروية
(والصدق عز) المراد بالصدق استقامة اللسان في القول والخطاب و ثباته على
منهج العدل والصواب في الصغير و الكبير والقليل والكثير سواء كان على نفسه
أو على الله تعالى أو على رسوله أو على الأئمة الطاهرين أو على المؤمنين وهو سبب للمعزة و
القوة والغلبة أو المراد به الاعتقاد الصادق و يؤيده المقابلة بالجهل لأنه الاعتقاد
الكاذب (والجهل ذل) غاية العزة هي التقرب بالله والارتواء بزال لطفه والتمتع
برياض قدسه والتمكن في قلوب العارفين و ذلك لا يحصل إلا بالعلم والعمل فإذا
انتفى العلم و حصل الجهل بسيطاً كان أو مركباً ثبت الدل والبعد عن الحق و
إنما قابل الصدق بالجهل دون الكذب لئلا يصير الثاني تاكيداً لمضمون الأول و
الناسيس خير من التاكيد (والفهم مجد) المجد الكرم والشرف الواسع يعني أن
الفهم من الصفات الكريمة الشريفة الموجبة لشرافة الذات ورفعة الحساب و
جلالة القدر (والجود نجح) النجح و النجاح الظفر بالجوانح يعني أن
الجود بالمال وبذله في وجوه الغير و صرفه في مصارف الخير يوجب الظفر بالمطالب
الأخروية لأن الله تعالى يقابل القليل بالجزيل و يودث الفوز بالمآرب الدنيوية
لأنه يجذب قلوب الناس إلى التودد لصاحبه ويصرف هممتهم إلى الذب عنه و
تحصيل مطالبه قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الجود حارس الأعراض (١) » (و حسن
الخلق مجلبة للمودة) حسن الخلق هو الاعتدال بين طرفي الإفراط والتفريط
في القوة الغضبية و الشهوية ، و مجلبة اسم آلة أو مصدر ميمي ، و الحمل هنا
للمبالغة كما في السوابق . يعني أن حسن الخلق مع الناس ومخاطبتهم على الوجه

الحسن الجميل والتودُّد لهم والاحتمال منهم والاشفاق عليهم والحلم والصبر وغير ذلك من محاسن الصفات الخلقية يجلب إلى صاحبه محبتهم وودادهم وصداقتهم وغير ذلك من خير الدنيا والآخرة حتى أن العدو يصير بذلك صديقاً شقيقاً وقد رغب فيه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « خالطوا الناس مخالطة إن قسم معها بكوا عليكم وإن عشم حشوا إليكم » (١) (والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس) في المغرب الهجوم الاثيان بغتة والدخول من غير استئذان من باب طلب ، يقال : هجم عليه . يعني يتعدى على . واللوابس جمع اللابس على غير قياس كالقوارس جمع فارس من اللبس بالضم مصدر لبست الثوب البسه أو بالفتح مصدر لبست عليه الأمر البسه أي خلطته ومنه قوله تعالى « ولبسنا عليهم ما يلبسون » والتبس عليه الأمر أي اخلط واشتبه أو جمع لبسة : يقال : في الأمر لبسة بالضم أي شبهة ليس بواضح ، والمقصود أن العالم بأحوال أبناء زمانه وعاداتهم الفاسدة ورسومهم الكاسدة من إنكار الحقوق واتباع أهواء النفوس وترويج الشرور وإعلان قول الزور لا تهجم عليه اللوابس أي الذين يلبسون الحق بالباطل والنور بالظلمة والأمر الواضح بالشبهة ولا يدخلون عليه بغتة وعلى سبيل الغلبة بالتدليسات والتليسات ولا يغلبونه بالتخليط وإلقاء الشبهات لعلمه بفساد أقوالهم وأفعالهم وإدراكه بالغراسق والتجربة سوء صنائعهم وقبايح أعمالهم أو المقصود أنه لا يدخل عليه الشبهات ، فيه تنبيه على أن الغالب في كل عصر هو إنكار الحق وترويج الكفران ، وإفشاء الظلم ونشر الجور والطغيان كما يعرفه أصحاب القلوب وأرباب العرفان وإذا تحقق ذلك مع طول مدة الإسلام واستقراره في القلوب فلا ينكر تحقُّقه بعد فوت النبي صلى الله عليه وآله ولا يستبعد وقوع ما وقع بعده من خروج أكثر الأمة عن الدين ، ولما كان هنا مظنة أن يقال عدم هجوم اللوابس على العالم بأهل زمانه لسوء ظنته بهم وعدم استماعه لأقوالهم ولا اتباعه لأثارهم وأطوارهم إلا بعد الاستظهار فيها والأخذ بالحزم لئلا ينخدع وسوء الظن لا يجوز قال دفعاً لذلك (و الحزم مساءة الظن) حزم الرجل جودة رأيه وإحكام أمره و ضبطه له وأخذه بالثقة والحذر من فواته ، والمساءة مصدر

ميمى ساءه يسوءه سوءاً بالفتح ومساءة تقيض سرته والحمل للمبالغة والإضافة إلى الفاعل على الظاهر. يعنى جودة الرأي وإحكام الأمر وأخذة بالثقة على وجه لا يقع في الباطل والشبهة يقتضى سوء الظن بهم يعنى تجويز السوء منهم والتثبت فيما يأتون به حتى يتبين الحق من الباطل والصدق من الكذب والعلم من الشبهة ولو وجب القبول منهم من غير حزم ولم يجز نسبة السوء إليهم لوقع الهرج والمرج وبطل الدين ورجع كما كان قبل البعثة ، ولذلك قال الله تعالى « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » وقال « لو يطيعكم في كبير من الأمر لعنتم » وبالجملة الحزم يوجب أن يبنى الحال أولاً على جواز السوء منهم حتى يتبين له الحق ويحصل الإذعان به ، وفيه تنبيه على أنه لا ينبغي متابعة الغير في أمر من الأمور مع تجويز كون ذلك الأمر خطأ ، بل لابد من كمال الاحتياط فيه ، وإنما قلنا على جواز السوء منهم لأنه الذي يقتضيه الحزم والاحتياط فلا ينافي ما ورد من النهي عن مساءة الظن بالخلق لأن ما ذكرناه من باب التجويز العقلي المناسب للحزم وما ورد النهي عنه من باب الاعتقاد الفاسد والقول بالشيء رجماً بالغيب.

(و بين المرء والحكمة نعمة العالم) « نعمة » بالتجويز والعالم بيان لها أو بالإضافة للبيان أو بتقدير اللأم ، ولعل المقصود أن بين المرء العاقل والحكمة نعمة العالم هي إرشاده وهدايته الموصلة إليها وتخليصه من ظلمات الأهام وتشبيته من مزال الأقدام وتسديده في مواضع أغاليط الأفهام وتعليمه كيفية السلوك في طرق المطالب وتقويته للوصول إلى دقایق الحكمة في أعلى المراتب (والجاهل شقي بينهما) أي بين الحكمة ونعمة العالم يعنى لا ينفعه سعي العالم وإرشاده وهدايته وتعليمه وتفهمه وتسديده كل ذلك لشقاوته الذاتية وذنائه الطبيعية وظلمته النفسية وكدورته الذهنية ، واحتمال عود ضمير التنبيه إلى الجاهل والحكمة يعنى كما أن بين العاقل والحكمة عالم رباني يهديه إليها كذلك بين الجاهل والحكمة شقي يضلّه عنها بعيداً ، وفيه دلالة على أن العقول البشرية وإن كانت قابلة لإدراك الحكمة والعلوم فهي تحتاج إلى توسط استاد هو عقل العالم وإرشاده

لأنّها مع هذا الوسط تصير نوراً على نور فتدرك الحقائق كما هي و تأمن من الغلط ثم إنّ هذا العالم يحتاج إلى عالم ربّاني إلى أن ينتهي إلى عالم بالذات لا يحتاج في علمه إلى غيره أصلاً وهو الله تعالى شأنه و نظير ذلك أن نور البصر في إدراكه يحتاج إلى توسط نور الشمس أو نور المصباح أو غيرهما فأنّه حينئذ يصير نوراً على نور يدرك المبصرات على ما ينبغي، والرّوايات الدّالة على اعتبار ذلك الوسط كثيرة جدّاً منها « من أعجب برأيه ضلّ ومن استغنى بعقله زلّ » (١) و على أن الجاهل الفاقد للبصيرة لا ينفعه توسط العالم و إرشاده أو على أن له قريناً شقيماً يضلّه عن طريق الحكمة « ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » .

و لشرح هذه العبارة أقوال آخر نحن نشير إلى بعضها إجمالاً ليحصل لك الإحاطة بجهات الكلام فنقول : قال بعض الأفاضل المقصود منها أن المرء من لدن عقله و تمييزه إلى بلوغه حدّ الحكمة متنعم بنعمة العلم ونعيم العلماء فأنّه لا يزال في نعمة من أغذية العلوم و فواكه المعارف فإن معرفة الحضرة الالهية لروضة فيها عين جارية و أشجار مثمرة قطوفها دانية والجاهل بين مبدأ أمره ومنتهى عمره في شقاوة عريضة و طول أمل طويل و معيشة ضنكة و ضيق صدر و ظلمة قلب إلى قيام ساعته و كشف غطاءه و في الآخرة عذاب شديد . و قال بعضهم : المراد أن ما أنعم الله تعالى به على العالم من العلم والفهم والصدق على الله واسطة المرء يوصله إلى الحكمة فإنّ المرء إذا عرف العالم أتبعه و أخذ منه فيحصل له الحكمة و معرفة الحقّ والاقرار به والعمل على وفقه ، و كذا إذا عرف حال الجاهل وأنّه غير عالم فهم صادق على الله يترك متابعه والأخذ منه و يسعى في طلب العالم فيطلع عليه فيأخذ منه فالجاهل باعتبار سوء حاله باعث بعيد للوصول المرء إلى الحكمة فهو شقي محروم يوصل معرفة حالة المرء إلى سعادة الحكمة (والله وليّ من عرفه) يعني محبته وناصره والمنكفل لأمره في الدنيا بهدأته إلى الطاعات والخيرات وتثبيت ذهنه على الفضائل والملكات و في الآخرة بتشریفه بمنازل القرب في أعلى درجات (١) في الاختصاص ص ٢٢١ هكذا « من أعجب بنفسه هلك ومن أعجب برأيه هلك » .

الجنان والاقبال عليه بالاكرام والافضال والاحسان (و عدوٌ من تكلفه) أي تكلف العرفان وتصنع به وهو غير عارف وهو أحقُّ بالعداوة من الجاهل الخامل، و من ثم قيل : النفاق أسوأ من الكفر والمراد بعداوته له لإبعاده عن الرحمة وترك الافضال عليه و كوله إلى نفسه حتى تورده مورد الهلاك والخذلان (والعاقل غفور) أي مصلح لأمره من قولهم غفروا هذا الأمر أي أصلحوه بما ينبغي أن يصلح أو سائر الذنوب إخوانه و عيوبهم و متجاوز من خطاياهم و إساءاتهم من الغفر بمعنى التغطية ، و ذلك لعلمه بما في الغفران من الأجر الجميل والثواب الجزيل ، و لأنه قريب من الله تعالى و متخلق بأخلاقه و من أخلاقه الكريمة غفران الذنوب و ستر العيوب والتجاوز عن السيئات وإن صدر عنه المؤاخظة والكشف في بعض الأحيان لمصلحة لا يسلب عنه هذا الاسم كما في الواجب (والجاهل خنور) أي خبيث النفس كثير الغدر والخدعة بالناس لأنه فاقد للبصائر الذهنية و عارم للمضائل العقلية وحامل للمرذائل الشيطانية فيظن أن الغدو والحيل والمكر والختل و كشف العيوب والذنوب وسوء المعاملة مع الناس خيرٌ له في تحصيل منفعته و مطالبته و تيسير مقاصده ومآربه و إنما أتى بصيغة المبالغة للاشعار بأن الفعل مع وجود دواعيه و عدم موانعه يصدر على وجه الكمال (و إن شئت أن تكرم فلن) تكرم على البناء للمفعول أي إن شئت أن تكون كريماً و شريفاً حسناً خياراً عند الخالق و الخلائق فلن للناس فسي الكلام والسلام و اخفض لهم جناحك عند اللقاء فان من لان جانبه كثر أعوانه و أنصاره ، ومن كثر أنصاره كان مكرماً شريفاً (و إن شئت أن تهان فاحشن) تهان على البناء للمفعول من الاهانة وهي الاستخفاف والاستحقار ، و احشن بضم الشين من الخشونة وهي ضدُّ اللين وقد خشن الرجل بالضم فهو خشن يعني إن شئت استخفافك و استحقارك و انحطاط منزلتك فصر ذا خشونة عند ملاقات الناس و محاوراتهم و مقاولاتهم فإنَّ الخشونة جالبة لهذه الأمور (و من كرم أصله لان قلبه ومن خشن عنصره غلظ كبده) بين ^١السبب الأصلي لحسن الخلق و لين القلب و رحمته و لطافته و السبب الأصلي لسوء الخلق و غلظة القلب و قساوته بأن من كرم أصله

و لطف عنصره الذي ينحل إليه البدن و شرفت طبيئته التي منها خلق شرف قلبه يعني نفسه الناطقة لأن الشريف إنما يتعلّق بالشريف ، و من شرف قلبه شرفت صفاته من اللينة والرافة وحسن الخلق وغيرها لأن فعل الشريف و صفاته لا يكون إلا شريفاً ، و من خشن عنصره و كثفت طبيئته غلظ كبده و خس قلبه لأن الخسيس إنما يتعلّق بالخسيس و من خس قلبه قبحت صفاته من الخشونة والغلظة و سوء الخلق وغيرها ، وأورد لفظ الكبد يدل القلب التنبيه على عدم استحقاقه (١) لهذا الاسم و بالجملة الأخلاق والصفات مترتبة على اجتماع النفوس والأبدان فأشرف الأخلاق يتعلّق بأشرف النفوس و أشرف النفوس يتعلّق بأشرف الأبدان و أظفها وأخس الأخلاق يتعلّق بأخس النفوس و أخس النفوس يتعلّق بأخس الأبدان و أكثفها ، فالنفاوت إنما نشأ من كرم الأصل وخسسته ، كل ذلك ظاهر إلا التفاوت في الأصل فإنه دقيق جداً ، و معرفة ذلك ينوقف على التأمل الدقيق في الروايات المذكورة في كتاب الكفر والإيمان.

وقيل المراد بكرم الأصل كون النفس فاضلة شريفة ذات ارتباط شديد وتأيد بالنور من كان كذلك لأن قلبه الذي هو مبدء الآثار العقلانية لأن النفس أو لا يتعلّق بالروح (٢)

(١) يعني ليس المراد بالكبد هذا العضو الجسماني الواقع في الجانب الأيمن من البطن لطبخ الغذاء و تبديل الكيلوس إلى الكيوس بل المراد منه النفس وكذا القلب وإنما يعبر عن النفس تارة بالكبد وتارة بالقلب والكبد عند الأطباء مبدء القوة الطبيعية أي النفس النباتية والقلب محل القوة النفسانية أي الحيوانية ، والقلب أقرب إلى النفس الناطقة من الكبد ، وأشار دع بهذه العبارة إلى أن من خشن عنصره فالمناسب أن يعبر عن نفسه بالكبد لبعده عما خلق له و ميلانه إلى الطبيعة (ش).

(٢) المراد بالروح هنا الروح الطبيعي الحيواني في اصطلاح الأطباء و هي عندهم بخار له مزاج سار في المروق و مسام البدن و بطون الدماغ وهو أكثر في الشرايين من الأوردة ، النفس يتعلّق أولاً به وبتوسطه بالبدن و ليس المراد بالروح هنا النفس الناطقة (ش).

الحاصلة فيه فلأن عناصره باستعداد من الروح الذي يجيب، إليها من القلب هو من خشن عنصره غلط كبده أي و من لم يكن كريم الأصل و هو من خشن عنصره و خبث طينته غلط منه ما هو المناط في قوام البدن و قوته و هو المكبد فيستولي القوى البدنية فيه على القوى العقلانية (و من فرط تورط) يقال : فرط في الأمر فرطاً أي قصر فيه و ضيعه حتى فات و كذلك التفريط و فرط أيضاً فهو فارط إذا سبق و تقدّم و جاوز الحد، و تورط في الورطة أي وقع في الهلكة، ولعل المراد من فرط في الحق و قصر فيه وقع في الهلكة لأن أصل التقصير في الحق ورطة و هلكة أولاً لأنه مستلزم لوقوعه في ضد الحق أعني الباطل أو المراد من سبق إلى دواعي النفوس و جاوز الحد في متابعة القوى النفسانية فقد وقع في الهلكة .

(و من خاف العاقبة تثبت عن التوغل فيما لا يعلم) تثبت ماض من التثبت أو مضارع من الثبات، والوغل الدخول و أوغل في السير و توغل إذا أسرع فيه و أمعن، يعني من خاف سوء العاقبة ولو منها تثبت عن الدخول فيما لا يعلمه و عن الإسراع في التكلم فيه والاعتقاد به، و من علامة العاقل السكوت في الشبهات فإن مفسد النطق بها كثيرة جداً و في الحديث ممن تورط في الأمور غير ناظر للعواقب فقد تعرض لمفوضات النوائب (و من هجم على أمر بغير علم فقد جددع أثق نفسه) الجددع بالجيم والدال المهملة قطع الأنف و قطع اليد و قطع الشفة تقول منه جدعته فهو أجددع، وجدع أنف النفس المجردة إما كناية عن إزالة سعادتها الأبدية بالجهل أو كناية عن تحويرها و إذلالها يعني من دخل في أمر بغير علم بذلك فقد استحق نفسه و استصغرها و وسماها بسمة الحقارة و الرذالة و الهلاك عند الخالق والخلق جميعاً، و مثله مثل الفرائس تنساقط من جهلها في نار المصباح ينوهم أنها كوة يستضيء منها النور فيقصدن الخروج منها فيحترقن ، ثم بين عليه السلام فضل العلم و شرفه بقياس مفصول النتائج بقوله (ومن لم يعلم لم يفهم، ومن لم يفهم لم يسلم) أي من لم يعلم الحسن والقبيح لم يفهمهما و لم يميز بينهما ومن لم يميز بينهما لم يسلم من ارتكاب القبيح والتعرض له (و من لم يسلم لم يكرم)

معلوم من كرم أي من لم يسلم عن القبيح لم يكن شريفاً نجيباً فاضلاً، أو مجهولاً من أكرم أي لم يكن معزّزاً مكرماً معدوداً من كرام الناس بل مخذولاً مهاناً (و من لم يكرم يهضم) في أكثر النسخ يهضم من الثلاثي المجرد و في بعضها تهضم من باب التفعّل وفي القاموس هضم فلاناً ظلمه و غصبه كاهتضمه و تهضمه، و في الصحاح هضمت الشيء كسرت يقال هضمه حقه و اهتضمه و تهضمه إذا ظلمه و كسر عليه حقه و رجل هضم و تهضم أي مظلوم، ثم الفعل الأول إن كان مبنياً للفاعل كان الثاني أيضاً كذلك على الظاهر في النسختين جميعاً لأن الموصول هو الذي يكسر نفسه ويدّله و يظلمها بسبب عدم اكتساب كرامتها و شرافتها و إن كان مبنياً للمفعول كان الثاني أيضاً كذلك لأن المكسر عزّه والمذلّ له حيثئذ غيره (و من يهضم كان ألوم) أي أكثر استحقاقاً و لو مأ ممّا تقدّم (و من كان ذلك) أي ألوم (كان أخرى أن يندم) على ما ساقه إلى الملوّمة من التوغّل فيما لا يعلم أو من الهجوم على أمر بغير علم أو من جميع ما تقدّم. و اعلم أن هذه المقدمات إذا اعتبرت انتاجها تنتج «فمن لم يعلم كان أخرى أن يندم» أمّا المقدمة الأولى فلأن الفهم و هو ملكة الانتقال كما عرفت مراراً مستلزم للعلم و متوقف عليه و انتفاء اللازم مستلزم لانتفاء الملزوم، و أمّا الثانية فلأن السلامة عن الرذائل النفسانية متوقّفة على الفهم والتمييز بينها و بين فضائلها فيستفي بانتفاءه، و أمّا الثالثة فلأن كرامة النفس و شرافتها و علوّ منزلتها فرع لسلامتها عن الرذائل والمقايح و انتفاء الأصل مستلزم لانتفاء الفرع، و أمّا الرابعة فلأن عدم إكرام أحد و تعظيمه سبب لهضمه و كسره و احتقاره و إذلاله، و أمّا الخامسة فلأن هضم أحد و إذلاله مستلزم لرداءته و لومه و عذله، و ألوم بمعنى اسم المفعول و سبب الزيادة ظاهر إذ الإذلال لا يساوقه شيء من الأضرار، و أمّا السادسة فلأن ألوم أحد بجهالته وعذله برداءته على وجه المبالغة من أقوى الأسباب لندامته على سوء أحواله وقبح أوضاعه و أفعاله.

((الاصل))

٣٠- محمد بن يحيى رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من استحكمت لي فيه خصلة من خصال الخير احتملته عليها و اغتفرت فقد ما سواها ولا أغتفر فقد عقل ولادين ، لأن مفارقة الدين مفارقة الأمن فلا يتهمناً بحياة مع مخافة ، ووفقد العقل فقد الحياة ولا يقاس إلا بالأموال .

((الشرح))

(محمد بن يحيى رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من استحكمت لي فيه خصلة من خصال الخير) أى صارت محكمة يعنى ملكة راسخة ، والمراد من خصال الخير فضائل النفس و أخلاقها مثل العفة والسخاوة والحلم و غيرها مما عرفته آنفاً و ستعرفه فيما بعد ومما هو مذكور في كتاب الأخلاق و قوله « لي » على تضمين معنى الثبوت أو الظهور أى ثابتاً لي ذلك ، أو ظاهراً عندي ، أو على معناه لأجلني يعنى لأجل إعانتي في إنجائه من العقوبات وهذا نظير ما قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : « اضمن لي الجنة فقال : أعني بكثرة السجود » (١) (احتملته عليها و اغتفرت فقد ما سواها) أي أمنت على تلك الخصلة و رضيت باحتماله و قبلتها منه و رفعت بها قدره في الآخرة و تجاوزت عن فقد ما سواها و سترته ولم آخذه به (ولا اغتفر فقد عقل ولادين) ليس المراد بالعقل هنا العقل الهولاني الذي به يفارق الانسان ساير الحيوانات لأنه موجود في الجميع ولو فقد في البعض ففقدته ليس باختياره بل المراد به العقل الذي له ملكة إدراك المعارف الإلهية وهو الذي يسمونه عقلاً بالفعل ، والمراد بالدين معرفة الشرايع الصادرة بواسطة الرسول و إطاعته في الأمر والنهي و غيرهما ، يعنى لا أغتفر فقد عقل فقط ولا أتجاوز عن التقصير فيه وإن كان له دين ولا فقد دين فقط وإن كان له عقل سواء كان الفاقد لهما موصوفاً بجميع خصال الخير أولاً (لأن مفارقة الأمن) لأن الأمن من العذاب و الوقوع في الباطل إنما يحصل باتساع الرسول و إطاعته لأن قوله قول الله وأمره أمر الله وقد بعثهم على الناس ليجذبهم عما يميلون إليه من اتباع الشهوات الباطلة و اقتناء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٥٢ باب فضل السجود والحث عليه.

اللذات الزائلة بتذكيرهم لما أعطاهم الله من نعمه الجسيمة ومنه العظيمة وترغيبهم فيما أعدّه لأوليائه وتحريضهم على ما قرّره لأصفيائه وإشارتهم إلى الدرجات الرفيعة وإرشادهم إلى المقامات العلية بالمقدّمات اللامعة والبراهين الساطعة ، فمن تبعه أمن من الكفر والعذاب وخلص من البطالة والعقاب ، ومن فارق ولم يتمسك بدينه ولم يعمل بقوانينه واتّبع رأيه الفاسد المستند إلى النفس الأمّارة أوجاهلاً يتكلم في الدين بغير بصيرة ولا يقين فقد فارق الأمن وتصدّى للبطالة والغواية وأورد نفسه مورد الضلالة والمخافة لعدم علمه باصابة رأيه ورأي ذلك الجاهل المتبوع فلا يأمن من الكفر والخروج من الدين في هذه النشأة ولا من العقاب في النشأة الآخرة (فلا يتنبأ بحياة مع مخافة) في المصادر المنتهية كوارنده شدن ، وفي الصحاح والنهاية هنا في الطعام يهتني ويهتاني و هئت الطعام أي تهتأت به فالفعل على الأول مبني للمفاعل و حياة فاعله والباء زائدة وكذا على الثاني و فاعله ضمير لفائد الدين والباء للمعدية و لعل المراد بالحياة الحيوة الدنيوية وتكدرها بالمخافة الناشئة من مفارقة الدين و من العقل والعلم في الجملة ظاهر و كيف يكون فاقد الدين و هو عالم آمناً سعيداً و متى يكون عيشه و حيوته طيباً رغيداً مع علمه بأن له في كل قدم خطراً عظيماً و في الآخرة عذاباً أليماً وأمّا الجاهل الفاقد له فإنه و إن كان أيضاً هالكاً ضالاً لكن لجهله لا يشعر بالخوف النابع للعلم ومثلهما مثل رجلين مسافرين في مفازة مخوفة عميقة إلى شقّة بعيدة و تركا طريق الأمن الموصل إليهما وسلكا طريقاً آخر فيه أُنحار من الفساد والضرر و أنواع من الخوف والخطر ، و يعلم أحدهما أحوال هذا الطريق دون الآخر فإنّ العالم بها حيوته مكدّرة و عيشه منقّصة و ربّما يضطرّ به مخافة الهلاك إلى ترك الشراب والطعام و اعتزاله عن فراش الاستراحة والنام ، وأمّا الجاهل بها فإنّه فارغ عن هذا الخوف والاضطراب و إن كان مشاركاً له في الهلاك عند نزول العذاب ، أو المراد بالحياة المعنوية القلبية وهي العلم الإجمالي بالله تعالى و بكتابه وبرسوله و حقيقة شرايعه و دينه إلّا أنّه رجع في تفصيله إلى رأيه أو

إلى جاهل منصتغ بالعلم التفصيلي ولم يسمعه من الرسول أو ممن يقوم مقامه كما هو شأن مخالفينا ولأريب في أن حيوته هذه مكدرة ناقصة لاتنفعه مع مخافة أن يخرج في أصول القواعد الشرعية أو فروعها عن منهج الدين أو مع مخافة أن تزول عنه هذه الحيوية بتسويات الشياطين.

(وفقد العقل فقد الحيوية) لأن الحيوية التي يجب صرف العمر في حفظها وتكميلها ووردت الشرايع والكتب الإلهية بالأمر بتحصيلها هي استكمال النفس بالحقايق والمعارف والعلوم النافعة في الآخرة فمن تحلّى نفسه بها وصار عقله عاقلاً بالفعل فهو حي حقيق في الدنيا والآخرة ومن تخلّى نفسه عن هذه المعارف والكمالات وغطى عقله بأغطية الرذائل والجهالات فهو معدود بلسان الشرع من الجمادات (ولا يقاس) أي لا يقدر ولا يشبه (إلا بالموات) لعدم اطلاعه على وجوه مفاسده ومصالحه وعدم اهتدائه إلى رفع مضاره وجلب منافعه كالأموال بل هو أدنى حالاً وأقبح مآلاً لا ضطجاءه بين الشبهات.

مركز تحفة كبرى بر طبعه

((الاصل))

٣١- هـ علي بن إبراهيم بن هاشم ، عن موسى بن إبراهيم المحاربي ، عن الحسن بن موسى ، عن موسى بن عبدالله ، عن ميمون بن علي ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله ،

((الشرح))

(علي بن إبراهيم بن هاشم ، عن موسى بن إبراهيم المحاربي) لم أعرف حاله (عن الحسن بن موسى) شريف معظم من وجوه أصحابنا كثير العلم والحديث (عن موسى بن عبدالله ، عن ميمون بن علي) لم أعرف حاله أيضاً (عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إعجاب المرء بنفسه) أي استعظامه إياها لاتصافها بفضيلة دنيوية مثل المال والجاه وكثرة الأولاد والأنصار أو بفضيلة أخروية مثل

العلم والعمل وسائر الكمالات واستكثاره لتلك الفضيلة والابتهاج بها والرضا بها والرضا بها حتى يظن أنه قد فاق العابدين وجاوز عن حد التقصير ويستبعد انحطاط رتبته عند الله تعالى وله مثل هذا العمل والفضيلة عن رتبة العابدين ويعتقد أنه لا يعد به أبداً لأجله (دليل على ضعف عقله) وقلة علمه وقصور معرفته بالصانع وصفاته النامة الكاملة إذا كان له عقل كامل وعلم تام ومعرفة بما له جل شأنه من القوة والقدرة والغلبة والعظمة والجلال علم أن كل شيء سواء مقهور تحت قدرته مغلوب عند عزته ذليل في ساحة عظمته ، أن لا مانع لسلطانه ولا نهاية لعرفانه ولا دافع لامضاء أمره وجرىان برهانه وإن السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما ما يرى ما لا يرى من الرُّوحانيين والملائكة المقربين والأنبياء المرسلين خاشعون خاضعون منذلون لحكمه معترفون بالعجز والتقصير ، فإذا عرف هذه الأمور وتفكر فيها تفكراً صحيحاً خالياً عن الشبهات وتأمل فيهما تأملاً سليماً عن الآفات وجد نفسه وإن كان لها جميع الكمالات مدعنة بالعجز والانكسار معترفة بالذلل والافتقار ، مربوطة برتبة العبودية والخذلان موصوفة بصفة المسكنة والنقصان ، بعيدة عن الإعجاب ، قريبة من الخوف والاضطراب . وسيجي تحقيق العجب ولوازمه ومفاسده وعلاجه في باب إن شاء الله تعالى.

((الاصل))

٣٢. « أبو عبد الله العاصمي ، عن علي بن الحسن ، عن علي بن أسباط ، عن الحسن بن الجهم ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : ذكر عنده أصحابنا « و ذكر العقل قال : فقال عليه السلام : لا يعبؤ بأهل الدين ممن لا عقل له قلت : جعلت » « فذاك إن ممن يصف هذا الأمر قوماً لا بأس بهم عندنا و ليست لهم تلك العقول » « فقال : ليس هؤلاء ممن خاطب الله إن الله خلق العقل فقال له : أقبل فأقبل ، » « و قال له أدبر فأدبر ، فقال : و عزتي و جلالتي ما خلقت شيئاً أحسن منك أو » « أحب إليّ منك ، بك آخذ و بك أعطي . »

((الشرح))

(أبو عبدالله العاصمي) هو أحمد بن محمد بن عاصم ثقة (عن علي بن الحسن)
يعني ابن فضال (عن علي بن أسباط) فطحي ثقة رجع إلى الحق عند النجاشي
ولم يرجع عند الكشي ، وقال العلامة أنا أعتمد على روايته (عن الحسن بن
الجهم عن أبي الحسن الرضا عليه السلام) قال : يعني الحسن بن الجهم (ذكر عنده أصحابنا
و ذكر العقل) ذكره في الموضوعين على البناء للمفعول و أصحابنا والعقل في موقع
الفاعل يعني ذكره عند أبي الحسن الرضا عليه السلام أصحابنا الإمامية و أحوالاتهم و
ذكر عنده العقل و تفاوت مراتبه (قال : فقال : لا يعبؤ بأهل الدين بمن لا عقل له)
بدل لقوله بأهل الدين و في بعض النسخ ممن لا عقل له ، ولا يعبؤ على البناء للمفعول
والظرف قائم مقام الفاعل والمعب ، يفتح العين و سكون الباء المبالاة يقال : ما عبأت
بفلان عبأ أي ما باليت به ، والمراد بالعقل العقل بالفعل والعقل المستفاد أو ملكة
الانتقال إلى العلوم والادراكات الحقيقة أو نفس تلك العلوم و سميت تلك العلوم
بالعقل لأن العقل مأخوذ من عقل دابة والعلوم تمنع صاحبها من الهلاك كالعقال
للدابة يعني لا يبالي بأهل الدين بحسب الظاهر ممن لا عقل له ، ولا يلتفت إليه ،
ولا يعد شريفاً مكرماً ، ولا يثاب ثواباً جزيلاً ، ولا يعطى أجراً جميلاً ، وإنما قلنا
بحسب الظاهر لأن أهل الدين بحسب الحقيقة من كان له مناط التمييز بين الحق
والباطل و استضاء ذهنه بأنوار المعارف الإلهية و استنار قلبه بشموس الحقائق
الربانية فصار بحيث لا يحجب ظلمة الهيئات البدنية والمعارضات الوهمية و
الخيالية عن ملاحظة أسرار عالم الغيب و أنوار عالم الشهادة ، و أمّا الذي ليس
له تلك الفضائل و إن كان من أهل الدين فهو مستغرق بعد في بحر الرذائل
يغشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض أعنى موج الشهوات الداعية
إلى الصفات البهيمية وموج الغفلات الداعية إلى الصفات السبعية كالغضب والعداوة
شرح اصول الكافي - ٢٧ -

والحقد والحسد والمباهات والمفاخرة و أمثالها و سحاب العقائد الفاسدة التي صارت حجاباً لنور البصائر عن إدراك نور الحق و من كانت هذه صفاته كثرت على جوارحه و قلبه زلّاته فلا اعتناء بعقائده و عاداته ولا مبالاة في أعماله من صومه و صلاته و سائر عباداته.

(قلت جعلت فداك إن ممّن يصف هذا الأمر) أي أمر الإمامة و يقول بها و ينسب نفسه إليها و في قوله « يصف » دون أن يقول يتّصف إيماء إلى أن ذلك بمجرد القول الخالي عن العقد اليقيني والإذعان القلبي الحاصل بالبرهان القطعي (قوماً لا بأس بهم عندنا) معاشر الإماميّة في أفعالهم و أعمالهم الظاهرة الموافقة لمذهبنا و ليست لهم تلك العقول التي هي مشكوة الهداية في ظلمات الطبائع البشرية و مصباح الدّراية في شبهات الأوهام الطبيعية (فقال ليس هؤلاء ممّن خاطب الله تبارك و تعالى) بالارتفاع إلى المعارج العلية (١) والاهتداء إلى المعارف الربوبية والقيام بالسياسة المدنية والرّياسة العقلية والشرعية وإنّما هم جماعة يجري عليهم أحكام صاحب السياسة و مالك زمام الرّياسة بأنحاء التعذيب وأنواع التأديب ليتمّ صلاحهم و صلاح بني نوعهم و يحصل لهم بذلك حيوة الدّنيا ونجاة.

(١) والعجب ان البلهاء من المتدبّنين يعدّون طريقهم و مذهبهم أسلم و آمن من طريقة العقلاء يقولون ان الفكر مثار الشبهة والعقول ليست مما يعتمد عليها و من انكل على عقله مثل الطريق و يحملون قولهم عليهم السلام « ان دين الله لا يصاب بالعقول » على هذا وهو غير معناه والمعلوم أن في كل زمان حتى في عصر الاثمة عليهم السلام كان جماعة من هؤلاء ونحن نقول فائدة العقل أن يميز بين الدليل الصحيح والفاسد والحديث الصحيح والسقيم بالقرائن و يعرف الممنى المراد من الكتاب الكريم و غير المراد منه كيما الله ووجه الله وآيات الجبر والتفويض و ما يجب أن يختاره عند تراحم الامارات و تعارض الادلة كالنقبة في مورد وجوبها عن مورد حرمتها و غير ذلك مما لا يحصى وذاً كثر أهل الجنة البلهاء مثال لذلك فيجعل الجاهل على فضل الجاهل و يجعله العاقل على معناه المراد أعني فاقد النكراء والشبظنة . (ش)

الآخرة و بما ذكرنا لا يرد أن قول السائل لا بأس بهم عندنا دل على أن لهم العقل الذي هو مناط التكليف والخطاب بالأحكام و قوله عَلَيْهِ السَّلَام « ليس هؤلاء ممن خاطب الله » دل على أن ليس لهم هذا العقل فبين السؤال والجواب منافاة في الجملة و وجه عدم الورد أن للعقل مراتب متفاوتة و أدنى مراتبه و ما هو مناط التكليف بظواهر الأعمال والأفعال الشرعية التي يحصل به صلاح الخلق في الدنيا و نجاتهم في الآخرة . و أعلاها ما هو مناط الفوز بأعلى المقامات الممكنة للقوة البشرية والمتصف به هو خاص الخاص والمتوسطات متوسطات ، والثابت لهم هو أدنى المراتب ، والمنفى عنهم ما سواها و يرشد إليه أيضاً قول السائل : « و ليست لهم تلك العقول » فإن « تلك » للإشارة إلى البعيد و فيها دلالة على أن العقل المسلوب عنهم هو الواقع في الدرجات العالية ، والغرض من هذا السؤال هو استعلام حالهم أي عبث بهم أم لا فأشار عَلَيْهِ السَّلَام بقوله « ليس هؤلاء ممن خاطب الله » إلى أنه لا يعبو بهم إلا أنه أقام السبب موقع السبب (إن الله خلق العقل) و هو نور محض وضو ، صرف ما شابه أرحاس الأوهام و أخبات الظلام ، و هذا تعليل للسابق و بيان له و لذا ترك العاطف (فقال له أقبل فأقبل ، و قال له : أدبر فأدبر ، فقال و عزتني ما خلقت شيئاً أحسن منك ، أو أحب إلي منك) الترديد من الرأوي لعدم ضبط اللفظ المسموع بخصوصه (بك آخذ) أي بسبك أعاقب بالبعد عن مقام القرب والاحسان و بالحبس في سجون الطبايع والنسيان ، و هذه المرتبة سمّاها مرتبة المسخ بعض أهل العرفان ، أو بسبك أقبل الأعمال الموجبة للقرب (و بك أعطي) أجراً جميلاً و ثواباً جزيلاً و مقاماً محموداً فيه أنواع من الافضال والاكرام و و أنحاء من الاحسان والانعام ، و لدينا مزيد ، و في حذف مقعول الفعلين دلالة على التعميم ولا يبعد تنزيلهما منزلة الالزام وجعلهما كنايةتين عنهما حال كونهما متعلّقين بمفعول معلوم بقرينة المقام وقد مر شرح هذا الكلام مستوفى (١) مراراً

(١) سبق مفاد هذا الحديث مرتين و مضى شرحه مراراً و ذكرنا شيئاً يتعلق بأولية

خلق العقل في التعليقات والهاصل ان وجود جزئيات الاجسام يدل على وجود عالمهم

و ملخص القول فيه أن الأخذ والاعطاء بسبب العقل فان زاد زاداً وإن نقص نقصاً حتى يبلغ إلى عقول أقوام لا يبالي بهم ولا يشدد عليهم وهم قريب المنزلة بالبهائم والله أعلم

((الاصل))

٣٣- «علي بن محمد ، عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن أبيه ، عن بعض أصحابنا»
«عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ليس بين الإيمان والكفر إلا قلة العقل قيل : وكيف»
«ذاك يا ابن رسول الله؟ قال : إن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق فلو أخلص نيته»
«لله لآتاه الذي يريد في أسرع من ذلك» .

((الشرح))

(علي بن محمد عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام)
قال: ليس بين الإيمان والكفر لعل المراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل (١) وهو الذي
يوجب القرب التام إليه سبحانه و جلب رحمته على وجه الكمال ، و بالكفر
الكفر المحض وهو الذي يوجب غاية البعد عنه تعالى وسلب استحقاق رحمته بالكيفية

* جسماني أصله ومبدؤه المادة وتتشكل المادة نارة في صورة وتارة في صورة أخرى كذلك العقول
الجزئية في أفراد الإنسان تدل على وجود عالم عقلي مجرد عن المادة وشأنه العلم والادراك
ومبدؤه موجود مجرد و هو للعالم الروحاني بمنزلة المادة للعالم الجسماني وهو العقل
الكلي الذي له اشراق على العقول الجزئية فالعقل مبدء ما لا يرى ، والمادة مبدء ما يرى
والفرق بينهما أن ما يتولد من المادة أفضل و أكمل من نفس المادة و ما يتولد من
العقل انقص منه والعقل الكلي المجرد اول ما خلق الله والعقول الجزئية اشراقات منه
و بهذا الاعتبار هو مناط التكليف. (ش)

(١) انما احتاج الى هذا التأويل لانه لا واسطة بين الإيمان والكفر عند المسلمين
الا عند طائفة شاذة من المعتزلة قد افترضت من ثبوت المنزلة بين المنزلتين . (ش)

(إِلَّا قَلَّةُ الْعَقْلِ) يَعْنِي قَلِيلُ الْعَقْلِ مَنْوَسِّطٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ لَيْسَ مُؤْمِنًا حَقِيقِيًّا كَامِلًا لَمَّا فِيهِ مِنْ قُصُورِ الْعَقْلِ الْمَوْجِبِ لِبُعْدِهِ عَنْ تَعَالَى فِي الْجُمْلَةِ وَلَا كَافِرًا حَقِيقِيًّا مَحْضًا لَمَّا فِيهِ شَيْءٌ مِنْ نُورِ الْعَقْلِ الْمَوْجِبِ لِقُرْبِهِ تَعَالَى فِي الْجُمْلَةِ.

(قِيلَ كَيْفَ ذَاكَ) أَيْ تَوْسِطُ قَلَّةِ الْعَقْلِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ (يَا ابْنَ رَسُولِ

اللَّهِ) لَعَلَّ مَنْشَأَ السُّؤَالِ اسْتِبْعَادُ الْوَاسِطَةِ نَظْرًا إِلَى ظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» وَ ذَلِكَ لِاسْتِبْعَادِ مَدْفُوعِ إِذْ لَا نَسْلَمُ أَنْ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلَالَةٌ عَلَى الْحَصْرِ لِحَوَازِ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا لَوَاسِطَةٍ مَسْكُوتًا عَنْهُ وَلَوْ سَلَّمْ، فَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ فِي آيَةِ أَصْلِهِمَا وَلَا وَاسِطَةٍ بَيْنَهُمَا لَا كَمَالَهُمَا وَ ثَبُوتَ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ كَمَالِهِمَا ظَاهِرٌ (قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ) أَرَادَ بِهِ الْعَبْدَ الْعَارِفَ بِاللَّهِ فِي

الْجُمْلَةِ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ «فَلَوْ أَخْلَصَ نَيْتَهُ اللَّهُ» (يَرْفَعُ رَغْبَتَهُ) أَيْ حَاجَتَهُ وَ مُرَادَهُ وَ مَا يَرْغَبُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا (إِلَى مَخْلُوقٍ) لِنَظْنِهِ بِقُصُورِ عَقْلِهِ أَنْ الْمَخْلُوقُ يَرْفَعُ حَاجَتَهُ وَ يَحْصُلُ بَغْيَتُهُ فَيَنْتَظِلُّ لَهُ وَ يَنْخَشِعُ (فَلَوْ أَخْلَصَ نَيْتَهُ اللَّهُ) وَ رَفَعَ رَغْبَتَهُ وَ حَاجَتَهُ بِالتَّصَدُّ الْخَالِصِ عَنْ شَوَائِبِ الْأَوْهَامِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ (لَأَتَاهُ الَّذِي يَرِيدُ) أَنَّهُ مِنْ أَتَى بِأَتَى بِمَعْنَى جَاءَهُ، أَوْ مِنْ أَتَى يُؤْتَى

بِمَعْنَى أَعْطَاهُ وَ الْمَوْصُولُ عَلَى الْأَوَّلِ فَاعِلُهُ وَ عَلَى الثَّانِي مَفْعُولُهُ (فِي أَسْرَعِ مِنْ ذَلِكَ) أَيْ مِنْ إِتْيَانِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقِ أَوْ مِنْ وَقْتِ الرَّفْعِ إِلَى الْمَخْلُوقِ، أَوْ مِنْ الْوَقْتِ الَّذِي يَتَوَقَّعُ حَصُولَ مَطْلُوبِهِ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ وَ ذَلِكَ لِشُمُولِ قُدْرَتِهِ

تَعَالَى عَلَى جَمِيعِ الْمَقْدُورَاتِ وَ إِحَاطَتِهِ بِجَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ فَيَتَحَقَّقُ مَا أَرَادَ بِمَحْضِ الْإِرَادَةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى اسْتِعْمَالِ آلَةٍ وَ انْتِظَارِ رُويَةٍ فَهَذَا الْعَبْدُ لَيْسَ بِهِ مُؤْمِنًا حَقِيقِيًّا

لِقُصُورِ نَيْتِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَلَا كَافِرًا مَحْضًا لِعِلْمِهِ بِالصَّانِعِ فَقَدْ أَفْهَمَ ﷺ ثَبُوتَ الْوَاسِطَةِ بِمِثَالِ جَزْئِيٍّ وَ أَزَالِ وَ هُمُ السَّائِلُ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَعْلَمِ الشَّفِيقِ، وَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ثَبُوتِ الْوَاسِطَةِ مَا رَوَى عَنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ ﷺ قَالَ: «إِنْ عَلِيًّا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْهُدَى فَمَنْ دَخَلَ مِنْ بَابِ عَلِيٍّ كَانَ مُؤْمِنًا وَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُ كَانَ كَافِرًا وَ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ كَانَ فِي طَبَقَةِ الَّذِينَ فِيهِمُ الْمَشْيِةُ» (١) وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى

الحديث أن السبب للخروج من الايمان الفطري إلى الكفر ليس إلا قلة العقل و ما ذكرناه أولاً أوفق و أنسب .

((الاصل))

٣٤- « عدة من أصحابنا ، عن سهل بن زياد ، عن عبيدالله الدهقان ، عن ،
« أحمد بن عمر الحلبي » ، عن يحيى بن عمران ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان ،
« أمير المؤمنين عليه السلام يقول : بالعقل استخرج غور الحكمة وبالحكمة استخرج ،
« غور العقل ، و بحسن السياسة يكون الأدب الصالح قال : و كان يقول : التفكير ،
« حياة قلب البصير ، كما يمشي الماشي في الظلمات بالنور بحسن التخلص و ،
« قلة الترتيب »



((الشرح))

(عدة من أصحابنا ، عن سهل بن زياد ، عن عبيدالله الدهقان ، عن أحمد بن
عمر الحلبي) ثقة (عن يحيى بن عمران) ثقة (عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان
أمير المؤمنين عليه السلام يقول : بالعقل استخرج غور الحكمة وبالحكمة استخرج غور
العقل) غور كل شيء عمقه و بعده و غاية خفاه و هذا الكلام يمكن أن يكون
إشارة إلى تفاوت مراتب العقل والعلم في باب معرفة الصانع و ازدياد كل واحد
منها بسبب الآخر إذ للعقل في السير من العالم السفلي إلى العالم الذي هو عالم
القدس و عالم التوحيد منازل غير محصورة و له في كل منزل نور معين و كمال
معلوم و بصيرة مخصوصة يستعد بها لقبول علم فوق ما يكون له في هذا المنزل
و استخراج منه من القوة إلى الفعل (١) فإذا استخرجه فقد انتقل من هذا المنزل

(١) في عبارة الشارح نكات يجب التنبيه عليها حتى ينظر إليها بعناية خاصة ولا

يمر عليها مروراً؛ الأول سير العقل من العالم الأدنى إلى العالم الأعلى يسمى في اصطلاح
المعرفاء بالسلوك والسائر فيه السالك وقد يقال له السفر و ينقسم إلى أربعة أسفار من

إلى منزل آخر فوقه ، وهذا العلم يوجب زيادة نوره و كماله و بصيرته على ما كان له في هذا المنزل السابق فيستخرجه هذا العلم من النقص إلى الكمال و هكذا يتدرج في الكمال و يتبدل أن في السبيبة إلى ما شاء الله فقد تبين أن بكل واحد منهما يستخرج غور الآخر و نهاية كماله ، ويمكن أن يكون إشارة إلى مراتب العقل والحكمة النظرية فإن العقل الهولاني يستخرج العلوم الأولية باستعمال الآلات أعني الحواس الظاهرة والباطنة و بهذه العلوم يستخرج العقل من الهولانية إلى الملكة و هكذا إلى العقل بالفعل الذي حصل له ملكة الاستحضار متى شاء من غير تجشّم كسب جديد بل إلى ما فوق ذلك مما تعلق به المشيئة الإلهية ، و بالجملة العقل بنور بصيرته يستخرج المعارف الإلهية و الحكمة الربانية و تلك الحكمة بعد حصولها توجب كمال العقل و زيادة بصيرته فكل منهما يوجب خروج الآخر من حدّ النقص إلى حدّ الكمال على وجه لا يكون دوراً ، و كما أن للعقل قوة نظرية بها يتأثر من المبدء الأعلى و يستفيض منه العلوم (١) و كما لها باكتساب تلك العلوم وقد أشار إليها بعبارة و جيزه فكذا

من الخلق إلى الحق و في الحق بالحق و من الحق إلى الخلق و في الخلق كل ذلك بالحق و على ذلك بني صدر المتألهين (قدم) كتابه المعروف بالاسفار الاربعة. الثانية أن الترقى في كمال العقل متوقف على الاستعداد كاتقال المادة من صورة إلى صورة و فعلية السابقة معدة للاهبة. الثالثة أن الحكمة هي معرفة الله و ما يتعلق بتلك المعرفة وهي تحصل للعقل بالسير والمجاهدة كمال قاله والذين جاهدوا فيما شهد بينهم سليمان فبتعلم الحكمة يترقى العقل و يترقى العقل يتعلم حكمة جديدة لم يكن مستعدة لها ولا ، أو يقال المراد الحكمة العملية أي اطاعة الله في كل ما خلق للإنسان لاجله و ليس المراد بالحكمة النظرية أو العملية تقليد جماعة معينة من الحكماء بل متابعة العقل والدليل ، وقد ألف الانصارى الهروي كتاباً مشتملاً في منازل السائرين. (ش)

(١) هذا مذهب الحكماء في كيفية افادة المقدمات للنتائج و مذهب الاشاعرة في مطلق الاسباب ان عبادة الله جرت بخلق المسبب عند وجود السبب و قالت المعتزلة بالتوليد من غير تأثير لله - تعالى الله عن ذلك - و مذهب الحكماء في هذه الاسباب انها مدمات يستعديه العقل والهولي للافاضة من المبدء الاعلى. (ش)

له قوة عملية بها يؤثر فيما تحته و كمالها باكتساب الأعمال الصالحة والأخلاق
 الفضيلة وقد أشار إليها بقوله (و بحسن السياسة) في البدن والمنزل و المدينة
 (يكون الادب الصالح) أي العمل المندرج تحت القواعد النبوية و الخلق
 الموافق للقوانين الشرعية و ذلك لأن العقل سلطان في عالم الكون فيجب عليه
 أن ينظر أولاً في أحوال البدن و مشاغل قواه و حواسه و جوارحه بالأمر والنهي
 و تهذيب الظاهر باستعمال الشرايع النبوية والنواميس الالهية (١) وتهذيب الباطن
 عن الشواغل الدنيئة والملكات الرديئة وتحليها بالملكات والأخلاق المرضية وإلى
 هذه المرتبة أشار جل شأنه بقوله « يا أيها المدثر قم فأنذر و ربك فكبير و
 ثيابك فطهر والرجز فاهجر » فإنه تعالى أمر رسوله ﷺ بهذه الخصال المرضية
 والاجتناب عن الرجز الشامل لجميع الملكات الرديئة و أن ينظر ثانياً في أحوال
 جماعة معه في النسب والمنزل من الخدم والعشمة و يأمرهم بمثل ذلك و بما فيه
 صلاحهم في الدارين من التآلف و التوافق و التعاون إلى غير ذلك مما يوجب
 تكميل نظامهم ، و إلى هذه المرتبة أشار جل و عز بقوله : « و أنذر عشيرتك
 الأقرين » و إليها و إلى الأولى أيضاً بقوله « قوا أنفسكم و أهليكم ناراً و قودها
 الناس و الحجارة » و أن ينظر ثالثاً إلى أحوال جماعة مشاركة في المدينة و
 مندرجة في سلك رعيته و يأمرهم بمثل مأمرو ، و إلى هذه المرتبة أشار عز
 سلطانه بقوله : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً و نذيراً » فإذا فعل ذلك وحملهم
 على تلك الأعمال و الأخلاق بأسواط حسن السياسة والتدبير حصل لهم الآداب
 الصالحة و صاروا حزب الله سائرين إلى الله ، ناظرين إلى جماله و كماله ؛ نازلين في
 منازل عزه و جلاله ألا إن حزب الله هم المفلحون (و كان يقول التفكر حياة

(١) يعني أن الشريعة الالهية النازلة بالوحي على الأنبياء عليهم السلام مطابق لما

ذكره الحكماء في تقسيم الحكمة العملية التي ما يتعلق بالإنسان وحده بينه و بين ربه، و

ما يتعلق بتدبير المنزل، و ما يتعلق بسياسة المدن. (ش)

قلب البصير) لما أشار عليه السلام إلى أن أثر العقل هو الوصول إلى غور الحكمة و
البلوغ إلى نهاية كمالها ، و أن أثر الحكمة هو الوصول إلى غور العقل والبلوغ
إلى غايته ، وأن أثر حسن السياسة هو التخلق بالآداب الصالحة والتجلي بالآخلاق
الفاضلة ، من البين أن الغرض الأصلي من هذه الآثار هو الوصول إلى قرب
الحق والنزول في ساحة عزه . وهناك اتحدت الغايتان و تقاربت المسافتان أشار
هنا إلى أن مبدأ تلك الآثار و منشأ هذه الأطوار هو تفكير قلب البصير ، الفهم
الذكي ، والتفكير هو حركة الذهن في مقدمات المطلوب و الانتقال عنها إليه و
القلب في عرف العارفين هي النفس الإنسانية . و استعار الحياة للتفكير إيضاحاً
للمقصود و تنزيلاً للمعقول بمنزلة المحسوس و تنبيهاً على أن الحيوان كما يتحرك
بحياة الأبدان في عالم المحسوسات إلى تحصيل مقاصده كذلك القلب بالتفكير
يتحرك في عالم المعقولات والمصنوعات لينتقل منها إلى عالم النظريات و عالم
التوحيد ليحصل له المطالب النظرية و معرفة الصانع و صفاته و أحوال المبدء و
المعاد أو على أن وجود الحيوان و بقاءه و كماله كما يكون بحياة الأبدان
كذلك وجود القلب و بقاءه و كماله في الدارين و سعادته في النشأين يكون بالتفكير
و إنما أضاف القلب إلى البصير ولم يقل حياة القلب لأن حياة القلب حقيقة عند
العامّة بحياة الجسد المعروفة و قد يراد بها معنى آخر مجازي و هو حيوته بالعلم
و الحكمة سواء كانت مع حياة الجسد أو لا فيكون ذكر البصير كالقرينة المبيّنة
لأرادته بتلك الحياة معناها المجازي و دلالة نسبتها إلى التفكير على ذلك لا ينافيه
ويحتمل أن يراد بالبصير البصير بذلك التفكير أو البصير بنور العلم أو الفهم الذكي وفيه
على الأخيرين تنبيه على أن التفكير مع وجود شيء من العلم أو مع وجود الفهم
والذكاء هو النافع في الوصول إلى غاية الحكمة و نهايتها و تحصيل المطالب
العالية والمقصود أن التفكير نور إلهي و روح رباني لقلب البصير الفهم الذكي
به يصير قلبه حياً عالماً عارفاً يلبس رداء الحياة و يستيقظ من نوم النسيان و سهو
الغفلات و يتخلص من فكرة الموت بأسقام الجهالات و يبتدي إلى وجوه المصالح

الدينيوية والأخروية وما يليق به من الكمالات العقلية والنقلية والمطالب العالية
و ينظر بعين اليقين إلى منزل التوحيد والمعارف الإلهية و ينتقل إليها من المبادي
الموصلة إليها فيسافر في ظلام بيداء الطبيعة البشرية إليها سريعاً و يمشي في ليالي
إيفاء العليق البدنية إليها حنيئاً و نور التفكير بين يديه و من خلفه و عن يمينه
و عن شماله يستضيء به حوله مع حزم واحتياط و حسن تخلّص و نجاة من الوقوع
في الباطل في مواضع يستزل فيها قدم الأفكار و يتوهم وجود قطاع الطريق من
الأشرار (كما يمشي العاشي في الظلمات بالنور) يعني أن الذي قلبه حي بنور
التفكير والعلم يمشي في المطالب التي هي صراط الحق و منازل العرفان في ضباب
الطبيعة و ظلمات الأبدان كما يمشي الإنسان في ظلمات الليالي بنور المشاعل
وضوء المصابيح و هذه استعارة على وجه التمثيل لتوضيح المقصود بنزول المعقول
منزلة المحسوس و متضمن لنشبيه الحركات الفكرية في مبادي المطلوب عند
الجهل به بمشي العاشي في الظلمات بالنور (بحسن التخلّص) الظرف إمّا متعلق
بيمشي أو بالتفكير أو بكليهما أو حال عن العاشي أو عن المتفكر أو عنهما أي
حال كون ذلك العاشي أو المتفكر متلبساً بحسن التخلّص والنجاة من مواضع
الخوف و موارد الباطل باستعمال التدبيرات اللازمة والآراء الصحيحة الراقية و
يحتمل أن يكون الظرف صفة لمفعول مطلق محذوف أي شيئاً أو تفكراً مقروناً
بحسن التخلّص.

(و قلّة التربّص) يعني قلّة التوقّف في الانتقال من المقدمات إلى
المطالب كما هو شأن الذكي الفهم و في سبيل المجاز في حال الجواز لأنّ
التوقّف والاستبطاء في وسط الصراط مع توهم الخوف بهجوم الأوباش واللئام و
زوال النور بصرصر الرياح و استيلاء الظلام بعيد عن الحزم و الاحتياط نعم ما
قيل : « من سلك سبيل الاحتياط فليس بناكب عن الصراط » هذا حال من تفكّر وأعان
لم يتفكر في دقائق المصنوعات وعجائب المخلوقات ولم ينتقل منها إلى مقام التوحيد و
صفات الصانع و كماله و كذا لم يتفكر في مبادي المطالب العالية والمقاصد النظرية

ولم يتجرّك إليها فهو مثل الحشرات لا يرى أنّ له وراء بدنه كمالات أخرى فكان أعظم محبوباً به بقاء جسده بهذه الحيوة الزائلة ، وأهمّ مهروباً به هو بقائها وموتها فهو - حيّ ظاهراً وميت باطناً و ماش في ظلمات شديدة بعضها فوق بعض ، حائراً وإيراً نائماً و هكذا حاله إلى أن يموت فإذا مات وقع في ظلمة دائمة وحسرة ثابتة وحشة باقية أبداً .

(هذا آخر كتاب العقل (١) والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وسلم)
اللهم اجعلنا من الذين تاهت أرواحهم في مطالعة الملك و الملكوت .
و كشفت لهم بنور العقل و الفهم حجب العظمة و الجبروت ، و خاضوا بغوص التفكير في بحر اليقين ، و تنزهوا بعلو الهمة في زهر رياض المتقين برحمتك يا أرحم الراحمين .



(١) انظر - وفقك الله لمرضاته - الى كثرة الاحاديث الواردة من طرقنا في العقل ومدحه مع تأييده بالقرآن الكريم ثم انظر الى كتب معدني اهل السنة والجماعة و نقدتهم فقد عدوا من الموضوعات جميع الاحاديث في العقل قال المقدسي في كتاب الموضوعات و منها احاديث العقل كلها كذب و أقول : العقل يدل على عدم جواز متابعة الفاضل للمفضول و العالم للجاهل و لعلمهم لذلك أنكروا صحة احاديث العقل ، و قلنا في غير هذا المقام ان رواية خلق العقل و أنه قال له : أقبل فاقبل الى آخره ، و اما ابو نعيم و الطبراني في المعجم الكبير و عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل في كتاب الزهد (ش)